



مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين

الجزء الأول



تأليف: بيني موريس
ترجمة: أ. د. عماد عواد



10

11

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

علم للعفت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود فؤاد زكريا (1927-2010)

مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الجزء الأول

تأليف: بيني موريس
ترجمة: أ. د. عماد عواد



نوفمبر 2013

406

هذا العدد ينشر بالتعاون
مع المركز القومي
لترجمة - مصر



علم العرف

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

المشرف العام

د. علي حسن الخويطر

مستشار التحرير

د. محمد عليم القريني
د. محمد كاسون العبدان

هيئة التحرير

أ. حاسم علقه المسعود

أ. خليل علي حيدر

د. عبدالله الحسني

د. علي زيد الزعبي

أ. د. فريدة محمد المروحي

د. فاهي سعود الزيد

مفكرة التحرير

غريفي عبدالحسين مطر

griw@kuwaitculture.org.kw

سكرتيرة التحرير

فايزة سعيد الصراف

المسما

أحمد مشاري العبدان

د. فهد زكي

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب. 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22431704 (965)
فاكس: 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنفيذ والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 402 - 3

رقم الإيداع (2013/542)

العنوان الأصلي للكتاب

The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited

By

Benny Morris

Cambridge University Press, UK 2004

All Rights Reserved. Authorized translation from the English language edition published by Cambridge University Press. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder, Cambridge University Press.

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ذو الحجة 1434 هـ - نوفمبر 2013

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

9 مقدمة للقارئ العربي

17 مقدمة للنسخة المنقحة

29 الفصل الأول:
خلفية تاريخية مختصرة

69 الفصل الثاني:
«الترانسفير» في التفكير
الصهيوني قبل 1948

101 الفصل الثالث:
الموجة الأولى: النزوح العربي
(ديسمبر 1947 - مارس 1948)

الفصل الرابع:

الموجة الثانية: النزوح العربي
(أبريل - يونيو 1948)

211

الهوامش

359

مقدمة للقارئ العربي

يسعدني أن أقدم للقارئ العربي هذه الترجمة
لكتاب «مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين:
نسخة منقحة» للكاتب الإسرائيلي بيني موريس،
وهو الكتاب الذي أثار وقت صدوره ضجة كبيرة
داخل إسرائيل، لما تضمنه من حقائق صدمت
العديد، أما فيما يخص القارئ العربي فإن هذا
العمل يكتسب أهمية بالغة لمجموعة من
الاعتبارات يأتي في مقدمتها موضوعه وانتماءات
كاتبه فضلا عما احتواه من مضمون.

الكتاب، كما يتضح من عنوانه، يتناول
إحدى القضايا المحورية في الصراع الفلسطيني -
الإسرائيلي، في دائرته الضيقة، والعربي - الإسرائيلي،
في نطاقه الأوسع، التي وقفت عقبة كاداء أمام
المساعي الرامية للوصول إلى تسويته بالطرق
السلمية، فعلى الرغم من أن قرار مجلس الأمن
رقم 242 لعام 1967 قد تضمن النص على «إيجاد

«أرجو أن يحظى (الكتاب)
باهتمام النخب السياسية في العالم
العربي، وأن يثير اهتمام الباحثين
العرب بشكل فردي أو جماعي...
لتقديم رواية موازية لما جرى من
أحداث على أرض فلسطين خلال
الفترة ذاتها، وتوضيح الأسباب
الكامنة وراء النزوح الجماعي
للفلسطينيين»

المترجم

تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين»، وأن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 191 أكد على حقهم في العودة أو التعويض، لم تتمكن الأطراف المعنية - خاصة الفلسطينية والإسرائيلية - خلال مفاوضاتها المتعاقبة، بدءا باتفاق أوسلو، ومرورا بقمة كامب ديفيد الثانية ومؤتمر أنابوليس، من التوصل إلى صيغة متفق عليها لتسوية هذا الملف، حيث تمسك كل طرف بموقف يتعارض مع طرح الطرف الآخر، فعلى حين رفض الموقف الإسرائيلي الرسمي فكرة العودة لأسباب أمنية وتاريخية، أصر الطرف الفلسطيني عليها باعتبارها «حقا»، وهنا تبرز أهمية الكتاب موضع الترجمة الذي يتناول نشأة هذه المشكلة، بما يعنيه ذلك من محاولة تحديد الطرف المسؤول عن نشأتها بعيدا عن المواقف الرسمية للأطراف، واستنادا إلى ما اطلع عليه من وثائق يهودية وإسرائيلية، خاصة في أرشيف الهاغاناه وجيش الدفاع الإسرائيلي الذي حل محلها منذ إعلان استقلال دولة إسرائيل في مايو 1948، وإذا كان المؤلف قد سعى إلى إلقاء الضوء - انطلاقا من قراءته للوثائق المتاحة - على الدوافع والأسباب الكامنة وراء ظهور مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، فإننا ننقلها إلى القارئ العربي تاركين له حرية تقييمها والحكم عليها بشكل موضوعي.

سطر صفحات هذا الكتاب الضخم، الواقع في ستمائة وأربعين صفحة، الكاتب الإسرائيلي بيني موريس الذي كان أول من أطلق مصطلح «المؤرخون الجدد» في العام 1988، ليعبر عن تيار فكري قاده عدد من المؤرخين الإسرائيليين سعى إلى إعادة كتابة التاريخ الإسرائيلي، وضم هذا التيار في صفوفه، إلى جانب موريس، شخصيات أخرى من قبيل: إيلان بابي وآفي شلايم، وشولومو ساند وغيرهم. وفي هذا السياق تحديدا تبرز الأهمية الخاصة للكتاب موضع الترجمة باعتباره يعبر عن مدرسة فكرية إسرائيلية جديدة من جانب، ويمثل محاولة لإعادة كتابة التاريخ فيما يتصل بقضية مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين من جانب آخر، بعيدا عن كل من الرؤيتين المتعارضتين الإسرائيلية والعربية.

في هذا الصدد، قد تكون من المفيد الإشارة إلى ما كتبه نيل كابلان^(*)، واصفا كتابات وأسلوب بني موريس، حيث قال: «إن دراساته المنشورة عن الموضوعات الصعبة تعكس التزاما مهنيا ونظاما صارما يسمي الأشياء بأسمائها، ولا يتردد في القيام بنقد لاذع

استنادا إلى قراءته، ونشير هنا إلى نتائج أبحاثه التي نُشرت العام 1988 حول طرد وهروب اللاجئين الفلسطينيين، والتي استند فيها أساسا على المصادر الأولية الصهيونية والإسرائيلية، وكان من شأن ذلك أن زلزل الأرض وفتح الأعين، وتلقى موريس كلا من المدح والنقد على عمله الذي تضمن العديد من الأحكام القاسية التي تحدث عددا من الأساطير لدى اليهود والإسرائيليين حول الخروج الطوعي المزعوم للفلسطينيين، وسلوك الميليشيا الصهيونية والمقاتلين الإسرائيليين خلال 1947 - 1949».

خلال قيامه بعرض نقدي لكتاب نشره زميل من «المؤرخين الجدد»، قدم بيني موريس وصفا للمعاناة التي يواجهها للالتزام بالموضوعية وتحديد آرائه الشخصية عند كتابته أبحاثه ودراساته، حيث كتب: «في حين أن المؤرخين - بوصفهم مواطنين لديهم وجهة نظرهم وأهدافهم السياسية - فإن عملهم الأكاديمي يتمثل في محاولة الوصول إلى الحقيقة حول الحدث أو العملية التاريخية لإلقاء الضوء على الماضي بموضوعية ودقة على قدر الإمكان، أعتقد أن هناك شيئا اسمه الحقيقة التاريخية توجد مستقلة عن الباحثين، ويمكن فصلها عن شخصيتهم، وأن واجب المؤرخ محاولة الوصول إليها باستخدام أكبر قدر من المصادر المتاحة، وعلى المؤرخ عند كتابته التاريخ أن يتجاهل السياسة المعاصرة، ويحدد توجهاته السياسية وميوله الشخصية، في الوقت الذي يسعى فيه إلى اختراق ظلمة الماضي».

لم يكن مضمون الكتاب موضع الترجمة جديدا بالنسبة إلى المؤلف، حيث سبق له أن أصدر النسخة الأولى منه العام 1988، ليخرج علينا بعد قرابة الخمسة عشر عاما بنسخة منقحة جاءت أكثر شمولية، سواء من حيث التفاصيل أو تداركها بعض النواقص أو تضمينها ردودا على عدد من الانتقادات التي تم توجيهها إلى النسخة الأولى، فضلا عن استعانتها بمواد أرشيفية جديدة دعمت من عرضه التاريخي، وأضفت عليه طابعا وثائقيا يسعى - على قدر الإمكان - إلى طرح صورة واضحة لمجريات الأحداث في بقاع فلسطين المختلفة وتطورات الصراع على أراضيها والأسباب التي دفعت «عرب فلسطين» إلى الفرار أو النزوح الجماعي خلال الفترة الممتدة من الربع الأخير للعام 1947 وحتى ما بعد إعلان قيام دولة إسرائيل، كذلك حملت النسخة المنقحة في طياتها تفاصيل جديدة كشفت عنها الوثائق التي تم رفع درجة السرية عنها في الفترة التي تلت صدور النسخة الأولى، مما مكن المؤلف من تقديم صورة أشمل للتطورات الميدانية في مختلف

الجبهات، وعرضا مفصلا للطرق المختلفة التي تعاملت بها قوات الهاغاناه وغيرها من التنظيمات المسلحة (خاصة الإرغون وشترن) مع «العرب الفلسطينيين».

وفرت النسخة المنقحة فرصة للمؤلف للرد على العديد من الانتقادات التي تعرض لها بعد صدور النسخة الأولى لكتابه، سواء فيما يتصل بعدم تناوله لـ «الفظائع» التي ارتكبتها العرب ضد اليهود في فلسطين، أو اقتصاره على سرد تلك التي اقترفها اليهود - خاصة في دير ياسين - وما كان لها من أثر كبير في الإسراع بوتيرة النزوح الجماعي الفلسطيني لما مثلته من هاجس أمني وما حملته في طياتها من مخاوف من تكرار ارتكاب الفظائع ضد المدنيين في أماكن أخرى حال استمرارهم في البقاء. كذلك قدمت النسخة المنقحة مجالا أسهب من خلاله الكاتب في عرضه لفكرة «الترانسفير» (المقصود «النقل» أو «التهجير القسري»)، حيث تتبع جذور هذه الفكرة في الأيديولوجية الصهيونية، وعلى الرغم من تأكيده على أن اليسوف (الجماعة اليهودية في فلسطين) لم يدخل الحرب بخطة ممنهجة لتحقيق «الترانسفير»، فإنه ذكر أن الفكرة كانت حاضرة في ذهن الجميع سواء على مستوى القيادة السياسية أو العسكرية، وأن الجميع كان مقتنعا بمقولة أن إسرائيل بأقلية عربية ضئيلة ستكون أفضل حالا منها بأقلية كبيرة أو أكثرية عربية.

خلال استعراض القارئ العربي فصول هذا الكتاب وغوصه في تفاصيلها ستتكشف أمام عينيه مجموعة من النقاط الإضافية التي تضاعف من أهميته في تقديم فهم أكثر عمقا لحقيقة ما حدث، ولعل من بين أبرز هذه النقاط ما يلي:

1 - يعيد الكتاب إلى الأذهان أسماء قرى فلسطينية تلاشت من الذاكرة إثر تسويتها بالأرض على يد القوات الإسرائيلية، ثم بناء مستوطنات جديدة امتلأت بالمهاجرين اليهود الذين تدفقوا على «أرض الأجداد» على مر العقود.

2 - يبرز الكتاب كيفية تعامل كل من الطرفين العربي واليهودي مع أحداث مهمة في تاريخ المواجهات على الأراضي الفلسطينية ومحطات تاريخية مهمة من قبيل النزوح الجماعي من يافا وحيفا واللد والرملة والأسباب التي وقفت وراء سقوط القرى والمدن الواحدة تلو الأخرى كقطع «الدومينو».

3 - يكشف الكتاب - من خلال الوثائق اليهودية والإسرائيلية - عن كيفية تعاطي كل من القيادة السياسية والعسكرية اليهودية مع ظاهرة الفرار والنزوح

الجماعي الفلسطيني، سواء من خلال تشجيعها أو السعي إلى الإسراع من حدوثها باستخدام وسائل الضغط النفسي على المناطق المقرر اجتياحها، وفي هذا الخصوص يجدر التركيز على ما أظهره المؤلف من وجود درجة من درجات الغموض المتعمد أو الإغفال في الوثائق الرسمية حول كيفية التعامل مع المدنيين في المناطق التي يتم الاستيلاء عليها.

4 - انطلاقاً من الوثائق الرسمية، يركز المؤلف الضوء على بعض الفظائع التي ارتكبتها التشكيلات العسكرية اليهودية منذ شهر نوفمبر 1947، ويوضح كيفية تعامل القيادة السياسية والعسكرية مع مرتكبي مثل هذه الفظائع، الذين ظلوا بعيداً عن طائلة العقاب الرادع الذي يتناسب مع ما أقدموا عليه من أفعال، مما يعكس درجة من درجات الموافقة الضمنية على اقتراف هذه الأفعال بهدف الوصول إلى تحقيق هدف «الدولة اليهودية» أو الدولة الإسرائيلية التي تتضمن أقل عدد من العرب الفلسطينيين.

5 - يتكشف من خلال سطور الكتاب الدور الذي مارسه العديد من الشخصيات اليهودية المدنية والعسكرية في الضغط من أجل «تطهير» قرى ومدن من سكانها الأصليين، وإحلال مهاجرين يهود قادمين من أوروبا الشرقية محلهم، وتتركز الأضواء بشكل صارخ على شخصية يوسف ويتز - مسؤول صندوق التمويل الوطني اليهودي - الذي ترك بصمات واضحة سواء في ملف شراء الأراضي الفلسطينية، أو في تشكيل لجنة لـ «الترانسفير» التي قامت بالفعل بممارسة عملها على أرض الواقع سواء بطرد السكان أو هدم القرى المهجورة من دون أن تكون في حوزته موافقة مكتوبة من رئيس الحكومة آنذاك ديفيد بن غوريون.

6 - يفرد المؤلف فصلاً كاملاً لعرض الجهود التي بُذلت خلال العام 1949 لحل مشكلة اللاجئين من خلال مؤتمر لوزان، وتكشف سطور هذا الفصل عن طريقة التفكير الإسرائيلية في التعامل مع هذا الملف ومحاولتها استثماره آنذاك، كما يخصص المؤلف ملحفاً يتناول فيه خلاف الطرفين حول تحديد عدد اللاجئين آنذاك والدوافع وراء ذلك، ولعلنا نجد في هذا مؤشراً ظهر بشكل مبكر حول مدى صعوبة التعامل مع الملف وتعقيداته خاصة بعد مرور عقود، ارتفع

خلالها عدد اللاجئين ليصل إلى الملايين بدلا من مئات الألوف في وقت تلاشت فيه الديار في قرى الأجداد والآباء لتحل محلها مستوطنات يهودية تقطنها أجيال مختلفة من اليهود.

أخيرا، فإنني إذ أشرف بتقديم هذا الكتاب المهم للقارئ العربي لأرجو أن يحظى باهتمام النخب السياسية في العالم العربي، وأن يثير اهتمام الباحثين العرب بشكل فردي أو جماعي - تحت مظلة جامعة الدول العربية - لتقديم رواية موازية لما جرى من أحداث على أرض فلسطين خلال الفترة ذاتها وتوضيح الأسباب الكامنة وراء النزوح الجماعي للفلسطينيين، استنادا إلى الوثائق المتناثرة في الدول العربية المعنية، فضلا عن تلك التي قد تكون في حوزة السلطات الفلسطينية ومراكز الأبحاث العربية، خاصة أن مؤلف الكتاب حرص في مقدمته على التركيز على الافتقار إلى دراسة عربية شاملة - تستند إلى الوثائق - تتناول هذا الملف بشكل موضوعي. وإذا كان بعض المفكرين العرب قد رأوا في بروز المؤرخين الجدد في إسرائيل اعترافا متأخرا بعدم إمكانية الدفاع عن «التاريخ الرسمي القديم والمشوه» للصهيونية وإسرائيل، وبرهانا على صحة حقيقة روايتهم كضحية على يد الاستعمار الصهيوني^(*)، فإن الأمر قد يتطلب بذل الجهد لتقديم الرواية العربية الصحيحة من دون أن ننتظر أن يتقدم الآخر بالتصحيح الذي قد يكون منقوصا أو لا يعكس بدقة حقيقة ما جرى، فضلا عن أن مواقف الأشخاص قد تتبدل وتتغير من آن إلى آخر حتى إن تعلق الأمر بمؤرخين جدد.

عماد عواد

(*) على سبيل المثال كتب الشاعر الفلسطيني زكريا محمد: «إن الحاجة إلى مؤرخين إسرائيليين جدد نبعت من وجود تاريخ لا يمكن أن يقف أمام النقد الجاد. وبعد كل شيء... من هو المؤرخ الجاد الذي يمكنه أن يصف الحركة الصهيونية بأنها حركة تحرر وطني؟ الفلسطينيون يرون المؤرخ الإسرائيلي الجديد كنادم وتائب أكثر مما هو مؤرخ جديد، فالتاريخ الذي يقدمه ليس إلا اعترافا أمام كاهن التاريخ، هذا اعتراف بالذنب وليس أكثر، وعلى الجانب الآخر، فإن المؤرخ الفلسطيني لا يمكن أن يكون نادما لأنه ليس لديه ما يعترف به لكاهن التاريخ» [المترجم].

شكر وتقدير

كُتبت النسخة الأصلية لهذا الكتاب في الفترة من 1982 إلى 1986، واقتصر الدعم المالي المخصص لها آنذاك على ما حصلت عليه من المركز البريطاني، فقد ساعدتني المنحة التي تلقيتها منه على القيام بالبحث في الأرشيف البريطاني، وفي مرحلة لاحقة تمكنت من إلقاء محاضرة في إطار حلقة نقاشية حول مشكلة اللاجئين في جامعة أكسفورد، ومن ثم أتوجه بالشكر لكل من المركز والجامعة على ذلك، كذلك أتوجه بشكري إلى كل من روبرت أوين الذي كان آنذاك زميل كلية سانت أنطونيو في أكسفورد، الذي يشغل حالياً منصب أستاذ التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط بجامعة هارفارد، والأستاذ يهشوا بورات، مؤرخ الشرق الأوسط والأستاذ الفخري بالجامعة العبرية في القدس، على تعاطفهما ومساعدتهما طوال فكرة إعداد هذا الكتاب؛ حيث أدين لهما بدين

كبير، كذلك فإن عضويتي كمشارك رفيع في كلية سانت أنتوني - والتي حصلت عليها بمساعدة البروفسور أوين والحاصلين على الزمالة في الكلية - سهلت مهمتي البحثية. وأود أن أشير إلى أنني كثيرا ما لاحقت الراحل ياكوف شاموني - خبير قضايا الشرق الأوسط والمسؤول في وزارة الخارجية الإسرائيلية - باستفساراتي، مما يتطلب توجيه شكر خاص له على ما أبداه من صبر وقدمه من عون. فضلا عما تقدم أود أن أتوجه بالشكر إلى البروفيسور ياؤوف غلبير بجامعة حيفا الذي لم يبخل علي بوقته ومعرفته. منذ العام 1997 أعمل عضوا بهيئة تدريس في جامعة بن غوريون في بيرشافا (بئر السبع) بإسرائيل، حيث استمتعت على مدار أعوام طويلة بصداقة ومساعدة البروفسور جيمي وينبلات، العميد السابق لكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية الذي يشغل حاليا منصب رئيس الجامعة، وهو الشخص الذي أشعر تجاهه بدين كبير، وينطبق الشيء نفسه على صديقي جيف أبل، الذي ساعدني إلى أقصى مدى على مدار سنوات طويلة فيما يتصل بالأساليب الخاصة باستخدام الحاسب وغيرها للانتهاء من عمل هذا الكتاب. لا يفوتني كذلك أن أشكر العاملين في أقسام الأرشفة المختلفة الذين لجأت إليهم في أوقات عديدة خلال عملية إعداد النسخة الأولى من هذا الكتاب فضلا عن النسخة المعدلة للحصول على المعلومات، ويشمل ذلك كلا من: يهشوا فريتدليش ويميما روزنتال في أرشيف دولة إسرائيل؛ ودورون أفياد في أرشيف وزارة الدفاع؛ والعاملين في أرشيف الهاغاناه؛ ومكتب السجلات العامة؛ والأرشفة الوطني للولايات المتحدة، وأرشفة الأمم المتحدة، وأرشفة مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني بأكسفورد؛ والأرشفة المركزي الصهيوني؛ وأرشفة هاشومير؛ وأرشفة هاشومير هتزازير؛ وأرشفة كيبوتز عين هارود، وأرشفة حزب العمل، وأرشفة الهستدروت، وأرشفة معهد جابوتنسكي، وأرشفة ديفيد بن غوريون، وأرشفة بلدية كل من حيفا وطبريا؛ والأرشفات الخاصة بعدد من تجمعات الكيبوتسات خاصة مشمار هعيمك وهازور ومعنيت. وبالتأكيد فإن ديني الأكبر هو لأسرتي - زوجتي ليا، وأطفالي إيريل وياغي وأوران، الذين تحملوا التزامي عبر سنوات بالانتهاء من إعداد كل من النسختين الأصلية والمنقحة من هذا العمل.

مقدمة للنسخة المنقحة

في عام 1988 نُشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، الذي سعى إلى وصف ميلاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، التي كانت بالتوازي مع قيام دولة إسرائيل، النتيجة السياسية الرئيسية لحرب عام 1948. وقد بحثت الدراسة في كيفية وأسباب قيام ما يقارب من ستمائة ألف إلى سبعمائة وستين ألف فلسطيني بترك ديارهم والانتقال إلى مناطق أخرى من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة) أو خارجها وبشكل أساسي في الأردن، وسورية، ولبنان⁽¹⁾. ويوجد اليوم على كشوف الأمم المتحدة ما يقارب أربعة ملايين لاجئ فلسطيني (يلاحظ أن السلطة الفلسطينية تحدد العدد بخمسة ملايين)، يعيش ما يقارب الثلث فيما يطلق عليه «مخيمات» اللاجئين، والتي هي في واقع الأمر

«لم أبدأ هذا البحث بناءً على التزام أيديولوجي أو اهتمام سياسي، بل سعيت ببساطة إلى معرفة ما حدث»

المؤلف

أجزاء مبنية في ضواحي المدن (من قبيل نابلس، غزة، رام الله، بيروت، دمشق، عمان... الخ).

بشكل مثير للاستغراب لم ينتج إلا عدد قليل جدا من الدراسات التاريخية حول هذا الموضوع سواء خلال العقود الأربعة التي سبقت إصدار النسخة الأصلية لهذا الكتاب أو حتى بعد صدورهما، حول كيفية وأسباب تحول هؤلاء الفلسطينيين إلى لاجئين؛ ففي أعقاب عام 1948 مباشرة تم نشر التأريخ للأحداث بواسطة قبل المبعدين الفلسطينيين، ومن بينهم عارف العارف («النكبة: 1947-1952»)⁽²⁾ والحاج محمد نمر الخطيب («من آثار النكبة»)⁽³⁾، وبعد مرور ما يقرب من عقد من الحرب، نشر الباحث الفلسطيني وليد الخالدي دراستين أكاديميتين: «سقوط حيفا»⁽⁴⁾، و«لماذا غادر الفلسطينيون؟»⁽⁵⁾، مما ألقى ضوءا جديدا على بعض جوانب الموضوع. وتعد رسالة الدكتوراه التي أعدها الباحث الإسرائيلي روني غاباي تحت عنوان: «دراسة سياسية للصراع العربي- اليهودي: دراسة حالة مشكلة اللاجئين»⁽⁶⁾، التي تم نشرها عام 1959 أول ورقة بحثية رئيسية حول أصل مشكلة اللاجئين اعتمدت على وثائق الأمم المتحدة المتاحة والصحف. وبعد مرور عقدين على ذلك، نشر الباحث الفلسطيني نافذ نزال دراسته تحت عنوان: «النزوح الجماعي الفلسطيني من الجليل 1948»⁽⁷⁾، التي اعتمدت بشكل شبه كامل على مقابلات أجريت بداية السبعينيات في مخيمات اللاجئين بمنطقة بيروت، وبعد مرور عدة سنوات قام الباحث الإسرائيلي باروخ كيميرلنغ بنشر مؤلف بعنوان «الصهيونية والأرض: الأبعاد النفسية المتصلة بالأرض في السياسات الصهيونية»⁽⁸⁾، الذي ساهم في فهم ماذا حدث.

على مر العقود التي أعقبت عام 1948 نشر عدد من الإسرائيليين والفلسطينيين دراسات وقصصا جادة ألقت الضوء على هذا النزوح الجماعي استناداً إلى تجميع شخصي للوقائع وتحليل موضوعي، ومن أبرزها ما نشره إبراهيم كليمان تحت عنوان: «كربت كيزا وذكريات أخرى غير سارة»⁽⁹⁾، وأس ايزهار («قصة كربت كيزا»)⁽¹⁰⁾، وإلياس شوفاني («سقوط قرية»)⁽¹¹⁾، إلا أنها عانت جميعا من نقص نسبي في المعلومات المستقاة من الأرشيف. وفي الأعوام الأخيرة قام عدد من الباحثين الإسرائيليين الشباب بإعداد رسائل ماجستير ودكتوراه ونشر مقالات

حول الهجرة الجماعية في مناطق محددة من فلسطين، وقام ياؤوف غيلبر بنشر مؤلف تحت عنوان «فلسطين 1948: حرب، هروب، ونشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين»⁽¹²⁾، يعالج في جزء منه المشكلة محل النقاش في هذا الكتاب. إن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وتداعياتها قد هزت منطقة الشرق الأوسط وأزعجت العالم لأكثر من خمسة عقود، كما أن أعمال العصابات والغارات التي تمت داخل إسرائيل من قبل هؤلاء اللاجئين ساعدت على إشعال فتيل ثلاث حروب عربية - إسرائيلية تقليدية على الأقل (أعوام 1956، و1967، و1982)، كذلك فإن الإرهاب الفلسطيني، خاصة الاعتداء على ركاب الخطوط الجوية أو اختطاف الطائرات خلال فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، أفضى إلى حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار في العالم أجمع، وأخيرا - منذ عام 2000 - ابتلع التمرد الفلسطيني (الانتفاضة الثانية) والذي تمت تغذيته بشكل كبير من مخيمات اللاجئين، عملية السلام العربية - الإسرائيلية وأدى إلى زعزعة الاستقرار في الشرق الأوسط.

اتضح محورية مشكلة اللاجئين الفلسطينيين في الصراع خلال المفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية - الأمريكية التي جرت في الفترة من يوليو 2000 حتى يناير 2001 (خلال قمة كامب ديفيد وما أعقبها)؛ حيث برزت قضية اللاجئين باعتبارها أكثر القضايا أهمية وصعوبة في التناول؛ ففي حين أكد العرب على حقهم في «العودة» إلى ديارهم وأراضيهم الذين فقدوها، رفضت إسرائيل هذا المطلب معللة موقفها بأن تطبيق ذلك سيؤدي إلى زوال الدولة اليهودية، ومنذ ذلك الحين أضحى السؤال حول سبب تحويل مئات الآلاف من الفلسطينيين إلى لاجئين عام 1948 موضوعاً رئيسياً للدعاية من جانب كل من إسرائيل والدول العربية، وتمثلت الشكوى العربية بشكل عام في أن اليهود أقدموا على طرد الفلسطينيين بتعمد وتخطيط مسبق، وهو ما تم توظيفه - كجزء من مخطط سياسي - عسكري ممنهج - لتأكيد التصوير العربي لإسرائيل باعتبارها دولة سارقة شريرة لا أخلاق لها، وفي المقابل فإن الرواية الإسرائيلية الرسمية القائلة إن الفلسطينيين قد فروا «طواعية» (بمعنى أن فرارهم لم يأت نتيجة لإكراه مارسه اليهود) أو أنه قد طلب إليهم أو تم توجيه الأوامر إليهم بالفرار سواء من

قبل قادتهم أو قادة الدول العربية، قد ساعدت في الحفاظ على صورة الدولة اليهودية سليمة كملاذ للشعب الأكثر تعرضا للاضطهاد في العالم، وأمة أكثر عدلاً تستحق التعاطف والمساندة من الغرب أكثر من البحر المحيط بها من مجتمعات عربية رجعية، شبه إقطاعية وديكتاتورية.

أثار نشر الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام 1988 الكثير من الغضب والجدل؛ وبدأت النتائج التي توصلت إليها أنها لا ترضي أحداً (باستثناء القليلين الذين يحبون تاريخهم معقداً ودقيقاً)، ولم يذهب الكتاب إلى تبني أي من الرواية الرسمية الفلسطينية أو الإسرائيلية، بل إنه كان يميل حقاً إلى أن يقوض كليهما. لقد تم الحط من قدري من خلال أوصاف من قبيل «رجل دعاية لمنظمة التحرير الفلسطينية» أو «رجل دعاية صهيوني معقد»، كما أنه، وفي حالات قليلة، استخدم وصف «مؤرخ سيئ».

لم أبدأ هذا البحث بناء على التزام إيديولوجي أو اهتمام سياسي؛ بل سعت ببساطة إلى معرفة ما حدث، وغالباً ما يجد الصحفي نفسه مدفوعاً لتأليف كتاب في مرحلة معينة من عمله المهني، ومن جانبي كنت قد قررت أن أكتب عن تاريخ بالماخ، القوة الضاربة للهاغاناه التي كانت القوة الرئيسية للمجتمع اليهودي في فلسطين، وفي مرحلة لاحقة لجيش الدفاع الإسرائيلي في عام 1948. كنت على الدوام راغباً في الكتابة عن التاريخ العسكري الذي لم يكتب شيء جاد بخصوصه، وفي نهاية عام 1982 حصلت من قبل مؤسسة قدامى محاربي بالماخ (دور هابالما) على ميزة الاطلاع على الوثائق كانت لا تزال سرية عن مركز قيادة الهاغاناه، إلا أنه بعد مرور شهور قليلة - وربما بسبب الشعور بالخوف من أن يؤدي ذلك إلى مشاكل - تم وضع نهاية لهذا التصريح بشكل فجائي، وعلمت أنني لن أتمكن من كتابة التاريخ على النحو الذي كنت أخطط له، ومع ذلك فإنني كنت قد قرأت مجموعة من المستندات - حملت في أغلبها تصنيف «سري للغاية» - ألقت الضوء على نشأة قضية اللاجئين، وهو ما ولد الشعور لدي بأنه قد يكون من الممكن كتابة شيء جيد حول هذا الموضوع. ومن المصادفات الكاشفة في هذا الخصوص أن اهتمامي بالملف كان قد بدأ يتعاضد قبل ذلك بأسابيع قليلة حينما تم إفادي مراسلا لتغطية الغزو

والاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. فهناك - في شهر يونيو 1982 - بين حطام مخيم الرشيدية للاجئين خارج بلدة صور، كانت المرة الأولى التي ألتقي وأتجاوز فيها مع لاجئين قادمين أصلاً من منطقة البصة في الجليل.

وكما هي الحال بالنسبة إلى الجنرالات، فإن المؤرخين يحتاجون إلى الحظ، وقد كان عام 1982 محورياً فيما يتصل بالأرشيف الإسرائيلي؛ حيث بدأت الحكومة في كشف كميات كبيرة من مستندات عام 1948 المتاحة في أرشيف دولة إسرائيل، وبالتزامن مع ذلك، بدأت أرشيفات الأحزاب والمحليات في تنظيم وإتاحة العديد من المستندات، وكان من شأن إضافة كل ذلك إلى ما تمكنت من الاطلاع عليه في أرشيف بالمخ، أن أصبح متوافراً لدي أساس صلب من المستندات يمكن معه كتابة دراسة متأنية.

بالرغم من ذلك، مثلت الوثائق العربية مشكلة رئيسية، فليسوء الحظ فشل الفلسطينيون في تقديم والحفاظ على "مستندات دولة" عن الفترة من 1947 حتى 1949، وفيما يتصل بالدول العربية، التي خضعت جميعها بشكل أو آخر من أشكال الديكتاتوريات (سواء كان ذلك في شكل حكم عسكري أو ملكيات مطلقة أو غيرها)، فقد منعت واستمرت في منع الوصول إلى مستنداتهم منذ حرب عام 1948، والتي اعتبروها، ولا يزالون، كارثة مهينة. وخلال البحث والكتابة قمت ببذل قصارى جهدي لإيضاح هذه «المنطقة الغامضة» من خلال غربة وتنقية وثائق الاستخبارات اليهودية أو الإسرائيلية وكذلك المراسلات الدبلوماسية البريطانية والأمريكية التي اتصلت بالعالم العربي، وعلى وجه التحديد بمشكلة اللاجئين الناشئة، فمصادر الدبلوماسيين وأجهزة الاستخبارات مكنت إلى حد ما من ملء الفراغ في فهم ما كان يحدث بالميدان في قرى ومدن فلسطين عام 1948، وإن كانت أقل فائدة فيما يتصل باتخاذ القرارات السياسية في العواصم ومقار القيادة العسكرية العربية. وبالنظر إلى الفوضى والتخبط والغياب العام لسياسة واضحة في تلك العواصم فيما يتصل بالمشكلة الناشئة خلال الفترة من نوفمبر 1947 حتى يونيو 1948، فإن هذه الندرة في المعلومات كانت أقل أهمية مما بدت عليه في البداية، فكما ثبت في النهاية، لم تكن هناك إلا صلة ضئيلة بين ما كان يناقش واتخاذ القرارات بصدده من قبل القادة العرب داخل أو خارج فلسطين، وما كان يحدث بالفعل في الميدان.

استعانت الدراسة كذلك باليوميات والمذكرات والكتب العربية التي استندت إلى مقابلات، رغبة مني في استكمال الصورة. وقد أنبني عدد من المستشرقين الاسرائيليين، (وليس العرب أنفسهم بشكل يثير الاستغراب)، على فشل كتابي في تنقية وغرلة الذكريات العربية بشكل أكثر شمولاً، وفي المقابل فإن أحداً لم يكن في استطاعته إظهار إلى أي مدى كان لاستخدام هذه المواد المهمة حتى ذلك الوقت أن يساعد بشكل جوهري، أو هامشي، في تغيير أو تدعيم الصورة التي تمكنت من رسمها استناداً إلى الوثائق الإسرائيلية والغربية.

بعد تفكير متأن أمسكت تقريباً بشكل تام عن استخدام أسلوب المقابلات والحوارات، سواء مع اليهود أو العرب، كمصادر للمعلومات الملموسة، فخبرتي القصيرة في هذا المجال أقنعتني بأنه من غير المرغوب فيه الاعتماد على الذاكرة البشرية لإلقاء المزيد من الضوء على الحدث بعد انقضاء ما بين أربعين إلى خمسين عاماً على وقوعه. ولقد جاء العامل الحاسم في هذا الصدد حينما توجهت بالسؤال إلى يغائيل يادين (الأستاذ الشهير في مجال الآثار الذي خدم في العام 1948 كرئيس عمليات جيش دفاع الهاغاناه، وغالباً كرئيس للأركان كأمر واقع) حول طرد العرب من مدن اللد والرملة (والذي مثل أكبر حالات الطرد خلال الحرب)، فكان رده بالتساؤل: أي طرد؟! وعلى الرغم من أنه لم يُنكر حدوث عملية طرد، فإنه ذكر ببساطة أنه لا يستطيع أن يتذكر.

في المقابل، آمنت بقيمة الوثائق، فبالرغم من أن الوثائق المعاصرة ربما قد تعطي معلومات مُضللة أو تتضمن تحريفاً أو حذفاً أو كذباً، فإنها، وفقاً لخبرتي المحدودة، أقل بكثير في هذا المجال من اللقاءات والحوارات التي تدور حول موضوعات خلافية ترجع إلى أربعين أو خمسين عاماً، فقد أظهرت هذه الخبرة القصيرة في اللقاءات فجوات ضخمة بالذاكرة ووجود ثوابت وانتماءات إيديولوجية وأجندات سياسية، ولقد وجدت أن اللجوء إلى اللقاءات من وقت لآخر يمكن أن يساعد على إضفاء «لون» وفي رسم صورة للظروف والمشاعر السائدة، ولكن ليس لإيضاح «الحقائق».

إن قيمة الشهادات الشفهية حول العام 1948 قد تلاشت بعد مرور عشرين عاماً على بدايتي في البحث حول مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين؛ حيث

بهتت الذكريات الماضية أكثر واكتسبت ذكريات جديدة ومنطلقات إيديولوجية وطمغت الأجندات السياسية، ولم تقدم الانتفاضات والانتفاضات المضادة شيئاً في مجال إنقاذ الحقيقة التاريخية.

كان من أسباب سعادتي ما أسفرت عنه سياسات الأرشيف الإسرائيلي من إزالة صفة السرية عن كميات ضخمة من المواد الأرشيفية التي كانت محظورة وقت كتابتي للنسخة الأولى من هذه الدراسة، وعلى وجه التحديد أتيحت أغلبية اتفاقيات المجلس الوزاري عن الفترة من 1948 إلى 1949، كذلك رفعت وزارة الدفاع الإسرائيلية الحظر عن مئات الآلاف من الوثائق الخاصة بقوة الدفاع الإسرائيلية وأرشيف الهاغاناه، وكان كلاهما محظوراً على أي شخص لا يعمل في وزارة الدفاع، الأمر الذي كان بمنزلة هدية كبيرة للمؤرخين. وفي حين استمر أرشيف قوات الدفاع الإسرائيلية وأرشيف دولة إسرائيل في إبقاء السرية على عدد من الوثائق الحساسة، تم رفع السرية عن الكثير من الوثائق التي أصبحت متاحة أخيراً، (بما في ذلك الكثير، إن لم يكن أغلب وثائق عمليات قوات الدفاع الإسرائيلية والاستخبارات منذ العام 1948) بشكل يكفل تقديم نظرة جديدة على الأوضاع التي ولدت مشكلة اللاجئين.

لا يساورني شك في أن رفع السرية المحتمل عن الوثائق التي مازالت محظورة أو تم تصنيفها على أنها "سرية" حديثاً من قبل المسؤولين في وزارة الدفاع، وكذلك الوثائق التي مازالت تقبع في مخازن أرشيف الاستخبارات الإسرائيلية في غليلوت، سيسفر عن المزيد من الاكتشافات والتعمق، وبالرغم من ذلك فإن الكثير الذي أتاحتها سمح بتكوين فكرة جيدة عما حدث؛ حيث إن الوثائق التي تم توفيرها مؤخراً تساعد على إيضاح الصورة والفهم لما وقع في أجزاء مختلفة من فلسطين خلال العام 1948 - وما حدث أسبوعاً تلو آخر، وشهراً تلو آخر في يافا وحيفا والقدس، وكذلك في المناطق الريفية؛ ومن جانب آخر (وهو ما يمثل مفارقة لا تتماشى مع مواقف رجال الدعاية الإسرائيليين والفلسطينيين على السواء أو المؤرخين الذين يميلون إلى القطع في الأمور)، فإن هذه الوثائق تعزز بشكل جوهري كلا من المسؤولية الإسرائيلية والفلسطينية في خلق مشكلة اللاجئين، فالوثائق الجديدة تكشف عن أنه كان هناك المزيد من عمليات الطرد

والفظاعات ارتكبتها القوات الإسرائيلية أكثر مما تم رصده في النسخة الأولى لهذا الكتاب، وفي الوقت ذاته كان هناك المزيد من الأوامر والتوجيهات تم نقلها إلى المناطق المختلفة من قبل الرسميين العرب والضباط لمغادرة قراهم أو على الأقل إبعاد النساء والأطفال والشيوخ، الأمر الذي أشعل الرحيل الجماعي، وقد قمت بإضافة العديد من الفقرات في هذا الخصوص استناداً إلى المصادر الجديدة في هذه النسخة المنقحة.

يتمثل التجديد الآخر في هذه النسخة، في إضافة فصل جديد عن الفكر الصهيوني المتصل بما يطلق عليه "الهجرة القسرية" أو الترانسفير Transfer - أي الاتفاق المتبادل للانتقال المنظم الذي يتم التعويض عنه، أو الطرد من جانب واحد للمجتمعات العربية خارج فلسطين - وهو الموضوع الذي تم تناوله فقط في أربع صفحات بالنسخة الأولى التي نُشرت في العام 1988. ولقد توصلت إلى نتيجة مفادها أنه طوال فترة التدخل فإن فكرة «الترانسفير» السابقة للعام 1948 كان لها تأثير أكبر على ما حدث في عام 1948 مما سبق أن عرضته في النسخة الأولى، وبالتالي فإنها تستحق معالجة أكثر عمقا ومساحة أكبر من الشرح. وفضلا عن ذلك فإن النقد الذي تعرضت له طريقة معالجاتي لهذه النقطة في النسخة الأولى، من قبل كل من الباحثين العرب واليهود، شكل سببا إضافيا لهذه المعالجة الجديدة؛ فعلى سبيل المثال ذهب المؤرخ العربي نور مصالحة⁽¹³⁾ إلى القول إن التفكير المتصل بـ «الترانسفير» مثل أحد أسس الإيديولوجية الصهيونية وكان بمنزلة خطة رئيسية تم تطبيقها بشكل منهجي عام 1948؛ وكان مصالحة تواقاً لأن يُثبت أن الصهيونية أيديولوجية تقوم على اللصوصية والسرقة، وأن إسرائيل في أساس تكوينها هي دولة سارقة توسعية. وعلى الجانب الإسرائيلي، ذهب كل من شابتاي تيفث⁽¹⁴⁾ (الذي كتب السيرة الذاتية لبن غوريون) وأنيتا شابير⁽¹⁵⁾ (مؤرخة للصهيونية)، إلى أن القيادة الصهيونية، بمن في ذلك بن غوريون، لم تتقبل أبدا فكرة «الترانسفير»، ولم تأخذها إطلاقا على محمل الجد، ومن ثم فإنه لم تكن هناك أي علاقة بين الترويج بين الفينة والأخرى لهذه الفكرة خلال الثلاثينيات والأربعينيات وما حدث للفلسطينيين منذ 1947 حتى 1949، وقد كان كل من الكاتبين مدفوعا بالرغبة في تبرئة إسرائيل من الاتهام بتعمد ما أصاب عرب فلسطين.

وكما سيلاحظ قراء الفصل الجديد، فإن الدليل على وجود تأييد صهيوني قبيل العام 1948 لفكرة «الترانسفير» واضح، لكن الصلة بين هذا التأييد وما حدث بالفعل خلال الحرب أكثر ضآلة مما تقدمه الدعاية العربية.

لقد حرصت خلال مراجعتي للنسخة الأصلية على إضافة النظريات المتروية والأدلة التي قام بنشرها عدد من المؤرخين الإسرائيليين خلال الخمسة عشر عاما الماضية، ولسوء الحظ فإنه لا توجد دراسة تاريخية ذات شأن قام فلسطينيون بتقديمها، بالمقارنة، على سبيل المثال، بتلك التي أعدها يوري ميلستين أو ياؤوف غيلبر، وذلك بالرغم من أنني أشرت من وقت لآخر إلى «سلسلة القرية» التي أصدرتها جامعة بيرزيت خلال العقدين الأخيرين، والتي تتصل أساسا بعلم أصول الجنس البشري.

حدث النزوح الجماعي من المناطق التي أضحت الدولة اليهودية في نهاية حرب استمرت على مدار عشرين شهراً منذ نهاية نوفمبر 1947 حتى يوليو 1949، فضلا عن العديد من الأحداث المتصلة بها خلال الشهور والأعوام التالية عليها. وجرى هذا النزوح في خضم حرب وفي ظروف اختلفت بشكل جذري بمناطق متعددة من البلاد، فهجرة الأغنياء من يافا وحيفا خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 اختلفت تماما عن الفرار الكثيف من المناطق الحضرية في شهر إبريل وبداية شهر مايو، كذلك فإن الفرار الذي شمل شرائح متعددة من يافا كان مختلفا بشكل واضح عما جرى عليه الحال في حيفا، وكلاهما كانت تجمعهما أشياء قليلة مشتركة مع الطرد أو الفرار من اللد والرملة (خلال شهر يوليو) أو من عيلبون والدوايمة وكفر برعم (في أكتوبر-نوفمبر 1948). وبغية توصيف وشرح النزوح الجماعي كان لزاما علي أن أصف وأشرح الأحداث والظروف خلال المراحل المختلفة للحرب في مناطق متعددة، وعندما كانت هناك ضرورة قمت بعرض الكثير من التفاصيل، وهو ما يجعل من هذه النسخة أكثر دقة من سابقتها. ولحسن الحظ أو لسوئه فإن «الشیطان يكمن في التفاصيل»، والمؤرخ لا يمكنه أن ينأى بنفسه عن «الشیطان».

تتبع الدراسة، بشكل عام، التسلسل الزمني للوقائع بدءا من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 181 بتاريخ 29 نوفمبر 1947 والخاص بالتقسيم، حتى انهيار مؤتمر السلام الذي عُقد في لوزان في سبتمبر في العام 1949.

وخلال بحثها في النزوح الجماعي، تستعرض الدراسة المناطق الجغرافية وتنتقل من منطقة إلى أخرى، وعلى الرغم من ذلك فإن التسلسل الزمني - الجغرافي تعترضه خلال البحث فصول طويلة تتناول موضوعات محددة (ومن أمثلة ذلك «الترانسفير» وإعاقة عودة اللاجئين).

تمثلت بعض الانتقادات الجوهرية لنسخة عام 1988، خاصة من قبل الإسرائيليين، في أن الكتاب افتقر إلى التعامل مع السياق التاريخي، وأنني لم أعط وزناً كافياً للمحرقة أو الهولوكوست، الذي انتهى فقط قبيل أقل من ثلاثة أعوام من الأحداث التي تناولتها، كذلك - وهو الأكثر أهمية - أنني لم أول اهتماماً كافياً لأحداث الحرب ذاتها والتي ساهمت بطرق كثيرة في تشكيل وصياغة عملية صنع القرار لإسرائيل وتصرفاتها على المستويات المحلية والقومية. وذهب بعض الناقدين إلى القول إنني لم أفرد مساحة كافية لوصف المذابح التي قام بها العرب ضد اليهود خلال عام 1948 (كان هناك ثلاث مذابح)؛ ويتمثل ردي على هذه الانتقادات في نقطتين رئيسيتين. أولاً: أن الأمر لا يتعلق بتاريخ حرب العام 1948 أو تاريخ ما فعله العرب باليهود، لكن بتاريخ بروز ونشأة قضية اللاجئين الفلسطينيين، وفي هذا السياق فإن ما فعله اليهود بالعرب - بما في ذلك المذابح - كان له دور في حين أن ما فعله العرب باليهود يعتبر غير ذي صلة. ثانياً: أنني حاولت قدر الإمكان شرح السياق الذي دارت في إطاره المواجهات (من خلال التعرض لبعض المعارك) والتي أدت إلى فرار الفلسطينيين أو طردهم، وعلى أي حال، فقد قمت في هذه النسخة بتوسيع طفيف للنقاش حول السياقات والأطر المختلفة التي خلقت قضية اللاجئين الفلسطينيين في إطارها.

بشكل عام يلزم التأكيد بقوة على أنه، على الرغم من أن الأمر لا يتعلق بالتاريخ العسكري، فإن الأحداث التي تناولها الدراسة بالوصف ساهمت بشكل تراكمي في إحداث النزوح الجماعي للفلسطينيين العرب خلال الحرب، بل أن ذلك النزوح لم يكن سوى نتاج - مباشر أو غير مباشر - للحرب التي بدأها الفلسطينيون. فالتهديد بالمعركة والإقدام عليها شكلاً خلفية للعديد من مكونات النزوح الجماعي.

على امتداد فصول هذا الكتاب يلزم على القارئ أن يتذكر، ونحن ندرس ماذا حدث، الإطار الأوسع للأحداث، ونقصد بذلك الصدام المسلح بين الميليشيات

العربية واليهودية في فلسطين، وما تلاه من صدامات بين جيوش الدول العربية وإسرائيل، كذلك نوايا القيادة الفلسطينية ومعظم قادة الدول العربية وجيوشها خلال شنّها للهجوم في مايو خلال العام 1948 من أجل تدمير الدولة اليهودية، وربما كذلك اليشوف (الجماعة اليهودية في فلسطين) نفسه، وقد تمثلت مخاوف اليشوف في أن الفلسطينيين والدول العربية - إذا ما سنحت لهم الفرصة - يمكنهم القيام بتقديم نسخة شرق أوسطية للهولوكوست، فضلا عن التفاوت الضخم في الرقعة الجغرافية والوزن البشري للجماعة اليهودية في فلسطين (650 ألفا) مقارنة بما تمتع به العرب الفلسطينيون (1.25 مليون) والعمق العربي الضخم الذي ضم عشرات الملايين من البشر. وفي الوقت ذاته، فإنه من المفيد التذكير بأنه منذ نهاية يوليو 1948 كان من الواضح لقادة الجماعة اليهودية في فلسطين (وعلى الأرجح لأغلب القادة العرب) أن إسرائيل قد كسبت حربها من أجل البقاء، على الأقل في المدى القصير، وأن الهجمات التالية التي قام بها جيش الدفاع الإسرائيلي كانت بهدف تأمين المستقبل السياسي - العسكري للدولة اليهودية في ظل بيئة جيوبوليتيكية عدائية وغير مريحة، وأيضا بهدف رسم حدودها بشكل متكامل. وفي تقديري فإن هذه النسخة المعدلة تضيف بشكل رئيسي إلى معرفتنا بما حدث في العام 1948، وكذلك لإدراكنا الجذور العميقة للعداوة الإسرائيلية - العربية في وقتنا الحالي.

خلفية تاريخية مختصرة

نشأت الحركة الصهيونية الحديثة نتيجة لكتابات تضمنت نبوءة وبرنامجا لتحقيقها، لكل من موسى هيس ويهودا الكالاي وتسيفي هيرش كليشر وتيودور هيرتزل، وقد صاحب ذلك هجرة يهود من روسيا إلى فلسطين تحت الحكم العثماني بدءا من ثمانينيات القرن التاسع عشر، كرسوا أنفسهم لإعادة بناء وطن قومي للشعب اليهودي على أرضه القديمة، أرض إسرائيل، وفقا للخطاب الصهيوني، ولم يكن المهاجرون مدفوعين فقط بالشق الإيجابي للفكرة، لكن أيضا بالخبرة السيئة لعمليات القمع التي تعرضوا لها في أوروبا الشرقية، وموجة المذابح المنظمة التي غمرت روسيا في أعقاب اغتيال القيصر الكسندر الثاني في مارس 1881.

«كان التباين التنظيمي بين المجتمعين (العربي واليهودي) قبل العام 1948 واضحا في المجال العسكري، شأنه في ذلك شأن المجالات الأخرى وربما بدرجة أكبر»

المؤلف

بالتزامن مع هذا، بدأ المثقفون العرب في سورية ولبنان ومصر، في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، في تبني مشروع إحياء الثقافة العربية وثقافة الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية، ومع بداية القرن العشرين وانتشار الروح القومية في المنطقة، شرعوا في التفكير والحديث عن تحويل الإدارة العثمانية إلى نظام اللامركزية - وبشكل أقل صراحة - إلى إمكانية تحقيق التحرر السياسي وتأسيس دولة عربية مستقلة.

أدى انتشار الاستيطان اليهودي في فلسطين إلى وقوع احتكاكات بين المجتمعات العربية واليهودية المتجاورة، حيث بدأ سكان المدن والقرى يشعرون بالاستياء من تدفق الملاحدين و الروس والمتحدثين باللغة اليديشية^(*)، وبدأت المخاوف تساورهم من حدوث تحريف ثقافي وديني وتشويه أسلوبهم في الحياة في ضوء التجاوزات الملموسة التي تم رصدها، بل وصل الأمر إلى الخوف من أن ينتهي المطاف بأن يحل القادمون الجدد محلهم في البلاد⁽¹⁾.

تمثلت إحدى نتائج الحرب العالمية الأولى - التي قضت على الإمبراطورية العثمانية - في تعظيم كل من الآمال والمخاوف القومية الإقليمية فضلا عن تغيير معالم الشرق الأوسط، حيث ألهمت فكرة تقرير المصير التي رددتها الحلفاء المنتصرون خيال المثقفين في جميع المستعمرات حول العالم. يذكر أن بريطانيا استولت على فلسطين في الفترة من 1917 إلى 1918 وأقرت عصبة الأمم نظام الانتداب البريطاني فيها (فضلا عن شرق الأردن والعراق)، في حين تم إقرار الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، وتمثلت مهمة قوى الانتداب في تأهيل وإعداد السكان المحليين للحكم الذاتي. وفيما يتصل بفلسطين، أصدرت بريطانيا تصريح بلفور متعهدة بالعمل على إقامة «وطن قومي للشعب اليهودي»، في وقت وعدت فيه بالحفاظ على «الحقوق المدنية والدينية» للأغلبية العربية من السكان، ومن جانبها أكدت وثيقة الانتداب - التي تم إقرارها العام 1923 - على الصلة التاريخية للشعب اليهودي بأرض إسرائيل⁽²⁾.

(*) اللغة اليديشية هي لغة جرمانية يتكلمها ما يقارب 3 ملايين شخص حول العالم أغلبهم يهود أشكناز، وقد كانت في البداية لهجة ألمانية خاصة باليهود في أوروبا في القرن العاشر الميلادي، نحو 80 في المائة من كلماتها تعود إلى اللغة الألمانية، بالإضافة إلى بعض الكلمات العبرية والسلافية، وعادة ما تكتب هذه اللغة بالحروف العبرية [المترجم].

وقد دفعت الاضطرابات التي سادت أوروبا الشرقية في أعقاب الحرب العالمية من جانب، والمزايا التي اتسمت بها الإدارة البريطانية في فلسطين من جانب آخر، بموجات جديدة من الهجرة اليهودية، في وقت بات فيه التناقض الذي تضمنه التعهد البريطاني المزدوج (بدعم تقرير المصير لليهود والمحافظة على الحقوق العربية) جليا، وأضحى الصدام بين الطموحات القومية العربية واليهودية أمرا محتوما.

توافرت مجموعة من العوامل أدت إلى «يقظة» القومية الفلسطينية العربية آنذاك من بينها: التقدم المطرد في تحقيق تقرير المصير بين الشعوب العربية في الشرق، واقع الحكم الأجنبي الإمبراطوري المسيحي (حتى وإن كان محمودا وبناء)، الفصل السياسي بين فلسطين وكل من لبنان وسورية اللتين تم وضعهما تحت الانتداب الفرنسي، تدفق المهاجرين الصهاينة المدفوعين بتطلعات قومية راسخة. إلا أن الحركة الوطنية الفلسطينية العربية غلبت عليها منذ بدايتها وضعية الانقسام بين معسكرين ظلت حالة الاستقطاب بينهما الصفة الرئيسية لسياسات عرب فلسطين في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وفيما يتصل بالمعسكر الأول فإنه التف حول عشيرة الحسيني وعلى وجه التحديد الحاج محمد أمين الحسيني الذي شغل منصب مفتي القدس في الفترة من 1921 حتى 1922، فضلا عن رئاسته للمجلس الأعلى الإسلامي، وتولى منذ العام 1936 رئاسة اللجنة العربية العليا، وقد طالب هذا المعسكر بإنهاء فوري للانتداب وإيقاف الهجرة اليهودية وإقامة دولة عربية على كل أرض فلسطين، مع تقديمه لوعده غامض باحترام الحقوق المدنية والدينية لليهود الموجودين في البلاد. وعلى الجانب الآخر، كان المعسكر «المعارض» الذي قاده عشيرة النشاشيبي، المنتمية كذلك إلى الطبقة الأرستقراطية في البلاد، وعرفت بأنها أكثر اعتدالا بشكل عام، وأقل إلحاحا على مسألة الاستقلال الفوري وتنتهج مقتربا متسامحا، على الأقل في نبرته، في التعامل مع الجماعة اليهودية في فلسطين (اليشوف)، (ومن ذلك القبول بين الفينة والأخرى برشى من الوكالة اليهودية في مقابل تخفيف حدة النقد للصهيونية). وعلى الرغم من أن «المعارضة» لم توافق مطلقا على فكرة إقامة دولة يهودية على كل فلسطين أو جزء منها، فإنها كانت على استعداد، في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين للقبول - على الأقل بصفة مؤقتة - بدولة كونفيدرالية مع شرق الأردن، بيد أنه في واقع الأمر كانت عشيرة الحسيني هي التي تضع بشكل عام أسس السياسات الفلسطينية العربية تجاه

كل من الصهيونية وبريطانيا ومملكة شرق الأردن، ومع حلول منتصف الثلاثينيات هيمنت بشكل واضح على الحركة الوطنية الفلسطينية.

أوضحت حالات الشغب والمذابح التي أقدم عليها العرب ضد اليهود في مدن فلسطين خلال العامين 1920 و1921 وكذلك خلال العام 1929 الكراهية المتصاعدة من قبل الجماهير الفلسطينية - مدفوعة بخليط من المظالم الملموسة أو المتصورة ذات الطابع الديني والقومي، فضلا عن الخطاب الإسلامي - ضد الوجود الصهيوني الذي ينمو ويزدهر بوتيرة سريعة. ومن الأحداث الفريدة في هذا الخصوص المذبحة التي راح ضحيتها 66 من المتدينين المتشددین اليهود (غير الصهاينة) في مدينة الخليل، والتي أقدم على ارتكابها جيرانهم العرب والقرويون الزائرون للمدينة في أغسطس 1929. فقد راودت العرب مخاوف جادة من إمكانية ترحيلهم في ضوء موجة الهجرة اليهودية الضخمة من أوروبا منتصف الثلاثينيات (التي أشعل فتيلها صعود النازية وعودة معاداة السامية في أوروبا إلى الظهور)، فضلا عن قيام اليهود بشراء أراض جديدة للاستيطان، وقد تولد عن ذلك إدراك أن العنف قد يؤثر على موقف البريطانيين، مما أدى إلى اندلاع الثورة العربية في الفترة من 1936 حتى 1939.

بدأت الثورة بأعمال عنف متقطعة وإضراب عام شمل كافة أرجاء البلاد. وقد كانت موجهة في المقام الأول ضد البريطانيين، ومن اعتبروهم أذنان صهاينة لهم في المقام الثاني. وسرعان ما امتدت الثورة من المدن إلى ضواحي البلاد وأكسبت عائلة الحسيني وحلفاءها القيادة المطلقة للحركة الوطنية. منذ منتصف العام 1937 أصبحت العائلات المعارضة هدفا لعمليات إرهاب وقمع من قبل عائلة الحسيني، وفي واقع الأمر فقد تعاونت عائلة النشاشيبي مع البريطانيين (والصهاينة) للعمل على القضاء على الثورة، إلا أنه بحلول ربيع العام 1939 تلاشى أثر المعارضة كقوة سياسية يعتد بها، وإجمالا أدى سحق الثورة إلى إضعاف المجتمع الفلسطيني بشكل كبير، سواء كان ذلك عسكريا أو سياسيا، كما مهد الطريق لهزيمته عام 1948.

في المقابل، أقنعت الثورة الحكومة البريطانية - التي ساورتها المخاوف آنذاك من احتمالات اندلاع حرب متعددة الجبهات مع ألمانيا واليابان وإيطاليا - بأهمية الحفاظ على الاستقرار في الشرق الأوسط. ومن هذا المنطلق، كانت تأمل أن يحظى إرسال اللجنة الملكية لتقصي الحقائق في فلسطين التي ترأسها اللورد بيل في نوفمبر

خلفية تاريخية مختصرة

1936 باستحسان العرب. قدم اللورد بيل في يوليو في العام 1937 تقريره متضمنا اقتراح تقسيم البلاد إلى دولتين إحداهما يهودية (على 20 في المائة من أراضيها) والثانية عربية (على أكثر من 70 في المائة من مساحة البلاد) يتم ضمها إلى إمارة شرق الأردن. كما تضمن المقترح تخصيص قطاع من الأرض يضم القدس وبيت لحم وله منفذ على البحر المتوسط في يافا ليكون تحت حكم بريطاني مستمر. وعلى حين قبلت الحركة الصهيونية - بألم كبير - بمبدأ التقسيم، رفضت اللجنة العربية العليا المقترح على الفور، مما أدى إلى تجدد الثورة في سبتمبر 1937. وإزاء ذلك الموقف تراجعت بريطانيا سريعا عن فكرة التقسيم في الوقت الذي قمعت فيه الثورة (في رسالة واضحة للعرب مفادها أنه لا يمكن العبث مع بريطانيا)، وأقدمت على اتخاذ خطوات قوية لتهدة الفلسطينيين ومن خلالهم العالم العربي بشكل عام.

تمثلت الخطوة الرئيسية في إصدار الحكومة البريطانية تقريراً جديداً في مايو 1939 ارتقى إلى مستوى التبرؤ من وعد بلفور الذي مثل - بشكل أو آخر - الخط الرئيسي الذي سارت عليه السياسة البريطانية منذ العام 1917. وقد تضمن التقرير الجديد كبح جماح الهجرة اليهودية تاركا، في واقع الأمر، الملايين من اليهود في أوروبا دوغما وسيلة للرحيل وعلى وشك السقوط ضحايا لآلة الإبادة النازية، وفضلا عن ذلك نص التقرير على المنع شبه التام لشراء اليهود للأراضي في فلسطين. كما وعد العرب - الذين سيظلون الأغلبية في البلاد - بالاستقلال خلال فترة عشرة أعوام. غير أن اندلاع الحرب العالمية الثانية أدى إلى تأجيل أي تحرك في اتجاه تحقيق هذا الاستقلال، في حين أضفى إقدام هتلر على تدمير الشعب اليهودي في أوروبا زخما كبيرا وشعورا بالعجلة وضغطا سياسيا متواصلا للاستجابة لمطلب الدولة اليهودية على بعض أو كل أراضي فلسطين. فأعلنت الحركة الصهيونية صراحة وللمرة الأولى في «برنامج بلتمور» (مايو 1942) أن هدفها يتمثل في إقامة دولة يهودية بشكل فوري. وأدى الكشف التدريجي عن معاناة الشعب اليهودي خلال الحرب إلى تعبئة الرأي العام الغربي - وتدرجيا الحكومات - لمصلحة فتح أبواب فلسطين أمام هجرة اليهود، وفي نهاية المطاف إقامة الدولة اليهودية.

أضرت الحرب العالمية الثانية بالقضية العربية الفلسطينية، فعلى حين أبرزت الضعف الأساسي لقوى الانتداب (بريطانيا وفرنسا) مما أدى إلى تنشيط القوميات

المحلية، ومكن في النهاية كلا من مصر والعراق وسورية وإمارة شرق الأردن ولبنان من الحصول على استقلالها، فإن الفلسطينيين المتمردين - الذين تم سحقهم قبيل اندلاع الحرب - تبنا مواقف المحور، فقد سبق لهم أن حصلوا على نوع من المساندة المالية والسياسية من قبل دول المحور إبان تمردهم قبيل الحرب، وساند الحسيني وأتباعه اندلاع ثورة موالية للمحور في العراق العام 1941، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى برلين للعمل لمصلحة النظام النازي، وقام الحاج الحسيني شخصيا بنشر دعاية مؤيدة للنازي، كما عمل على تجنيد مسلمين في البلقان للعمل في الأجهزة الأمنية الألمانية. وبنهاية الحرب وجهت إليه لجنة يوغسلافية تهمة «مجرم حرب»، مما اضطره إلى الفرار إلى مصر⁽³⁾.

من جانبهم، سارع يهود فلسطينيون للحاق بصفوف الحلفاء وقاتلوا إلى جانبهم في معاركهم ضد العدو النازي المشترك. وقد كانت الخبرة العسكرية التي اكتسبها المتطوعون اليهود من فلسطين - الذين بلغ عددهم ثمانية وعشرين ألفا - سندا قويا خلال اختبار القوة الذي شهده العام 1948. على صعيد آخر، تحول اقتصاد اليشوف (الجماعة اليهودية في فلسطين) خلال السنوات الأولى للحرب إلى ورشة ضخمة لخدمة الجيش البريطاني، وهنا أيضا كانت المهارات الفنية والصناعية المكتسبة وما رافقها من بنية تحتية ذات أهمية كبرى في العام 1948. وبشكل عام، استثمر اليشوف فترة الانقطاع في القتال بين العرب واليهود للاستعداد للمواجهة القادمة، في حين لم يقدم الفلسطينيون والدول العربية (باستثناء شرق الأردن) على القيام بأي استعدادات في هذا الاتجاه.

تضافرت مجموعة من العوامل أقنعت الحكومة البريطانية في مستهل العام 1947، بأن رفع أيديها عن القضية الفلسطينية ونقلها إلى الأمم المتحدة يمثل أفضل الخيارات المتاحة، وقد تمثلت هذه العوامل فيما يلي: الصدمة التي أحدثتها الثورة وتزايد أعمال العنف العربية، الارتفاع في وتيرة الإرهاب اليهودي ضد البريطانيين - الذي قادته الحركة التصحيحية (أرغون زفاي ليمي: التنظيم الوطني العسكري أو إرجون) وجماعة سترن (محاربي الحرية لإسرائيل) - العاقد العزم على طرد البريطانيين والحصول على الاستقلال، الحملة المعنوية والسياسية المربكة التي قادت بها بريطانيا أثناء وبعد الحرب مباشرة لمنع الهجرة غير الشرعية لليهود إلى

خلفية تاريخية مختصرة

فلسطين، الضغط المعنوي السياسي الذي ولدته المحرقة اليهودية، التدخل الأمريكي المتزايد لصالح الصهيونية، فضلا عن التكلفة الاقتصادية الكبيرة لاحتلال فلسطين ومقاتلة الإرهابيين اليهود.

قامت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، المشكلة في أبريل 1947، بدراسة الموقف وأوصت في سبتمبر من العام نفسه بتسوية تقوم على أساس تقسيم البلاد إلى دولتين إحداهما يهودية والأخرى عربية، وفي التاسع والعشرين من نوفمبر 1947 أصدرت الجمعية العامة للمنظمة الدولية قرارا - بأغلبية 33 صوتا ومعارضة 13 وامتناع 10 عن التصويت - تبنى مبدأ التقسيم الذي حصل بمقتضاه اليهود على 55 في المائة من البلاد (أغلبها من المناطق الجرداء) والعرب على 40 في المائة، وفيما يتصل بالقدس وبيت لحم، وفي ضوء أهميتهما الدينية متعددة الأبعاد، تضمن القرار وضعهما ككيان مستقل تحت إدارة دولية. وفي حين رحب اليشوف بالقرار وعبر عن سعادته بصدوره وسارع قادته المنتخبون إلى الإعلان عن موافقتهم عليه، رفضه القادة الفلسطينيون العرب، وفي مقدمتهم رئيس اللجنة العربية العليا - الحسيني - الذي تواجد آنذاك في المنفى، وأطلقوا العنان لإضراب عام استمر لمدة ثلاثة أيام رافقته موجة من الإرهاب الموجه ضد اليهود في المدن وعلى الطرق. ومن جانبها، تبنت الدول العربية موقف الحسيني رافضة التقسيم وقامت بإرسال متطوعين، تجمع أغلبهم تحت لواء جيش الإنقاذ، أما اليهود في فلسطين فقد تلقوا دعما ماليا وسياسيا وانضم إلى صفوفهم - في ذلك الحين - عدد محدود من المتطوعين من المهجر.

خلال أسابيع نمت عمليات العنف المتقطعة ككرة الثلج لتتطور إلى حرب أهلية بين مجتمعين، في وقت تبنى فيه البريطانيون موقفا محايدا، معلنين نيتهم إنهاء انتدابهم والانسحاب من البلاد بحلول الخامس عشر من مايو 1948. وفي حين سعوا، على الأقل في البداية، لتحقيق نقل منظم للسلطة فإن أعمالهم خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مايو 1948 اتجهت بشكل أساسي إلى تأمين انسحاب هادئ وبأقل الخسائر يحافظ على موقعهم وهيبتهم في العالم العربي، وعلى الرغم من ذلك فقد كان من المحتم أن يتهمهم كل من اليهود والعرب - في فترات مختلفة - بالانحياز إلى طرف على حساب الآخر.

لم يكن واضحاً خلال الأسابيع الأولى من الصراع أن المجتمعين يتجهان حقا إلى الحرب، بل بدا الأمر للأغلبية أنهما منخرطان بالكاد في موجة جديدة من الشغب على غرار ما حدث عامي 1929 و1936. وقد التزمت الهاغاناه في ذلك الحين بموقف دفاعي لرغبتها في عدم مضايقة البريطانيين، في الوقت الذي استمرت فيه بعملية إعادة التنظيم والتسليح لمواجهة احتمال الحرب، حيث قدرت الهاغاناه أن التحدي الحقيقي لم يتمثل في الفلسطينيين لكن في جيوش الدول المحيطة. وحتى نهاية شهر يناير 1948 لم يكن لأي من الطرفين الغلبة المطلقة على الأوضاع. لكن، في فبراير ومارس أوقعت الكمائن التي نصبها العرب على الطرق خسائر ضخمة في مواكب الهاغاناه، خاصة على الطريق الذي يربط بين تل أبيب والقدس. وبدا لقادة المجتمع اليهودي (اليشوف) أن القدس اليهودية - المحاصرة، والتي ضمت مائة ألف نسمة - يمكن أن تسقط، في الوقت الذي ظهرت فيه مخاوف مماثلة حول مصير العديد من التجمعات الاستيطانية الريفية المحيطة بالقدس والجليل الغربي، الأمر الذي دفع الجماعة اليهودية إلى إعادة النظر في إستراتيجيتها.

ومع بداية شهر إبريل، انتقلت الهاغاناه إلى وضعية الهجوم، وشنت سلسلة من الهجمات المضادة، في وقت كانت فيه عملية انسحاب الجيش البريطاني في حالة متقدمة، مما عزز من اعتقاد بن غوريون وكبار ضباط الهاغاناه أن البريطانيين لن يقدموا على التدخل. فضلا عن ذلك، كان هناك الإطار السياسي الذي دارت فيه الأحداث وشجع على هذا التحول: ففي النصف الثاني من شهر مارس اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية قيام الأمم المتحدة بفرض وصايتها على فلسطين، مما أشار إلى إمكانية التراجع عن تأييد فكرة التقسيم. وقد خشي بن غوريون من أن تؤدي الهزائم العسكرية المستمرة إلى المزيد من التقويض للتأييد لفكرة الدولة اليهودية، ويضاف إلى ذلك أن بدء وصول الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا جعل من الممكن الشروع في العمليات الهجومية. وأخيرا كان بن غوريون وكبار ضباط الهاغاناه منزعجين من التهديد بالغزو الذي لوحته الدول العربية المجاورة، ومن ثم اتفق الجميع حول ضرورة تثبيت أركان الدولة اليهودية بحلول الخامس عشر من مايو، سواء من خلال تأمين حدودها وطرق اتصالاتها الدولية أو عبر تحييد أو سحق أعدائها الفلسطينيين «في الداخل»، لتتفرغ القوات المسلحة للمواجهة المقبلة،

وساد الاقتناع بأنه إذا لم يتم القيام بذلك فإن أعداء الدولة ربما يحققون النصر. وفي هذا السياق شعرت الهاغاناه بأنها في سباق مع الزمن.

منيت المليشيات الفلسطينية (المدعومة من جيش الإنقاذ) بهزائم قاسية بدءاً بعملية نهشون في منطقة القدس ومعركة مشمار هعيمك خلال النصف الأول من أبريل. وتدرجياً تمكنت قوات الهاغاناه من الاستيلاء على الأجزاء العربية من طبريا وحيفا وصفد ومدن بيسان وعكا فضلاً عن منطقتي الجليل الشرقية والغربية، وساعد على ذلك افتقار العرب إلى التنظيم وضعف التعاون الإقليمي، فاستطاعت الهاغاناه بمفردها الاستيلاء، بشكل مذهل، على المدن والأقاليم الواحد تلو الآخر. أما الفلسطينيون فإنهم لم يعودوا إلى الظهور على الساحة كلاعب سياسي وعسكري إلا منتصف الستينيات.

المجتمع اليهودي الفلسطيني

تمثلت مفاتيح نصر اليشوف في امتلاكه نظام تعبئة أكثر كفاءة، واقتصاداً أقوى، وتسليحاً أكثر تفوقاً، وتنظيماً إدارياً وعسكرياً أفضل.

كما تميز بالتفوق النوعي لعناصره البشرية (مستوى تعليم وخبرة عسكرية أفضل)، ففي اليشوف - الذي بلغ عدد سكانه العام 1948 نحو 650 ألف فرد - هيمنت أحزاب ليبرالية واشتراكية على المسرح السياسي منذ بداية الانتداب البريطاني. دان المجتمع منظماً ومعبأً إيديولوجياً، ورغم الاختلافات السياسية والاجتماعية المتعددة، كان الجميع مدفوعاً بالرغبة في إقامة دولة يهودية بشكل فوري، وهو الدافع الذي تزايدت قوته خلال الثلاثينيات والأربعينيات مع بداية ظهور عمليات القمع ضد السامية في أوروبا الشرقية والوسطى والمحركة التي تلتها، مما جعل إقامة ملاذ آمن، في شكل كيان سياسي يهودي مستقل، أمراً عاجلاً ليهود العالم المهددين غير المرغوب فيهم. تمكن قادة اليشوف وأحزابه السياسية على مر السنين، من امتلاك الأدوات المؤسسية التي تمكنهم من إقامة الدولة والحفاظ عليها. ظهرت «المؤسسات الوطنية» منذ البداية بهدف تحويلها إلى مؤسسات دولة⁽⁴⁾، وبحلول شهر مايو عام 1948 كانت هناك حكومة جاهزة لتولي مقاليد السلطة لديها أغلب مؤسسات الدولة الجاهزة (وفي بعض المجالات، من قبيل الزراعة والاستيطان، كانت المؤسسات

المتاحة تفوق الحاجة) لتولي مسؤولياتها. فالوكالة اليهودية، بإداراتها المختلفة (السياسة والمالية وتلك المتولية عملية الاستيطان والهجرة) شكلت الحكومة المؤقتة، وتحولت إداراتها تدريجياً إلى وزارت، في حين أصبحت اللجنة التنفيذية للوكالة (التي سميت فيما بعد إدارة الشعب) مجلس الوزراء، وتحولت الهاغاناه إلى قوات الدفاع الإسرائيلية. وحقيقة الأمر أنه بحلول العام 1948 كان اليشوف - من العديد من الجوانب - بمنزلة دولة داخل الدولة: فالمجلس الوطني والوكالة اليهودية والمحليات ومجالسها والهستدروت (اتحاد نقابات العمال) قامت، بالتنسيق مع إدارات حكومة الانتداب، بتزويد اليشوف بالخدمات الضرورية (الصحة، التعليم، الرعاية الاجتماعية، التنمية الصناعية).

أقدم اليشوف على فرض الضرائب الذاتية، ووجهت الأموال المحصلة لتمويل الخدمات والأهداف المختلفة، فقامت الهستدروت بفرض الضرائب على أعضائه من أجل تزويدهم بالخدمات الصحية وتمويل التعويضات الخاصة بالبطالة، ومن جانبه قام الصندوق الوطني اليهودي بجباية ضرائب من أجل التشجير وتوفير البنية التحتية للاستيطان، كما فرضت ضرائب خاصة لشراء السلاح وتغطية نفقات استيعاب المهاجرين، وفضلاً عن ذلك، تلقى اليشوف مساعدات مالية مستمرة من المهجر وأخرى في أوقات الطوارئ خاصة خلال الفترة 1947 - 1949.

بحلول عام 1948 أضحت في حوزة مجتمع اليشوف الأدوات التي تمكنه من الانتقال إلى وضعية الدولة خلال أيام أو أسابيع، ويضاف إلى ذلك أن سنوات من التمرس العملي على الحكم الذاتي والتجهيز للدولة، بالرغم من احتوائها على الصراعات المعتادة على السلطة بين الأحزاب أو داخلها، قد دفعت إلى المقدمة بقيادة ذات مواهب خاصة وملتزمة وعلى استعداد للتضحية بنفسها، وتمتلك الخبرة في مجالات السياسة والاقتصاد والدفاع. وقد تزعم هذه القيادة منذ الثلاثينيات فصاعداً ديفيد بن غوريون - وحزبه ماباي (حزب العمال في أرض إسرائيل) - الذي أدار الصراع من أجل إقامة الدولة، وإلى جانب ذلك كان هناك الجناح اليميني المتمثل في «التصحيحين» (الذين سعوا إلى إقامة سيادة يهودية على كل أراضي فلسطين وشرق الأردن)، فضلاً عن الأحزاب الدينية المختلفة التي لم تحصل على الإطلاق إلا على أقلية

خلفية تاريخية مختصرة

من الأصوات المؤيدة لها. وكان بن غوريون كبراغماقي مستعدا، على الأقل ظاهريا بدءا من عام 1937، لقبول التقسيم وإقامة دولة يهودية فقط على جزء من أراضي فلسطين، وإن ظل مؤيدا، من الناحية الواقعية، للرؤية المطالبة بالسيادة اليهودية على جميع أرجاء البلاد باعتبار ذلك الهدف النهائي للصهيونية الذي يمكن الوصول إليه على مراحل. ومع ذلك، فإنه كان عليه خلال الفترة من 1947 - 1948 أن يروض نفسه على فكرة السيادة اليهودية فقط على جزء من فلسطين.

انعكست النوعية المتميزة للقيادة الوطنية بصدق على مستوى الإدارة والحكومات المحلية، في الكيبوتزات (المستوطنات الجماعية) والموشافيم (المستوطنات التعاونية)، وكذلك الهاغاناه. فالمستوطنات الريفية، وأغلبها من الكيبوتزات، كان يسكنها أكثر عناصر الشعب تقدما من حيث الوعي والالتزام السياسي، وقدمت الجانب الأكبر من القيادات السياسية والعسكرية للجماعة اليهودية (اليشوف). وفي ضوء تميزها بالروح الريادية وقيامها برسم الحدود الجغرافية الخارجية للجماعة اليهودية في البلاد، وسابق تعرضها لهجمات من قبل العرب عبر العقود، تم بناء الكيبوتزات بطريقة تسمح بالدفاع عنها، حيث تأسست على مساحات واسعة مجهزة بنقاط دفاعية وغرف محصنة تحت الأرض وملاجئ، كما أن سكانها كانوا مهئين من الناحية النفسية لمواجهة الهجمات. وخلال عملية الغزو العربي لإسرائيل الذي أعقب الانسحاب البريطاني سقطت فقط حفنة من الكيبوتزات أمام هجوم الجيوش العربية في حين لم يتم التخلي عن أي منها من قبل قاطنيها. وكما كان الحال بالنسبة إلى أغلب الكيبوتزات، نظر اليشوف بأكمله لنفسه على أنه ليس أمامه خيار، حيث تعلق الأمر إما بإقامة دولة أو الإخفاق التام، وقد حمل الاحتمال الأخير في طياته - في ضوء عمق العداوة العربية للصهيونية - إمكانية استنساخ المحرقة، وإن كان على نطاق أصغر.

الاستعدادات العسكرية

في أعقاب عمليات الشغب والمذابح التي شهدتها أعوام 1920 - 1921 و 1922، والثورة في 1936 - 1939، أقدم اليشوف على تشكيل ميلشيا وطنية سرية ومنظمة على درجة عالية عرفت باسم الهاغاناه، وقد قاد بن غوريون، بعد توليه القيادة

السياسية للمنظمة العام 1946، حملة سرية لمواجهة الهجمات من كل من الفلسطينيين العرب والدول العربية المحيطة، كما تمكنت الجماعة اليهودية من الحصول على كميات هائلة من السلاح، وبحلول سبتمبر 1947 كان بحوزة الهاغاناه 10,489 بندقية، 702 رشاش خفيف، 2666 رشاش آلي، 186 رشاش متوسطا، 672 مدفع هاون 2 بوصة، 92 مدفع هاون 3 بوصات (ولم يكن في حوزة الهاغاناه طائرات أو دبابات أو مدفعية ثقيلة في بداية حرب 1948). كما تم شراء المزيد من الأسلحة أو سرقها من القوات البريطانية المنسحبة خلال الأشهر الأولى من القتال. فضلا عن ذلك، توافرت لدى الجماعة اليهودية القدرة العالية على إنتاج الأسلحة، ففي الفترة ما بين أكتوبر 1947 ويوليو 1948 قامت مصانع السلاح التابعة للهاغاناه بإنتاج ثلاثة ملايين طلقة 9 ملميمتر، و150000 قنبلة يدوية، و16000 سلاح رشاش، و210 مدافع هاون 3 بوصات⁽⁵⁾.

منذ شهر نوفمبر 1947 بدأت الهاغاناه - التي ضمنت آنذاك 35 ألف عنصر من بينهم نسبة من النساء - في التحول من مليشيا إلى جيش نظامي. وعلى الرغم من أنه باستثناء حفنة من «الفرق القتالية» (بالمخ، التي تم تشكيلها بمساعدة البريطانيين عام 1941 وتراوح عددها بين 2000 و3000 عنصر)، لم يكن هناك حتى ديسمبر 1947 إلا القليل من الوحدات المدربة تدريباً جيداً، وخلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مايو 1948 تم الانتهاء من تعبئة جميع العناصر وارتدائها الزي العسكري بشكل دائم، وكان يتم تدريب منتسبي الهاغاناه ثلاثة إلى أربعة أيام شهريا وما عدا ذلك كانوا يمارسون دورهم كمدنيين، كما كان لدى المنظمة عدد كبير من المدربين ذوي الخبرة كانوا يعملون سابقا في الجيش البريطاني، فضلا عن عدد كبير من الضباط المخلصين الذين سبق تدريبهم. بحلول مارس - أبريل 1948 بدأ الزج إلى الميدان بكتائب ولواءات وإن لم تكن مسلحة تسليحا جيدا بعد، وبعد مرور شهرين (يونيو 1948) تحولت المنظمة إلى قوات الدفاع الإسرائيلية التي كانت بمنزلة جيش يضم ما يتراوح بين 11 و 12 لواء مسلحة بالمدفعية وقوات مدرعة، فضلا عن قوة بحرية وجوية في مرحلة التطوير⁽⁶⁾. وبحلول شهر مايو 1948 قامت الهاغاناه بتعبئة ونشر قوات بلغ قوامها 35780 جنديا (وهو ما يزيد بخمسة إلى عشرة آلاف عنصر عن مجموع قوات الجيوش العربية النظامية التي غزت فلسطين في الخامس والسادس

خلفية تاريخية مختصرة

عشر من الشهر نفسه، على الرغم من أن الغزاة كانوا أفضل تسليحا ومن المفترض نظريا على الأقل أن يكونوا أفضل تدريباً⁽⁷⁾. وبحلول يوليو 1948 كان لقوات الدفاع الإسرائيلية التي حلت محل الهاغاناه 63000 عنصر تحت السلاح⁽⁸⁾. بالإضافة إلى العامل الخاص بالأعداد، التي كانت تشير إلى أنه بحلول يوليو 1948 كان شخصا من بين كل عشرة أشخاص (بمعدل واحد إلى كل من 2 - 3 ذكر بالغ) خاضعا للتعبئة، كان هناك عامل آخر ربما أكثر أهمية تمثل في الصفة التنظيمية للهاغاناه بدءا بقيادتها ذات المواهب المتميزة، ورئاسة أركانها المركزية بفروعها الميدانية والاستخباراتية واللوجستية، مروراً بتشكيلات الألوية والكتائب. فخلال إبريل - مايو كانت الهاغاناه قادرة على شن هجمات على مستوى لواء، وبحلول شهر يوليو تمكنت من استخدام أكثر من لواء في عملياتها، وتحول الأمر في أكتوبر إلى مستوى أكبر وعلى جبهات متعددة. وبمنتصف شهر مايو 1949، تمكنت من إيقاع الهزيمة بالمليشيات الفلسطينية ومسانديها الأجانب، وفي الفترة من أكتوبر إلى ديسمبر ألحقت الهزيمة بالجيش العربي.

المجتمع العربي الفلسطيني

رجعت هزيمة الفلسطينيين العرب بشكل كبير إلى نقائص مجتمعهم وانقساماته، فقد كان المجتمع الفلسطيني فقيرا يعتمد على الزراعة وتسوده الأمية بشكل كبير⁽⁹⁾، وفي حالة بدائية من النواحي الاجتماعية والسياسية، وغير منظم ويعج بالانقسامات العميقة، واتسمت التصدعات داخله (بين المدينة والقرية، وعائلي الحسيني والنشاشيبي، والمسلمين والمسيحيين، والبدو والمجتمعات المستقرة) بعمق جذورها التاريخية.

أدت التطورات الاقتصادية والإصلاحات التي أدخلتها الدولة العثمانية منتصف القرن التاسع عشر إلى بدء مرحلة من التحضر وانتقال السكان من القرى إلى المدن، وبدأت المدن الفلسطينية بنهاية القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين - التي ظلت لعقود من الزمان أكبر بقليل من القرى الكبيرة - في النمو، حيث غادر الفلاحون الفقراء ومنعدمو الملكية الزراعية قراهم⁽¹⁰⁾ جزئيا نتيجة لعوامل الجذب والمزايا الاقتصادية التي جلبتها الروابط التجارية التي بدأت

آنذاك مع أوروبا عبر ميناء يافا وحيفا، كذلك كانت الضرائب الباهظة التي فرضها العثمانيون آنذاك دافعا قويا لمثل هذه الهجرة، بالإضافة إلى إقبال طبقة «الأفندية» (التي ضمت الكثيرين ممن جاءوا من خارج فلسطين) والصهاينة على شراء الأراضي الزراعية. وبشكل عام فإن هذه العملية ربما تكون قد ساعدت على إرخاء قبضة الفلسطينيين على الأرض وارتباطهم بها قبيل نزوحهم الجماعي عام 1948⁽¹¹⁾.

في المقابل، قد يكون من المفيد التذكير بعملية أخرى جرت بالتوازي خلال القرن التاسع عشر، ونقصد بذلك هجرة عشرات الآلاف إلى فلسطين من المغرب العربي (شمال أفريقيا) والفلاحين المصريين والبوسنيين والأكراد والقوقازيين فضلا عن القبائل البدوية سواء من تلقاء أنفسهم أو تنفيذا لمخططات عثمانية. وقد قام العديد من هؤلاء المهاجرين بإنشاء قرى جديدة خاصة في المناطق المنخفضة قليلة السكان في الجليل والسهل الساحلي، وعبرت أسماء تلك القرى تركيبة موجات الهجرة، وعلى سبيل المثال كان هناك عدد من القرى تحت مسمى كفر مصر، وقريتان باسم كراد (في إشارة إلى الأصل الكردي لقاطنيها)^(*). ولاحقا أدت حالة الرخاء النسبي والنظام التي سادت فلسطين تحت الانتداب إلى جذب آلاف المهاجرين العرب الجدد من الدول المجاورة، وبصفة خاصة إلى المدن الكبرى⁽¹²⁾، ونتيجة لكل من التأثير البريطاني من جانب، ووجود مجتمع يهودي مزدهر في الجوار من جانب آخر، اكتسبت عملية انتقال مراكز الثقل من القرى إلى المدن قوة كبيرة خلال القرن العشرين⁽¹³⁾. على الرغم من وجود مكون حضري نام ومنتسع الرقعة، ظلت فلسطين العربية عام 1947 وبشكل أساسي مجتمعا قرويا، امتلك فيه عدد محدود من الملاك ما يقارب نصف الأرض العربية، وامتلك الباقي، الذي عمل فيه المزارعون المستأجرون، كبار الملاك الذين عاشوا في المدن، والعديد منهم في لبنان ومصر وسورية. وكان ما يقارب 50 في المائة من مساحة الأراضي الفلسطينية- وأغلبها في النقب، أرضا مملوكة للدولة في حين امتلكت المنظمات الصهيونية واليهود بشكل فردي نسبة تتراوح بين 6 و 7 في المائة منها.

في نهاية العام 1947، كان هناك مليون وربع المليون عربي (1.1 مليون مسلم و150.000 مسيحي) عاش ما بين 65 و 70 في المائة منهم فيما يقرب من 800 إلى

(*) القريتان هما كراد البقارة التي تقع على بعد 11 كيلومترا شمال شرق مدينة صفد وكراد الغنامة المجاورة لها. [المحررة].

خلفية تاريخية مختصرة

850 قرية، في حين قطن الثلاثون بالمائة الباقون المدن، وتركز حوالي 70000 من البدو أساسا في النقب الشمالي، وتضاءل عددهم بشكل مطرد نتيجة استقرارهم في القرى والمدن، وفي حين شكل الفلاحون بالقرى الأغلبية العظمى من القوة العاملة، فإن جزءا رئيسيا من سكان المدن أيضا كان يعمل في الزراعة⁽¹⁴⁾.

على حين ظلت الأغلبية الريفية واقتصادها القائم على الزراعة بدائية وغير فعالة بشكل كبير، كانت هناك بدايات للتجديد والتحديث خاصة في المناطق الساحلية، وذلك تحت تأثير النموذج اليهودي المجاور فضلا عن تشجيع البريطانيين والأوروبيين. ففي العام 1922، كان هناك 22000 دونم من الأراضي العربية ينتج محاصيل حمضية (الليمون، البرتقال... إلخ)، وقد تزايدت تلك المساحة لتصل إلى 140000 دونم العام 1940 كانت محاصيلها موجهة بشكل أساسي للتصدير. كذلك تزايدت مساحة الأراضي المخصصة لزراعة التفاح والزيتون من 332000 دونم العام 1931 إلى 832000 العام 1942، وإجمالا ظلت الزراعة في فلسطين العربية متلازمة مع الاستهلاك المحلي، ولم يكن في متناول الفلاحين العام 1947 غالبا آلات ميكانيكية زراعية، وإنما استخدموا وسائل بدائية لحرث الأرض، ودورة زراعية بسيطة من دون وسائل ري أو أسمدة. من جانبهم عبر القادة السياسيون اليهود ومشرفو المستوطنات، بدرجات متفاوتة من الصدق، خلال الثلاثينيات والأربعينيات عن رغبتهم في المساعدة في إصلاح القطاع الزراعي العربي لزيادة إنتاجيته، مما يساعد بدوره على تحقيق الازدهار للشعبين العربي واليهودي وتعايشهما بسلام في أرض ضيقة نسبيا.

تركزت الحركة الوطنية الفلسطينية بشكل رئيسي في صفوف النخبة والطبقات الوسطى في المدن، وخلال عقود الحكم البريطاني، الذي تزايدت فيها مستويات التعليم وانخفضت معدلات الأمية، بدأت الفكرة الوطنية تمتد إلى المناطق الريفية وجماهيرها. حقيقة إن كل جولة من أحداث الشغب المناهضة للصهيونية (وكذلك للبريطانيين) خلال فترة الانتداب (1920، 1921، 1929، 1936 - 1939) كانت أكثر اتساعا من سابقتها عكست بوضوح نمو وانتشار الوعي السياسي بين الجماهير خلال هذه الفترة. فبسبب تحسن مستويات التعليم في فترة الانتداب البريطاني، وتأسيس النخب الحضرية والطبقة الوسطى المتنامية، وخطر المشروع الصهيوني، أصبح القرويون

مسيحين على نحو متزايد. وعلى عكس شهادة هنري قطان(*) أمام لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية عام 1946، التي ذهبت إلى أنه لم يحدث أي تغيير في هذا الشأن خلال الفترة من 1920 إلى 1946، كانت هناك درجة من التغيير في مستوى الوعي السياسي. ومع ذلك احتفظ القروي - بشكل عام - بولائه الرئيسي للعائلة، العشيرة والقرية، التي كانت في قلب اهتماماته، فقد استند المجتمع القروي إلى القرية أكثر منه على الحي أو الدولة. وكانت خبرة أعوام 1936 - 1939 التي تم خلالها اجتياح قرى بكاملها من قبل الثورة وتدميرها كافية للقضاء على أي نشاط سياسي⁽¹⁵⁾. وحتى الأربعينيات من القرن الماضي، كانت القضايا السياسية والنضال الوطني أمورا بعيدة عن دائرة اهتمام القرويين الذين نظروا إليها باعتبارها عمليات معقدة خاصة فئة قاطني المدن، وقد ذهب أحد مؤرخي قرية معليا في الجليل إلى القول إن «عالم السكان كان ينحصر في القرية (الأرض والناس) وكانت القضايا ذات الطابع الوطني أو الإقليمي موضع اهتمام شخص أو شخصين فقط في القرية بأكملها»⁽¹⁶⁾.

ضمت أغلب القرى عشيرتين أو ثلاثا يرأسهم الأعيان الذين يمتلكون الثروة، وكان رئيس القرية (المختار) عادة رئيس العشيرة الرئيسة فيها. كانت ملكية الأرض هي المعيار الرئيس الذي يحدد قوة العشيرة. وفي العديد من القرى كانت الأرض مملوكة بشكل جماعي، وكانت العديد من العشائر منتشرة ولها نفوذ واسع جغرافيا من خلال مجموعات من عناصرها مبعثره في عدة قرى متجاورة. وكنتيجة للظروف الإقطاعية أو الاقتصادية كونت العديد من القرى، عبر العقود، قرى صغيرة تابعة لها (خراب) على بعد عدة كيلومترات منها، فالكثير من قرى التلال كانت لها توابع في السهول، وفي بعض المناطق كانت هناك كتل أو تحالفات من القرى استنادا إلى واقع العشائر التي تقطن أكثر من قرية أو التحالفات القائمة على أساس التزاوج بين العشائر أو غير ذلك من الأسباب (على سبيل المثال التحالف بين قرى الزعبية في الجليل الأدنى وبني حسن بالقرب من القدس)⁽¹⁷⁾.

كانت القرى تميل إلى أن تكون منغلقة على نفسها سياسيا واجتماعيا، فضلا عن اكتفائها ذاتيا اقتصاديا بدرجة كبيرة. كان من النادر أن يقوم القروي بزيارة المدن الكبرى من قبيل حيفا ويافا والقدس أو المدينة القريبة (اللد، الرملة، عكا، الناصرة،

(*) هنري قطان (1906 - 1992)، فقيه قانوني من مواليد مدينة القدس، له العديد من المؤلفات القانونية في القضايا المتعلقة بالشأن الفلسطيني. [المحررة].

خلفية تاريخية مختصرة

صفد، بيسان)، أو يطلع على الصحف، فقد كان من يجيدون القراءة والكتابة بينهم قليلين، وفي أغلب الأحيان كان هناك جهاز راديو واحد عادة في منزل المختار أو في مقهى القرية حيث اعتاد الرجال الاجتماع بعيد الظهر وفي المساء للعب الطاولة وتجاذب أطراف الحديث. وبصفة عامة اتسم القرويون بالجهل في مجال السياسة، فواقع الإدارة البريطانية منذ عام 1917 حتى 1948، والغياب شبه الكامل للمؤسسات الوطنية السياسية والإدارية الفلسطينية، كانا يعنيان أن المجتمع القروي الفلسطيني - باستثناء التنظيم الخاص بالقرية - بعيدا إلى حد كبير عن المسائل ذات الطبيعة الوطنية وغير ممثل فيها. وقد مثل الوضع في مناطق يهودا والسامرة (الضفة الغربية) استثناء من ذلك، حيث شارك قادتها في المؤتمرات الفلسطينية التي عقدت في السنوات الأولى للانتداب⁽¹⁸⁾، وانخرط العديد من شبابها في صفوف التمرد (1936 - 1939)، أما القرى في السهل الساحلي وكل من مرج ابن عامر ووادي الأردن فلم تكن ممثلة في تلك المؤتمرات، كما أن مشاركتها كانت محدودة في التمرد.

بصفة عامة، كانت تمثل مصالح المناطق الريفية من خلال عائلات النخبة في المدن، التي جاء البعض منهم من أصول تنتمي إلى تلك المناطق وامتلك الكثير من الأراضي المنزرعة فيها. ومارس كبار ملاك الأراضي درجة عالية من النفوذ والسلطة على كل من الفلاحين وقاطني المدن على حد سواء.

عاش ثلث عرب فلسطين تقريبا في المدن، حيث وجدت سبع عشرة مدينة عربية: بئر سبع، خان يونس، غزة، مجدل (عسقلان)، الرملة، اللد، الخليل، بيت لحم، بيت جالا، رام الله، طولكرم، نابلس (شيكم)، جنين، شفا عمرو (شفارام)، عكا، بيسان (بيت شيان)، والناصرة. وبعض تلك المدن (مثل: طولكرم وجنين، وبيسان، ومجدل وشفا عمرو) كان بمنزلة قرى تمت بشكل كبير وأضحت مراكز تجارية ومحطات خدمة للمناطق النائية المحيطة بها. وفضلا عن ذلك كان هناك خمس مدن ضمت خليطا من السكان العرب واليهود وهي: القدس، وحيفا، وطبريا (بأغلبية يهودية)، وصفد ويافا (بأغلبية عربية).

خلال السنوات الأولى للانتداب لم يكن السكان العرب يمتلكون أي سيارات بمحرك، وبحلول عام 1945 كان هناك أكثر من ثلاثة آلاف سيارة، وما يلزم لذلك من بنية تحتية سواء تعلق الأمر بالورش أو مراكز إنتاج قطع الغيار. وقد كان للنمو الكبير في مجال النقل أثر كبير على الزراعة والصناعة والتجارة، كما أن الروابط

التجارية مع أوروبا كانت تتم خلال غرف تجارة وتطورت شبكة بنكية فعالة في المدن مع نهاية الحرب العالمية الثانية، التي كانت حاسمة في هذا القطاع حيث زاد الرصيد الدائن في أكبر البنوك العربية «البنك العربي» في الفترة من 1941 إلى 1945 نحو 18 مرة، وحجم الودائع بعشرين مرة، كما بدأت الصناعة بدورها في التطور والنمو⁽¹⁹⁾.

بلغت نسبة قاطني المدن من العرب العاملين في قطاع الصناعات الخفيفة والحرف والبناء 30 - 35 في المائة، في حين عمل حوالي 15 إلى 17 في المائة بالنقل ومن 20 إلى 23 في المائة بالتجارة، ومن 5 إلى 8 في المائة في المهن المختلفة. ونسبة 5 - 7 في المائة في الخدمات العامة ومن 6 - 9 في المائة بالخدمات المختلفة، ومع نهاية الأربعينيات كان المجتمع العربي الفلسطيني يمر بمخاض العمرانية المتسارعة، فقد بدأ الحكم البريطاني، خاصة بداية الحرب العالمية الثانية، في إرساء درجة محدودة من التصنيع. رصدت أجهزة استخبارات اليشوف بدايات تحول في المجتمع الفلسطيني من اقتصاد قائم على «ورش العمل البدائية التقليدية» إلى اقتصاد في طريق التحديث، حيث تم إنشاء مصانع للشيكولاته والحلوى، وثلاث مصانع للزجاج، وأقيم مصنع حديث للسجائر في حيفا⁽²⁰⁾، ومع حلول نهاية الانتداب كان هناك في فلسطين العربية ما يقارب 1500 ورشة صناعية ومصنع صغير عمل بها 9000 عامل بمتوسط خمسة إلى ستة عمال في كل ورشة (في المقابل كان هناك 1900 ورشة عمل ومصنعا صغيرا في فلسطين اليهودية بقوة عاملة بلغت 38000 أي بمتوسط 19 - 21 عاملا في كل ورشة). وقد اشتغل بعض العرب في مصانع يملكها يهود، وآخرون في خدمات ومصانع يديرها بريطانيون. وبلغ مجموع الأيدي العاملة العربية 35000، تم توظيف خمسة آلاف من بينهم من قبل شركات بترول وثمانية آلاف في خدمات السكك الحديدية الحكومية. وخلال الحرب، تم توظيف عشرات الآلاف من قبل الحكومة في الأعمال العامة، في حين عمل ثلاثون ألفا في معسكرات الجيش البريطاني (ومع ذلك تم الاستغناء عن أغلبهم مباشرة بعد انتهاء الحرب)⁽²¹⁾. قاد المجتمع الفلسطيني العربي عدة عائلات عاشت في المدن: نسيبة، الخطيب، الخالدي، النشاشيبي والحسيني (القدس)، وعمرو، التميمي، والجعبري (الخليل)، السعيد، البيطار، والدجاني (يافا)، والشوا، الحسيني (غزة)، والتاجي الفاروقي، غصين

خلفية تاريخية مختصرة

(الرملة)، وطوقان، عبدالهادي، النابلسي، الشكعة، والتميمي (نابلس)، عبدالهادي وأبو شيش (جنين)، الخليل، شكري، طه، خياط، ومهدي (حيفا)، الشقيري وخليفة (عكا)، الفاهوم، الظاهر والزعبي (الناصرية)، الطبري (طبريا)، الكرداس (صفد) (22). وخرج من بين صفوف هذه العائلات (التي عرفت مجتمعة بالأعيان) كبار ملاك الأرض الزراعية، والسياسيين، والقضاة، والتجار، والعمد، وكبار الموظفين المدنيين، كبار رجال الدين، الأطباء، المحامون والمثقفون. وغالبا ما توافرت جميع هذه التخصصات في كل عائلة، حيث كان هناك القاضي والعمدة والتاجر وغيرهم، ويلاحظ أن نفوذهم وقوتهم وصلاتهم كان لها الطابع المحلي وليس الوطني. وكان التزامهم وولائهم تجاه عائلاتهم والخاضعين لولايتهم والحي والمدينة على التوالي، وقد تعلق الأمر بهيكل إقليمي أوليغاركي مارست فيه النخبة نفوذها وسلطتها على سكان الريف والحضر من خلال وسائل اقتصادية ودينية مباشرة أو غير مباشرة، وأبقت النخبة على مسافة بينها وبين الفلاحين والعمال، وسادت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية حالة من الامتنعاض والشك المتبادل.

خلال فترة الانتداب ظهرت طبقة متوسطة صغيرة ضمت أصحاب المهن والموظفين ومالكي الحوانيت الذين جاء جزء منهم من الطبقات العاملة سواء في الريف أو الحضر، وعلى حين طمحت هذه الطبقة إلى اللحاق اجتماعيا بركب النخب، والسعي للتزاوج معهم، ظلت الطبقة الوسطى صغيرة جدا، واستمر الهيكل النخبوي على قوته بما لا يسمح بإدخال البورجوازية إليه بشكل قد يمثل تحديا للسلطة السياسية والاقتصادية «للأعيان».

في نهاية الأربعينيات، كان 28 عضوا من إجمالي 32 في اللجنة العربية العليا من «الأعيان»، وأربعة فقط من البرجوازية، ولم يكن هناك أحد من فئة الفلاحين أو العمال. جاء 24 من المدن وفقط أربعة أو خمسة أعضاء من الضواحي. وقد كانت الهوة الواسعة من الشك والإقصاء بين المناطق الحضرية والريفية في فلسطين العربية سببا رئيسيا وراء الافتقار إلى التنسيق بين المدن وعمقها الريفي خلال العمليات القتالية، فعائلات النخبة لم يكن لديها تقليد أو نزعة للخدمة الوطنية ولم يؤد أفرادها الخدمة العسكرية مع الأتراك أو البريطانيين أو حتى في جيوش الدول المجاورة. ولم يكن أحد من القادة العسكريين لتمرّد 1936 - 1939 من «الأعيان»،

حيث تعلق الأمر بتمرد قروي، اقتصر فيه دور سكان المدن لفترة قصيرة وبشكل كبير على الاحتجاج المدني (مظاهرات، أعمال شعب، إضراب عام)، وفي مرحلة لاحقة انخرطوا في أعمال عنف بين الطوائف المختلفة⁽²³⁾.

انقسم «الأعيان» منذ بداية العشرينيات إلى معسكرين رئيسيين: «المجلسيون» و«المعارضون»، وضم المعسكر الأول أولئك الذين كانوا يؤيدون «الحسيني»، والمجلس الأعلى الإسلامي (المجلس) الذي سيطر عليه «الحسيني»، وكذلك اللجنة التنفيذية العربية العليا (التي سبقت اللجنة العربية العليا)، أما المعسكر الثاني فضم المعارضين لهم بقيادة النشاشيبي. لم تنقسم المدن والضواحي حول توجهات أيديولوجية، ولكن وفقا لولاءات عائلية وانتماءات محلية، ودار الصراع بين عائلة الحسيني ومعارضيه بالأساس حول السلطة ومكاسبها الاقتصادية، في حين كانت الخلافات السياسية والأيدولوجية أمرا ثانويا، على الرغم من أن عائلة النشاشيبي وحلفاءهم في القرى بمناطق الخليل ونابلس والناصرة كانوا يميلون إلى تبني مواقف أكثر اعتدالا تجاه الصهيونية والانتداب، حيث كان أعيان العائلة يلتقون - عادة بشكل سري - مع الممثلين اليهود، ويتحدثون في اللقاءات الخاصة معهم بنبرة توافقية. وقد كان التنافس بين المعسكرين هو السمة الرئيسية للسياسات العربية حتى العام 1948، مما أدى إلى تشتت القوة الفلسطينية في مرحلة حاسمة بما في ذلك الفترة من العام 1937 حتى العام 1939، عندما أقدمت عائلة الحسيني على اغتيال بعض مناوئيه، كذلك خلال الفترة من العام 1947 حتى العام 1948⁽²⁴⁾.

أقدمت نخب العائلات خلال الثلاثينيات على تأسيس أحزاب سياسية رسمية. ففي العام 1935، أسست عائلة الحسيني الحزب العربي الفلسطيني، الذي أضفى المنظمة السياسية العربية الرئيسية. وقبل ذلك، في العام 1934، أسست عائلة النشاشيبي حزب الدفاع الوطني، وفي العام 1932 أسس عوني عبدالهادي من السامرة حزب الاستقلال الذي تبني أيديولوجية وحدوية عربية، كما أسس حسين الخالدي عمدة القدس، العام 1935 حزب الإصلاح. كذلك شهدت بدايات الثلاثينيات قيام يعقوب الغصين بتأسيس حزب مؤتمر الشباب، وحزب الكتلة الوطنية الذي اتخذ مركزا له في مدينة نابلس، وكان من شأن تعدد الأحزاب على هذا النحو إضعاف قوة المعارضة. ويلاحظ أن الأحزاب قد وجدت فقط على الأوراق من دون أن تكون

لها قوة حقيقية على أرض الواقع، فجميعها عارضت الصهيونية وبدرجات متفاوتة الانتداب البريطاني، وهدفت إلى إقامة دولة عربية على كل أراضي فلسطين، (على الرغم من أن حزب الاستقلال لم يتبن فكرة دولة فلسطينية منفصلة). ولم تكن هناك انتخابات داخل الأحزاب التي افتقرت كذلك إلى مؤسسات على الطراز الغربي، أو اشتراكات يسدها الأعضاء، وإنما قامت على الانتماءات والولاءات العائلية والمحلية. فالعائلات، والعشائر، والقرى كانوا هم أعضاء الأحزاب وليس الأفراد، بما يعنيه ذلك من روابط شبه إقطاعية وتبعية وولاء كمحددات للارتباط، ولقد تمكن القليل من «الأعيان» من البقاء على الحياد في الصراع بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي⁽²⁵⁾.

أجمعت كل الأحزاب العام 1936، والممثلة للفصيلين المتصارعين، على قضية واحدة تمثلت في مساندة وقيادة الثورة. وفي هذا السياق تمت تنحية الخلافات جانبا، وشكل ممثلون عن كل من الأحزاب الستة، في الخامس والعشرين من أبريل العام 1936، اللجنة العربية العليا لتنسيق الكفاح على المستوى القومي. أما على الصعيد المحلي، فقد تم تأسيس لجان وطنية في كل مدينة تولت مهمة إدارة الإضراب وغيره من الأنشطة السياسية الأخرى، وعندما بدأ الإضراب يفسح المجال لموجة عنف واسعة النطاق، عادت العداوات العائلية لتطفو على السطح نتيجة ظهور عائلة النشاشيبي وحلفائها كقوة معارضة، حيث قامت بتمثيل وتأييد العرب الذين رأوا أنه لا جدوى من تلك الثورة، وكان من شأن رد عائلة الحسيني (الذي شمل التهيب والاغتيال) أن يصفى الجانب الأعظم من المعارضة. ومن جانب آخر أدت عمليات الإرهاب والابتزاز والسلب والنهب وقطع الطرق من قبل العصابات المسلحة وحملات البحث عن المتمردين التي قام بها الجيش البريطاني، إلى تنفير القرويين وقاطني المدن. ومع نهاية العام 1938 وبداية العام 1939 ساد شعور بالسأم من القتال، فانقلبت القرى ضد المتمردين، وتم تشكيل «جماعات السلام» للتصدي للمتمردين بدعم من المعارضة والاستخبارات البريطانية.

وباستثناء المكاسب السياسية التي تمخض عنها التمرد وتضمنها الكتاب الأبيض الصادر العام 1939^(*)، تمثلت النتيجة الرئيسية له في التسبب في مقتل عدة آلاف من العرب، وفرار عشرات الآلاف من البلاد، في حين انسحب الكثيرون من النخبة

(*) يعرف كذلك بكتاب مكدونالد الأبيض، نسبة إلى وزير المستعمرات البريطاني مالكوم مكدونالد [المحررة].

والطبقة الوسطى من المعتزك السياسي لشعورهم بالاشمئزاز. وأضحت إمكانية حدوث مصالحة بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي أمرا لا يمكن حتى تصوره، حيث تولدت ضغائن ورغبة في الثأر كان لها تأثير كبير للغاية على تسوية 1947-1948. خلال قمعهم للتمرد، حظر البريطانيون اللجنة العربية العليا وألقوا القبض على عدد من قادتها وتم نفي البعض الآخر، في حين فر عدد منهم إلى ألمانيا للعمل مع المحور خلال الحرب العالمية الثانية، وبشكل رئيسي ظل الفلسطينيون غير نشطين أثناء سنوات الحرب، ولم تتمكن الأحزاب والفصائل من إعادة تشكيل أنفسها إلا عامي 1944 - 1945، كما عادت اللجنة العربية العليا للظهور تحت هيمنة عائلة الحسيني، ومجددا شهد مطلع العام 1946 عودة الانقسامات وتدخلت الجامعة العربية في مارس من العام نفسه من خلال تعيينها لجنة عربية عليا جديدة مكونة فقط من المنتمين إلى عائلة الحسيني وحلفائهم، ومن أبرزهم أمين الحسيني (رئيسا للجنة)، وجمال الحسيني (نائبا)، وحسين الخالدي (سكرتير)، وأحمد حلمي باشا، وإميل خوري، في حين تم استبعاد المعارضة من عضوية اللجنة.

أسفر تحييد الفلسطينيين العام 1939 وخلال الحرب، عن تقسيم فريد للسلطة والتمثيل، قامت فيه الدول العربية بتمثيل الفلسطينيين وطرح قضيتهم على البريطانيين وباقي العالم، في حين احتفظ الحسيني بسلطة تحديد ما هو مقبول ومعارضة (عادة) كل حل وسط، في وقت توارت فيه عائلة النشاشيبي بعد هزيمتها عن المسرح السياسي. ولم تسفر الجهود الصهيونية المبذولة خلال الفترة من العام 1942 إلى العام 1947 لإحياء المعسكر المعتدل (الذي لطالما اعتقدت المنظمة اليهودية أنه يمثل أغلبية الرأي العام الفلسطيني) عن أي نتيجة، وحتى يناير - فبراير 1948 ظل كبار المسؤولين في الإدارة السياسية للوكالة اليهودية وجهاز استخبارات الهاغاناه (من قبيل: غاد ماركس وعيزرا دانيال والياس ساسون) يأملون أن تستأنف المعارضة نشاطها وتحد من التوجه العربي للقتال وتنتزع مساندة الجماهير من عائلة الحسيني. بيد أن الخبراء العرب داخل اليشوف أكدوا بشكل عام أن مثل هذا الاحتمال غير مرجح إلا في حالة تعرض عائلة الحسيني إلى هزيمة عسكرية ضخمة وقيام الملك عبدالله في شرق الأردن بدعم المعارضة وتزويدها بالسلاح والمال⁽²⁶⁾.

خلفية تاريخية مختصرة

تماشى الانقسام بين عائلة الحسيني والمعارضة بشكل نسبي مع التقسيم الجغرافي والعشائري في البلاد، مما دعم من فكرة «الإقليمية» التي اتسم بها المجتمع والسياسات الفلسطينية عبر عقود. فعلى حين تركزت قوة الحسيني في القدس والقرى المحيطة بها، فضلا عن المناطق الريفية في السامرة وغزة، كانت المعارضة قوية في الخليل، الجليل، طبريا، بيسان، نابلس، جنين وحيفا. وكان من شأن صفة الإقليمية أن تؤدي إلى وجود مقاومة دائمة في حيفا، ونابلس والخليل لوضعية القدس المتفوقة في الحياة الفلسطينية، وازدراء قاطني المناطق المرتفعة في السامرة ويهودا (الاسم العبري للضفة الغربية) لأولئك المقيمين في السهل الساحلي.

مثل الانقسام بين المسلمين والمسيحيين عنصرا حاسما آخر داخل المجتمع الفلسطيني. فالمسيحيون - الذين تركزوا في المدن - كانوا غالبا أكثر ثروة وتعلما من المسلمين، وازدهرت أحوالهم خلال فترة الانتداب. وسادت في صفوف المسلمين شكوك من أن يقدم المسيحيون على «الخيانة» لمصلحة البريطانيين (رفقاء في الديانة المسيحية)، أو أن يتحالفوا مع اليهود (رفقاء في وضعية الأقلية). وفي واقع الأمر لم يشارك المسيحيون في تمرد 1936 - 1939. وفي مرحلة ما بين عامي 1946 و1947 وضع جهاز استخبارات الهاغانا قائمة بالشخصيات المسيحية البارزة «التي لها ميل إلى التعاون مع اليهود»، وتمت الإشارة إلى أن «هناك القليلين من هذا القبيل بين المسلمين، والعديد بين المسيحيين».

السبب وراء ذلك هو أن المسيحيين عانوا كثيرا تحت حكم المسلمين ونظروا إلى الهجرة اليهودية للبلاد وإلى الشرق الأوسط كافة على أنها نعمة... بيد أن القليل منهم كان على استعداد للتعبير عن رأيه علانية خشية ردود أفعال المسلمين⁽²⁷⁾.

في ضوء ما تقدم، رافقت الثورة درجة من العنف الموجه ضد المسيحيين، وشهدت الأعوام التي سبقت مباشرة في العام 1948 شيوع تعبيرات عن العداوة المسيحية - الإسلامية، وفي بعض الأحيان وصلت إلى العنف. وقد وفرت قصة جورج خوري بخيت من مدينة شفا عمرو (وهي مدينة صغيرة بالقرب من يافا قطنها مسيحيون ودروز

مسلمون) مؤشرا مهما في هذا الخصوص؛ إذ أطلق رجل مسلم مسلح النار على جورج خوري في الثامن من فبراير 1947 مما أسفر عن وفاته بعد مرور ثلاثة أيام. وفي حين ذهب «أعيان» المسلمين، بمن في ذلك الحاج أمين الحسيني الذي كان موجودا آنذاك في مصر، إلى أن حادث القتل ربما كان يتصل «بدوافع شخصية»، أكد المسيحيون في شفا عمرو أن الاغتيال نُفذ على أيدي «مأجورين مسلمين»⁽²⁸⁾. ووفقا لأحد تقارير الهاغاناه، فإن «كل طفل في شفا عمرو يعلم أن جورج قُتل لأنه كان يعمل سمسار أراضٍ لليهود»⁽²⁹⁾، وفي الوقت الذي طالب فيه المسيحيون بتسليم القاتل الذي اختبأ، مهددين بالثأر، دعا الحسيني رئيس الأسقفية الكاثوليكية اليونانية، جورج حكيم، إلى زيارته في مصر لمناقشة الأمر⁽³⁰⁾. وأوضح للأخير خلال اللقاء أنه «لا يوجد مكان في الوقت الحالي للشقاق بين المسيحيين والمسلمين»⁽³¹⁾. وعلى الرغم من ذلك وصلت العلاقات بين الجماعتين في شفا عمرو إلى أدنى مستوياتها: «فالمقاطعة المتبادلة (بين المسيحيين والمسلمين) كانت أقوى من تلك الواقعة بين العرب واليهود، ومن ثم فكر المسيحيون في مغادرة البلدة وبناء قرية جديدة لأنفسهم»⁽³²⁾، في حين ذهب البعض الآخر إلى البحث في فكرة الرحيل إلى حيفا. في نهاية المطاف خفّت حدة الضجيج، وإن استمرت الحادثة وتبعاتها تلقي بظلالها على طبيعة العلاقات الهشة بين المجتمعات العربية. وفيما يتصل بالموقف في يافا فقد كان أقل توترا ولكن من دون اختلاف، ووفقا لجهاز استخبارات الهاغاناه:

لم تكن العلاقات بين الجماعتين جيدة على الرغم من أنه كان يُحافظ ظاهريا على ملامح صداقة اضطرارية. والعلاقة بين الطبقتين الدنيا والوسطى كانت أسوأ مما هي بين الأثرياء. وفي واقع الأمر، لم يكن هناك اتصالات (باستثناء المعاملات التجارية) بين المجتمعات... لقد شارك المسيحيون في اضطرابات العامين 1936 و1937 تحت الإكراه وبسبب الخوف من المسلمين، فقلوب المسيحيين الآن وبشكل عام ليست مع أعمال الشغب حيث إن أغلبهم يعمل بالتجارة ويمكن أن يصيبه الأذى...⁽³³⁾.

وقبيل شهر من صدور قرار التقسيم عن الأمم المتحدة، تمخض اجتماع لنبلأ مدينة حيفا المسيحيين عن ضرورة تشكيل مليشيا مسيحية بهدف:

حماية الأرواح والممتلكات المسيحية. ومن الناحية الظاهرية بدا أن الدعوة إلى التجنيد في هذه المليشيا يقصد منه الاستعداد لمواجهة هجمات

خلفية تاريخية مختصرة

من اليهود، بيد أن حقيقة الأمر هي أن المسيحيين أرادوا الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات التي ربما يشنها المسلمون ضدهم في خضم حالة الفوضى التي سادت إبان عملية انسحاب الجيش البريطاني»⁽³⁴⁾.

شهدت بدايات شهر نوفمبر في العام 1947 - وفقا لجهاز استخبارات الهاغاناه - محاولة بعض المسيحيين «الفرار من البلاد». وكان السبب وراء ذلك هو: إن المسيحيين في الناصرة، ومن بينهم أغلب كبار الموظفين في إدارة الحي، عاشوا في حالة خوف على ممتلكاتهم وأرواحهم (بهذا الترتيب) من المسلمين. فقد تزايد إرهاب آل الحسيني بشكل كبير وسُلبت مبالغ كبيرة من المال من المسيحيين»⁽³⁵⁾.

فضل أغلبية المسيحيين على الأرجح استمرار الانتداب البريطاني على الحصول على الاستقلال تحت سلطة الحسيني، بل وربما يكون بعضهم قد فضل الحكم اليهودي. فالجميع كان يدرك مغزى المقولة الشعبية الإسلامية: «بعد السبت يأتي الأحد». (المقصود أنه بعد التعامل مع اليهود سيأتي دور المسيحيين). ومن أجل إحداث نوع من التوازن، بذل قادة المجتمع المسيحي قصارى جهدهم وبشكل متكرر للتعبير عن ولائهم للقضية الوطنية، وخلال عقد السبعينيات كان المسيحيون من بين الأعضاء البارزين في المنظمات الفلسطينية الأكثر راديكالية (من قبيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والتي كانت رائدة على المستوى العالمي في عمليات اختطاف الطائرات). كما توقع المسلمون، كشف العام 1848 أن قادة المجتمع المسيحي، خصوصا في حيفا ويافا، كانوا بشكل عام أقل ولعا بالقتال من أقرانهم المسلمين. وعلى الرغم من المحاولات المتكررة التي أقدم عليها القادة الصهاينة لاستثمار ذلك الانقسام، فإنه في اللحظة الأخيرة كان المسيحيون دائما يتجنبون الانتقال من مستوى التأكيدات التصالحية في الخفاء إلى العمل الفعلي بشكل معلن. ومع ذلك، شهدت الأسابيع الأولى من الحرب، تدهورا في العلاقات بين المسلمين والمسيحيين على خلفية العنف المتبادل بين العرب واليهود، والشكوك التي راودت المسلمين من أن المسيحيين يتعاونون مع اليهود، وفي هذا الصدد كتب ضابط جهاز استخبارات الهاغاناه في القدس ما يلي:

استمر المسيحيون في الشكوى من سلوك العرب السيئ تجاههم، ورغب العديد منهم في ترك ديارهم، فقد هدد أعضاء العصابات (العرب غير النظاميين) بقتلهم بعد الانتهاء من التعامل مع اليهود⁽³⁶⁾.

وفضلا على ذلك اشتكى المسيحيون من أن المسلمين كانوا «غير قادرين على أي شكل من أشكال التنظيم، وأن أي نشاط قاموا به انتهى به المطاف إلى الفشل، في حين أن الأشخاص القادرين على التنظيم كانوا المسيحيين، ومع ذلك لم يسمح لهم بتولي مناصب ذات سلطة⁽³⁷⁾».

كان هناك صدع آخر في المجتمع الفلسطيني بين المجتمعات المستقرة من جانب، والبدو من جانب آخر، فكل من الطرفين كان يزدري الآخر، وكان المجتمع القروي يخشى البدو على خلفية عقود سادت فيها عمليات السلب التي قامت بها القبائل البدوية. وقد كان البدو أكثر شرائح المجتمع العربي بعدا عن السياسة، وراودتهم الشكوك في محاولات الحسيني للتلاعب بهم، وعشية الحرب، في الخامس والعشرين من نوفمبر 1947، نُظم اجتماع سري بين شيوخ البدو في بئر السبع وشيوخ من قبائل طه وسنا وتوصل إلى ما يلي:

إن بدو النقب يمثلون شريحة مستقلة (من السكان) ولا يرتبط شيوخهم بأي روابط سياسية مع قطاعات أخرى، وسيحدد البدو بأنفسهم مواقفهم من تطورات الأحداث في فلسطين، ولن يتلقوا أوامر فوقية⁽³⁸⁾.

وقد حمل هذا الموقف رسالة واضحة للجنة العربية العليا. قدم افتقار العرب إلى مؤسسات الحكم الذاتي بمفاهيمها وتقاليدها الدليل الرئيسي على الضعف الفلسطيني العربي، فالمجتمع العربي كان منقسما إلى قطاعات تتسم بالمحدودية والضيق، كما أنه كان متخلفا، غير موحد، وغالبا يتصف باللامبالاة، وإجمالا كان بمنزلة جماعة بدأت لتوها في الدخول إلى العصر الحديث سواء كان ذلك سياسيا أو إداريا. وفي بعض الميادين (من قبيل شراء الأراضي أو تنظيم المليشيا...) حاول قاداته نقل النموذج الصهيوني، بيد أن الاختلافات الشاسعة في صفات كل من الشعبين والتباين في مستويات الوعي والالتزام والقدرة على التعلم جعل العرب في موقف ضعيف للغاية بالمقارنة بالمجتمع اليهودي، وفي اللحظة التي وصل فيها اليشوف إلى وضع متقدم، كانت النتيجة اللاحقة أمرا محتوما.

خلفية تاريخية مختصرة

يمكن القول إنه على أقصى تقدير كان لدى الكثيرين من السكان العرب قبيل العام 1948 مجرد فكرة غامضة عن هدف وطني يتصل بإنشاء دولة، وفي المقابل كان هناك وضوح حول أمر واحد فقط: اليهود يسعون إلى طردهم، الأمر الذي يستلزم إحباط مخططاتهم ودفعهم إلى خارج البلاد. وفي المقابل فإنهم كانوا أقل تحمسا أو اتحادا حول هدف طرد البريطانيين. وإجمالا، وباستثناء دائرة صغيرة محدودة العدد من النخبة، لم يكن الفلسطينيون مستعدين لحمل الرسالة الوطنية أو لتحقيق المتطلبات الواجب توافرها لتحقيق الذات الوطنية، سواء كان ذلك خلال الفترة من 1936 إلى 1939 أو - وبشكل أكثر وضوحا - في الفترة 1947 - 1948؛ فالالتزام والاستعداد لدفع الثمن يفترض وجود مفهوم واضح للأمة والانتماء الوطني، وهو ما افتقده العرب نتيجة لحالة الانغلاق على العشيرة، أو القرية، أو في أقصى تقدير الاقتصار على نظرة إقليمية محدودة. وبنهاية الأربعينيات كان الجانب الأكبر منهم لا يزال يفتقر إلى الشعور بهوية مستقلة سواء كانت وطنية أو ثقافية تميزهم عن العرب الآخرين، على سبيل المثال في سورية. وعلى الرغم من أن مثل هذا الشعور بدأ في النضج خلال فترة الانتداب، نتيجة لانتشار التعليم، والإلمام بالقراءة والكتابة، وشيوع الصحف والمذيع، فإن عملية النضج ذاتها كانت بطيئة وفشلت في مسايرة الحقائق على أرض الواقع والمتطلبات التي تفرضها التغيرات المفاجئة والسريعة، فبالنسبة إلى الجماهير الفلسطينية كان الصراع من أجل إقامة دولة مسألة بعيدة.

فسر الافتقار إلى الوعي السياسي والالتزام (فضلا عن عدم توافر الأشخاص المتعلمين) جزئيا الفشل في إقامة مؤسسات حكم ذاتي. حتى في المجال الوحيد الذي كان لدى العرب فيه مؤسسات «حكم ذاتي» تقوم على شكل ما من أشكال الانتخابات، (حتى وإن كانت تتم بشكل غير منتظم: 1926، 1934، 1946) وتقتصر حق التصويت على الأعيان)، والمقصود بذلك البلديات، عجزت تلك المؤسسات عن العمل بنفس الكفاءة التي اتسمت بها المؤسسات المشابهة في اليشوف. ولعل البحث في مجال الميزانية يقدم مثلا واضحا على ذلك. فقد بلغت ميزانية مدينة الرملة العربية سكانها العشرين في عام 1941 6,317 جنيها إسترلينيا. ومدينة جنين الأكثر صغرا بكثير كانت ميزانيتها 2,320 جنيها، وبيت لحم (التي قطنها ما يزيد على عشرة آلاف نسمة) 3,245 جنيها، ونابلس (التي بلغ عدد سكانها في العام 1942 ما يقرب من 30,000) 17,223 جنيها،

ويافا (ذات الأغلبية العربية الساحقة بما يقدر بـ 70 ألفا في العام 1942) 90,967 جنيها، وبالمقارنة بمدينة بتاح تكفا اليهودية والبالغ عدد سكانها 30 ألف نسمة والتي بلغت ميزانيتها في العام 1941 39,463 جنيها، وتل أبيب وعدد سكانها 200 ألفا في العام 1942 بميزانية 779,589 جنيها.

تمثلت المؤسسة الوطنية الوحيدة التي كانت تعمل خلال فترة الانتداب في اللجنة الإسلامية التي ترأسها حتى العام 1937 الحسيني، وظلت تحت سيطرته حتى العام 1948. وكانت مختصة بإدارة الأوقاف (الجهة الإسلامية المسؤولة عن الأماكن المقدسة) والمحاكم الإسلامية (الشرعية) وصيانة المساجد وتعيين المسؤولين الدينيين (الأئمة والخطباء)، فضلا عن إدارة عدد من الخدمات التعليمية والاجتماعية (مثل المدارس ودور الأيتام)، وكان يتم تعيين أعضاء هذه المؤسسة من قبل الحكومة. خلال العشرينيات والثلاثينيات استغل الحسيني النفوذ المالي للمؤسسة، الذي أتى بشكل أساسي من الحكومة، لحشد التأييد ضد النشاشيبي، وفي الوقت نفسه وقّف التمويل المخصص للمناطق التي مثلت مراكز للمعارضة مثل مدينة الخليل. وفي منتصف الثلاثينيات أصبح دور المنظمات المحلية هامشيا بعد تأسيس اللجنة العربية العليا، وكذلك بعد نفي الحاج أمين الحسيني خارج البلاد.

كانت اللجنة العربية العليا بمنزلة الجهاز الوحيد الذي اقترب من شكل الحكومة (كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى الوكالة اليهودية)، غير أنها عملت بشكل متقطع في الفترة من 1936 حتى 1939 وكذلك من 1946 حتى 1948، وباشراً أعضاؤها (مجلس وزراء فلسطين العربية) أعمالهم من خارج البلاد خلال الفترة من 1937 حتى 1948. وقد كان المفتي هو الرئيس الاسمي في حين تولى ابن عمه جمال الحسيني تسيير الأمور اليومية. وخلال الفترة من 1947 حتى 1948 كان لدى اللجنة ست إدارات غطت من الناحية النظرية ملفات متنوعة من العمل السياسي: إدارة الأرض (على رأسها مصطفى الحسيني) وكانت مسؤولة عن شراء الأراضي ومنع اليهود من القيام بذلك؛ الإدارة المالية (برئاسة عزام طنوس) وكانت مسؤولة عن النفقات والسعي وراء الحصول على التمويل؛ والإدارة الاقتصادية (وعلى رأسها ياسين الخالدي) والتي تولت مسؤولية العمليات التجارية والتصدير والاستيراد؛ ولجنة المقاطعة (برئاسة رشيد الخطيب) التي أشرفت على مقاطعة البضائع والخدمات اليهودية؛ وإدارة

خلفية تاريخية مختصرة

التنظيم الوطني (وعلى رأسها رفيق تميمي) وكانت مسؤولة عن الاتحادات الرياضية والاتحادات الشباب؛ وإدارة السجناء والخسائر البشرية (برئاسة محمد سعيد غربية وسالح ريموي) التي أوكلت إليها مهمة رعاية أسر الذين قتلوا أو جرحوا أو سجنوا في أثناء قيامهم بخدمة الوطن وأسرهم؛ فضلا عن إدارة الصحافة (برئاسة محمود شركس) وكانت بمنزلة جهاز إعلام أو دعاية يشرف على التغطية الإعلامية والعلاقات مع الصحفيين. ومع ذلك فشل ذلك التشكيل في تغطية قطاعات مهمة أخرى تدخل في نطاق عمل الحكومات (الخدمات الصحية، التعليم، النقل، العلاقات الخارجية، الدفاع)، أما الميادين التي شملها فقد تم التعاطي معها بطريقة متواضعة. وفي نهاية يناير 1948 لم تكن هناك إلا إدارة واحدة تعمل وهي إدارة الخزانة⁽³⁹⁾، وفي هذا الخصوص ذكر جهاز استخبارات الهاغاناه:

في حقيقة الأمر، سادت حالة من الفوضى في الإدارات وكانت الحدود بين اختصاصاتها مشوشة بوجه عام. وتدخل كل موظف في اختصاصات زميله، وكان هناك قدر قليل من تحمل المسؤولية مما زاد من ضخامة الانتقادات من قبل العامة، في حين كان يُختار المسؤولون ورؤساء الإدارات بطرق غير نظيفة، حيث ساد الفساد ومحاباة الأقارب.

في واقع الأمر ظل الفلسطينيون يعتمدون في أغلب القطاعات على إدارة الانتداب، وبالتالي عندما بدأت الأخيرة في الانهيار (شتاء 1947 - ربيع 1948)، وعم القتال المدن والقرى والطرق، انزلقت فلسطين العربية، خصوصا المدن، نحو الفوضى، وسادت حالة الاضطراب تداول المواد الغذائية وتقديم الخدمات الصحية والنقل العام والاتصالات في حين تلاشى الأمن والنظام. وفي المقابل، تمكن اليشوف من التأقلم مع ظروف الحرب والحصار نفسها، وبعدد أقل من القوى العاملة، وعلى الرغم من افتقاره إلى مساندة دول مجاورة صديقة.

الاستعدادات العسكرية

كان التباين التنظيمي بين المجتمعين (العربي واليهودي) قبل 1948 واضحا في المجال العسكري شأنه في ذلك شأن المجالات الأخرى وربما بدرجة أكبر. فعلى الرغم من أن

العرب بدأوا في الاستعداد للحرب في مطلع الثلاثينيات، فإن النتائج التي تم التوصل إليها كانت هزيلة، وجاءت الضغائن السياسية الداخلية لتضعف من أهمية تلك الإنجازات. تم تأسيس ثلاث مؤسسات قتالية جهادية: «الكف الخضراء» في منطقة الخليل، و«الجهاد المقدس» في منطقة القدس، وقادها عبد القادر الحسيني - ابن أخ المفتي - و«الشباب الثائر» في منطقة طولكرم - قلقيلية، وقامت التشكيلات الثلاث بتخطيط وتنفيذ هجمات ضد البريطانيين وإن كانت محدودة. وكانت الأنشطة التي قادها الشيخ عز الدين القسام في محيط مدينة يافا وشمال السامرة أكثر إثارة وخطورة. فبعد قيام فرقته بقتل عدد من المستوطنين ورجل شرطة، تعرضت للحصار والتصفية من قبل البريطانيين أواخر العام 1935.

كان لقرار الحسيني الخاص بتأسيس جماعات الشباب «الفتوة» وقع أكثر أهمية في تجيش فلسطين العربية؛ والتي قامت بالتدريب العسكري على استخدام السلاح للطلبة صغار السن، وذلك على غرار نموذج منظمات الشباب النازية⁽⁴⁰⁾. وقد أفرزت هذه التنظيمات بعض الكوادر السياسية التي نظمت الإضراب العام في 1936، وما تلاه من أعمال عنف خلال فترة التمرد؛ وقد جرت عملية إعادة تأسيس «الفتوة» في أعقاب الحرب العالمية الثانية، غير أن أعضائها لم يتجاوزوا على الإطلاق مئات عدة من الشباب الحاملين للسلاح. بناء على مبادرة من المعارضة - التي كان مركزها في مدينة «يافا» - تأسست منظمة أكبر تحت مسمى «النجادة» في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، وبحلول صيف العام 1946 تراوح عدد أعضائها ما بين 2000 و3000 فرد بقيادة محمد نمر الهواري، وكان ضباطها من الفلسطينيين العرب الذين خدموا في الجيش البريطاني. بيد أنه خلال محاولة الحسيني السيطرة عليها قُضي عليها⁽⁴¹⁾، وترتب على كل ذلك أن الفلسطينيين دخلوا الحرب من دون أي مليشيا وطنية.

استندت القوة العسكرية الفلسطينية خلال حرب 1948 إلى عدد محدود من الجماعات (أو العصابات) المسلحة ضمت كل منها مئات عدة من الأفراد غير النظاميين، بالإضافة إلى المليشيات التي شُكلت في كل مدينة وقرية على حدة.

وقد كانت الجماعات المسلحة غير النظامية - ومن أبرزها «جيش الجهاد المقدس» بقيادة عبد القادر الحسيني في منطقة المرتفعات المحيطة بالقدس، وجماعة حسن سلامة في الضواحي بالقرب من اللد والرملة - ليست سوى إعادة

تشكيل للجماعات التي كانت نشطة في الفترة من 1936 حتى 1939. وكانت مسلحة بأسلحة خفيفة وتعتمد على خطوط إمداد (غير مضمونة غالبا) للذخيرة خارج فلسطين. كما أنها لم تتمتع بتنظيم لوجيستيكي، وإنما كانت تنتقل من قرية إلى أخرى وتفرض وجودها على السكان الممانعين لذلك. وكان أغلبية عناصرها من منتسبي اللجنة العربية العليا وغالبا ما كانوا على خلاف مع مليشيات المدن المجاورة التي قادتها عادة شخصيات من المعارضة وقوات جيش الإنقاذ. وخلال نصبهم لكمان للقوافل التابعة لليشوف أو مهاجمتهم لمستوطناته، كانت عناصر من المليشيات المحلية تنضم إليهم، مما أسفر عن نشر حالة «فزعة» (أو إنذار كما كانت عليه الحال في «كونكورد» و«ليكسنغتن» في بداية الثورة الأمريكية). وبنهاية اليوم كانت عناصر المليشيا تتفرق لتعود إلى ديارها. وبصفة عامة فإن حالات «الفزعة» كانت معتادة بدءا من شهر يناير حتى شهر مارس على طول الطريق المؤدية من القدس إلى تل أبيب، ولكن بقيت كل مليشيا متمركزة في قريتها بهدف الدفاع عنها ضد الهجمات اليهودية.

كانت المليشيات المنفصلة في كل قرية تضم عشرات عدة من الرجال يفتقرون إلى التدريب العسكري، وإن كان في حوزتهم بنادق تفاوتت درجة حداثتها وأعيرتها. وفي بعض الأحيان توفر لدى القرية مدفعا أو مدفعين متوسطين وعددا محدودا من المسدسات، وعادة كان هناك نقص في الذخيرة وانعدام للتنظيم اللوجستيكي الواجب توافره للقيام بعمل قوي ومستمر خارج القرية.

على الرغم من عدم توافر أرقام نهائية عن حجم مخزون السلاح لدى تلك المنظمات البدائية، فإنه يمكن تكوين فكرة عن القوة العسكرية لعرب فلسطين من خلال الأرقام الخاصة بتسليح كل قرية على حدة، فقرية غوير أبو شوشة بالقرب من بحر الجليل والبالغ عدد سكانها 1240 نسمة في أبريل 1948، كان لديها وفقا للتقارير مليشيا مكونة من 48 فردا في حوزتهم من 35 إلى 40 بندقية من أنواع مختلفة، وذخيرة تكفي للاستخدام ما بين 20 و50 مرة لكل فرد. أما بالنسبة إلى قرية عين الزيتون بالقرب من صفد - والتي قطنها 800 شخص - فقد توافرت مليشيا ضمت من 50 إلى 60 فردا بحوزتهم من 40 إلى 50 بندقية متنوعة ومدفع أو مدفعين، وذخيرة تكفي لما بين 25 إلى 30 مرة استخدام لكل بندقية. وفي مدينة

صفد التي سكنها 9500 نسمة وُجِدَت مليشيا مكونة من 200 - 250 فردا مسلحين ب ذخيرة تكفي لاستخدام البندقية من 35 - 50 مرة، وفي مدينة الخليصة في سهل الجليل البالغ عدد سكانها 1840 نسمة كانت هناك مليشيا ضمت 35 - 40 رجلا مسلحا ب ذخيرة تكفي لاستخدام البندقية من 50 - 70 مرة⁽⁴²⁾. وفي يناير 1948، وطبقا لجهاز استخبارات الهاغاناه، كان في حوزة قرية الطيرة جنوبي حيفا 40 مسدسا و 64 بندقية و 4 مدافع خفيفة و 3 مدافع ثقيلة ولكن من دون ذخيرة، وفي عين غزال القريبة والتي قطنها 3000 نسمة توافر في منتصف العام 1947 83 سلاحا، من بينها 23 مسدسا و 45 بندقية عتيقة الطراز⁽⁴³⁾. وفي المدين الكبرى لم يكن الموقف أفضل⁽⁴⁴⁾. إن نظرة عن قرب على الأحداث خلال شهر مارس 1948 في منطقة لم تصبها الحرب، ومن قبل مسؤول أو ضابط طبيب بريطاني غير معلوم الاسم، تعطي فكرة سريعة حول طبيعة مجرى الأمور:

لقد قضيت الفترة من بعد ظهر السبت حتى صباح الأحد في قرية الرأس الأحمر في شمالي الجليل... لم تكن هذه القرية بطبيعة الحال ذات أهمية كبيرة، ولكنها أعطت مؤشرا على أنه إذا كانت الحال في القرى كافة كما رأيت فإن العرب لن يذهبوا بعيدا في القتال. فلم تتوافر أي أطقم طبية أو أي فرد لديه فهم بالعمل الطبي، وكانت لديهم ذخيرة تكفي لهجوم واحد من دون أي احتياطي أو قيادة يعتد بها.

وعندما توجهت إليهم بالسؤال حول المكان الذي وضعوا فيه الهاون والمدافع أجابوا بأن الحسيني سيرسلها في الوقت المناسب، كما أنه سيزودهم بكل ما يحتاجون إليه، فهناك قدر كاف من الأسلحة في نابلس والخليل كما قالوا.

وبشكل عام فإن رجال هذه القرية (الموالية للحسيني) تصرفوا كمجموعة من طلبة المدارس، مظهرين أسلحتهم في نوع من الاستعراض ليظهروا لي مدى خشونتهم واستعدادهم لمحاربة اليهود، وكذلك أسفهم لعدم وجود يهود في الجوار لقتلهم⁽⁴⁵⁾.

اعتمد الفلسطينيون خلال فترة الانتداب على أطباء الحكومة (أغلبهم من اليهود) ومؤسساتها الطبية، وقد كان الافتقار إلى الخدمات الطبية مصدر إزعاج شديد للفلسطينيين خلال الحرب التالية⁽⁴⁶⁾.

وعلى صعيد آخر ساهمت مجموعة من العوامل في إعاقة الجهود التي بُذلت للحصول على أسلحة خلال الأشهر الأخيرة للعام 1947، ومن بينها الانقسام بين الحسيني والنشاشيبي، والفقر، وعدم توافر الإرادة في مساندة القضية الوطنية، وهو ما عكس المستوى المنخفض للوعي السياسي والالتزام. ومنذ منتصف العام 1947، واقترب صدور قرار الأمم المتحدة، بدأ القادة الفلسطينيون في فرض ضرائب وجمع التبرعات لتمويل الحرب وشيكة الوقوع؛ حيث فُرضت الضرائب على السجائر (واحد في ألف من سعر العلبة) وتذاكر الحافلات (خمس في ألف من سعر الرحلة). ولكن كان من الواضح أن العامة لم تشارك في هذا العمل بحماس، فبحلول الأول من نوفمبر في العام 1947 بلغت قيمة المبلغ الذي جُمع 25,000 جنيه إسترليني، وكان من الواضح أن مثل هذا المبلغ لا يمكن أن يكفي لتمويل أنشطة اللجنة العربية العليا التي تزايدت بشكل مطرد⁽⁴⁷⁾. وخلال الشهر الأول من الحرب، أشار تقرير لجهاز استخبارات الهاغاناه إلى العشرات من الحالات التي ناشد فيها القادة العرب المحليون والجماعات العسكرية الجماهير تقديم المساهمات، وهو ما قُوبل بعدم توافر الإرادة. وعلى سبيل المثال تواترت معلومات عن قيام نبلاء قريتي عرب السطرية وبيني في السهل الساحلي الجنوبي بتحصيل مبلغ 25 جنيهاً إسترلينياً من كل فرد - تحت وقع الضغط والتهديد - لتمويل عملية شراء الأسلحة⁽⁴⁸⁾. لم يكن لدى الفلسطينيين العرب قدرة على تصنيعها.

على الرغم من وصول عدد صغير من الوحدات غير النظامية من الخارج، فإن الأمور لم تتحسن بشكل كبير خلال الأشهر الأولى للحرب، فقد أوضح تقرير استخباري صادر في دمشق أواخر شهر مارس في العام 1948 أن مليشيات المدن:

لم يكن في حوزتها إلا القليل من البنادق القديمة وعدد محدود من

الرشاشات والقنابل اليدوية... وقدرة هذه القوات على أن تصد اليهود، الذين

كانوا متفوقين في العدد والعتاد، كانت موضع شك⁽⁴⁹⁾.

فيما يتصل بوحدة القيادة والسيطرة للقوات المسلحة خصوصاً في المدن، كان العرب بشكل كبير في وضع غير موات، وهو ما تبين بشكل صارخ خلال الشهور الأولى للحرب. ففي خلفية الأحداث كان هناك دائماً الانقسام بين الحسيني والنشاشيبي

الذي عاد للظهور إلى السطح خلال العامين 1946 - 1947 حيث انبعثت اللجنة العربية العليا مجددا وأعادت فرض سلطتها. وخلال الفترة ما بين شهر أبريل 1946 حتى 1947 انطلقت حملة إرهاب حقيقية (على غرار ما حدث في العامين 1937 - 1938) ضد رموز المعارضة ومن حامت حولهم شبهات التعاون مع الصهاينة: ففي الثالث والعشرين من نوفمبر في العام 1946 أُغتيل فوزي درويش المرتد عن عشيرة الحسيني، وهُوجم أعضاء من عشيرة أبو غوش في الخامس والعشرين من ديسمبر من العام نفسه، وشهد شهر فبراير 1947 اغتيال علي شاهين في يافا، وجرت محاولات خلال شهر أبريل لاغتيال كل من محمد ياسين وعمر أرسان وزكي سفاريني ومحمد يونس الحسيني. ووصفت صحيفة فلسطين الصادرة في يافا آنذاك محاولة اغتيال الأخير على أنها عودة إلى أحداث 1937 - 1939 وضربة للوحدة الوطنية، وعلى الرغم من قيام المعارضة بعمليات انتقامية، فإنها لم ترق إلى المستوى نفسه، وانتهى الأمر في نوفمبر 1947 بإسكاتها تماما⁽⁵⁰⁾.

وفرت سيطرة الحسيني على المشهد السياسي مظهرا خارجيا للوحدة في بداية القتال؛ حيث دُفنت الخلافات مؤقتا وشُكلت لجان وطنية، كما كانت عليه الحال في العام 1936، في كل مدينة وفي بعض القرى. غير أن الاختلافات في التوجهات السياسية والمصالح الاقتصادية سرعان من بدأت في الظهور. فعلى المستوى القومي كانت هناك مليشيات تخضع لسيطرة أجهزة مختلفة (اللجنة العربية العليا، المعارضة، اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية، جيش التحرير العربي، الحكومة الأردنية، الإخوان المسلمين في مصر)، وفي بعض المدن مثل يافا وُجدت مليشيات عدة دانت كل منها بالولاء لسيد مختلف وفر لها الأموال والسلاح والتعزيزات، وعلى المستوى المحلي، في بعض المناطق مثل الأراضي النائية في القدس كانت هيمنة الحسيني عليها تعني إستراتيجية عدائية وهجومية ضد اليهود، وفي المناطق الأخرى التي ضعفت فيها سلطة الحسيني وسادت مصالح الطبقتين العليا والمتوسطة - كما كانت عليه الحال في يافا وحيفا - كُبح جماح عدوانية الحسيني بشكل متقطع. وفي كل أرجاء البلاد ساد انعدام التنسيق والتعاون بين اللجنة العربية العليا واللجان الوطنية خصوصا في كل من يافا وحيفا. وعلى الرغم من جهود اللجنة العربية العليا لتدعيم سيطرتها من خلال

الاتصالات المباشرة مع مؤيديها (أئمة، موظفي المحليات، قادة الميليشيات المحلية) متجاوزة اللجان الوطنية، فإن نجاحها في ذلك لم يكن إلا جزئياً⁽⁵¹⁾.

مثلت حيفا ويافا نموذجين لمشكلة أكثر عمومية أثرت في الأداء الفلسطيني في الحرب، فالميليشيات في كل منطقة ومدينة عملت إلى حد كبير في معزل عن السيطرة السياسية، وقد كان هذا واضحاً خصوصاً في المدن التي وُجدت بها قوات كبيرة من القوات النظامية غير المحلية، ومن بينها يافا. فالميليشيات في يافا وحيفا وأيضاً القدس تجاهلت أو تحدثت بشكل كبير التعليمات الصادرة من لجانها الوطنية، ومن وقت إلى آخر تلك الصادرة من اللجنة العربية العليا، أو اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية. في نهاية يناير العام 1948 اشتكى قائد اللجنة الوطنية في القدس عضو اللجنة العربية حسين الخالدي للمفتي من أن القوات غير النظامية التابعة لعبد القادر الحسيني كانت تتجاهل أوامرهم بشكل عام وتتصرف من دون أي تنسيق، وذهب الخالدي إلى القول إن ذلك أدى إلى سيادة «تشويش لا يمكن وصفه»⁽⁵²⁾. دفع ذلك بالسلطات البريطانية إلى التوصل إلى نتيجة مفادها أن اللجان الوطنية واللجنة العربية العليا نجحت فقط في ممارسة «سلطة نسبية واهية» على الميليشيات في المدن⁽⁵³⁾.

فيما يتصل بالريف، اتجهت كل قرية إلى اتخاذ قراراتها والتصرف بشكل منفرد، مما أدى إلى دخولها الحرب، وانهزامها، بمفردها. وبين الفينة والأخرى ساند أفراد الميليشيات في قرية أو أكثر، جماعة من القوات غير النظامية، بمهاجمة مستوطنة أو قافلة يهودية، غير أن النسق العام تمثل في اتخاذ مواقف دفاعية نتيجة سيادة قدر كبير من الاعتقاد في القدر. فضلاً على ذلك، لم تكن القرى مصممة لحالة الحرب؛ حيث افتقرت إلى الخنادق والتحصينات، كما أن سكانها لم تتوافر لديهم - على عكس ما كانت عليه الحال بالنسبة إلى قاطني الكيبوتسات - الاستعداد النفسي لمقاومة الهجمات عليهم، والتي اتسمت غالباً في العام 1948 بإطلاق وابل من قذائف الهاون وفي بعض الأحيان غارات جوية خفيفة. وهكذا فإن ميل القرى إلى أن تتعامل بشكل منفرد مع الموقف وعدم استعدادها للقتال أسفرا عن نتائج كارثية؛ حيث كانت باستطاعة الهاغاناه السيطرة على القرى الواحدة تلو الأخرى من دون أن تتعرض لدفاعات متناغمة عبر الأقاليم، وفي كثير من المناطق لم يكن هناك حتى

تعاون في العملية الدفاعية بين القرى المتجاورة نتيجة للغيوم التي لبدت سماء العلاقات بينها، والتي نتجت عن الضغائن والتنافس على الأرض أو غيرها.

بشكل عام تكونت لدى الفلسطينيين في نهاية العام 1947 صورة مضخمة وبالتالي مُحبطة حول قوة اليشوف العسكرية. وقد تضمن تقرير من مصدر استخباراتي يهودي في أكتوبر العام 1947 وصفا للموقف في الريف على النحو التالي:

إن الفلاح خائف من الإرهابيين اليهود... الذين يمكن أن يقذفوا قريته بالمدافع ويدمروا ممتلكاته... وساكن المدينة اعترف بأن قوته غير كافية لمحاربة القوة اليهودية وتطلع إلى الإنقاذ من الخارج [المقصود من قبل الدول العربية]، وفي الوقت نفسه، كانت الأغلبية المعتدلة... في حالة ارتباك وذعر... حيث كدست المواد التموينية... وكان يتم إكراههم والضغط عليهم من قبل المتطرفين... وكان السلام والهدوء هو كل ما يريدونه⁽⁵⁴⁾.

توقع الفلسطينيون أنهم سيخسرون المعركة، ولكن وفي ضوء رؤيتهم للصراع على أنه سيستمر لعقود أو قرون فإنهم اعتقدوا أن اليهود، شأنهم في ذلك شأن الملوك الصليبيين في القرون الوسطى، سينتهي بهم المطاف إلى الهزيمة على أيدي العالم العربي⁽⁵⁵⁾.

تضمن تقييم للاستخبارات الحربية البريطانية في يوليو العام 1947 تقديرا بأن الدولة اليهودية طور التكوين يمكنها أن تهزم العرب الفلسطينيين حتى لو سُوندوا بطريقة سرية من قبل دولة أو دولتين عربيتين⁽⁵⁶⁾. وقد توصلت اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية، ومقرها في دمشق، في أكتوبر العام 1947 إلى نتائج مماثلة:

أ - أن الصهيونيين في فلسطين (منظمات وأحزاب، سياسيا وعسكريا وإداريا) على مستوى عال من التنظيم، وهذه المؤسسات يمكنها أن تتحول بشكل فوري إلى حكومة صهيونية تمتلك الوسائل اللازمة كافة للحكم.

ب - يمتلك اليهود اليوم قوات ضخمة، سواء من حيث العناصر البشرية أو التسليح أو المعدات.

ج - اليهود لديهم موارد اقتصادية هائلة داخل البلاد وخارجها.

خلفية تاريخية مختصرة

د - اليهود لديهم قدرة كبيرة على الحصول على دعم ومعدات من وراء البحار بكميات ضخمة.

وفيما يتعلق بالعرب الفلسطينيين أوضحت النتائج ما يلي:

أ - ليس في حوزة الفلسطينيين العرب حاليا قوات كافية (بشرية، أسلحة، معدات) تمكنهم من التصدي (بطريقة مقبولة) للمنظمات الصهيونية.

ب - في المناطق ذات الأغلبية اليهودية يعيش الآن 350 ألف عربي في قرى منعزلة وتكتلات مهددة بالتدمير حال شن الصهاينة عمليات حربية واسعة.

بعد مرور شهر على هذا التقييم، وقبل صدور قرار الأمم المتحدة الخاص بالتقسيم بيومين، أوضح اللواء العراقي إسماعيل صفوت، الذي شغل آنذاك منصب رئيس اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية، لرئيس أركان القوات المسلحة العراقية أن «أغلب الفلسطينيين العرب لا يمكنهم الآن بأي طريقة من الطرق صد القوات الصهيونية، وذلك على الرغم من تفوقهم العددي...»⁽⁵⁷⁾. وهكذا اتفق المراقبون كافة (يهودا - بريطانيين- فلسطينيين عربا - وعربا من خارج البلاد) عشية الحرب على أن الفلسطينيين غير قادرين على هزيمة الصهاينة أو صد أي هجوم من قبلهم؛ لأنهم كانوا ببساطة شديدي الضعف.

شهدت فلسطين في الفترة ما بين ديسمبر 1947 ومنتصف مايو 1948 صراعا ضاريا تضمن مظاهر حرب عصابات وإرهاب بين مجتمعين متداخلين بشكل كبير. فقد كانت هناك مناطق متجاورة مختلطة - في القدس وحيفا- وكذلك مدن بها خليط من مناطق منفصلة عربية ويهودية - القدس وحيفا وصفد وطبريا - ، ووجدت في كل حي ريفي وعلى امتداد أغلب الطرق قرى يهودية وعربية متداخلة. وقد كان الاستثناء على ذلك فقط في، مناطق التلال المركزية في يهودا خصوصا السامرة، التي عرفت فيما بعد باسم الضفة الغربية؛ حيث كان السكان بشكل شبه حصري من العرب.

دارت الحرب الأهلية بين المجتمعين بشكل رئيسي في المدن والمناطق الريفية ذات الطبيعة المختلطة، وغالبا في السهول، حيث كان اليهود يمثلون عامة الأغلبية الديموغرافية المهيمنة. وقد عمل كل طرف على عزل ومحاصرة الطرف الآخر ومدنه وقراه ومواقعه المتقدمة. وكان اليهود (نصف سكان القدس ويافا) والعرب

(نصف سكان حيفا) أكثر تأثراً في هذا المجال، غير أنه في نهاية المطاف لم يتمكن الفلسطينيون وجيش التحرير العربي من الاستيلاء على مستوطنة يهودية واحدة، في حين تمكن اليهود، بحلول منتصف مايو، من الاستيلاء على 200 قرية ومدينة عربية، بما في ذلك يافا، بيسان، صفد، حيفا العربية، وطبريا العربية. وحقيقة الأمر فإن الافتقار الفلسطيني إلى السلاح والعناصر البشرية المدربة، فضلاً عن تعدد مراكز القوى وعدم التنظيم وسيادة الارتباك، كلها عوامل عكست عدم توافر الإعداد المناسب في الفترة السابقة للعام 1948.

العالم العربي

اعتقد الفلسطينيون العرب أن النجدة ستأتي من العالم العربي المحيط بهم، بيد أن الانقسامات داخل المجتمع الفلسطيني تماشت مع الانقسامات بين الفلسطينيين أنفسهم وأولئك الذين جاءوا لمساعدتهم. فاليشوف تلقى مساعدات مالية من الغرب، وأساساً من الشعب اليهودي في أمريكا، أما العرب الفلسطينيون، فإنهم على الرغم من مساعدتهم المستمرة، لم يتمتعوا بالقدر نفسه من المساعدات المنتظمة التي يمكن الاعتماد عليها من الدول العربية أو العالم الإسلامي. وفي الواقع فإن رفض الحكومات والجيش العربية، في نهاية 1947 وبداية 1948، لمطالب الفلسطينيين بتزويدهم بالمال والعتاد والتعزيزات لم يكن إلا استمراراً لما كان عليه الوضع من قبل. وقد ترتب على ذلك، بشكل تراكمي، أن تولد بين الفلسطينيين شعور بالتخلي عنهم، وهو ما شكل مصدراً رئيسياً لتيأس منهم في العام 1948.

بحلول شهر مارس 1948 وصل إلى فلسطين إجمالاً ما يقارب خمسة آلاف متطوع عربي، جاء أغلبهم من المناطق المدنية الفقيرة وممن ألفوا العيش في السجون من العراق. وسورية ولبنان، ونُظموا تحت مسمى جيش التحرير العربي تحت قيادة فوزي القاوقجي، ومن الناحية العسكرية فإنهم كانوا غير مجدين بكل معنى الكلمة، وطوال فترة بقائهم في فلسطين كانوا دائماً على خلاف مع الميليشيات المحلية والسكان. وقد رفض جيش التحرير العربي سلطة اللجنة العربية العليا (أي الحسيني)، وفشل بشكل عام في تنسيق عملياته مع الجماعات والميليشيات المحلية. فيما يتصل بالدول العربية، كان كل منها يجذب في اتجاه مختلف وله اهتماماته

الخاصة في مناطق معينة في فلسطين، وساند بعض الجماعات (على سبيل المثال ساندت مصر متطوعي الإخوان المسلمين في الجنوب) ولم تكن على مستوى كبير من الكرم في استجابتها للاحتياجات الفلسطينية من المال والسلاح. ونظر معظم الزعماء العرب إلى الحاج أمين الحسيني بکراهية، وكان لهم أجنداتهم الخاصة.

أفسحت الحرب الأهلية الطريق للحرب بين إسرائيل والعرب. ففي الرابع عشر من شهر مايو أعلن عن إقامة دولة إسرائيل وغادر البريطانيون البلاد. وفي الخامس عشر والسادس عشر قامت جيوش كل من الأردن، وسورية، ومصر بغزو فلسطين؛ حيث كان الهدف المُعلن هو مساعدة الفلسطينيين، وإن أمكن، الحيلولة دون إقامة الدولة اليهودية واحتلال كل من الجزء العربي واليهودي من فلسطين. ومن جانبه تحدث الأمين العام لجامعة الدول العربية عزام باشا عن مذبحه لليهود مماثلة لما قام به المغول في بغداد في القرن الثالث عشر، أما فيما يخص الأردن، فقد تمثل الهدف الرئيسي من الغزو في احتلال أكبر قدر ممكن من فلسطين العربية بغية ضمه إليها.

استغرقت الحرب بين إسرائيل والدول العربية فترة طويلة وكانت دامية (نحو أربعة آلاف من ستة آلاف قتيل من اليشوف سقطوا بعد 14 مايو) واعترف قادة اليشوف بأنهم يواجهون خطراً مميتاً، ففي الثاني عشر من مايو، أي ثلاثة أيام قبل الغزو، أخطر بن غوريون بواسطة كبير مستشاريه العسكريين (الذي غالى في تقدير حجم الجيوش العربية وإعداد وكفاءة القوات التي يمكن إرسالها لفلسطين، تماماً كما كانت الحال بالنسبة إلى الجنرالات العرب الذين مالوا إلى المغالاة في تقدير قوة القوات اليهودية) أن «فرص» النصر كانت «متعادلة تقريباً»⁽⁵⁸⁾. وحقيقة، فإن فترة الثلاثة أو الأربعة أسابيع الأولى للقتال بدت خطيرة، من منظور اليشوف، فخلال الفترة من 15 - 18 مايو انتشر الجيش الأردني «الجيش العربي» في منطقة المرتفعات الأهلة بالسكان العرب في يهودا والسامرة متجنباً القتال مع اليهود، لكن وقعت اشتباكات حول القدس، وتركزت على المدينة نفسها، وحصن الشرطة وتقاطع الطرق في اللطرون غرباً والذي كان يتحكم في طريق تل أبيب - القدس، وعبرت القوات السورية والعراقية والمصرية الحدود الدولية وهاجمت المستوطنات اليهودية في المناطق التي خُصصت لليهود وفقاً لقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، كما قصف سلاح الطيران المصري مدينة تل أبيب.

تمتعت الجيوش العربية في البداية بميزة المفاجأة التكتيكية والمبادرة، فضلا على استخدام الأسلحة الثقيلة بما في ذلك الدبابات والمدفعية والطائرات المقاتلة. ولكن كل الجيوش العربية، باستثناء الجيش العربي^(*) الذي قادة وسلحه ودربه البريطانيون، فشلت في الاستعداد بشكل مناسب وطوقت سريعا من قبل الهاغاناه. وبحلول شهر يوليو انتقل زمام المبادرة إلى أيدي قوات الدفاع الإسرائيلية، واتسمت الحرب بموجات متتالية من الهجمات الإسرائيلية (تخللتها فترات من الهدنة المفروضة من قبل الأمم المتحدة). ومع بدء نفاد مخزون الذخيرة لدى العرب (أوقفت كل من بريطانيا وفرنسا شحنات الأسلحة تنفيذا لقرار الحظر المفروض من الأمم المتحدة على الأطراف المتحاربة)، وتدفق الأسلحة والذخيرة إلى إسرائيل عبر تجار السلاح ومن تشيكوسلوفاكيا (التي لم تحترم القرار الصادر عن الأمم المتحدة)، أضحت قوات الدفاع الإسرائيلية في موقع الهجوم، وخلال شهري ديسمبر 1948 ويناير 1949 تمكنت من تحييد القوات السورية والأردنية والعراقية، في حين سحق الجيش المصري. وانتهى المطاف إلى موافقة الحكومات العربية على التواالي على توقيع اتفاقيات هدنة خلال الفترة من فبراير حتى يوليو 1949. ومع انتهاء الحرب، خرج الإسرائيليون رابحين، حيث سيطروا على أربعة أخماس فلسطين، في حين بقي الفلسطينيون، الذين خسروا، من دون دولة، وخضعوا للسيطرة الإسرائيلية والأردنية والمصرية. وكانت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين التعبير الرئيسي عن هذه الهزيمة.

(*) الجيش العربي هو اسم يطلق على القوات المسلحة الأردنية التي أسستها الإدارة البريطانية [المحررة].

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني قبل 1948

في وقت كانت فيه الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى في منتصفها، كتب إرنست بيغن، وزير الخارجية البريطاني، في يوليو: «من وجهة النظر بعيدة المدى... ربما يكون هناك شيء يمكن قوله حول تبادل السكان بين المناطق المخصصة لكل من العرب واليهود على التوالي»،⁽¹⁾ وقد أسهب في هذه النقطة بعد ذلك بعدة أيام بالكلمات التالية:

يمكن المجادلة بأن هروب أعداد كبيرة من العرب من الأراضي التي كانت تحت إدارة يهودية قد سهل من مهمة التوصل إلى تسوية دائمة في فلسطين؛ حيث تبدو بعض عمليات «نقل» السكان شرطاً ضرورياً لمثل تلك التسوية.

«لم يكن الناشطون الصهاينة والرسميون البريطانيون فقط هم من تتأرجح مواقفهم في منتصف الأربعينيات حول قول التقسيم الذي يلزمه نقل للعرب خارج الدولة اليهودية المزمعة إقامتها، بل تعلق الأمر كذلك بسياسيين عرب كبار»

المؤلف

بيد أن الوزير البريطاني تدارك بقوله إنه مادام لا يوجد إلا حفنة من اليهود يقطنون الأراضي التي خُصصت للسيادة العربية في فلسطين، فإنه لا يوجد «أساس لتبادل عادل للسكان»، وبالتالي يجب أن تستمر بريطانيا في السعي مع وسيط الأمم المتحدة نحو إمكانية عودة المبعدين الفلسطينيين إلى ديارهم⁽²⁾. وقد بلغ عددهم في ذلك الوقت ما بين 400 ألف و500 ألف (في مقابل أقل من خمسة آلاف يهودي مُبعدين خلال القتال).

كان المنطق الذي استند إليه تفكير بيفين، قبل أن يترك الحكم، مقنعا إلى حد كبير: فنقل الأغلبية العربية خارج مناطق الدولة اليهودية (وأياها الأقلية الضئيلة اليهودية خارج المناطق المخصصة للعرب) كان من شأنه أن يحل مشكلة أقليات أساسية لا يمكن التغلب عليها، وتحمل في طياتها إمكانية تدمير أي تسوية سياسية. وقد وجد المنطق ذاته في التحليل الذي قدمه، بعد مرور شهر، مكتب القاهرة التابع لمركز لندن للاستخبارات الخاص بمنطقة الشرق الأوسط والذي تضمن ما يلي:

إن فرار العرب من المناطق التي احتلها اليهود في فلسطين، نتيجة ذعرهم، مثل مشكلة فورية على درجة كبيرة من الخطورة، ولكنه ربما أشار إلى الطريق للتوصل إلى تسوية على المدى البعيد لواحدة من أكثر العقبات ضخامة في طريق تطبيق مُرضٍ للتقسيم، ويُقصد بذلك قيام دولة يهودية تضم مجتمعا عربيا يقارب بشكل كبير من حيث العدد السكان اليهود. إن الدراسات السابقة للمشكلة قادت على الدوام إلى رفض فكرة نقل السكان بوصفه حلا، انطلاقا من حقيقة أن عدد العرب الذين يلزم نقلهم من الدولة اليهودية يفوق أربعين مرة حجم أولئك اليهود الذين يلزم نقلهم من الدولة العربية، ولكن هذا التباين في الإعداد قد تضاعف في الوقت الحالي نتيجة لفرار العرب من الدولة اليهودية...

الآن، وبعبارة دلت الصعوبة الرئيسية، المتمثلة في إقناع عرب فلسطين بترك منازلهم، نتيجة للإرهاب اليهودي وحالة الذعر التي أصابت العرب، فإنه من الممكن أن يكون الحل في نقلهم إلى العراق وسورية... إن هذا المشروع (توطين اللاجئين في البلاد العربية) يجب أن يتم إطلاقه بحرص

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

شديد؛ حيث إنه إذا ما وُضع موضع التنفيذ في المرحلة الحالية فإن رد الفعل الفوري في العقول العربية سيذهب إلى أنه كان يجري التجهيز له منذ البداية. ولكن إذا ما أصبح جليا أنه نتيجة عدم استعداد أي من الطرفين (العرب أو اليهود) لا توجد إلا فرصة ضئيلة - أو لا توجد فرصة على الإطلاق - لإعادة اللاجئين إلى ديارهم، فربما يمكن طرح هذا المشروع حلا للمشكلة كما ستبدو آنذاك⁽³⁾.

بنهاية الحرب شاعت افتراضات مشابهة في الفكر الأمريكي؛ حيث كتب وليام بيرديت جي آر القنصل العام الأمريكي في القدس - والذي لم يكن من أصدقاء الصهيونية- لرئاسته في فبراير 1949 مُقدما النصح على النحو التالي:

على الرغم من المعاناة التي ترافق ذلك... هناك شعور بأن قضية الأمن ستُخدم بشكل أفضل على المدى الطويل إذا ما بقي اللاجئون في الدول العربية وفلسطين العربية بدلا من عودتهم إلى إسرائيل. وحيث إن الولايات المتحدة أيدت قيام دولة يهودية، فإنه يلزم عليها أن تحرص وتصر على أن تكون تلك الدولة متناسقة في تكوينها، الأمر الذي يوفر لها أفضل فرص الاستقرار. فعودة اللاجئين سوف تخلق «مشكلة أقليات» مستمرة، وستكون مصدرا دائما للبحث على الانتفاضة الداخلية أو التدخل من قبل الدول العربية المجاورة⁽⁴⁾.

كان هذا هو التفكير الذي ساد الدوائر الرسمية البريطانية (والأمريكية) في النصف الثاني من عام 1948 في وقت كانت فيه قضية اللاجئين في مرحلة التبلور. وقد ساد المنطق المُقنع نفسه، منذ فترة تعود إلى ما قبل بداية القرن، في بدايات المشروع الصهيوني. فقد كان الكثيرون من بين الصهيونيين أو مُحبي الصهيونية ممن يعتقدون، أو على الأقل يجادلون، أن فلسطين كانت «أرضا خالية» انتظرت بولع وصول موجات المستوطنين اليهود⁽⁵⁾. ولكن الحقيقة أنه عشية التدفق الصهيوني على البلاد كان هناك سكان بلغ عددهم 450 ألف عربي (فضلا عن 20 ألف يهودي) سكن أغلبهم المناطق الأكثر خصوبة في النصف الشمالي من البلاد. فكيف كان من الممكن أن تحول الحركة الصهيونية فلسطين إلى «دولة يهودية» إذا ما كانت الأغلبية الساحقة للسكان من العرب؟ وإذا ما تمكن اليهود، على مدار الأعوام من خلال موجات الهجرة الضخمة، من

أن يمثلوا أغلبية السكان، كيف يمكن إقامة كيان سياسي يكون حقا «يهوديا» ومستقرا في وقت يضم فيه أقلية عربية ضخمة، وربما تكون مستاءة من الوضع، ويزيد معدل المواليد لديها عما هي الحال بالنسبة إلى اليهود⁽⁶⁾؟

تمثلت الإجابة المنطقية والواضحة في نزوح العرب أو «نقلهم»، وهو ما يمكن أن يتم بأسلوبين: أولهما استخدام القوة (الطرد على سبيل المثال)؛ وثانيهما التخطيط لأن يبدو ذلك طوعيا بشكل يرحل معه «المنقولون» بموافقتهم، كما يمكن اللجوء إلى مزيج من الأسلوبين، فعلى سبيل المثال يمكن حث وتشجيع العرب على الرحيل بواسطة الإرهاق المالي (بالضرائب مثلا) وتقديم الحوافز (في حالة الرحيل). وقد كان ذلك - حقا - مضمونَ المذكرات اليومية لـ «نبي» الصهيونية ومؤسسها تيودور هيرتزل، حيث كتب في الثاني عشر من يونيو 1895:

يلزم علينا أن نجردهم من الأرض بلطف... يجب أن نشجع السكان
الفقراء على عبور الحدود من خلال تأمين عمل لهم في بلاد العبور، في
الوقت الذي نمنعهم فيه من الحصول على أي عمل في بلادنا... إن كلا
من عملية التجريد من الملكية والتخلص من الفقراء يجب أن يتم بشكل
منفصل وبحذر شديد⁽⁷⁾.

كان ما سبق يوميات هيرتزل الوحيدة حول هذه النقطة، ونادرا ما تناول هذا الموضوع في موقع آخر، فلم يظهر على الإطلاق في مؤلفيه الرئيسين عن الصهيونية: «الدولة اليهودية» و«الأرض القديمة الجديدة»، كما أنه لم يظهر في كتابات أغلب القادة الصهاينة الذين عاصروا هيرتزل أو جاءوا بعده. الجميع أدركوا ضرورة الالتزام بالكتمان والحذر. فالحديث عن نقل العرب، حتى بموافقة الفلسطينيين والقادة العرب في الخارج، سوف يضعهم في حالة استنفار وخصومة، كما أنه سيؤدي إلى حالة خصام - غير مطلوبة - مع العثمانيين، الذين تجمعهم الديانة مع العرب، وحكموا البلاد حتى 1917-1918.

أما في اللقاءات الشخصية فإن القادة الصهاينة كانوا أكثر استعدادا لتبادل المعلومات في هذا الصدد، ففي عام 1911 اقترح آرثر روبين (رئيس مكتب فلسطين في المنظمة الصهيونية) عملية «نقل محدودة» للفلاحين إلى سورية،

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

وبعد مرور عام ذكر ليون متزكين (أحد مؤسسي المنظمة) أن: «حقيقة الأمر أن فلسطين محاطة بمساحات واسعة، وسيكون من السهل على العرب أن يستقروا هناك بالأموال التي سيتلقونها من اليهود»⁽⁸⁾. وعلى مدار السنين، استمر المؤيدون للصهيونية والمؤلفون في التسويق لحل «الترانسفير» لتسوية المشكلة العربية:

لا يمكن لنا السماح للعرب بإعاقة إعادة بناء قطعة تاريخية مهمة للغاية... ومن ثم يجب علينا أن نقنعهم برفق بأن يغادروا، فهم على الرغم من كل شيء لديهم الجزيرة العربية التي تضم ملايين الأميال... ولا يوجد أي سبب خاص للعرب للتشبث بهذه الكيلومترات القليلة. ولما كانت عاداتهم المشهورة هي «طي الخيام، والذهاب بعيداً» فليضربوا المثل على ذلك الآن⁽⁹⁾.

غير أن معظم المنادين بـ «الترانسفير» احتفظوا بأفكارهم لأنفسهم، أو اقتصروا في تداولها على الخطابات الشخصية والمناقشات داخل الدوائر الصهيونية، وقد كان ذلك هو الموقف في أيام ضعف الحكم العثماني، وظل كذلك خلال العقدين الأول والثاني للحكم البريطاني، فالحديث عن «النقل» أو «الترانسفير» كان سيؤدي - بشكل غير مرغوب فيه - إلى تنفير أو على الأقل تعقيد أمور الحكام الجدد في فلسطين، وربما يُبعد كذلك مؤيدي يهودا محتملين للصهيونية.

لا ريب في أن التطبيقات العملية للصهيونية اتسمت، منذ البداية، بتتابع من «الترانسفير» الصغير أو المحدود؛ فشراء الأراضي وبناء كل مستوطنة (موشافا بالعبرية، ومعناها الحرفي مستعمرة) قد صاحبه (وإن كان بشكل قانوني ومن خلال دفع تعويضات) «نقل» أو «ترانسفير» للبدو الأصليين أو المجتمعات الزراعية المستقرة. وكان يتم التوطين في جزء آخر من المناطق الريفية في فلسطين أو في المدن المزدهرة، على الرغم من أن بعضهم عبر نهر الأردن تاركاً البلاد. وقد عمد حاييم مارغاليوت (خبير صهيوني في المسائل العربية وأحد كبار مشجري الأرض في فلسطين) إلى وصف وتقديم صورة لعملية الإبعاد على النحو التالي:

لقد تكشفت المسألة العربية بكل جديتها أمامي منذ المرة الأولى التي قمت فيها بشراء أرض هنا، عندما رأيت لأول مرة عملية إخراج العرب من أراضيهم لإفساح المجال لتوطين أشقائنا. ولفترة طويلة بعد ذلك لم أتوقف عن سماع هذا اللحن الحزين الذي رددته البدو (نساء ورجالاً) الذين تجمعوا في خيمة شيخ القبيلة ذلك المساء قبل مغادرتهم قرية شماسين القريبة من ياما والتي أصبحت تحمل اليوم أسم يافينيل (في الجليل الشرقي). لقد كنت أجلس في الخيمة لأنهي التفاوض مع الشيخ فاضل من دلكا، ونساء البدو ورجالهم مجتمعون حول النار يعدون القهوة لي ولبقية المدعوين. وفي الوقت نفسه كانوا يتغنون بأغان حزينة يندبون فيها حظهم السيئ الذي اضطرهم إلى ترك مهدهم وديارهم، تلك الأغاني مست قلبي، وأدركت آنذاك مدى قوة الروابط بين البدوي وأرضه⁽¹⁰⁾.

وبطبيعة الحال لم يكن هيرتزل ومرتزكين وروبين وزانغويل يفكرون في مثل هذه العمليات الصغيرة، بل في الإبعاد «الجماعي» «الاستراتيجي». ولكن على الرغم من أن الفكرة مغرية على المستوى العملي، فقد مسها في أذهان أغلب الصهاينة قدر من الشكوك الأخلاقية. وفي المقابل، إذا ما عدنا إلى العشرينيات والثلاثينيات، لم يكن عرب فلسطين ينظرون إلى أنفسهم، ولم يكن أي شخص آخر يعتبرهم، كـ «شعب» مميز، بل كـ «عرب» أو بشكل أكثر تحدياً «عرب جنوب سورية». وبناء عليه فإن نقلهم من نابلس أو الخليل إلى شرق الأردن، أو سورية أو حتى العراق - خاصة إذا ما عُوضوا بشكل مناسب - لم يكن ليعادل النفي من البلاد، بل تحرك «عرب» من منطقة عربية إلى أخرى.

وفضلاً عن ذلك فإن «نقل» أو «ترحيل» الأقليات العرقية إلى قلب منطقتهم الوطنية كان ينظر إليه خلال النصف الأول من القرن العشرين على أنه مقبول أخلاقياً، وربما حتى مرغوب فيه. كما بدا منطقياً من الناحية السياسية. لقد أكدت الخبرة التاريخية في أجزاء مختلفة من العالم خلال العشرينيات والأربعينيات هذه النظرة. فالنقل القسري المزدوج الذي شمل المسلمين الأتراك إلى خارج المناطق ذات الأغلبية اليونانية في تراقيا وجزر بحر إيجه، وذلك الذي شمل المسيحيين اليونان من آسيا الوسطى التركية في بدايات العشرينيات، والذي كان نتيجة

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

ثانوية للمعارك التركية - اليونانية، بدا وكأنه قد وضع تسوية لمشاكل أقليات مستمرة و«غير قابلة للحل»، مما يجعل مستقبل العلاقات اليونانية - التركية أكثر منطقية وسلمية. كما شهدت الفترة 1947 - 1948 عمليات «ترانسفير» أوسع، وأكثر دموية، بين الهند وباكستان، وشملت المسلمين والهندوس مع مولد هاتين الدولتين من رحم التاريخ⁽¹¹⁾. وقد شاهد العالم هذا الوضع من دون أن يدين أو يظهر تأثراً. كذلك كانت عملية «نقل» جماعات الأقلية الألمانية من الأراضي الحدودية غربي بولندا والتشيك إلى ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية محل ثناء من أغلب عواصم الحلفاء. وقد نُظر إلى ذلك سواء في الغرب أو المعسكر الشيوعي على أنه أمر عادل وضروري سياسياً. فقد ساعدت تلك الأقليات على إفساد النظام الأوروبي، وكتلة من الدول القومية في وسط وغرب أوروبا، بقدر لا يقبله العقل من المعاناة والتضحية بالأرواح والأموال، فكان من العدل والمناسب اقتلاعهم من أماكنهم وإعادةتهم إلى ألمانيا، كعقاب، وأيضاً من أجل تجنب أن يحدثوا مشاكل في المستقبل.

ومع ذلك، ظل مفهوم «الترانسفير» في أعين الصهاينة - حتى عندما عرض قادتهم الأمثلة التاريخية السالفة الإشارة إليها - مثيراً للجدل أخلاقياً. فجميعهم تبني المثل الليبرالية والكثير منهم كان ينتمي إلى مدرسة اشتراكية أو أخرى، وكان الهدف النهائي لأيديولوجيتهم الصهيونية هو عودة شعب إلى أرضه. كان اقتلاع العائلات العربية من ديارها وأراضيها، حتى إن كان ذلك مقابل تعويض وإعادة توطين منظمة بين العرب خارج فلسطين، يخالف ميلهم الفطري. وقد تضخمت المعضلة الأخلاقية بشكل كبير خلال الثلاثينيات والأربعينيات مع بداية إقرار العديد من القادة الصهاينة، بما في ذلك بن غوريون وزيف جابوتنسكي (قائد الحركة التصحيحية اليمينية)، بأن عرب فلسطين قد أفرزوا قومية جديدة مميزة (على الرغم من أنها مازالت عربية) وهوية وطنية؛ ومن ثم فإن الفلسطينيين الذين يُنقلون ربما لا يشعرون بأنهم في دارهم في شرق الأردن أو العراق. ولهذه الأسباب كان من الأفضل تجنب الحديث عن مفهوم «الترانسفير» على الملأ في خطابات عامة أو مناظرات، وعدم التفكير به على الإطلاق. قد تتطلب الصهيونية ترحيل الفلسطينيين، ولكن لماذا يجب أن يزعج المرء ضميره بذلك ويتوقف عنده طويلاً؟

الواقع أن التعاليم الصهيونية الشفهية منذ نهاية القرن (التاسع عشر) وحتى الأربعينيات (من القرن العشرين) ظلت تكرر أن هناك مكانا كافيا في فلسطين لكلا الشعبين، ولا يحتاج الأمر إلى طرد العرب لإيجاد متسع من الأرض للمهاجرين الصهاينة أو للدولة اليهودية. وأنه ليست هناك حاجة إلى نقل العرب، ولا يجوز بأي حال من الأحوال إدماج هذه الفكرة في البرنامج السياسي - الأيديولوجي للحركة الصهيونية.

بيد أن المنطق الذي تضمنه حل «الترانسفير» للمشكلة العربية ظل من المتعذر تجنبه؛ فمن دون نوع ما من الاستبعاد الجماعي للعرب من المنطقة التي ستقام عليها الدولة اليهودية، لم يكن من الممكن إقامة دولة «يهودية» قابلة للحياة. ولقد أضحت الحاجة إلى «الترانسفير» حادة مع تزايد المعارضة العربية العنيفة للمشروع الصهيوني خلال العشرينيات والثلاثينيات. حيث أظهر ذلك العنف أن أغلبية عربية ساخطة وعدائية، أو أقلية كبيرة ستقوم بالنضال ضد مجرد وجود دولة يهودية وستكرس جهودها كعامل مخرب ومدمر لاستقرارها منذ البداية. فضلا عن ذلك فإن الموجات المتوالية من العنف العربي ضد الصهيونية (1920، 1921، 1929 و 1936 - 1939) قد أكره البريطانيين على كبح جماح الهجرة اليهودية بشكل دوري. الأمر الذي عني أن العنف العربي كان يؤشر إلى إمكان منع تكوين أغلبية يهودية. وقد كان هذا مغزى الكتاب الأبيض الذي أصدره البريطانيون في مايو 1939 كرد فعل على الثورة العربية في الفترة من 1936 - 1939، أكبر انفجار للعنف العربي خلال الانتداب. كفل هذا الكتاب للعرب (الذين قارب عددهم آنذاك المليون في مقابل 450 ألف يهودي) وضعية الأغلبية الدائمة (من خلال تقييد الهجرة اليهودية لتصبح 75 ألفا خلال الأعوام الخمسة التالية)، كما وعد هذه الأغلبية بـ «الاستقلال» خلال عشرة أعوام؛ لتصبح فلسطين دولة عربية ذات أقلية يهودية كبيرة (الذين سيتحدد وضعهم المستقبلي وحقوقهم من خلال القادة العرب الجدد).

بناء على ما تقدم، فإنه إذا كانت الدعوة الصهيونية للنقل أو «الترانسفير» خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين قد اتسمت بكونها ثانوية وغير ملحة، فإنه منذ بدايات الثلاثينيات بدأت في الظهور

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

دعوات عالية، تقارب الإجماع، مؤيدة للفكرة بين قادة الحركة. حيث أشعلت كل نوبة كبيرة من العنف العربي اهتماما صهيونيا متجددا بحل «الترانسفير»، كما كانت الحال في أعمال الشغب في العام 1929. وفي مايو 1930 اقترح الكولونيل أف. أتش. كيش، مدير الإدارة السياسية للوكالة اليهودية، ورئيس الجهاز التنفيذي للوكالة في فلسطين، على حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية، أن تقوم الوكالة بالضغط على البريطانيين لتشجيع هجرة الفلسطينيين العرب إلى العراق الذي هو في حاجة ماسة إلى المزارعين.

لن يكون من المستحيل التوصل إلى اتفاق مع [الملك] فيصل [في العراق]، ليقدم مبادرة بعرض فرص جيدة للعرب المهاجرين... ولا بد أن تكون هناك دعاية جيدة تجذب المهاجرين العرب إلى تلك الدولة التي تحتاج بالفعل إليهم - كما يجب أن تكون هناك تسهيلات منظمة ومُعْلنة للسفر. وبالطبع فإننا بالتأكيد يجب ألا نَظهر [بوصفنا طرفا مشجعا لذلك]، ولكنني لا أرى أي سبب يمنع اهتمام حكومة جلالة الملكة بذلك... ومن غير المتصور أن تكون هناك مشقة لدى الفلسطينيين العرب - الذين هم في الأساس شعب بدوي أو شبه بدوي - في الانتقال إلى دولة عربية أخرى يجدون فيها فرصة أفضل للحياة الزراعية - كما كانت الحال بالنسبة إلى المهاجرين الزراعيين من بريطانيا إلى كندا⁽¹²⁾.

وقبل ذلك بأسابيع قليلة اقترح وايزمان نفسه على اللورد باسفيلد، وزير المستعمرات البريطاني، أن حلاً للاضطرابات التي يُحدثها الفلسطينيون يمكن أن يكون عبر نهر الأردن: الفلسطينيون محدثو الاضطرابات يمكن نقلهم إلى الجانب الآخر من النهر.

أجاب اللورد باسفيلد معبرا عن اقتناعه بضرورة البحث عن حل في هذا الاتجاه، ولكن العراق يطرح بعض المشاكل... وأنهم [العراقيين] شعب صعب. فأجبت بالقول: «بالطبع الأمر ليس سهلا، ولكن هذه البلاد [شرق الأردن والعراق] يجب تنميتها»... وقد رأى اللورد باسفيلد في ذلك نظرة استشرافية واسعة يلزم أخذها في الاعتبار بجدية كبيرة. وعندئذ قلت، مفترضا أننا سنقيم شركة تنمية يمكن أن تحصل على مليون دونم من الأرض في شرق الأردن، بأن هذا يمكن أن يمثل بديلاً ويريح فلسطين من الضغط...⁽¹³⁾.

أثار الكولونيل كيش الموضوع مرة ثانية بعد مرور عام، موضحاً أنه يلزم على الحركة أن تتبنى سياسة واضحة في هذا الخصوص. ورداً على ذلك كتب ياكوف ثون، المسؤول الصهيوني المخضرم، أنه من وجهة نظر الحركة يتمثل الحل المثالي في نقل العرب الفلسطينيين عبر الأردن. مضيفاً أن المتحدثين باسم الحركة لا يمكنهم قول ذلك علناً⁽¹⁴⁾. وقد أورد وايزمان كلاماً مشابهاً مع دروموند شيلز، نائب وزير المستعمرات البريطانية: نقل العرب خارج فلسطين سيكون «محاولة شجاعة على مستوى رجل الدولة للتعامل مع مشكلة كان يتم تناولها حتى اليوم بطريقة فاترة... البعض [من الفلسطينيين العرب] يمكن أن يتدفق على الدول المجاورة، ومثل هذا التبادل للسكان يمكن دعمه وتشجيعه»⁽¹⁵⁾.

قبيل العام 1936 كان الحديث والتفكير المتقطع حول «الترانسفير» محصوراً فقط في المقابلات المباشرة وراء الأبواب المغلقة والمذكرات الصادرة داخل الإدارات، غير أن اندلاع الثورة العربية عام 1936 قد فتح الأبواب على مصاريعها. فقد حملت الثورة في طياتها، من وجهة نظر العرب، مفهوم أنه ليس هناك حل وسط، وأنهم لن يقبلوا على الإطلاق العيش داخل (أو في جوار) دولة يهودية. والأكثر من ذلك، فقد عقدوا العزم على إرغام البريطانيين على إيقاف الهجرة اليهودية، في وقت كان فيه النازيون يتوعدون يهود أوروبا بمستقبل مُرعب لا يمكن تصوره. ومن ثم كانت هناك حاجة ملحة إلى ملاذ آمن في فلسطين أكثر من أي وقت مضى.

ظل القادة الصهاينة يرددون في العلن المقولات نفسها الزاهية إلى أن هناك مكاناً كافياً في البلاد لشعبين، وأن الهجرة الصهيونية لا تتطلب إبعاد العرب. وعلى الرغم من تأييد قائد الحركة التصحيحية اليمينية، جابوتنسكي، بشكل عام لفكرة «الترانسفير»⁽¹⁶⁾، فإنه قال في العام 1931: «إننا لا نريد طرد عربي واحد من الضفة اليمنى أو اليسرى لنهر الأردن، نحن نريدهم أن يزدهروا اقتصادياً وثقافياً»⁽¹⁷⁾، وبعد مرور ستة أشهر تضمنت شهادته أمام لجنة بيل أن «موضوع طرد العرب لم يكن وارداً على الإطلاق، بل على العكس تمثلت الفكرة الرئيسية في أن أرض إسرائيل على جانبي نهر الأردن (فلسطين وشرق الأردن) ستضم (في نهاية المطاف) عرباً... وملايين اليهود...»، مع اعترافه بأن العرب يمكن أن يصيروا «أقلية»⁽¹⁸⁾.

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

بحلول العام 1936 أصبح الاتجاه السائد للقادة الصهاينة أكثر صراحة في تأييد فكرة «الترانسفير». ففي يوليو عمّد كل من بن غوريون (رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، والرئيس الفعلي لليشوف) ونائبه موشى شيرتوك (شاريت، مدير الإدارة السياسية للوكالة)، إلى لقاء المفوض السامي البريطاني، للدفاع عن الهجرة الصهيونية التي كانت سلطة الانتداب تدرس تعليقها:

سأل بن غوريون عما إذا كانت الحكومة ستجعل من الممكن للمزارعين العرب الذين شتتوا نتيجة لشراء اليهود أراضيهم بالاستقرار في شرق الأردن؛ حيث إنه إذا كانت منطقة شرق الأردن، في الوقت الحالي، مغلقة أمام اليهود [بمعنى الاستيطان اليهودي]، فإنها بالتأكيد لا يمكن أن تكون كذلك بالنسبة إلى العرب.

وقد رأى المفوض السامي في ذلك فكرة جيدة... وسأل عما إذا كان اليهود مستبعدة لإنفاق المال لتحقيق مثل هذا التوطين للفلسطينيين في شرق الأردن. وكانت إجابة بن غوريون أن الأمر يمكن بحثه.

ومن جانبه، أشار شيرتوك إلى أن وكالات الاستيطان اليهودي كانت في كل الأحوال تنفق أموالاً لتزويد مستأجري الأرض أو زارعيها الذين رُحلوا نتيجة لشراء اليهود للأرض، وذلك إما بدفع تعويضات، وإما من خلال تزويدهم بأرض بديله. وأنهم سيكونون سعداء بإنفاق هذا المال على توطين هذا الشعب في شرق الأردن⁽¹⁹⁾.

ناقشت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية هذه الفكرة بعد مرور ثلاثة أشهر. وفي هذا الصدد قال بن غوريون:

لماذا لا يمكننا الحصول على أرض هناك للعرب الذين يرغبون في الاستقرار في شرق الأردن؟ فإذا كان من المسموح به نقل عربي من الجليل إلى يهودا فلماذا يكون من غير الممكن نقله من منطقة الخليل إلى شرق الأردن والتي هي أكثر قرباً؟... إن هناك متسعاً هائلاً من الأرض، ونحن (في فلسطين) مكتظون بالسكان... إننا نريد الآن إقامة مناطق مكثفة للاستيطان اليهودي (في فلسطين)، ويمكننا حل مشكلة هذا التكتل من

خلال نقل العرب الذين يبيعون أراضيهم إلى شرق الأردن... حتى المفوض
السامي يوافق على «الترانسفير» إلى شرق الأردن إذا ما زودنا الفلاحين
بالأرض والمال⁽²⁰⁾.

وعد البريطانيون في مايو 1936 بإرسال لجنة ملكية للتحقيق تكون مهمتها
تحديد أسباب التمرد واقتراح الحلول - وذلك عندما يوقف العرب إطلاق النار.
وبحلول شهر أكتوبر كانت عصابات التمرد في حالة إنهاك كبير، وسأم السكان
بشكل عام من التمرد. ومع تعليق الحاج أمين الحسيني الأعمال القتالية وصلت
لجنة بيل إلى فلسطين. وطافت بالبلاد والتقت بالقادة العرب في الخارج واستمعت
إلى شهادات من المسؤولين البريطانيين، والصهاينة، والعرب الفلسطينيين، قبل أن
تقدم وتنشر تقريرها في بداية يوليو 1937. ولقد أوصت لجنة بيل بتقسيم
فلسطين إلى دولة يهودية تضم 20 في المائة من البلاد، ودولة «شرق أردنية»
على أغلب الجزء المتبقي (باستثناء مساحة أقل من 10 في المائة تضم القدس
وبيت لحم تظل تحت السيطرة البريطانية). ولكن حتى ذلك فشل في أن يحل
المشكلة الديموغرافية المستمرة: حيث إنه حتى في نسبة الـ 20 في المائة التي
تمركز فيها اليهود وتم تخصيصها لتكون تحت السيادة اليهودية (السهل الساحلي
و«الجليل») كان العرب يمثلون ما يزيد على خمسي عدد السكان. ولذلك أوصى
بيل بنقل كل أو معظم السكان العرب خارج هذه المناطق.

إن وجود هذه الأقليات (العربية واليهودية) في المناطق التي تضم
أغلبية من كل منهما يمثل بشكل واضح أكثر العوائق خطورة لإتمام عملية
التقسيم بشكل سلس وناجح... وإذا كان للتسوية أن تكون خالية من
الغبار ونهائية، فإنه يلزم مواجهة مسألة الأقليات بشجاعة وأن يُتعامل
معهما بحزم.

وأشارت اللجنة إلى السابقة اليونانية - التركية التي حدث بموجبها التبادل
الجبري ونقل 1.3 مليون يوناني و400 ألف تركي في النصف الأول من عشرينيات
القرن العشرين. «قبل إتمام هذه العملية كانت الأقليات اليونانية والتركية مصدر
إزعاج وقلق مستمرين، وبعد إزالة التفرح أضحت العلاقات اليونانية - التركية

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

ودية أكثر من أي وقت مضى». وبشكل رسمي لم تتحدث اللجنة عن «الترانسفير»، ولكن عن «تبادل للسكان» يتضمن تحويل 1.25 مليون يهودي من المناطق ذات الكثافة السكانية العربية إلى ما هو مقرر أن يكون الدولة اليهودية، وتحويل 225 ألف عربي خارج أراضي تلك الدولة إلى المناطق العربية. وفي الحقيقة فإن ما كان مقررا لم يكن عملية تبادل عادل، بل نقلا للعرب يصاحبه نقل عدد قليل جدا من اليهود كورقة «توت» للتمويه على الأمر. ولقد فضلت اللجنة أن ينتقل العرب بشكل اختياري ومقابل تعويضات - ولكنها شددت على أهمية الموضوع، وعلى أنه في حال رفض العرب لـ «الترانسفير» فإنه يجب أن يكون إجباريا، بمعنى أن يتم تنفيذه بالقوة، وإلا فإن التسوية القائمة على التقسيم لا يمكن لها أن تصمد⁽²¹⁾.

أسعدت التوصيات، خاصة تلك المتصلة بـ «النقل»، العديد من القادة الصهاينة ومن بينهم بن غوريون، وإذا كان من الصحيح أن اليهود مُنحوا جزءا صغيرا من إرثهم، فإنهم يستطيعون استخدام هذه الدولة الصغيرة كقاعدة أو رأس جسر للغزو والاستيلاء على باقي فلسطين (وربما أيضا شرق الأردن). وقد كان هذا، على الأقل، ما قاله بن غوريون ليبرر جزئيا موافقته على الحصول على حصة صغيرة من الأرض⁽²²⁾. بيد أنه كان لديه سبب آخر لذلك: «النقل الإجباري للعرب من الأودية المخصصة للدولة اليهودية المقترحة يمكن أن يقدم لنا شيئا لم نحظ به قط، حتى عندما كنا مستقلين أيام المعبد الأول والثاني...»، كما أفصح بن غوريون في يومياته. «لقد مُنحنا فرصة لم نجرؤ حتى على أن نحلم بها في مخيلتنا. فالأمر أكثر من دولة أو حكومة أو سيادة؟ بل اندماج وطني في وطن قومي». وقد رأى بن غوريون في توصية النقل أو «الترانسفير» أنها:

نقطة مركزية تفوق أهميتها كل النقاط الإيجابية الأخرى وتعوض كل نقائص التقرير وعوائقه... يجب علينا أن نتمسك بقوة بهذه النتيجة (التوصية) كما تمسكنا بوعد بلفور، بل كما تمسكنا بقوة بالصهيونية ذاتها... لأنه من بين كل النتائج التي توصلت إليها اللجنة، هذه النتيجة وحدها هي التي تقدم بعض التعويض للذين يُنتزعون من أجزاء أخرى من الدولة (وتعطيه للعرب)... فالشيء الذي لا يمكن تصوره في الأوقات

العادية ممكن التحقيق في اللحظات الثورية... إن أي شك من جانبنا حول ضرورة هذا «الترانسفير»، وأي شك يمكن أن نثيره حول إمكانية تنفيذه، وأي تردد من جانبنا فيما يتصل بعِدالته، يمكن أن يفقدنا فرصة تاريخية قد لا تتكرر... إذا لم ننجح في إزاحة العرب من بيننا، في الوقت الذي تقترح فيه لجنة ملكية ذلك لبريطانيا، وننقلهم إلى المنطقة العربية، فإن ذلك لن يمكن تحقيقه بسهولة (وربما على الإطلاق) بعد تأسيس الدولة اليهودية... يجب القيام بذلك الآن، والخطوة الأولى، وربما الأكثر أهمية، هي أن نلزم أنفسنا بتنفيذه⁽²³⁾.

أضفى تقرير بيل، للمرة الأولى، على فكرة «الترانسفير» قبولاً معنوياً دولياً، وفي الوقت ذاته أثار نشره نقاشاً عميقاً ومستمرًا داخل القيادة الصهيونية: هل يجب على الحركة أن تتخلى عن مطالبها التاريخية بكل أراضي فلسطين، وتقبل بمبدأ التقسيم ونسبة الـ 20 في المائة من الأرض المقترحة؟ وقد قسم الجدل حول هذه النقطة صفوف الأحزاب، بما في ذلك حزب ماباي الذي تزعمه بن غوريون والذي انقسم على نفسه. وبالنسبة إلى اليمين التصحيحي لم تكن هناك أي مشكلة؛ حيث طالب بشرق الأردن بالإضافة إلى كل فلسطين، ومن ثم لم يكن التقسيم بالنسبة إليه بداية يعتد بها. أما فيما يخص اليسار - الذي مثله بریت شالوم وهاشومير هاتزائير - فإن مقترحات بيل لم تكن ذات صلة بالموضوع؛ حيث كان اليسار يفضل دولة مزدوجة القومية (عربية - يهودية) وليس التقسيم. وفيما يتصل باليسار المعتدل والوسط (والذي مثل جوهر الحركة وتيارها الرئيسي) مثل الأمر معضلة كبيرة. وقد حدثت المناقشة النهائية والحاسمة خلال المؤتمر العشرين للكونغرس الصهيوني في زيورخ خلال شهر أغسطس 1937 والذي دُعي لعقده خصيصاً لمناقشة هذا الموضوع (ولم تحضره الحركة التصحيحية).

وقد استغل بن غوريون مقترح لجنة بيل حول «النقل» للتعبئة لتأييد قبول فكرة التقسيم:

يجب علينا أن ننظر بعناية إلى مسألة ما إذا كان «الترانسفير» ممكناً، ضرورياً، أخلاقياً، ومفيداً. نحن لا نريد طرد ولكن نقل سكان كما حدث من قبل، في مرج ابن عامر وفي شارون (في الوادي الساحلي) وأماكن

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

أخرى... أنتم بلا شك على دراية بأنشطة الصندوق الوطني اليهودي في هذا الصدد. الآن يجب أن يحدث نقل يختلف مداه بشكل تام. ففي العديد من مناطق البلاد لن يكون من الممكن إقامة استيطان جديد من دون نقل الفلاحين العرب... من المهم أن تأتي هذه الخطة من اللجنة وليس من جانبنا... «النقل» أو «الترانسفير» هو الذي سيجعل من الممكن تنفيذ برنامج استيطان شامل. ولحسن الحظ أن العرب لديهم مناطق واسعة خالية. إن القوة اليهودية، التي تتزايد بشكل مطرد، ستزيد من فرص تنفيذ «النقل» على نطاق واسع. عليكم أن تتذكروا أن هذا النظام يتضمن فكرة إنسانية وصهيونية مهمة، نقل قطاعات من الشعب (الفلسطينيين العرب) إلى بلادهم (مثل شرق الأردن والعراق) وتعمير الأراضي الخالية...

خلال الاجتماع، بدا بن غوريون وكأنه يقترح أن يكون النقل إجبارياً، وأن يتم تنفيذه بواسطة القوات اليهودية وليس البريطانية. وقد تكلم متحدثون آخرون، بما في ذلك وايزمان وروبين، في الاتجاه ذاته، وإن كان الجميع قد فضل النقل الطوعي المتفق عليه، وإن شكك البعض، مثل يوسيشكين، في أن تكون الفكرة قابلة للتنفيذ؛ البريطانيون لن ينفذوها كما أنهم سيمنعون اليهود من تنفيذها. وقد عارض العديد من المشاركين، بمن فيهم بيرل كاتزنيلسون - القائد الثاني في حزب ما باي - جوهر الصفقة الشاملة التي قدمها تقرير بيل، والمتصلة بالتقسيم. (في حين ساندوا نظرياً النقل)⁽²⁴⁾.

في نهاية المطاف، وبعد نقاش حامي الوطيس، أقر المؤتمر - بشكل غير قاطع وبتصويت 299 ضد 160 - توصيات بيل كأساس للمزيد من المفاوضات. وقد أظهر التصويت إقراراً لمفهوم التقسيم من حيث المبدأ. ولم يتضمن القرار أي إشارة خاصة للمقترح الخاص بالنقل أو «الترانسفير» على الرغم من قبوله ضمناً كجزء من الصفقة التي يسعى الصهاينة إلى التفاوض على شروطها الخاصة بالأرض (حيث أرادوا الحصول على أكثر من نسبة الـ 20 في المائة التي تضمنتها)⁽²⁵⁾.

وعلى الرغم من ذلك، دخلت توصيات بيل خلال أسابيع في حالة جمود قاتل؛ حيث جدد العرب غير الراضين عنها ثورتهم، وقام البريطانيون، الذين أصابهم الذعر، بالتصويت سراً في الثامن من ديسمبر 1937 ضد التقسيم وتعيين لجنة (فنية) هدفها

الظاهر النظر في إمكانية تطبيق مقترحات بيل، وإن كان هدفها واقعيًا هو دفنها نهائيًا. وقد قدمت لجنة وودهيد التي سُكِّلت في مارس 1938 تقريرها في شهر نوفمبر. حيث اقترحت تقسيما ضئيلا مُعدلاً يتضمن قيام دولة يهودية أصغر من تلك التي اقترحتها لجنة بيل، تمتد من تل أبيب إلى زخرون ياكوف على 10 في المائة من إجمالي أرض فلسطين (وهو ما كان غير مقبول للصهاينة بشكل واضح)، كما رفضت اللجنة مقترح بيل الخاص بالنقل الإجباري بوصفه أمراً غير وارد، ورأت أن النقل الاختياري «من المستحيل افتراضه»، مما حداها على الانتهاء إلى أن قيام دولة يهودية تضم أقلية عربية كبيرة سيكون معيباً، ومن ثم فإن التقسيم لا يمكن أن يحل المشكلة.

بيد أنه خلال الشهور التي أجرت فيها لجنة وودهيد مداولاتها، بادرت القيادة الصهيونية - والتي لم يكن لديها علم عن قرار لندن السري برفض التقسيم - ببحث ونقاش عميق لمقترحات بيل والطرق العملية لتنفيذها. وكان موضوع «النقل» محل دراسة شاملة؛ حيث سُكِّلت «لجنة النقل» من خبراء على رأسهم ثون - الذي شغل آنذاك منصب رئيس شركة تطوير أراضي فلسطين - لبحث وسائل وطرق تنفيذ «الترانسفير» - كم عدد العرب الذين يجب أو يمكن نقلهم؟ ومن هم؟ وإلى أين؟ وما التعويضات التي يمكن تقديمها لهم؟ - ولقد كانت المشكلة كبيرة والظروف المحيطة متغيرة (ثورة عربية مستمرة، حكومة بريطانية غير مؤكدة تأييدها لتوصيات بيل، عالم يتجه نحو حرب شاملة، مما يعنى بالتأكيد تنحية المشكلة الفلسطينية جانبا). وتفرقت اللجنة في يونيو 1938 دونما التوصل إلى تقرير نهائي⁽²⁶⁾.

بالتوازي مع ذلك ناقشت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية (حكومة اليشوف) «النقل». وفي السابع من يونيو 1938 أعلن بن غوريون، مقترحا بخطوط إرشادية لسياسة صهيونية في هذا الخصوص: «أن الدولة اليهودية ستناقش مع الدول العربية المجاورة موضوع النقل الاختياري للمزارعين المستأجرين، والعمال، والفلاحين من الدولة اليهودية إلى الدول العربية المجاورة». وكعادته، أقر بن غوريون في الوقت ذاته مساواة تامة وحقوقاً مدنية للعرب الذين يعيشون في الدولة اليهودية، ونظر

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

بعض أعضاء «الحكومة» إلى هذا الإقرار على أنه وعد كلامي كاذب للتسجيل فقط أمام الأجيال المقبلة⁽²⁷⁾. وبعد مرور خمسة أيام كشف بن غوريون - بشكل غير مقصود - عن نواياه: «أؤيد النقل الإجباري. ولا أرى فيه أي شيء غير أخلاقي»، وحذا «يوسيشكين» حذوه قائلاً: لا يوجد أي شيء غير أخلاقي في نقل 60 ألف عائلة عربية،

فلا يمكننا أن نبدأ دولة يهودية وبدخلها... نصف السكان عرب... مثل هذه الدولة لا يمكنها أن تصمد حتى نصف ساعة... «النقل» هو أفضل ما يمكننا فعله أخلاقياً... وأنا مستعد للدفاع عن ذلك أمام الرب...

ذهب ورنر ديفيد سيناتور، صاحب الأفكار الليبرالية، الذي شغل منصب مدير الجامعة العبرية، والمتحدر من أصول ألمانية، إلى المناداة بـ «أقصى حد للترانسفير». ومن جانبه قال يهشوا سوبرسكي، عضو لجنة التنفيذ الصهيونية، إنه على اليسوف أن يتنبه إلى «عدم خلق تشيكوسلوفاكيا جديدة هنا، ويمكن ضمان ذلك من خلال الهجرة التدريجية من قبل العرب»، مشيراً بذلك إلى تقويض جمهورية تشيكوسلوفاكيا بوجود أقلية ألمانية. واتفق كل من بن غوريون ويوسيشكين وكاتزنيلسون على أن البريطانيين، وليس اليسوف، هم من يجب عليهم تنفيذ «الترانسفير». وأعلن كاتزنيلسون: أن «المبدأ هو أنه يجب أن يكون هناك "نقل" واسع متفق عليه». ومن جانبه قال روبين: «أنا لا أومن بنقل أفراد، ولكن بنقل قرى كاملة». أما إلعازر كابلان - المدير المالي للوكالة اليهودية - فقد ذهب إلى أنه مع وجود إغراء مالي مناسب، وإذا ما تركوا في حالة فقر مدقع داخل الدولة اليهودية الوليدة، فإن العرب ربما يوافقون على «رحيل اختياري». واقترح إياهو بيرلين - قائد حزب إسرائيل الديني في الكنيسة - «زيادة الضرائب لدفع العرب إلى الفرار من جراء ذلك». وهكذا كان هناك توافق فعلي مؤيد لـ «الترانسفير» بين أعضاء اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية: الجميع فضلوا «النقل الطوعي»، غير أن أغلبهم وافقوا كذلك على «نقل إجباري»، مفضلين بالتأكيد أن تقوم بريطانيا وليس اليسوف بتنفيذ ذلك⁽²⁸⁾.

بشكل أو بآخر كانت التعبيرات الصهيونية المؤيدة للنقل خلال عام 1936 و 1937 والنصف الأول من عام 1938 مرتبطة بعمل لجنة بيل وتوصياتها. ولكن لم ينطبق ذلك على مخطط بن غوريون الجديد لـ «الترانسفير» مع بداية ديسمبر 1938. مات اقتراح بيل ودُفن. وفي ألمانيا بدأ النازي في إطلاق العنان للمذبحة الجماعية في «ليلة الكريستال»، وفي فلسطين ولندن كان البريطانيون والعرب والقادة الصهاينة يستعدون لمؤتمر سان جيمس الذي كان على وشك أن يفتح أبوابه في العاصمة البريطانية. وكانت القيادة الصهيونية في أشد الحاجة إلى إيجاد ملاذ آمن لليهود أوروبا وتفريغ فلسطين استعدادا لوصولهم. وقد كتب بن غوريون على عجل في يومياته: «سنعرض على العراق عشرة ملايين جنيه فلسطيني لنقل مائة ألف عائلة عربية من فلسطين إلى هناك». وفي الحادي عشر من ديسمبر طرح هذه الفكرة على المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية. ووفقا له فإن العراقيين كانوا في حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة ملء أراضيهم الخالية وتنمية بلادهم. غير أن بن غوريون لم يكن متفائلا؛ حيث توقع معارضة من قبل المملكة العربية السعودية ومصر، وكان مدفوعا بهاجس داخلي من كارثة غير مسبوقة:

إن المسألة اليهودية لم تعد كما كانت عليه حتى الآن ... ملايين اليهود مهددون بالتصفية الجسدية... والصهيونية ذاتها في خطر... نحن في حاجة الآن، خلال هذه النكبة التي حلت على الشعب اليهودي، إلى كل فلسطين... وإلى هجرة ضخمة»⁽²⁹⁾.

بيد أن هذه المداولات والخطط لم تسفر عن شيء. وفي نوفمبر استبعدت لجنة وودهيد أي إمكان لإقرار أي من التقسيم أو النقل؛ ووصل مؤتمر سان جيمس الذي عقد في فبراير 1939 إلى طريق مسدود، وفي مايو أصدرت الحكومة البريطانية كتابا أبيض تنصت فيه من التزامها تجاه الصهيونية، ومؤيدة من حيث الواقع أغلبية عربية مستمرة ودائمة وحكما عربيا في فلسطين خلال عشرة أعوام.

ظلت فكرة «الترانسفير»، باعتبارها الحل الذهبي للمشكلة العربية، تسيطر على الخيال الصهيوني. وخلال مناقشتهم للفكرة في أواخر الثلاثينيات اتجه المسؤولون في

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

اللجنة التنفيذية الصهيونية إلى التفكير سواء من منظور «النقل التام» الذي من شأنه أن يترك فلسطين خالية من العرب، أو، إذا ما اتضح أن ذلك غير ممكن، من زاوية نقل فئات محددة من العرب، حيث دار الحديث عادة عن الفلاحين والمستأجرين الزراعيين، ربما لأن نقلهم يتضمن توفير المزيد من الأرض للمؤسسات الصهيونية. وفضلا عن ذلك فإن المزارعين كان ينظر إليهم على أنهم «قابلون جدا للنقل»، لأن إعادة توطينهم في أرض شرق الأردن أو العراق لا تتطلب إعادة تأهيل مهني أو تأقلم ثقافي عميق. وفي المقابل فإن تحريك الجانب الأكبر من قاطني المدن سيمنح المشروع الصهيوني فائدة ضئيلة (فقط تحسنا في ديموغرافية فلسطين)، وسيكون أكثر صعوبة في مجال الاستيعاب.

في ظل غياب اتفاق بريطاني-عربي-صهيوني حول نقل شامل، برزت على السطح من وقت إلى آخر مقترحات تتصل بنقل انتقائي لهذه المجموعة الدينية أو العرقية أو تلك. ففي مارس 1939 اقترح سلطان الأطرش، زعيم الدروز في سورية، أن يشتري اليشوف محاصيل القرى الدرزية النائية في فلسطين، وأن يتم نقل سكانها الخمسة عشر ألفا إلى جبل الدروز في جنوبي سورية. وقد أوضح الأطرش أن مثل هذا النقل يمكن أن يفيد كلا من الدروز واليهود، ويمكن أن يصبح نموذجا للمزيد من نقل السكان من فلسطين. وقد استجاب وايزمان بحماسة لذلك، وبدأ سلسلة من المشاورات مع القادة الصهيونية في أمريكا وضباط ومسؤولين من الجيش الفرنسي، وأوضح أن الفرنسيين - الذين حكموا سورية - كانوا مؤيدين، ولكن شيرتوك - في تل أبيب - كان متشككا حول مدى استعداد دروز فلسطين للانتقال، وأن يقوموا في النهاية بإنهاء التفاوض، ويبدو أن الأمر توقف هنا⁽³⁰⁾.

كان من الواضح أن فكرة ما ترسخت في ذهن بن غوريون، الذي صاغ في أكتوبر 1941 برنامج عمل للسياسة الصهيونية في المستقبل أسهب فيه حول إمكانيات النقل، وكتب أن مجموعات متعددة من الفلسطينيين العرب مستعدة للنقل:

الدروز، العديد من القبائل البدوية في وادي الأردن وفي الجنوب، الشرکس، وربما كذلك المتولي (شيعة يعيشون في شمالي الجليل) ربما لا يمانعون أن يُنقلوا، في ظل ظروف مُشجعة، إلى دول مجاورة.

كما أوضح بن غوريون أن المزارعين المستأجرين والعمال الذين لا يملكون أرضا يمكن على الأرجح نقلهم أيضا بسهولة نسبية. ومع ذلك فإن نقل عدد كبير من الفلسطينيين العرب يتطلب، على الأرجح، استخدام «قوة متحجرة القلب». واستطرد بن غوريون في كتابته قائلا إن التاريخ الأوروبي الحديث أثبت أن النقل الإجباري للسكان أمر ممكن. كذلك فإن الحرب العالمية الدائرة تؤكد ضرورة وعملية النقل الجماعي لحل المشاكل الصعبة التي تمثلها الأقليات. واستنتج أنه ستكون هناك انتقالات واسعة للسكان كجزء من تسوية ما بعد الحرب. ومع ذلك فإن الحركة الصهيونية يجب أن تكون حذرة من الدعوة علانية إلى نقل إجباري للعرب، لأن ذلك سيكون تصرفا أخرق، كما أنه يمكن أن يثير عدااء العديد في الغرب. وفي الوقت ذاته فإن الصهيوينيين يجب ألا يُقدموا على أي شيء من شأنه الإضرار بأولئك الذين يتبنون في الغرب «الترانسفير» كعنصر رئيسي في تسوية المشكلة الفلسطينية⁽³¹⁾.

كان بن غوريون يشير بشكل غير مباشر إلى المقترح الذي قدمه هاري سان جون فيلبي، مستشرق ومستشار الملك بن سعود في المملكة السعودية، والخاص بإقامة «اتحاد فدرالي» لدول شرق أوسطية في نهاية الحرب، يحكمه بن سعود. وقد تضمنت الخطة كذلك قيام دولة يهودية في فلسطين، ونقل أغلب الفلسطينيين العرب إلى خارج البلاد مع قيام المملكة بدفع 20 مليون جنيه إسترليني. وقد كان كل من وايزمان وشيرتوك متحمسا للغاية في البداية لهذا المقترح⁽³²⁾.

خلال أعوام الحرب، ظل كل من شيرتوك ووايزمان على تأييدهم المستمر لسياسة «النقل» عاملين على تسويق الفكرة لكل من يريد أن يسمع، ومن بين المتحدثين مع وايزمان كان السفير السوفيتي في لندن، إيفان مايسكي، حيث التقى الرجلان في لندن في أواخر يناير من العام 1941. في البداية تحدث وايزمان عن إمكانية تصدير البرتقال إلى روسيا، الأمر الذي لم يلقَ اهتماما خاصا من السفير، وانتقل الحديث بعد ذلك إلى مناقشة موضوع تحقيق تسوية في فلسطين بعد انتهاء الحرب، ووفقا لوايزمان ذكر مايسكي:

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

أنه يجب أن يكون هناك تبادل في السكان. قال د. وايزمان بأنه إذا ما نُقل نصف مليون عربي فإنه يمكن وضع مليونين من اليهود مكانهم. وسيكون ذلك بالطبع بمثابة الجزء الأول أما ما يمكن أن يحدث بعد ذلك فهو موضوع متروك للتاريخ. وقد علق مايسكي على ذلك بالقول إنهم في روسيا عليهم أيضا أن يتعاملوا مع مسألة تبادل السكان. فذكر وايزمان أن المسافة التي سيجري النقل خلالها ستكون في حالتهم قصيرة، حيث سينقل العرب فقط إلى العراق أو شرق الأردن. استفسر مايسكي حول ما إذا كانت هناك صعوبات يمكن أن تنبع من نقل سكان من بلاد تسودها المرتفعات إلى السهول، فرد وايزمان بأن البداية يجب أن تشمل عرب وادي الأردن، وأنه في كل الأحوال فإن شرق الأردن ليست مختلفة تماما عن مرتفعات فلسطين... وشرح د. وايزمان أنهم (الصهاينة) غير قادرين على التعامل مع العرب كما يمكن أن يكون عليه الحال، على سبيل المثال، في تعامل السلطات الروسية مع عنصر متخلف من سكانها في الاتحاد السوفيتي. كما أنه ليس لديهم الرغبة في القيام بذلك⁽³³⁾.

تضمن تقرير مايسكي عن اللقاء عددا من الاختلافات؛ حيث كتب أن وايزمان هو الذي أثار موضوع «النقل»، واقترح «نقل مليون من العرب... إلى العراق، وتوطين أربعة أو خمسة ملايين يهودي قادمين من بولندا وغيرها من البلاد في الأراضي التي كان يقيم فيها العرب». وقد عبر السفير الروسي عن دهشته إزاء توقعات وايزمان إمكانية إحلال أربعة أو خمسة ملايين يهودي في أراضي سكنها فقط مليون عربي، ووفقا لمايسكي رد وايزمان بالقول:

لا تنزعج من ذلك... عادة ما يوصف العربي بأنه ابن الصحراء، ولكن قد يكون من الأصح تسميته أب الصحراء. فكسله وبدائيته تحول الحديقة المثمرة إلى صحراء. أعطني الأرض التي يشغلها مليون عربي وسيمكنني بسهولة أن أُوطن فيها خمسة أضعاف هذا الرقم من اليهود⁽³⁴⁾.

وبعد مرور عدة أشهر دار تقريبا حديث مطابق بين شيرتوك، الذي كان في زيارة للقاهرة، ووالتر سمارت - سكرتير الشؤون العربية في المفوضية البريطانية بمصر - وتعلق الأمر بهجرة ضخمة لليهود البولنديين إلى فلسطين.

قلت [شيرتوك] إن أرض إسرائيل يمكن أن تستقبل على الأقل خمسة ملايين، واستفسر سمارت «ولكن كم منهم يهود؟».

أجبت: ثلاثة ملايين يهود ومليونان عرب. إن العرب يتزايدون بفضل الهجرة اليهودية (التي تؤدي إلى ازدهار الاقتصاد مما يسهل استيعاب العرب)، ولكن إذا ما طردنا العرب فسيكون هناك مساحة لمزيد من اليهود؛ وهذا سيفيد العرب أيضا.

وهنا سأل سمارت: ماذا ستفعلون معهم؟

أجبت: هل سورية، على سبيل المثال، يمكن أن تنمو بهذا العدد الضئيل من السكان ومساحاتها الخالية؟ إذا ما نُقل عدة مئات الآلاف من أرض إسرائيل إليها، ووفر الشعب اليهودي الأموال، فإن العائد على البلاد سيكون كبيرا، وهو ما ينطبق كذلك على العراق.

في أثناء نفس الزيارة ردد شيرتوك كلمات مماثلة في لقائه مع الوزير الأمريكي الكسندر كيرك⁽³⁵⁾.

على الرغم من أن تلك اللقاءات لم تتمخض عن شيء، فإنها تكشف عن حجم اليأس الذي قد يصل إلى حد التهور والذي شعرت به القيادة الصهيونية بشكل متزايد مع بدء تسرب الأخبار حول المصير المروع لليهود أوروبا، وكذلك الإجراءات التي كانوا على استعداد للتفكير فيها واقتراحها لإنقاذ شعبهم.

لم يكن هذا النوع من التفكير قاصرا فقط على القيادة السياسية، بل امتد إلى العديد من المسؤولين الذين أداروا مؤسسات اليشوف أو «الدولة داخل الدولة». فعلى سبيل المثال يوسف ويتز، الذي شغل منصب مدير إدارة الأراضي في الخزانة اليهودية الوطنية وأحد الشخصيات الرئيسية في مجال شراء الأراضي وتنفيذ الاستيطان، والمعروف بصراحته وفضافته، كتب في يومياته بتاريخ 20 ديسمبر 1940: «من الضروري أن يكون واضحا انه ليس هناك مكان في البلاد للشعبين».

إذا ما غادر العرب فإن البلاد ستصبح واسعة ورحبة لنا... إن الحل الوحيد (بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية) يتمثل في توفير أرض لإسرائيل، على الأقل أرض غربية لإسرائيل (المقصود فلسطين) من دون عرب. ولا يوجد مجال هنا

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

للحلول الوسط... لا يوجد وسيلة أخرى سوى نقل العرب من هنا إلى البلاد المجاورة، ترحيلهم جميعاً ربما باستثناء المدن التي يقطنها بشكل رئيسي العرب المسيحيون: بيت لحم والناصرة والقدس القديمة. ولا يجب ترك أي قرية أو أي قبيلة بدوية. إن الترحيل يجب أن يكون باتجاه العراق، وسورية، وشرق الأردن. ولتحقيق هذه الأهداف ستوفر الأموال ... وفقط بعد هذا النقل ستكون البلاد قادرة على استيعاب ملايين من أشقائنا وستنتهي مشكلة اليهود [في أوروبا]. ولا يوجد حل آخر (36).

إلا أن حل المشكلة اليهودية أو مسألة فلسطين لم يكونا على أولويات قادة التحالف وجزالاته خلال الحرب؛ حيث كان لديهم مشاكل أكثر إلحاحاً. فنقل العرب لإفساح المجال لليهود مثل بالكاد اقتراحاً ضرورياً أو مثيراً للاهتمام. ومع ذلك، فإن الأخبار التي تم تناقلها خلال النصف الثاني من الحرب حول الهولوكوست الذي يرتكبه النازي في أوروبا المحتلة أحدثت بالتأكيد وخزاً في ضمير السياسيين والمسؤولين الغربيين وأبرزت ضرورة إيجاد حل عاجل للمشكلة اليهودية في أوروبا من خلال توفير ملاذ آمن في فلسطين. لقد تعززت التيارات المؤيدة للصهيونية. وأقرت اللجنة التنفيذية لحزب العمال البريطاني في إبريل 1944 برنامج عمل يُقر هجرة يهودية ضخمة، إلى أغلبية يهودية في فلسطين ونقل العرب منها كجزء من تسوية سلمية في الشرق الأوسط. ... وقد نص القرار الذي نُشر في مجلد حزب العمال تحت عنوان: «التسوية الدولية بعد الحرب» (37) على ما يلي: «بالتأكيد توجد في فلسطين حالة نقل سكان على خلفية إنسانية وللتوصل إلى تسوية مستقرة. لنشجع العرب على التحرك إلى الخارج وينتقل اليهود إلى الداخل. لنتركهم يحصلون على التعويضات السخية مقابل أراضيهم ويستقروا في مكان آخر بشكل منظم جيداً وتمويل ضخماً». لقد أدى نشر هذا القرار إلى إثارة نقاش في السابع من مايو في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية - ليس حول مفهوم النقل (حيث اتفق الجميع على مزاياه إن لم يكن حول طبيعته العملية) ولكن حول كيفية قيام القيادة الصهيونية بالرد. وفي هذا الخصوص قال شيرتوك، الذي أضحى فيما بعد أول وزير خارجية، وثاني رئيس وزراء لإسرائيل: «النقل يمكن أن يكون الحجر الرئيسي، والمرحلة النهائية في التطور السياسي،

ولكن ليس بأي حال من الأحوال نقطة البداية. فبالقيام بذلك (الحديث قبل الأوان عن النقل) نقوم بتعبئة قوى هائلة ضد الفكرة ونخربها (المقصود عملية التنفيذ) مسبقا». وتابع الحديث قائلا بطريقة تشبه النبوءة: «الذي سيحدث عندما تقام الدولة اليهودية - من الممكن كثيرا أن تكون النتيجة هي نقل العرب»، وقد انضم بن غوريون إلى هذا الرأي:

عندما سمعت عن هذه الأشياء (قرار اللجنة التنفيذية لحزب العمال) فكرت بجدية... ولكنني وصلت إلى نتيجة مفادها أنه من الأفضل أن يبقى ذلك القرار «كجزء من البرنامج السياسي للحزب».. وإذا ما سُئلنا عن مضمون برنامجنا، فإنه لا يتصور أن أقول «النقل»... لأن الحديث عن هذا الموضوع ربما يحدث الضرر بطريقتين: الأولى، ربما يحدث لنا ضررا في الرأي العام العالمي؛ حيث إنه قد يعطي الانطباع أنه لا يوجد مكان (ليهود أكثر) في فلسطين من دون طرد العرب؛ وثانيا، إن مثل هذا التصريح المؤيد للنقل قد يؤدي إلى وضع العرب في موقف تحفز، واستطرد بن غوريون قائلا: ومع ذلك فإن نقل العرب هو أسهل من أي نوع آخر من أنواع النقل؛ فتوجد دول عربية في المنطقة... ومن الواضح أنه إذا ما أرسل العرب (عرب فلسطين) إلى البلاد العربية فإن ذلك سيحسن من أوضاعهم وليس العكس...

وقد اتخذ باقي أعضاء اللجنة الموقف نفسه؛ حيث أعلن إسحاق غروينبوم، الذي أصبح فيما بعد أول وزير داخلية لدولة إسرائيل:

في رأيي أن هناك بُعدا عربيا لصالح النقل، ويتمثل في زيادة سكان العراق بعرب [إضافيين]. إنها وظيفة اليهود أحيانا أن يفتحوا أعين غير اليهود على أشياء لم يدركوها بعد. وإذا كان من الممكن على سبيل المثال اصطناع ظروف في العراق يمكنها أن تجذب عرب فلسطين للهجرة إليها، فإنني لا أرى أي خطيئة أو جريمة في ذلك.

من جانبه، قال إياهو دوبكين، مدير إدارة الهجرة في الوكالة اليهودية: «سيكون في البلاد أقلية عربية كبيرة ويلزم طردها؛ حيث لا يوجد مكان لمشاعرنا الداخلية في هذا الخصوص»، وذهب إيلعازر كابلان، الذي أصبح أول وزير مالية لإسرائيل، إلى

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

القول: «فيما يتصل بموضوع النقل لدي فقط طلب واحد، هو ألا نبدأ بالجدل بين بعضنا البعض. إن ذلك سيوقع بنا أكبر الضرر خارجيا». وقد قاطعه دوف جوزيف، المستشار القانوني للوكالة اليهودية الذي أصبح بعد ذلك وزير العدل في إسرائيل، ليعبر عن اتفاقه معه في الرأي. ومن جانبه قال وارنر ديفيد سيناتور: «أنا لا أنظر إلى مسألة النقل على أنها مشكلة أخلاقية أو غير أخلاقية... فهي ليست مسألة أرفض بحثها»⁽³⁸⁾.

عاد بن غوريون مجددا، خلال الشهر التالي، لتناول موضوع النقل حينما اقترح بشكل غير واقعي جلب مليون مهاجر يهودي إلى فلسطين «على الفور». وفي هذا الخصوص ذكر موشي حاييم شابيرا، قائد حزب مزراحي الديني. إن ذلك سوف يمكن أن يُجبر اليشوف على بحث مسألة نقل العرب، وتمثل رد بن غوريون فيما يلي:

أنا أعارض أي مقترح للنقل قد يأتي من طرفنا، ولكني لا أرفض النقل لاعتبارات أخلاقية أو سياسية، وإذا كانت هناك فرصة لنجاحه، فيما يتعلق بالدروز، فإنني أؤيده، فمن الممكن نقل كل الدروز بشكل طوعي إلى جبل الدروز [بسورية]. أما بالنسبة إلى باقي العرب فلست أدري. ولكن لا يجب بأي حال أن يكون مقترحا يهوديا⁽³⁹⁾.

إذا كانت الحرب العالمية الثانية والهولوكوست قد عجلا من اهتمام الصهيونية بالنقل، فقد أحيا كذلك لفترة التأييد البريطاني لتسوية تقوم على التقسيم وقيام دولة يهودية على جزء من فلسطين. ففي عام 1943 قدمت لجنة وزارية بريطانية مقترحا يستند إلى التقسيم، وأقر مجلس الوزراء البريطاني الفكرة بالإجماع، في يناير 1944، مع ترك التنفيذ إلى فترة ما بعد الحرب. وبدوره جدد ذلك الدفاع عن النقل في الدوائر الرسمية البريطانية، وربما بشكل متناقض ظاهريا، العربية.

في يناير 1943، اقترح دوق ديفنشير - الذي شغل آنذاك منصبا رفيعا في وزارة المستعمرات البريطانية- المقايضة التالية: أن يقيم البريطانيون دولة عربية في ليبيا التي تم الاستيلاء عليها أخيرا من الإيطاليين، في مقابل الموافقة على قيام دولة يهودية

في فلسطين. وبالنسبة إليه «من غير الصحيح أن الصهاينة قد قاموا بطرد العرب من فلسطين على مر السنين. ولكن في كل الأحوال يلزم التعامل مع السكان العرب في فلسطين من خلال عرض المساعدة للهجرة إلى ليبيا لتلك الأسر التي ترى أن الظروف السائدة في فلسطين غير محتملة»⁽⁴⁰⁾.

مع قرب نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح الجنرال المستعرب جون غلوب قائد جيش شرق الأردن، الفيلق العربي، من المؤيدين البارزين لفكرة النقل (جنبا إلى جنب مع تقسيم فلسطين بين دولة يهودية وشرق الأردن). ففي يوليو 1946 كتب مذكرة تحت عنوان «مذكرة حول التقسيم بوصفه حلا للمشكلة الفلسطينية»، أوصى فيها بالتقسيم «لأنه لا يوجد أي حل آخر يتضمن إمكانية النجاح»، وقد تصور جون غلوب دولة يهودية تضم السهل الساحلي، وسهل زرعين ووادي الأردن الأدنى. وإن لم يكن متأكدا حول طريقة حل مشكلة يافا - المدينة العربية الكبرى وسط المنطقة الساحلية اليهودية. وفي هذا الخصوص كتب قائلا: «أحد الاحتمالات يتمثل في نقل سكانها إلى «مكان آخر» لمدة 10-15 عاما، وفيما يتصل بالعرب الآخرين في المناطق التي ستكون دولة يهودية أوصى جون غلوب (متريدا) بالنقل:

ستكون أفضل الطرق على الأرجح هي السماح بفترة زمنية يمكن خلالها للأفراد الذين يوجدون في دولة أو أخرى على غير إرادتهم أن يختاروا جنسية الدولة الأخرى... وبالتأكيد ربما يختار البعض الجنسية من دون أن تكون لديهم الرغبة في الانتقال إليها والعيش فيها... ومع ذلك فإن الأغلبية العظمى سترغب على الأرجح في الانتقال... إن نسبة صغيرة من الأقليات يمكن أن تتحرك من خلال التبادل المباشر... ولكن... سيستمر وجود وزن عربي كبير داخل الدولة اليهودية. وسيرغب اليهود في التخلص منهم، وسيجدون سريعا الوسائل لدفعهم إلى الرغبة في الرحيل... وبالتأكيد ليس المقصود تحريك العرب بالقوة، ولكن فقط الترتيب لكي يشعر العرب الذين تركوا في الدولة اليهودية بأن آفاق الوظائف المجزية الراتب مفتوحة أمامهم في دولة عربية»⁽⁴¹⁾.

بدا غلوب وكأنه يتحدث عن انتقال «طوعي» تدعمه مجموعة من المحفزات المغربية. ولكن في مذكرة متابعة كتبت بشكل واضح بعد عدة أسابيع، بدا كأنه انتقل إلى قبول بعض إجراءات النقل الإجباري أيضا.

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

عندما تُنظف المناطق المخصصة بشكل واضح للعرب واليهود من كل عناصر الجماعة الأخرى، يجب أن يبدأ العمل لوضع الحدود... وفي الحزام الحدودي يلزم بذل كل الجهود لترتيب تبادل الأرض والسكان بهدف ترك أقل عدد ممكن من الناس يُعَوَّضوا ماديا⁽⁴²⁾.

في يناير 1947، ومع اقتراب صدور قرار التقسيم من الأمم المتحدة، أدخل جون غلوب بعض التعديلات على برنامجه حيث كتب أن العرب في المناطق المخصصة لليهود «يلزم تعويضهم وتوطينهم في مكان آخر»، إلا أنه عاد ليضيف:

إن مقترح التقسيم الذي عُرض في المذكرة السابقة لا يتضمن النقل القسري لأي من الأفراد (أولئك الذين يرغبون في الانتقال إلى دولة أخرى سيعوّضوا)... ولن تكون قوات حكومة جلالة الملكة معنية بنقل أي شخص - وبالتأكيد بطرده بالقوة من دياره، فمن غير الوارد أن تُستخدم القوات البريطانية لطرد العرب من ديارهم، فمثل هذه الأمور يمكن أن يقوم بها الألمان أو الروس... إن القوات البريطانية لا يمكنها أن تكون مخيفة بما فيه الكفاية... ولكن محاولة تنفيذ نقل كتل واسعة من العرب باستخدام القوات اليهودية ربما قد يقود إلى حرب أهلية، كما أن قوات الدول العربية ربما ترفض القيام بذلك. وتتمثل النتيجة المحتمومة في أن التكتلات الكبيرة من السكان لا يمكن تحريكها، ومن ثم فإن الحدود التي يمكن وضعها عمليا هي تلك التي تسير بشكل تقريبي مع الخطوط الديموغرافية الفاصلة والقائمة فعلا...⁽⁴³⁾.

في الواقع فإن ما قاله غلوب كان يعني أن التقسيم، بين دولة يهودية وشرق الأردن، هو الحل الوحيد؛ وأنه لكي ينجح لا بد من أن يكون هناك نقل للعرب خارج الدولة اليهودية (كما هو الحال بالنسبة إلى عدد أكثر قلة من اليهود في المناطق العربية)، على أن يكون النقل طوعيا ويُعَوَّضوا عنه؛ حيث إن النقل القسري، بواسطة القوات البريطانية أو اليهودية أو العربية، لا يمكن تصوره وسيؤدي فحسب إلى اندلاع عمليات قتالية واسعة المدى.

ولم يكن فقط الناشطون الصهاينة والرسميون البريطانيون هم من تتأرجح مواقفهم في منتصف الأربعينيات حول قول التقسيم الذي يلازمه نقل للعرب خارج

الدولة اليهودية المُزْمعة إقامتها، وإنما تعلق الأمر كذلك بسياسيين عرب كبار - أو على الأقل هذا ما أفصحت عنه مصادر بريطانية موثوق فيها عما قالوه في ذلك الوقت. ففي ديسمبر 1944 أخبر نوري السعيد، سياسي كبير شغل لبعض الوقت منصب رئيس وزراء، مصدرا بريطانيا أنه إذا ما فُرض التقسيم على العرب، فستكون هناك «حاجة لنقل العرب من الدولة اليهودية وهو ما يمكن أن يتم عن طريق التبادل...». وقد افترض السعيد أن التسوية لن تؤدي إلى إثارة رد فعل عربي عنيف، وأيد الفكرة - دولة يهودية صغيرة مصحوبة بعملية النقل - فقط إذا كان من شأنها أن تضع نهاية للمشكلة. وفي نقاش لاحق سمع المسؤول البريطاني أشياء مشابهة من وزير خارجية العراق أرشد العمري: «كرر أرشد ما سبق أن قاله السعيد... حول ردود الفعل العربية المحتملة وكذلك ضرورة نقل العرب من الدولة اليهودية»⁽⁴⁴⁾. وقد أكد نوري السعيد موقفه بشكل أكثر وضوحا خلال لقائه مع إليك كيركبرايد، الممثل البريطاني المقيم في عمان:

بشرط أن يُنفذ التقسيم على أسس عادلة، فإنه ربما يكون من الأفضل فقدان جزء من فلسطين لكي نحصر الخطر الصهيوني داخل حدود دائمة. وذكر، نوري باشا، أن الأساس العادل الوحيد هو التخلي عن المناطق التي يشكل فيها اليهود أغلبية... في حين يُدمج القسم العربي من فلسطين مع شرق الأردن⁽⁴⁵⁾.

وفي عمان سادت حالة من التعاطف المفهوم مع تقسيم فلسطين بين اليهود وشرق الأردن، وكان من الطبيعي أن يقود ذلك إلى قبول النقل الذي يلزم التقسيم. ففي لقاء جرى بالقدس في فبراير 1944 جمع سير هارولد مكمايكل، المفوض السامي، واللورد موين، الوزير المقيم في الشرق الأوسط، وكيرك برايد، والجنرال أدوارد سبيرس، رئيس البعثة السياسية البريطانية في سورية ولبنان، كان هناك اتفاق عام على أن «التقسيم يمثل الأمل الوحيد لتسوية نهائية في فلسطين». وطبقا لموين، يعترف كل من رئيس الوزراء الأردني، توفيق أبو الهدى، ورئيس الوزراء المصري، مصطفى النحاس باشا، على أن «التسوية النهائية يمكن الوصول إليها فقط بواسطة التقسيم» (هذا على الرغم من أن القادة العرب لم يصرحوا بذلك علنا)⁽⁴⁶⁾.

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

قام أبو الهدى بإبلاغ كيركبرايد مباشرة بموقفه في لقاءين، في 3 ديسمبر 1943 و16 يناير 1944، وفي اللقاء الثاني ذكر أبو الهدى (وفقا لما أورده مكمايكل) أنه «لا يرى أي بديل للتقسيم...»⁽⁴⁷⁾. وبعد مرور عامين، في يوليو 1947، أرسل كيركبرايد برقية إلى لندن حول اللقاءات التي عقدها مع الملك عبدالله ورئيس وزراء الأردن الجديد إبراهيم باشا هاشم:

يؤيد عبدالله التقسيم ويشعر أن القادة العرب الآخرين يمكن أن يقبلوا بذلك الحل على الرغم من أنه لا يمكنهم الموافقة عليه علنا... وذكر هاشم أن الحل العادل والدائم الوحيد يكمن في التقسيم الكامل مع تبادل السكان، فترك اليهود في دولة عربية أو العرب في دولة يهودية سيقود بشكل حتمي إلى اضطرابات جديدة بين الشعبين، وقد أقر إبراهيم باشا أنه لا يمكنه التعبير عن هذه الفكرة في العلن خشية أن يوصف بالخائن، مضيفا أن الممثلين العرب الآخرين في المناقشات سينقسمون إلى فريقين: الأول مثله لا يجرؤ على التعبير عن أرائه الحقيقية، والثاني من المتطرفين الذين سيطلبون المستحيل⁽⁴⁸⁾.

وبعد مرور شهر علق كيركبرايد بقوله:

إن كلا من الملك عبدالله ورئيس وزراء الأردن يرى أن الحل العملي الوحيد لمشكلة فلسطين يتمثل في التقسيم الذي يتبعه تبادل للسكان [بما يعنيه ذلك من نقل العرب خارج الدولة اليهودية المزمعة إقامتها] ولكنهما غير قادرين على التعبير عن رأيهما بشكل علني...⁽⁴⁹⁾.

يبرز من العرض السابق أن القادة الصهاينة، منذ بداية تشكيل الحركة، نظروا إلى فكرة نقل «العرب» أو عدد كبير منهم خارج فلسطين، أو أي جزء منها يمكن أن يصبح يهوديا، بوصفها وسيلة لحل المشكلة التي فرضها وجود أغلبية عربية أو فيما بعد أقلية عربية كبيرة تعارض وجود دولة يهودية أو العيش فيها. وحيث إن المعارضة العربية، المتضمنة مقاومة عنيفة، للصهيونية تنامت في العشرينيات والثلاثينيات، كما أنه نتج عنها تشدد دوري من قبل بريطانيا إزاء الهجرة اليهودية، فقد تشكل توافق أو شبه توافق بين القادة الصهاينة حول فكرة النقل باعتبارها الحل الطبيعي والفعال وحتى الأخلاقي للمعضلة الديموغرافية. ولم يكن من شأن

مقترحات لجنة بيل المتضمنة التقسيم والنقل إلا أن تقوي من التأييد الصهيوني للفكرة. فقد أدرك الجميع أنه لا توجد وسيلة لتصميم أو نحت فلسطين لا تترك في المنطقة المخصصة لليهود أقلية كبيرة عربية (أو أغلبية عربية) - وأنه لا يمكن تحقيق تسوية تقوم على التقسيم انطلاقاً من هذه القاعدة الديموغرافية. ضاعف اندلاع الحرب العالمية الثانية وما تخللها من المحرقة من يأس الصهاينة الذي بلغ حد التهور للحصول على ملاذ آمن في فلسطين ليهود أوروبا المضطهدين - وعزز من استعدادهم لتبني «الترانسفير» أو «النقل» بوصفه وسيلة تؤدي بشكل فوري إلى إفراغ الأرض بما يمكن من استيعاب اللاجئين المتوقعين القادمين من أوروبا.

لم تأت جولات التفكير الصهيوني حول «النقل» من فراغ، وإنما كرد فعل لعوامل أو مبادرات خارجية: ففي بدايات الثلاثينيات جاء تأمل الصهاينة في التنقل كنتيجة للعنف العربي ولفشل الجهود المبذولة لإقناع البريطانيين بالسماح بتوطين اليهود في شرق الأردن، وفي نهاية الثلاثينيات أطلقت الثورة العربية وتوصية لجنة بيل بأن يُنقل السكان العرب من المنطقة المحددة لقيام دولة يهودية؛ وخلال الأربعينيات جاء التفكير حول «النقل» متأثراً بمقترحات سان جون فيلبي حول «اتحاد فيدرالي» في الشرق الأوسط، والحاجة الماسة إلى ملاذ آمن خالٍ (نسبياً) ليهود أوروبا المهددين بالهلاك؛ وخلال عامي 1944-1945 انطلق الحديث عن هذا الملف من قرار اللجنة التنفيذية لحزب العمل البريطاني والذي ضمن «النقل» في برنامج عمله من أجل تسوية للمسألة الفلسطينية.

بحلول منتصف الأربعينيات أصبح منطق «النقل» وضرورته أمراً مقبولا لدى العديد من المسؤولين البريطانيين وعدد من القادة العرب، بما في ذلك ملك الأردن الملك عبدالله، ورئيس وزرائه إبراهيم باشا هاشم، فضلا عن نوري السعيد في العراق. ليس لأن المحرقة كانت تحتل الأولوية في أذهانهم، ولكنهم كانوا مدفوعين بشكل أساسي بالحسابات التي تقول إن التقسيم هو الحل الوحيد الأكثر معقولية وقابلية للتطبيق والعادل نسبياً للمشكلة الفلسطينية المحيرة، كما أن تسوية قائمة على التقسيم ستكون دائمة فقط إذا ما صاحبها نقل ضخم للسكان العرب خارج المنطقة التي ستقوم فيها الدولة اليهودية؛ حيث إن وجود أقلية عربية ممتعة وكبيرة العدد داخل الدولة اليهودية سيكون على الأرجح بمنزلة وصفة لعدم الاستقرار والكوارث في المستقبل.

«الترانسفير» في التفكير الصهيوني ...

لم يتضمن قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في التاسع والعشرين من نوفمبر 1947 النص على نقل السكان، تاركاً في المناطق المخصصة للدولة اليهودية ما يقارب 400 ألف عربي (إلى جانب 500 ألف يهودي) وقد كان هذا الوضع عند اندلاع القتال بمثابة وصفة للكارثة، مما أدى إلى ظهور وضعية اللجوء للطرف الخاسر ومع انتهاء القتال وانتصار اليهود فرت الأغلبية الكبرى من العرب الذين قطنوا المناطق التي أضحت دولة إسرائيل أو دُفعوا خارجها.

هنا يثور التساؤل حول العلاقة بين التفكير الإسرائيلي حول موضوع النقل قبيل عام 1948 وما حدث بالفعل خلال الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى. ذهب المعلقون والمؤرخون العرب إلى القول إن هذا التفكير ارتقى إلى مستوى التخطيط المُسبق، وإن ما حدث في 1948 كان ببساطة تطبيق منهجي لإيديولوجية صهيونية و«خطة رئيسية» للطرد⁽⁵⁰⁾ ومن جانبهم ذهب معلقو ومؤرخو المدرسة الصهيونية القديمة إلى القول إن الحديث المتقطع بين القادة الصهيونيين عن «النقل» كان مجرد آمال وأحلام ولم يؤخذ على الإطلاق محمل الجد أو يتم تناوله بشكل منظم، ومن ثم فإنه لم يكن هناك تفكير مسبق أو تعمد وراء ما حدث في 1948، وأن خلق مشكلة اللاجئين لا يرجع على الإطلاق إلى تخطيط مسبق بل يرجع إلى ظروف الحرب، وضرورات اللحظة، والفوضى التي سادت، والمقتضيات والاحتياجات العسكرية الفورية، والأهواء الشخصية وما إلى ذلك⁽⁵¹⁾.

بالنسبة إلى فإنه لدي شعور بأن التفكير حول النقل والإجماع شبه الكامل الذي تبلور حوله في الثلاثينيات وبداية الأربعينيات لا يعكس تخطيطاً مسبقاً ولم يسفر عن سياسة أو خطة رئيسية للطرد؛ حيث لم يدخل اليشوف ووحداته العسكرية حرب 1948، التي بدأها الجانب العربي، ولديه سياسة أو خطة للطرد؛ وفي المقابل فإن النقل كان محتملاً ومتضمناً في الصهيونية التي توجهت إلى تحول أرض كانت «عربية» إلى دولة «يهودية»، وهذه الأخيرة لم يكن لها أن تبرز دون إبعاد ضخم للسكان العرب؛ ولما كان من شأن هذا الهدف أن يثير بشكل تلقائي مقاومة بين العرب، فإن ذلك أقنع قادة اليشوف بأنه لا يمكن الإبقاء على أغلبية عربية - أو أقلية عربية كبيرة - ذات طابع عدائي، إذا ما كان للدولة اليهودية أن تنشأ وتستمر في الوجود في أمان. وبحلول عام 1948 كانت فكرة النقل تشيع في الأجواء. إن التفكير

في موضوع النقل الذي سبق الحرب أسهم في حل العقدة من خلال تهيئة الشعب اليهودي والأحزاب السياسية والتشكيلات العسكرية، وإجمالا العسكريين والمدنيين، لما وقع بعد ذلك، فالتفكير خلال الثلاثينيات والأربعينيات حول النقل أسهم في تهيئة القلوب والعقول للتكيف مع تنفيذه عام 1948، ومن ثم فإنه عندما حدث تقبله الشعب اليهودي، باعتباره أمرا طبيعيا لم يكن من الممكن اجتنابه، باستثناء أصوات قليلة عبرت عن احتجاجها.

إن حقيقة أن عرب فلسطين (والدول العربية) رفضوا قرار الأمم المتحدة الخاص بالتقسيم وقاموا بشن حرب، بهدف القضاء على الدولة اليهودية في المهد، تطورت إلى حرب أهلية شاملة في وقت قامت فيه الدول العربية بغزو فلسطين وهاجمت إسرائيل في مايو 1948 أدى إلى تقسية قلوب اليهود تجاه العرب الفلسطينيين؛ حيث نُظر إليهم على أنهم أعداء حتى الموت، وأنه إذا ما استوعبوا داخل الدولة اليهودية فإنهم سيصرون بمنزلة الطابور الخامس. ومن ثم فإن عمليات الطرد التي حدثت من وقت لآخر خلال الرحيل الجماعي للفلسطينيين أثارت القليل من الاستغراب، وقد عني كل هذا أن قادة اليسوف والأحزاب، والسكان قد قبلوا في منتصف الحرب، من دون استياء أو احتجاج يذكر، القرار الحساس سياسيا وعسكريا الخاص بعدم السماح للاجئين العرب بالعودة.

وعند هذه النقطة، بدأ بعض قادة اليسوف في العودة إلى الوراء في محاولة للبحث في العلاقة بين ما حدث فعلا (بحلول خريف 1948 أخرج ما بين 400 ألف و500 ألف عربي من أماكنهم) والتفكير في مفهوم النقل خلال الثلاثينيات والأربعينيات. وفي سبتمبر 1948 ذكر إسحاق غروينبوم، وزير الداخلية الإسرائيلي: «في رأيي... ليس هناك حاجة لمناقشة عودة اللاجئين (مادام تجدد القتال أمرا ممكنا)»:

في الماضي كان لدينا خطة، تتمثل في أنه إذا كان من الممكن أن ننقل السكان العرب إلى الدول العربية (المجاورة) فإننا مستعدون للمشاركة في نفقات إعادة توطينهم بالمساعدة والتمويل. الآن كذلك، فإنني لا أرى أي خطأ في هذه الخطة... (52).

الموجة الأولى: النزوح العربي (ديسمبر 1947 - مارس 1948)

مع صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين إلى دولتين في التاسع والعشرين من نوفمبر 1947، وقعت هجمات عربية عشوائية ضد اليهود في الطرق، ونُصب أول كمين على الطريق في اليوم التالي بالقرب من كفر سيركين، حيث هوجمت حافلتان مما أدى إلى سقوط سبعة يهود قتلى بطلقات نارية⁽¹⁾. وشهد اليوم ذاته إطلاق قناصة في يافا النار على المارة في تل أبيب. من جانبها، أعلنت اللجنة العربية العليا - التي رفضت صراحة القرار وأي توجه نحو التقسيم - إضراباً عاماً لمدة ثلاثة أيام بدءاً من الأول من ديسمبر، مطلقة بذلك العنان لغضب الجماهير. وفي الثاني من ديسمبر أُقدمت مجموعة إجرامية، لم تعترضها القوات البريطانية، على مهاجمة مركز

«رحل العرب الذين أخلوا المدن بشكل كبير بسبب الهجمات اليهودية (من قبل الهاغاناه، والإرغون، والهستدروت) أو نتيجة للخوف من هجمات وشيكة، فضلاً عن سيادة الشعور بالضعف والعرضة للخطر»

المؤلف

تجاري يهودي جديد في القدس، وباشرت عمليات نهب وحرق للمتاجر وهاجمت اليهود. وقام القناسة بإطلاق النار في حيفا، كما وقعت هجمات في أطراف تل أبيب في مناطق متاخمة ليافا وضواحيها. وسادت أجزاء من فلسطين حالة من الفوضى في وقت بدأ فيه التصعيد يذهب في اتجاه حرب أهلية شاملة. أسست اللجان الوطنية منذ العام 1936 في المدن العربية لتتولى إدارة ما يتصل بالحياة والصراع في كل موقع، وبدأت التشكيلات المكونة من العناصر غير النظامية في العودة إلى الظهور في التلال، في وقت أعادت فيه اللجنة العربية العليا فرض نفسها كقائد للكفاح الوطني. من وجهة النظر الإستراتيجية، تميزت الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 بمبادرة العرب بالهجوم واقتصار اليهود على الدفاع، الذي تخلله بشكل متزايد قيامهم بأعمال انتقامية. ومع قيام مسلحين عرب بمهاجمة السيارات والشاحنات اليهودية، بدأت قوات الهاغاناه منذ نهاية ديسمبر بحماية قوافل السيارات وضواحي المدن والمستوطنات الريفية، ولم يدع المهاجمون على الإطلاق أنهم يستهدفون فقط المقاتلين، بل كان كل يهودي هدفا مشروعاً. وسرعان ما اتسعت رقعة القتال من عدد محدود من المراكز المدنية إلى أجزاء مختلفة من الضواحي. من جانبها، ردت الهاغاناه باستهداف - وبشكل محدد ودقيق - الإرهابيين المعتدين أو المليشيا الإرهابية أو القرية المعنية، غير أن ذلك قد ثبت أنه من الصعب الالتزام به غالباً، وفي جميع الأحوال فإنه بحلول شهري فبراير - مارس 1948، ومع فشل الهاغاناه في قمع المهاجمين، بدأت في التخلي عن هذا الأسلوب الراقى وضربت الطرق والقرى الفلسطينية من دون تمييز، وإن كان ذلك بدرجة من درجات الضبط الذاتي وكعمل انتقامي. وفي الوقت ذاته عادت كل من إرغون وشترن، بشكل منفرد، إلى إستراتيجية أعوام 1937 - 1939 القائمة على زرع متفجرات في الأسواق المزدهمة ومواقف الحافلات، وهو ما رد عليه العرب بالقيام بتفجيرات في مراكز تجمع السكان اليهودية خلال شهري فبراير ومارس (الهجمات بالقنابل على مركز البريد الفلسطيني، وفي شارع يهودا، ومباني المؤسسات الوطنية في القدس). كذلك لجأت الهاغاناه في بعض المناسبات وبشكل غير متعمد إلى الإرهاب، كما كانت عليه الحال في الهجوم على فندق سميراميس بالقدس في يناير 1948، وإن تمسكت بصفة عامة بسياسة استهداف المذنب، وكانت تحرص في كل الأحوال على قصر استخدام العنف على المجال الجغرافي للمناطق المعروفة عنها أنها مصدر للعنف العربي.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

بدءاً من يناير 1948، وتماشياً مع قرارات الجامعة العربية الصادرة في ديسمبر 1947 والداعمة للتدخل غير المباشر، بدأ متطوعون (بعضهم من الجنود العراقيين والسوريين والبعض جنود سابقون) في التسلل إلى داخل البلاد، غالباً تحت راية جيش الإنقاذ الذي سُكّل حديثاً، وشنوا أولى هجماتهم الواسعة النطاق على مستوطنات يهودية بهدف تدميرها والاستيلاء عليها (ومن بين ذلك كفر سزولد في الجليل، وكفر يوريا في جوش عتصيون بوسط البلاد).

خلال شهري فبراير ومارس، ومع إصرار البريطانيين في خطاهم للاستعداد للانسحاب وتخليهم بشكل متزايد عن مقاليد الحكم، تزايدت حدة المعارك بين الميليشيات العربية واليهودية خاصة على الطرق. وبالنظر إلى التداخل الجغرافي بين السكان، وتواجد القوات البريطانية في أغلب المناطق، وطبيعة العمل السري لمليشيات القوى المتصارعة، تضمن القتال خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 خليطاً من كل من حرب الميليشيات والحرب النظامية والإرهاب. وفي المناطق الريفية، تمكن العرب من تحقيق النصر من خلال قيامهم، على نحو متقطع، بسد الطرق التي تربط المراكز السكانية اليهودية الرئيسية بالتجمعات النائية، خاصة في غرب القدس التي ضمنت 100 ألف يهودي، وجوش عتصيون (جنوب بيت لحم) والكيبوتسات (في الجليل الغربي) والمداخل الشمالية للنقب. وعلى الرغم من قيام الهاغاناه باستخدام الشاحنات المصفحة لحماية القوافل، فإن التكتيكات المتطورة لقوة النيران العربية تغلبت على هذه العقبة، يضاف إلى ذلك أن الانسحاب البريطاني التدريجي وتزايد هجمات إرغون والهستدروت على القوات البريطانية أدّى إلى عدم قدرة أو رغبة البريطانيين في حماية طرق النقل التي يستخدمها اليهود.

أدت سلسلة من الأزمات الناجمة التي نصبتها العصابات غير النظامية خلال الأيام الأخيرة من شهر مارس 1948 إلى تدمير القوافل المتجهة إلى خلدة والنبى دانيال ويحيام، الأمر الذي استنزف على نحو خطير أسطول المركبات المدرعة الذي استحدثته الهاغاناه كبديل مؤقت للحماية، مما أثار مخاوف بن غوريون من احتمال سقوط القدس الغربية التي أضحت محاصرة.

وفضلا عن تلك الهزائم على الطرق، أسهمت مجموعة من العوامل في الإسراع بانتقال الهاغاناه إلى الإستراتيجية الهجومية في مطلع شهر أبريل 1948 ومن بينها: وصول الأسلحة سرا من تشيكوسلوفاكيا، إعادة تنظيم الهاغاناه، المؤشرات القادمة من الولايات المتحدة حول تخليها عن التقسيم، الانسحاب البريطاني الظاهر للعيان واحتمالات الغزو الوشيك من قبل الجيوش العربية، ومنذ ذلك التاريخ فإن النزوح الجماعي العربي بدأ يسير قدما. فبنهاية شهر مارس فر ما يقرب من 100 ألف عربي، أغلبهم من الطبقات العليا والمتوسطة في يافا وحيفا والقدس والقرى في المناطق التي مثل اليهود فيها الأغلبية من قبيل: وادي الأردن والسهل الساحلي، إلى مناطق التجمعات العربية في الشرق، بما في ذلك الناصرة، ونابلس وبيت لحم، أو غادروا البلاد تماما.

مع بدء العد التنازلي لتبني حل التقسيم، بدأت العائلات العربية الغنية تشعر بالتوتر والقلق، ووفقا لبعض المصادر فإن عددا منها كان يرغب في الرحيل عن الناصرة منذ الأسبوع الأول من نوفمبر 1947⁽²⁾. غير أن عملية الفرار الحقيقية بدأت مع اليوم الأول للقتال. ففي الثلاثين من نوفمبر، كان لدى استخبارات الهاغاناه تقارير عن "إجلاء سكان عرب من المناطق الحدودية في القدس ويافا"⁽³⁾. كذلك نقلت مصادر الاستخبارات اليهودية في الأول من ديسمبر أخبارا عن هروب عائلات من عدة مناطق متاخمة لحدود يافا بما في ذلك المنشية⁽⁴⁾، وأوردت تقارير أخرى معلومات عن مغادرة العرب في اليوم ذاته للحي اليهودي في صفد⁽⁵⁾، ومن قرיתי الشيخ مونس والجماسين المتاخمتين لتل أبيب، أيضا جرى طرد مُلاك الأكشاك والباعة الجائلين من العديد من الأسواق اليهودية في منطقة تل أبيب الكبرى⁽⁶⁾. وخلال أيام كانت هناك عملية مشابهة تجري في المدينة القديمة بالقدس، حيث أجلي العرب الذين كانوا يعيشون داخل الحي اليهودي وفي المناطق المحيطة به (يُذكر أن بعض المنازل المحيطة كان قد سُيطر عليها من قبل رجال المليشيات العربية)⁽⁷⁾. وبحلول التاسع من ديسمبر نقلت مصادر استخبارات الهاغاناه أن «اللاجئين العرب كانوا ينامون في شوارع يافا»، وأن «العائلات ميسورة الحال غادرت المدن الساحلية في اتجاه الداخل، أما الأغنياء فيهاجرون إلى سورية ولبنان وحتى إلى قبرص»⁽⁸⁾. وبعد انقضاء يومين، نقل مستشارو بن غوريون للشؤون

الموجة الأولى: النزوح العربي...

العربية إليه أن «العرب يفرون من يافا وحيفا، والبدو يفرون من شارون (السهل الساحلي). من جانبهما، ذكر كل من جوش بالمون وعيزرا داني - وهما من كبار ضباط استخبارات الهاغاناه - أن العرب يهربون من قراهم للعيش مع أقاربهم في مناطق أخرى، في حين اتجه الفلاحون الذين سبق لهم الذهاب إلى المدن إلى العودة لقراهم الأصلية. وذهب بالمون إلى حد التكهن بأنه قد جرى إخلاء كل من حيفا ويافا بسبب «نقص الطعام».

فضل داني خنق العرب في الحضر اقتصاديا من خلال تدمير الحافلات والشاحنات والسيارات، وقطع الطرق المؤدية إلى فلسطين، وحصار الموانئ الفلسطينية⁽⁹⁾، وقد كان لدى بن غوريون اقتناع بأن العرب في يافا وحيفا، «جزر في أراضٍ يهودية»، واقعون تحت رحمة اليشوف ويمكن دفعهم إلى الموت جوعا⁽¹⁰⁾.

وطبقا لإلياس ساسون (إلياهو)، مدير القسم العربي في الإدارة السياسية للوكالة اليهودية، فإنه بحلول الحادي عشر من يناير 1948 كانت الروح المعنوية للعرب منخفضة في كل المدن والمناطق الريفية الداخلية، وقد كتب ساسون للملك عبدالله في شرق الأردن:

الجوع، والأسعار الباهظة، والفقر تبدو مستشرية على نحو مخيف، وهناك خوف ورغب في كل مكان، والهرب مؤلم، من منزل إلى منزل، ومن حي إلى حي، ومن مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى قرية، ومن فلسطين إلى الدول المجاورة. إن عدد أولئك الذين أبعادوا يُقدر بالآلاف⁽¹¹⁾.

سياسة اليشوف

ديسمبر 1947 - مارس 1948

دخل اليشوف الحرب من دون أن تكون لديه خطة أو سياسة مسبقة تتعلق بالتعامل مع المدنيين العرب الموجودين بينهم، غير أنه مما لا شك فيه أن قاداته خلال الثلاثينيات والأربعينيات كانوا يعتقدون أن الدولة اليهودية المأمولة ستضم أقلية عربية كبيرة، وقد أكدوا دائما أن السكان العرب سيُعاملون باعتدال وعلى قدم المساواة مع الآخرين. بيد أنه بحلول نوفمبر 1947 لم يعد هؤلاء القادة سعداء بالإبقاء على مثل هذه الأقلية الكبيرة (ما يقرب من 400 ألف عربي إلى جوار 500

ألف يهودي). وفي هذا الصدد كتب يوسف نحمانى، مدير مكتب التمويل اليهودي في شرقي الجليل ومن قدامى الناشطين المدافعين عن الصهيونية، في يومياته:

كانت الفرحة في قلبي ممتزجة بالحزن، الفرحة لأن الشعوب (في العالم)
اعترفت في نهاية الأمر بأننا أمة لها دولة، والحزن لأننا فقدنا نصف هذه
الدولة... و... أن لدينا 400 ألف عربي⁽¹²⁾.

ولكن تلك هي الورقة التي تعامل بها المجتمع الدولي مع الحركة الصهيونية، وكان على الأخيرة أن تتعاطى معها بأفضل ما يمكنها. وعلى الرغم من أن عددا من القادة أضمروا بعض الأفكار حول كيفية قيام اليهود، في المستقبل، بالتخطيط لرحيل - على الأقل - بعض أفراد تلك الأقلية العدائية غير المرغوب فيها، والتي تنشر عدم الاستقرار، فإنهم احتفظوا بتلك الأفكار في قرارة أنفسهم. غير أن العرب لم يتركوا لهم فرصة للتدقيق في المشكلة، حيث فصلت ساعات معدودة بين تبني قرار التقسيم وإشعالهم فتيل الحرب.

خلال الأسابيع الأولى للعنف لم يكن من الواضح بالنسبة إلى أغلب المراقبين من اليهود، والبريطانيين، والعرب أن الشعبين قد دخلا بالفعل في حرب، حيث ساد الاعتقاد بين معظمهم أنهم يشاهدون تكرارا لموجات «الشغب والاضطرابات» العابرة التي عرفتها أعوام 1920 و1929 أو 1936. وخلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى يناير 1948، ناقش عدد من كبار قادة حزب ماباي (بمن فيهم شمعون بيرسكي (بيريز)، وأفراهام هارتسفيد، وليفي شكولنيك (أشكول)، وزلمان ليفشتز (ليف)، مستقبل السياسة الاستيطانية للدولة اليهودية، وقد تمخضت المناقشات عن مشروع تحت مسمى «خطوط عامة لخطة تنمية الاستيطان الزراعي خلال الأعوام الثلاثة 1949 - 1951»، وافترض المشاركون أن توصياتهم يمكن أن تمثل قاعدة لسياسات الدولة، ولم تأخذ المناقشات بكثير من الاهتمام مناخ العنف، أو الحرب، الذي كان يتجلى للعيان خارج غرفة الاجتماعات، مما كان من شأنه أن يغير كل شيء. فالتقرير الصادر عنهم افترض دخول قرار التقسيم حيز التنفيذ كما تمت صياغته.

وخلال اجتماع الثالث والعشرين من ديسمبر، تناول يوسف ويتز المشكلة الديموغرافية قائلا:

الموجة الأولى: النزوح العربي...

لقد كنت دائما من أنصار النقل، ولكن اليوم لن نقوم بإثارة هذا الموضوع ولو عن طريق التلميح. ومع ذلك فإنني أعتقد أن جزءا من السكان العرب سيهاجر من تلقاء نفسه، وأيضا نتيجة لرغبة حكام البلاد المجاورة الذين سيحتاجون إليهم (المقصود المهاجرون). فمنطقة بيت شيان (بيسان)، على سبيل المثال، ستصبح خالية من بدوها في المستقبل، حيث إنهم يرغبون في اللحاق بقبائلهم عبر الأردن، وينطبق الشيء نفسه على آخرين مثلهم في مناطق أخرى.

افترض ويتز على الدوام أن حدود الدولة اليهودية ستظل على النحو الذي حدده قرار التقسيم.

وأضاف: «إن الدولة اليهودية لن تكون قادرة على البقاء مع وجود أقلية عربية كبيرة داخلها، وأنه لا يجب أن تتجاوز نسبتها 12 - 15 في المائة من إجمالي السكان». في المقابل، أعتقد أن نسبة اليهود يمكن زيادتها - على الرغم من معدل الزيادة الطبيعية العربية «المرتفع بشكل مفرط» - خلال فترة تتراوح بين عشرة أعوام واثنى عشر عاما من خلال الهجرة اليهودية الضخمة. وقد افترض المشاركون، سواء خلال المناقشات أو في التقرير النهائي، أن «الخطوط العامة» ما يلي:

أ - انه لن تكون هناك مصادرة لأراض فلسطينية من قبل الدولة.

ب - ان الدولة ستوفر للعرب موارد مائية كبيرة (20% من إجمالي المصادر المتاحة).

ج - انه على الأقل في الأعوام الأولى سيمثل العرب نسبة 35% من سكان البلاد.

وعلى الرغم من أفكار ويتز، فإن نقل السكان لم يُطرح أو يُقر⁽¹³⁾.

بيد أنه طوال الأشهر الأولى من الحرب كانت هناك أيضا رغبة كامنة لدى المسؤولين الصهيونيين وضباط الهاغاناه في أن يبقى أقل عدد ممكن من العرب في البلاد، ومن وقت لآخر جرى طرح مقترحات ملموسة للتوصل إلى مثل هذه النتيجة. ففي الرابع من يناير 1948 كتب داني ديفيد هاكوهين، إحدى الشخصيات المرموقة في حزب ماباي، يعتقد أن النقل هو السبيل الوحيد، ومن جانبي فإنني أتفق معه...⁽¹⁴⁾، وربما كانت التوصية التي تقدم بها، في أوائل شهر يناير، ضابط الهاغاناه زفي أورباخ شادة من حيث صراحتها، وإن لم يكن الأمر كذلك من حيث النوايا: «أقترح... أن نضع

خزان مياه يافا خارج الخدمة... مما يؤدي إلى إجبار عدد كبير من العرب على مغادرة المدينة»⁽¹⁵⁾، كذلك كان الوصف الذي قدمه بن غوريون، في السابع من فبراير، لزيارته الأخيرة للقدس أيضا شاذًا ولكن في الوقت ذاته كاشفاً:

منذ دخولك إلى القدس عبر مهان يهودا وشارع الملك جورج ومي شاريم - لا تصادف أي أغراب [المقصود عرب]، وإنما مائة في المائة يهود. فمنذ تدمير القدس على أيدي الرومان فإنها لم تكن يوما يهودية أكثر مما هي عليه الآن، وفي العديد من الأحياء العربية الغربية [في القدس] لا يمكن رؤية عربي واحد. ولا اعتقد أن ذلك سيتغير... وما حدث في القدس... يمكن أن يحدث في أجزاء كثيرة من البلاد إذا ما قمنا بتشديد قبضتنا... وإذا ما قمنا بذلك فإنه من الممكن جدا في الأشهر الستة أو الثمانية أو العشرة من الحرب أن تحدث تغيرات كبيرة... ليست جميعها في غير صالحنا، فبال تأكيد ستكون هناك تغيرات كبيرة في تركيبة السكان في البلاد⁽¹⁶⁾.

تُظهر النظرة السريعة إلى هذا الوصف تضمنه كلا من التوقع والرغبة في آن واحد. أما على صعيد السياسة الرسمية فإنها كانت تفترض استمرار بقاء أقلية عربية كبيرة داخل الدولة، وهو ما تضمنته مسودة بيان اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية في الثاني عشر من ديسمبر 1947:

إن عدة آلاف من العرب سيعيشون في الدولة اليهودية. نحن نريدهم أن يشعروا، منذ هذه اللحظة، أنهم سيكونون آمنين على حياتهم وممتلكاتهم شأنهم في ذلك شأن المواطنين اليهود الآخرين، وذلك شريطة أن يلتزموا بالسلام⁽¹⁷⁾.

وبشكل مماثل، وزعت الإدارة العربية في الهستدروت (اتحاد الغرف التجارية الذي هيمن عليه حزب ماباي) خلال يناير 1948 على الأقل منشورين على «العمال العرب» يناديان بالسلام والتعاون بين البروليتاريا (الطبقة العاملة) العربية والإسرائيلية. وقد نص المنشور الثاني على ما يلي:

إن العمال العرب، سواء أكانوا موظفين أم فلاحين، في الدولة اليهودية سيصبحون مواطنين لهم حقوق وواجبات مساوية لغيرهم... ففي هذه الدولة لن يوجد مكان للتمييز... أيها العمال: لا تسمحوا أن يجري تضليلكم وجركم كالأغنام التي تسير خلف الراعي إلى حتفها⁽¹⁸⁾.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

كانت الفرضية العامة التي سادت خلال الأسابيع الأولى للحرب أن الدولة اليهودية المقبلة ستخرج إلى الوجود وبداخلها أقلية كبيرة من العرب، وبالتأكيد فإن اليشوف لم يدخل الحرب بخطة رئيسية تهدف إلى الطرد، ولكن التطورات خلال الأشهر التالية - والتي كان أكثرها أهمية النزوح الجماعي العربي الواضح والهجمات العربية على المستوطنات اليهودية وضواحيها وطرقها - كان من شأنها أن تؤدي إلى تآكل تلك الفرضية تدريجياً. لم يكن النزوح الجماعي في حد ذاته نتاجاً لتفعيل خطة أو سياسة يهودية ما، وإنما للتغير المستمر للحقائق العسكرية والنفسية على أرض الواقع في كل قطاع وعلى مدار الوقت. تلك الحقائق كانت تُحددها في بعض الأحيان التغيرات في إستراتيجية وتكتيكات الهاغاناه، والتي كانت بدورها بمنزلة ردود فعل على إستراتيجية العرب وتكتيكاتهم وأعمالهم.

قد يكون من المفيد في هذا الخصوص إلقاء نظرة على تطور الإستراتيجية والتكتيكات العسكرية التي تبناها اليشوف خلال المرحلة الأولى من الحرب الأهلية. فإثناء الأيام الأولى للحرب، جرى الاتفاق في لجنة الدفاع (الجهاز السياسي الأعلى المشرف على شؤون الدفاع والذي ضم ممثلين من الأعضاء المحليين للهاغاناه والوكالة اليهودية والهستدروت والمجلس الوطني، ورئاسة أركان الهاغاناه) على ما يلي:

إن التفجيرات أو الثورات لا يجب أن يُنظر إليها على أنها بداية عدوان عربي منظم ومخطط ونظامي... إن السكان العرب لا يريدون الإخلال بحالة السلام والاستقرار، كما أنه ليس هناك قرار بعد (من قبل القيادة العربية) بالدخول في الحرب. وقد نظرنا إلى هذه الثورات على أنها ذات طابع محلي... وكان قرارنا أننا لا نريد أن تسفر تصرفاتنا عن تشجيع اللجنة العربية العليا والمفتي على جرف طبقات أوسع من الشعب العربي في دائرة العنف.

اتخذت لجنة الدفاع وقادة الهاغاناه قراراً ضد «توسيع دائرة العنف»⁽¹⁹⁾. وجاء هذا الخط منسجماً مع التوجه الفكري للجنة خلال النصف الأول من نوفمبر 1947، قبل اندلاع القتال. وفي الثالث عشر من نوفمبر تركز النقاش حول الخطة البديلة التي أعدتها الهاغاناه، والتي كانت تفترض حدوث هجوم من العرب الفلسطينيين على اليشوف بمساعدة ما - من حيث العناصر البشرية والتسليح - من الدول

المجاورة، وفي هذا الخصوص أوضح ياكوف دوري، رئيس هيئة أركان الهاغاناه، أن الخطة تتضمن قيام الأخيرة بتوجيه ضربات انتقامية ضد مرتكبي الاعتداءات أو من يحتمل قيامهم بذلك، وكذلك ضد أهداف عربية مماثلة لتلك التي يُهاجمها الإرهابيون العرب، من قبيل الطرق ووسائل النقل. من جانبه، ذكر غاليلي، رئيس هيئة الأعضاء المحليين للهاغاناه، كيان شبه عسكري يقع بين اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية (ووزير دفاعها بن غوريون) من جانب، ولجنة الدفاع من جانب آخر، وأيضاً رئاسة أركان الهاغاناه:

من مصلحتنا في حالة اندلاع الاضطرابات ألا يمتد العدوان [المقصود العنف] لفترة زمنية أو على نطاق جغرافي واسع، ومن هذا المنطلق فإن أكثر الإجراءات الدفاعية أهمية يتمثل في الرد في الأماكن التي نتعرض فيها للهجوم، حيث سيكون هذا أفضل الطرق لإخماد النيران.

وأضاف غاليلي، الذي كان يقوم عملياً بمهام نائب وزير الدفاع في اليشوف، أنه إذا كان من الصعب القيام بعمليات انتقامية فعالة في الوقت والمكان الذي يقع فيهما الهجوم العربي، فإنه يلزم على الهاغاناه أن يكون لديها خطط جاهزة لمهاجمة:

أولئك... غير المذنبين بشكل مباشر... من أماكن... أشخاص... قرى... تميل إلى العنف ضد اليشوف... ولكن الهاغاناه لم تُشكل للعدوان، ولا ترغب في أن تستعبد أحداً، فهي تُقدر الحياة، وتريد أن تقصر ضرباتها فقط على المذنبين، وألا تشعل النيران، بل تطفئها... أحياناً تشكل القيم الأخلاقية عبئاً خلال عمليات الهاغاناه... لكن يلزم علينا أن نأخذها بعين الاعتبار⁽²⁰⁾.

استمرت اللجنة خلال الأسبوع الأول من القتال في التمسك بسياسة «عدم نشر الحرائق» و«عدم التمييز» في العمليات الانتقامية، وهو ما أوضحه بن غوريون بقوله: «سنقوم بالانتقام بإحراق سياراتهم وليس ركابها... فقد يجري ردعهم في حالة تدمير ممتلكاتهم». وعلى غرار موشي شابيرا (من حزب هابوئيل هاميзраحي) كان بن غوريون يخشى أن يؤدي رد فعل مبالغ فيه من قبل الهاغاناه إلى دفع الجماهير العربية، التي لم تكن حتى الآن متورطة في القتال، لمساندة الحسيني ورجاله المسلحين. من جانبه، عبر يوسف ياكبسون، مالك بستان للحمضيات وشخصية

الموجة الأولى: النزوح العربي...

مرموقة في الهاغاناه بمدينة تل أبيب، عن خشيته من نتائج إقدام الهاغاناه على تدمير البساتين لما قد يستتبعه هذا من قيام العرب بالرد بالمثل.

فضلا عن بن غوريون وغاليلي وشابيرا الذين مثلوا فريق الاعتدال الذي يقف في منتصف الطريق، كان هناك تيار متشدد متبلور ومسموع بقوة. فقد أوضح أشكولنيك (أشكول) أنه ربما يكون الوضع من الثلاثين من نوفمبر حتى 1 - 2 ديسمبر قد ترك أملا أن تقتصر جهود اليشوف على التعامل مع انفجار انتقالي مؤقت، غير أنه لم يعد من الممكن التمسك بذلك، ووفقا له: «من الآن فصاعدا، إذا ما حدث شيء فإننا يجب أن نرد بأقصى قوة، العين بالعين، إن لم يكن (في الظروف الحالية) العين بعينين»، ومن جانبه ذكر إيلياهو إيلياشر (يهودي شرقي وأحد وجهاء القدس): «العرب لا يريدون الاضطرابات ويفضلون الهدوء، ولكن في ضوء طبيعة العربي البدائية عندما تقوم بتقديم تنازلات فإنه يرى أنك ضعيف...»، وكان من شأن أحداث القدس أن تفتح شهية العرب، كذلك أوضح يوسف سابير (من حزب هايهود هيزراحي) أنه: «بعد مرور عدة أيام [من العنف العربي] من دون رد، يجب علينا ألا نستمر في سياسة ضبط النفس هذه»⁽²¹⁾. وعلى الرغم من تلك الآراء المتشددة، تبنت اللجنة الخط الذي دافع عنه بن غوريون والمتمثل في «الانتقام وتجنب الإضرار بالشعب»⁽²²⁾.

بيد أن الإستراتيجية الدفاعية التامة التي تبنتها الهاغاناه سرعان ما تجاوزتها الأحداث، لتتغير جزئيا خلال الأسبوع الثاني من ديسمبر. وفي ضوء تزايد عدد الهجمات العربية واتساع نطاقها الجغرافي، والخسائر اليهودية المتصاعدة، والشعور المتزايد بأن أتباع الحسيني بدأوا يستحوذون على تأييد الجماهير العربية (على الرغم من، وربما بسبب، سياسة «ضبط النفس» التي انتهجتها الهاغاناه)، فقد أدى كل هذا إلى تصاعد ضغط الرأي العام من أجل تبني «إستراتيجية أكثر حيوية»، وساعد على ذلك أيضا الضغط الذي مارسه اليمين التصحيحي، الذي لم يكن ممثلا في لجنة الدفاع للوكالة اليهودية أو في قيادة الهاغاناه. ففي السابع من ديسمبر، طالبت محطة «صوت صهيون المحاربة» التابعة للإرغون أن تكف الهاغاناه عن الدفاع وتنتقل إلى الهجوم على كل من العرب و«البريطانيين النازيين»⁽²³⁾. وتمثل أول المؤشرات التي عكست التشدد في مواقف الهاغاناه في التعليمات التي صدرت

من عمليات رئاسة أركانها في التاسع من ديسمبر إلى لواء إسكندروني، المسؤول عن السهل الساحلي من جنوبي حيفا حتى شمالي تل أبيب. طالبت التعليمات بـ «مضايقة» و«شل» حركة المرور في طريق «قليلية - رأس العين - الطيرة - فلهلما - يهوديا»، كما صدرت الأوامر للوحدات باستهداف السيارات أو كل من السيارات والركاب⁽²⁴⁾. قام اللواء بإرسال وحدة تحت قيادة إيريك (على الأرجح أرييل شارون الشاب) قامت بنصب كمين لسيارتين. وقد روى إيريك عن إلقاء قنابل كوكتيل مولتوف عليهما مما أدى إلى احتراق الجرحى العرب داخلهما وموت ستة منهم. وأوضح إيريك أن الذين قاموا بنصب الكمين كانوا مدفوعين بـ «الكراهية»⁽²⁵⁾ بسبب تذكرهم للاعتداءات العربية السابقة على القوافل اليهودية.

قامت عمليات رئاسة أركان الهاغاناه، خلال الأشهر التالية، بتوجيه هجمات القوات صوب وسائل النقل العربية، فبين الفينة والفينة كانت تأمر بتوجيه ضربات في أيام بعينها في طرق محددة⁽²⁶⁾، وفي أوقات أخرى، عندما تتزايد الخسائر اليهودية البشرية من جراء الأكملة العربية، كانت الأوامر تشير إلى ضرورة الانتقام في طرق محددة من دون إعطاء مزيد من التفاصيل⁽²⁷⁾، وفي بعض الأحيان تعلقت الأوامر بمهاجمة حركة المرور العربية على جميع الطرق. وقد كان وراء إصدار مثل هذه الأوامر «التزايد في الهجمات على وسائل نقلنا في أجزاء مختلفة من البلاد»، والهدف منها هو «إسكات أو التخفيف من أنشطة العدو»، لكن مع قرب نهاية شهر مارس صدرت أوامر مضادة بتعليق أو إيقاف تلك الهجمات⁽²⁸⁾.

خلال اجتماع الأعضاء المحليين للهاغاناه، في العاشر من ديسمبر 1947، علق غاليلي على التغيير المحدود الذي حدث بقوله: «لقد حان الوقت للدفاع النشط، والثأر، وإنزال العقاب»⁽²⁹⁾، وكان اجتماع لجنة الدفاع في اليوم التالي حاسما في هذا الصدد، حيث أوضح غاليلي أن «الفرضية القائلة بأن اللهب إما سينطفئ أو يُخمد لم تتحقق، بل تزايدت سيطرة المفتي على الجماهير العربية في حين أصاب الشلل معارضيته، وحقيقة الأمر أن تردي الأوضاع يتطلب منا إدخال تغيير ما على... سياساتنا... ولكن ليس تغييرا جوهريا... إن خسائر العرب لم تردعهم عن القيام بهجمات جديدة، كما أنهم فسروا عدم قيام الهاغاناه بعمليات انتقامية على أنه علامة ضعف، والأكثر من ذلك فإن العالم ربما يبدأ في الاعتقاد أن قوة اليهود غير

الموجة الأولى: النزوح العربي...

كافية للاستمرار، كما أنه في داخل اليشوف أيضا ستندم الثقة في أننا قادرون على مواجهة العاصفة». وتشكك الناس في قوة وقدرة الهاغاناه قد يدفعهم إلى مساندة التصحيحيين الأكثر ميلا للقتال. وفي هذا السياق اقترح غاليلي أن تستمر الهاغاناه في الدفاع عن نفسها بـ «الطريقة التقليدية» مع قيامها بشن «عمليات انتقامية ضد أهداف عربية، خاصة مهاجمة وسائل النقل العربية... والممتلكات الخاصة لقادة ومحرضي المهاجمين».

من جانبه، أوضح بن غوريون أن الاضطرابات كانت حتى ذلك الوقت محصورة في ثلاث مدن رئيسية: يافا، وحيفا والقدس، فضلا عن النقب الشمالي. في حين أن المجتمعات الريفية العربية لم تكن متورطة في القتال، ومن ثم يلزم على اليشوف أن يكون حريصا على عدم إثارتهم. كان قلقا من أن تسفر أعمال انتقامية تنفذها الهاغاناه عن صدامات بين البريطانيين واليشوف، («يجب ألا نندفع إلى الحرب مع الجيش البريطاني»). وفي المقابل، ذكر شاير أنه: «منذ أسبوع كنا قد قررنا أن عملياتنا الانتقامية يجب ألا تتضمن مهاجمة الأشخاص، وأعتقد أن هذا يجب أن يتغير الآن». أما برل ربيتور (الناشط الاشتراكي في حزب أهدوت هافودا) فقد طالب بعمليات ثأرية «أكثر جدية» وإن كانت تأخذ في الحسبان «الاعتبارات السياسية والمعنوية». وشدد ياكوف ريفتن (من حزب هاشومير هاتزائير الماركسي) على البعد الأخلاقي قائلا: «يلزم علينا أن نستمر في ضبط النفس في ردود أفعالنا لاعتبارات أخلاقية، فمن الضروري أن تكون تلك الأعمال مختلفة تماما عن عمليات «القتل» التي يقوم بها العرب، حيث إن الأخلاقيات يجب أن تكون لها الأولوية لدينا»⁽³⁰⁾. وفي نهاية الأمر أقر المشاركون توصية غاليلي المتضمنة تبنى إستراتيجية دفاعية أكثر «جدية».

مع تعاظم حجم الخسائر اليهودية، أضحى صانعو القرار والقادة المحليون في بعض المواقع أكثر قسوة، وذهب اثنان من كبار مستشاري بن غوريون العسكريين في التاسع عشر من ديسمبر، يوحنا ريتنر وفريتز إيسنشتادت (شالوم إيشت)، إلى القول إنه في مقابل «كل هجوم عربي يجب علينا أن نرد بضربة قاسية سواء بتدمير مصدر الهجوم أو طرد سكانه وأخذ مكانهم»⁽³¹⁾. وخلال اجتماع لجنة الدفاع اليوم السابق ذكرت أسماء قرى عربية محددة باعتبارها مُذنبة، وحث

إلياهو إياشر على «اقتلاع جذور» أبو كبير من يافا حتى يكون ذلك «درسا» للمجتمعات الحضرية، أما بنيامين مينتز (زعيم حزب بعاليا أغودات إسرائيل الأرثوذكسي) فقد أشار في حديثه إلى قرية في النقب، مطالباً بأنه «إذا ما سنحت الفرصة لطرد سكانها بالكامل وتدميرها فإن ذلك يجب أن يُنفَّذ». كما دعا ريفتن إلى «تشديد سياسة الانتقام». في المقابل، عارض شاير (عمدة بتاح تكفا وأحد كبار ملاك بساتين البرتقال) عملية تدمير القرى حتى «الصغيرة منها»، مذكراً بما حدث في ليديس الذي يقدم مادة دسمة للتفكير وفقاً له^(*). وفي نهاية المطاف، فإنه وفقاً لتعبير غاليلي جرى التوصل إلى توافق على انتهاج سياسة أكثر تشدداً من الخط الذي تبناه ريتنر - إيشت - إياشير، ولخص ما جرى التوافق عليه على النحو التالي: «لم يعد كافياً الاقتصار على استهداف المنازل، ولكن يلزم أن يشمل ذلك أيضاً الأشخاص، وكان المقصود... أن يدفعوا الثمن ليس فقط من ممتلكاتهم ولكن أيضاً من أرواحهم...»، وقال إن أبوكير يجب أن «تعاقب بشدة»، وأن على الهاغاناه عموماً أن تتعامل بـ «قسوة أكبر» في دفاعها عن المواقع والمواكب (على أن تكون العمليات الثأرية بعد ذلك أقل حدة). وأضاف غاليلي في وصفه للتوافق وتحديد موقفه: «ليس في نيتي ولا أقترح أن يكون الدم العربي، من الآن فصاعداً، وفي أي مكان وفي كل الأحوال، مباحاً سفكه بسهولة»⁽³²⁾.

في أعقاب ذلك، طُرحت من وقت لآخر على الطاولة مقترحات اتصلت بتسوية هذه القرية أو تلك أو سلسلة القرى العربية بالأرض، ولكن تم تجاهل أغلبها. في أواخر شهر يناير 1948، أعدت قيادة الهاغاناه في منطقة القدس وثيقة تحت عنوان «خطة عامة للحملات في المنطقة خلال شهر فبراير» تضمنت سلسلة من الخطوات لتحقيق الأمن على امتداد طريق القدس - تل أبيب وكذلك داخل القدس ذاتها. وقد شملت الإجراءات المقترحة «تدمير طرق المواصلات العربية، تدمير أهداف شخصية (ذات قيمة اقتصادية)، تدمير قرى أو أهداف تطل على مستوطناتنا وتهدد خطوط النقل الخاصة بنا»، ومن بين العمليات التي اقترحت تنفيذها:

(*) قرية ليديس في شمال غرب براغ بجمهورية التشيك، والتي دُمرت تماماً في عملية ثأرية العام 1942 في أعقاب اغتيال رينهارد هيدريش الذي شغل آنذاك منصب قائد المكتب الرئيسي لشرطة الرايخ ولعب دوراً محورياً في تهجير وقتل اليهود في أوروبا. قتل الرجال الذين تزيد أعمارهم على السادسة عشرة، ونقل النساء والأطفال إلى المعسكرات المخصصة لليهود، في الوقت الذي دمرت فيه القرية بالكامل وسويت تماماً بالأرض [المترجم].

الموجة الأولى: النزوح العربي...

تدمير التجمع الجنوبي [من المنازل] في عسلىن، تدمير التجمع الجنوبي في بيت نتيّف، عملية تدمير في ساريس، عملية تدمير في قريتي عناتا وشعفاط، تدمير الجبعة، وفي حالة الانسحاب البريطاني «احتلال القسطل» والعديد من الأحياء في القدس (قطمون، الشيخ جراح، المنطقة اليونانية، المنطقة الألمانية... إلخ)⁽³³⁾. هذه المقترحات لم يُعمل بها حتى حلول شهر أبريل 1948 - وكانت بمنزلة البذور التي أُنعت خلال المرحلة الثانية من الحرب الأهلية.

قد يمثّل تنظيم الهاغاناه لدوريات مكثفة - وإن لم تكن عدائية - في محيط القرى العربية وداخلها في مناطق مختلفة من البلاد أول التطبيقات العملية لمقررات اجتماع لجنة الدفاع في الثامن عشر من ديسمبر 1947، حيث جرى توزيع مطبوعات تحمل تحذيرات باللغة العربية. كان الهدف منع انخراط القرويين في الحرب، وفي البداية قامت عناصر الدوريات بتوزيع المنشورات خلال الأسبوعين الثالث والرابع من شهر ديسمبر في القرى المحيطة بالقدس وعلى بدو شمالي النقب، وتضمنت الرسالة الموجهة إليهم: «تقضي الأعراف القديمة بالمجازاة والعقاب (على الجرائم)، ونحن أيضا سنعمل وفقا لذلك»، وبشكل واضح كان لتلك المنشورات «تأثير كبير»⁽³⁴⁾، مما دفع إلى إصدار التعليمات بتوزيع منشورات مشابهة على المناطق الأخرى⁽³⁵⁾.

حققت دوريات الهاغاناه نتائج ايجابية، على الأقل في القدس، فطبقا لضابط الاستخبارات في لواء ايتزيوني:

إن كلا من الصراعات السياسية بين القوى العربية المختلفة في البلاد من جانب، والخوف الذي نشرته دورياتنا الاستطلاعية في عدد من القرى من جانب آخر، دفعا، ولايزالا، بعض القرى لإجراء اتصالات مع المستوطنات اليهودية المجاورة تضمنت مقترحات بعقد محادثات للتوصل إلى اتفاقيات سلام. وبالفعل، جرى التوصل إلى مثل هذه الاتفاقيات مع بعض القرى، في حين لازالت المحادثات جارية مع أخرى. وقبل أن يُتخذ القرار بنشر دوريات فإنه يلزم على كل ضابط استخبارات أو من يتولى القيادة أن يأخذ بعين الاعتبار آراء زعماء اليهود المحليين. وبالنسبة إلى القرى التي قامت بالفعل بالتوقيع على اتفاقيات سلام، لا يجب نشر الدوريات.

تضمن الأمر الصادر في هذا الخصوص النص بالتفصيل على القرى التي جرى التوصل إلى اتفاقيات معها أو كانت المحادثات مازالت جارية بشأنها (القسطل، صوبا، قطنة، صور باهر، المالحه، وعين كارم)⁽³⁶⁾. وفي 18 ديسمبر، لخصت الهاغاناه التغيير المحدود الذي أُدخل على إستراتيجيتها كما يلي:

خلال الأسبوع الأول من الاضطرابات قمنا بعمليات دفاعية قوية في نفس مكان وتوقيت أي هجوم عربي، وامتنعنا عن القيام بعمليات ثأرية عنيفة كان من الممكن أن تؤدي إلى مساعدة من يحرض على القتال. كما قمنا بمطالبة العرب بالحفاظ على السلام... وكان علينا أن نبحث في كل مرة عن أسباب اندلاع العنف وعما إذا كانت محلية، أم عرضية أم ثانوية... ومع ذلك فإن انتشار الاضطرابات والإرهاب أجبرنا على أن نقوم بعمليات دفاعية قوية ضد مراكز العنف العربي. وهذه هي المرحلة التي نوجد فيها حالياً. ويلزم النظر إلى الأعمال الانتقامية في كل من كرتيا، بلد الشيخ، وادي رشميا، الرملة، وطريق القدس - الخليل، في هذا السياق⁽³⁷⁾.

رصد البريطانيون بسرعة - وإلى حد ما بطريقة سابقة لأوانها - التغيير في إستراتيجية الهاغاناه، وذهبوا إلى القول إن «أعمال الشغب العربية التلقائية وغير المنظمة» كان من الممكن إخمادها إذا لم يكن اليهود قد لجأوا إلى القيام بعمليات ثأرية مستخدمين الأسلحة النارية. وفي هذا الخصوص كتب آلان كانيغهام، المندوب السامي البريطاني: «إن إستراتيجية الهاغاناه التي كانت قائمة في البداية على الدفاع وضبط النفس سرعان ما حل محلها مفهوم العمليات المضادة». ووفقاً له فإن اللجنة العربية العليا لم تكن تسعى في البداية إلى القيام «بتصعيد الأمور بشكل جدي»، غير أن ردود الأفعال اليهودية قد اضطرتها إلى تنظيم أعمال عنف والارتقاء بمستوياتها. وقد اعتبر كانيغهام بعض الأعمال الثأرية اليهودية - مثل الهجوم على حافلة عربية في مدينة حيفا في الثاني عشر من ديسمبر 1947 - بمنزلة «جريمة في حق التحضر». ولم يفرق بين عمليات الهاغاناه وما قام به الإرغون والهستدروت من عمليات⁽³⁸⁾.

شكل التغيير التدريجي في الإستراتيجية منذ ديسمبر 1947 - من الناحية العملية - تطبيقاً جزئياً لـ «خطة مايو» (أعدت خلال شهر مايو 1947) التي مثلت الخطة

الموجة الأولى: النزوح العربي...

الرئيسة للدفاع عن اليشوف حال اندلاع اضطرابات جديدة على غرار ما حدث في 1936 - 1939. تضمنت الخطة اللجوء - في حالة الضرورة - إلى «تدمير وسائل النقل العربية، ونسف المنازل التي يسكنها العرب الإرهابيون وطرد سكانها»⁽³⁹⁾.

تضمن التغيير الذي بدأ في الأسبوع الثاني من ديسمبر شن غارات انتقامية على أماكن تجمع الميليشيات وضد القرى التي يتخذون منها قواعد لشن هجماتهم على المستوطنات وطرق النقل. وشمل ذلك: قتل الرجال المسلحين والذكور الذين ألقوا السلاح، شن هجمات محددة - لا تستثني أحدا - على وسائل النقل العربية كرد على الهجمات العربية على وسائل النقل اليهودية، القيام بدورات نشطة داخل القرى العربية وفي محيطها بهدف الردع، على ألا يؤذى القرويون وسكان المدن الذين عبروا عن رغبتهم في العيش في سلام. إلا أنه لم يوجد أي أثر لسياسة تتصل بالطرد أو النقل. وفي أغلب العمليات كانت هناك أوامر للقوات بتجنب إيقاع خسائر في صفوف النساء والأطفال والشيوخ، وهو ما حاولت القوات الالتزام به في أغلب عملياتها. وفضلا عن ذلك نص منشور عُمم بشكل واسع من قبل لواء ليفانوني (اللواء الشمالي للهاغاناه والذي انقسم فيما بعد إلى لواء غولاني ولواء كارميلي) على ما يلي:

يجب علينا على قدر الإمكان تجنب قتل المدنيين، وبذل قصارى جهدنا لاستهداف المجرمين أنفسهم، وحاملي السلاح، ومنفذي الهجمات... نحن لا نريد أن ننشر الفوضى مما قد يؤدي إلى توحيد العرب خلف المفتي وعصاباته، فأى مذبة للعرب لا تميز بين المقاتلين والمدنيين ستؤدي إلى اصطافاف الجموع العربية وراء مثيري الاضطرابات⁽⁴⁰⁾.

وكانت هذه في الواقع سياسة اليشوف - الهاغاناه حتى نهاية مارس 1948. تضمنت الإستراتيجية الدفاعية المعدلة بُعْدًا آخر تمثل في العملية الخاصة بالتخطيط لعمليات اغتيال للقادة السياسيين الفلسطينيين وزعماء الميليشيات، وحملت الاسم الرمزي «عملية زارزير» Operation Zarzir. ففي بدايات شهر يناير أمرت قيادة الهاغاناه جميع الوحدات باستهداف وقتل بعض القادة المنتمين إلى معسكر الحسيني. وفي هذا الصدد، أمر غاليلي جميع الوحدات، من دون حاجة

إلى تصديق مسبق، باغتيال مجموعة من الأشخاص من بينهم: رفيق التميمي، وحسن سلامة، وأميل الغوري، وعيسى بندق، وعبدالقادر الحسيني، وكمال عريقات، وصبري عابدين، والشيخ محمد نمر الخطيب، وحسن شيبالك، وعبدالله أبو ستة، وتضمنت الأوامر أن تحرص الوحدات على أن تجعل الاغتيال يبدو على أنه قد نُفذ من قبل عرب آخرين، كما أنها كانت تمنع أن تتم العمليات داخل دور العبادة أو في المستشفيات⁽⁴¹⁾، بيد أنه من الناحية العملية لم تُوجه طاقات كافية لتنفيذ عملية زارزير، حيث نُفذت محاولة واحدة لاغتيال الشيخ نمر الخطيب (شخصية بارزة في حيفا موالية للحسيني) الذي أصيب إصابات بالغة في كمين نصبته له خارج مدينة حيفا فرقة تابعة للبالماخ في يناير 1948.

على الرغم من رفض بن غوريون كل المساعي التي بذلها عدد من الشخصيات لتبني عملية تدمير القرى، بما يعني بالضرورة طرد سكانها، كجزء من سياسة الأعمال الانتقامية الروتينية، فإنه جرت بالفعل تسوية قريتين بالأرض خلال الفترة من نوفمبر 1947 حتى مارس 1948، وجرى الاستناد إلى الظروف غير العادية في كلتا الحالتين. فالحالة الأولى وقعت في أعقاب هجوم عربي متوحش في التاسع من يناير، قام خلاله أفراد من مليشيات تابعة لقرية عرب صقير (عرب أبو سويرج) بقتل أحد عشر من فتيان الهاغاناه كانوا يقومون بدورية خارج غان يافني. أوصي ضابط استخبارات الهاغاناه المحلي بما يلي: «يجب تدمير القرية تماما وقتل بعض رجالها»⁽⁴²⁾. وقد صدق زياما ديفون (قائد القسم العربي باستخبارات الهاغاناه) على العملية وتضمن التصديق ما يلي: «أن العرب في المنطقة يتوقعون عملا انتقاميا... وعدم الرد من جانبنا سيُفسر على أنه علامة ضعف»⁽⁴³⁾. في العشرين من يناير صدر الأمر التنفيذي للعملية متضمنا: «... تدمير البئر... تدمير القرية تماما، قتل الرجال البالغين، وتدمير التعزيزات التي تصل»⁽⁴⁴⁾، غير أن العملية بالشكل الذي تمت به قد انتهت في الخامس والعشرين من يناير من دون سفك دماء، حيث كان العرب قد قاموا بإجلاء النساء والأطفال قبل ذلك بعدة أيام، كما أن الثلاثين رجلا الذين بقوا لحماية القرية لاذوا بالفرار لدى سماعهم بقرب وصول القوات المُغيرة، فوجدت قوات الهاغاناه القرية «خالية» وبدأت في تدمير المنازل وجرارين والبئر المجاورة، «يلاحظ أن القرية اختفت تماما من حيز الوجود باستثناء بعض الشواهد»⁽⁴⁵⁾.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

وبشكل واضح تركت العملية أثرا عميقا، حيث كتب ضابط في جهاز استخبارات الهاغاناه: «ستظل ليلة الرعد عالقة في ذكريات القرى العربية الأخرى لفترة طويلة»، والأكثر من ذلك فإن سكان عرب صقير كانوا غاضبين من عدم «تجرؤ أي قرية أخرى على القيام بمساعدتهم، وتساءلوا عن إمكانية قيام العرب بالحرب بهذه الطريقة»⁽⁴⁶⁾ (يُذكر أن بعض القرويين عادوا إلى الموقع فور تنفيذ العملية، غير أنهم سرعان ما غادروها بنهاية شهر مارس)⁽⁴⁷⁾.

خلال شهر فبراير قامت قوات الهاغاناه بتدمير قرية قيسارية وطردت سكانها (انظر التفاصيل فيما بعد).

تمثل الرد الرئيسي من قبل الهاغاناه على الهجمات العربية حتى نهاية مارس 1948 في الضربات الانتقامية سواء ضد وسائل النقل أو باتجاه قرى محددة، وقد طُرحت سياسة الثأر برمتها خلال اجتماع على مدار يومين (1 - 2 يناير 1948) ضم بن غوريون ومستشاريه للشؤون العسكرية والعربية. كان الدافع إلى إثارة هذا النقاش، إلى حد ما، سلسلة من الهجمات التي قامت بها الهاغاناه سواء من دون تصديق أو بطريقة تدل على الإعداد السيئ، أسفرت عن مقتل مدنيين أبرياء. فالقاعدة الرئيسية تمثلت في تجنب امتداد الحرائق إلى مناطق لم يجر المساس بها، ومحاولة ضرب «المذنب»، وأن يتم الثأر بشكل يشابه بقدر الإمكان العمل الأصلي في التوقيت والمكان والطبيعة⁽⁴⁸⁾. وقد جرى تضمين التعريف الذي أسفر عنه النقاش حول هذه السياسة وما تضمنه من تطوير على منهجية الهاغاناه في مذكرة من صفحتين مؤرخة بالثامن عشر من يناير 1948 أرسلها يادين إلى جميع الوحدات تحت عنوان «تعليمات لتخطيط العمليات التي يجري تنفيذها». نصت المذكرة على أن تُختار أهداف العمليات الثأرية من بين أولئك الذين جرى حصرهم في «خطة مايو 1946» ولكن مع أخذ نقطتين بعين الاعتبار: (أ) «عدم التسبب في امتداد الاضطرابات إلى مناطق بعيدة لم تصل إليها بعد...» و(ب) يجب بذل جهد لضرب المذنب (مع الاعتراف باستحالة استهداف الأفراد المعنيين بدقة)، والتمييز بين القرى العربية الصديقة وغير الصديقة». وقد أوضح الأمر الوسائل التي تُستخدم خلال العمليات - تخريب، نصب كمائن وغيرها - وأنواع الأهداف التي تُستهدف: لسف المنشآت العامة والمنازل، التعرف على قادة العصابات وقتلهم، إنهاك تجمع

سكاني بإطلاق النار عليه وزرع الألغام، إعداد كمائن لضرب وسائل النقل إلى ومن التجمع السكاني، عمليات عقابية ضد قرية لضرب المقاتلين الذكور فيها»، وقد نصت التعليمات على أن كل الهجمات يجب أن تحصل على موافقة رئاسة أركان الهاغاناه، كما أولت المذكرة اهتماما خاصا بمهاجمة الأهداف الاقتصادية، بما في ذلك «مطاحن الحبوب، المخازن والمستودعات، مضخات المياه، محطات التزويد بالمياه، الآبار، والورش...»، والهجمات على وسائل النقل العربية كعمليات انتقامية لمهاجمة السيارات اليهودية، كما جرى النص على أنه لا يجب في أي حال من الأحوال ضرب «الماكن المقدسة، والمستشفيات، والمدارس»، وطلب إلى قادة الألوية وقادة المدن إعداد خطط وقائمة بالأهداف تُعرض على رئاسة أركان الهاغاناه⁽⁴⁹⁾.

تمثلت إحدى نتائج اجتماع يومي الأول والثاني من يناير في تعيين مستشارين للشؤون العربية بمراكز قيادة كل كتيبة وفرقة ولواء، بناء على اقتراح مقدم من بن غوريون⁽⁵⁰⁾. وفي أعقاب ذلك أصدر غاليلي تعليمات مفصلة تم بمقتضاها إلزام القادة في الألوية والمناطق المدنية بأخذ رأي هؤلاء المستشارين في «اختيار الأهداف... والأساليب التي يجري اتباعها في تنفيذ الهجمات»، كما أصبح من الضروري أن يقوم القادة - عند طلبهم التصديق من رئاسة الأركان - بإرفاق الرأي الكتابي للمستشار المعني⁽⁵¹⁾، وفي تعليماته الخاصة بـ «التخطيط للعمليات التي يجري تنفيذها»، بتاريخ 18 يناير، أمر يادين قادة الألوية وقادة المدن بأخذ رأي مستشاري الشؤون العربية قبل الشروع في أي من العمليات التي لا تتطلب تصديقا من رئاسة أركان الهاغاناه⁽⁵²⁾. وخلال شهر مارس جرى توسيع اختصاص هؤلاء المستشارين ليشمل تقديم الرأي للقادة الإقليميين للهاغاناه حول سبل التعامل مع المجتمعات العربية في الأقاليم التي يعملون بها⁽⁵³⁾. ومن بين المستشارين الذين عُينوا: إيمانويل فريدمان («مانو» في الجليل الشرقي)، ويوسف فين (وادي الأردن)، واليشا سولز (وادي بيت شيان)، وتوفيا أرازي (حيفا)، وأمنون ياناى (لواء كارميلي في الجليل الغربي)، وشيمشون مشهابتز (لواء إسكندروني في وادي حيفر)، وغورا زيد (لواء غولاني)، وصمويل زاغورسكي (أيضا في لواء غولاني).

على الرغم من حدوث تطور باتجاه القيام بردود انتقامية أكثر قوة في العديد من المناطق، ظلت الإستراتيجية القومية للهاغاناه على حالها من دون تغيير حتى

الموجة الأولى: النزوح العربي...

نهاية شهر مارس 1948، باعتبارها إستراتيجية تقيد بقدر الإمكان مجال انتشار الاضطرابات وتتجنب الأعمال الانتقامية في مناطق لا تجري بها أعمال قتالية. فمنذ البداية كان الهدف هو تجنب حرب شاملة بين السكان اليهود والعرب. فإثارة العنف بشكل متعمد في مناطق ظلت هادئة حتى ذلك الوقت كان من شأنها أن تضع اليشوف في مواجهة مع البريطانيين - وهو آخر شيء كان يسعى إليه بن غوريون في مرحلة العد التنازلي لإقامة الدولة - وربما قد يقود أيضا إلى حرب مع الدول العربية. فضلا عن ذلك، فإن الهاغاناه شعرت خلال شهري فبراير ومارس بأنها منتشرة بشكل كبير على الأرض بما لا يبرر فتح جبهات قتال جديدة. وقد لخص بالملون هذا الوضع في الأول من يناير 1948 على النحو التالي: «هل نريد أن يصبح الشعب العربي متحدا ضدنا أم أننا نرغب في الاستفادة من... وضعية انقسامه؟ هل نريد أن ندفع بكل العرب للعمل ضدنا، أم منحهم فرصة عدم العمل ضدنا؟». وقد حظي هذا التوصيف بموافقة آلون بقوله: «لا تزال هناك مناطق غير مضطربة في البلاد، ولا توجد ضرورة لضرب منطقة ظلت هادئة لفترة طويلة... يجب علينا أن نركز على المناطق التي نحن فعلا في حالة حرب فيها».

خلال اجتماع يومي الأول والثاني من يناير 1948، وجه كبار مسؤولي القسم العربي في الإدارة السياسية للوكالة اليهودية انتقادات قاسية للهجمات التي شنتها الهاغاناه خلال شهر ديسمبر على روميمه وسلوان في القدس، وفي النقب بالقرب من كفر يافيتز، والخصاص في الجليل. وتركزت الانتقادات على الحالة الأخيرة، حيث قامت قوات البالماخ في ليلة 18 - 19 ديسمبر بتفجير منزل، مما أسفر عن مقتل ستة من بين النساء والأطفال. كما قضى عدد من العرب في هجوم متزامن على منزل قريب، وفي هذا الخصوص ذهب كل من داني وغاند ماكنس (خبير في الشؤون العربية) إلى أن الهجوم على الخصاص قد وسع من نطاق القتال بشكل غير ضروري ليمتد إلى منطقة كانت هادئة حتى تاريخه، فقد كانا يحدوهما الأمل في أن تسفر سياسة التقييد اليهودية في هذا الخصوص عن تمكين قادة المعارضة العربية من التصدي لميل الحسيني للقتال، والذي يحظى بتأييد عربي. وفي هذا الخصوص كتب بن غوريون إلى شيرتوك موضحا أن الهجوم لم يكن مرخصا به،

وأن الهاغاناه اعتذرت عن مقتل المدنيين⁽⁵⁴⁾. من جانبه، وبخ دانييل القائد المحلي للهاغاناه على رغبته في الحفاظ على الروح المعنوية عالية بين مقاتليه صغار السن مما دفعه إلى القيام بذلك⁽⁵⁵⁾.

طالب يوسف سابير في لجنة الدفاع بتوقيع عقاب صارم على الضابط المسؤول. وعلى الرغم من موافقة بن غوريون من حيث المبدأ على ذلك، فإنه عبر عن اعتقاده أنه من الأفضل ترك الأمور ذات الطبيعة «القضائية» و«التأديبية» إلى الهاغاناه نفسها للتعامل معها⁽⁵⁶⁾. يذكر أن الهجوم كان في إطار عملية انتقامية لمقتل يهودي يدعى زلمان ينتمي إلى كيبوتس معين باروخ والذي كان بدوره عملية ثار في أعقاب إطلاق النار على عربي قبل ذلك بعدة أيام. وقد حاول كل من القادة اليهود المحليين وخبراء الشؤون العربية منع تنفيذ الهجوم على الخصاص، غير أنه جرى تجاهل رأيهم من قبل إيغال ألون. ولم يكن لدى رئاسة أركان الهاغاناه في تل أبيب أي معلومات مسبقة عن العملية⁽⁵⁷⁾. أما الأمر التنفيذي للعملية فتضمن «استهداف ذكور بالغين» (أو «الذكور البالغين») في الخصاص وقتل «ذكور بالغين» (أو «الذكور البالغين») في قصر الأمير فاعور، حيث تردد أن قاتل زلمان يختبئ هناك. و«لم يحدد قائد العملية عدد الذين قتلوا في حجرات المنزل فقد كان إطلاق النار عشوائيا وجرى تفجير المنزل [في الخصاص] بقاطنيه، كما جرى تدمير منزل مجاور جزئيا»، وفي المقابل امتنع مهاجمو القصر عن إطلاق النار على النساء في طريقهم. وفي أعقاب العملية فر عدد كبير من سكان الخصاص من ديارهم، كما طالبت القرى المجاورة الجماعات غير النظامية بمغادرتها، ووفقا لما أورده ديان، ناشد سكان الخصاص الهاغاناه «التوصل إلى سلام»⁽⁵⁸⁾، وكان المغزى وراء ذلك أنه على الرغم من أن استخدام القوة كان في حد ذاته أمرا كريها فإن استخدامها، من وقت إلى آخر، كان على المدى البعيد مفيدا. وقد كتب دانييل معبرا عن ضيقه في هذا الخصوص إلى ساسون: «إن الجيش [المقصود الهاغاناه] يقوم بما يحلو له على الرغم من نصائحنا»⁽⁵⁹⁾، وأيا كان الأمر فإن الغارة تسببت في الهروب في بعض المناطق المجاورة، وتواترت معلومات عن قيام يزدي، الضابط العربي في صفد، بإرسال والدته وشقيقته إلى «بيروت» لتكونا بعيدتين عن منطقة الخطر⁽⁶⁰⁾.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

على الرغم من أنه لم يجر محاكمة أو توقيع جزاء تأديبي على أحد، فإن النقد لعملية الخصاص كان له أثره، حيث صدرت الأوامر من رئاسة أركان الهاغاناه إلى الأولوية بالامتناع عن العمليات غير المرخص بها. وفي التاسع عشر من ديسمبر، على سبيل المثال، أصدرت قيادة لواء إسكندروني تعليمات لجميع الوحدات التابعة له «بتوقيع جزاءات تأديبية في أي حالة تتضمن مخالفات للأوامر الخاصة بالعمليات الانتقامية، والتركيز على أن هدفنا هو الدفاع وليس الإساءة إلى العلاقة مع ذلك الجزء من المجتمع العربي الذي يريد السلام»⁽⁶¹⁾.

فيما يتصل بالنقب، أوضح بن غوريون في اجتماع اللجنة المركزية لحزب ماپاي، في الثامن من يناير، أن الهاغاناه كانت مسؤولة بشكل كبير عن «نشر الحرائق هناك»، حيث دخلت وحدة تابعة لـ «البالماخ» في قرية شعث العربية وأشاعت الخوف وأدى ذلك إلى اندلاع القتال⁽⁶²⁾.

فضلا عن تلك العمليات غير المرخصة أو المبالغ فيها، تضمن رد الفعل اليهودي على الهجمات العربية كذلك بعض الأعمال الوحشية. فكل من الإرغون والهستدروت لم يبديا إلا القليل من الشعور بوخز الضمير على قتلهم للعرب بشكل عشوائي، فبالنسبة إليهم «العربي» - أي عربي - هو العدو ومن ثم هو هدف مشروع (كما كان الحال بالنسبة إلى اليهود في أعين أفراد المليشيات العربية)، وعلى الرغم من أنهم لم يستهدفوا على الإطلاق النساء والأطفال، فإنهم قاموا بشكل متعمد بزرع القنابل في الحافلات والمحال بهدف قتل غير المقاتلين، بما في ذلك النساء والأطفال، كما أقدم كل من الإرغون ومجموعة شترن على ارتكاب أعمال وحشية عشوائية، فطبقا للهاغاناه قامت فرقة من إحداهما في العاشر من فبراير 1948 بإيقاف حافلة عربية يستقلها عمال بالقرب من بتاح تكفا، وإجبار ركبائها على مغادرتها ثم قتل ثمانية منهم وجرح أحد عشر (بعد سرقته كما يبدو)⁽⁶³⁾. كذلك تردد أن عشرة عرب آخرين، من بينهم امرأة، كانوا يعملون في بستان بالقرب من أبو الفضل (عرب السطرية بالقرب من الرملة) قتلوا في بداية شهر فبراير (على الأرجح) على يد مسلحين ينتمون إلى الإرغون⁽⁶⁴⁾.

أقلقت فكرة القتل المستمر لغير المحاربين قادة الهاغاناه، ومن وقت لآخر جرى إلغاء هجمات خوفا من أن تسفر عن أعمال وحشية (كما كان عليه الحال عندما

بدأت وحدة في تدمير مباني في كفر عقب شمالي القدس، بيد أنها قررت الانسحاب عند سماعها «أصوات وضجيج أطفال» صدرت من داخل منزل كانت على وشك تدميره⁽⁶⁵⁾. بيد أن الأكثر شيوعاً كانت حالات السلوك المبالغ فيه، ففي الثاني عشر من يناير 1948، قامت مجموعة من المسلحين التابعين لكيوتس رامات هاكوفيش - في مخالفة للأوامر الواضحة من الهاغاناه - بإطلاق النار على سيدتين عربيتين، ربما كانتا تزرعان في حقل، بالقرب من الكيوتس مما أدى إلى إصابة إحداهما وربما تكون ماتت. وعلى الرغم من أن الواقعة كانت موضع تحقيق داخلي، فإنه يبدو أن أحداً لم يعاقب⁽⁶⁶⁾، كما أنه طبقاً لجهاز استخبارات الهاغاناه أقدم حراس من الهاغاناه في نهاية فبراير على قتل مزارع وزوجته بالقرب من كفر أوريا «من دون أن يصدر عنهما أي سلوك استفزازي»⁽⁶⁷⁾. وفي الرابع والعشرين من يناير 1948 استقل أربعة عناصر من البالماخ سيارة أجرة في طبرية وقتلوا سائقها العربي (الذي ربما كان على صلة بالمسلحين غير النظاميين)⁽⁶⁸⁾. وربما كان بن غوريون يشير إلى مثل هذه الأفعال عندما انتقد خلال اجتماع للجنة الدفاع في بداية شهر فبراير «الأعمال المدانة ضد العرب»⁽⁶⁹⁾.

أجري تحقيق لاحق في عملية مقتل سائق سيارة الأجرة⁽⁷⁰⁾. وفي مطلع فبراير أوصى ضابط رفيع المستوى في الهاغاناه بأن تنشئ المنظمة «جهازاً مختصاً» له القدرة على إصدار أحكام في القضايا «ذات الصلة بالحياة والموت»⁽⁷¹⁾، وبحلول منتصف فبراير قرر غاليلي أنه من الممنوع على وحدات الهاغاناه قتل العرب من أجل الاستحواذ على سياراتهم أو ممتلكاتهم «حتى إن كان هذا سيكون مخصصاً لاستخدام الكنيست»⁽⁷²⁾.

على الرغم من كل ذلك، مثلت تلك الحالات حوادث استثنائية، حيث إن عمليات الهاغاناه كانت عادةً مرخصاً بها وخاضعة بشكل فعال لرقابة رئاسة الأركان، والأكثر من ذلك - وبغض النظر عن وجهة النظر البريطانية في عمليات الهاغاناه - سعت رئاسة أركان الهاغاناه خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 إلى أن تجعل عمليات وحداتها «نظيفة» بقدر الإمكان. وعلى الرغم من استعدادها للقبول بالفرضية العامة بأن الضربات الانتقامية ضد وسائل النقل والقرى ستؤدي لا محالة إلى إصابة وقتل الأبرياء، فإن الأوامر كانت تُصدر بشكل متكرر لكل وحدات

الموجة الأولى: النزوح العربي...

الهاغاناه لتجنب قتل النساء والأطفال والشيوخ، كما أنها في تعليماتها الخاصة بكل عملية كانت رئاسة الأركان تضمن أوامر بعدم الإضرار بغير المقاتلين، وهو ما ظهر على سبيل المثال خلال الهجوم على قرية «سلامة» (خارج حيفا) في بداية يناير 1948، عندما منع غاليلي على وجه التحديد استخدام مدافع الهاون لأنها قد توقع خسائر في صفوف غير المقاتلين⁽⁷³⁾.

في الثامن من يناير أشاد بن غوريون بأن الريف العربي ظل حتى ذلك التاريخ، وعلى الرغم من الجهود المبذولة لإثارته، هادئاً بشكل عام، وأنه من مصلحة اليشوف أن يظل كذلك، الأمر الذي كان يتوقف إلى حد كبير على أعمال اليشوف ذاته: «يلزم علينا أن نتجنب الأخطاء التي يمكن أن تُسهل على المفتي إثارة القرى»⁽⁷⁴⁾. فيما يتصل بالريف تمثلت سياسة الهاغاناه طوال شهري فبراير ومارس في «عدم إشعال فتيل القتال في مناطق لم تُهاجم بعد فيها»، وفي الوقت ذاته القيام بهجمات قوية على القواعد المعروفة التي تهاجم اليهود فضلاً عن الطرق العربية في مناطق متعددة⁽⁷⁵⁾. وانطبقت السياسة نفسها على منطقة النقب. فوفقاً ليوسف ويتز رئيس لجنة النقب (جهاز الإشراف الإقليمي لليشوف): «فيما يتصل بالعرب جرى تحديد سياسة: نحن نمد أيدينا للسلام، كل بدوي يريد السلام سيكون آمناً، ولكن إذا ما جرؤ أحد على التصرف بطريقة مخالفة فإن نهايته ستكون مريعة»⁽⁷⁶⁾. وقبل ذلك بأسابيع قليلة أصدر ناخوم سريغ، قائد لواء النقب، تعليمات لضباطه تضمنت:

(أ) إن مهمتنا أن نبذو في نظر العرب كقوة حاكمة تعمل بفعالية ولكن

بعدالة وإنصاف. (ب) يجب أن نشجع العرب على الاستمرار في حياتهم كالمعتاد.

(ج) يلزم أن نتجنب إصابة النساء والأطفال بالضرر. (د) علينا أن نتجنب الإضرار

بالعرب الأصدقاء.

من الناحية العملية عنى ما تقدم السماح للعرب برعي قطعان الماشية في حقولهم أو في الأراضي العامة ومنعهم من القيام بذلك في «حقولنا» عن طريق «إطلاق النار على القطيع» وتجنب إصابة الراعي أو مصادرة القطيع. إن عمليات التفتيش في التجمعات السكنية يجب أن تتم «بأسلوب مهذب ولكن حازم... وإذا كان التفتيش يجري بسبب محاولة لاستهداف قواتنا فمن المسموح لكم قتل أي

رجل في حوزته سلاح». إن عمليات التفتيش للمزارعين العرب في الحقول القريبة من المستوطنات اليهودية يجب أن تجرى «بأدب ظاهر، ويُفضل أن تكون مصحوبة بتوضيح لأسبابها، فضلا عن تشجيع العرب على الاستمرار في تأدية أعمالهم...». وفيما يتصل بتفتيش السيارات العربية فإنه يلزم أن يكون «بأدب وحزم» وتتم فقط مصادرة الأسلحة، الزي العسكري، وبطاقات الهوية، والممتلكات المسروقة. وإذا كانت الأسلحة للدفاع عن النفس (مسدس واحد أو قنبلة يدوية) فيتم مصادرتها والسماح للسائق أو الراكب بمواصلة طريقة، أما إذا كانت «هجومية» (ألغام، أسلحة رشاشة... إلخ) فيلزم احتجاز مالكها بغرض استجوابه من استخبارات الهاغاناه، ويجب مصادرة المبالغ المالية التي تزيد على مائة جنيه فلسطيني. وفضلا عن ذلك يتم مصادرة أو تدمير السيارات التي يُشتبه في أنها تعود إلى المجموعات غير النظامية، وفي حالة مقاومة العرب للتفتيش، تستخدم القوة، بما في ذلك «الترهيب، الضرب، وحتى الإعدام»⁽⁷⁷⁾.

على الرغم من أن لواء النقب كان أكبر وأقوى قوة في النقب الشمالي، فلم تكن المنطقة تحت سيطرة يهودية تامة وذلك لمجموعة من الأسباب: معاناة اللواء من نقص السيارات (خاصة مركبات النقل الكبيرة)، تواجد الجيش البريطاني في المنطقة، الحجم الكبير للمنطقة وعدم توافر الطرق، العداء العربي، تناثر السكان وأغلبهم من البدو. وفي المقابل فإن المزارعين العرب والبدو الذين قطنوا السهل الساحلي (وبدرجة أقل أولئك في مرج ابن عامر ووادي الأردن) كانوا تحت السيطرة اليهودية التامة خلال الشهور الأولى من الحرب الأهلية. وبالنسبة إلى العديد منهم، فإنه على الرغم من العمليات القتالية التي دارت على مقربة منهم وما رافقها من شعور دائم بالخوف، فقد استمرت الحياة على النهج العادي بقدر الإمكان خلال هذه الأشهر. وفي هذا الخصوص وفرت سلسلة من المستندات الخاصة بمنطقتين فرعيتين للهاغاناه منذ شهر يناير نظرة متعمقة حول طبيعة العلاقات العربية - اليهودية على النطاق المحلي في ذلك الوقت.

استمر عدد من العرب، الذين عملوا حراسا في السهل الساحلي المنخفض، في العيش ومزاولة أعمالهم في البساتين المملوكة لليهود (على الرغم من أن بعضهم غادر المكان بدافع من الخوف). وقد علق إفرایم (أحد الضباط في حي فرعي) على

الموجة الأولى: النزوح العربي...

ذلك بقوله: «في رأيي لا يوجد سبب للخوف من تركهم في الوقت الحالي يعيشون في أماكن عملهم، فوجودهم يمكن أن يكذب ما يقوله أنصار الحسيني الذين يسعون إلى إشاعة الاضطرابات: العرب يمكنهم العيش بين اليهود من دون أن يصيبهم أذى، أما إذا طُردوا من أماكن عملهم فإنهم على الأرجح سيلتحقون بالعصابات نتيجة لافتقارهم إلى العائد المادي، فضلا عن سيطرة الرغبة في الانتقام بسبب طردهم من عملهم»، والأكثر من ذلك عبر إفرايم عن اعتقاده بضرورة السماح باستمرار قدوم العمال اليوميين القادمين من القرى المجاورة للعمل في المزارع المملوكة لليهود، الأمر الذي يفسر، ولو جزئيا، الهدوء الذي ساد قرى تلك المنطقة (وقد توافقت آراء ضباط استخبارات الهاغاناه المحليين حول ضرورة استمرار السماح للعرب بالعمل في المزارع المملوكة لليهود). في المقابل، فإنه حذر من «السماح للعرب بحرية الحركة في المناطق المكتظة بالمباني والمستوطنات خاصة في ساعات الليل»، وأوصى بزيادة الدوريات مع تجنب «الأعمال التي من شأنها إثارة الآخرين»: «إن دوريات الجيش يجب أن تجري اتصالات وحوارا مع العرب في أقل الحدود الممكنة في حالة عدم وجود شخص في الدورية يجيد اللغة العربية، إما في حالة وجود مثل هذا الشخص فإنه يجب عليه أن يتبع أسلوبا وديا، وفي حالة قيام القرويين بهجمات، فإن جميع الاتصالات يجب أن تتوقف»⁽⁷⁸⁾.

ويبدو أنه حتى منتصف شهر يناير كان العمال العرب يقضون الليل في المستوطنات اليهودية. غير أنه منذ ذلك التاريخ أصدر قائد الهاغاناه أمرا يمنع نوم العرب رعاة الماشية ليلا في المستوطنات اليهودية⁽⁷⁹⁾، ومع ذلك استمر عمل العرب في المستوطنات بأمر من غاليلي (الذي كان أيضا عضوا في كيبوتس ناعان الذي يقع في الحي الفرعي نفسه الصادرة فيه التعليمات)، على أن يوقف في مناطق وأوقات محددة فقط إذا ما كانت هناك ضرورة أمنية قصوى⁽⁸⁰⁾، وقد انزعج إفرايم من تقرير عن قيام قائد محلي للهاغاناه في راماتيم (مدينة يهودية تقع في الحي الفرعي الخاضع لسلطته) بمنع عرب أبو كشك من البيع والشراء في متاجر المستوطنة وإقدامه على تدمير منتجاتهم وحظر إحضارها إلى داخل المدينة، مما دفع إفرايم إلى إصدار تعليمات تقضي بعدم القيام بمثل هذا الأفعال من دون الحصول على موافقة من سلطة أعلى إلا في حالة وجود ضرورة أمنية فورية⁽⁸¹⁾.

شهد حي فرعي آخر في السهل الساحلي في بداية يناير إصدار ضابط أوامر لنوابه بعدم القيام «بإيقاف عام للعمال العرب في مناطقهم إلا في حالة صدور أمر يخالف ذلك»⁽⁸²⁾. وفي الواقع فإنه في منطقة أو منطقتين، بما في ذلك الحي الفرعي للسامرة، استمر عمل العرب في الحقول ومزارع العنب والبساتين اليهودية حتى شهر أبريل 1948، وفقط في نهاية هذا الشهر أصدر نفتالي أمرا بوقف عمل العرب في زخرون ياكوف، وغيفات أدا، وبات شلومو، مما أثار احتجاجات فورية مفادها أنه في ظل غياب عمالة يهودية كافية ستفسد المحاصيل. وكانت الحجة المقدمة من نفتالي أن العرب لا يشكلون خطرا أمنيا في الوقت الحالي، لكن إذا ما تغير الموقف فإنهم سيتوقفون عن المجيء للعمل بمحض إرادتهم⁽⁸³⁾.

كان يجري تطبيق سياسات مختلفة في مناطق مختلفة، وتوقف الأمر بشكل كبير على الموقف الأمني في كل منطقة وكذلك على القادة المسؤولين. ففي القدس، على سبيل المثال، صدرت أوامر في بداية يناير تمنع بيع اليهود للسلع إلى العرب، وحُذِر أصحاب المحال من العقاب في حال المخالفة⁽⁸⁴⁾. وبالفعل، قام رجال الهاغاناه بتذكير العرب العاملين في مؤسسات يهودية، منذ منتصف ديسمبر 1947، بالأمر الصادر من ضابط الاستخبارات والقاضي بأنه في حالة استمرارهم فإن حياتهم قد تكون معرضة للخطر⁽⁸⁵⁾.

بحلول شهر مارس كان هناك سؤالان متداخلان: كيف يمكن التعامل مع المجتمعات العربية المتبقية في المناطق اليهودية، وكيف يمكن التعامل مع ممتلكات أولئك الذين رحلوا من قبل؟⁽⁸⁶⁾. فيما يتصل بالملكية، لم يكن أي من رئاسة أركان الهاغاناه أو أعضائها المحليين راضيا عن الترتيبات التي جرى تبنيها محليا، حيث حدثت عمليات سلب ونهب وتخریب متعمد من قبل الجيران اليهود (والعرب) والوحدات العسكرية. وقام بعض قادة الهاغاناه المحليين بتعيين «مراقبين» للممتلكات العربية⁽⁸⁷⁾. وإزاء هذا الموقف تعالت المطالبة بضرورة تبني منهج منظم وشامل على المستوى الوطني. وفي هذا الخصوص قام رئيس الأركان بتأسيس «لجنة وطنية لممتلكات العرب» في الأسبوع الأخير من شهر مارس ضمت كلا من غاد ماكنس (مالك بستان للبرتقال)، وإзра داني (أحد

الموجة الأولى: النزوح العربي...

المصادر المحنكة لاستخبارات الهاغاناه في حديرا^(*) وإسحاق غويرتز (عضو في كيبوتس شفاييم)، بالإضافة إلى ديفيد هورويتز (مساعد مدير الخزنة للوكالة اليهودية)، وأوكلت لهذه اللجنة المسؤولية عن الممتلكات التي هُجرت⁽⁸⁸⁾.

كان من شأن واقعة مقتل ستة عرب في الأول أو الثاني من شهر مارس 1948 في حاجز على الطريق أقامه لواء إسكندروني أن تعيد طرح الموضوع الخلافي المتصل بالمجتمعات العربية التي مازالت باقية⁽⁸⁹⁾. وجاءت مجموعة من الضغوط المحلية من قبل المستوطنين والوحدات العسكرية لتؤثر في النقاش، فقبل الرابع عشر من مارس سُرق جوادان من شفاييم وأُرسلا إلى طولكرم، وحامت الشكوك حول عرب مازالوا يعملون في المستوطنة أو بالقرب منها. وفي هذا السياق وجه المدعو علي قاسم، أحد المتعاونين العرب، نقدا لاذعا للمستوطنين اليهود على تشغيلهم لعرب غير موثوق بهم وتساءل عن أسباب عدم طردهم. وقد أعقب ذلك مباشرة إطلاق نار استهدف منازل في شفاييم ومناطق مجاورة في شافي زيون وريشبون من بستان برتقال قريب قيل إنه يقطنه مائة وخمسون من العرب، وقد اشتكى أحد أعضاء الكيبوتس مطالبا بضرورة صدور «أوامر واضحة حول وضع العرب في المنطقة»⁽⁹⁰⁾. وفي أواخر مارس أصدر جهاز استخبارات الهاغاناه أمرا بالمنع التام لحركة العرب داخل المستوطنات اليهودية من دون تصريح خاص⁽⁹¹⁾. وفي تطور أكثر مغزى اشتكى ضباط لواء إسكندروني من أن العزلة المفروضة على قرية الشيخ مونس يجري التحايل عليها وكسرها ليلا من جانب العرب الذين يناورون لتجنب دوريات الهاغاناه وحواجزها على الطرق، الأمر الذي رد عليه قائد اللواء بالقول بأن المسألة يجري التعامل معها من قبل رئاسة أركان الهاغاناه⁽⁹²⁾.

في مطلع شهر مارس أصدر غاليلي أوامره إلى خبراء الشؤون العربية بوضع خطوط عامة لسياسة محددة في هذا الخصوص⁽⁹³⁾، واستنادا إلى توصياتهم أصدر في الرابع والعشرين من مارس أمرا شاملا إلى جميع قادة الألوية على النحو التالي:

الموضوع: العرب المقيمون في الأراضي المجاورة.

إن موقف الكنيس (الهاغاناه) فيما يتصل بالعرب الذين يعيشون في

المناطق المخصصة للدولة اليهودية أو في جيوب المناطق اليهودية المتصلة، ينبع

(*) اسمها العربي الخضيرة [المحررة].

من السياسة العربية للحركة الصهيونية والتي تتمثل في: الاعتراف للعرب بجميع الحقوق والحريات داخل الدولة العبرية من دون تمييز، والعمل بجد من أجل التعايش بحرية واحترام.

لكن يمكن الخروج عن هذه السياسة خلال المعركة، فقط إذا ما فرضت متطلبات وظروف الأمن ذلك.

لقد قامت القيادة العليا بتعيين لجنة مسؤولة عن تحديد قواعد السلوك تجاه التكتلات العربية داخل مناطق السكن اليهودي الممتدة في كل منطقة (على سبيل المثال الأمور المتعلقة بالتموين، والانتقالات، وهويات الشخصية)، وذلك بالتنسيق مع قائد اللواء المعني أو من ينوب عنه، وذلك وفقا لهدف يقضي بأن احتياجات الأمن يلزم تلبيتها بشكل صارم، وكذلك رفاهية واحتياجات العرب الذين يعيشون في قطاع يهودي.

ضمت عضوية اللجنة التي عرفت منذ ذلك الوقت فصاعدا باسم «لجنة الأمور المتصلة بعرب الجيوب»: دايان، وماكنس، وبالمون (من قسم الاستخبارات في الهاغاناه)، وأضيف إليهم دانين بعد يومين⁽⁹⁴⁾. وقد شكلت تلك الخطوط العامة بشكل فوري أساسا لشكوى من قبل لواء إسكندروني اتصلت بكمين نصبته البالماخ في منطقة اختصاصه، وقد ترتب على هذا الكمين، الذي مات خلاله ثلاثة أو أربعة من العرب، إجلاء سكان وادي الحوارث، المنتمين إلى قبيلة بدوية شبه مستقرة جنوب حديرا، وتضمنت مذكرة لواء إسكندروني ما يلي:

أقدمت هذا الصباح فرقة من البالماخ على تنفيذ عملية بالقرب من كفر حاييم تخالف الخطوط العامة التي نتبعها كأساس لعلاقاتنا مع العرب... وقد ولد ذلك سخطا كبيرا بين العرب في المنطقة الذين سبق أن وعدهم المتحدث باسم الهاغاناه بعلاقات سلمية حقيقية... ففي مناسبات سابقة مشابهة قمنا بمنع المنشقين (الإرغون وحركة شترن) من تنفيذ عمليات ضد العرب الذين نحفظ معهم بعلاقات حسن جوار... وإنه لمن المؤسف أن تكون البالماخ هي الطرف الذي يعيقنا عن تنفيذ هذه السياسة⁽⁹⁵⁾.

تمثلت الصعوبة التي واجهتها الهاغاناه خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 في أنه في الوقت الذي سعت فيه إلى المحافظة على الهدوء في كل

مكان يمكن فيه تحقيق ذلك، فإن عملياتها الانتقامية - التي أسىء توجيهها في بعض الأحيان وكان مبالغاً فيها في أحيان أخرى - ساعدت على انخراط مزيد ومزيد من العرب في الاضطرابات المتعاضمة. وقد ساد الشعور بأن عملاً ثانياً قوياً وشاملاً هو فقط ما يمكنه أن يرهب ويهدئ العرب، بيد أن الأعمال الانتقامية أسفرت عن إصابة الأبرياء إلى جانب المذنبين مما ولد مشاعر الغضب والرغبة في الانتقام وجعل المجتمعات العربية أكثر استعداداً للاستجابة للدعوات القتالية والوطنية التي وجهها الحسيني، على الرغم من ممانعتهم المبدئية للانخراط في المواجهات⁽⁹⁶⁾.

يمكن القول إجمالاً إن العمليات التي نفذتها الهاغاناه حتى نهاية شهر مارس انسجمت مع المبدأ العام المتصل بتقليل رقعة انتشار المواجهات، على الأقل على المستوى الجغرافي، بقدر الإمكان، ومع تعاقب الشهور مالت هذه العمليات إلى أن تكون أكثر شراسة في ضوء قيام وحداتها بممارسة مهامها في إطار تشكيلات أكثر عدداً وفعالية، وتزايد حجم الخسائر اليهودية، فضلاً عن الشعور المتزايد لدى اليشوف بأنه أضحي منخرطاً في صراع حياة أو موت، ولكن فيما يتصل بالفترة الزمنية ما بين ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 استمرت سياسة المنظمة ثابتة: الدفاع ضد الهجمات العربية، قصر الانتقام - بقدر الإمكان - على من يقومون بالهجمات، السعي إلى تضيق المجال الجغرافي للصراع⁽⁹⁷⁾. وفي الثالث من شهر فبراير عام 1948 تحدث بن غوريون عن الاستيطان اليهودي المأمول في النقب بالكلمات التالية: «إن القبائل العربية التي تعيش في سلام معنا، لن نحاربها ولن نصيبها بالأذى، ولكن سنزودها بقليل من الماء بما يمكنها من زراعة الخضروات، وستبقى حيث هي»⁽⁹⁸⁾، وبعد مرور ثلاثة أسابيع صرح غاليلي:

... إن هناك أهمية قصوى لانتقاء الأماكن التي تستهدفها العمليات

الانتقامية، حيث يجب علينا التمييز بين القرى المتورطة في الهجمات علينا

وتلك التي لم تقم بذلك بعد. وإذا كنا لا نريد أن يتشكل تحالف بين العرب

في البلاد والأجانب (المقصود القوات غير النظامية) فإنه من الأهمية بمكان

التمسك بهذا التمييز.

راود غاليلي الأمل في أن تحدث احتكاكات، وربما صراعات، بين القرويين والعناصر الأجنبية غير النظامية⁽⁹⁹⁾، وقد ساد هذا التوجه بدرجة كبيرة جميع

مستويات التسلسل القيادي، ففي بداية مارس (وعقب حادثة شملت جنودا من البالماخ) كتب ميشائيل شاهام (ضابط أمن النقل في رئاسة أركان الهاغاناه) إلى آلون: «هناك حاجة لتحديد قواعد السلوك الخاص بأمن المواصلات بغية تجنب حدوث استفزازات غير ضرورية قد تكون نتائجها في بعض الأحيان مأساوية وتُثير العاصفة في مناطق مازالت هادئة...»⁽¹⁰⁰⁾، وقد نبعت هذه السياسة جزئيا من اعتبارات أخلاقية، وكانت في جزء آخر نتيجة لضعف الهاغاناه، وبشكل عام فإنها كانت ترجع إلى الاعتقاد السائد، على الأقل حتى نهاية شهر مارس، بأن الهاغاناه يجب أن توقف نيرانها لأن البريطانيين لن يسمحوا بحدوث تغيير جذري في توازن القوى العسكرية بين اليهود والعرب قبل انسحابهم من فلسطين.

سياسة عرب فلسطين خلال الفترة

من نوفمبر 1947 حتى مارس 1948

تضمنت الدعاية الصادرة عن كل من الوكالة اليهودية والهاغاناه خلال الأشهر الأولى للحرب الأهلية اتهاما للمفتي بشن حرب منظمة وعدوانية ضد اليشوف. غير أن الحقيقة كانت مخالفة لذلك إلى حد كبير على النحو الذي فهمه أغلب القادة والمحللين اليهود في ذلك الوقت، ففي بداية الأمر كانت الجهود القتالية الفلسطينية غير منظمة، وتلقائية وتقتصر على مواقع محددة، وظلت لشهور مشوشة وتفتقر إلى التنسيق، إن لم تكن غير موجهة لهدف على الإطلاق، وفي إفادة من ماكس بن غوريون وقادة الهاغاناه في 1 يناير 1948 ذكر الأول: «لم يكن العرب مستعدين (للحرب)... لم يكن هناك من يرشدهم ... وعلى الرغم من سعي اللجان الوطنية المحلية واللجنة العربية العليا للسيطرة على الموقف، فإن التطورات كانت تحدث من تلقاء نفسها»، وأوضح ماكس أن «أغلبية السكان العرب لم ترد القتال». اتفق ساسون مع هذا الرأي مضيفا أن المفتي أراد (ونظم وأثار) «الاضطرابات» ولكن ليس بهذا المستوى وبهذه الأبعاد⁽¹⁰¹⁾. وقد لخص أحد مستشاري الهاغاناه الموقف على النحو التالي:

تعاظم الشعور في المدن بأنه لا يمكن لساكنيها الصمود ضد القوات الأكثر

تفوقا [اليهود]. أما في الريف فلم يكن الفلاحون راغبين في البحث عن [أو

السعي إلى] القتال مع اليهود خارج مناطقهم، وبالنسبة إلى أولئك الذين

الموجة الأولى: النزوح العربي...

عاشوا بالقرب من المستوطنات اليهودية فقد نُظر إليهم على أنهم «مساكين»
[بؤساء وضعفاء]... وساد جميع القرى الشعور بأن اليهود على وشك الهجوم
عليهم... (102).

بعد مرور عدة أيام على اندلاع القتال طلب غاليلي من مستشار جهاز
استخبارات الهاغاناه أن يشرح له طبيعة ما يحدث، وقد تضمن رد الأخير ما يلي:

كانت الاضطرابات في جزء منها منظمة من قبل النشطاء المحليين الموالين
للحسيني وبمساعدة من الحشود التي جرت استشارتها، وفي جزء آخر كانت
تلقائية ومن دون قيادة... إن اللجنة العربية العليا لا تقود أو تخطط لاندلاع
الاضطرابات... كذلك لا يجيب أعضاء اللجنة بشكل واضح على مطالبات
القادة المحليين بضرورة وجود خط واضح للعمل، حيث اقتصر الأمر على
إخطارهم بأن المفتي لم يقرر بعد طبيعة الرد (على قرار التقسيم). وقد بدأت
اللجنة والقادة المحليين في تنظيم المدن وبعض القرى لعملية الدفاع (103).

ذهبت الإدارة السياسية بالوكالة اليهودية إلى حد الاعتقاد أن المفتي نفسه يريد
التهدئة وأن ذلك كان أيضا الموقف العربي الرسمي، بيد أن بعض أنصاره، بما في ذلك
إميل الغوري، ورفيق التميمي، والشيخ حسن أبو سعود كانوا وراء تنظيم أعمال
الشغب «التلقائية» وإشعال نيران المواجهة (104).

جاء الخط الذي تبنته اللجنة العربية العليا - في جزء منه - استجابة لعدم الرغبة
العربية العامة في القتال، وقد نُقل عن ضباط القسم العربي بجهاز استخبارات
الهاغاناه قولهم «إن أغلبية العامة كانت مستعدة لقبول التقسيم...» (105). وأفاد
تسوري (أحد ضباط الجهاز) في الشمال بما يلي: «خلال السنوات القليلة الماضية لم
تكن لدى الفلاح في الجليل، سواء كان من الغوراني (المقيمين في مستنقعات وادي
الحولة) أو من المتأولة (الشيعة) أو مغربي (من أصول مغربية) أي رغبة في أن يكون
طرفا في حرب مع اليهود»، وبشكل عام «لم يكن السكان العرب في الجليل قادرين
على تحمل العبء الثقيل والممتد زمنيا للقتال نظرا إلى غياب أي شكل من أشكال
التنظيم الداخلي» (106).

في واقع الأمر لم يقتصر عدم توافر التنظيم والسلاح على الشمال فقط. فقد
حذر الجنرال صفوت (رئيس اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية) خلال

شهر مارس 1948 بشكل عام من تشرذم العرب الفلسطينيين مع تكاثر العصابات المسلحة التي لا تدين بالولاء إلى «القيادة العامة»، ومن اقتناء القرويين للسلاح للدفاع عن أنفسهم ضد عرب آخرين وليس ضد اليهود⁽¹⁰⁷⁾. من جانبه، افتقر الحسيني إلى الأدوات اللازمة لشن هجوم شامل على اليشوف الذي دفعه إلى أن يقصر موافقته على شن هجمات محدودة (جزئيا للضغط على الدول العربية لتهب إلى نجدة الفلسطينيين)، وتشديد الحصار الاقتصادي على اليشوف، وتنظيم المجتمع العربي للدفاع عن نفسه⁽¹⁰⁸⁾، وقد أرسل المفتي - في نهاية شهر ديسمبر 1947 - خطابا إلى د. حسين الخالدي (عضو اللجنة العربية العليا وقائد اللجنة الوطنية لمدينة القدس) نص بشكل صريح على أن الهدف من الأعمال التي يجري القيام بها هو «إنهاك، وفقط إنهاك، اليشوف وليس شن هجوم شامل عليه»⁽¹⁰⁹⁾. كما أشار إلى أنه فقط في المستقبل، في تاريخ لم يحدد بعد، ستأمر اللجنة العليا بشن مثل هذا الهجوم، ومن ثم فإنه في الوقت الحالي يلزم البدء في الإعداد لذلك⁽¹¹⁰⁾. ولم يكن الخالدي بحاجة إلى أي ضغوط عليه حيث إنه كان «عصبيا، وبائسا، ومتشائما». وطبقا لجهاز استخبارات الهاغاناه اعتقد الخالدي أنه خلال الاضطرابات التي جرت في 1936 - 1939 «كان العرب ... أكثر استعدادا وجراءة ورغبة في التضحية، أما في الوقت الراهن فإنهم، مقارنة بتلك الفترة، يطالبون بأن يُدفع مقابل لكل عمل يقومون به، ويسيطر عليهم الخوف من اليهود، كما أنهم أصبحوا دائمي الشكوى»⁽¹¹¹⁾.

لخص كانيغهام الأمور قبيل اندلاع الحرب بدقة على النحو التالي:

تمثلت السياسة العربية الرسمية في اتخاذ موقف دفاعي ضد الهجمات اليهودية إلى حين صدور الأوامر بالهجوم من قبل القيادة الوطنية. أما الهجمات الواسعة الانتشار المستمرة والمتزايدة على اليهود فإنها كانت تعكس بشكل مقارن السلطة الواهية لمعظم اللجان الوطنية وللجنة العربية العليا... فالأخيرة كانت حريصة على التقليل من الهجمات العربية ولكن على الأرجح عدم إيقافها تماما، ومن المعروف أنها كانت تشعر بالقلق من فقدانها للسيطرة...⁽¹¹²⁾

تركز انتباه المفتي بشكل شبه فوري على عرب حيفا ويافا، كبرى المراكز العربية، فكلتاها كانتا معرضتين للهجوم والحصار، وفي كل منهما كانت اللجان الوطنية -

الموجة الأولى: النزوح العربي...

التي مثلت الطبقات التي تمتلك المال سواء المتوسطة أو العليا- تبحث عن الهدوء خشية أن تسفر الاستفزازات ضد اليهود عن أعمال ثأرية تضر بهم أو بممتلكاتهم. في يافا، كانت اللجنة الوطنية وملاك بساتين البرتقال وراء التوصل إلى هدنة، دامت لفترة قصيرة، مع جيرانهم اليهود⁽¹¹³⁾. بيد أن القيادات المحلية فشلت في السيطرة على مجموعات الميليشيات التي كانت تعمل عادة في أطراف المدينة⁽¹¹⁴⁾.

نبح جانب كبير من مخاوف المفتي تجاه المدينتين من التقارير التي أشارت إلى بدء سكانهما في الهرب. وخلال النصف الثاني من ديسمبر 1947 ويناير 1948 بدا وكأن المفتي ومساعديه يسعون إلى تحويل مركز العمليات القتالية باتجاه الريف. غير أن القرويين لم يسارعوا للمشاركة في القتال⁽¹¹⁵⁾ (بل استمر بعضهم في بيع منتجاتهم إلى المدن اليهودية المجاورة)⁽¹¹⁶⁾، وقد اكتشف حسن سلامة، أحد القادة الميدانيين التابعين للمفتي، ذلك أثناء لقائه مع القادة المحليين في منطقة شرق حيفا. ففي الوقت الذي طالبهم فيه بتنظيم هجمات على أحياء في «تل أبيب» (هاتيكفا وبتاح تيكفا)، «عارض الجميع الخطة بقوة»⁽¹¹⁷⁾، كما أنه تلقى إجابة مماثلة من اللجنة الوطنية للرملة، حيث أوضح له أعضاؤها أن «الهدوء يسود المنطقة، وأنه إلى أن يقوم اليهود بالبدء في عملياتهم ومهاجمة القرى فإنهم لا يرغبون في البدء بالعمليات»، كذلك كان الرد الوارد من اللجنة الوطنية في اللد عندما طلب منها مهاجمة مستوطنة بن شيمون المجاورة⁽¹¹⁸⁾.

تلقى عبدالقادر الحسيني، القائد العسكري الرئيسي للمفتي [أمين الحسيني] والمسؤول عن منطقة مرتفعات يهودا، إجابات مماثلة خلال اجتماعه مع اللجنة الوطنية في طولكرم. فعندما طلب منهم جمع المال وشراء السلاح و«الإسراع في الدخول في معارك ضد المستوطنات اليهودية»، رد هاشم الجيوسي، رئيس اللجنة قائلا:

نطالب أن تترك أمور هذا الحي (الذي لم يكن عبدالقادر مسؤولا عنه) إلى

سكانه. نحن نعرف الموقف جيدا... إن الجانب الغربي من حينا مفتوح وليس

هناك وسيلة للدفاع عنه، والمستوطنات اليهودية تحيط به من كل جانب. إذا

بدأنا في الاستفزاز فسنخسر القرى الغربية.

وأضاف رئيس الحي أن السكان في طولكرم «لا يريدون أن يتدخل أحد في شؤونهم، كذلك فإننا لا نريد أن نكون ضحايا لجرائم كتلك التي حدثت في

الماضي» (1936 - 1939) [في إشارة مستترة بالكاد إلى إرهاب الحسيني ضد عرب آخرين أثناء الثورة].

- عبدالقادر: أنا لا أنكر أنه ارتكبت جرائم قبيل إنشاء «المحاكم الكنغرية» (*)
وسرقات للمال.

- هاشم: وماذا عن أعمال القتل؟

- عبدالقادر: أجل، ويجب علينا تجنب تكرار هذه الجرائم.

وقد كرر هاشم قوله إنه لا يريد أي نصائح، وإنما فقط الأسلحة، التي لم تصل حتى الآن على الرغم من أنه سُدَّ ثَمْنُهَا⁽¹¹⁹⁾.

وواجه عبدالقادر موقفاً مشابهاً في بتير والقرى المجاورة التي رفضت أن تُستخدم كنقاط انطلاق لهجمات على يهود القدس: «خشية الانتقام»⁽¹²⁰⁾. في المقابل، وافق ممثلون عن قرى بالقرب من رام الله على البدء في شن بعض العمليات⁽¹²¹⁾.
وقد اتسمت سياسة المفتي تجاه الريف بالغموض. فطبقاً لمصادر استخبارات الهاغاناه أخبر وفداً من قرية مسمية الكبيرة (في الجنوب) «أن يلتزموا الهدوء ولا يتصادموا مع اليهود، إلا إذا ما هوجموا»، مضيفاً: «مادامت المساعدة لم تُؤمن من قبل الدول العربية يجب تجنب المعركة مع اليهود».

خلال الشرح الذي قدمه إلى بن غوريون، أوضح ساسون أن التغيير في الإستراتيجية العربية، بمحاولة نقل مركز العنف من المدن إلى الريف، جاء نتيجة الضغط الذي مارسه سكان المدن على المفتي. وفي هذا الصدد، اقترح ساسون أن تقوم الهاغاناه بمضاعفة الضغط على المدن بشكل قد يدفع أعيانها إلى طلب التوصل إلى وقف إطلاق نار، ووفقاً له فإن الهجمات على القرى لن تفضي إلى شيء حيث إن المفتي سيظل غير مكترث «لموت الفلاحين»⁽¹²²⁾.

منذ نهاية شهر يناير وعلى مدار شهري فبراير ومارس فرضت الهاغاناه وأبقت على حصار جزئي للمدن الرئيسية، الأمر الذي شكل ضغطاً كبيراً على المفتي. وطبقاً لأجهزة استخبارات الهاغاناه أصدرت اللجنة العربية العليا في نهاية شهر يناير أوامر للجان الوطنية تضمنت الإبقاء، في الوقت الحالي، على الهدنة وعدم القيام بالتخطيط

(*) المحاكم الشعبية التي لا تراعى فيها مبادئ القانون والعدالة [المترجم].

الموجة الأولى: النزوح العربي...

أو شن هجمات كبرى لحين صدور تعليمات أخرى⁽¹²³⁾. كذلك فإنه بحلول منتصف شهر فبراير أصدر جيش الإنقاذ - الذي تعهد للبريطانيين بإيقاف الهجمات - تعليمات تقضي «بعدم مهاجمة اليهود، والاقتصر فقط على عمليات الدفاع والتنظيم...»⁽¹²⁴⁾. وقد أخبر سعيد بك (قائد جيش الإنقاذ في قلقيلية) أحد جلسائه العرب (توفيق أبو كشك) في بداية شهر مارس أن جيش الإنقاذ «لا يرغب في الهجوم، وليس لديه أي تعليمات في الوقت الحالي للقيام بذلك، حيث إنه جاء إلى فلسطين للدفاع عن العرب ضد عدوان اليهود»، وفي هذا السياق شجع سعيد بك محدثه على «الاستمرار في الحفاظ على علاقات جيدة مع الجيران اليهود»⁽¹²⁵⁾. وقرب نهاية الشهر ذاته، ذكر القاوقجي لأحد العرب الذين لهم صلة قوية باليشوف أنه بإمكانه «الاستمرار في العيش بسلام مع اليهود كما كانت عليه الحال حتى الآن»، وحذر السكان المحليين من البدء في القتال من تلقاء أنفسهم⁽¹²⁶⁾. من جانبها، أصدرت اللجنة الوطنية في حيفا (والتي تعتبر من المعاقل التي تكن مشاعر عدائية للحسيني) في الثاني والعشرين من فبراير «البيان رقم 7» الذي طالب «بوقف إطلاق النار وعودة الرجال إلى مواقع عملهم...»⁽¹²⁷⁾. ومن غير المرجح أن تكون اللجنة قد أقدمت على مثل هذا الإعلان من دون موافقة مسبقة من اللجنة العربية العليا.

خلال شهري فبراير ومارس بدا وكأن كلا من اللجنة العربية العليا وجيش الإنقاذ يرسلان للفلسطينيين العرب مؤشرات تبين أنه بينما يجب الإبقاء على مستوى منخفض من المناوشات من قبل الميليشيات المحلية والقوات غير النظامية وكذلك الهجمات على القوافل اليهودية، خاصة في محيط القدس، فإن القيام بهجوم واسع النطاق على اليشوف كان أمرا غير وارد في الوقت الراهن، وأن التجهيزات لذلك - والتي يجب أن تجرى على قدم وساق، إما قبيل الانسحاب البريطاني مباشرة أو بعده - يلزم الشروع فيها.

الجهود اليهودية والعربية لصنع السلام

ديسمبر 1947 - مارس 1948

بالتزامن مع سياسة الهاغاناه خلال الشهور الأولى والرامية إلى تحديد نطاق وتقييد مستوى العنف، حاولت أجهزة يهودية مختلفة (بما في ذلك القسم العربي

في الإدارة السياسية للوكالة اليهودية)، وإدارة الهستدروت للعمال العرب، وحزب مابام، والسلطات اليهودية المحلية) الإبقاء على السلام، أو على الأقل وقف إطلاق النار في بعض المناطق، استمرارا للجهود السابقة خلال الأربعينيات التي استهدفت التوصل إلى تعايش سلمي يهودي - عربي (الأمر الذي قابله الطرف العربي بردود أفعال إيجابية في مناطق محدودة من وقت إلى آخر). وبشكل كبير كان الحافز وراء تلك الجهود اندلاع المواجهات خلال شهري نوفمبر وديسمبر عام 1947. وفي الوقت ذاته تولد عن القتال زيادة مطردة في توجهات العرب لتحقيق السلام مع جيرانهم، وأساسا بين المجتمعات التي شعرت بأنها معزولة وتحت التهديد في المناطق ذات الحضور اليهودي الساحق، والتي كانت حريصة على الحفاظ على بقائها.

خلال الحرب الأهلية، أثبتت علاقات الجوار الحسنة أنها أكثر استمرارية في النصف الشمالي من السهل الساحلي، وفي المنطقة الواقعة إلى الشرق من والمتاخمة للتلال الواقعة في السامرة الشمالية. كذلك بُذلت جهود شاقة خلال الأشهر الأولى للصراع من قبل المسؤولين اليهود بقيادة دانين وبالمون للإبقاء على السلام بين الإشيوف والعديد من القرى العربية والقبائل البدوية في المنطقة المجاورة مباشرة لتل أبيب، كما بُذلت جهود مماثلة من قبل مسؤولي الهستدروت في منطقة القدس. في الوقت الذي بدأت فيه سُحب الحرب تتجمع، بادر عدد من القرى شرقي حديرا بعقد «لقاء سلام»، دام أربعة أيام ونصف اليوم، مع جيرانهم اليهود، وحضره قرابة سبعين من النبلاء العرب، بما في ذلك المختار من وادي عارة، وعرعر، وقبيلة تركمان بالقرب من كيبوتس ميشماروت وأربعين من قادة اليهود المحليين، في حين رفض قادة باقة الغربية - أكبر القرى العربية في محافظة طولكرم - المشاركة.. وقد أكد القادة اليهود والعرب المشاركون على علاقات حسن الجوار الراسخة بينهم، وبادروا بتعيين لجنة دائمة لتسوية الخلافات في حالة نشوبها⁽¹²⁸⁾. أسفرت هذه الاتصالات عن تنظيم زيارة لستين من أطفال مدرسة كيبوتس عين شيمر في الثاني والعشرين من أكتوبر إلى مدرسة في خربة السركس، وجرى «استقبالهم بشكل جيد للغاية»، وكانت هذه الزيارة ردا على أخرى سبقتها أجراها طلبة فصل من خربة السركس إلى عين شيمر وكيبوتس غان شموئيل في وقت مبكر من الشهر نفسه⁽¹²⁹⁾. وكان من وجهة نظر القيادة اليهودية المحلية أن من شأن بداية القتال

الموجة الأولى: النزوح العربي...

في مناطق أخرى في البلاد أن يجعل من تقوية الاتصالات مع الجيران العرب أمراً حتمياً. وقد صرحت تلك القيادات بأن «التعليمات الدائمة هي بذل كل الجهود للحفاظ على علاقات جوار حسنة»⁽¹³⁰⁾. وبناء على مبادرة من رئيس قبيلة عرب الشمالي، التقى قادة وادي حيفر^(*)، في الثاني عشر من ديسمبر 1947، مع ممثلين يهود؛ حيث أعلنوا رغبتهم في السلام واستمرار العلاقات الجيدة، مطالبين بوعده ألا يقدم اليهود على إيذائهم والحصول على «الحماية للمجلس الإقليمي»، ومن جانبها أعلنت السلطات اليهودية أن الاجتماع حصل على الرغم من محاولات مندوبين من طولكرم «تحريض» هؤلاء العرب ضد اليهود، وقد صرح المجلس الإقليمي بأن اليهود سيحافظون على السلام إذا ما التزم العرب بذلك. وتجدر الإشارة إلى أن مسؤولين من القسم العربي ساعدوا على تنظيم هذا اللقاء⁽¹³¹⁾. وفضلاً عن ذلك، قام القادة اليهود بعمل ترتيبات لتزويد القرى العربية المجاورة بالإمدادات، خاصة الدقيق، في حالة انقطاعها. وفي حين قامت العائلات العربية التي كانت تعيش في حديرا (اليهودية) بالفرار، استمر العمال العرب في المجيء إلى المدينة بغرض العمل⁽¹³²⁾.

فور اندلاع القتال شرعت إدارة العمال العرب في الهستدروت (التي كانت خاملة إلى حد ما حتى ذلك التاريخ) في إجراء اتصالات مع العرب لتشجيع السلام بين المجتمعات المتجاورة؛ حيث كانت الأخوة بين كل عمال الأمم المختلفة من بين أسس أيديولوجية اتحاد نقابة العمال (الهستدروت)، الذي وزع في 21 يناير 1948 إعلانات موجهة إلى «كل العمال العرب» تحضهم على «العيش في سلام مع اليهود، وعلى أن يديروا ظهورهم لقادتهم الذين يقودونهم إلى الهلاك»⁽¹³³⁾.

اتخذت الرغبة في العيش في هدوء وسلام في بعض المناطق أشكالاً متعددة في الشهور الأولى للحرب. توصلت عديد من القرى إلى اتفاقات سلام رسمية مع المستوطنات المجاورة أو ضواحي المدن، والتقى أعيان دير ياسين في العشرين من يناير 1948 قادة من غيفات شاؤول، في ضواحي القدس اليهودية، واتفقوا معهم على وضعية متبادلة من عدم الاشتراك الفعلي في الحرب. وقد التزمت دير ياسين بأن تبعد العصابات أو القوات غير النظامية خارجها، وفي حال ظهورها فيها تقوم بإبلاغ غيفات شاؤول بوجودهم «في أوقات النهار عبر تعليق الملابس... (قطعتان

(*) الاسم العربي هو وادي الحوارث [المحررة].

من اللون الأبيض في وسطهما قطعة من اللون الأسود)، وأثناء الليل من خلال ثلاث ومضات ضوئية... ووضع ثلاثة مصابيح». كذلك تم الاتفاق على تزويد دوريات غيفات شاؤول بكلمة سر متفق عليها، وفي المقابل تعهدت الأخيرة بتحمل مسؤولية تأمين السيارات التابعة لقرية دير ياسين والتي تمر عبر الضواحي⁽¹³⁴⁾. وقد أدى أهارون حاييم كوهين (مؤسس إدارة العمال العرب) دورا مهما في التوصل إلى هذه الاتفاقية وغيرها من الاتفاقيات المشابهة خلال شهري يناير وفبراير مع قرى القسطل، وصور باهر، والمالحة⁽¹³⁵⁾.

خلال شهري ديسمبر 1947 ويناير 1948 عبر قادة الشيخ مونس، وصميل (المسعودية)، والجماسين، وعرب أبو كشك، وجليل - خلال لقائهم مع مندوبين للهاغاناه في دار أفراهام شابيرا (في بتاح تكفا) - عن رغبتهم في السلام. وذكروا أنهم إن لم يتمكنوا من حجب المساعدات عن القوات غير النظامية فسيطلبون مساعدة الهاغاناه، وبشكل واضح تماشى الجانب اليهودي مع محاولات الانفتاح عليه، فقد شهد شهري يناير وفبراير زيارات من قبل كل من بلمون ودانين لعدد من القرى العربية بما في ذلك الشيخ مونس وعرب أبو كشك، وطالبوا السكان بالبقاء في أماكنهم وقبول الحماية والقواعد اليهودية، وهو ما لاقى موافقة من قبل القرويين⁽¹³⁶⁾. وفي حالة أو حالتين تم التوصل إلى اتفاقات بين مسؤولين يهود أو ضباط الهاغاناه وقطاعات معينة من سكان قرية ما، وليس القرية بأكملها. فعلى سبيل المثال، في منتصف يناير توصل عشرات العمال من مسكة (في محافظة طولكرم) إلى اتفاق للامتناع المتبادل عن القتال مع جيرانهم اليهود، الذين كانوا يعملون في بساتينهم⁽¹³⁷⁾.

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحرب اقترب ما يزيد على أربعة وعشرين قرية من المسؤولين اليهود سعيا وراء التوصل إلى اتفاقيات للامتناع المتبادل عن القتال، مدفوعة في ذلك أساسا بالخوف من الهجمات اليهودية أو العمليات الثأرية، وكذلك إلى حد ما بالروابط الاقتصادية التقليدية الذين رغبوا في الحفاظ عليها. ومن بين تلك القرى: قطنة (شمال غربي القدس، والتي أجرت اتصالات مع كيبوتس معالي حاميشا)⁽¹³⁸⁾، ووادي الحوارث (في الوادي الساحلي والتي أجرت اتصالات مع كفر فيتكن)⁽¹³⁹⁾، والمنشية (التي اتصلت بغيفات هاييم بالقرب من

الموجة الأولى: النزوح العربي...

حديرا⁽¹⁴⁰⁾، وقيسارية (وقد تواصل أحد وجهائها «توفيق قدودة» مع اليهود المحليين)⁽¹⁴¹⁾، وعين كارم (غربي القدس والتي تواصلت مع قادة اليهود في ضواحي بايت فيغان)⁽¹⁴²⁾، وعرب أبو كشك وقرية جماسين (شمال تل أبيب، واللذان أجرتا اتصالات مشتركة مع ضابط شرطة يهودي يدعى أرييل في مركز شرطة رمات غان)⁽¹⁴³⁾، وأرض السريس (واتصلت بالدكتور بوهم رئيس المجلس اليهودي الإقليمي في كفر آتا)⁽¹⁴⁴⁾، وكفر قرع (واتصلت بكفر غليكسون المجاور)⁽¹⁴⁵⁾.

حاول ضابط بريطاني أن يجمع ممثلين عن العرب واليهود في بيت شيان (بيسان)؛ وفي حين نصح يهوشوا سولز (ضابط استخبارات الهاغاناه المحلي) اللجنة الإقليمية المحلية بالتقاط «اليد الممدودة»، ذهب ضباط آخرون (على الرغم من اهتمامهم بالحفاظ على السلام) إلى النصح بـ «ضرورة المعرفة المسبقة بمن يطلب السلام من الآخر... فيلزم علينا أن نطلب منهم إرسال مندوبين محترمين، لا أطفال أو أشخاص لا وزن لهم، كذلك فإنه من المهم ألا يكونوا من عائلة واحدة أو من فئة واحدة فقط...»⁽¹⁴⁶⁾.

بشكل عام، جرت الأمور بصورة أكثر وضوحاً: حيث اتصل الأعيان والوجهاء العرب، أو التقوا، مع المندوبين اليهود المحليين. على سبيل المثال، في السابع من يناير، التقى عمدة اللد، وبصحبه مختار قرية الحديثة مع رئيس بن شيمين (المدرسة الزراعية الداخلية اليهودية المجاورة والموجودة داخل المنطقة ذات الكثافة العربية)، ووفقاً لمحضر الاجتماع الذي أعدته الإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه ذكر العمدة: «نحن نريد السلام معكم، وقد جهرنا بذلك في المدينة وضواحيها. غير أنه، كما تعلمون، هناك أشخاص ليس لديهم إحساس بالمسؤولية قد يقدمون على ارتكاب حماقات من تلقاء أنفسهم». وطلب العمدة من رئيس المدرسة عدم نشر حراس على الطريق، بل فقط داخل حرم المدرسة. ومن جانبه طالب الأخير سلطات اللد بالسماح للحافلات اليهودية بالمرور في المدينة من دون اعتراضها، وعند هذه النقطة جرى اتصال هاتفي مع شحادة حسونة (رئيس الميليشيات في اللد) وتضمن الحديث بينه وبين مدير المدرسة ما يلي:

شحادة حسونة: لقد تحدثنا إلى الأعيان في المنطقة وحذرناهم من أي إيذاء

قد تتعرض لها بن شيمين. لقد عشتهم بيننا العديد من السنين من دون وقوع أي

شيء سيئ فيما بيننا... لن يتم المساس بقوافلكم. إن السكان المحليين، وبخاصة كبار السن منهم، يريدون السلام، ولكن تصعب السيطرة على الغرباء بتنوعاتهم المختلفة، الذين يفدون على المدينة ويتصرفون من تلقاء أنفسهم.

رئيس بن شيمين: توجد بيننا أيضا عناصر لا تريد الامتثال للأوامر، وتتصرف من تلقاء أنفسها، ولا يمكن أن أتحمّل المسؤولية عنهم بالقدر نفسه الذي لا يمكنكم به تحمل المسؤولية عن الغرباء⁽¹⁴⁷⁾.

(وحتى 19 مارس، كان قادة اللد يعارضون الهجمات على قوافل بن شيمين)⁽¹⁴⁸⁾.

بعد مرور أسبوع على ذلك دارت مناقشة مماثلة بين ضابط في القسم العربي باستخبارات الهاغاناه (على الأرجح ديفيد كارون) وقائد للجنة الوطنية في تل الصافي (قرية عربية كبيرة تقع جنوبي القدس)؛ حيث وعد القائد العربي الحاج محمد خليل العزي بإبعاد «الغرباء» وإبقاء الرعاة العرب بعيدا عن الحقول اليهودية. وأضاف العزي أن الحسيني «لا مستقبل له» وأن «السيطرة» ستنتقل قريبا إلى عبدالله ملك الأردن. وقد أمرت اللجنة الوطنية مجموعة من البدو التي استقرت في تل الصافي منذ خمسة أو ستة أعوام بالرحيل خشية أن يؤدي قيامهم بالرعي إلى صدامات مع اليهود⁽¹⁴⁹⁾.

وبعد مرور بضعة أسابيع استضافت تل الصافي لقاءً بين ممثلين عن الهاغاناه وحسن عبدالعزیز مهنا من المسمية الكبيرة (قرية واسعة ذات نفوذ كبير في الغرب)، وعُقد الاجتماع بمبادرة من مهنا (العضو البارز في أكبر عائلات القرية)؛ حيث وعد بأن يسود السلام في المنطقة مادامت عائلته تبقى مهيمنة على القرية وضواحيها، مطالبا ألا يقوم الحراس المصاحبون للقوافل اليهودية التي تمر بالقرية «بالتلويح بأسلحتهم أو تصويبها». وعبر مهنا عن تدمره من القادة اليهود والعرب الذين تسببوا في الفرقة والاضطرابات، مضيفا أن عائلة المهنا قررت بجدية «معارضة الحسيني، وأن يرهنوا مستقبلهم السياسي بالملك عبدالله»⁽¹⁵⁰⁾.

على حين لم تكن كل من تل الصافي والمسمية الكبيرة بعد في حالة حرب مع جيرانهم اليهود في كيبوتس كفر مناحيم، كان الوضع مختلفا بين قرية صور باهر وكيبوتس رامات راشيل وحي تلبوت جنوبي القدس، حيث كان هناك تبادل لإطلاق النار. وقد سعى قادة صور باهر إلى التوصل إلى سلام من خلال عقد لقاء مشترك، مدفوعين في ذلك بالحالة الاقتصادية المتدهورة؛ نتيجة عدم وجود مشتري للفائض

الموجة الأولى: النزوح العربي...

في المنتجات الزراعية التي كان يتم بيعها في الماضي لليهود؛ فضلا عن نقص علف الحيوانات؛ وعدم توافر فرص عمل خارج القرية؛ وانعدام المساعدة من أي جهة عربية⁽¹⁵¹⁾. ومثل القرية محمود شحاتة (شقيق مختار القرية) وأربعة من مالكي مطاحن الدقيق (الذين تأثرت أعمالهم بالقتال)، في حين شارك موشيه اسحاكوفيتش (قائد رامات راشيل) وإلهان كلاين (من تلبوت) عن الجانب اليهودي، وهدف الاجتماع إلى «التوصل إلى وسيلة للحفاظ على وقف إطلاق النار بين تلبوت وقريتي صور باهر وأم طوبا المجاورتين، وفي الوقت الذي عبر فيه الجانب اليهودي عن عدم رغبته في اندلاع صراع دام، وعد الطرف العربي بما يلي:

أ - عدم قيام سكان القريتين بأي عمل من شأنه الإضرار بمصالح السكان اليهود في المنطقة.

ب - أنهم سيمنعون، حتى ولو بالقوة، أي «غرباء» من الدخول إلى القريتين بهدف مهاجمة اليهود أو التحريض على ذلك... وفي حالة عدم نجاحهم في منع الغرباء من الدخول فإنهم سيقومون على الفور بإخطار موشيه إسحاكوفيتش أو إلهان كلاين.

في المقابل تعهد ممثلو اليهود بالسماح (بعد تفتيش محتمل) بمرور حافلة نقل عربية محددة (تحمل رقم 282 ذات كابينة حمراء اللون) فضلا عن النساء والأطفال حتى سن الخامسة. وفي نهاية الاجتماع تم الاتفاق على عقد اجتماع آخر للمتابعة مع قادة القريتين.

وقد علق القائدان اليهوديان في مرحلة تالية على الاجتماع بما يلي:

أ - أن سكان هاتين القريتين كانوا مدفوعين بالرغبة في تجنب عواقب نهاية حالة الهدنة. ومع ذلك فإنهم لا يعارضون، من حيث المبدأ، استمرار الحرب من قبل العرب.

ب - أن هناك شعورا بأنهم يسعون إلى كسب الوقت.

ت - وجود انطباع قوي بأن ملاك مطاحن الدقيق الأربعة هم الذين دفعوا إلى عقد اللقاء أكثر مما كانت عليه الحال بالنسبة إلى قادة القرى، بل وصل الأمر إلى سيادة اعتقاد بأنهم دفعوا مبلغا من المال لمحمود شحاتة لتنظيم الاجتماع⁽¹⁵²⁾.

انعقد اجتماع المتابعة في الخامس من فبراير بحضور مختاري القريتين: الحاج أحمد شحاتة (قرية صور باهر)، والحاج محمود (قرية أم طوبا) فضلا عن عدد من الوجهاء العرب. ومثل الجانب اليهودي: إسحاق كوفيتش وضابط من جهاز استخبارات الهاغاناه يدعى يتزهر، ووفقا للتقرير الذي أعده الأخير لاحقا كان الاجتماع «وديا للغاية وغلبت عليه الرغبة في الوصول إلى علاقات حسن جوار». وعد العرب بالإبقاء على الغرباء خارج القريتين، مُذكرين بأنهم عمدوا في الماضي إلى «طردهم عن طريق القوة»، وفي المقابل طالبوا بحرية المرور على الطريق المؤدي إلى القدس والذي يمر عبر رامات راشيل. وقد اتفق الطرفان على السماح بقيام كل من اليهود والعرب بحرث الأرض في الحقول الواقعة بين القريتين والمنطقة اليهودية⁽¹⁵³⁾.

خلال الفترة من نهاية شهر مارس، مروراً بشهر أبريل حتى مايو، وفر موسم الحصاد قوة دافعة بين القرويين للسعي في اتجاه التوصل إلى هدنة أو سلام مع الجيران اليهود؛ حيث رغب الفلاحون في أن يسود الهدوء حتى يتمكنوا من الحصول على عائد من محاصيلهم التي نضجت. وقد كان هذا هو التفسير الذي قدمه أحد ضباط القسم العربي بجهاز استخبارات الهاغاناه لما رُصد من استعداد، على الأقل من قبل بعض السكان، في قرية الطنطورة (جنوب حيفا) للتوصل إلى وقف إطلاق نار مطلع شهر مايو. (ومثل الخوف الذي تولد على سقوط مدينة حيفا قبل ذلك بأسبوعين سببا آخر لهذا التوجه في حالة هذه القرية)، ووفقا له: «الآن موسم الحصاد وهو ما يمثل سببا إضافيا جيدا للسعي إلى السلام مع اليهود»⁽¹⁵⁴⁾. (من المثير للاهتمام أنه في ذلك الوقت قام يهود من زخرون ياكوف، من تلقاء أنفسهم، بالاتصال بعرب الطنطورة للتوصل إلى اتفاق حول الحصاد)⁽¹⁵⁵⁾. كذلك فإن قرب هذا الموسم مثل دافعا للمحادثات التي جرت في مطلع شهر أبريل بين قرية قاقون وكيبوتس همعيل. وعلى الرغم من ذلك أضاف مستشارو الشؤون العربية للهاغاناه أنه «للتأكد من وجود وقف إطلاق النار... يلزم على كل من قاقون وهمعيل القيام بالحصاد من حقولهم بشكل متزامن»⁽¹⁵⁶⁾.

أجرى العرب في الشاطئ الشرقي لبحر الجليل أيضا اتصالات باليهود بغية الحصول على ضمانات بأن محاصيلهم لن يصيبها أذى من قبل قوة النيران اليهودية،

الموجة الأولى: النزوح العربي...

وفي المقابل قدموا تعهدات ضمنية بالحفاظ على الهدوء⁽¹⁵⁷⁾. وفي أطراف وادي يزراغيل (مرج أبو عامر بالعربية) اتصل زعماء من قبيلة وفيّة برئيس كيبوتس غينيغار، طالبين التفاوض على وقف إطلاق نار يمكنهم من جمع محاصيلهم⁽¹⁵⁸⁾. وفي أواخر شهر مايو طلب أحد أعيان العباسية (في الجليل) من الهاغاناه أن تسمح له بالبقاء في قريته؛ حيث يقوم آخرون بجني محصوله والاحتفاظ به لأنفسهم في أثناء غيابه، وعلى الرغم من ذلك «نصحته الهاغاناه بالرحيل»⁽¹⁵⁹⁾. وقد تمت الإشارة إلى الحصاد باعتباره سببا لعدم البدء في العمليات القتالية أو السماح بها من قبل دروز ومسيحيين في منطقة «شفا عمرو» - رמת يوحانان⁽¹⁶⁰⁾. كما تم ذكره من قبل جهاز استخبارات الهاغاناه كسبب لاستعداد بعض القرويين والذي سبق أن فروا من مناطقهم للعودة إليها والقبول بالحكم اليهودي، وفي هذا الصدد تمت الإشارة إلى اللاجئين من قرية الخيرية (شرق يافا)⁽¹⁶¹⁾.

توافرت لسلسلة من القرى جنوب وجنوب شرقي يافا مصلحة خاصة في التوصل إلى وقف إطلاق النار؛ حيث رغبوا في الاستمرار في العمل داخل المستوطنات اليهودية المجاورة، والذي مثل المصدر الرئيسي لدخلهم، وكان هذا هو السبب وراء الاتصالات المتكررة التي جرت مع الهاغاناه في مطلع شهر مايو من قبل سكان السنديانة، وصبارين، والفريديس الذين كان رجالهم يعملون في حقول ومزارع زخرون ياكوف، بنيامين، وبات شولومو⁽¹⁶²⁾.

مع اقتراب يوم 14 - 15 مايو وما كان يحمله الغزو العربي من نذر بالمزيد من الأعمال القتالية، سارعت قرى، بل مجموعات من القرى، في مناطق مختلفة للاتصال بالسلطات اليهودية بغية التوصل إلى هدنة أو الاستسلام وقبول الحكم اليهودي. في نهاية شهر أبريل وبداية شهر مايو عقد ممثلون من قرية الطيرة (جنوب يافا) محادثات لوقف إطلاق النار مع ضباط الهاغاناه في يافا، غير أنه لم يتم التوصل خلالها إلى اتفاق، فبينما وافق القرويون، بقيادة سعيد الدجاني، على هدنة، فإنهم رفضوا تسليم أسلحتهم كما طلبت الهاغاناه⁽¹⁶³⁾. كذلك فإنه في منطقة القدس طلب ممثلون لقرى: خربة اللوز، وصطاف، وصوبا، وأم الميس من أعيان قرية أبو غوش (المعروفين بعلاقاتهم الودية مع اليشوف) التوسط للتوصل إلى سلام بينهم وبين الهاغاناه، وهو ما رفضوا القيام به⁽¹⁶⁴⁾.

في مطلع شهر مايو زار مختار قرية زرنوقة (بالقرب من رحوفوت) مركز شرطة قطرة، وأعلن أن قريته والقرى المجاورة: المغار، وبشيت، ويبنى، والقبية «ترغب في الاستسلام»⁽¹⁶⁵⁾. وبعد مرور أسبوع اقترح أحمد الشوربجي، زعيم عشيرة الشوربجي الأكثر قوة في القرية، أن يتم تسليم بعض سلاح القرية طالبا «حماية» يهودية (وهو ما يعني الاستسلام)⁽¹⁶⁶⁾. كذلك عبّرت قرية جسر الزرقاء (الغوارنة) في السهل الساحلي عن رغبتها في الاستسلام في مقابل «حماية» الهاغاناه⁽¹⁶⁷⁾. وفي بداية الشهر ذاته نقل لواء إسكندروني أن سكان قرى الخيرية، وساقية، وسلمة التي تم الاستيلاء عليها في عملية حاميتز Operation Hametz^(*) راغبون في «العودة إلى قراهم وقبول الحماية اليهودية»⁽¹⁶⁸⁾. كذلك كانت الحال بالنسبة إلى سكان قريتي كفر لام، والصرفند شمال حيفا؛ حيث وردت تقارير تفيد برغبة سكانهما في العودة إلى ديارهم التي هجروها قبل ذلك بعدة أيام وقبول الإدارة اليهودية⁽¹⁶⁹⁾. وأيضاً في أواخر الشهر أجرى معين صالح خطيب (الذي صُنف على أنه أكبر مالك للأراضي في القرى الدرزية في الصوفية، ودالية الكرمل) اتصالات مع المستشارين العرب لجهاز استخبارات الهاغاناه، ناقلا استعداد القريتين «للاستسلام وتسليم أسلحتهما». كذلك عبّر عن «الاستعداد لتسليم أفراد العصابات القليلة فيهما»⁽¹⁷⁰⁾. وفي الوقت ذاته نقلت مصادر الهاغاناه وجود خلاف بين الشباب وشيوخ القرية؛ حيث لم يرغب الشباب في مساعدة الجيش السوري الغازي، ورأوا أنه من الأفضل «الاتصال باليهود وتسليم الأسلحة والاستمرار في البقاء»، في حين عبر الشيوخ عن مخاوفهم من أنه إذا ما تمكن جيش عربي، على الرغم من كل شيء، من الوصول إلى المنطقة، فإنهم سيبدون كـ «خونة» و«سيتم تدمير القرية»⁽¹⁷¹⁾. في مطلع شهر يونيو كانت القرى الثلاث المقاتلة في جنوب حيفا (الجبعة، وإجزم، وعين غزال) بعد متابعتها الحظ العاثر للعرب، تطلب «البدء في مفاوضات للاستسلام»، وقد حدث الشيء نفسه في القرى شرق عكا ووادي زبولون والتي نقلت التقارير أنها «مستعدة للاستسلام»⁽¹⁷²⁾.

عانت الهاغاناه على الدوام من مشكلة في التعامل مع الاتصالات الهادفة إلى

(*) كان اسم Hametz مؤشراً دقيقاً على القصد من العملية؛ حيث يشير إلى بقايا الغذاء التي تقوم ربّات البيوت من اليهود المتدينين بإزالتها من المنازل عند التحضير لعيد الفصح، في إشارة إلى نية التطهير العرقي للفلسطينيين خلال العملية التي شنت على يافا في الفترة من 28 أبريل حتى 11 مايو 1948. [المترجم].

الموجة الأولى: النزوح العربي...

التوصل إلى هدنة أو استسلام، فغالبا كانت المبادرة تأتي من فريق أو أحد النبلاء في قرية ما، الأمر الذي أثار العديد من التساؤلات: هل الاتصال جاد وله مصداقية؟ ألا يمكن أن يكون الأمر مجرد تحرك تكتيكي يهدف إلى كسب الوقت حتى يتم جمع المحاصيل أو الانتظار لوصول شحنة أسلحة يمكن بعدها أن تعود القرية للانضمام إلى صفوف المقاتلين؟ ما الهدف وراء الموافقة على وقف إطلاق نار مع جماعة عربية منعزلة، في حين أنه في مناطق أخرى حيث كانت الغلبة فيها للعرب كان هناك رفض لأي شكل من أشكال الهدنة أو السلام؟ ألم يكن من الضروري أن تُحدّد سياسة الهاغاناه انطلاقا من الاعتبارات القومية وليس المحلية؟ وفي ضوء تلك التساؤلات، غالبا ما انتهت هذه الاتصالات بإخفاق تام، وبحلول شهر مايو وفي مواجهة الغزو الوشيك من قبل الدول العربية، ذهب تفضيل الهاغاناه إلى عدم المخاطرة بترك قرى عربية - كان إعلانها المفاجئ عن الطاعة والولاء مشكوكا فيه - وراء خطوطها الأمامية.

فضل القرويون في كل الأحوال تجنب إجراء اتصالات رسمية أو اتفاقيات مع الهاغاناه، الأمر الذي كان يمكن وصمه بالغدر من قبل العرب الآخرين، وفقط أقلية ضئيلة منهم هي التي أجرت مثل هذه الاتصالات الرسمية. وفي المقابل امتنع الكثيرون عن البدء بأعمال عنف ضد اليهود ورفضوا، حين طلب منهم ذلك، المشاركة فيها؛ فضلا عن ذلك منع العديد منهم العناصر غير النظامية من دخول قراهم واستخدامها قواعد لإثارة الاضطرابات. وقد تمثّل الدافع الرئيسي لمثل تلك المواقف من عشرات القرى التي لم تشارك في القتال في الرغبة في تجنب الأعمال اليهودية الانتقامية ضدهم.

خلال شهر ديسمبر 1947 طلب بدو عرب البصة من التركمان المقيمين في المنسي الامتناع عن مهاجمة اليهود⁽¹⁷³⁾. وبعد مرور عدة أيام منع عرب الجلاد سبعة عشر عنصرا من المقاتلين غير النظاميين من مهاجمة مستوطنة كفر يونا المجاورة، وقد تمثّل موقف القبيلة في أنه يلزم أولا «قيامهم ببيع أراضيهم والرحيل، وفقط بعد ذلك يمكنهم الموافقة على المشاركة في مثل هذه الأعمال القتالية»⁽¹⁷⁴⁾. ومن جانبهم، رفض سكان القرى الدرزية الكبرى (الكرمل، عسفا، ودالية الكرامل) المطالبات العربية لهم بمهاجمة المستوطنات اليهودية المجاورة⁽¹⁷⁵⁾.

تشكلت معارضة واسعة ودائمة من قبل العديد من القرى في محافظة القدس للمشاركة في القتال؛ حيث كانت للمصالح الشخصية الغلبة على تلك الوطنية. وبشكل واضح ومنتظم لم يُسمح بالدخول للعصابات المتنقلة (أحيانا بقيادة عبدالقادر الحسيني)، وغالبا ما كان القرويون يرفضون استضافتهم أو تزويدهم بالموءن، فضلا عن الحديث عن المشاركة في الهجمات. فقد أمر الشيخ عبدالفتاح رئيس قرية المالحة القرويين بإطلاق النار على كل شخص غريب يحاول الاقتراب من «اليهود، أو العرب أو البريطانيين»⁽¹⁷⁶⁾. وفي مطلع شهر يناير 1948 طرد سكان قرية قالونيا عصابة مسلحة ومنعوها من «القيام بأي شيء»⁽¹⁷⁷⁾. وتبادل سكان دير ياسين إطلاق النار مع عصابة متنقلة من غير النظاميين أرادت استخدام قريتهم كقاعدة لمهاجمة القدس، مما أسفر عن مقتل قروي، «وانفجر نساء القرية بالعويل والصياح»⁽¹⁷⁸⁾. وقبيل الثامن والعشرين من يناير، أقدم عبدالقادر الحسيني، على رأس جماعة من 400 شخص مسلح، على إقامة مخيم بالقرب من دير ياسين، ساعيا بشكل ظاهر لتجنيد القرويين، وإزاء «معارضة شيوخ القرية» انتقلت الجماعة إلى بيت جالا⁽¹⁷⁹⁾. ولدى استدعاء مختار القرية من قبل ممثلي اللجنة العربية العليا لسؤاله عن علاقة قريته باليهود، أوضح أن: «القرية واليهود يعيشون في سلام»⁽¹⁸⁰⁾. وبعد مرور أسبوعين على ذلك، وبالتحديد في الثالث عشر من فبراير، دخلت عصابة مسلحة إلى دير ياسين بهدف مهاجمة مستوطنة غيفات شاؤول المجاورة، «وأمام معارضة القرويين لذلك، قامت العصابة المسلحة بذبح أغنام القرية...»⁽¹⁸¹⁾. وبعد ذلك بشهر، قام وفد من اللجنة العربية العليا ضم رجلين وامرأة (على غير المعتاد) بزيارة القرية في السادس عشر من شهر مارس، طالبا من سكانها استضافة مجموعة من المليشيات العراقية والسورية «لحماية الموقع»، وهو ما رفضه القرويون وعاد الوفد أدراجه خالي الوفاض⁽¹⁸²⁾. وتكرر الموقف الرفض من قبل وجهاء القرية مرة أخرى في الرابع من أبريل⁽¹⁸³⁾.

في نهاية شهر يناير، رفض سكان قرية صبارين (في الشمال) دعوات أطلقها وفد زائر من مساعدي عبدالقادر الحسيني للبدء في حملة تجنيد، وهو ما أسفر عن خلاف بين الطرفين⁽¹⁸⁴⁾. وفي الدامون القريبة (جنوب شرق حيفا) قام نجل أكبر مالكي الأرض (صادق كرمان) بدفع مبلغ خمسة آلاف جنية إسترليني لجيش

الموجة الأولى: النزوح العربي...

الإنقاذ مقابل مغادرته للقرية⁽¹⁸⁵⁾. وبعد مرور عدة أسابيع اتفقت كل من صبارين، والسنديانة، والفريديس على عدم السماح بوجود أي عناصر غير نظامية⁽¹⁸⁶⁾. كذلك رفضت السنديانة (والبريكة) إقامة حامية في البريكة لقوات جيش الإنقاذ⁽¹⁸⁷⁾.

عارضت اللجنة العربية العليا بقوة مبادرات واتفاقيات السلام المحلية. وعلى الرغم من أن المفتي قد رغب في بعض الأوقات التقليل من مستوى الصراع، فإنه عارض أي تصرف يحمل في ثناياه صبغة السلام، أو الاعتراف باليشوف. وأحبطت اللجنة العربية العليا عددا من جهود السلام المحلية. فعلى سبيل المثال، أفاد المفوض البريطاني لمحافظة الجليل بأن أعيان مدينة بيسان والمستوطنات المحيطة بها كانوا راغبين في التوصل إلى «اتفاق غير رسمي لضبط النفس المتبادل»، وقد قوبلت الفكرة برفض من قبل اللجنة العربية العليا⁽¹⁸⁸⁾. ومع ذلك، يمكن القول بشكل عام إنه مع اتساع رقعة القتال تزايدت حدة الشكوك والعداوة بين التجمعات المتجاورة، التي كانت في بعض الحالات تربطها علاقات صداقة، مما أدى إلى تضاؤل إمكانيات التوصل إلى اتفاقات وقف إطلاق نار على المستويات المحلية أو الإبقاء على ما سبق التوصل إليه بالفعل. وقد انطبق ذلك على وجه الخصوص على المناطق الواقعة في وسط البلاد، في حين أبقت بعض القرى في الجنوب والشمال على حالة وقف إطلاق النار مع المستوطنات لشهور، بشكل أساسي نتيجة الاحتياج المتبادل لحصاد المحاصيل. كذلك سادت حالة مشابهة من عدم القتال ارتبطت بعملية حصاد المحاصيل الحمضية واستندت إلى تفاهات ضمنية أو صريحة في السهل الساحلي الجنوبي خلال الأشهر الأولى للحرب.

بحلول نهاية شهر مارس سادت حالة من اليأس بين المسؤولين في إدارة العمال العرب في الهستدروت فيما يتصل بإمكانية استمرار اتصالات أو صداقات عربية - يهودية، في وقت صرح فيه أبراهام بن تزور (أحد مسؤولي الإدارة) خلال اجتماع عُقد في السادس والعشرين من شهر مارس أن القرى الموجودة على طول الحدود بين الدولتين المتوقعتين (اليهودية، وفلسطين العربية) يمكن أن تشكل «جسورا» للسلام والتعاون، مشيرا إلى ما قام به أحد المدرسين في خربة السركس كتجسيد محتمل لهذه الآمال. ومن جانبه تحدث إياهو أغاسي (مدير الإدارة) عن المنشورات التي يتم توزيعها في وادي حيفر ومنطقة سفوح جبال السامرة، وكذلك تلك الصادرة

عن لجنة الإمدادات اليهودية - العربية التي تعمل في وادي حيفر، ومع ذلك كان الطابع العام للاجتماع يميل إلى التشاؤم. وخلال اجتماع للمتابعة، عُقد بعد مرور أربعة أيام، تحدث المسؤولون بشكل غير واقعي عن إمكانيات التعاون العربي - اليهودي في مجالات السكك الحديدية ومحطات الراديو وتكرير الزيوت، في الوقت الذي سلموا فيه بأن التعايش اليهودي - العربي في الريف قد أخفق. وقد تركز انتباه المُجتمعين على المواقع التي لا يزال العرب يعيشون فيها في مناطق يهودية (وادي حيفر والمناطق المحيطة بالحديرا) وتم الإعداد لزيارة المدينة الأسبوع التالي. وفي هذا الخصوص ذكر إياهو أغاسي أنه «ربما قد توقف زيارتنا الهجرة الجماعية للعرب من المنطقة». ليس واضحا ما إذا كانت الزيارة قد تمت أم لا⁽¹⁸⁹⁾. ولكن الأمر الثابت هو أنه خلال أسبوعين قررت الهاغاناه (لأسباب إستراتيجية) عدم السماح ببقاء العرب في منطقة الخضيرة وتم طرد من كانوا يقيمون هناك. انظر الفصل الرابع).

بحلول نهاية شهر مارس نجحت عائلة الحسيني في إخماد الأصوات المعتدلة في المعسكر العربي، وتمكنت من بسط سيطرتها على غالبية عرب فلسطين. غرقت معظم البلاد في أتون الحرب، وكانت الهاغاناه - خاصة على الطرق - واقعة تحت ضغط كبير، فعلى حين ظل العمل بعدد قليل من اتفاقات الهدنة المحلية، سيطر على أغلب القرى العربية عناصر معادية لـ اليسوف، كما ظهرت في العديد منها وحدات نشطة من القوات غير النظامية. وحتى في الأماكن التي لم تكن فيها السيطرة للحسيني فضل القادة المحليون عدم إجراء أي تعاملات مع اليهود خوفا من عقابه. وقد انعكس ذلك على تصريحات بالمون خلال اجتماع لمديري الإدارة السياسية في الوكالة اليهودية؛ التي أوضحت أن الاتصالات مع العرب قد قُطعت بشكل تام تقريبا، وأنه «بصفة عامة يمكن النظر إلى العرب على أنهم متحدون وراء الحسيني... فالיום لا توجد تقريبا منطقة من البلاد نستطيع أن نتحدث فيها مع العرب، حتى فيما يتصل بالمسائل المحلية، من أجل تهدئة الأمور وإحلال السلم».

ذهب كل من بالمون ودانين إلى أن الموقف السائد آنذاك كان، إلى حد كبير، نتاجا لأعمال عسكرية لم يتم التفكير فيها بشكل جيد، وردود أفعال مبالغ فيها، فبشكل عام تجاهل القادة العسكريون الخبراء في الشؤون العربية سواء كان ذلك

الموجة الأولى: النزوح العربي...

على المستوى الوطني أو في كل من المواقع على الصعيد المحلي. وأضاف بالمون أن الموقف كان صعبا إلى حد أنه ربما يواجه اليشوف في المستقبل صعوبة في «إثبات أننا لم نكن المعتدين»، باستثناء منطقة القدس التي كان واضحا أن العنف فيها جاء بمبادرة من الجانب العربي. ومن جانبه أضاف دانين: «أنه» كنتيجة للعديد من عمليات الهاغاناه غير الضرورية والتي ضربت بشكل رئيسي العرب «الأخيار» الذين كانوا على اتصال معنا... استمرت الهجرة الجماعية العربية من كل الأماكن، لأن العرب - ببساطة - فقدوا الثقة [بحسن نوايانا؟]».

أدى الموقف السابق إلى انخفاض معنويات العاملين في قسم الشؤون العربية بالإدارة السياسية، التي كانت مهامها تعكس نوعا من الازدواجية: إجراء اتصالات لصنع السلام؛ وجمع المعلومات الاستخباراتية. وأوضح دانين أنه إذا ما استمرت الأمور على ذلك النحو «فإن ذلك قد يقود إلى توقف القسم عن العمل». ومن جانبه ذكر ياكوف شيموني، الذي شغل منصب رفيع في القسم، أن قادة الهاغاناه قد توصلوا إلى نتيجة مفادها «الحرب هي الحرب؛ ولا توجد إمكانية للتمييز بين العرب «الأخيار» والعرب «الأشرار»⁽¹⁹⁰⁾.

المرحلة الأولى من النزوح

ديسمبر 1947 - مارس 1948

أدت أعمال القتال خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 إلى بداية الهجرة الجماعية للعرب الفلسطينيين، ولبحث ذلك سنتناول في مرحلة أولى مجريات الأمور في المدن، لننتقل بعد ذلك إلى الريف.

المدن

حيفا

تضمن قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة ضم مدينة حيفا (التي كان يقطنها 65 ألف عربي، و70 ألف يهودي، وبلدية مشتركة) إلى الجزء المخصص للدولة اليهودية، الأمر الذي أصاب - بلا شك - سكانها العرب بالإحباط. وبدأت هجرتهم الجماعية في مطلع شهر ديسمبر 1947، مع اندلاع القتال. وفي هذا الصدد نقلت

وحدة للاستخبارات البريطانية أن كلا من العرب واليهود كانوا يقومون بإخلاء نقاط التماس بين الجماعتين، ويتحركون إلى مناطق مجاورة أكثر أمناً. وقد علق قائد الوحدة (الذي ركز بشكل مثير للاهتمام على تحرك الجانب اليهودي أكثر من الطرف العربي) على ذلك قائلاً: إن تلك التنقلات المبدئية للسكان «تقود المرء إلى التأمل في الحجم المحتمل الذي يمكن أن تأخذه هذه المشكلة خلال عملية تطبيق قرار التقسيم». وقد حدثت أول عملية في هذا الصدد في الرابع من شهر ديسمبر، حيث تم إجلاء 250 عائلة عربية من حي الحليصة في الرابع من ديسمبر⁽¹⁹¹⁾، وهو أول رحيل جرى رصده. وقد أشار القسم العربي في جهاز استخبارات الهاغاناه في العاشر من الشهر نفسه إلى وجود «عملية إجلاء تتم في مناخ من الهلع من مناطق الحدود (العربية) المجاورة»⁽¹⁹²⁾. فالتخلي عن الدار وما يتضمنه من كسر لحاجز نفسي رئيسي يهدد الطريق لتخلُّ محتمل عن القرية أو المدينة، وعن البلاد في نهاية المطاف. وفي الحادي عشر من ديسمبر سجل كل من داني وبنامون بداية الفرار من يافا. وقد كانت معظم تحركات العرب خروجاً من المدينة تعود إلى القتال (وما صاحبه من أعمال قنص وقصف بالقنابل)، والخوف من أعمال الحرب التي صبغت الحياة في المناطق الحدودية. ولم يُكره إلا عدد قليل من العائلات المسيحية (عبر تهديدات وأوامر الإرغون) التي كانت تعيش داخل أو في أطراف المناطق اليهودية في جبل الكرمل على ترك منازلهم في منتصف الشهر⁽¹⁹³⁾. وبحلول الثالث والعشرين من ديسمبر، نقل جهاز استخبارات الهاغاناه أن «الوضع الاقتصادي في يافا سيئ، وأن ما بين 15 و20 ألف عربي، خاصة من حوران [في سورية] ومصر، فضلاً عن الأغنياء، قد غادروا المدينة. أغلقت العديد من المحال والمؤسسات التجارية ... وطلبت اللجنة العربية العليا من اللجنة الوطنية في حيفا التوقف عن القتال... يعيش المسيحيون في يافا في خوف من المسلمين...»⁽¹⁹⁴⁾.

أسست اللجنة الوطنية في يافا في أوائل شهر ديسمبر (الثاني أو الثالث من الشهر) وضمت 14 عضواً برئاسة المسلم رشيد الحاج إبراهيم، والذي استمر في موقعه حتى توقف اللجنة عن العمل وزوالها في أواخر شهر إبريل 1948، وقد كشف خطاب سبق أن وجهه رشيد حاج إبراهيم إلى الحسيني، خلال شهر مايو 1947، عن عدائه الشديد للصهيونية، بل وحتى معاداته للسامية؛ حيث كتب:

الموجة الأولى: النزوح العربي...

أضحى يهود أوروبا رموزاً «للانحطاط والغش». ويواجه «العالم العربي التدمير [لأن]... اليهود يريدون الاستيلاء على مصر لأن موسى قدم منها»...، ولبنان وسورية «لأنهم بنوا المعبد من أشجار الأرز، ويريدون العراق لأن جدهم إبراهيم جاء من هناك، كذلك فإنهم يشعرون بأن لديهم الحق في الحجاز لأن إسماعيل جاء منها، ويطالبون بشرق الأردن لأنها كانت جزءاً من فلسطين ومملكة سليمان». وتنبأ، بدقة إلى حد ما، بأنه إذا ما قامت دولة يهودية في فلسطين فإنها ستؤسس قوة بحرية وجوية ضخمة، وتنتج أسلحة نووية تُرهب بها العالم العربي⁽¹⁹⁵⁾. وعلى الرغم من ذلك، فقد جسد إبراهيم، منذ بداية القتال في شهر ديسمبر 1947، الاعتدال وعمل من دون كلل بهدف التوصل إلى وقف إطلاق نار في حيفا.

شن عملاء الحسيني والقوات غير النظامية هجمات متقطعة على اليهود، بدءاً من السابع من ديسمبر 1947، من خلال عمل كمائن لحركة السير عبر وادي رشميا، ومنذ ذلك الحين حدثت عمليات تبادل لإطلاق النار بشكل شبه يومي على طول خط التماس بين الطرفين كان العرب هم الطرف البادئ بها في أغلب الأحيان. ومنذ الحادي عشر من الشهر ذاته بدأ الإرغون في إلقاء القنابل على أماكن التجمعات العربية والحافلات. ووقع أول رد انتقامي من قبل الهاغاناه ضد قرية بلد الشيخ، شرق حيفا، في الثاني عشر من الشهر، مما أسفر عن سقوط ستة قتلى عرب؛ وتبعته أعمال أخرى ضد الطيرة والحواصة، وبحلول نهاية الشهر، كان أغلب سكان الحليصة قد تم إجلاؤهم وبقي عدد ضئيل للغاية من الرجال لحراسة الجوار، وانطبق الوضع نفسه على وادي رشميا، الذي تم إخلاؤه بشكل كامل تقريباً. وقد انتقل غالبية السكان إلى أطراف مدينة حيفا الرئيسية التي يقطنها العرب (وادي النسناس، ووادي صليب) في حين قررت بعض العائلات مغادرة البلاد. وأعلن أن القنصليتين اللبنانية والسورية في يافا قد أصدرتا ثمانية آلاف تأشيرة دخول خلال شهر ديسمبر، وأن «العديد من الآلاف غادروا [بلادهم] من دون تأشيرات أو جوازات سفر»⁽¹⁹⁶⁾.

رجعت عمليات الهروب في بعض جوانبها إلى التدهور السريع في الوضع الاقتصادي، حيث قفز سعر كيس الطحين خلال شهر ديسمبر من 1.750 إلى 6.500 جنيه إسترليني، «بل وكان من الصعب الحصول عليه حتى بهذا السعر. وأغلقت معظم المحال أبوابها طوال اليوم، وكذلك سوق الخضراوات، وتوقفت وسائل النقل

العامّة عن العمل بشكل كامل تقريباً»⁽¹⁹⁷⁾. لقي 105 من العرب حتفهم خلال العنف الذي شهدته هذا الشهر في حين أصيب 248 بإصابات خطيرة.

عملت اللجنة الوطنية المحلية منذ البداية على التصدي لعملية الهجرة الجماعية وسعت إلى إيقافها. ففي السادس من ديسمبر منع إبراهيم أعضاء اللجنة مغادرة المدينة من دون تصريح مسبق⁽¹⁹⁸⁾، وأصدر في الرابع عشر من الشهر ذاته تحذيراً من الهجرة الجماعية⁽¹⁹⁹⁾. وقد سبقت ذلك بخمسة أيام مناشدة اللجنة الوطنية للجنة العربية إصدار توجيهات للفلسطينيين بعدم المغادرة من دون تصريح من اللجان الوطنية التي تتبع لها⁽²⁰⁰⁾.

دفع هذا الموقف اللجنة الوطنية، ممثلةً في السيد أحمد بيه خليل (أحد كبار القضاة)، وعمر طه، إلى السعي وراء توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار مع الهاغاناه في الثامن والعشرين من ديسمبر 1947⁽²⁰¹⁾، ولكن الاتفاق لم يدم إلا ساعات قليلة. ففي صباح 30 ديسمبر ألقى عنصر مسلح من الإرغون قنابل على تجمع للعرب حول بوابة مصفاة تكرير البترول في حيفا، مما أسفر عن مقتل ستة أشخاص وإصابة ما يقرب من خمسين آخرين. وعلى الفور بادر حشد من العمال العرب، يدعمهم الناجون من الانفجار، بمهاجمة زملائهم من العاملين اليهود بالهراوات والحجارة والسكاكين، مما أدى إلى مقتل 39 يهودياً وإصابة 11 بإصابات خطيرة خلال هذه المذبحة التي استمرت ساعة⁽²⁰²⁾.

شنت الهاغاناه عملية ثأرية قوية ليلة الحادي والثلاثين من ديسمبر 1947 - الأول من يناير 1948 من خلال الإغارة على قرיתי بلد الشيخ والحواسة اللتين كان يعيش فيهما العديد من عمال محطة التكرير. وتضمنت التعليمات الصادرة للوحدات المشاركة في العملية «قتل أقصى عدد ممكن من البالغين من الذكور»⁽²⁰³⁾. وبالفعل دخلت الوحدات إلى وسط القرية مطلقة النيران على المنازل، ومدمرة إياها بعد اقتياد الذكور خارجها، وإطلاق النار عليهم. ووفقاً لمصادر الهاغاناه، «اضطرت الوحدات الغازية إلى عدم الالتزام بالتوجه الذي تم الاتفاق عليه... وعمدت في حالات قليلة إلى إلحاق الأذى بالنساء والأطفال»، بعد أن تم إطلاق النار عليهم من داخل المنازل. وفي حين قُتل عنصران وأصيب آخرون من عناصر الهاغاناه، فإن التقارير الصادرة عن الأخيرة تباينت في تقدير الخسائر العربية لتشير إلى «مقتل

الموجة الأولى: النزوح العربي...

70 عربياً⁽²⁰⁴⁾، أو مقتل 21 (بينهم امرأتان وخمسة أطفال) وإصابة 41⁽²⁰⁵⁾. وقد حدثت تلك الغارات عديداً من العائلات على الفرار من كلتا القريتين إلى نابلس، وجنين، وعكا⁽²⁰⁶⁾.

انتقدت لجنة دفاع اليشوف هذه الغارات؛ حيث ذهب ريفتن إلى القول إن العديد من عمال مصفاة التكرير لم يشاركوا في المذبحة، وإن عدداً قليلاً منهم قام بحماية اليهود، أما الغارات على بلد الشيخ والحواسة فقد نُفذت من دون أي تمييز، «ولا تتوافر أي معلومات حول من أصيبوا». فضلاً عن ذلك فإن الحادث قد وقع كنتيجة لهجوم بالقنابل دبره الإرغون. وفي المقابل رد بن غوريون على ذلك بالقول إنه: «كان من المستحيل التمييز، فإننا في حرب، وخلال الحروب لا يمكن للمرء أن يميز بشكل فردي، فإذا كان من الممكن التمييز بين القرى فإن ذلك لا يمكن القيام به فيما يتصل بالأفراد»⁽²⁰⁷⁾.

غداة هذه السلسلة من العنف، سعت اللجنة الوطنية إلى إعادة العمل بوقف إطلاق النار. حيث توقف أغلب العمال اليهود والعرب عن الذهاب إلى العمل في مناطق العمل المختلطة بما في ذلك البلدية. وبناءً على مبادرة من العرب سُكّلت «لجنة أمن» (تضم ثلاثة ممثلين عن كل طرف) في المكاتب الحكومية ومرافق البلدية والمحاكم. كذلك فإنه خلال لقاء عُقد في الثاني من شهر يناير مع ممثلين عن الهاغاناه، ذكر أعيان عرب، ومن بينهم أحمد بيه خليل، أنهم أصدروا أوامر لتجنب وقوع أحداث جديدة على غرار ما حدث في مصفاة التكرير. كما أعلن رشيد الحاج إبراهيم أن «العرب معنيون بالهدوء في حيفا...»⁽²⁰⁸⁾. كانت اللجنة الوطنية راغبة في التوصل إلى «هدنة طويلة الأمد»⁽²⁰⁹⁾. غير أن الناشطين العرب والسياسيين الموالين للحسيني (من قبيل نمر الخطيب، وحسن شيبالك، وكلاهما عضو في اللجنة الوطنية لحيفا) استمروا في تأجيج العنف⁽²¹⁰⁾. وكان نصب الأكملة وتبادل إطلاق النار من المشاهد المتكررة يومياً. وفي أعقاب الهجوم بالقنابل على حافلة ركاب (أسفر عن إصابة أربعة أشخاص)، أقدمت الهاغاناه على تدمير منزلين ومرآب للسيارات، وأطلقت قذائف الهاون ونيران القناصة في المناطق العربية المجاورة، الأمر الذي أسفر عن مقتل العشرات، من بينهم نساء وأطفال، فضلاً عن مصرع قائد المليشيا محمد حجاوي، ونائب رئيس البنك الأهلي محمد كنفاني⁽²¹¹⁾. وتوقفت وسائل النقل

العام العربية عن العمل، في الوقت الذي ساد فيه نقص المواد التموينية، واستمر الهروب من المدينة⁽²¹²⁾. وتوقفت الأعمال التجارية، وأقدم أصحاب المحال على بيع ما لديهم من مخزون لليهود بتخفيض قيمته 25 في المائة من الثمن حتى يتمكنوا من الإغلاق بشكل سريع⁽²¹³⁾.

على الرغم من إقدام البريطانيين - الذين مثلت حيفا بالنسبة إليهم نقطة محورية لتنفيذ خططهم للانسحاب - على تكثيف دورياتهم مما أدى إلى تهدئة الأوضاع، كان من شأن العمليات الانتقامية التي شنّها اليهود النّيل من معنويات العرب الذين شعروا بمرارة إثر اكتشافهم «الميزة الطبوغرافية التي تمتع بها اليهود (من خلال وجودهم في أعالي جبل الكرمل)، وتفوقهم في مجال التنظيم والسلاح والمعدات»⁽²¹⁴⁾. ووفقاً لنمر الخطيب: «شعر عامة العرب في حيفا بضعف موقف المدينة، وبدأ عدد من المقيمين في الرحيل من المدينة، مما كان له وقع شديد على عزيمّة أولئك الذين قرروا البقاء»⁽²¹⁵⁾.

في الثامن عشر من يناير عاد رشيد الحاج إبراهيم من زيارة إلى دمشق تم خلالها إقرار موقفه المبدئي المؤيد للتوصل إلى هدنة. فقد أخبر أعضاء اللجنة الوطنية أن طه الهاشمي (المفتش العام لجيش الإنقاذ) أيد موقفه في «الامتناع عن القيام بأي أعمال»، أخذاً في الاعتبار التفوق الذي تتمتع به الهاغاناه في المنطقة. كما أوضح أنه خلال لقاء إبراهيم مع كل من الهاشمي ووزير دفاع سورية ورئيسها وافق الجميع على «المسار الذي حددناه للعمل...، وركز الهاشمي على أنه يلزم التجنب التام للمواجهات في حيفا، وأن على العرب التصرف فقط بطريقة دفاعية». وفي المقابل فشل إبراهيم في الحصول على موافقة مماثلة من المفتي على وقف إطلاق النار، وهو ما دفعه إلى اقتراح إرسال وفد إلى القاهرة لمحاولة استمالة المفتي⁽²¹⁶⁾. وقد هيمنت على اجتماع اللجنة الوطنية محادثات حول المعاناة العربية والهجرة⁽²¹⁷⁾. وعبرت اللجنة عن «اقتناعها بأن حيفا تحتاج إلى الهدوء، أو على الأقل ألا تكون في قمة جهود الحرب العربية، وأنه من المصلحة المحافظة على السلام في حيفا لأطول فترة ممكنة»⁽²¹⁸⁾.

في تلك الأثناء تجددت الاتصالات بين خليل، وبرفقته عمر طه، مع ممثلي الجماعة اليهودية ياكوف سولومون ونفتالي ليفشيتز. وفي حين طلب سولومون

الموجة الأولى: النزوح العربي...

الإعلان عن التوصل إلى اتفاقية واضحة، ذكر خليل أن اللجنة قررت إرسال وفد بقيادة رئيس أسقف الكنيسة اليونانية الكاثوليكية جورج حكيم للمفتي إلى المفاتي - والتهديد بالاستقالة إذا ما استمر رجال المفتي في تحدي إرادة اللجنة ومواصلة الهجمات⁽²¹⁹⁾. وفي تلك الأثناء بدأت هدنة فعلية على أرض الواقع.

توجه حكيم بصحبة كل من الشيخ عبدالرحمن مراد (زعيم الإخوان المسلمين في حيفا) ويوسف صهيون (أحد مناصري الحسيني) إلى القاهرة في العشرين من يناير؛ وطبقا لجهاز استخبارات الهاغاناه، طلب رشيد (الحاج إبراهيم) أن يشرح الوفد للمفتي حقيقة أن العديد من قادة المدينة يرغبون في الرحيل إن لم تصدر أوامر صريحة بوقف أعمال العنف في المدينة، وأنه في حال عدم قبول الأسباب والحجج التي يقدمونها فإنهم سيغادرون البلاد، وهذا ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى تفرغ حيفا العربية من سكانها القدامى⁽²²⁰⁾.

اتسم رد فعل الحسيني على تلك المناشدة بعدم الوضوح، وعلى الأرجح كان هذا الغموض متعمدا. ووفقا لأحد مرشدي الهاغاناه، أوضح المفتي أن المشكلة كانت وطنية وليست محلية، وأنهى الاجتماع باقتراح أن الكفاح العربي ضد اليهود والبريطانيين «يمكن أن ينتهي بتدمير نصف العرب في فلسطين». تمثل مضمون ذلك في أنه يعارض وقف إطلاق النار، وأنه كان مشبعا بمشاعر «تنم على تأييده المطلق للحرب ضد اليهود إلى نهايتها القصوى مهما كانت مريعة أو مهلكة، وقد تركز تفكيره بشكل كامل على كيفية استثمار الشعوب العربية للوصول إلى هذه النتيجة...، فبالنسبة إليه ليس هناك مكان لمفاوضات»⁽²²¹⁾. وقد تمثلت نصيحته العملية الوحيدة للوفد في «إبعاد النساء والأطفال عن مناطق الخطر للتقليل من عدد الضحايا»⁽²²²⁾.

تماشت هذه النصيحة مع الخط العام الذي تبنته اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية التي اجتمعت في صوفر بلبنان في شهر سبتمبر 1947 للإعداد للقتال المتوقع اندلاعه في فلسطين. تبنت اللجنة بالإجماع قرارات علنية ناشدت البلاد العربية «فتح الأبواب لاستيعاب ورعاية الرضع والنساء والشيوخ من عرب فلسطين - في حال وقوع أحداث في فلسطين تتطلب ذلك»⁽²²³⁾. واستند هذا الموقف إلى سببين رئيسيين: محاولة تجنب وقوع قتلى ومصابين في صفوف العرب غير المحاربين؛

وتجنب الاعتداء على النساء، وهي رغبة عميقة الجذور في الأعراف والتقاليد العربية⁽²²⁴⁾، فضلا عن تخليص الذكور البالغين من عبء المعالين الذين يؤدي وجودهم في مناطق القتال إلى إضعافهم في ميدان المعركة. وكما اتضح في النهاية أدت تلك الإرشادات التي تم تبنيها خلال الأشهر الأولى من الحرب (على الرغم من أنه لم يتم العمل بها إجمالا خاصة في المدن) من قبل اللجنة العربية العليا واللجان الوطنية المختلفة وزعماء القرى إلى المساعدة في إطلاق عنان الهجرة الجماعية من فلسطين. وكما سنرى لاحقا، فإنه خلال الحرب الأهلية، وأيضا في بعض المناطق خلال الحرب التقليدية التي أعقبتها، قامت العشرات من القرى، سواء بتوجيهات من اللجنة العربية العليا، أو اللجان الوطنية، أو حتى من تلقاء نفسها، بترحيل النساء والأطفال والشيوخ. وأهمية عمليات الإجلاء، التي حظيت بتأييد وشرعية بناءً على موافقة الدول العربية والمؤسسات التي كانت تتولى حكم الفلسطينيين، لا تحتاج إلى المبالغة فيها. فمن خلال تقديم نموذج للسلوك يؤكد على تأمين بقاء الذات، كان لإجلاء المعالين تأثيرٌ محبط على الرجال الذين بقوا في الخلف للقتال أو حماية القرى والمدن، وأدى في الوقت نفسه إلى تآكل دوافعهم للبقاء والقتال، ففي النهاية لم يعد هؤلاء يحمون عائلاتهم.

خلال الاجتماع المشار إليه بادر الحسيني بتسليم الوفد خطابا يتضمن تعليمات للجنة الوطنية «لمعارضة الهجرة الجماعية للعائلات من حيفا، ولتجنب الذعر والارتباك، وإصدار نداء لأولئك الذين غادروا يطالبهم بالعودة»⁽²²⁵⁾، كذلك وافق المفتي - على الأقل - على هدنة مؤقتة، لأن «العرب كانوا في حاجة إلى إمدادات... وأساسا لأن البريطانيين مازالوا في حيفا والعرب لا يريدون الصدام معهم»⁽²²⁶⁾. وعلى الأرجح فإن الحسيني تعمد التضارب في رسالته؛ حيث قال الشيء ونقيضه، أو ذكر أشياء مختلفة لكل من حكيم ومراد.

عقب عودة الوفد إلى حيفا في السادس والعشرين من يناير، تجنب حكيم الاتصال مع اليهود أياما، كما أن اللجنة الوطنية لم تتمكن من الاتفاق على خط واضح، سواء كان مؤيدا أو معارضا للهدنة، الأمر الذي عكس من الناحية العملية التضارب الذي تضمنه موقف الحسيني. ومن جانبه، أخبر مراد صحافيين أن الوفد قد سافر فقط لطلب عتاد ورجال؛ وأنه «لم تكن هناك مفاوضات، ولن تكون هناك

الموجة الأولى: النزوح العربي...

مفاوضات، تسعى إلى تحويل حيفا إلى مدينة غير محاربة، وأن «اللجنة الوطنية لحيفا ليست سوى فرع للجنة العربية العليا»، وهو ما عني بشكل ضمني أن المفتي سيهيمن على قرار اللجنة، وأنه يريد للعنف أن يستمر⁽²²⁷⁾.

وقد استخلص كل من سولومون وليفشيتز، اللذين اجتمعا في نهاية المطاف مع أعيان المدينة، من أرازي المعلومات، حيث عبر عن اعتقاده أن الهدنة الواقعية لن تستمر طويلا، وأن معنويات العرب قد ارتفعت في أعقاب دخول وحدات من جيش التحرير العربي إلى فلسطين. فضلا عن أن اللجنة الوطنية ستقوم بالحفاظ على حالة الهدنة فقط حتى تصبح المليشيات العربية أقوى، أو لحين الانسحاب البريطاني، ولكن ليس بعد ذلك⁽²²⁸⁾. كما أن الجماعات المسلحة ستستمر في عملها من دون تفويض من اللجنة الوطنية. أما فيما يتصل بمسيحيي حيفا فإنهم كانوا مثبطي العزيمة. ونتيجة لعدم توصل اللجنة الوطنية إلى قرار بإنهاء العنف، «بدأ المسيحيون الأغنياء الإعداد للرحيل من حيفا، وكان في مقدمتهم التاجر أمين صهيون الذي نقل عائلته وحمل أثاث منزله في شاحنتين كبيرتين إلى لبنان. وفي اليوم ذاته أفصح العديد من المسيحيين عن نيتهم عدم البقاء في المدينة مادامت عصابات الشيخ عمر الخطيب مستمرة في حكمها»⁽²²⁹⁾.

خلال شهر يناير وبداية شهر فبراير ساءت الأحوال الاقتصادية لمدينة حيفا بشكل كبير:

بقي المئات من العاطلين عن العمل في المنازل نتيجة إغلاق مصفاة التكرير، وأيضا خوفا من الذهاب إلى العمل في أماكن أخرى. زادت نفقات المعيشة وأصبح من الصعب الحصول على الدقيق أو الخبز. وترتب على الهجرة الجماعية من المناطق المجاورة للحدود إفراغ حي الحليصة وجزء من وادي صليب من السكان... أما فيما يتصل بالمسيحيين فإنهم يرفضون توظيف حراس من الخارج [خارج المدينة]... وبدأ الناس في مقايضة السلع مقابل الدقيق⁽²³⁰⁾.

استمرت سوق الخضراوات مغلقة، أغلقت المحال الكبيرة أبوابها لمغادرة مالكيها المدينة، أما فيما يتصل بالمحلات الصغيرة ومحلات البقول فاقتصرت مدة عملها على ساعات محدودة في اليوم.

كانت شوارع يافا شاغرة تماما، ولم يكن هناك إلا تاجران مسيحيان يبيعان
ما تبقى من بضائعهما تمهيدا للرحيل إلى لبنان. وانعدمت مواد البناء...
وانخفضت فترة عمل مصنع قرمان [للتبغ] إلى ثماني ساعات في اليوم مقابل
ست عشرة ساعة في الفترة التي سبقت اندلاع الاضطرابات⁽²³¹⁾.

ظلت القوات غير النظامية خارج نطاق السيطرة، وبادرت بشن هجمات على
أهداف يهودية، الأمر الذي استتبعه أعمال انتقامية من قبل الهاغاناه - وهو ما ولد
مزيذا من عمليات الهروب - كما تزايدت التوترات بين المسيحيين والمسلمين نتيجة
لغضب المسيحيين من مواقف الأعضاء المتشدددين في اللجنة الوطنية من قبيل نمر
الخطيب، الذي نعتهم «بالخونة وسماسة اليهود»⁽²³²⁾. وهو الاتهام الذي لم يخلُ
من جانب من الحقيقة، فكما أوضح يوسف سليم، أحد الأعيان المسيحيين في مطلع
شهر مارس:

على اليهود أن يفكروا مليا قبل أن يدفعوا بالجماعة المسيحية في غمار
الصراع بينهم والعالم الإسلامي... كما أن عليهم أن يميزوا بين ممتلكات المسيحيين
وتلك الخاصة بالمسلمين [وألا يدمروا منازل المسيحيين]... فالجماعة المسيحية
مازالت غير متعاونة مع العدوان المسلم...⁽²³³⁾.

بحلول شهر مارس انخفضت الروح المعنوية لدى المسيحيين بشكل رئيسي
بسبب دخول القوات غير النظامية الأجنبية (المسلمة) للمناطق المجاورة لهم، وما
استتبعه ذلك من هجمات شنتها الهاغاناه، مما أدى إلى «فرار كل عائلة قادرة على
الرحيل إلى لبنان»⁽²³⁴⁾. في حين بدأت بعض العائلات في إرسال أطفالها بعيدا، ووفقا
لجهاز استخبارات الهاغاناه فإنه مع بداية شهر فبراير أمرت اللجنة العربية العليا
بإبعاد النساء والأطفال عن حيفا، مشيرة إلى أن ترتيبات تُجرى لنقلهم إلى لبنان
وسورية⁽²³⁵⁾. وأقرت اللجنة الوطنية ذلك في الثالث والعشرين من مارس، مناشدة
اللجنة العليا الإسراع في عملية النقل⁽²³⁶⁾. وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه
كان قد تم إجلاء قرابة 150 طفلا «أغلبهم من المسيحيين» إلى دير في لبنان⁽²³⁷⁾.
وبلغ عدد المسجلين على قوائم الإجلاء، في منتصف شهر مارس، 2000 شخص،
وترددت معلومات في الأيام التالية تفيد بأنه «بناء على تعليمات اللجنة العربية

الموجة الأولى: النزوح العربي...

العليا سيتم إجلاء النساء والأطفال والشيوخ من حيفا»⁽²³⁸⁾. وبالفعل غادرت قافلة مكونة من 15 سيارة، من بينها سبع حافلات، حيفا في الخامس من أبريل في طريقها إلى بيروت وكان أغلب الأطفال على متنها، إن لم يكن كلهم، من المسيحيين⁽²³⁹⁾، وربما غادرت في الوقت ذاته قافلة ثانية، شملت 200 طفل أغلبهم من المسلمين، توجهت إلى دمشق⁽²⁴⁰⁾. ومع ذلك فإنه يمكن القول إجمالاً إنه تم إجلاء نسبة ضئيلة من أطفال حيفا قبل سقوطها أو التخلي شبه التام عنها بعد مرور ثلاثة أسابيع⁽²⁴¹⁾؛ وقد ساهمت مجموعة من العوامل في ذلك، من بينها: الخلاف بين مسؤولي اللجنة العربية العليا في القدس والمفتي واللجنة الوطنية؛ الصعوبات التنظيمية؛ الافتقار إلى التمويل ونقص الكفاءة؛ التنافس المسلم - المسيحي؛ وتردد الآباء والأمهات تجاه فراق أبنائهم⁽²⁴²⁾. وفي الوقت الذي تضمنت فيه تعليمات الحسيني إجلاء غير المقاتلين فقط إلى مناطق داخل فلسطين وليس خارج البلاد، تجاهل حكيم واللجنة الوطنية في حيفا تلك التعليمات⁽²⁴³⁾. وقد لعب كل من حكيم، ومريم خليل (شقيقة أحمد بيه خليل) وسحر ناصر (التي تزعمت منظمة تحت مسمى النساء العرب) دوراً بارزاً في هذا الخصوص.

شهد شهراً فبراير ومارس اندلاعاً متكرراً للقتال وهجمات شبه يومية من قبل العرب على وسائل النقل، فضلاً عن قيامهم بأعمال قنص⁽²⁴⁴⁾، الأمر الذي أعقبته أعمال انتقامية من قبل الهاغاناه أوقعت خسائر كبيرة في صفوف السكان، وأدت إلى انخفاض الروح المعنوية بينهم. وقد تميزت الهجمات اليهودية بكونها أكثر فعالية وفتكاً⁽²⁴⁵⁾. وبصفة خاصة تلك التي استخدم فيها مدافع الهاون. وعلى سبيل المثال، ذكر أن قذيفة هاون اخترقت منزلاً عربياً «وأسفرت عن مقتل قاطنيه بمن فيهم امرأة وطفلان»⁽²⁴⁶⁾. وفي بعض الأحيان بلغ الذعر حداً كبيراً كان يصعب معه على العرب الراغبين في الرحيل الحصول على شاحنات لاستئجارها، وقام البعض بدفع مبلغ 50 جنيهاً إسترلينياً لنقلهم إلى مدينة الناصرة⁽²⁴⁷⁾. وأورد جهاز استخبارات الهاغاناه أنه «بشكل يومي كان هناك العشرات من العائلات تغادر المدينة، وتخلو مئات المساكن من قاطنيها»، وذلك على الرغم من أن المساكن المهجورة كان يتم نهبها على الفور من قبل المليشيات والمدنيين⁽²⁴⁸⁾. وقد أصدرت اللجنة الوطنية - على نحو متكرر - بيانات تندد بمن يقومون بأعمال السلب «والذين يستغلون

الموقف لمصلحتهم»⁽²⁴⁹⁾، ولكن لم يفلح أي شيء، بما في ذلك التحذيرات التي أصدرها القائد البريطاني للمنطقة لإبراهيم والتي عبر فيها عن أنه:

يدين بشدة المستوى المتزايد لعملية إخلاء المنازل في حيفا من سكانها
وتحويلها بعد ذلك إلى نقاط حصينة... موضحا أنه إذا ما توافر له الاقتناع في
المستقبل بأن تلك المباني يتم استخدامها لإطلاق النار على قوات الأمن البريطانية،
فإنه ينوي إصدار الأوامر بتدميرها⁽²⁵⁰⁾.

على الرغم مما تقدم استمرت عملية هجر العرب لمنازلهم، ونهبها والاستيلاء
عليها من قبل العناصر غير النظامية. وعلى سبيل المثال، نقلت استخبارات الهاغاناه
أن السكان اليونانيين والأرمن في كريات إياهو تلقوا أوامر من العرب «بالرحيل إلى
المناطق المجاورة «مدة أسبوعين»⁽²⁵¹⁾.

مع تعاقب الأشهر تزايدت العمليات الانتقامية التي تشنها الهاغاناه، سواء من
حيث الحجم أو فيما يتصل بالخسائر التي نجمت عنها. ففي نهاية شهر فبراير
أدخل عناصر من البالماخ سيارة تحوي «300 كجم من المتفجرات» في مرآب عربي
للسيارات اشْتُبِه في كونه ورشة لصناعة الأسلحة، وأسفرت العملية عن قتل وجرح
العشرات⁽²⁵²⁾. كذلك أغارت وحدة من الهاغاناه على وادي النسناس في ليلة 4 - 5
مارس، مُحَمَلة بأوامر تقضي «بقتل البالغين من الرجال»، كما اقتحمت العديد من
المنازل ودمرت أثاثاتها باستخدام قنابل المولوتوف، وأصابت ثلاثين رجلا «قُتل من
بينهم 19 بشكل مؤكد»⁽²⁵³⁾. أيضا أوقعت الهاغاناه - في كمين في السابع عشر من
مارس - قافلة أسلحة تصطحبها عربات تابعة للجيش العربي، وقد أسفر ذلك عن
مقتل العشرات من العرب (واثنين من البريطانيين العاملين معهم) من بينهم محمد
بن حمد الحنيطي، القائد الأردني لمليشيا حيفا، قتل في الحادث نفسه اثنين من عناصر
الهاغاناه وأصيب اثنان آخران⁽²⁵⁴⁾. وأعقب ذلك توجيه الهاغاناه ضربات قوية إلى
مدينة حيفا ذاتها، مما أدى إلى تدهور كبير في معنويات العرب⁽²⁵⁵⁾. ومجددا عادت
طوابير الجماهير إلى الاصطفاف أمام كل من قنصليتي لبنان وسورية، ولكن جموع
المنتظرين أخطروا بأن الدخول إلى هاتين الدولتين «ممنوع». كما رُفض منح تأشيرات
حتى للأشخاص الذين قدموا وثائق طبية تثبت مرضهم⁽²⁵⁶⁾.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

أصدر الجنرال صفوت - الذي تولى مسؤولية القوات العربية في فلسطين بشكل غامض - أوامره لقائد منطقة حيفا بمهاجمة أهداف يهودية في الكرمل والمستوطنات اليهودية المحيطة بها، بهدف تخفيف الضغط على العرب في المناطق المجاورة⁽²⁵⁷⁾. بدت الأوامر غير واقعية؛ حيث إن المليشيات العربية كانت بالكاد قادرة على الدفاع عن أنفسها، فما بالك بالقدرة على العمل الدفاعي بشكل متناغم. ومن جانبهم جدد الأعيان، بزعامة حكيم، مساعيهم للتوصل إلى هدنة، بيد أن قادة الهاغاناه (وكذلك بن غوريون) لم يأبهوا بذلك، معللين موقفهم بأن الهدنة لن يتم احترامها من قبل العناصر غير النظامية، وسيستثمرها العرب لتخزين السلاح. وفي كال الأحوال كانت حيفا مكانا تحظى فيه الهاغاناه باليد العليا، والتوصل إلى هدنة سيكون فقط لمصلحة العرب. وفي هذا الصدد دُون بن غوريون، على عَجَل، في مذكراته: «إن العرب لا يزالون يغادرون حيفا» - في إشارة إلى الرابطة بين معارضة الهاغاناه للهدنة، وفكرة أن الهدنة ربما تؤدي إلى وقف الهجرة الجماعية⁽²⁵⁸⁾.

شهد النصف الثاني من شهر مارس والأول من شهر أبريل مزيدا من التدهور في الحالة الاقتصادية للعرب. أضحى الأطباء يطلبون «على الأقل 1.5 جنيه إسترليني مقابل كل زيارة منزلية»⁽²⁵⁹⁾. (يلاحظ بشكل عام أنه مع بداية شهر أبريل ساد الشعور في أرجاء البلاد بوطأة هروب الأطباء، وقام كل من اتحاد الأطباء العرب واللجنة العربية العليا بمطالبة الأطباء الذين فروا بالعودة مهددين أولئك الذين لن يمثلوا بعقاب لم يتم تحديده)⁽²⁶⁰⁾. كذلك أضحى مواد من قبيل الدقيق والخبز أمرا نادرا. وصادت اللجنة الوطنية الكثير من الدقيق، المخصص من قبل السلطات البريطانية، لتقديمه للمليشيات. ووفقا لتقارير الهاغاناه: «رفض العديد من التجار تقديم جزء من دقيقهم لهذا الغرض، موضحين أن الغرباء (القوات غير النظامية الأجنبية) يلزم أن يتلقوا موادهم الغذائية من الدول المجاورة». وفر بعض أصحاب المخازن إلى صفد، وصادت اللجنة الوطنية مخابزهم. ومع ذلك استمرت عناصر المليشيات في الشكوى من «الجوع». وكانت القوات البريطانية تبيع السكر والقمح من مخازن الحكومة للعرب. وقد طالبت اللجنة الوطنية في جنين بتخفيض المخصصات التي تقدمها الحكومة البريطانية لعرب حيفا (الدقيق، البيض، السكر، الأرز) نظرا إلى أنه «لم يتبق فيها سوى ثمانية آلاف شخص». وهو ما دفع الحاج

إبراهيم إلى تحري الأمر، والتأكيد على أن المدينة مازال يقطنها «35 - 40» ألف ساكن عربي، وأن أغلب البضائع الأخرى كانت متوافرة⁽²⁶¹⁾. ويذكر أن مصانع التبغ (قرمان، ديك وسلطي)^(*) كانت قد نقلت معظم آلاتها إلى قبرص ومصر؛ وامتنع تجار مواد البناء عن فتح حوانيتهم؛ «حيث لم يكن هناك أحد يمكن البيع له». ووفقا لتقارير الهاغاناه، «انشغل الأغنياء (بما في ذلك كبار التجار) بتحويل أموالهم بالعملة الفلسطينية إلى ذهب أو دولارات لتحويلها إلى البلاد المجاورة»⁽²⁶²⁾. وتوقفت الهوائف عن العمل في المنطقة العربية نتيجة لقطع اليهود خطوطها⁽²⁶³⁾. وفي ضوء ما سبق توصلت لجنة الدفاع الاقتصادي التابعة للهاغاناه إلى نتيجة مفادها أن حيفا أضحت أبرز المدن العربية في مجال المضاربة وعدم القدرة على التنظيم الجيد (في مجال توزيع الغذاء)⁽²⁶⁴⁾.

ساهم النقص الغذائي، والإحساس بالضعف العسكري، والعزلة الناجمة عن وجود المستوطنات على الطرق الرئيسية المؤدية إلى المدينة بشكل رئيسي في انخفاض الروح المعنوية، الأمر الذي كان بدوره من بين دوافع الهجرة الجماعية في صفوف الطبقات العليا والمتوسطة؛ وهو ما ساهم فيه أيضا تلاشي القانون والنظام، حيث قامت العناصر غير النظامية بنهب وترويع السكان المحليين، وتخويف من تم إرسالهم للدفاع عنهم وفقا لما أورده نمر الخطيب الذي انتقد كل من العناصر غير النظامية والبريطانيين الذين لم يتخذوا أي إجراءات، وكذلك المدنيون الذين فروا مخلفين وراءهم منازل تشجع على نهبها⁽²⁶⁵⁾. «قامت عصابات السلب والنهب بتنظيم صفوفها... وفي شهر مارس أصبحت موجات السلب والسرقة أمرا متكررا في حيفا العربية... ومن يوم إلى آخر تنامي الشعور بأن عرب حيفا أضحوا على شفا الانهيار، وعمت مظاهر الفوضى والاضطراب كل شيء». تزايدت خطورة الموقف خلال ذلك الشهر نتيجة لعملية الفرار الجماعي لرجال الشرطة العرب، حاملين معهم أسلحتهم وذخائرهم⁽²⁶⁶⁾.

ارتبطت الهجرة الجماعية، من دون شك، بالأعمال الانتقامية التي شنتها الهاغاناه، والهجمات العربية وما أثارته من مخاوف من الأعمال الثأرية اليهودية

(*) أسست شركة التبغ (قرمان، ديك، وسلطي) في حيفا العام 1929، ويطلق عليها الفلسطينيون «فبركة الدخان». يعود اسمها إلى مالكيها: عائلة قرمان من نابلس، السلطي من صفد، والديك من حيفا [المحررة].

الموجة الأولى: النزوح العربي...

التالية، غير أنه بالنسبة إلى الشرائح الأكثر تعليماً، خاصة العاملين بالأجهزة الحكومية والمهنيين، كانت هناك اعتبارات أخرى على المدى البعيد دفعتهم إلى الهجرة، فوفقاً لإفرايم كريشر (أحد ناشطي حزب العمال - ماابام - المدنيين) كان هناك خوف عام من «ارتباك كبير» في المستقبل، مثل السبب الرئيسي وراء هذه المرحلة المبكرة للهجرة الجماعية، مضيفاً بالتحديد أن العاملين العرب في البلدية ومؤسسات الانتداب انتابهم الخوف من أنه «داخل الدولة اليهودية لن يكون لديهم أي فرصة للترقية في وظائفهم، وأن الأولوية ستُعطى لليهود». وقد دعمت من هذا الشعور حقيقة أن أغلب العرب العاملين في المصالح لا يتقنون الحديث بالعبرية بطلاقة⁽²⁶⁷⁾. بادرت الإدارة العربية في حزب العمال (ماابام) بتحليل الهروب من حيفا، مستندة بشكل جزئي على تقرير كريشر. وفي هذا الصدد لاحظت الإدارة أن العرب «أحسوا بمخاوف فيما يتصل بمستقبلهم»، سواء خلال المرحلة الانتقالية المتقلبة أو تحت الحكم اليهودي، كما تمت الإشارة إلى أنه من بين الذين هاجروا برز بشكل رئيسي «المسيحيون، والمهنيون، الموظفون الرسميون». ووفقاً للإدارة، بحلول مطلع شهر مارس كانت العديد من الأحياء المسيحية خالية من سكانها بشكل «شبه تام»، في حين «كانت نسبة الهروب أقل في الأجزاء الشرقية من المدينة، حيث تركزت الطبقات الأكثر فقراً التي وقعت تحت تأثير المتطرفين». ووفقاً لهذا التحليل كان المسيحيون قلقين بشكل أساسي حول الفترة الانتقالية، منذ النهاية الفعلية لحكومة الانتداب والبداية الحقيقية لسلطة الحكومة اليهودية. فقد استشعروا أنهم سيكونون خلال تلك الفترة بين «المطرقة والسندان: عمليات الإرهاب العربية وردود الفعل اليهودية»⁽²⁶⁸⁾.

على الرغم من انزعاج اللجنة الوطنية من الهجرة الجماعية، افتقرت جهودها إلى الحماسة لوقفها طوال شهر ديسمبر تقريباً. فمن بين الاثني عشر بياناً التي أصدرتها خلال تلك الفترة حث بيان واحد فقط العرب على البقاء. حيث حذرت اللجنة في الثاني عشر من ديسمبر من «عناصر الطابور الخامس» الذين ينشرون الروح الانهزامية بما يؤثر على الأفراد، ويدفعهم إلى «ترك ممتلكاتهم وديارهم التي أضحت فريسة سهلة للعدو الذي استولى عليها واحتلها...»، واختتمت اللجنة بيانها بالقول: «ابقوا في أماكنكم». وفي المقابل لم تصدر اللجنة في أي من بياناتها أوامر

صريحة بعدم الرحيل. وخلال الفترة من يناير إلى مارس عام 1948 فشلت اللجنة، بوجه عام، في إصدار أمر أو مناشدة للسكان بالبقاء في ديارهم أو في المدينة، في حين صدرت أوامر عديدة تحث العرب على «البقاء في مواقعهم»، في إشارة واضحة إلى عناصر الميليشيات والموظفين⁽²⁶⁹⁾.

وفقط في النصف الأول من شهر أبريل يمكننا أن نجد مناشدة بالعودة من قبل اللجنة الوطنية لأولئك الذين رحلوا. حيث نقلت استخبارات الهاغاناه في الأول من أبريل حث من تبقوا من الأعيان على أعضاء مجلس المدينة الذين رحلوا، «وتخلوا عن المصالح العربية في مرحلة تُنقل فيها على وجه التحديد سلطات الحكومة إلى الجهات المحلية»، ويلاحظ أن عمدة المدينة اليهودي شبتاي ليفي، وليس الأعيان العرب، هو من أصدر نداء علنيا لأعضاء المجلس مطالبا إياهم بالعودة⁽²⁷⁰⁾.

بعد مرور عدة أيام كتب الحاج إبراهيم رسائل إلى أعضاء اللجنة الوطنية الغائبين (جورج طويل في بيروت، أحمد كمال في عنتابا بالقرب من جنين، زكي بك التميمي في دمشق، يوسف صهيون في الإسكندرية) مطالبا بعودتهم⁽²⁷¹⁾، ووفقا لإذاعة فلسطين طالبت اللجنة خلال الأسبوع الثاني من أبريل أصحاب المتاجر الذين فروا بالعودة وإعادة فتح حوانيتهم وإلا تعرضوا لعقوبة سحب تراخيصهم⁽²⁷²⁾. غير أنه في ذلك الوقت كانت قضية عرب حيفا خاسرة، حيث غادر كثيرون، وأضحت المدينة على وشك الانهيار. وكلما زادت الأمور سوءا تعاظمت المحفزات على الهروب. وعلى سبيل المثال نقلت استخبارات الهاغاناه في الثاني عشر من أبريل أن التجار العرب الذين استمروا في البقاء قرروا سرا نقل أعمالهم ومخازنهم إلى يافا (أو مصر أو سورية أو لبنان)، خشية أن تنهبها العناصر غير النظامية. فضلا عن قيام اللجنة الوطنية بفرض ضرائب باهظة عليهم لتتمكن من تمويل الميليشيات⁽²⁷³⁾.

وقد يكون من السهل فهم الأسباب الكامنة وراء فشل اللجنة الوطنية في التصرف بحزم لوقف الهجرة الجماعية، فقد افتقرت إلى السلطات القانونية لتقييد الهجرة. والأهم من ذلك أن الهجرة التي سبقت شهر أبريل 1948 شملت بشكل كبير الطبقات الوسطى والعليا (وهي الشرائح التي تشكلت من بين صفوفها اللجنة ذاتها). ومن ثم تعلق الأمر أولا وأخيرا بهروب أقاربهم وأصدقائهم، فضلا عن أن أغلب أعضاء اللجنة أنفسهم كانوا قد فروا. وطبقا لاستخبارات الهاغاناه فإنه بحلول الثامن والعشرين

الموجة الأولى: النزوح العربي...

من شهر مارس رحل 11 من إجمالي 15 عضوا في اللجنة؛ وفشلت الجهود التي بذلها رئيسها إبراهيم لحتهم على العودة⁽²⁷⁴⁾. بل غادر رشيد الحاج إبراهيم ذاته المدينة مطلع شهر أبريل عاقدا العزم على عدم العودة⁽²⁷⁵⁾. لم يكن في مقدور من تبقوا الحط من قدر أو إدانة أو معاقبة الراغبين في الرحيل، على الرغم من الضرر الشديد الذي ألحقته الهجرة بالقضية العربية. بلغ الهروب الضخم لقادة المجتمع ذروته، وكانت له دلالات قوية خلال معركة حيفا في 21 إلى 22 إبريل 1948.

يافا

خصص قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة مدينة يافا العربية، التي ضمت 75 ألف نسمة، لتكون تحت السيادة الفلسطينية. مما يعني أن تصبح أرضا عربية محصورة داخل الدولة اليهودية، تقع اتصالاتها الأرضية مع بقية أجزاء الدولة الفلسطينية تحت سيطرة اليهود، مما جعل السكان يشعرون بالعزلة والضعف. وكما كانت عليه الحال في حيفا، أدى اندلاع القتال إلى التعجيل بعملية الهجرة الجماعية التي كان السبب في اندلاعها قيام رجال المليشيات بعمليات قنص داخل مدينة تل أبيب المجاورة في الثلاثين من نوفمبر 1947. وفي اليوم التالي قام عشرات من العرب بمهاجمة منازل يهودية في حي المنشية، في المنطقة الشمالية المجاورة، فضلا عن إقدام مجموعة عربية في أبو كبير (في الجوار الغربي) على مهاجمة سيارة يهودية وقتل ركبها الثلاثة. وقد أعقبت ذلك بداية الأعمال الانتقامية اليهودية؛ حيث دمر لواء كيرياي^(*) التابع للهاغاناه منزلا في أبو كبير في الثاني من ديسمبر، كما أضرم عناصر من الإرغون النيران في أربعة منازل بعد مرور أربعة أيام، مما أسفر عن مقتل شخصين على الأقل⁽²⁷⁶⁾.

وساد الشعور بين سكان يافا بأن الأسوأ ينتظرهم. انطلقت عملية إجلاء سكان المناطق الحدودية ليافا في بدايات شهر ديسمبر. وكما كانت عليه الحال في حيفا، تركزت البداية في الأطراف المتاخمة لوسط المدينة، وقد نقل أحد مرشدي البالماخ

(*) شكله ديفيد بن غوريون العام 1948، وكان واحدا من أصل تسعة ألوية تكونت منها الهاغاناه، وتمثلت مسؤوليته الرئيسية في تأمين المنطقة المحيطة بتل أبيب، كما شارك في عديد من المعارك خلال الحرب العربية الإسرائيلية العام 1948، وأدى دورا خلال حرب السويس أيضا. [المترجم].

في الأول من ديسمبر أن «عائلات تنقل أمتعتها وتغادر المنشية»⁽²⁷⁷⁾. وكشفت معلومات استطلاعية في الخامس من الشهر نفسه عن أن عملية الإجلاء من المنشية مستمرة، كذلك كانت هناك عمليات هروب مماثلة في الأطراف الجنوبية للمدينة، والمجاورة لمناطق بات يام وحولون اليهودية⁽²⁷⁸⁾. كما رصدت مصادر استخبارات الهاغاناه في الثاني من ديسمبر «عربات تجرها أحصنة محملة بالأمتعة تُغادر أبو كبير متجهة إلى وسط يافا». وأسفرت عملية الهروب من المناطق الخارجية إلى الوسط بدورها عن نشر الرعب والنزوع إلى الفرار بين قاطني المناطق الداخلية⁽²⁷⁹⁾. وقد كان للسلوك اليهودي دور في ذلك؛ ففي الخامس من ديسمبر نقل مراقبون بريطانيون أخباراً حول ضرب شخص عربي حتى الموت «على يد حشد من اليهود» بالقرب من دار سينما المغربي، وإضرار النيران في محلات ومنازل مملوكة لعرب في منطقة سوق الكرمل⁽²⁸⁰⁾، وبالقرب أو داخل حي هاتيكفا (جنوبي تل أبيب)⁽²⁸¹⁾. وقد طاف رجال يرتدون زي الإرغون مدينة بتاح تكفا المجاورة، وطالبوا بأن يقوم أصحاب الأعمال اليهود «بطردهم عما لهم العرب»⁽²⁸²⁾. ومن جانبهم ساهم البريطانيون - وإن كان ذلك بشكل محدود - في عملية الإبعاد من خلال تحذيرهم العرب القاطنين أو العاملين في تل أبيب بالمغادرة إلى يافا⁽²⁸³⁾.

تعرض اليهود بدورهم في مناطق التماس الحدودية للإبعاد من جراء القتال. ففي منتصف يناير 1948 أصبح ما يقارب سبعة آلاف شخص من دون مأوى. وفشلت الجهود التي بذلتها السلطات لاقتناعهم بالعودة إلى ديارهم⁽²⁸⁴⁾، وفي التاسع من ديسمبر نقلت مصادر استخبارات الهاغاناه ما يلي:

كانت الأوضاع الاقتصادية في يافا متردية. ارتفعت أسعار الدقيق بشكل كبير، وكان اللاجئون العرب ينامون في شوارع المدينة... وتغادر العائلات الثرية إلى مناطق في داخل الدولة في حين يهاجر الأغنياء إلى سورية ولبنان أو حتى قبرص⁽²⁸⁵⁾.

صادرت اللجنة الوطنية في يافا «42 فندقاً وبيت دعارة» لإيواء اللاجئين⁽²⁸⁶⁾. وبدأ عامة الناس الذين سبق أن هاجروا في وقت سابق إلى المدينة في التحرك على طريق العودة إلى قراهم⁽²⁸⁷⁾. وبحلول نهاية شهر ديسمبر نقلت مصادر استخبارات

الموجة الأولى: النزوح العربي...

الهاغاناه أن ما يقرب من «60 في المائة» من مسيحيي يافا قد غادروا⁽²⁸⁸⁾. وتردد أن بلدية المدينة كانت تحاول - من دون جدوى - إقناع أولئك الذين رحلوا والذين يعيشون في مخيمات في وسط المدينة بالعودة إلى ديارهم وممتلكاتهم، ولكن دون جدوى⁽²⁸⁹⁾. وعلى الرغم مما نقلته استخبارات الهاغاناه في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر من أن «25 ألف شخص فروا من يافا»⁽²⁹⁰⁾، فإن إدارة الشؤون العربية خرجت في مطلع شهر فبراير لتقول إن التقديرات التي ذهبت إلى أنه «من بين 15 إلى 20 ألفا قد غادروا» يافا كانت مبالغاً فيها⁽²⁹¹⁾.

في السابع من ديسمبر 1947 اتفق كل من يوسف هيكل (عمدة يافا) وإسرائيل روكاح (عمدة تل أبيب) على إصدار نداء لوقف إطلاق النار بما يسمح لسكان مناطق التماس لكل من الطرفين بالعودة إلى منازلهم (وعلى الرغم من ذلك يبدو أن تلك الدعوة المشتركة لم تصدر على الإطلاق)⁽²⁹²⁾. ومن جانبه سعى عمر الهواري قائد الميليشيات الرئيسية في المدينة - الذي كان يتسم بالاعتدال - إلى منع اندلاع القتال، حيث أصدر أوامر لرجاله بإطلاق النيران فقط في حالة الهجوم عليهم، خاصة أنهم كانوا يعانون نقصاً في الذخيرة، بيد أن نفوذ الهواري كان محدوداً في أبو كبير والتي كانت خاضعة لسيطرة قائد آخر يدعى أبو لبن⁽²⁹³⁾. وفي واقع الأمر حددت أجهزة استخبارات «الهاغاناه» ثلاثة مراكز للقوى في يافا: الهواري، وهيكل، ومؤيدي الحسيني المحليين الذين كانوا منشغلين بتنظيم عمليات العنف في المناطق المجاورة. كما جابت المجموعات المسلحة الشوارع لترهيب السكان ودفعهم إلى المشاركة في الدفاع عن «القضية الوطنية»⁽²⁹⁴⁾. وقد أفاد أحد المرشدين العرب لجهاز استخبارات الهاغاناه بأن «اللجنة العربية العليا لم تكن ترغب في أن تصل الاضطرابات المستوى الذي بلغته... وأنهم ارتكبوا خطأ بالدعوة إلى إضراب ثلاثة أيام من دون أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة الرأي العام العربي». الكثيرون كانوا خارج مقار العمل، ولكن سمعهم عن أعمال القتل والحرق للمنازل في القدس أدى إلى توافر «مناخ موات لمثل هذه الأعمال في يافا أيضاً». وسارعت الحشود إلى الشوارع مدفوعة بالرغبة في القتل في حين بقي كل من الهواري وهيكل من دون سلطة فعلية على الموقف⁽²⁹⁵⁾. سقط كل من الهواري، الذي ربما كان عميلاً لجهاز استخبارات الهاغاناه، وهيكل. فر الهواري من البلاد في نهاية شهر ديسمبر⁽²⁹⁶⁾. ومن جانبها كانت الشخصيات

المعتدلة وتلك المعارضة تخشى إقدام الحسيني على شن عمليات إرهابية على غرار ما شهدته الفترة 1937 - 1939⁽²⁹⁷⁾.

عارض أغلب الأعيان المحليين الممثلين من قبل اللجنة الوطنية في يافا العمليات القتالية ضد تل أبيب، نظرا إلى إدراكهم عدم قدرة الميليشيات من جانب، وخشيتهم الأعمال الانتقامية اليهودية من جانب آخر. كما أنهم كانوا قلقين بشكل خاص على محصول البرتقال في البساتين المجاورة والذي يُصدّر جزء كبير منه عبر يافا. وقد وصل بهم الأمر إلى حد تنظيم دوريات في المناطق المحيطة لمنع وقوع صدامات⁽²⁹⁸⁾. وعلى الأرجح سافر هيكل، الذي كان محميا من موسى العلمي الفلسطيني المعتدل المخضرم، إلى القاهرة في مطلع ديسمبر 1947، للحصول على موافقة الحسيني والجامعة العربية على التوصل إلى وقف لإطلاق النار⁽²⁹⁹⁾، بيد أن النشاط في المدينة كانوا مشغولين بإثارة المشاكل وتقويض سلطة اللجنة الوطنية⁽³⁰⁰⁾.

كما كان عليه الوضع في حيفا، سعى الأعيان في جنوبي يافا في الأسبوع الثالث من القتال للتوصل إلى وقف لإطلاق النار مع مدينة بات يام المجاورة. وفي السادس عشر من ديسمبر عُقد لقاء لهذا الغرض طالب خلاله العرب بأن «يكف اليهود عن قطع المياه عنهم وتدمير منازلهم»، في حين طلب اليهود أن يتوقف العرب عن مهاجمة وسائل النقل الخاصة بهم. وقد انتهى اللقاء بتعهد العرب بأنهم «سيحرصون على ألا يتم إطلاق النار على أحد». في تلك الليلة «عاد التيار الكهربائي» لجباليا للمرة الأولى منذ فترة⁽³⁰¹⁾.

ومع ذلك فإن الحسيني الذي كان يعارض بشكل واضح أي هدنة محلية - على الرغم من إدراكه حقيقة أن المدينة ليست لديها فرصة للصمود على المدى البعيد - أراد أن تستمر يافا في شن هجمات على تل أبيب بأقصى طاقتها من دون أن يتوافر لها سوى الحد الأدنى من الموارد الخارجية⁽³⁰²⁾. وعلى الرغم من معاناة يافا من نقص في الدقيق والزيت⁽³⁰³⁾، بدا أن المدينة لم تواجه أزمات غذاء حادة خلال الأشهر الأربعة الأولى من الحرب الأهلية⁽³⁰⁴⁾، ومن بين الأسباب التي ساعدت على ذلك قرب القرى التابعة لها (مثل يازور والخيرية) والطرق التي تربطها بالمدينة؛ كذلك فإن الفرار السريع للسكان ترك لمن تبقىوا فائضا من كوبونات التموين وكميات كبيرة من المنتجات. ولكن ارتفاع نسبة البطالة (وما صاحبها من الخوف

الموجة الأولى: النزوح العربي...

من السفر للعمل في مناطق معرضة للخطر⁽³⁰⁵⁾ كان يعني أن العديد من السكان افتقدوا إلى القدرة المالية لشراء المنتجات المتاحة، فضلا عن أنه كان سببا لشيوع الخوف في صفوف الطبقة المتوسطة من «السرقه والنهب»⁽³⁰⁶⁾ (وقد سُجلت زيادة في معدلاتهما بالفعل). وبحلول شهر مارس لم يكن هناك سوى الميناء مكانا للعمل لايزال قائما⁽³⁰⁷⁾. كما شهدت المدينة خلال شهر أبريل نقصا حادا في البترول، الذي تم بيعه في السوق السوداء واصطفت الطوابير الطويلة أمام محطات البنزين⁽³⁰⁸⁾. كذلك كان هناك نقص كبير في عدد الأطباء والأدوية، في الوقت الذي توقفت فيه خطوط الهاتف عن العمل خارج يافا، وانهارت الخدمات البريدية تماما⁽³⁰⁹⁾. ومنذ نهاية يناير عجت المستشفيات بالجرحى الذين «أُرسل بعضهم إلى منازلهم» لعدم القدرة على استيعابهم. ولم تتوافر أموال لدفع رواتب الأطباء⁽³¹⁰⁾. وفضلا عن كل ذلك لم تتوافر الإرادة للقتال، وكان من بين أسباب ذلك شكوك الذكور من العرب في إمكان دفع تعويضات أو دعم لأراملهم وأيتامهم⁽³¹¹⁾. وقد دفع كل ذلك العامة إلى تفضيل الفرار.

لم يكن لدى اللاجئين أي أوهام. وكانوا يرفضون أن يعرضوا أنفسهم للخطر بالبقاء في أو العودة إلى المناطق اليهودية، وكان هروبهم تلقائيا وليس منظما. ولم يكن هناك... طائل من محاولة منع الهجرة الجماعية، وكان الناس يهربون إلى نابلس والناصرة وحتى إلى مصر⁽³¹²⁾.

أدت الإعلانات التي نشرتها الهاغاناه، والتي توعدت بالشار وإنزال العقاب، إلى إضعاف الروح المعنوية بين السكان⁽³¹³⁾. كما ساد «شعور عام» بأن الحسيني أراد «التضحية بيافا حتى يستثير العالم العربي ضد اليهود والتقسيم»⁽³¹⁴⁾. وفشلت الجهود التي بذلتها اللجنة الوطنية ووحدات المليشيات - والتي وصلت إلى حد فرض الغرامات ومصادرة الممتلكات - في الحد من تضخم صفوف اللاجئين⁽³¹⁵⁾. كان تدمير الإرغون سرايا المدينة (التي شملت المركز الرئيسي للمليشيات) في الرابع من يناير 1948 - باستخدام سيارة مملوءة بالديناميت - حدثا رئيسيا أسهم بشكل كبير في إضعاف الروح المعنوية، حيث خلفت العملية وراءها العشرات من القتلى⁽³¹⁶⁾، وتعطلت خدمات البلدية. فرت العائلات من الطبقتين الوسطى والعليا

في حين أغلق رجال الأعمال متاجرهم وعمت البطالة⁽³¹⁷⁾. وفي هذا الخصوص أوردت تقارير جهاز استخبارات الهاغاناه:

أضحت أسواق المدينة الرئيسية - التي كانت مزدحمة في الماضي - مهجورة. وخلت المقاهي من روادها، وأغلقت دور السينما أبوابها، وأقيمت حواجز وأسلاك شائكة على الطرق في وسط المدينة وعلى الحدود. أضحي سكان يافا يعيشون في حالة من الخوف من القنابل اليهودية والهجمات المتبادلة بينهم وبين العرب. غادر العديد من سكان المناطق المحيطة منازلهم، ويقدر عدد الذين غادروا المنشية فقط بثلاثة آلاف عائلة، توجه أغلبهم إلى المدينة القديمة، أو إلى المناطق المجاورة في النزهة والعجمي، وأضحت المنازل التي استولى عليها الأفراد بالقوة مكتظة؛ حيث أقام في كل حجرة عشرة أشخاص أو أكثر، في حين غادرت عائلات كثيرة إلى سورية، لبنان، قبرص، ومصر⁽³¹⁸⁾.

تعطلت حركة القطارات من وإلى يافا⁽³¹⁹⁾. وترتب على توقف الرحلات اليومية إلى مقر العمل تفاقم البطالة في صفوف العمال، في وقت سادت فيه القيادات المحلية حالة من الكآبة، ولم تكن لديهم ثقة بقدرات فرق المتطوعين الأجانب. وتعالّت الأصوات التي عبرت عن الرغبة في استيلاء الملك عبدالله على فلسطين، في حين سعى الحسيني إلى إسكات أصوات المعارضة⁽³²⁰⁾. وقد نقل القنصل اللبناني في القدس قول هيكّل:

بلغ الوضع في يافا أسوأ حالاته... وأوشك العرب على رفع الرايات البيضاء للاستسلام... نتيجةً لنقص الذخائر، ووصل الشعور العام [الروح المعنوية] إلى مرحلة الانهيار التام في أعقاب الانفجار الكبير (تفجير السرايا)... وفي مقدور اليهود - إذا ما رغبوا في ذلك - الاستيلاء على المدينة بأكملها من دون صعوبات كثيرة. أما الوضع الاقتصادي فإنه سيئ إلى حد لا يمكن وصفه⁽³²¹⁾.

كذلك أبلغ أحد المرشدين العرب ساسون بما يلي:

«لا يوجد عمل في المدينة، وكل من كان في مقدوره الرحيل غادر بالفعل، ويسود الخوف في كل مكان، حيث لا يوجد أمن أو أمان. وأضحت السرقة والنهب شيئاً معتاداً، كما فقدت اللجنة الوطنية سلطتها ومن المتوقع أن تستقيل...»⁽³²²⁾.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

برزت الروح الانهزامية لدى العرب خلال الاتصالات الهاتفية الصادرة من يافا والتي أقدم على اعتراضها وتسجيلها جهاز استخبارات الإرغون، فقد قص سعيد زين الدين (أحد محامي يافا)، على صديق (أو قريب) له في خان يونس التطورات التي أعقبت تدمير السرايا، حيث جرح اثنان من أقاربه، ولحقت أضرار بالشارع بأكمله. وفي هذا الخصوص سأل الطرف المقيم في خان يونس: «لماذا لا تأتي إلى هنا؟»، وكان رد زين الدين: «سنأتي قريباً».

بعد مرور يومين على ذلك سُجلت محادثة هاتفية بين كل من عبداللطيف قدومي، وهو ضابط من فرقة النابلسي غير النظامية في يافا، وأبو أحمد في نابلس دارت على النحو التالي:

عبداللطيف قدومي: «أين أبو فياض قدومي؟»

أبو أحمد: «لقد ذهب إلى الناصرة».

عبداللطيف قدومي: «أعتقد أنني سأعود قريباً إلى نابلس».

أبو أحمد: «إذا ما كان رجالكم في يافا لا يعلمون كيف يتصرفون ويسمحون

للإهود بفعل ما يرغبون فيه اتركهم وعُد إلينا».

عبداللطيف قدومي: «حقاً إنهم لا يعرفون كيف يتصرفون هنا... سأغادر

وأتركهم يفعلون ما يريدون وسأعود إلى نابلس».

وحقيقة الأمر، عكست المحادثات الهاتفية المسجلة على امتدادها خوفاً شديداً من الإهود وشعوراً بأن الفرار، وما سيتبعه من فوضى إدارية، أضحى أمراً وشيكاً⁽³²³⁾. خلال الأشهر الأولى للحرب برز عدد من المليشيات كان بعضها يدين بالولاء للجنة العربية العليا والحسيني، في حين انحاز البعض الآخر إلى هيكل وغيره من رموز المعارضة. كذلك كانت هناك العديد من المجموعات من العناصر الأجنبية غير النظامية، انتمى بعضها إلى جيش الإنقاذ (وصلت فرقة عراقية في مطلع شهر فبراير) والبعض الآخر كان مستقلاً عنه⁽³²⁴⁾. وفيما يتصل بالمجموعات غير النظامية فإنها جاءت إلى المدينة ثم رحلت، فعلى سبيل المثال، في مارس انسحبت بشكل مفاجئ مجموعة مكونة من 75 - 150 متطوعاً سورياً من المدينة (في أعقاب سجن قائدها بتهمة سرقة مؤن من أحد المخازن) وتوجهت إلى طولكرم؛ كذلك رحلت كتيبة عراقية بقيادة عبدالجابر، وتمركزت في معسكر مهجور للجيش البريطاني في وادي

سرار⁽³²⁵⁾. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها حسن سلامة لتوحيد الميليشيات فإن التوفيق لم يحالفه⁽³²⁶⁾. كذلك سعى مبعوثون من يافا إلى تعبئة مزيد من القوات في منطقتي الخليل ونابلس، الأمر الذي لاقى قبولا محدودا على الرغم من العرض المادي المجزي للمتطوعين (40 جنيها إسترلينيا شهريا). وقد تمخضت إحدى حملات التعبئة في الخليل عن ضم «35 من المعوزين»⁽³²⁷⁾.

سعى كبار أعيان يافا خلال شهر يناير، وربما أيضا بداية شهر فبراير، إلى التوصل إلى هدنة، غير أن الهاغاناه كانت غير راغبة في ذلك. فكما كانت عليه الحال في حيفا. كان لدى الهاغاناه اليد العليا ولم تكن لديها النية في ترك يافا تعيش في سلام مادام لا يسمح العرب في أماكن أخرى (وبشكل رئيس في القدس) لليهود بالعيش في سلام. وفضلا عن ذلك اعتقد القادة العسكريون، على حق، أن التوصل إلى هدنة مع القادة المدنيين في يافا لن يؤدي حتما إلى وقف العمليات التي تقوم بها العناصر غير النظامية⁽³²⁸⁾.

كانت الانقسامات التي سادت منذ البداية بين عرب يافا سببا في إخفاق جميع الجهود لصنع السلام. ففي شهر فبراير كتب بن غوريون إلى شيرتوك مشيرا إلى مساعي هيكل، عبر وساطة بريطانية، إلى التوصل إلى اتفاق مع تل أبيب، بيد أن قائد العناصر غير النظامية الجديد عبدالوهاب علي شيهاني عارضه. وحينما أوضح عمدة المدينة أنه «من دون التوصل إلى اتفاق سُتدمر يافا بشكل كامل، كان رد شيهاني - وفقا لما أورده بن غوريون - كما يلي: «لا يعني تدمير يافا إذا ما تمكنا من تدمير تل أبيب»⁽³²⁹⁾.

كما كان عليه الوضع في حيفا، قامت العناصر غير النظامية بترويع السكان المحليين مكررين بذلك خبرة الفترة من 1936-1939. وفي هذا الخصوص كتب نمر الخطيب: «معظم العناصر التي بقيت مع قائدهم عادل نجم الدين تصرفت تجاه السكان كأنها قوات محتلة؛ حيث قاموا بمصادرة أسلحتهم وبيعها وفرضوا الغرامات والضرائب وصادروا السيارات وباعوها... وكان السكان يخافون من المدافعين عنهم والمنقذين له أكثر من خوفهم من أعدائهم اليهود»⁽³³⁰⁾.

تلاقت مخاوف تجار الموالح في يافا، من أن يقوم اليهود بمنع تصدير محصولهم⁽³³¹⁾ الذي يعتمد عليه اقتصاد المدينة، مع المخاوف التي راودت أقرانهم اليهود المجاورين

الموجة الأولى: النزوح العربي...

حول النقطة ذاتها، الأمر الذي كان وراء وساطة بريطانية للتوصل إلى اتفاق ودي Gentleman's Agreement في ديسمبر قضي بالألا يقوم أي من الطرفين بالإضرار ببساتين الآخر أو شاحناته التي تنقل الموالح أو التعدي على تسهيلات التصدير⁽³³²⁾. وفي حين وافق قادة الهاغاناه في تل أبيب على هذا الاتفاق تحت ضغط المزارعين اليهود ورجال الأعمال، عارضه الأعضاء المحليون للهاغاناه وكان موضع مناقشات ومداولات واسعة خلال اجتماع عقد في الفترة من 1-2 يناير 1948 بين بن غوريون ومستشاريه. عارض ممثلو القسم العربي (بقيادة ماكنس الذي كان أيضا مالكا لبستان برتقال) فكرة فرض حصار تام على يافا التي طرحها كل من يغائيل يادين وموشي سنه، وانتهت المناقشات بإعلان بن غوريون عن اتفاق عام على الحاجة إلى فرض «حصار على يافا» على أن يتم تجنب مزارعي وشحنات البرتقال⁽³³³⁾.

خلال شهر يناير استمر ملاك البساتين اليهود ممثلين بيوسف يعقوبسن (الذي كان في الوقت ذاته ضابطا رفيع المستوى في الهاغاناه) في الضغط - من دون جدوى - للتوصل إلى وقف إطلاق نار رسمي يشمل المناطق المحيطة بيافا، ورحوفوت، ونيس زيونا، واتهم يعقوبسن الهاغاناه بقتل وإرهاب وسرقة مزارعي البرتقال ونهب ممتلكات العرب، ومن جانبه عارض موشي ديان إبرام مثل هذا الاتفاق؛ حيث تعلق الأمر بالنسبة إليه بمنطقة كانت فيها الهاغاناه الأكثر قوة، فضلا عن أن العناصر غير النظامية العربية في مناطق أخرى بالبلاد يمكنها الحصول على تموين من المواد الغذائية من هذه المنطقة إذا ما سادها الهدوء. أما ليفي شكولنيك (أشكول) فقد دافع عن حقيقة أن ثلاثة أشهر من الهدوء خلال فترة الحصاد ستعود بالفائدة على اليشوف، وهو ما عارضه غاليلي ويادين، حيث ذهبوا إلى أن مثل هذه الهدنة ستكون في مصلحة العرب في ضوء أن لكل من «يافا وحيفا نقطتي ضعف لديهم». فضلا عن أن التوصل إلى اتفاق يشمل السهل الساحلي كان من شأنه أن يحرر المفتي من الضغوط التي تمارس عليه من المدينتين لتحقيق السلام. وفي نهاية المطاف أوضح بن غوريون أنه على الرغم من مساندته بشكل عام لفكرة تقييد رقعة القتال، فإنه «لا يعتقد أنه سيُحترم الاتفاق... بل سيُخرق»⁽³³⁴⁾.

على الرغم مما تقدم، ظل الأعيان العرب يضغطون - عبر وسطاء بريطانيين - من أجل التوصل إلى اتفاق أكثر شمولا فيما يتصل بالحمضيات. وفي هذا الخصوص اقترح

غاليلى بنبرة تهكمية التوصل إلى اتفاق وقف إطلاق نار يشمل «كل منطقة آكلي الحمضيات» وليس فقط «منطقة زراعة الحمضيات». وقدم شرحا لكل من مزايا وعيوب الاتفاق المقترح: الاتفاق لن يطلق يد القوات اليهودية وفي المقابل سيطلق يد القوات العربية للقيام بعمليات في الضواحي، وسيحرر اللجنة العربية العليا من الضغوط التي يمارسها عليها أعيان يافا، كما أنه سينقل مركز القتال إلى مناطق لا تمتلك فيها الهاغاناه ميزة طبيعية، فضلا عن أنه سيُخرج يافا من وضعية «الرهينة اليهودية» الأمر الذي ليس لدينا مصلحة فيه. وفيما يتصل بالإيجابيات أشار غاليلى إلى أن سياسة الهاغاناه الدائمة كانت في تقييد رقعة انتشار القتال، وأن الإشوف مهتم كذلك بعدم عرقلة عملية الحصاد وتصدير محاصيله من الحمضيات، فضلا عن أن الهاغاناه كانت على الدوام معنية بالهدوء في المناطق التي خُصصت لتكون تحت السيادة اليهودية، وألا يصيب العرب أذى في تلك المناطق - «لما لذلك من أهمية وقيمة كبيرة فيما يتصل بالعلاقات المستقبلية مع العرب... كما أن ذلك يمكن أن يخدم احتياجات الدعاية اليهودية»- والأكثر من ذلك هو أن الهاغاناه كانت راغبة في أن يسود الهدوء بما يمكنها من القيام بعمليات التسليح والتدريب⁽³³⁵⁾.

وفي نهاية المطاف لم يُتوصل على الإطلاق إلى اتفاق رسمي بين الطرفين. ومن الناحية العملية لم يُفرض حصار تام على يافا، وبشكل عام استمرت عمليتا الحصاد والتصدير على الجانبين من دون التعرض لأضرار.

كان استيلاء الهاغاناه على المدينة أمرا مستبعدا تماما خلال الفترة الممتدة من شهر يناير حتى منتصف شهر أبريل؛ إذ كان من المفهوم أن البريطانيين سيمنعون وقوع ذلك، ومن ثم قصرت الهاغاناه جهودها على فرض حصار جزئي والقيام بعمليات تأرية محدودة وتحركات مرحلية، ممتنعة عن شن عمليات تأرية واسعة النطاق- باستثناء ما حدث ليلة 12-13 فبراير عندما قامت وحداتها بتوجيه ضربات متزامنة في أبو كبير، وجباليا وتل الريش وقرية يازور القريبة، ما أسفر عن مصرع 13 عربيا، بما في ذلك المختار، وجرح 22 شخصا، وفرار العديد من سكان قرية يازور⁽³³⁶⁾. كذلك شهدت أبو كبير هجوما كبيرا آخر في الثالث عشر من شهر مارس بهدف «تدمير حي أبوكبير» التي أخليت خلال الأسابيع السابقة من سكانها وقام عشرات من رجال الميليشيات بحراستها. قصفت الهاغاناه الحي

الموجة الأولى: النزوح العربي...

بقذائف هاون محلية الصنع (ديفيدكاس) تحدث ضوضاء كبيرة، بالتزامن مع تفجير خبراء المفرقات عددا من المنازل⁽³³⁷⁾. أسفر ذلك عن «ارتجاج المدينة بأكملها وفرار العديد من سكانها تاركين منازلهم... وكان للهجوم أثر مُثبط للمعنويات بدرجة عالية»⁽³³⁸⁾. وامتد هذا الأثر إلى مناطق بعيدة حتى وصلت إلى غزة⁽³³⁹⁾. كما جرت عملية أخرى في الرابع والعشرين من شهر مارس على جباليا خلفت وراءها قتيلين وعددا من المنازل المدمرة⁽³⁴⁰⁾. وبحلول منتصف شهر أبريل كانت الروح المعنوية لسكان يافا منخفضة للغاية من جراء الأحداث التي شهدتها مناطق أخرى من البلاد وبشكل رئيس دير ياسين. وفي هذا الخصوص كتب أحد سكان المدينة لصديق أو قريب له في مصر: «إن اليهود قساة. ففي طبريا كما كانت عليه الحال في دير ياسين تصرفوا بطريقة همجية واستخدموا فؤوسا لتقطيع أيدي وأرجل الناس والأطفال. وفعلوا أشياء مُشينة بالنساء، وامتنع كاتب الرسالة عن ذكرها خجلا»⁽³⁴¹⁾.

دفعت تلك الهجمات فضلا عن الهجرة الجماعية وانسحاب الفرق السورية والعراقية من المدينة هيكل إلى القيام بمحاولة أخيرة لإنقاذ مدينته، فسافر إلى عمان سعيا إلى إقناع الملك عبد الله بتحريك وحدات الجيش العربي إلى داخل يافا بحلول الخامس عشر من مايو أو قبيل ذلك⁽³⁴²⁾. ومع حلول منتصف شهر أبريل قدرت مصادر استخبارات الهاغاناه أن خمسين في المائة من سكان المدينة قد فروا بالفعل⁽³⁴³⁾. فشلت الجهود المتتالية التي بذلتها اللجنة الوطنية للحد من تدفق اللاجئين، بما في ذلك قيامها بفرض ضرائب باهظة على من أُجلوا (أُستحدثت ضريبة أثاث بلغت 12 جنيها إسترلينيا وإضافتها على الضريبة المفروضة على كل شخص رحل)، فقد غادرت معظم العائلات الكبيرة (عائلة أبو خضرة إلى غزة، وعائلتا النابلسي والدجاني إلى مصر، وعبد الواحد إلى بيروت، وعائلة بيدس إلى نابلس). ومما لا شك فيه أن فرار الطبقات الوسطى والعليا أدى إلى مزيد من الانخفاض في الروح المعنوية لدى أولئك الذين بقوا في أماكنهم؛ حيث سادت بينهم البطالة على نطاق واسع وانخرط بعضهم في عمليات سلب ونهب لإطعام عائلاتهم. وعلى الرغم من توافر الغذاء، ارتفعت أسعاره بشكل كبير وارتفع ثمن جوال الدقيق إلى أربعة عشر جنيها إسترلينيا بدلا من سبعة جنيهات قبل ذلك بشهر، كما تدهورت العلاقات بين من تبقى من القادة وأيضا فيما بين المليشيات الموجودة بالمدينة⁽³⁴⁴⁾.

طبقا لخطة التقسيم كان من المقرر أن تصبح القدس (التي ضمنت 100 ألف يهودي، و50 ألف عربي أو 85 ألفا إلى 90 ألفا إذا ما أضفنا سكان القرى العربية المجاورة) منطقة دولية، على الرغم من كونها محاطة من كل الجوانب بالدولة العربية الفلسطينية والقرى العربية، التي سيطرت على الطرق المؤدية إليها. وفي هذا السياق ساد بين سكانها اليهود الشعور بأنهم معرضون للهجوم، بل وأنه تم التخلي عنهم. ففور صدور القرار تعرضت الأحياء اليهودية خاصة في الجزء الغربي من المدينة لإطلاق النيران من الأحياء العربية، «وخُنقت» المنطقة اليهودية تدريجيا خلال الأشهر التالية من خلال الحصار الذي فرض على الطريق الرئيسي المؤدي إلى تل أبيب. وفي نهاية شهر مارس- وعلى الرغم من تبني نظام القوافل والمساعدات المقدمة من البريطانيين من وقت إلى آخر - كانت الأحياء اليهودية تحت حصار شبه كامل، وعلى الرغم من ذلك كانت الهاغاناه والوحدات الأقل عددا من الإرغون والهستدروت مسلحة ومنظمة بشكل جيد، وخلال المواجهات التي اندلعت قُصف العرب في المناطق على خط التماس بين الجماعتين - والأحياء العربية شبه المنعزلة في غربي القدس التي هيمن عليها اليهود - بقذائف الهاون على نحو متكرر ما أدى إلى تفرغها من سكانها. (ومع ذلك حدثت عملية إجلاء جزئي لليهود من مناطق التماس: ففي بداية شهر يناير 1948 على سبيل المثال أُجلي 75 في المائة من قاطني تالبيوت وميكور حاييم في الشمال، فضلا عن ثلث سكان أرنونا وتالبيوت الوسطى)⁽³⁴⁵⁾.

بعد مرور ستة أسابيع من القتال رصد جهاز استخبارات الهاغاناه محادثة تلفونية بين الدكتور حسين الخالدي (العضو في كل من اللجنة العربية العليا واللجنة الوطنية) وتاجر عربي عُرف على أنه أبو زكي ذكر خلالها الأول: «الجميع يتركونني وحدي. يوجد حاليا ستة أعضاء (من اللجنة العربية العليا) في القاهرة، واثنان في دمشق- ليس في استطاعتي الصمود وحدي طويلا... لقد ضاعت القدس... لم يعد هناك أحد في قطمون، وأضحى حي الشيخ جراح خاليا، ويغادر السكان المدينة القديمة ذاتها. وكل من لديه القليل من المال يسافر إلى مصر أو لبنان أو دمشق»⁽³⁴⁶⁾. لقد كانت مبالغات الخالدي فيما يتصل بمستوى الهروب تعكس في حد ذاتها درجة

الموجة الأولى: النزوح العربي...

الارتباك التي سادت آنذاك. فقبل ذلك بثلاثة أيام أوردت استخبارات الهاغاناه أن العرب الذين توجهوا إلى السلطات للحصول على سلاح قد عادوا أدراجهم من دون شيء؛ إذ إنه لم يكن هناك ما يمكن تسليمه لهم. وفي المدينة القديمة، قلب القدس العربية، سادت مشاعر «الإحباط واليأس والفوضى»، وعانى أغلب السكان من البطالة. «ردد البعض أنه من الأفضل العودة إلى سلطة الملك عبد الله أو حتى بقاء البريطانيين في البلاد»⁽³⁴⁷⁾.

في الوقت الذي شارفت فيه المؤن على النفاد كانت العناصر غير النظامية تدفع فاتورة مشترياتها بإيصالات لا قيمة لها. ومن جانبهم عمد أصحاب المحال إلى إخفاء بضائعهم نتيجة فرض «ضريبة تقدر بعشرة جنيهاً إسترلينية يومياً» أو ما يعادلها من بضائع⁽³⁴⁸⁾. كما امتنع أصحاب حوانيت البقالة عن البيع بنظام الائتمان⁽³⁴⁹⁾. وفي أعقاب تدمير طاحونة الدقيق ببلدة بيت صفا، عانت تلك البلدة الواقعة جنوبي القدس نقصاً حاداً في الخبز، وبحلول يناير 1948 ارتفع سعر كيس الدقيق في القدس (ليصل إلى ستة جنيهاً إسترلينية بدلاً من 1.20 جنيه)⁽³⁵⁰⁾، وذلك على الرغم من توافر السلع الرئيسية الأخرى⁽³⁵¹⁾. فخلال هذا الشهر كان السمن النباتي المصنّع يهودياً متوافراً⁽³⁵²⁾ كما تردد أن بعض اليهود كانوا يقايضون السكر في مقابل الخبز والدقيق مع العرب⁽³⁵³⁾.

أدت حالة البطالة الشديدة إلى انتشار عمليات السرقة والنهب، فلم يكن في مقدور الفقراء شراء المنتجات المتوافرة في المخازن⁽³⁵⁴⁾. وعلى الرغم من توفير الحكومة حصصاً من الدقيق للجان الوطنية لتوزيعها، سرق العرب شحنات الدقيق من القطارات ما دفع بالمفوض السامي إلى إيقاف الإمدادات⁽³⁵⁵⁾. وبشكل ظاهر كان هناك أيضاً تمييز سياسي في توزيع حصص الدقيق، كما أضافت بعض المخابز «بعض المواد الغريبة والضارة» في الخبز⁽³⁵⁶⁾. ومن جانبه أقدم مارتن حداد، المفتش العربي المسؤول عن توزيع الدقيق على تجار التجزئة، على سرقة كميات كبيرة منه لبيعها لحسابه، كما باع بعضاً منها «بأسعار مبالغ فيها» لليهود⁽³⁵⁷⁾.

نظمت اللجنة الوطنية حملة لجمع الأموال بهدف تغطية نفقات الحرب، بما في ذلك رسوم حراسة على كل المناطق. وقد شعر المسيحيون العرب بأنه يتم فرض ضرائب باهظة عليهم أو يتم ابتزازهم، بيد أن بعض العرب التفوا على ذلك

من خلال تسديدهم من 2-3 جنيهات إسترلينية شهريا مقابل إعفائهم من رسوم الحراسة (ما يذكر بأساليب الفساد التي مورست خلال فترة السيادة العثمانية)⁽³⁵⁸⁾. كذلك كانت هناك عصابات بين فرق الحراسة استغلت موقعها للسرقة. وفي هذا الخصوص نقل جهاز استخبارات الهاغاناه قيام تلك العصابات أحيانا بالبدا في إطلاق النار لإثارة حالة من الذعر والهرب، ليشرعوا بعد ذلك في نهب المنازل المهجورة⁽³⁵⁹⁾. أما العناصر غير النظامية فقامت بقطع الطريق على شاحنات التموين وسرقتها. ومن ذلك واقعة سرقة شاحنة محملة بالبيض والدواجن مخصصة للمدينة في مطلع شهر فبراير⁽³⁶⁰⁾.

أدى وصول اللاجئين القادمين من المناطق المجاورة في الفترة من يناير إلى مارس إلى مزيد من التدهور في الأوضاع، ووصل ارتفاع أسعار الغذاء إلى حد دفع سكان المدينة إلى تنظيم مظاهرة في السابع والعشرين من شهر فبراير ضد اللجنة الوطنية. وأُخبر المتظاهرون بأن «يصبروا قليلا حتى يتحقق النصر»⁽³⁶¹⁾. أما فيما يتعلق بالأحياء الجنوبية، فأتسم الوضع الاقتصادي في نهاية شهر مارس بالغموض: فمن جانب كان هناك فائض في المنتجات بالمحال نتيجة لبقاء كميات الغذاء التي كانت تباع تقليديا للأسواق اليهودية، وكانت أسعار الخضراوات زهيدة للغاية (على سبيل المثال بلغ ثمن 30 رأسا من الخس عشرة مل^(*))، وعلى الرغم من ذلك لم يكن ممكنا بيع أغلب المحاصيل بسبب الفقر المدقع وعدم قدرة السكان على الشراء، وعلى صعيد آخر لم تتوافر السلع المعبأة (التي يقبل الأثرياء على شرائها) في حين كان هناك نقص في الأسماك (التي كانت تأتي من يافا) واللحوم. وعمت الفوضى الأجهزة المنوط بها متابعة الأسعار شأنها في ذلك شأن باقي الأجهزة الرقابية، واعتادت عناصر الميليشيات الحصول على المواد الغذائية مقابل وعد بالدفع الآجل. أما بالنسبة إلى المنسوجات التي كانت تأتي غالبا من خارج فلسطين فأصبحت سلعة نادرة⁽³⁶²⁾.

خلال الشهور الأربعة للحرب الأهلية انعدمت المواصلات بين القدس العربية وباقي فلسطين أو قيدت بدرجة كبيرة. وفي مطلع شهر أبريل توقفت خطوط

(*) العملة المتداولة في تلك الفترة هي الجنيه الفلسطيني الصادر عن مجلس فلسطين للنقد (التابع لوزارة المستعمرات البريطانية)، والجنيه يساوي ألف مل. كما شاع استخدام كلمة «ليرة» للإشارة إلى الجنيه الفلسطيني، التي قسمت إلى 100 قرش. [المحررة].

الموجة الأولى: النزوح العربي...

حافلات النقل على طريقي القدس - يافا، والقدس - بيت جالا، بينما تقلص عدد الحافلات من وإلى الناصرة إلى حافلتين يوميا (مقابل تسع حافلات قبيل الحرب)، أما فيما يتعلق ببيت لحم، فقد انخفض عدد الحافلات إلى ثلاث يوميا (مقابل اثنتي عشرة قبيل الحرب)⁽³⁶³⁾. وفي داخل المدينة انخفض عدد الأشخاص الذين يستخدمون وسائل النقل العام يوميا بنسبة 90 في المائة⁽³⁶⁴⁾. ومع حلول شهر أبريل كانت القدس تعاني نقصا حادا في الخبز والملابس والمعلبات، وكثير من مشتقات البترول⁽³⁶⁵⁾.

يمكن القول إن الهجرة الجماعية للعرب من القدس الغربية بدأت في الثلاثين من شهر نوفمبر، حيث أجلت حافلات ثلاث أو أربع عائلات من الأحياء المختلطة في روميمة التي هيمنت على المدخل الغربي للمدينة وبدأية طريق القدس - تل أبيب. ووفقا للقسم العربي بجهاز استخبارات الهاغاناه، فسر المسافرون موقفهم على أنه «تمهيدي لعمليات (عسكرية) من قبل العرب»⁽³⁶⁶⁾. وفي اليوم ذاته «نصحت» مجموعة من العرب المقيمين اليهود «بمغادرة المنطقة»⁽³⁶⁷⁾. وتجدر الإشارة إلى أنه قبل ذلك بأسبوع تلقى سكان منزل يقع في شارع أثيوبيا في وسط المدينة (بالقدس الغربية) «تعليمات» - على الأرجح من قبل سلطات عربية - بترك المنطقة والانتقال إلى أخرى؛ مما عني أن القتال كان وشيكا⁽³⁶⁸⁾.

بدأ القتال في الأول من ديسمبر بقيام مسلحين عرب وآخرين يلقون الحجارة بمهاجمة منازل يهودية عند بوابة يافا ومحاني يهودا، فضلا عن قيام مجموعة بالهجوم، في الثاني من ديسمبر، على المركز التجاري الجديد في وسط المدينة؛ إذ أشعلوا النيران في عشرات المحال وورش العمل وسرقوا محتوياتها، كذلك جرح 22 يهوديا. وعلى الرغم من فشل القوات والشرطة البريطانية في التدخل ضد مثيري الشغب فإنه ألقى القبض على 16 من عناصر الهاغاناه الذين كانوا يتصدون للعرب⁽³⁶⁹⁾. وأشارت التقارير عن تلك الليلة إلى قيام عناصر من الإرغون بنهب محال عربية في القدس الغربية⁽³⁷⁰⁾ كما أضرمت مجموعة من اليهود النيران في دار سينما ركس والمنازل العربية المجاورة⁽³⁷¹⁾. ووجهت الإرغون في اليوم التالي إنذارا إلى مختار لفتا (قرية تقع غربي روميمة) مهددا بقصف القرية بالقنابل إذا ما تعرض أي من اليهود للضرر في روميمة⁽³⁷²⁾. وشهدت مناطق متعددة من المدينة

إطلاق القناصة النيران على الأحياء اليهودية، الأمر الذي جعل الهاغاناه ترد عليه من وقت إلى آخر. وردا على استفسارات السكان للهاغاناه حول كيفية التصرف - كما كانت الحال من قبل سكان يمين موثي- تمثل الرد في أهمية أن يلزم سكان مناطق التماس أماكنهم⁽³⁷³⁾.

أجلى بعض العائلات العربية في الرابع من شهر ديسمبر من قرية لفتا، كما أجلى عائلات يهودية عدة من حي الطالبية المختلط والمزدهر في وسط القدس الغربية⁽³⁷⁴⁾. وكان واضحا صدور تعليمات لسكان لفتا من قبل السلطات العربية بإجلاء النساء والأطفال والاستعداد لاستقبال حملة من المليشيات. وفي تلك الأثناء قامت مجموعة مكونة مما يقرب من 20 شابا يهوديا شرقيا وحشد من العامة - ضم وفقا لتقديرات مراقبين تابعين للهاغاناه ما يقرب من 200 شخص من الأطفال والبالغين من المجتمعات اليهودية الشرقية - بأعمال شغب بوسط المدينة بالقدس الغربية؛ حيث أضرموا النيران في المحال العربية⁽³⁷⁵⁾. وقد حاولت كل من الشرطة البريطانية والهاغاناه إيقافهم. وأعقب ذلك مغادرة مزيد من العائلات العربية روميمة⁽³⁷⁶⁾. أما في المدينة القديمة، ففر ما يقرب من 1500 شخص (من إجمالي 3500 يهودي متدينين - أرثوذكس كانوا يقطنون الحي اليهودي) بطريقة منظمة إلى القدس الغربية، في حين انتقلت العائلات العربية التي كانت تعيش داخل أو في المناطق المحيطة بالحي إلى المناطق العربية، وسرعان ما استولت عناصر المليشيات العربية المسلحة على منازلهم (وكذلك بعض من منازل الأرمن)⁽³⁷⁷⁾. وبحلول الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر أضحى تبادل النيران بين مناطق التماس وتلك الواقعة داخل المدينة القديمة من الأمور اليومية المعتادة، وبدأت عناصر المليشيات العربية بنصب الكمان لوسائل النقل اليهودية على طول طريق القدس- تل أبيب، في حين ألقى عناصر من الإرغون قنابل على المناطق العربية المزدهمة داخل المدينة⁽³⁷⁸⁾. ووردت تقارير عن إجلاء عائلات عربية من مناطق قطمون وميكور حاييم. وأخطر الأفراد الذين تم إجلاؤهم من ميكور حاييم كل من قابلهم من اليهود بأنهم تلقوا أوامر بذلك، على الأرجح من قبل السلطات العربية⁽³⁷⁹⁾. وفي المقابل رفضت العائلات اليهودية في أحياء تالبيوت نصيحة جيرانهم العرب بالرحيل⁽³⁸⁰⁾.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

جرت أولى موجات الإجلاء الجماعية من أحياء القدس في ديسمبر 1947- يناير 1948 من قرى ضواحي لفتا والشيخ بدر وفي المنطقة العربية في روميمة. وبصفة مبدئية كانت التعليمات الصادرة لدوريات الهاغاناه تقضي بالمرور في ضواحي مدينة لفتا وعدم دخول القرية مع تعليق لافتات (غالباً تحذر السكان من البدء في أعمال العنف)⁽³⁸¹⁾. ومع ذلك فإنها تبادلت من وقت إلى آخر إطلاق النار مع عناصر الميليشيات في القرية⁽³⁸²⁾. وفضلاً عن ذلك اتسمت العمليات التي قامت بها كل من الإرغون والهستدروت بالعدوانية. ففي منتصف شهر ديسمبر تمركزت عناصر غير نظامية من القرى المجاورة في لفتا بغرض الدفاع عن الموقع وكذلك إنهاك المناطق اليهودية المجاورة. وفي حين كان القرويون المتقدمون في السن يرغبون في السلام، فإن العناصر الشابة كانت، وفقاً لمصادر استخبارات الهاغاناه، «أكثر تحملاً»⁽³⁸³⁾. ومع بداية شهر يناير عانت لفتا نقصاً في الخبز⁽³⁸⁴⁾ كما أنه بدأ منذ الثامن العشرين من ديسمبر في إجلاء النساء والأطفال من القرية⁽³⁸⁵⁾. وعلى الرغم من رحيل أغلب القرويين في مطلع يناير (إلى رام الله)⁽³⁸⁶⁾، بقيت العناصر غير النظامية ومنتسبو الجيش العربي. وفي الخامس عشر من يناير، أو حول ذلك التاريخ، صدرت الأوامر إلى القرويين بالعودة إلى ديارهم⁽³⁸⁷⁾ وهو على ما يبدو ما انصاع له بعضهم أو أغلبهم. وقام عبدالقادر الحسيني بزيارة القرية بعد ذلك بأسبوع وأمر الرجال بالبقاء و«النساء والأطفال وكبار السن» بالمغادرة⁽³⁸⁸⁾. وبالفعل رُصد النساء والأطفال يغادرون⁽³⁸⁹⁾. وفي التاسع والعشرين من شهر يناير قامت الهستدروت بالإغارة على القرية وتدمير ثلاثة منازل⁽³⁹⁰⁾. وفي مطلع شهر فبراير عاد كل أو أغلب سكان لفتا إلى رام الله (وكانوا يشتكون من أن المحليين «يسخرون منهم» وأنهم كانوا محصورين، في لفتا، بين العناصر غير النظامية التي استخدمت منازلهم لمهاجمة اليهود، وبين اليهود الذين قاموا بأعمال انتقامية دمروا خلالها منازلهم وأوقعوا قتلى بينهم)⁽³⁹¹⁾.

بدأت دائرة العنف - التي أدت إلى الإسراع من عملية إجلاء روميمة- بهجمات على طرق مرور اليهود المغادرين للقدس وإقدام الهاغاناه في الرابع والعشرين من ديسمبر على قتل عطية عادل من قرية قالونيا ومالك محطة البترول في روممية والذي عمل مرشداً للعناصر غير النظامية ليخبرها - مستخدماً دراجته النارية -

عن القوافل اليهودية⁽³⁹²⁾. وفي اليوم التالي انتقم القرويون لذلك بإلقاء قنبلة على حافلة يهودية. ومنذ ذلك الوقت تم تبادل إطلاق النار بشكل يومي داخل وفي محيط روميمة (ولفتا) وشنت كل من الهاغاناه والإرغون والهستدروت غارات ليلة السادس والعشرين من ديسمبر⁽³⁹³⁾، كما شن الإرغون غارة أخرى في اليوم التالي أسفرت عن تدمير محطة بترول ومقهى مخلفة وراءها على الأقل خمسة قتلى من العرب⁽³⁹⁴⁾. وبشكل ظاهر تم إجلاء بعض السكان تحت حماية بريطانية وبطريقة منظمة⁽³⁹⁵⁾. ووصفت تقارير استخبارات الهاغاناه في مطلع يناير روميمة بأنها خالية⁽³⁹⁶⁾ على الرغم من بقاء بعض رجال الميليشيات وعودة السكان على الأقل في زيارات قصيرة للاطمئنان على ممتلكاتهم⁽³⁹⁷⁾. وقد أدت المكالمات التلفونية والخطابات المتضمنة تهديدات دورا كبيرا في رحيل السكان من المناطق المجاورة⁽³⁹⁸⁾. وفيما يتصل بالتغيرات الديموغرافية في المدينة، أوضح قائد الهاغاناه في القدس (إسرائيل زابلودفسكي المعروف باسم أمير) لبن غوريون، في العشرين من يناير، أنه في روميمة ذات الأغلبية العربية كان اليهود يرغبون في الرحيل، «إلا أن الهاغاناه لم تسمح لهم بذلك»، وفي المقابل رحل العرب. واختتم بقوله إن «طرده» السكان العرب سهل مهمة الهاغاناه⁽³⁹⁹⁾.

قام سكان الشيخ بدر (التي تقع اليوم بين الكنيسة وبناني هاؤوما*) بالإجلاء عن ديارهم في منتصف يناير على إثر عملية انتقامية أو أكثر شنتها الهستدروت (ردا على عمليات قنص من قبل العرب)، أسفرت عن تدمير منزل المختار، الحاج سليمان، فضلا عن غيره من المنازل خلال غارات شنتها الهاغاناه. وأورد جهاز الاستخبارات البريطانية أن الهاغاناه أمرت سكان الشيخ بدر بالرحيل⁽⁴⁰⁰⁾. الأمر الذي نفذه الكثيرون منهم في الرابع عشر من شهر يناير⁽⁴⁰¹⁾. في حين سلم عدد من السكان مفاتيح منازلهم لجيرانهم اليهود الذين وعدوا بالقيام بحمايتهم⁽⁴⁰²⁾. بيد أن اليهود في منطقة نخلووت الفقيرة المجاورة نهبوا القرية. كذلك فإنه في ضوء المخاوف من قيام العناصر العربية غير النظامية بمعاودة السيطرة على الموقع أقدمت عناصر من الهاغاناه على دخول القرية وقامت، من خلال إطلاق النار في الهواء، بطرد «قطاع الطرق» اليهود (الذين قبض على اثني عشر منهم بالأسلحة البيضاء)⁽⁴⁰³⁾.

(*) المركز الدولي للمؤتمرات في القدس.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

وفي التاسع عشر من يناير أمنت الشرطة البريطانية خروج السكان الباقين في الشيخ بدر الذين توجهوا إلى لفتا⁽⁴⁰⁴⁾. كما دخلت الشرطة لحماية المنازل التي أخليت من سكانها. وبمجرد إتمام الرحيل عاد سكان نحلون إلى المنطقة وأحرقوا ونهبوا كل ما تبقى⁽⁴⁰⁵⁾. إزاء الأحداث التي شهدتها منطقة الشيخ بدر قام عدد من المثقفين اليساريين، من بينهم رئيس الجامعة العبرية جودا ليب ماغنس والفيلسوف مارتن بوبر بمناشدة سكان القدس التوقف عن نهب وقتل العرب⁽⁴⁰⁶⁾.

ضمت مدينة الطالبية (جنوب غربي ريفافيا) خليطا من العائلات الثرية اليهودية والعربية (أساسا المسيحية) التي عاشت في تناغم نسبي قبيل العام 1948. بيد أن العمليات القتالية أسفرت تدريجيا عن تقويض التعايش السلمي الذي ساد من قبل، على الرغم من المساعي المبذولة من كل من المجموعتين للإبقاء عليه في مواجهة مد الحرب الذي زحف على المدينة. ففي بداية شهر يناير أسفر اجتماع ضم الجيران العرب عن قرار بمقاطعة الباعة العرب الجائلين، باعتبارهم من «أدخلوا الصراع إلى المنطقة»، وناشدوا اليهود الانضمام إليهم في ذلك⁽⁴⁰⁷⁾. كما اقترحوا تأسيس لجنة مشتركة من الشرطة العربية - اليهودية - البريطانية في الموقع⁽⁴⁰⁸⁾. ولكن سرعان ما خضع السكان إلى ضغوط من العرب في الخارج الذين هددوهم بالانتقام «إذا ما استمروا في الإبقاء على علاقات ودية مع الهاغاناه وتقديم مشروب الشاي لعناصرها». كما هددت العناصر غير النظامية ربّات البيوت في الطالبية، خلال قيامهن بالتسوق في منطقة المستوطنة الألمانية المجاورة، بأن «الوقت سيحين للترتيب (من خلال قيامهم بأعمال استفزازية) لقيام اليهود بقتلهم... وأن عديدا من المسيحيين يرغبون في مغادرة ديارهم ومدينتهم بيد أنه قد تم تحذيرهم بأنهم إذا ما أقدموا على ذلك سيُقدم (عرب آخرون) على تدمير منازلهم وسرقة ممتلكاتهم». وطبقا لتقرير من القسم العربي لأجهزة استخبارات الهاغاناه قام اليهود كذلك بتخويف السكان من وقت إلى آخر. وفي مطلع شهر فبراير «طلب» اليهود من بعض العائلات التي كانت تسكن في كرم الرهبان (وهي منطقة مجاورة تقع غرب الطالبية)، أن يغادروا منازلهم. وعلى وجه التحديد دخلت مجموعة مكونة من 10-13 يهوديا منزل جورج مشبك للبحث عنه واتسمت تصرفاتها بالخشونة. كما تلقت عائلة وهبة إنذارا بأن تترك المكان على الفور⁽⁴⁰⁹⁾. وبحلول العشرين من فبراير كان

باستطاعة زابولدفسكي أن يكتب في تقريره: «إن الطالبية في طريقها بشكل مطرد لتصبح يهودية على الرغم من بقاء القليل من العرب»⁽⁴¹⁰⁾.

كان الهجوم الذي شنه العرب في العاشر من فبراير على يمين موشي (منطقة يهودية تقع شرق الطالبية) حاسماً في هذا الخصوص. وعلى الرغم من أنه قد يكون السبب وراء هذا الهجوم قيام اليهود بعملية قنص باتجاه حافلة عربية، فقد تمت مواجهته من قبل نيران الهاغاناه والقوات البريطانية، مما خلف أكثر من اثني عشر قتيلاً⁽⁴¹¹⁾. وخلال المعركة (أو بعدها مباشرة) شوهدت العائلات العربية تغادر الطالبية حاملة معها أمتعتها⁽⁴¹²⁾. وفي الحادي عشر من الشهر طافت سيارة تابعة للهاغاناه المدينة «محذرة العرب من انتقام الهاغاناه، ما دفعهم إلى الفرار». عارضت المؤسسات العربية الوطنية هذا الفرار واستخدمت وسائل الترغيب والترهيب «طالبة من العرب البقاء ومستعدية الجيش البريطاني... وعندما وصلت الشرطة قبضت على ركاب الحافلة». وحقيقة الأمر، كانت السلطات العربية تخشى بشكل واضح من أنه إذا ما تمكنت الهاغاناه من التمرکز في الطالبية فإنها ستتقدم جنوباً لتسيطر على مزيد من المناطق العربية، أو العربية جزئياً، من قبيل المستوطنة الألمانية و«بقعة»⁽⁴¹³⁾. وعلى الرغم من أن بعض يهود الطالبية أخبروا جيرانهم العرب بأنه «ليس هناك ما يدعوهم إلى الخوف»، فرت ما بين 60 إلى 70 عائلة عربية ولم تبق سوى ثلاث عائلات فقط، الأمر الذي قُوبل بنقد شديد من قبل السلطات العربية التي وصفت عملية الهرب بأنها «مُخزية ومُتسرعة». فضلاً عن أنه كان هناك حديث عن أخذ الثأر من «العرب الأغنياء الذين تعاونوا مع اليهود في الطالبية»، وعلى الرغم من كل ذلك أخفقت جميع الجهود التي بُذلت لإقناع السكان بالبقاء وتعاضم الشعور بالمهانة⁽⁴¹⁴⁾. قررت اللجنة العربية العليا، وعلى الأرجح قامت بنشر قرارها، بأن كل المنازل التي هُجرت من قبل سكانها في الطالبية سيتم السيطرة عليها وستتمركز بها العناصر غير النظامية⁽⁴¹⁵⁾. ومع ذلك رحل مزيد من العائلات في اليوم ذاته أو الأيام التالية على ذلك⁽⁴¹⁶⁾، وعلى الرغم من تواتر معلومات عن عودة بعض العائلات (ربما فقط بشكل مؤقت لحماية وأخذ أمتعتهم)⁽⁴¹⁷⁾، فإنه من حيث الواقع كانت المناطق المجاورة قد تم أخليت. وبقي عدد قليل من الرجال العرب، «حازمين أمتعتهم ومستعدين للمغادرة في أي

الموجة الأولى: النزوح العربي...

لحظة». بيد أن القائد العربي في المنطقة منعهم من ذلك، كما سعى العرب المتبقون إلى إقناع الهاغاناه بترك الطالبية على الحياد أو كمنطقة بعيدة عن القتال⁽⁴¹⁸⁾. الأمر الذي رفضته الأخيرة - وانتهى بهم المطاف إلى الرحيل.

طبقا للهاغاناه، سادت الأحياء العربية في القدس بحلول منتصف شهر يناير حالة من «اليأس والذعر»، فمجرد تناقل شائعة عن إلقاء أو وجود قبلة يهودية كان السكان يتدافعون للهروب المذعور من كل المناطق المجاورة. وحتى أولئك الذين لا يملكون الكثير من المال بدأوا في الفرار على الرغم من فرض اللجنة العربية العليا لغرامات على أقارب من يترك البلاد. أما فيما يتصل بالمسيحيين، فقد ردد الكثيرون منهم بصوت عال أن «حكم اليهود كان أفضل من حكم المبتزين العاملين لمصلحة الحسيني»⁽⁴¹⁹⁾. وخلال الفترة من ديسمبر إلى فبراير غادر عديد من السكان العرب في أو بالقرب من مناطق الجوار اليهودية في الطالبية وميكور حاييم (جنوبي القدس) وقرية بيت صفا المجاورة، إما تنفيذا لأوامر عربية (لإبعادهم عن منطقة الخطر أو لإخلاء منازلهم لعناصر المليشيات القادمة)⁽⁴²⁰⁾ أو بسبب الهجمات اليهودية أو الخوف منها⁽⁴²¹⁾. وكانت الغارة التي شنتها الهاغاناه على بيت صفا في الثالث عشر من فبراير والتي قتل خلالها محمود العمري القائد الإقليمي للمليشيات⁽⁴²²⁾ من الأسباب الرئيسية للنزوح من المنطقة. ووفقا لما تردد، أضحت بيت صفا بعد مرور بضعة أيام خالية بشكل شبه تام⁽⁴²³⁾.

شهد شهر يناير أيضا إجلاء كثير من قاطني المناطق المجاورة في كل من «الشيخ جراح»، ومصرارة، وأبوطور⁽⁴²⁴⁾. وجرت عملية الإجلاء في الشيخ جراح على مرحلتين: الأولى في الأسبوع الأول من يناير وبشكل تلقائي⁽⁴²⁵⁾، والثانية خلال الأسبوع الأخير من الشهر ذاته من جراء غارة شنتها الهاغاناه وأسفرت عن حرق اثني عشر منزلا⁽⁴²⁶⁾ وأخرى من قبل الهستدروت في اليوم التالي⁽⁴²⁷⁾. وربما كانت عملية الإخلاء قد جرت جزئيا بتنسيق مع ومساعدة من البريطانيين الذين رغبوا في وضع نهاية لأعمال القتال داخل المدينة وفي المناطق المحيطة والمجاورة لها، التي تمثل مداخل الطريق الرئيسي للخروج من المدينة باتجاه الشمال⁽⁴²⁸⁾. وكان السبب الأول وراء الرحيل من مصرارة خلال ذلك الشهر هو الخوف من الهجمات اليهودية⁽⁴²⁹⁾، فضلا عن استيلاء وحدة من المتطوعين السوريين على المنازل⁽⁴³⁰⁾، أما بالنسبة إلى أبوطور

(ذات الأغلبية المسيحية)، فقد تمثل سبب الرحيل في وصول عناصر الميليشيا من الخليل والمعروف عنهم «كراهيتهم الشديدة للمسيحيين». وطبقا لمصادر الهاغاناه قام القادمون من «الخليل» بـ «الاستيلاء على أموال المقيمين وسبهم»⁽⁴³¹⁾. وبنهاية شهر مارس أجلي «معظم سكان مصرارة»⁽⁴³²⁾.

فيما يتصل بحي قطمون المزدهر ذي الأغلبية العربية شبه التامة، فقد هُجر بشكل كبير خلال الشهور الأربعة الأولى من الحرب الأهلية، وقامت حفنة من السكان اليهود في الجوار بالمغادرة خلال الأسابيع الأولى من القتال، سواء نتيجة الخوف أو من جراء عمليات التهيب العربي⁽⁴³³⁾. ورصدت الهاغاناه عربا مسلمين يغادرون الحي منذ العاشر من شهر ديسمبر⁽⁴³⁴⁾ وأضحت قطمون الجنوبية خالية من السكان- بمساعدة من البريطانيين في عملية الإجلاء- في مطلع شهر يناير⁽⁴³⁵⁾. بيد أن العامل الرئيسي الذي دفع إلى الهروب خلال الشهور الأولى كان من دون شك الغارة التي شنتها الهاغاناه في ليلة 5 - 6 يناير، والتي تم خلالها تدمير فندق سميراميس نتيجة اقتناعها بأن عديدا من قادة العناصر غير النظامية تقطنه وأنه- وربما يكون ذلك خاطئا- يضم مركز القيادة العامة للمليشيات في المناطق المجاورة⁽⁴³⁶⁾. وقد لاقى ما يزيد على أربعة وعشرين شخصا- ربما من بينهم كثير من العناصر العراقية غير النظامية - حتفهم نتيجة الانفجار⁽⁴³⁷⁾ (كذلك نائب القنصل الإسباني مانويل أليندي سالازار). ومن جانبها نفت حكومة الانتداب أن يكون الفندق مركزا لقيادة الميليشيات ودانت الهجوم باعتباره «عملية قتل جماعي خسيصة»⁽⁴³⁸⁾. واستدعى كاننغهام بن غوريون لتوبيخه واصفا ما حدث بأنه «سُبة للحضارة» وناعتا الذين خططوا للعملية في الهاغاناه بأنهم «قتلة». من جانبه أوضح بن غوريون (الذي بدا عليه الانزعاج بشكل واضح) أن «العملية نُفذت من دون سند من التعليمات المركزية»⁽⁴³⁹⁾. كما عبرت الوكالة اليهودية رسميا عن «أسفها للخسائر في الأرواح البريئة» وفي الوقت ذاته انتقدت التصريحات العلنية من قبل حكومة الانتداب والتي لم تدن- وفقا للوكالة- انتهاكات عربية مماثلة⁽⁴⁴⁰⁾. وأخيرا أخطر بن غوريون كاننغهام أنه أُسْتُبعد ضابط الهاغاناه المسؤول عن العملية - ميخائيل شيفتر نائب قائد منطقة القدس المعروف بشاهام - من القيادة⁽⁴⁴¹⁾.

الموجة الأولى: النزوح العربي...

كان للعملية تأثير مدمر في معنويات سكان قطمون فقد «عمقت من الشعور بعدم الأمان... وسار عديد من الذين تحدثوا عن المسألة الفلسطينية والدفاع عن البلاد حتى آخر قطرة من دمائهم ورؤوسهم محنية في الشوارع لخدجلهم من النظر إلى أصدقائهم في أعينهم»⁽⁴⁴²⁾. وفورا بعد الانفجار أوردت استخبارات الهاغاناه ما يلي:

كثير من العائلات تغادر قطمون، بعضهم إلى مصر والبعض الآخر إلى لبنان... قرر كثيرون أن... الحسيني قد زج بهم في اضطراب هائل... فالوضع الاقتصادي سيئ للغاية، ولا يوجد بيض أو خبز إلخ... وقد أوقع تفجير المنازل في المنطقة الخوف في نفوس كل سكان قطمون، الذين أقروا بأن اليهود أكثر تنظيماً اقتصادياً وأن العرب لا يمكنهم الصمود أمام مثل هذا التنظيم⁽⁴⁴³⁾.

كان أغلب الفارين من النساء، والأطفال، وكبار السن⁽⁴⁴⁴⁾. وقد حاولت السلطات العربية كبح عملية الفرار⁽⁴⁴⁵⁾ ما أدى إلى عودة عديد من الشباب - الذين سبق لهم الهروب إلى المدينة القديمة - إلى قطمون⁽⁴⁴⁶⁾. وقد ذكرت هالة السكاكيني أن بعض السكان القدامى تشبثوا بقوة بأماكنهم وأنه «أينما رأوا أشخاصاً ينتقلون بعيداً، حاولوا تشجيعهم على البقاء»، مضيفة أنهم كانوا يقولون لهم: «عليكم أن تشعروا بالخدجل من الرحيل، فهذا هو بالضبط ما يريد اليهود أن تفعلوه، أن تتركوا دياركم وأن يقوموا هم باحتلالها، وذات يوم ستجدون أن قطمون قد أضحت حياً يهودياً آخر!»⁽⁴⁴⁷⁾. وعلى الرغم من ذلك، خلت معظم المناطق من سكانها تدريجياً وانتقلت العائلات إلى المدينة القديمة أو خارج المدينة، في حين توجه عدد قليل منهم إلى قطمون الجنوبية بجوار القنصلية العراقية التي قامت كتيبة من الفيلق العربي بحمايتها⁽⁴⁴⁸⁾، ومن جانبها قامت كل من الهاغاناه والهستدروت بتفجير منازل إضافية في قطمون ليلتي التاسع والثالث عشر من شهر مارس⁽⁴⁴⁹⁾. وبحلول نهاية الشهر لم تكن هناك غير حفنة من العائلات التي بقيت تحت حراسة عناصر غير نظامية تمركزت في دير سان سيمون بالقرب من القنصلية العراقية⁽⁴⁵⁰⁾.

تقدم مذكرات المدرس والكاتب الفلسطيني خليل السكاكيني، أحد سكان قطمون ووالد هالة، نظرة عميقة حول الحالة الذهنية لأولئك الذين بقوا في

الجوار، فقد سجل في السادس عشر من مارس ما يلي: «ربي... أنا لا أعلم كيف سنتمكن من الصمود أمام اعتداء اليهود: إنهم مدربون ومنظمون ومتحدون ومسلحون بأحدث أنواع السلاح؛ أما نحن فليس لدينا شيء»⁽⁴⁵¹⁾. وفي العشرين من مارس كتب:

يقوم اليهود منذ منتصف ليلة أمس بمهاجمة المنطقة المجاورة لنا بقوة ...
قذائف المدافع والرصاص... وحتى اللورد كيتشنر [وزير الحرب البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى] ربما لم يصل إلى مسمعه طوال حروبه ما سمعناه الليلة الماضية... في هذا الموقف، ما الذي يُثير الاستغراب في رغبة السكان في الانتقال إلى منطقة أخرى مجاورة أو مدينة أخرى... الكثيرون هاجروا إلى المدينة القديمة، أو إلى بيت جالا، أو عمان أو مصر وغيرها من الأماكن. فقط القليلون الذين لهم ممتلكات هم الذين بقوا»⁽⁴⁵²⁾.

بحلول 13 أبريل، وبفترة قصيرة قبيل مغادرته هو وعائلته إلى فلسطين، كتب السكاكيني ما يلي: «صباحا ومساءً نسمع قذائف المدفعية ونيران الأسلحة كما لو كنا في ساحة قتال... لا يمكننا الخلود للنوم، ونقول إنه عندما يحل الصباح سنرحل... من قطمون إلى مكان آخر، أو نغادر البلاد كلها»⁽⁴⁵³⁾.

تمثل العامل الرئيس الذي عجل من فرار الجانب الأكبر من السكان العرب غربي وجنوبي القدس في الهجمات العسكرية اليهودية والخوف منها. وإلى جانب ذلك توفر عامل ثانوي عاد إلى التوترات بين المسلمين والمسيحيين، والمعارضة والحسيني، فضلا عن تلك التي كانت قائمة بين العائلات المسيحية والمعارضة، والتي كانت تحوم حول أغلبها في هذه المناطق شكوك المليشيات وتهديداتها وابتزازها للأموال. وقد سيطر على عقول هذه العائلات شبح أعوام 1936-1939 عندما قام رجال الحسيني المسلحون بإرهاب المعارضة والعائلات المسيحية⁽⁴⁵⁴⁾. وأخيرا كان هناك خوف عام من المستقبل.

مع نهاية المرحلة الأولى من الحرب الأهلية أضحى كل من غرب وجنوب القدس يهوديا تماما، ومن تبقى من العرب هناك كانوا من رجال المليشيات المسلمة والعائلات المسلمة الفقيرة، كما فر بعض السكن من مناطق في شرق وشمال المدينة.

بداية النزوح الجماعي لسكان المناطق الريفية

ديسمبر - مارس 1948

على الرغم من أن الفرار من الريف كان في بدايته محدودا للغاية واقتصر على حفنة من القرى في ديسمبر 1947، فإنه سرعان ما تحول إلى هجرة مطردة - على الرغم من استمرارية محدوديتها - خلال شهري يناير وفبراير 1948. وفي شهر مارس (كما كانت الحال في شمالي تل أبيب) تحول الأمر إلى رحيل جماعي. وبشكل عام فإن الهجرة كانت محصورة في مناطق متاخمة للتجمعات اليهودية الرئيسية وكان السبب وراءها يتمثل في الهجمات الانتقامية التي شنتها الهاغاناه (وبدرجة أقل الإرغون والهستدروت) والخوف من مثل هذه الهجمات، فضلا عن أوامر السلطات العربية بإجلاء قرى بالكامل أو النساء والأطفال وكبار السن. وفضلا عن ذلك فإن كثيرا من التجمعات العربية هُوجمت أو حُوصرت وطُرد سكانها من قبل وحدات الهاغاناه، في حين دُفع البعض الآخر إلى الفرار من خلال عمليات التهيب التي مارسها عناصر الإرغون، وأيضا التهيب الذي مارسته العناصر العربية غير النظامية في مواقع عديدة.

السهل الساحلي

تجلت عملية الفرار من الريف خلال تلك الفترة بشكل واضح في منطقة السهل الساحلي، بين كل من تل أبيب وحديرا، حيث شكل اليهود الأغلبية، كما أنه طبقا لخطة التقسيم كانت تلك المنطقة تمثل صميم الدولة اليهودية.

ووفقا لسجلات القسم العربي بجهاز استخبارات الهاغاناه تمثلت القرى الأولى التي جرى هجرها بالكامل في التاسع والعشرين من ديسمبر في المخيزن والمنصورة القريبتين من رحوفوت⁽⁴⁵⁵⁾. وفر سكان قرية المنصورة (نحو 100 فرد) إلى النعاني وقزازه، أما سكان المخيزن (نحو 200 شخص) فقد فروا إلى قزازه والمسمية. وقد تم إجلاء سكان القريتين في أعقاب هجوم انتقامي من قبل الهاغاناه على قرية قزازه في التاسع عشر من ديسمبر، أسفر عن مقتل قرويين وسقوط عديد من الجرحى، فضلا عن إحداث تدمير جزئي لمنزل المختار، نتيجة لقيام سكان قزازه بقتل ضابط من الهاغاناه قبل ذلك بأيام قليلة، وفي ضوء خوفهم من الانتقام أرسلوا في

السادس عشر من ديسمبر كثيرا من النساء والأطفال إلى مناطق آمنة في النعاني القريبة. وفي أعقاب هجمة التاسع عشر من الشهر نفسه أجلى مزيد من النساء والأطفال. وأوضح تقرير للقسم العربي لجهاز استخبارات الهاغاناه أن «الانتقام» (في قلب منطقة ذات أكثرية عربية) «ترك تأثيرا قويا»⁽⁴⁵⁶⁾. (يلاحظ أن آخر من تبقى من سكان قزازه طُردوا على أيدي قوات الدفاع الإسرائيلية بعد مرور سبعة أشهر في السادس عشر من يوليو)⁽⁴⁵⁷⁾.

في الوقت ذاته تم كذلك إجلاء النساء والأطفال من خربة بيت لد (1 ديسمبر)⁽⁴⁵⁸⁾، وسلمة (خارج يافا في 6 ديسمبر)⁽⁴⁵⁹⁾، وخربة عزون أو تبصر (شمال رعنانا في 21 ديسمبر تنفيذًا لأوامر صادرة من نابلس). وتمثلت التعليمات الصادرة لخربة عزون في الحفاظ على «علاقات طيبة» مع اليهود ولكن ظاهريا فقط، «ففي اليوم الذي سيحدث فيه انقضاء عربي شامل على المستوطنات اليهودية فإنه سيجلى كل سكان القرية، وانتظارا لذلك يلزم إظهار البراعة في التعامل»⁽⁴⁶⁰⁾. وتقليديا، كانت هناك علاقات طيبة بين سكان القرية وجيرانهم اليهود⁽⁴⁶¹⁾. أما في الشمال، فقد صدرت أوامر متكررة من اللجنة العربية العليا - خلال شهري يناير وفبراير 1948 - إلى الرجال في خربة السركس بإخراج النساء والأطفال، بيد أنها قوبلت بالرفض⁽⁴⁶²⁾. وفي الحادي عشر من فبراير تم إجلاء مزيد من السكان من خربة عزون نتيجة الخوف من العمليات اليهودية⁽⁴⁶³⁾.

في الخامس عشر من شهر ديسمبر 1947 قامت قبيلة عرب البلاونة البدوية - التي عاشت في عدة مخيمات بالقرب من ناتانيا وضمت إجمالا 350 شخصا - بحزم ممتلكاتها والتحرك في اتجاه الشرق لتستقر بالقرب من طولكرم⁽⁴⁶⁴⁾، وكان قد سبق لها أن تلقت الأوامر، منذ 1 أو 2 ديسمبر، من السلطات في طولكرم بالاستعداد للانتقال⁽⁴⁶⁵⁾.

كانت أول قرية تُخلى بالكامل في منطقة تل أبيب هي صميل شمالي المدينة، في الخامس والعشرين من ديسمبر. انتقل القرويون إلى الجماسين القريبة ما تسبب، على الأرجح، في تشييط همم مضيفيهم⁽⁴⁶⁶⁾. فقد سبق أن غادر بعض القرويين الجماسين ذاتها في الأول من ديسمبر⁽⁴⁶⁷⁾. حيث أصدرت السلطات العربية الأوامر لسكان القرية بالكف عن العلاقات الجيدة الذين عرفوا بها مع اليهود⁽⁴⁶⁸⁾؛ وهو

الموجة الأولى: النزوح العربي...

ما أدى إلى شعورهم بالوقوع في شرك. وعلى حين بدا أنهم حاولوا إبعاد العناصر غير النظامية، رصدت الكشافة اليهودية خلال أسابيع وجود «مجموعة صغيرة من العصابات المسلحة» قادمة من الخارج في شوارعها الضيقة شرعت منذ الثاني من ديسمبر في قنص الحافلات اليهودية المارة، الأمر دفع الهاغاناه إلى إرسال دورية للمنطقة التقت في طريقها بشخص عربي بادر بالسؤال عما إذا كان هناك خطر في البقاء، فكان الرد بأنه «ليس هناك ما يدعو إلى الخوف»، فذكر العربي أنه تم أجلي كل النساء والأطفال والحيوانات إلى عرب أبو كشك (قرية كبيرة تقع إلى الشمال) ولم يبق إلا صانعو المشاكل وعناصر الميليشيات⁽⁴⁶⁹⁾. وفي ذلك اليوم (أو اليوم التالي) بدأ السكان المتبقون «في الرحيل مذعورين»⁽⁴⁷⁰⁾. وفيما يتعلق بمختار القرية، وكذلك مختار صميل المجاورة، فقد تردد أنه أُحتجزا في يافا لقيامهما بالاتجار مع اليهود⁽⁴⁷¹⁾ أما بالنسبة إلى من بقي من السكان فقد رحلوا خلال شهري مارس وأبريل إلى كفر قاسم وجلجولية⁽⁴⁷²⁾.

كما سبق أن رأينا، في المنطقة الموجودة مباشرة في الشمال، فإن قرية الشيخ مونس الكبيرة، شمالي نهر العوجة، و قبيلة أبو كشك، التي عاشت بين العوجة وهرتسليا- رعناتا، كانتا قد قبلتا حماية الهاغاناه خلال الأسابيع الأولى من الحرب ووافقتا على العيش في سلام وأن تبعدا عن العناصر غير النظامية. وعلى مدار الأعوام تمتعت كل منهما بعلاقات صداقة مع جيرانهما اليهود (يُذكر أن قبيلة أبو كشك هاجرت إلى فلسطين قادمة من مصر في منتصف القرن التاسع عشر، وفي العام 1948 أضحى أغلب أفرادها فلاحين يقيمون في منازل أو أكواخ على الرغم من أن كثيرين ظلوا يعيشون في خيام). لكن العلاقات لم تكن دائما سهلة بين الطرفين. ففي العام 1946 قام ثلاثة رجال من الشيخ مونس باغتصاب فتاة يهودية. وبالإضافة إلى إجراءات التقاضي، قامت الهاغاناه بإطلاق النار وجرح أحد المهاجمين، واختطفوا آخر وقاموا بخصيه قبل إيداعه المستشفى⁽⁴⁷³⁾. وقد أثرت بداية عمليات القتال في المنطقة تدريجيا على طبيعة العلاقات القائمة. في الأول من ديسمبر شوهد السكان يغادرون الشيخ مونس التي كانت تطل على مهبط تل أبيب (مطار سدي دوف) والطريق الساحلي الرئيسي تل أبيب - حيفا⁽⁴⁷⁴⁾. ولكن إجمالا بقي السكان في أماكنهم واثقين في اتفاقهم مع الهاغاناه، ورفض القرويون مطلب رفيق التميمي

(قائد اللجنة العربية العليا في يافا) بأن يؤسسوا لجنتهم الوطنية⁽⁴⁷⁵⁾. خلال شهري يناير وفبراير جرى إطلاق نار من وقت إلى آخر (وبشكل غير كثيف) من الشيخ مونس وضواحيها في اتجاه المنازل اليهودية. سارع الأهالي بتقديم تفسيرات مختلفة في حين حافظت الهاغاناه على السلام. ومع ذلك قبلوا بنقل بعض السكان، الذين كانوا يقيمون على الأرجح بشكل مؤقت، إلى قطعة أرض جنوبي نهر العوجا، وسمحت الهاغاناه للقرويين بصيد السمك من النهر (الذي كان متاخما لتل أبيب)⁽⁴⁷⁶⁾. وفيما يخص أبو كشك فإنه رفض السماح بدخول العناصر التابعة لجيش الإنقاذ وأوضح لمندوبه أن «عرب المنطقة سيتعاونون مع اليهود ضد أي قوى أجنبية تحاول الدخول»⁽⁴⁷⁷⁾ وعلى ما يبدو تقبل قادة جيش التحرير العربي للمنطقة، مدلول بك وسعيد بك، علاقات أبو كشك باليهود (أخذا في الاعتبار وضعية أبو كشك الخاصة) بل وكانوا أنفسهم غير متحمسين لفكرة البدء في الأعمال القتالية، ووعدوا بإخطار أبو كشك قبل القيام بأي هجوم واسع النطاق⁽⁴⁷⁸⁾. كما نجح توفيق أبوكشك، أحد أعيان العرب، في التوسط من أجل التوصل لوقف إطلاق نار بين مستوطني مغدال وقرية بيار عدس العربية⁽⁴⁷⁹⁾. ونتيجة لخشيته من وحدات جيش التحرير العربي، فرض لواء إسكندروني - بحلول منتصف شهر مارس - حصارا حول كل من قرية الشيخ مونس، وأبو كشك وقريتين صغيرتين قريبتين (جليل الشمالية وجليل القبلية)⁽⁴⁸⁰⁾. بل ذهب اللواء إلى النظر في إمكانية شراء عدة منازل في الشيخ مونس لإيواء حامية صغيرة هناك⁽⁴⁸¹⁾. وكان من الممكن آنذاك أن تكون عناصر من اللواء أقامت بالفعل في عديد من المنازل على أطراف القرية⁽⁴⁸²⁾.

ربما كان للطوق الذي فرضه لواء إسكندروني هدفا إضافيا تمثل في حماية أبو مونس من عمليات سلب محتملة من قبل عناصر الإرغون والهستدروت⁽⁴⁸³⁾ - علي سبيل المثال، قام رجال مسلحون تابعون للإرغون في الثاني عشر من مارس بختطف خمسة من أعيان القرية. ووفقا للقسم العربي لجهاز استخبارات الهاغاناه أدى ذلك إلى أن «يتعلم العرب أنه لا يكفي فقط التوصل إلى اتفاق مع الهاغاناه؛ وأن هناك «يهودا آخرين» [منشقين] يجب الحذر منهم وربما أكثر من الهاغاناه التي ليس لها أي سيطرة عليهم»⁽⁴⁸⁴⁾. خيم الخوف على قرية الشيخ مونس إلى الحد الذي دفع باللاجئين القادمين من صميل والجماسين إلى الرحيل منها في الثاني والعشرين من مارس⁽⁴⁸⁵⁾، وذكر خبراء

الشؤون العربية في الهاغاناه أن «القرويين أنفسهم يرغبون في الرحيل ولكنهم بقوا في أماكنهم تحت ضغط اللجنة الوطنية في يافا» كذلك أفادوا بأن «الشيخ مونس كان ينتظر أوامر من اللجنة الوطنية»⁽⁴⁸⁶⁾، وفي المقابل بقيت سياسة الهاغاناه ثابتة على النحو الذي أعلنه غاليلي: الإبقاء على العرب وحمايتهم في الأماكن المحصورة التي تقع في الأراضي ذات الأغلبية اليهودية⁽⁴⁸⁷⁾. وعلى صعيد آخر، تم في الثالث والعشرين من شهر مارس تحرير الأعيان الذين سبق اختطافهم وتسليمهم إلى الهاغاناه التي أعادتهم بدورها إلى الشيخ مونس⁽⁴⁸⁸⁾. وعلى الرغم من ذلك تدهورت ثقة سكان سلسلة القرى شمالي نهر العوجا، وخلال الأيام التالية بدأ قاطنو الشيخ مونس وأبو كشك في الجلاء والرحيل إلى قلقيلية وطولكرم⁽⁴⁸⁹⁾ بعد تفويضهم ليوسف سوتزكي، من مستوطنة بتاح تكفا، للتفاوض مع الهاغاناه لحماية ممتلكاتهم المهجورة⁽⁴⁹⁰⁾. وأقام توفيق أبو كشك ورجاله، في الثامن والعشرين من مارس، مأدبة كبيرة قبل الرحيل جمعت أصدقاءهم اليهود، «وغادر الشيخ المكان والشعب اليهودي بعد أن ألقى كلمة مؤثرة»⁽⁴⁹¹⁾. في حين شرع قادة اليشوف تقريبا على الفور في تخصيص أراضي الشيخ مونس للاستخدام اليهودي⁽⁴⁹²⁾.

فسر قادة أبو كشك بعد مضي أيام عدة إجلاؤهم باعتباره قد نبع من عدة أسباب: 1- المتاريس التي أقامت الهاغاناه على الطرق... 2- القيود التي فرضتها الهاغاناه على التحرك سيرا على الأقدام، 3- سرقة [من قبل اليهود؟] السيارات، 4- اختطاف رجال الشيخ مونس من قبل الإرغون⁽⁴⁹³⁾.

فضلا عن ذلك، رحلت قبيلة عرب السواملة⁽⁴⁹⁴⁾ المجاورة وسكان كل من الجليل القبلية والجليل الشمالية خوفا من الهجمات اليهودية. وطلب سكان الجليل من جيرانهم اليهود العناية بممتلكاتهم ثم استأجروا سيارات يهودية، بموافقة الهاغاناه، لنقل أمتعتهم، بما في ذلك عشرات البنادق والمسدسات، إلى دار شريكهم علي قاسم أفندي القريب للاحتفاظ بها⁽⁴⁹⁵⁾.

خلال أيام، تواترت معلومات تفيد بأن أولئك الذين تم أجلاؤهم من أبو كشك والشيخ مونس والمناطق المحيطة بهما يعانون في مخيماتهم في قلقيلية (منطقة جلجولية)؛ حيث لم يجدوا أي مصادر للعيش وبدأت أموالهم في النفاد في وقت عاملهم فيه جيرانهم الجدد «بعداوة»⁽⁴⁹⁶⁾. وفي ضوء الشائعات التي ترددت بأن ممتلكاتهم تنهب فكر بعضهم في العودة⁽⁴⁹⁷⁾، بيد أنهم لم يقدموا على ذلك.

شهدت المنطقة الأبعد شمالا خلال الأسابيع الأولى للقتال عمليات فرار تجاه الشرق بشكل عام، بعيدا عن السهل الساحلي، من عدد من القبائل البدوية والعشائر⁽⁴⁹⁸⁾ - عرب البلاونة في 15-16 و31 ديسمبر 1947⁽⁴⁹⁹⁾، عرب الملائحة بالقرب من شيفاييم في 8 يناير⁽⁵⁰⁰⁾، عرب أبو رزق وعرب أبو خضر في 31 يناير-1 فبراير⁽⁵⁰¹⁾، عرب النصيرات 3 فبراير، عرب الشوبكي بالقرب من هرتسليا في 11 فبراير، عرب الرميلات وعرب الحويطات في 15 فبراير، عرب الكبارة جنوب الطنطورة 17 فبراير⁽⁵⁰²⁾، قبائل عرب الصفصافي الصغيرة و قبيلة صيدون الصغيرة التي عاشت في المرتفعات بين قيسارية وبرديس حنا مطلع فبراير⁽⁵⁰³⁾، عرب الحجازي في 25 فبراير، عرب الكوز في 23 مارس - عرب أماريز، وعرب الحق، وعرب الفلق كلهم رحلوا في 3 أبريل. وتمثل سبب الرحيل في الخوف من الهجمات اليهودية. بيد أنه تردد أن عرب النصيرات فروا بسبب «عمليات» الهاغاناه، كما فر عرب الشوبكي في أعقاب هجوم قامت به عناصر الإرغون على مخيماتهم⁽⁵⁰⁴⁾. وقد نظرت الهاغاناه إلى بعض تلك القبائل على أنهم موقعي مشاكل حقيقيين أو محتملين، الأمر الذي قد يكون سببا في «إشعال المنطقة بأكملها»⁽⁵⁰⁵⁾ ومن ثم فإنه كان من الأفضل أن «تنصحبهم» الهاغاناه بالرحيل. وقد أُخليت مخيمات عرب الرميلات (بالقرب من نتانيا وكيبوتس هاماغيل وكاديما) بعد حملة حرب نفسية قادتها الهاغاناه ضدهم⁽⁵⁰⁶⁾. كما أنه رُحل قاطنو إحدى المخيمات التابعة لقبيلة أبو كشك خلال عملية نفذتها عناصر الإرغون⁽⁵⁰⁷⁾. ومن جانب آخر فإنه من الممكن أن يكون إجلاء عرب النفيعات (جنوب غرب حديرا) تجاه الشرق بدءا من 28 مارس في أعقاب تحذير محتمل من اللجنة الوطنية في طولكرم من هجوم يهودي وشيك⁽⁵⁰⁸⁾.

في منتصف شهر فبراير تلقت قبيلة عرب وادي الحوارث (وهي قبيلة شبه حضرية تقع جنوب حديرا تعليمات من مدلول بك (قائد بجيش الإنقاذ) بإجلاء «النساء والممتلكات من المنطقة العربية»⁽⁵⁰⁹⁾. وليس من الواضح ما إذا كانوا قد انصاعوا لذلك. وبعد مرور شهر، أسفر كمين نصبته قوات الهاغاناه لسيارة أجرة عن مقتل ثلاثة أو أربعة من عرب وادي الحوارث، ومنذ ذلك الحين بدأوا في الرحيل «مؤكدین أن اليهود وعدوهم منذ البداية أنه لن يصيبهم أذى [إذا ما استمروا في البقاء]»⁽⁵¹⁰⁾، بيد أن صحيفة «فلسطين بوست» نقلت أن المفوض البريطاني

لحي السامرة (أي. أر. ريفين) نصح السكان بالترحيل ووفر حواصة عسكرية لأولئك الذين رحلوا بالفعل⁽⁵¹¹⁾. وقد استمرت عملية الإجلاء أسابيع عدة⁽⁵¹²⁾. وفي بداية شهر مايو أوصى الخبراء العرب للنواء إسكندروني بتدمير مساكن عرب وادي الحوارث فيما عدا ما بُني منها بالحجارة والذي «يمكن أن يصبح صالحا للسكن الآدمي [اليهودي]»⁽⁵¹³⁾.

كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى البدو، فر القرويون في شارون خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948، بشكل رئيس بسبب هجمات الهاغاناه أو الإرغون أو نتيجة للخوف من وقوع تلك الهجمات. كما أُجليت قرية الحرم (سيدنا علي) والواقعة على ساحل البحر المتوسط في الثالث من فبراير كذلك، بدافع الخوف من الهجمات اليهودية⁽⁵¹⁴⁾. وفي اليوم ذاته أُجليت قرية اطر أو المحمودية ولكن بعض سكانها رجعوا في الخامس عشر من الشهر ذاته⁽⁵¹⁵⁾، لهربوا مجدداً بعد مرور شهر⁽⁵¹⁶⁾. وأخيراً أُجليت أم خالد (شرق نتانيا) بدافع الخوف في العشرين من شهر مارس⁽⁵¹⁷⁾.

كما سبق أن رأينا، لم تكن سياسة الهاغاناه حتى نهاية شهر مارس تميل إلى فكرة الترحيل، بيد أنه كانت هناك مبادرة أو اثنتان غير مرخص بهما ففي بدايات شهر يناير أصدر بعض اليهود في منطقة وادي حديرا- حيفر تحذيراً شديداً لجيرانهم العرب بأن «يغادروا مكان إقامتهم الحالي...»⁽⁵¹⁸⁾ ومع ذلك، فليس هناك ما يدل على أنه كان لذلك تأثير فوري.

جرت عملية طرد مُصرَّح بها تعلقت بسكان قيسارية (جنوب حيفا)، الذين كانوا يقطنون ويزرعون أراضي يهودية وتابعة للكنيسة الأرثوذكسية اليونانية. وغادرت عائلته كبيرة القرية في العاشر من يناير⁽⁵¹⁹⁾. وعلى إثر الكمين الذي نصبته الهستدورت في الحادي والعشرين من شهر يناير لحافلة غادرت من فورها القرية، وقضى خلاله اثنان من العرب وجرح ثمانية (أحد القتيلين وعديد من الجرحى كانوا من سكان القرية)، رحل أغلبية السكان إلى قرية الطنطورة المجاورة⁽⁵²⁰⁾. وقررت الهاغاناه احتلال الموقع حيث تعلق الأمر بأراضي يهودية⁽⁵²¹⁾. وفي ضوء خشيته من إقدام البريطانيين على طرد عناصره، طلب قائد العملية من القيادة العامة الترخيص له بتسوية القرية بالأرض⁽⁵²²⁾. عارض إسحاق رابين، رئيس عمليات البالماخ، ذلك

غير أنه تم تجاهل تلك المعارضة. وفي ليلة 19-20 فبراير دمرت الكتيبة الرابعة من الباماخ المنازل، واقتادت ما يقرب من عشرين شخصا عُثر عليهم في الموقع إلى مكان آمن، في حين قام بعض أفراد القوة بنهب المنازل المهجورة⁽⁵²³⁾. وعلى الرغم من مرور أكثر من شهر على ذلك استمر العرب في الشكوى إلى العمد اليهود المحليين من أن أموالهم ومقتنياتهم الثمينة التي سُرقَت لم تعد إليهم⁽⁵²⁴⁾. ووفقا لأهارون كوهين: «بذل عرب قيسارية أقصى ما في وسعهم للمحافظة على السلام... وزود القرويون اليهود في حيفا وحديرا بالمنتجات الزراعية... وفُهم الهجوم في قيسارية- وليس فقط هناك - كمحاولة من قبل اليهود لإجبار العرب الذين يعيشون في المنطقة اليهودية على الرحيل...»⁽⁵²⁵⁾.

تجدر الإشارة إلى أن بعض عمليات الإجلاء عُجل بها نتيجة أوامر أو نصائح عربية. ففي أواخر شهر ديسمبر أمرت اللجنة الوطنية الإقليمية الحراس العرب في البساتين المحيطة بحديرا (خوفا على سلامتهم) بالرحيل بصحبة عائلاتهم، وقد قام بعضهم بالفعل بذلك⁽⁵²⁶⁾. كما أُخليت جرملة جزئيا في بداية شهر فبراير «بناء على أوامر من العصابات العربية» وهُجرت في نهاية المطاف مع حلول الأول من أبريل نتيجة الخوف⁽⁵²⁷⁾. وبالنسبة إلى سكان البريكة (جنوب شرق زخرون ياكوف) فإنهم تلقوا بشكل واضح أوامر- في بداية شهر مارس- من اللجنة العربية العليا بإخلاء القرية وبُبر ذلك بأنه يمكن استخدامها من قبل العناصر غير النظامية كقاعدة للهجوم على طريق حيفا- تل أبيب⁽⁵²⁸⁾. بيد أن معظم أو كل القرويين صمدوا بشكل واضح في أماكنهم.

الفرار من مجتمعات قروية أخرى

ديسمبر 1947 - مارس 1948

في الحادي والثلاثين من مارس 1948 كتب يوسف ويتز - في أعقاب زيارته لمناطق الشمال - إلى أبراهام غرانوفسكي (أو «غرانتوت»، رئيس الصندوق القومي اليهودي): «هناك توجه بين جيراننا... لأن يغادروا قراهم»، وأشار إلى رحيل سكان قومية (المعرفون تقليدياً بصدائقتهم)⁽⁵²⁹⁾ والواقعة في مرج ابن عامر⁽⁵³⁰⁾ والتي فر الجانب الأكبر من سكانها تقريبا في السابع والعشرين من مارس؛ نتيجة لشعورهم

الموجة الأولى: النزوح العربي...

بالعزلة وهشاشة الوضع؛ وربما يكونون قد تلقوا «نصيحة ودية» من جيرانهم في كيبوتس عين حارود، وبقي في القرية 15 رجلا وعدد من النساء لعدة أيام حتى نُقلوا مع ممتلكاتهم إلى خارجها بواسطة الجيش البريطاني في الثلاثين من مارس، وأُخِلت قوات الهاغاناه الموقع تماما⁽⁵³¹⁾.

شجع ويتز هذا «الاتجاه» للرحيل؛ حيث أدرك فور بدء القتال أن الظروف كانت مواتية لتهويد قطع أرض تم شراؤها وامتلاكها من قبل مؤسسات يهودية (الصندوق القومي اليهودي، PICA) والتي استمرت جماعات المزارعين المستأجرين العرب في احتلالها. لم يكن اليشوف، تحت الحكم البريطاني، بشكل عام قادرا على إبعاد هؤلاء السكان على الرغم من عرضه مبالغ تعويضية سخية. في بعض الحالات قبل المزارعون العرب المستأجرون التعويض واستمروا في احتلال الأرض. وقد ذهب ويتز إلى أن الظروف في مطلع العام 1948 (الحرب، والفوضى، والانسحاب البريطاني) مكنت أخيرا اليهود من الاستحواذ على هذه الأراضي، وعادة ما كانت هناك ضغوط من قبل الجيران اليهود لإبعاد المزارعين المستأجرين لتمكينهم من الأرض. وروى ويتز أنه في نهاية شهر مارس جاء إليه مستوطنون من نحلل ووادي بيت شيان (بيسان) وكفر يحزقيل لمناقشة «مشكلة أراضينا... وتحريرها من المزارعين المستأجرين، وقد اتفقنا على خطوات معينة للعمل...»⁽⁵³²⁾. لم يقتصر دور ويتز فقط على التعبير عن مواقف ساكني المستوطنات اليهودية؛ حيث إنه كان أيضا مُنفذا ومبتكرا للأفكار والسياسات. وقد بدأت أراؤه حول كيفية تسوية هذه المشكلة في التبلور في بداية شهر يناير، فعلى إثر لقائه بموظفي الصندوق القومي اليهودي في الشمال كتب في مذكراته:

أليس الآن الوقت للتخلص منهم [مشيرا على وجه التحديد إلى المزارعين

المستأجرين في يوكنعام و دالية الروحاء]؟ لماذا نستمر في الإبقاء على تلك

الأشواك بينما في وقت يمثلون خطرا علينا؟ إن شعبنا يدرس [الحلول]»⁽⁵³³⁾.

في العشرين من فبراير لاحظ ويتز أن البدو في وادي بيسان، الذي يمتلك اليهود جزءا كبيرا من أراضيه، بدأوا في عبور نهر الأردن، وحول هذا الموضوع كتب: «من الممكن أن يكون الوقت قد حان الآن لتنفيذ خطتنا الأصلية: أن ننقلهم هناك»⁽⁵³⁴⁾.

شرع ويتز خلال شهر مارس - ومبادرة ذاتية - بوضع خطته موضع التنفيذ وسعى في بداية الأمر إلى استصدار قرار مبدئي من رئاسة أركان الهاغاناه بطرد المستأجرين. ومع فشله في ذلك لجأ إلى توظيف صلاته الشخصية في المستوطنات ومع وحدات الهاغاناه المحلية وضباط جهاز استخباراتها، لتنظيم عدة عمليات طرد: حيث أقنع يهودا بورستين، ضابط استخبارات الهاغاناه في يوكنعام (جنوب شرقي يافا)، بأن «ينصح» المزارعين المستأجرين وأولئك الموجودين في الجوار (قيرة وقامون) بالرحيل، وقد انتهى الأمر بتحقيق ذلك بالفعل. وحينئذ قرر ويتز ورفاقه في الشمال محو منازل المزارعين وتدمير محاصيلهم ودفع تعويضات للمطرودين⁽⁵³⁵⁾. وفي الوقت ذاته نظم ويتز بالتعاون مع مستوطني كفر مازاريك طرد بدو عرب القوارنة الذين يستغلون خليج حيفا، وأيضاً طرد جماعات صغيرة من المزارعين المستأجرين في دالية الروحاء والبطيمات (جنوب شرقي حيفا)⁽⁵³⁶⁾.

بدأ ويتز قرب نهاية شهر مارس الضغط على القيادة العسكرية - السياسية (غاليلي - بن غوريون - شكولنيك) لاتخاذ قرار على المستوى القومي بطرد العرب من المنطقة المخصصة للدولة اليهودية وفقاً لخطة التقسيم، ومع ذلك فإن مطالبه المستمرة ومحاولاته لكسب التأييد قابلتها مقاومة أو مراوغة: فالقادة إما رفضوا وإما كانوا غير راغبين في إلزام أنفسهم بسياسة عامة للطرد⁽⁵³⁷⁾. ترك ويتز ليقوم بصورة شخصية بتشجيع عمليات طرد محلية. ففي السادس والعشرين من مارس على سبيل المثال، دعا خلال اجتماعه مع موظفي الصندوق القومي اليهودي إلى طرد السكان في قومية والطيرة المجاورتين معللاً ذلك بأنهم «لا يمكنهم أن يأخذوا على عاتقهم مسؤولية تسليح العناصر غير النظامية ... يلزم إجبارهم على ترك قراهم حتى يحل السلام»⁽⁵³⁸⁾.

أسفرت استراتيجية الهاغاناه القائمة على توجيه عمليات انتقامية قوية خلال الشهور الأولى للصراع عن هرب عدد من المجتمعات الريفية: منصوره الخيط (منصورة الحولة) الواقعة جنوب مشمار هياردين، أخليت مؤقتاً خلال ضربة انتقامية في الثامن عشر من يناير شهدت حرق خيام وأكواخ وقتل حيوانات المزارع. وكانت التعليمات الصادرة تتضمن «القضاء على أي شخص يُبدي مقاومة»⁽⁵³⁹⁾. وأجلي سكان الحسينية (الواقعة إلى الشمال) تماماً كما كانت عليه الحال في قرية العلمانية المجاورة، وبشكل

الموجة الأولى: النزوح العربي...

مؤقت كراد الغنامة وكراد البقارة في منتصف شهر مارس علي إثر ضربة وجهتها الباماخ ضد الحسينية ليلة 12-13 مارس، حيث أعلن عن تفجير عدد من المنازل وقتل عدة عشرات من العرب (بمن فيهم أعضاء من كتيبة المتطوعين العراقيين ونساء وأطفال) وأصيب عشرون آخرون بجراح، في حين قُتل ثلاثة من أفراد الكتيبة الثالثة التابعة للباماخ⁽⁵⁴⁰⁾. وقد أدهشت «فطاعة» الهجوم كلاً من الجنرال ماكميلان (قائد الجيش البريطاني في فلسطين) ويوسف نحمان (مدير الصندوق القومي اليهودي)؛ حيث إنه وفقاً للمعلومات الواردة للآخر من مصادره أعدم مختار الحسينية بعد التأكيدات التي تلقاها من القائمين بالغارة بأنه لن يصيبه أذى⁽⁵⁴¹⁾. يُذكر أنه شنت الغارة في أعقاب هجمات عربية متكررة على وسائل النقل اليهودية في الجولان.

في موقع آخر في الشمال هُجرت العديد من القرى إما بصورة كاملة أو جزئية بسبب الشعور بالعزلة والقابلية للتعرض للهجمات اليهودية. وكانت هذه هي الحال بالنسبة إلى خيام الوليد (شمال شرق صفد) التي هُجرت تقريباً بشكل كامل في الأسبوع الأخير من شهر مارس⁽⁵⁴²⁾، وفي الثالث من شهر مارس غادر سكان تل العبيدية (جنوب بحيرة طبريا) إلى منطقة الناصرة. كما أن السكان، خصوصاً من المناطق المزدهرة بالقرب من سمخ، رحلوا خلال الشهور الأولى للقتال لأسباب مماثلة، وهو ما فعله كذلك عرب البواطي شمال شرق بيسان، خصوصاً بعد هجمة من قبل الهاغاناه. كذلك هُجرت المزرعة، في غربي الجليل، مؤقتاً في السادس من شهر فبراير. وقرية وعرة السريس بالقرب من كريات أتا في الثاني عشر من الشهر ذاته إثر وجود العناصر غير النظامية⁽⁵⁴³⁾.

هُجر ثلاث قرى في حي القدس بشكل مؤقت خلال الفترة من يناير إلى مارس: قلنديا - العسوية - بيت صفا. وبالنسبة إلى العسوية فقد جاءت الهجرة تنفيذاً لأوامر اللجنة العربية العليا⁽⁵⁴⁴⁾. أما في بيت صفا فقد كان ذلك في أعقاب هجمات من الهاغاناه⁽⁵⁴⁵⁾، ومع ذلك تمت عملية تسكين كل السكان فيما بعد.

أسفرت عمليات القتال في الجنوب خلال شهر مارس في مناطق خط أنابيب المياه من اليشوف إلى مستوطنات النقب المعزولة عن هروب المجتمعات القبلية وشبه الحضرية حين قامت العناصر غير النظامية بتفجير خط الأنابيب، الأمر الذي تبعه شن عمليات ثأرية من قبل وحدات الباماخ من قبل وحدات الباماخ⁽⁵⁴⁶⁾. وقد هجر سكان قرية شعث الصغيرة (الواقعة قرب كيبوتس غفولوت بجوار خان يونس) بشكل مؤقت

بعد قيامهم في التاسع من شهر ديسمبر بقتل ستة أفراد من غفولوت، من بينهم امرأة، كانوا قد دخلوا القرية بطريق الخطأ⁽⁵⁴⁷⁾. وقد عاد السكان لاحقا إلى الموقع. بيد أنه خلال شهر يونيو 1948. فر العديد منهم إثر تدمير مطحنة، وأخيرا دُمرت وهُجرت القرية خلال هجمة قوات الدفاع الإسرائيلية في 22 يوليو 1948، وقد تضمنت الأوامر: تدمير القرية، وكما يبدو، قتل جميع السكان من الذكور⁽⁵⁴⁸⁾.

ردود أفعال السلطات العربية إزاء النزوح الجماعي

ديسمبر 1947 - مارس 1948

اتسمت ردود الأفعال العربية إزاء الهجرة الجماعية خلال الشهور الأولى من القتال بالارتباك وعدم التنسيق، مما عكس طبيعة العلاقات بين الدول العربية، وبين الدول واللجنة العربية العليا، وبين اللجان المحلية والمحليات، وبين السلطات المحلية المدنية المختلفة والعصابات والعناصر غير النظامية.

بدا النزوح الجماعي في بدايته على أنه مجرد إعادة إنتاج لما حدث في الفترة من 1936-1939، حين هرب ما بين 25-40 ألف فلسطيني بشكل مؤقت من البلاد⁽⁵⁴⁹⁾. وكما كانت عليه الحال آنذاك، فإن أغلب الذين أجلوا ووصلوا إلى البلاد العربية خلال الشهور الأولى من الحرب كانوا أساسا من عائلات الطبقات المتوسطة والعليا، وبالكاد شعر بوصولهم الذي لم يشكل عبئا على البلاد المضيفة. وفيما يخص الذين أجلوا من منطقة السهل الساحلي والشمال، فإنهم توجهوا بشكل رئيسي (على الأقل بالنسبة إلى القادمين من مراكز السكان العربية والقرى في الشرق) إلى داخل فلسطين (الناصرة و«المثلث»^(*)). وقد نظر أغلبهم إلى مغادرة الديار على أنه أمر مؤقت.

ومن ثم فإنه حتى نهاية شهر مارس كان للنزوح الجماعي تأثير محدود في الدول العربية ولم يقلق قادتها كثيرا، إن لم يكن على الإطلاق. ولم تقم الدول بعمل أي شيء للتعجيل من الهروب من فلسطين ولكنها شعرت مضطرة إلى قبول الرفاق العرب اللاجئين من حرب مقدسة مع اليهود، كذلك فإنهم لم يفعلوا أي شيء، بداية لمنع دخول اللاجئين. وفي حقيقة الأمر، قررت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية

(*) المقصود بالمثلث هو المدن الثلاث الكبرى في الضفة الغربية: جنين، نابلس، وطولكرم والقرى العربية التابعة لها. [المحررة].

الموجة الأولى: النزوح العربي...

قبيل الحرب، وفي اجتماعها خلال شهر سبتمبر (في صوفر بلبنان) «أن تفتح الدول العربية أبوابها لاستيعاب الرضع والنساء وكبار السن من بين العرب الفلسطينيين وأن ترعاهم إذا ما تطلبت التطورات في فلسطين ذلك»⁽⁵⁵⁰⁾. بدأ بعض القادة العرب آنذاك في إبداء قدر ضئيل من القلق⁽⁵⁵¹⁾. بيد أن قرارات الجامعة العربية كانت ملزمة، ومن ثم كان من الطبيعي أن تحجم الدول العربية إجمالاً عن منع اللاجئين من دخول أراضيها، على الرغم من أن اللجنة العربية العليا عارضت بشكل عام النزوح الجماعي وكانت معارضة لمنح اللاجئين تأشيرات دخول⁽⁵⁵²⁾.

أصدرت اللجنة العربية العليا في الثامن من يناير بياناً كذبت فيه أن تكون قد أصدرت أوامر بإجلاء المدنيين من بعض المناطق، وموضحة أنها تبنت فقط ترحيل الأطفال وكبار السن من القرى الواقعة على خط النار، وأضاف البيان أن على النساء البقاء ومساعدة الرجال المقاتلين⁽⁵⁵³⁾.

تمثلت المشكلة في أنه ليس فقط المعالين هم من رحل، ولكن أيضاً الذكور في سن التجنيد. ومع ذلك فإن أعدادهم كانت قليلة للغاية في البداية لتثير مخاوف جوهرية. ولم تبدأ الحكومات العربية في التعاطي مع المشكلة إلا في النصف الثاني من شهر مارس 1948، فقرابة الثاني والعشرين من ذلك الشهر اتفقت تلك الحكومات فيما بينها على أن تقوم قنصلياتها بمنح تأشيرات فقط لكبار السن والنساء والأطفال والمرضى، كما أمرت لبنان بإغلاق حدودها أمام الفلسطينيين فيما عدا النساء والأطفال⁽⁵⁵⁴⁾. ومن ثم تردد أنه في الثالث والعشرين من شهر مارس، رفضت القنصليات اللبنانية والسورية في حيفا منح تأشيرات «لسكان حيفا الكثيرين» الذين تقدموا ذلك اليوم بطلبات للحصول عليها⁽⁵⁵⁵⁾.

في المقابل كانت المشكلة من وجهة نظر فلسطينية أبعد مما تكون هامشية. فمنذ ديسمبر 1947 كانت اللجنة العربية العليا واللجان الوطنية تقاوم النزوح الجماعي؛ حيث ساد القلق بشكل خاص من فرار الذكور في سن القتال. وفي الرابع والعشرين من ذلك الشهر نقل أحد المرشدين لجهاز استخبارات الهاغاناه وجود توجيه سري (يُفترض أنه صادر عن اللجنة العربية العليا)... بمنع الذكور العرب القادرين على المشاركة في المعركة من مغادرة البلاد، وتطلب سفر أي منهم إلى الخارج موافقة المفتي شخصياً⁽⁵⁵⁶⁾.

وفقا لمصادر جهاز استخبارات الهاغاناه، لم يقتصر الرحيل على العائلات الغنية، التي كانت في أغلبها مسيحية، ولكنه شمل أيضا الطبقات العربية الأقل ثراء. وفي المقابل كانت اللجنة العربية العليا «تبذل قصارى جهدها لمنع السفر للخارج» وفرضت على أفراد العائلات الذين غادروا إلى سورية أو مصر «ضرائب باهظة»⁽⁵⁵⁷⁾. رصد جهاز الاستخبارات العسكرية البريطاني في نهاية شهر يناير قلق اللجنة من هذه الظاهرة؛ حيث أصدر المفتي أوامره لأولئك الذين رحلوا بالعودة معلنا أنه في حالة رفضهم لذلك «ستُشغل منازلهم بعرب آخرين (أجانب) جاءوا لتقديم الدعم (الدفاع)»⁽⁵⁵⁸⁾. وقد استفادت الهاغاناه دعائيا في إذاعاتها باللغة العربية من هروب الأغنياء - في حين أصدر قسم الإرشاد العام التابع للجنة العربية، برئاسة عبد الله الرماوي، تكذيبا يقول إن «العرب الذين سافروا للخارج لم يهربوا ولكنهم كانوا فقط يلتحقون بمعسكرات المحاربين [لتلقي التدريب قبل عودتهم للقتال] أو سافروا في مهمات وطنية»⁽⁵⁵⁹⁾ (وبشكل واضح لم تكن اللجنة العربية العليا قلقة من حركة السكان من بقعة فلسطينية إلى أخرى، ولكن فقط من المغادرة إلى بلد آخر)⁽⁵⁶⁰⁾.

تمثلت المشكلة، كما رصدها جهاز استخبارات الهاغاناه، في وجود ثغرات كثيرة (صحية، اقتصادية ... إلخ) كان من الممكن استثمارها:

منعت المؤسسات العربية [هروب] الذين رغبوا في الاستقرار في الخارج، ولكنها مازالت لا تمنع سفر أولئك [الذين يدعون] السفر لأسباب أخرى، على الرغم من أن كثيرا منهم، في حقيقة الأمر، سيصبحون لاجئين، بشكل واضح نتيجة لعدم وجود جهاز للبحث في تلك الحالات⁽⁵⁶¹⁾.

كانت اللجان الوطنية تشرف على أمور الحياة اليومية في كل مدينة، وتولي ممثليها، أو الميليشيات المحلية، في كل حي مهمات وضع التوجيهات الرئيسية قيد التنفيذ. وإجمالا، حاولت اللجان الوطنية (أحيانا نتيجة لمطالبات اللجنة العربية العليا، وأحيانا أخرى بشكل مستقل) أن تقاوم النزوح الجماعي، وعاقبت من وقت إلى آخر الفارين بحرق الممتلكات المهجورة أو مصادرة المنازل⁽⁵⁶²⁾. فعلى سبيل المثال منع رجال الميليشيات المحليون في حي مصرارة بالقدس في بدايات شهر يناير

الموجة الأولى: النزوح العربي...

1948 السكان من الإجلاء ومطالبتهم بأن «يحموا منازلهم كما يفعل اليهود»⁽⁵⁶³⁾. وفي ضوء عودة عدد قليل من الأفراد بعد صدور الأمر «لشباب قطمون بالعودة إلى أماكنهم» بعد مرور أيام عدة على تدمير فندق سميراميس، هددت الميليشيا المحلية باللجوء إلى «أشد الطرق»، كما هدد بفرض الغرامات وتوقيع عقوبات جسيمة على أولياء الأمور الذين يحولون دون عودة أطفالهم⁽⁵⁶⁴⁾. ومع نهاية شهر مارس أُجبر عدد كبير من الأشخاص على العودة⁽⁵⁶⁵⁾، ولم يُصدر تصريح بالمغادرة لأي شخص. وسمح لشخص واحد بأن يصطحب عائلته إلى لبنان مع إجباره على سداد مبلغ ألف جنيه إسترليني إلى اللجنة الوطنية وأن يتعهد بأن يعود شخصيا بعد ذلك⁽⁵⁶⁶⁾. أما في حي الطالبية بمدينة القدس فقد استنفدت المؤسسات العربية كافة وسائل الإقناع والتهديد للإبقاء على السكان من دون جدوى⁽⁵⁶⁷⁾. وعلى الرغم من قرار اللجنة العربية العليا بأن يتم «الاستيلاء» على أي منزل يهجره أصحابه⁽⁵⁶⁸⁾، استمر السكان في عملية الإجلاء⁽⁵⁶⁹⁾.

في الرابع عشر من ديسمبر 1947 قررت اللجنة الوطنية توجيه «تحذير من حركة الخروج من المدينة»⁽⁵⁷⁰⁾. كما قام الشيخ يونس الخطيب، خلال شهر يناير، «بمهاجمة الأغنياء الذين هربوا من المدينة خوفا على أن تُطلب منهم أموال لتمويل الذين أصابهم الأذى (خلال القتال)، وأوضح أنه طبقا للقانون الإسلامي يجب مصادرة ممتلكات أي شخص يفر من الجهاد»⁽⁵⁷¹⁾. وفي مدينة يافا أيضا فرضت لجنتها الوطنية غرامات على من يغادر وهددت بمصادرة ممتلكات من يرحل⁽⁵⁷²⁾.

أصدرت اللجان الوطنية أو الميليشيات في المدن، بين الفينة والأخرى، تعليمات إلى القرى المجاورة في الأمور المتصلة بالفرار أو الصمود. فعلى سبيل المثال أمر عبد الجبار (القائد العراقي في الرملة) مطلع شهر مارس 1948، القرويين من عرب أبو رزق بالعودة إلى قريتهم «وإلا يخشوا شيئا»⁽⁵⁷³⁾. وفي السابع والعشرين من فبراير أمرت اللجنة الوطنية في طولكرم (والتي هيمنت عليها المعارضة) سكان المدينة بـ «البقاء في أماكنهم» في حالة وقوع هجوم يهودي⁽⁵⁷⁴⁾. وقد أوضح جهاز استخبارات الهاغاناه أنه في بداية شهر مارس لم تكن اللجنة «معنية بخلق مشكلة لاجئين في مدينة طولكرم والقرى المجاورة»⁽⁵⁷⁵⁾.

في كثير من الأحوال أصدرت اللجان الوطنية والقادة العسكريون لجيش الإنقاذ للقرويين أوامر بإخلاء القرى لسبب أو لآخر. وعادة، كما كان عليه الوضع في حالة جيش الإنقاذ وقرية صبارين في مطلع شهر مارس⁽⁵⁷⁶⁾ والقدس وبيت صفا في وقت ذاته⁽⁵⁷⁷⁾، رغب رجال الميليشيات في أن يُجلى القرويون حتى تكون منازلهم متاحة للعناصر غير النظامية كمواقع أو أماكن للمبيت. وفي أوقات أخرى كان الإجلاء مدفوعاً بعدم الرغبة في ترك تلك المجتمعات تحت السيطرة اليهودية، كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى الأمر الصادر من اللجنة الوطنية لطولكرم في ديسمبر 1947 والموجه إلى عرب البلاونة بأن يكونوا «على أهبة الاستعداد لترك أماكنهم في أي لحظة»⁽⁵⁷⁸⁾. وأيضاً الأمر الصادر في شهر فبراير 1948 إلى عرب الفقارة بأن «يرحلوا» (ولكنهم رفضوا)⁽⁵⁷⁹⁾. وبشكل عام الأمر الصادر إلى «كل العرب في المنطقة... بأن يتركوا أماكنهم، وهو ما نُفذ»⁽⁵⁸⁰⁾. وصدرت أوامر مماثلة من قبل اللجنة الوطنية في غزة إلى بدو الوحيدات⁽⁵⁸¹⁾.

خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى يناير 1948 لم يؤسس المفتي واللجنة العربية لحملة واضحة وملتزمة وقوية لمواجهة النزوح الجماعي، بل إن التعامل مع ملف الفرار كان في أفضل حالاته يفتقر إلى الحيوية. وربما يعود ذلك إلى حقيقة أن بعض المسؤولين لم يكونوا مشغولين بدرجة كبيرة بمشكلة مازالت على مستوى منخفض، كذلك قد يكون من بين الأسباب أن عائلة الحسيني لم تشعر بالاستياء من رحيل عديد من عائلات الطبقتين العليا والمتوسطة المعروفة تقليدياً بتأييدها للمعارضة. وفضلاً عن ذلك شملت عملية النزوح الجماعي في مرحلتها الأولى عدداً من العائلات المرتبطة بالحسيني وكثيراً من أعضاء اللجنة العربية العليا؛ ومن ثم كان من شأن إدانتهم بقوة أن يُحدث لغطاً داخل معسكر الحسيني. وبشكل عام كان القادة الفلسطينيون أكثر سرعة في إدانة الفرار من القرى عنه بالنسبة إلى المدن. وفضلاً عما تقدم، كانت قبضة اللجنة العربية العليا ضعيفة في عديد من الأماكن، كما أن مجرد معارضة المفتي للهروب لم تكن تعني توافر ضمانات بأن اللجان الوطنية والعناصر غير النظامية ستقوم بفعل الكثير لإيقافه. فكما سبق أن رأينا، كان للقيادات المحلية والمليشيات غالباً مخاوفها وأولوياتها الخاصة. ففي مناطق عديدة - خاصة في المدن - واجهت اللجان الوطنية عقبات جمة في سعيها إلى إيقاف النزوح الجماعي في

الموجة الأولى: النزوح العربي...

ضوء حقيقة أن كثيرا من الذين رحلوا كانوا من بين أقاربهم ومعارفهم، بل إن أعضاء في اللجان الوطنية كانوا من بين الفارين. ومع ذلك فإن القيادات المحلية وقادة الميليشيات (سواء كان ذلك طاعة لأوامر اللجنة العربية العليا، أو بشكل مستقل) لم يشجعوا على الفرار، بل وصل الأمر إلى حد قيامهم بإصدار تحذيرات رسمية وفرض جزاءات. بيد أن كل ذلك كان له أثر ضئيل.

كمن أحد الأسباب الرئيسية في فشل المؤسسات العربية في وقت النزوح الجماعي في الفقرة التي تبنتها كل من الدول العربية، والمفتي، وبعض اللجان العربية فيما يتصل بالنساء وكبار السن والأطفال. ففي بعض الأوقات سمح بشكل واضح، بل شُجعت، عملية إجلاء النساء والأطفال وكبار السن من مناطق المعارك الفعلية أو المحتملة لكي يقلل من الخسائر البشرية - وهو ما تماشى مع توجيهات الجامعة العربية قبيل الحرب، وفضلا على ذلك، ربما كان يعتقد، مخطئا، أن رحيل الأفراد المُعالين ربما يقوي من دوافع الذكور على القتال.

لم يصدر الحسيني تعليمات مفصلة ومباشرة وشخصية للجان الوطنية للتصدي للنزوح الجماعي إلا بحلول مارس 1948، فقد كتب إلى اللجنة في طبريا:

تُدرك اللجنة العربية العليا أن عددا كبيرا من الفلسطينيين يغادرون الوطن إلى البلاد المجاورة «الشقيقة»... بسبب الوضع السائد... وتعتبر اللجنة ذلك هربا من ساحة الشرف والتضحية، كما ترى أنه يُلطخ حركة الحرب المقدسة وكذلك اسم الفلسطينيين في الدول العربية، فضلا عن أنه يُضعف من مساعدة الشعوب العربية للقضية الفلسطينية، ويترك آثارا ضارة على اقتصاد وتجارة فلسطين بشكل عام....

وقد اشتكت الحكومات العربية للجنة العربية العليا في هذا الخصوص.

لقد درست اللجنة العربية العليا هذه الملف المهم من جميع جوانبه وقررت أن مصلحة الأمة تتطلب أن تستمر أنشطة الفلسطينيين وعملهم داخل بلادهم، وعدم تركها إلا في حالة الضرورة للمصلحة العامة ولأسباب ذات أهمية سياسية أو تجارية أو طبية، بموافقة اللجنة وبالتنسيق مع اللجان الوطنية.

أضاف الحسيني أنه في «المناطق التي يكون فيها خطر حقيقي على النساء والأطفال، وكبار السن، يلزم عليهم المغادرة لمناطق أخرى بعيدة عن مصدر الخطر».

أما أولئك الذين يرغبون مع ذلك في السفر خارج البلاد فيجب أن يتقدموا بطلب إلى اللجنة الوطنية التي يتبعونها، والتي ستدرسه وترفعه مشفوعا بتوصية إلى مكاتب اللجنة العليا في القاهرة أو القدس، وستتخذ اللجنة القرار في حينه⁽⁵⁸²⁾.

تم توجيه أمر مماثل (أو متطابق) إلى اللجنة الوطنية في القدس تضمن في جوهره أن «المفتي يعلم أن هناك عددا كبيرا من العرب يغادرون البلاد، وهو يعارض ذلك لأن النزوح الجماعي يولد انطبعا سينا عن عرب فلسطين لدى الرأي العام في الدول العربية»، وكتب الحسيني محمدا أنه فقط الأشخاص الذين لديهم «سبب مهم سياسي أو اقتصادي أو طبي» يمكن السماح لهم بالسفر، موضحا أنه في حالة وجود خطر في جزء من فلسطين يكون من المسموح إخراج النساء والأطفال وكبار السن إلى أجزاء أخرى أكثر أمانا، ولكنه «في أي حال من الأحوال لا يمكن السماح للعرب بترك فلسطين»⁽⁵⁸³⁾. وقد نقل جهاز استخبارات الهاغاناه في 29-30 مارس أن «اللجنة العربية العليا لم تعد تسمح بتصاريح الخروج لدوافع الخوف الناجمة عن حالة الذعر في البلاد»⁽⁵⁸⁴⁾. كما أفاد أحد ضباط الجهاز في الجليل (في الحادي والثلاثين من الشهر ذاته) بأنه: «يُنظر إلى كل عربي يغادر البلاد على أنه خائن، وسيكون معرضا للمحاكمة في سورية. كما أن كل شخص يريد الحصول على تصريح خروج يلزم عليه الحصول على موافقة اللجنة العربية في حيفا»⁽⁵⁸⁵⁾، ولخص الضابط المشار إليه الوضع قائلا إن تلك الأوامر شجعت كلا من سورية ولبنان على إغلاق حدودهما أمام اللاجئين في نهاية شهر مارس⁽⁵⁸⁶⁾.

على الرغم مما تقدم لم تتوقف عملية التقدم بطلبات الحصول على تأشيرات من القنصليات العربية في فلسطين. وفي هذا الصدد أوضحت مصادر استخبارات الهاغاناه أن القنصليات، بالتعاون مع اللجنة العربية العليا، كانت تحاول وضع عراقيل أمام الراغبين في الرحيل بغية تقليل عدد التأشيرات التي تُصدرها، بيد أن اللجنة كانت توافق على إصدار تأشيرات خاصة في مقابل رشاء الأمر الذي اشتكى منه بعض القناصل⁽⁵⁸⁷⁾.

نظر أعضاء اللجنة الوطنية الذين بقوا في فلسطين بشكل عام إلى النزوح الجماعي نظرة شك وريبة، وقد عكست مقالة في صحيفة «الصريخ» الصادرة في يافا بتمويل عراقي بتاريخ 30 مارس المنهج الذي تبناه هؤلاء:

الموجة الأولى: النزوح العربي...

جلب علينا سكان قرية الشيخ مونس الكبيرة وكثير من القرى العربية المجاورة للقدس الخزي والعار بمغادرة قراهم بشكل تام. ولا يمكننا مقارنة هذا النزوح الجماعي المخزي بالموقف الحازم الذي تتبناه الهاغاناه في المواقع كافة بالأراضي العربية... فالجميع يعلم أن الهاغاناه تدخل المعركة مبتهجة في حين نقوم نحن دائما بالفرار منها⁽⁵⁸⁸⁾.

لخص القسم العربي التابع لجهاز استخبارات الهاغاناه، في يونيو 1948، مواقف وسياسات اللجنة العربية العليا تجاه النزوح الجماعي خلال الأسابيع الأولى للحرب على النحو التالي:

سعت المؤسسات العربية إلى محاربة ظاهرة الفرار والإجلاء وكبح موجات الهجرة إلى الخارج، وقررت اللجنة العربية العليا... أن تتبنى إجراءات للإقلال من الهروب من خلال القيود، والعقوبات، والتهديدات، والدعاية في الصحف والمذيع وغيرها. كما سعت اللجنة إلى تعبئة المساندة من الدول المجاورة في هذا الصدد... وبصفة خاصة عملت اللجنة على منع هروب الشباب في سن التجنيد. بيد أن أيا من هذه الإجراءات لم يحالفه النجاح... فأعمال الجهاز العقابي كشفت عن الفساد، فمقابل الرشوة بدأت السلطات في تسليم تراخيص للسفر، ومع النزوح الجماعي خلال شهري أبريل ومايو انهار الجهاز، واقتصر الأمر فقط على ترديد الدعاية [ضد الفرار] هنا وهناك من دون أن يؤدي ذلك إلى تحقيق نتائج عملية.

شهدت الفترة من ديسمبر 1947 حتى نهاية شهر مارس 1948 بداية النزوح الجماعي لعرب فلسطين من المناطق التي خُصصت للدولة اليهودية وأيضاً تلك المتاخمة لها، وقد ساهمت دوامة العنف في الإسراع من عمليات الفرار من قبل الطبقتين الوسطى والعليا من المدن الكبرى، خصوصاً حيفا، ويافا، والقدس، والتجمعات الريفية المحيطة بها، كما أنه دفع تدريجياً، إلى إجلاء العرب قاطني المناطق الريفية الواقعة في قلب أراضي الدولة اليهودية (السهل الساحلي بين تل أبيب وحديرا)، وكان وراء عملية إجلاء جزئي وعلى مستوى صغير لمناطق ريفية أخرى شهدت عمليات قتالية ضمت تجمعات يهودية كبيرة (على وجه التحديد: مرج ابن عامر ووادي الأردن).

رحل العرب الذين أخلوا المدن والقرى بشكل كبير بسبب الهجمات اليهودية (من قبل الهاغاناه، والإرغون، والهستدروت) أو نتيجة للخوف من هجمات وشيكة، فضلا عن سيادة الشعور بالضعف والعرضة للخطر. فالشعور الذي ساد هو أن العرب ضعفاء وأن اليهود أكثر قوة. كما كان هناك تآكل مستمر في الثقة بالقوة العسكرية العربية. ولم يفكر على الإطلاق أغلب الذين أجلّوا، خصوصا من بين العائلات الحضرية المزدهرة، في الإقامة الدائمة بالمهجر، وإنما اعتقدوا أن الأمر سيكون مجرد فترة غياب قصيرة المدى زمنيا تشابه ما حدث في العام 1936-1939، والتي دامت حتى نهاية القتال، وحداهم الأمل في أن تحلق الهزيمة باليشوف، كما أنهم توقعوا تدخل، وربما انتصار الدول العربية.

لم تغادر في تلك المرحلة سوى نسبة صغيرة للغاية من اللاجئين بناء على أوامر طرد أو «نصيحة» قهرية من قبل الهاغاناه أو الإرغون أو الهستدروت، وفي المقابل فإن كثيرين (خاصة النساء، والأطفال، وكبار السن) غادروا نتيجة أوامر أو نصائح من القادة العسكريين أو المسؤولين العرب. فالمخاوف المتصلة بسلامتهم كانت وراء تلك الخطوات أكثر منها الاستراتيجية الضخمة للتهجير. وأخيرا، تلقى القليلون أوامر أو نصائح بمغادرة فلسطين، ولكن بصفة عامة كانت الأوامر أو النصائح تتضمن الانتقال إلى مناطق أكثر أمانا داخل البلاد تكون فيها أغلبية سكانية عربية مهيمنة. خلال تلك الفترة لم يكن لدى اليشوف أو القيادة العربية في فلسطين أو حتى الدول العربية سياسة تهدف إلى تحريك أو نقل العرب إلى خارج فلسطين، وباستثناء المزارعين المستأجرين، فإن عمليات الطرد القليلة التي تمت كانت لاعتبارات عسكرية يهودية. أما الحالات التي أمر فيها القادة العسكريون العرب بأن تُخلى قرى بكاملها فقد كان وراءها اعتبارات عسكرية وسياسية في آن واحد.

وبشكل عام فإنه قبل حلول شهر أبريل 1948 ناضلت القيادة الفلسطينية، وإن لم يكن ذلك بحمية، ضد النزوح الجماعي. وعلى الرغم من أن اللجنة العربية العليا، اللجان الوطنية بشكل عام، عارضوا عملية الهروب، فإنها لم تتوقف.

الموجة الثانية : النزوح الجماعي الضخم (أبريل - يوليو 1948)

في نهاية شهر مارس نظر اليشوف إلى تطورات الأوضاع نظرة توجس وريبة؛ حيث وجد نفسه في وضع حرج على كل الأصعدة، سياسيا، بدت الولايات المتحدة كأنها تسحب التزامها بالتقسيم وتضغط في اتجاه «الوصاية» - بمعنى تمديد فترة الإدارة الأجنبية إلى بعد تاريخ الخامس عشر من مايو. وعسكريا، كانت الهجمات الفلسطينية على الطرق، التي تعيق القوافل اليهودية، تخنق القدس الغربية ببطء وتهدد بقاء تجمعات المستوطنات النائية. وفضلا عن ذلك، لم يكن من الممكن الوصول إلى مستوطنات الجليل سوى عبر طريق وادي الأردن أو طريق نهاريا - الجليل الشمالي، وكلاهما هيمنت عليه القرى العربية، وفيما يتصل بنهاريا وكيوتس الجليل الغربي فقد

«مثلت عملية نحشون حدا فاصلا من الناحية الإستراتيجية وتميزت بتوافر النية وبذل الجهد لتطهير منطقة كاملة بشكل دائم من القرى المعادية، أو التي يمكن أن تكون معادية»

المؤلف

فصلتهما عن حيفا اليهودية عكا وسلسلة ممتدة من القرى العربية. حيفا ذاتها كان من غير الممكن الوصول إليها انطلاقاً من تل أبيب عبر الطريق الساحلي الرئيسي نتيجة لسيطرة سلسلة من القرى العربية على الطرف الشمالي. أما كيبوتس مشمار هعيمك العتيق الذي يقف على الطريق الرئيسي المتجه من المثلث إلى حيفا فقد كان بدوره محاطاً بالقرى العربية. وإلى الجنوب، في تلال الخليل، كانت المستوطنات الأربع الواقعة في غوش عتصيون تحت الحصار، في حين خضعت مستوطنات النقب الإحدى والعشرون للحصار بشكل متقطع، فضلاً عن تعرض خط أنابيب المياه الحيوي لعمليات تخريب بشكل مستمر. وقد وقعت ثلاث قوافل يهودية كبرى (يحيام، والنبي دانيال، وخلدة) في كمائن وتم تدميرها خلال الأسبوع الأخير من شهر مارس، وترتب على ذلك مصرع أكثر من مائة من عناصر الهاغاناه وتدمير الجانب الأكبر من أسطول حافلاتها المدرعة. وأخيراً، فإن الانسحاب البريطاني - الذي كان من شأنه أن يزيل آخر مظهر من مظاهر القانون والنظام في المدن وعلى الطرق - كان مقرراً بعد بضعة أسابيع، في وقت بدأت فيه الدول العربية المجاورة في عملية التعبئة للتدخل العسكري، مما يعني أن اليشوف كان يناضل من أجل بقائه على الوجود، حيث قد يؤدي الغزو من قبل الدول المجاورة إلى توجيه الضربة القاضية له.

أخذين هذا الموقف وما يتضمنه من احتمالات، أعد قادة الهاغاناه في بدايات شهر مارس «الخطة دالت» (أو «الخطة د»)، التي كانت بمنزلة برنامج عمل لتأمين الدولة اليهودية الناشئة، فضلاً عن الكتل الاستيطانية الواقعة خارج حدود الدولة، ضد الغزو المتوقع في الخامس عشر من مايو أو بعد ذلك. تضمنت الخطة ضرورة حسم المعركة ضد الميليشيات والعناصر غير النظامية الأجنبية حتى تكون هناك فرصة لهزيمة الجيوش الغازية. ولكسب معركة الطرق كان على الهاغاناه أن «تهدئ» أو تضيي طابع السلام على القرى والمدن التي تهيمن عليها وتم استخدامها كقواعد لشن العمليات العدائية، والتهدئة كانت تعنى استسلام القرى أو تفريغها من السكان وتدميرها. وتمثل جوهر الخطة في ضرورة تطهير أراضي الدولة اليهودية المزمع قيامها من العناصر المعادية، أو التي يمكن أن تكون معادية، والمتواجدة داخلها؛ وإقامة تواصل جغرافي بين التكتلات الرئيسية للشعب اليهودي؛ وتأمين

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

حدود الدولة المستقبلية قبيل الغزو المتوقع. وفي هذا السياق، نظرت الهاغاناه إلى جميع القرى باعتبارها معادية إما بشكل فعلي أو محتمل.

لم يكن واضعوا الخطة، وعلى رأسهم يادين (قائد العمليات)، على علم بما إذا كان البريطانيون سينسحبون شيئاً فشيئاً أو تدريجياً من مناطق مختلفة من البلاد خلال الأشهر والأسابيع التي ستسبق الخامس عشر من مايو، أم أنهم سيقومون بذلك بشكل مفاجئ وكثيف مرة واحدة في هذا التاريخ أو قبله بقليل. وفي كلتا الحالتين رأى يادين تفعيل الخطة في الأسبوع الذي يسبق 15 مايو. وعلى الرغم من ذلك فرضت الحقائق على أرض الواقع (الهجوم العربي الذي قطع خطوط الاتصال، ومحاصرة المستوطنات، والانسحاب التدريجي والمبكر للقوات البريطانية من مناطق واسعة دفعة واحدة) على رئاسة أركان الهاغاناه تقديم موعد تنفيذ الخطة. وكان وضع الخطة دالت موضع التنفيذ بشكل تدريجي خلال الفترة من أبريل - مايو يتطلب تتبع أثر القوات البريطانية في عملية انسحابها في كل حي. وفضلاً عن ذلك كانت أغلب العمليات التي تمت نتيجة للهجمات أو التهديدات العربية. وبشكل عام، اتبعت وحدات الهاغاناه الأسس الإستراتيجية والتكتيكية التي رسمتها الخطة، ومع ذلك فإنه في جزء منها كان مسار العمليات تفرضه المتطلبات الخاصة للموقف وطبيعة الخطر. دافعت الخطة عن ضرورة وضع نهاية سريعة للحرب الأهلية وحرب المليشيات بين السكان في المناطق المختلطة والتفرغ للحرب التقليدية المباشرة التي انطلقت مع الغزو العربي في 15-16 مايو.

لم تكن الخطة دالت برنامجاً سياسياً لطرد عرب فلسطين⁽¹⁾؛ لكنها كانت محكومة باعتبارات عسكرية وتهدف إلى تحقيق أهداف عسكرية. بيد أنه بالنظر إلى طبيعة الحرب واختلاط السكان، كان تأمين الداخل وحدود الدولة اليهودية يعني من الناحية العملية تفريغ المناطق من قاطنيها وتدمير القرى التي كانت تؤوي مليشيات وعناصر غير نظامية معادية. وطالبت الخطة بالقيام "بعمليات ضد تجمعات العدو الموجودة خلف أو داخل أو بالقرب من خطوط الدفاع، بهدف منع استخدامها كقواعد لقوات مسلحة نشطة". وبالنظر إلى حجم فلسطين وطبيعة الحرب، فقد كانت تقريباً كل قرية تقع داخل أو بالقرب من أراضي الدولة اليهودية المقررة تقع على طريق رئيسي أو في منطقة حدودية أو بالقرب من المحاور المحتملة

لتقدم الجيوش العربية. وقد قضت الخطة بالإخضاع التام أو الاحتلال الدائم أو التسوية بالأرض للقرى والمدن. وتضمنت التعليمات أن يتم تطويق القرى والتفتيش عن الأسلحة والعناصر غير النظامية الموجودة بها. وفي حالة وجود مقاومة، يتم تدمير القوات المسلحة الموجودة بالقرية وطرد سكانها، أما في حالة عدم وجود مقاومة فيقتصر الأمر على نزع سلاح القرية وإقامة حامية عسكرية فيها. بعض القرى المعادية لزم تدميرها «عن طريق الحرق أو الهدم ووضع الألغام بين الأنقاض - خاصة القرى التي «ليس في استطاعتنا السيطرة عليها بشكل دائم». أرادت الهاغاناه منع إمكانية إعادة استخدامها لاحقا كقواعد ضد اليشوف⁽²⁾.

خولت الخطة كل لواء حرية التعامل مع القرى الواقعة في منطقة عملياته؛ حيث صدرت التعليمات لكل لواء متضمنة:

خلال عملية الاستيلاء على القرى في مناطق عملياتكم، يرجع لكم تحديد ما إذا كان من الضروري تطهيرها أو تدميرها، وذلك بالتشاور مع مستشاريكم للشؤون العربية وضابط استخبارات الهاغاناه... ويُصرح لكم قدر الإمكان بتقييد عمليات تطهير وإخضاع وتدمير قرى العدو في مناطق عملياتكم⁽³⁾.

لم يتم تفسير أو استخدام الخطة من قبل كبار الضباط العاملين في الميدان على أنها تصريح مفتوح لطرد "العرب"، إلا أنها بنصها على الطرد أو التدمير للقرى التي تبدي مقاومة أو تلك التي قد تمثل تهديدا لليشوف وفرت أساسا لعقيدة إستراتيجية وأعطت «تصريحا مطلقا» للقيام بعمليات الطرد من قبل قادة الجبهة والألوية والأحياء والفرق (الذين تعللوا في كل حالة بالضرورة العسكرية)، كما أنها وفرت للقادة العسكريين، بأثر رجعي، غطاء رسميا مُقنعا لأنشطتهم. بيد أنه خلال الفترة من إبريل إلى يونيو، واجه عدد قليل نسبيا من القادة العسكريين المعضلة المعنوية التي تفرضها عملية تنفيذ التعليمات الخاصة بالطرد؛ حيث كان يفر سكان المدن والقرويون عادة قبل أو خلال المعركة، وكان من النادر أن يضطر قادة الهاغاناه إلى إصدار أوامر بالطرد (على الرغم من قيامهم، بشكل أو بآخر، بمنع السكان الذين فروا من العودة إلى ديارهم بعد هدوء غبار المعركة).

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

من الناحية العملية تم وضع «الخطة دالت» قيد التنفيذ خلال الأسابيع الثمانية التي تلت الثاني من أبريل، غير أن معظم الوحدات التي كانت تقوم بالهجمات والهجمات المضادة لم تكن على دراية بأنها تقوم في واقع الأمر بتنفيذ أجزاء من مخطط كبير؛ كان معظمهم يفكر انطلاقاً من نوعية المشكلات والأخطار المحلية ومدى تحسن الأوضاع. أما لواء إسكندورني (الذي كان مسؤولاً عن السهل الساحلي من شمالي تل أبيب إلى جنوب حيفا)، فقد كان الوحيد الذي ينظر منذ البداية إلى عملياته الهجومية (التي بدأت مطلع شهر إبريل) باعتبارها تنفيذاً لأجزاء من «الخطة دالت». وفي واقع الأمر، أصدر اللواء أوامر لكتائبه خلال الأسبوع الأول من شهر أبريل بضرورة «استكمال تنفيذ الخطة خلال الأسابيع التي تلت الثامن من الشهر نفسه»⁽⁴⁾، أما في المناطق الأخرى، فقامت ألوية الهاغاناه بشن هجمات وهجمات مضادة وفقاً لروح «خطة دالت» من دون أن تدرك أنها كانت تقوم فعلياً بذلك. وخلال عملية نحشون (2-3 أبريل - 20 أبريل) في ممر القدس، وفي الشمال، في معارك مشمار هعيمك (4-15 أبريل)، ورامات يوحانان (12-16 أبريل)، وطبريا العربية (16-18 أبريل)، وحيفا العربية (21-22 أبريل)، وعملية يفتاح في الجليل الشرقي (15 أبريل - 15 مايو)، وعملية بن عامي (الجزءان الأول والثاني) في الجليل الغربي (13-22 مايو)، قامت الهاغاناه للمرة الأولى بإخضاع وتفريغ سلسلة كاملة من القرى من سكانها (وتسويتها بالأرض في أحيان كثيرة)، مما أدى إلى تطهير طرق المواصلات ومناطق الحدود.

إذا ما نحينا جانبا الخطة دالت، فلا يمكن العثور على أي أثر لأي قرار من قبل الأجهزة العليا في اليشوف أو الهاغاناه قبيل مطلع شهر أبريل متضمنا سياسة وطنية واضحة «لطرده العرب». وفي حالة ما إذا كان مثل هذا القرار قد تم اتخاذه من حيث المبدأ من قبل اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية أو لجنة الدفاع أو القيادات المحلية للهاغاناه أو رئاسة أركانها، فإنه كان من الضروري أن يكون له أثر في الوثائق. يضاف إلى ذلك - وربما بشكل مثير عند التأمل في الأحداث الماضية - أنه لا يوجد دليل - باستثناء خطاب أو اثنين مهمين لكن منفصلين صادرين عن بن غوريون - على وجود أي توقعات عامة في اليشوف لحدوث نزوح جماعي عربي من الجزء اليهودي في فلسطين. وعلى الرغم من أن معظم قادة اليشوف كانوا ينظرون

إلى مثل ذلك النزوح الجماعي باعتباره أمرا مرغوبا فيه، فإنه حتى مطلع شهر أبريل لم يتم اعتبار ذلك أمرا مرجحا أو وشيك الحدوث. وترتب على ذلك أن أدهش بدء النزوح الجماعي حتى أكثر المتفائلين والمتشدددين داخل الأجهزة التنفيذية لليشوف، بمن في ذلك مناصرو ومؤيدو الترانسفير (النقل)، من قبيل يوسف ويتز. فعندما زار يافا في الثاني والعشرين من أبريل 1948 وشاهد بعينه بداية الهروب الجماعي من المدينة سأل نفسه والخوف بداخل أحشائه عن السبب؛ فقد كان يخشى «أن الأمر ربما يكون مؤامرة تم تدبيرها (بين البريطانيين والعرب) ضدنا... كما أن عملية الإجلاء ربما قد تُسهل من الحرب ضدنا». وفي اليوم التالي كتب: «شيء ما في عقلي الباطن يخيفني من هذا الفرار»⁽⁵⁾. وبعد مرور أسابيع قليلة ذكر بن غوريون لوزرائه: «لقد سقطت عكا ولم يتبق فيها الكثير من العرب، وهذه الظاهرة يصعب فهمها، بالأمس كانت في يافا، لا يمكنني أن أتفهم كيف أمكنهم ترك مثل هذه المدينة...»⁽⁶⁾. وكان بن غوريون مندهشا على وجه الخصوص من عمليات إجلاء المناطق الريفية، «إن الافتراض الذي كان سائدا بيننا هو أنه لا يمكن تحريك القرية من مكانها، لكن الحقيقة هي أن القرى العربية تم إجلاؤها أيضا حتى عندما لم يكن هناك أي خطر. على سبيل المثال، لم تكن قرية الشيخ مونس معرضة للخطر، ومع ذلك تم إجلاؤها»⁽⁷⁾.

شهد النصف الأول من شهر أبريل حدوث تغير استراتيجي حاسم؛ حيث تم العثور على آثار واضحة لسياسة طرد على المستويين القومي والمحلي فيما يتصل ببعض الأحياء والمواقع الرئيسية، وتم رصد "مناخ عام مؤيد للترانسفير" في الخطاب التي ألقاها مسؤولون وضباط صهيانية، كما أن ذلك يبرز أيضا في الأعمال التي قامت بها وحدات الهاغاناه في أماكن مختلفة من البلاد؛ بما يعنيه ذلك من حدوث تغير جوهري في أوساط القيادة السياسية والعسكرية. ففي الفترة من 4 إلى 9 أبريل وتحت وقع الموقف الكارثي في القدس اليهودية وهجمات جيش التحرير العربي على مستوطنة ميشمار هعيمك، فضلا عن الضغوط التي مارسها المستوطنات والقادة العسكريون المحليون، اتخذ بن غوريون ورئاسة أركان الهاغاناه، بشكل يتماشى مع "خطة دالت"، قرارا بتطهير وتدمير مجموعة القرى المعادية أو المحتمل أن تصبح معادية وتهيمن على المحاور الرئيسية. وربما يكون قد تم التوصل إلى هذا

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

القرار بشكل مبدئي مؤقت ووثيق الصلة بأعمال انتقامية في منطقتين محددتين: الطريق الساحلي، وطريق القدس- تل أبيب، أو قد يكون قرارا من حيث المبدأ يتصل بالمناطق التي تم تخصيصها لتقع تحت السيادة اليهودية، وواقع الأمر أننا لا نعلم الحقيقة. وفي كل الأحوال، تم إضفاء الصفة الرسمية والمؤسسية على سياسة تفرغ المجتمعات العربية التي تقع على الطرق المحورية أو المتاخمة لها، وتلك الواقعة على امتداد بعض الحدود من سكانها، وصدرت أوامر من قيادة أركان الهاغاناه إلى قادة الوحدات المعنية ليقوموا بإخراج وطرد - إذا ما كان ذلك ضروريا- السكان المتبقين في المجتمعات على طول محاور الطريق بين تل أبيب وحيفا، وطريق جنين- حيفا (حول مستوطنة مشمار هعيمك) وطريق القدس- تل أبيب، وذلك باستثناء الفريديس، وعرب الغوارنة، (جسر الزرقاء) على طريق تل أبيب - حيفا، وأبو غوش (على طريق تل أبيب-القدس). وعلى الرغم من عدم صدور توجيهات شاملة وعامة حول الطرد من قبل السلطات السياسية الحاكمة أو الأجهزة العسكرية، فإن الأشهر التالية شهدت تبني وتنفيذ العديد من الضباط والوحدات سياسة الطرد، وجرى تنفيذ عمليات من هذا القبيل بشكل فردي. وكما ذكر أحد ضباط الاستخبارات بقوات الدفاع الإسرائيلية على استحياء: «يسود رأي بأنه يلزم علينا أن نضاعف من طرد العرب من أراضي دولة إسرائيل؛ حيث إن بقاءهم يجعل ممارسة الوظائف الإدارية أكثر صعوبة، كما أن معنويات السكان تتدهور مع كل موجة من اللاجئين»⁽⁸⁾.

أبرزت مداولات مستشاري الشؤون العربية للهاغاناه في مركز العمليات المركزي (الإسكندروني) هذا التحول الجوهرى في منطق التفكير بشكل صارخ. فخلال لقائهم في الحادي والثلاثين من شهر مارس بالقرب من نتانيا، ركز المستشارون على حماية الممتلكات المهجورة من قيام اليهود بنهبها. وفي هذا الخصوص وضعوا خطوطا استرشادية فيما يتصل بالحصاد وبيع محاصيل البساتين والحقول التي تم هجرها، ومن بين ذلك تأجيل حصاد الحبوب لمدة أسبوعين «انتظارا لأن يتضح ما إذا كان من الممكن أن يحضر الملاك الأصليون (ويُسمح لهم) بأن يقوموا بجني (المحاصيل) بأنفسهم، فالقرار بشأن عملية الجني ومن يقوم بها تم تأجيله حتى الاجتماع الثاني (التالى)». فضلا عن ذلك فإن المستشارين قرروا «إزالة» خيام وأكواخ البدو التي تم هجرها، خشية أن يتم استخدامها كملاذ للنوم من قبل «السارقين والمشتبه

فيهم». وبشكل عام فإن القرار المتصل بعودة العرب إلى المناطق التي تركوها تم تأجيله إلى الاجتماع التالي (وطلب إلى قادة المناطق إقامة حواجز على الطرق "للتدقيق" في العرب الداخلين، بما يعنيه ذلك من إمكانية السماح لهم جميعاً أو بعضهم بالدخول). وإلى أن يتم اتخاذ موقف حول وجود أسباب عسكرية تتصل بالأراضي المملوكة للعرب، يلزم "إبلاغ" الملاك "ووعدهم" بأنه "لا توجد نية للإضرار بممتلكاتهم (أو بحقوقهم في هذه الملكية)". كذلك تم تأجيل صدور قرار بشأن الترحيل المحتمل للمزارعين المستأجرين من الأراضي المملوكة لليهود، لحين التشاور في هذا الخصوص مع الصندوق القومي اليهودي. وبعبارة أخرى، فإنه بحلول نهاية شهر مارس كان المستشارون مازالوا غير واضحين فيما يتصل بمستقبل العلاقات مع العرب المحليين، وقد أوحى ذلك بأن «الوضع القائم» (استمرار العرب في العيش داخل المناطق اليهودية أو عودتهم إليها) سيتم الحفاظ عليه⁽⁹⁾.

مع معاودة الخبراء الاجتماع مجدداً - في السادس من أبريل - كان قد طرأ تغيير جوهري على السياسة؛ حيث صدر «أمر صريح بالألا يُسمح للعرب بالدخول إلى المناطق لجني المحاصيل (الحبوب)»، وأن «أولئك الذين رحلوا من المنطقة لن يكون مسموحاً لهم بالعودة»، كذلك تم تخويل المستوطنات الحق في حصاد المحاصيل العربية التي تم هجرها. كما شملت السياسة الجديدة أن يتم «نصح العرب بالألا يحوموا حول المناطق التي تم إخلاؤها، وأنه يلزم إفهامهم بطريقة مهذبة عدم قدرتنا على ضمان سلامتهم». كما توصل المستشارون إلى نتيجة مفادها أن: «الاتجاه العام (المقصود النية) هو طرد العرب من المنطقة اليهودية». وفيما يتعلق بالمزارعين المستأجرين، قرر الاجتماع بتعبير مهذب - «قبول» عودة الأراضي التي كانت مؤجرة أو مملوكة لليهود إلى أياديهم، وهو ما يعنى طرد المزارعين المستأجرين بعد تقديم تعويض مناسب⁽¹⁰⁾. وتم تعميم توجيهات المستشارين على جميع وحدات لواء إسكندروني⁽¹¹⁾. وخلال الأسابيع التالية ناقش المستشارون مصير عدد من المجتمعات الأخرى: العرب العائدين إلى وادي فالق، غرب أيفين يهودا، والذين تم الأمر «بطردهم»؛ سكان خربة عزون (تبصر) الذين تم "تحذيرهم بأنه من الأفضل لهم أن يرحلوا". كذلك كان من المتوقع أن يرحل العرب في خربة بيت ليد خلال «يوم أو يومين»، كما أن وجود حركة للعرب في مدينة حديرا اليهودية

كان على وشك التوقف⁽¹²⁾. وبعد مرور ثلاثة أيام كشف أحد ضباط استخبارات الهاغاناه- من دون تحفظ - عما حدث في خربة بيت لد على النحو التالي: «بعد تلقينا الأمر بطرد كل العرب الذين بقوا في منطقة لواء إسكندروني- تم إخطارهم بذلك (المقصود سكان خربة بيت ليد) وغادروا جميعا المنطقة»⁽¹³⁾.

صدرت أوامر مماثلة خلال عملية نحشون (انظر ما يلي) في الفترة من 2-3 حتى 20 أبريل، عندما قاتلت الهاغاناه لكسر الحصار المفروض على القدس. ففي البداية منح غاليلي الهاغاناه سلطة «السيطرة على القرى على طول الطريق القدس - شاعر هاغاي^(*)» إذا كان قد تم هجرها» وإن لم يكن البريطانيون قد قاموا بالتدخل فيه⁽¹⁴⁾. وبعد مرور عشرة أيام قام جاليلي بتوسيع المهمة أمراً «بتطويق وإنهاك (إلى الحد الذي يدفع إلى الفرار) القرى التي لم يبق سكانها بإجلائها بعد»⁽¹⁵⁾. وفي الثامن عشر من أبريل أرسل ضابط البالماخ (آلون) برقية إلى عمليات رئاسة أركان الهاغاناه تضمنت ما يلي: «من الواضح بالنسبة إلي أننا يجب ألا نستمر في إرسال قوافل [إلى القدس] إلى حين تمكننا من زيادة هجمائنا... على أغلب قواعد العدو [المقصود القرى] وإيقاع الخلل في تنظيمه، وأن نتمكن من نشر اللاجئين في كل مكان ونضمن انسحاب العناصر المسلحة [غير النظامية]»⁽¹⁶⁾.

لم يقتصر الأمر على الهاغاناه في اتخاذ القرارات الخاصة بطرد القرويين العرب. ففي الثالث عشر من أبريل أخطرت رئاسة أركان الهاغاناه كل الألوية بأن لجنة الممتلكات العربية، التي ترأسها آنذاك ماكنس، «مخولة كذلك باتخاذ قرارات ... فيما يتصل بتنقل العرب داخل المناطق اليهودية... والطرد من القرى العربية غير المشاركة في القتال»⁽¹⁷⁾. وقد وافق بن غوريون على هذا التفويض من دون مناقشته خلال لقائه بمستشاري الشؤون العربية بعد مرور ثلاثة أسابيع، وتم الاتفاق على أن «يكون لإدارة الشؤون العربية حرية اتخاذ القرار فيما يتصل بإزالة أي قرية عربية قد تحول دون تنفيذ مخططات اليشوف أو تكون مثيرة للمشاكل»⁽¹⁸⁾.

تحدث بن غوريون، في خطاب عام ألقاه في الرابع من مايو، عن «السهولة الكبيرة» التي هربت بها الجموع العربية من مدنهم وقراهم (في حين لم يتخل اليشوف، حتى تاريخه، عن أي من مستوطناته) قائلا: «إن التاريخ أوضح الآن من هو المرتبط

(*) الاسم العربي هو طريق باب الواد.

بهذه الأرض، ومن لا تمثل له هذه الأرض إلا رفاهية يمكن التخلي عنها بسهولة»⁽¹⁹⁾. ومع ذلك، يجدر التنويه إلى أن الوكالة اليهودية ساهمت بشكل كبير في إضعاف الروح المعنوية للعرب. فخلال شهر إبريل أعدت إدارة «الحرب النفسية» التابعة لرئاسة أركان الهاغاناه وسجلت ستة بيانات بثتها بشكل مستمر إذاعة الهاغاناه، وأيضاً كررتها مكبرات الصوت المثبتة على حافلات، وقد حمل أحدها عنوان «نصالح من تحاربون؟»، لأعباء على وتر فرار النخبة الحضرية. «أنتم هنا في ميادين القتال في الوقت الذي فروا هم فيه من البلاد، إنهم يجلسون في فنادق يدمشق ومصر... أين يوجد اليوم جمال الحسيني؟، وأين يوجد إميل الغوري؟ ... إنهم يستمتعون بالحياة في الملاهي الليلية ببيروت مع الفتيات والراقصات...». وتحدث بيان آخر عن العناصر غير النظامية الأجنبية التي ورطت القرى في القتال ثم تخلت عنها بعد ذلك ليواجهوا عمليات السلب من قبل اليهود: «عندما تمنع وسائل النقل... من يبقى جائعاً؟... عندما تهجرون قرية... ممتلكات من التي سيتم تدميرها؟». لم تطلب أي من البيانات أو الخطب المسجلة من العرب الفرار⁽²⁰⁾. ولكنها كانت جميعها مصممة لإضعاف الروح المعنوية، مما دفع بعمليات رئاسة أركان الهاغاناه إلى اقتراح استثمار هذه الأداة (من دون أن توضح كيفية تحقيق ذلك)⁽²¹⁾.

بالتوازي مع التيار السائد المتمثل في «مناخ الترانسفير» والإرشادات للعلامة للهاغاناه والتوجه الخاص بإبعاد العرب وتدمير قراهم على طول الطرق الرئيسية والمناطق الحدودية، برز على السطح - خلال الفترة من إبريل إلى يونيو - تيار ثانوي أو سياسة مضادة تدعو إلى ترك العرب الأصدقاء والمجتمعات العربية المحيطة باليهود يعيشون في أماكنهم. تمحور ذلك التيار، الذي لم يصبح على الإطلاق سياسة رسمية لليشوف أو الهاغاناه والذي أثر بشكل طفيف للغاية على الأجهزة التنفيذية خلال العمليات، حول شخص بيخور شريت (الذي أصبح، منذ الخامس عشر من مايو وزيرا للشرطة وشؤون الأقليات) والمسؤولين في وزارة الأقليات. كذلك لعبت كل من إدارة الشؤون العربية في حزب مايم وبعض الكيبوتسات التابعة للحزب من وقت لآخر دور المفسد أو المقيد للنشاط المفرط للتيار الرئيسي.

في الثاني والعشرين من شهر أبريل أصدرت السلطات (على الأرجح القسم العربي بالوكالة اليهودية) مجموعة من الخطوط الإرشادية الرسمية حول احتلال

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

القرى المحيطة، وتضمنت النص على أنه: «أثناء الأحداث، ربما نواجه ظاهرة القرى أو الأشخاص المستسلمين الذين يطلبون حماية الهاغاناه والحق في البقاء في المنطقة اليهودية». فإذا كان المطالبون بذلك يعيشون «في المنطقة الحدودية أو خط المواجهة يلزم نقلهم إلى المناطق الخلفية»، حيث يمكن حمايتهم بشكل جيد. وبعد إتمام نقلهم إلى الداخل، يلزم تقييد حريتهم في الحركة ولا يجب السماح لهم بالاتصال بالعرب الآخرين لأسباب استخباراتية. وتم التنبيه على الهاغاناه بتوخي الحرص «ففي كل حالة يتم فيها طلب الحصول على الحماية اليهودية، يلزم تقييم الأمر بعناية لمعرفة ما إذا كان من الممكن ترك العرب في أماكنهم أو يجب نقلهم إلى الخلف»⁽²²⁾. ومع ذلك، فإن تلك الخطوط الاستراتيجية لم تؤخذ بشكل عام على محمل الجد من قبل وحدات الهاغاناه، على الرغم من أنه تم في نهاية المطاف السماح لعدد قليل للغاية من القرى المحيطة في ذلك الوقت بالبقاء.

بعد مرور أقل من ثلاثة أسابيع، وفي العاشر من شهر مايو، قدم شتريت مذكرة إلى «إدارة الشعب» (التي حلت محل الجهاز التنفيذي للوكالة اليهودية كوزارة لليشوف وكانت على وشك أن تصبح خلال أيام «الحكومة الانتقالية لإسرائيل»). ويبدو أن تلك المذكرة لم تناقش قط من قبل هذه الإدارة التي كانت مشغولة بإعداد إعلان الدولة ومواجهة الغزو الوشيك. جاءت الوثيقة تحت عنوان: «مذكرة من وزارة شؤون الأقليات، الموضوع: المشكلة العربية». كتب شتريت في وثيقته إن القادة الصهاينة أعلنوا على الدوام رغبتهم في العيش في سلام مع جيرانهم ومنحهم «حقوقاً مدنية متساوية». والشعب اليهودي الذي عانى لقرون من الاضطهاد سيتم الحكم عليه طبقاً لكيفية معاملته الأقلية التي توجد لديه. ويقع على الحكومة الجديدة مسؤولية حماية الممتلكات التي هجرها العرب الذين فروا، «للإبقاء على علاقات طيبة مع أولئك الذين بقوا ويرغبون في البقاء بيننا أو أن يعودوا [للعيش] بيننا، وقد اعترف شتريت بأنه ارتكبت «أعمال إجرامية» في أماكن استولى اليشوف عليها، ملمحاً على وجه الخصوص إلى عمليات السلب والنهب. غير أنه أضاف أنه على القيادة الصهيونية أن تنظر إلى المستقبل وأن «تقيد من دوافعنا الشريرة».

طالب شتريت بأن يتم وضع المسائل المتصلة بالممتلكات العربية والمجتمعات العربية في دائرة اختصاصاته، بما في ذلك «إجلاء القرى»، «عودة العرب إلى

أماكنهم»، و«إدماج العرب في مؤسسات الدولة واقتصادها إذا ما سمحت الظروف بذلك»، وأخيراً أوضحت المذكرة ضرورة التأسيس لتعاون وثيق مع قوات الدفاع في هذا الخصوص⁽²³⁾.

تضمن أرشيف قوات الدفاع الإسرائيلية وثيقة ثانية تم إعدادها في ذلك الوقت، قد يكون ذلك بواسطة شتريت أو موظفيه، وتتضمن تفصيلاً السلوك المطلوب اتباعه من قبل الجيش عند استيلائه على المدن والقرى العربية، فضلاً عن النص على ضرورة الإلحاق الفوري لموظف من وزارة الأقليات بفريق العمل التابع للحاكم العسكري في أي منطقة محتلة، وأن تقام اتصالات فورية مع السلطات العربية المحلية، وضرورة إلقاء القبض على القادمين من الخارج والمحاربين ومصادرة الأسلحة والوقود والسيارات التابعة لهم. كما يلزم على السلطات أن توفر الغذاء والرعاية الصحية للسكان إذا ما تطلب الأمر ذلك. وأوضحت الوثيقة أنه يجب على الجميع أن يتذكر أن «التعاون مع السكان المحليين سوف يوفر قوة بشرية مطلوبة في عمليات أخرى». كذلك ركزت الوثيقة على ضرورة حماية دور العبادة والأماكن المقدسة؛ وميزت بشكل دقيق بين المواقع داخل حدود التقسيم والتجمعات خارجها، موضحة أنه داخل الدولة اليهودية يلزم تعيين «محافظين» وليس «حكاماً عسكريين»⁽²⁴⁾.

تمثلت الفرضيات التي استندت إليها هذه الوثيقة في أن إسرائيل لن تعارض الوجود المستمر للمجتمعات العربية (المسلمة) داخل الدولة؛ وأنه ستكون هناك أقلية كبيرة الحجم؛ وأن إسرائيل ستكون منفتحة على ملف عودة اللاجئين العرب. غير أن هذه التوجهات لم تكن، ولن تكون، سياسة التيار الرئيسي للقيادة. وبالرغم من ذلك، فإن أياً من بن غوريون أو الحكومة المؤقتة أو الهاغاناه (قوات الدفاع الإسرائيلية - رئاسة الأركان) لم يتبن أو يعلن عن سياسة معارضة. ومن ثم ترك شتريت تحت اعتقاد، كلي أو جزئي، أن خطوطه الإرشادية مقبولة لدى بن غوريون ورفاقه، وقام بالتصرف لمدة قصيرة وفقاً لذلك. وفي المقابل استمرت الأجهزة الحيوية للدولة (الهاغاناه أو قوات الدفاع الإسرائيلية؛ أجهزة الاستخبارات؛ حركات الكيبوتسات) في العمل بطريقة عكسية (على النحو الذي سنراه لاحقاً) مشجعة النزوح الجماعي العربي بطرق متعددة، وتطلب الأمر شهوراً من شتريت ليفهم ذلك ويحذو حذو الآخرين وإن كان ذلك على مضض.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

كانت فعالية شتريت محدودة في فرض إرادته المعتدلة؛ حيث حققت الهاغاناه/ قوات الدفاع الإسرائيلية النصر تلو النصر. وبشكل عام لم يكن القادة العسكريون في الضواحي سعداء بالإبقاء على المجتمعات العربية في أماكنها، بما يتطلبه ذلك من إقامة الحاميات العسكرية والتأمين ضد عمليات السلب من قبل اليهود. ومن ثم فإنهم لم يفعلوا ذلك. وبالمقابل فإنه في حفنة من المدن حيث ظلت مجتمعات عربية باقية (يافا، عكا، الناصرة) تم الالتزام بشكل جزئي بخطوط شتريت الاسترشادية، حيث تم ضم موظفين للشؤون العربية إلى طاقم موظفي الحكام العسكريون، وتوفير الغذاء والرعاية الصحية، وتقلصت عمليات السلب والنهب إلى أن تم القضاء عليها تماما. وبطريقة مماثلة قام مسؤولو مابام، بدعم من شتريت، بدور فعال في إجبار الجيش على ترك حفنة من المجتمعات العربية الريفية في أماكنها، بما في ذلك جسر الزرقاء والفريديس. وفي ملحق لـ «الخطة د»، أصدرته عمليات رئاسة أركان الهاغاناه في الحادي عشر من شهر مايو، تم النص على توفير حاميات للقرى والمدن التي تم الاستيلاء عليها، وتأسيس «جهاز خاص لإدارة الشؤون (المدنية) في تلك الأراضي»، الأمر الذي ولد توقعات بأن المجتمعات العربية ستبقى في أماكنها. لم ترد في أي مكان تعليمات بـ «طرد العرب» أو ترحيلهم⁽²⁵⁾. وهنا أيضا يمكن أن نلمس بصمات شتريت. في نهاية المطاف ساد مناخ الترانسفير (على النحو الذي سنراه لاحقا) خلال الفترة من أبريل إلى يونيو: أغلب المجتمعات التي هُوجمت تم ترحيل سكانها، وفي الأماكن التي لم يحدث فيها إجلاء تلقائي كان يتم غالبا طرد سكانها. وفي جميع الأماكن مُنع العرب الذين فروا من العودة إلى ديارهم. كما أنه في مناطق أخرى نُزع سلاح القرى التي استسلمت وتلا ذلك طرد سكانها. رفضت الهاغاناه (والإرغون والهستدروت) في بعض الحالات قبول الاستسلام مما دفع السكان إلى الرحيل. إلا أنه نتيجة لغياب سياسة مركزية واضحة للطرد قامت بعض الوحدات العسكرية بالتصرف بطريقة مختلفة، فكل من لواء غيفعاتي وحاريل يفتاح قام بالتحقق من أنه لم يعد هناك سكان عرب باقون في المناطق التي قاموا بالاستيلاء عليها، أما لواء غولاني فقد تصرف بطريقة أقل تشدداً.

كان للتغير في السياسة الذي حدث في النصف الأول من شهر أبريل أثره كذلك على السلوك إزاء الممتلكات المهجورة، وهو مصطلح انطبق آنذاك على

جميع المناطق المدنية المجاورة والعشرات من القرى، بمنازلها وأراضيها. وتمثلت المشكلة الأولى التي واجهتها السلطات في هذا الخصوص في عمليات السلب والنهب التي قام بها غالباً الجيران اليهود للمنطقة. وفي البداية كانت رئاسة أركان الهاغاناه قلقة بشأن قرى وقطع أراض محددة، من قبيل تلك الواقعة بين نهر العوجا وهرتسليا⁽²⁶⁾، وأصدرت التعليمات لكل لواء بالإشراف على الممتلكات المتروكة في منطقة اختصاصه من خلال تعيين مفتشين للممتلكات المهجورة⁽²⁷⁾. لكن سرعان ما تبين أن المشكلة تحتاج إلى أن يتم التعامل معها بشكل مُمنهج وشامل على المستوى «الوطني». ففي منتصف شهر مارس تم تعيين ديفيد هورويتز ممثلاً لإليعازر كابلان في هذا الشأن. (وخلال أسابيع أصبح كابلان أول وزير للمالية لدولة إسرائيل وعين هورويتز مديراً عاماً للوزارة)⁽²⁸⁾. وبنهاية شهر مارس، قام غاليلي بتعيين لجنة الممتلكات العربية التي ضمت كلا من ماكنس، وهورويتز، ودانين⁽²⁹⁾.

في الأول من أبريل أرسلت اللجنة، برئاسة هورويتز، نشرة تُخطر الجميع بلا استثناء باختصاصاتها وسلطاتها، وركزت على أن الهدف هو استغلال الممتلكات العربية لتلبية احتياجات اليهود ومتطلباتهم أكثر منه حمايتها. أمر هورويتز من تلقوا النشرة (قادة وحدات الهاغاناه والسلطات المحلية) بضرورة موافاة اللجنة «خلال فترة أسبوع» بحصر «الممتلكات العربية» في المناطق العاملين فيها، بما في ذلك نوعية الملاك (أصحاب أراض غائبون، فلاحون، بدو... الخ). وقائمة بأسماء اليهود الذين تم منحهم توكيلات من العرب لإدارة أملاكهم⁽³⁰⁾. قامت اللجنة بالبدء في تنظيم عملية حصاد اليهود للحقول المهجورة ومنع العرب من ذلك⁽³¹⁾، فضلاً عن قيامها بالتسجيل المنهجي لأنواع الممتلكات المهجورة⁽³²⁾. وخلال شهر أبريل أضحت هذه العملية (منع العرب من الحصاد وتنظيم قيام اليهود بذلك) التي كانت تتسم ببعض التردد في البداية تتم بشكل مُمنهج، على النحو الذي عكسته مداولات مستشاري الشؤون العربية للواء إسكندروني⁽³³⁾. أصدر غاليلي تعليماته إلى كل الأولوية بالتعاون مع اللجنة وأخطرهم بأنها «مخولة بإعطاء التعليمات لهم فيما يتصل... بالتصرف إزاء الممتلكات العربية». وكما سبق إيضاحه، فإن اللجنة كانت مخولة باتخاذ قرارات بالطرد من قرى معينة⁽³⁴⁾. وقد ضاعفت اللجنة من أنشطتها

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

خلال شهري مايو ويونيو بحلول موسم جني المحاصيل، وظافت أرجاء البلاد لتلتقي بالمجالس الإقليمية وتخصص الحقول التي سيتم حصد محاصيلها للمستوطنات، التي تنافست فيما بينها للحصول على المنفعة من وراء ذلك⁽³⁵⁾.

لكن في ضوء حالة الحرب الأهلية المتقلبة وطبيعة السلطة الناشئة للمؤسسات الجديدة للدولة، لم يكن سلوك الهاغاناه (والمدنيين) تجاه الممتلكات المهجورة في كل موقع على المستوى الذي كانت اللجنة ترغب في أن يكون عليه، حيث استمرت عمليات السلب والنهب. وفي مطلع شهر مايو قدم هورويتز استقالته نظرا لشعوره بالاشمئزاز، معلنا أن اللجنة «لم يكن لها تأثير على مجرى الأحداث»، فقد روعته أعمال النهب، ونفرتة عمليات تدمير القرى وتسويتها بالأرض⁽³⁶⁾.

خلال النصف الثاني من شهر مايو تحولت لجنة الممتلكات العربية إلى إدارة في وزارة شؤون الأقليات، ثم عقب ذلك داخل مكتب الحراسة على الممتلكات المهجورة (وتم تعديل الاسم لاحقا ممتلكات الغائبين) بوزارة المالية. وتم تعيين غويرتز مديرا عاما لها. وبالرجوع إلى الوراء، يمكن القول إنه بينما نجحت اللجنة / الإدارة جزئيا في تنظيم عملية الحصاد، فإنها فشلت في نهاية المطاف في منع أعمال السلب والنهب لمنازل العرب، وظل مصر القرى (تهجير، تدمير ... الخ.) في نطاق اختصاص بن غوريون والمؤسسة العسكرية.

مر المجتمع العربي الذي كانت هجمات «الخطة دالت» موجهة إليه، كما سبق ورأينا، بشهور من التوتر والتآكل. نجح السلاح الفلسطيني، معززا بتدفق منتظم للمتطوعين الأجانب، جزئيا في إنهاك قوى الهاغاناه وقيد بشكل كبير من استخدام اليهود للطرق. إلا أنه في الوقت الذي ظلت فيه العديد من المستوطنات اليهودية تحت حصار شبه دائم، فشل العرب في الاستيلاء على أي منها على الرغم من محاولاتهم ذلك. والأسوأ من ذلك أن الكمان التي أعدها اليهود والحواجز التي أقاموها على الطرق عزلت بدورها العديد من القرى العربية وساد شعور عميق بالحصار والقابلية للسقوط في يد الأعداء في مركزين عربيين رئيسيين هما حيفا ويافا. وكان لهروب الطبقات الوسطى والعليا من هاتين المدينتين بالإضافة إلى القدس خلال الشهور السابقة - أثر كبير في إضعاف الروح المعنوية، الأمر الذي ساهم في حدوثه كذلك الانهيار التدريجي للقانون والنظام نتيجة لتدفق المتطوعين

الأجانب وتدهور الأوضاع وتوقع قرب انتهاء الحكم البريطاني. وعلى العكس من اليسوف، فشل الفلسطينيون في إقامة حكم ذاتي حقيقي عندما حان موعد انسحاب البريطانيين.

تزايدت وتيرة عملية التحلل خلال شهر إبريل. فر رجال الشرطة بأسلحتهم؛ وتوقف الموظفون عن الذهاب إلى أعمالهم. وقامت العناصر غير النظامية بسرقة الملكية وبالتحرش بالنساء وترويع السكان، وفي الوقت ذاته لم تكن فعالة عسكرياً؛ فقد السكان ثقتهم في قدرتهم على التصدي للهاغاناه، فما بالك بهزيمتهم. يضاف إلى ذلك أن شعور الفلسطينيين بالعزلة «القومية» عن العالم العربي المحيط ما فتئ أن تزايد إزاء رفض الدول العربية التدخل في فلسطين قبل الخامس عشر من مايو، وعدم موافقتها المستمرة على طلبات الحصول على السلاح. وأخيراً فإن النقص في الغذاء والوقود وارتفاع الأسعار وانتشار البطالة كانت كلها عوامل زادت من حدة انخفاض الروح المعنوية.

بشكل عام، كانت الأحوال في القرى أفضل منها في المدن. حيث تمتعت بشكل أو بآخر بدرجة من الاكتفاء الذاتي، كما أن القتال لم يصب كل أرجاء البلاد بشكل حاد. ومع ذلك، تأثرت أغلب القرى، بدرجة ما، بما يحدث في المدن التي كان يتم التطلع إليها إما للقيادة أو للحصول على المعلومات أو الدعم. كان القرويون في ضواحي يافا، وممر القدس، والجليل الشرقي، والنقب يتعرضون للقتال ويعانون من هجمات الهاغاناه، مما كبدهم خسائر كبيرة. وفضلاً عن ذلك أثرت مجموعة من العوامل الإضافية على القرويين جاء في مقدمتها: الانزلاق نحو حالة من انعدام القانون؛ الخوف على المحاصيل ومن الهاغاناه والإرغون؛ والقلق بشأن ما يمكن أن يحدث في أعقاب انسحاب البريطانيين.

أصابته الهجمات التي شنتها الهاغاناه في شهر أبريل وما ترتب عليها من نزوح جماعي ضخم الدول العربية واللجنة العربية العليا بالمفاجأة. وعلى مدار أسابيع فشل العالم العربي في التعامل مع الموقف، إلى أن وقع النزوح الجماعي من يافا (22 أبريل - أوائل مايو). وبالنظر إلى ضعف وسائل الاتصال والغموض الذي أحاط بالمعركة، تطلب الأمر - على الأرجح - بضعة أيام لمعرفة وفهم مجريات الأحداث، خاصة في المناطق الريفية، وربما لم يشأ بعض قادة الدول التركيز بشكل

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

كبير على النزوح الجماعي خشية إثارة ضغوط شعبية في اتجاه بدء عملية الغزو قبل الانسحاب البريطاني. وعلى الرغم من ذلك فإنه بلغة الدعاية وكتبرير مسبق لعملية الغزو - التي كانت محل دراسة - لم يكن هناك مادة أكثر مناسبة من النزوح الجماعي والتي يمكن تصويرها للعالم - وهو ما تم بالفعل - على أنها عملية طرد متعمد من قبل اليهود للفلسطينيين. حتى إن كانت هناك حالات إخلاء طوعية، فإن ذلك كان يبرهن على أن العرب غير مستعدين للعيش تحت الحكم اليهودي - وهو ما يصب في صالح الدعاية العربية - مما يفرغ النصوص المتصلة بالأقليات في قرار التقسيم من مضمونها. وفي جميع الأحوال لم ينظر أحد إلى النزوح الجماعي على أنه أمر دائم؛ سيعود اللاجئون بالتأكيد خلال أسابيع، على أثر الغزو العربي، أو التدخل البريطاني أو الوساطة من قبل الأمم المتحدة.

أيا كان منطق وسلوك قادة الدول العربية، فإنني لم أجد أي دليل معاصر يُظهر أنهم - أو المفتي - أصدروا أوامر مباشرة أو غير مباشرة تُشجع على الهجرة الجماعية الضخمة خلال شهري أبريل ومايو. أما فيما يخص القادة الفلسطينيين، فإنه من المفيد ملاحظة أنه على مدار العقود كانت سياستهم هي التمسك بثبات بالأرض ومقاومة طرد أو ترحيل التجمعات البشرية. لكن هناك عاملين مهمين، خلال شهر أبريل كثفت اللجنة العربية العليا وبعض اللجان الوطنية من ضغوطها على القرى في مناطق عديدة وعلى بعض المدن من أجل إرسال النساء والأطفال وكبار السن إلى مناطق آمنة، وقد امتثلت بعض المناطق لهذا؛ كذلك فإنه في العديد من المواقع أمر القادة العسكريون أو السياسيون بالإجلاء التام للقرى.

خلال شهر أبريل استمرت بعض العناصر غير النظامية، وعلى الأقل بعض اللجان الوطنية، بشكل واضح بناء على أوامر اللجنة العربية العليا، (سواء نتيجة الكسل أو التماشي مع السياسة المقررة) في تشجيع رحيل النساء والأطفال وكبار السن من مناطق القتال الفعلية أو المحتملة. وقد سجل بن غوريون هذه الظاهرة وقدم تفسيراً لها (بالنسبة إلى قرى السهل الساحلي): «من الممكن أن يكون ذلك قد تم نتيجة لضغوط قادة العصابات بعيداً عن الاحتياجات الإستراتيجية العربية؛ حيث يتم إخراج النساء والأطفال وتدخل العصابات المحاربة بدلاً منها»⁽³⁷⁾.

في السابع عشر من شهر أبريل أفاد جهاز استخبارات الهاغاناه عن وجود «أمر عام» بإبعاد النساء والأطفال من الأحياء المتاخمة للمناطق اليهودية في القدس (38). وبالفعل أمرت اللجنة الوطنية في القدس في الثاني والعشرين من الشهر نفسه - استناداً إلى منشور من اللجنة العربية العليا - فروعها في الأحياء المحيطة (الشيخ جراح، وادي الجوز، مصرارة، قطمون، وغيرها) بإرسال النساء والأطفال وكبار السن «إلى مناطق أكثر بعداً بعيداً عن المخاطر». وحذرت اللجنة من أن أي معارضة لهذا الأمر سيتم النظر إليها على أنها «عقبة في طريق الحرب المقدسة... حيث إنها ستعيق أعمالها في هذه المناطق» (39). وبحلول الخامس من الشهر كان سكان مصرارة (الواقعة على خط التماس) قد «أجلوا بالفعل أغلب النساء والأطفال إلى أريحا» (40)؛ وقراية التاسع عشر من الشهر تم تسجيل إجلاء نساء وأطفال وادي الجوز (41). وجرت عمليات مماثلة في مدن أخرى؛ حيث تم ترحيل عدد من النساء والأطفال من يافا عبر البحر (42). وتلقت مدينة بيسان الواقعة بالقرب من الحدود مع الأردن أوامر من الجيش العربي مطلع شهر مايو بإجلاء النساء والأطفال، ربما في إطار الاستعدادات لغزو عربي (43). وقد رصد جهاز استخبارات الهاغاناه في التاسع من مايو هذه العملية (44).

كانت عملية إجلاء الأشخاص المعالين أكثر وضوحاً في الريف؛ حيث قامت أغلب القرى المحيطة بالقدس بإجلاء نساؤها وأطفالها خلال الفترة من أواخر مارس إلى بدايات مايو (45). فالعديد من النساء والأطفال تم إجلاؤهم من القسطل إلى صوبا وبيت سوريك نهاية شهر مارس (46). وقد نُقل عن كمال عريقات (زعيم إحدى الجماعات المسلحة) طلبه من سكان بيت نقوبا إجلاء «عائلاتهم إلى عمواس» غير أنهم تذكأوا حيث لم يكونوا راغبين في ذلك (47). أما فيما يخص بيت حنينا (الواقعة شمال المدينة)، فمع دخول ثلاثمائة من العناصر غير النظامية العراقية قامت بإجلاء نساها وأطفالها (48). وكانت قالونيا (بالقرب من القسطل) قد أجلت النساء والأطفال تقريباً في العاشر من أبريل قبل أن تسقط في أيدي الهاغاناه (49). كذلك كان الحال بالنسبة إلى صوبل التي قامت بإجراء مماثل في ذلك التوقيت (50). وفيما يخص قلنديا (شمال القدس) والتي كان قد تم إخلاؤها بالكامل خلال شهر يناير ثم عاد سكانها إليها فإنها قامت بإجلاء أغلب نساها وأطفالها بحلول الحادي عشر من شهر أبريل (51). كما أنه بحلول نهاية شهر أبريل كان معظم أو كل نساء وأطفال قرية

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

شعفاط قد رحلوا⁽⁵²⁾. وقامت الملاحه (جنوب غرب القدس) بترحيل النساء والأطفال إلى الولجة، وتم الترحيل من عين كارم إلى بيت جالا وبيت لحم⁽⁵³⁾. كذلك أعيد نقل النساء والأطفال من بيت إكسا (غرب المدينة) لتوفير مكان ملائمتين من العناصر العراقية⁽⁵⁴⁾. وفي الوقت ذاته، أجلت العيسوية نساءها وأطفالها بناء على أوامر من الجماعات المسلحة⁽⁵⁵⁾. أما فيما يتصل بكل من قرية أبوديس، والطور والعيزرية (غرب القدس) فقد تم تفريغها من النساء والأطفال لترك المكان للعناصر العراقية غير النظامية⁽⁵⁶⁾. ويبدو أن كل ذلك تم استجابة للأمر العام «بإجلاء النساء والأطفال من جميع القرى في منطقة القدس حتى لا يعيقوا العمليات [الهجومية]»⁽⁵⁷⁾.

تم انتهاج النموذج نفسه في كل من الغرب والشرق. ففي الثامن من أبريل نقلت الإدارة العربية باستخبارات الهاغاناه بدء عملية إجلاء النساء والأطفال من صرفند الخراب (بالقرب من الرملة) على الأرجح بسبب ضغط العناصر غير النظامية الأجنبية⁽⁵⁸⁾. كذلك كانت الحال بالنسبة إلى مجدل يابا في منطقة الرملة، والتي قامت بإجلاء النساء والأطفال خوفا من هجوم الهاغاناه⁽⁵⁹⁾. وفي مرج ابن عامر أجلت زرعين النساء والأطفال في أعقاب غارة قامت بها الهاغاناه بداية شهر مايو⁽⁶⁰⁾. أما في الجليل الشرقي، فقد تلقت الدوارة والعابسية أوامر بإجلاء النساء والأطفال لترك المكان للعناصر غير النظامية⁽⁶¹⁾. وكان من الواضح أن سقوط حيفا العربية (21 - 22 أبريل) قد أطلق العنان لعمليات إجلاء للنساء والأطفال من العديد من القرى المجاورة⁽⁶²⁾. ففي الرابع والعشرين من الشهر ذاته أصدر جيش الإنقاذ أوامره لسكان قرية الفريديس (جنوب حيفا) بإجلاء نسايتهم وأطفالهم «والاستعداد لإجلاء القرية بالكامل»⁽⁶³⁾. وعلى بعد عدة كيلومترات إلى الشمال تم إجلاء نساء وأطفال قرية الطيرة بمساعدة الجيش العربي إلى نيوردورف بالقرب من حيفا، ثم بعد ذلك إلى الأردن⁽⁶⁴⁾. كذلك تم إجلاء المعالين من خربة السركس بالقرب من حديرا (إلى باقة الغربية، جت)⁽⁶⁵⁾. أما فيما يتصل بنساء وأطفال قنير فقد بدأ إجلاؤهم في الثاني والعشرين من شهر أبريل بناء على «أوامر عليا»⁽⁶⁶⁾. وفي مطلع شهر مايو تم إجلاء أم الزينات⁽⁶⁷⁾. وإلى الشمال من حيفا تم إجلاء الكابري تماما⁽⁶⁸⁾. وسبق ذلك بعدة أيام صدور الأوامر للمجتمعات العربية حول روش بينا (في الجليل الشرقي) بإجلاء نسايتهم وأطفالهم، على أن يتولى الرجال حراسة المواقع⁽⁶⁹⁾.

في جميع الحالات ثبت أن عملية إجلاء المُعالين كانت دائمة؛ حيث أعقبها بوقت قصير استيلاء الهاغاناه/قوة الدفاع الإسرائيلية على المواقع وما تبعه من إجلاء تام وتدمير. غير أنه في بعض الحالات اتسمت عملية الإجلاء بقصر مدتها، حيث كان الدافع وراءها هو مخاوف من هجوم يهودي وشيك، ومع تلاشي الخوف عاد النساء والأطفال مجددا. فعلى سبيل المثال، تم إجلاء النساء والأطفال في قرية عراق السويدان في النقب الشمالي بداية شهر مايو ليلة واحدة ثم عادوا في اليوم التالي⁽⁷⁰⁾.

ترتب على الغزو الذي قامت به الدول العربية حدوث عمليات إجلاء جديدة قامت بها المجتمعات العربية الأخرى للمُعالين فيها خشية أن يتورطوا بدورهم في الحرب. وعلى سبيل المثال، قام سكان قرية قسطينة بإبعاد نساءهم وأطفالهم تقريبا في الخامس عشر من مايو (بيد أنهم سرعان ما رجعوا من تل الصافي بعد اكتشافهم عدم وجود مياه كافية في القرية)⁽⁷¹⁾.

خلال النصف الثاني من الحرب استمرت عمليات إجلاء النساء والأطفال، وإن كانت بمعدلات أقل - حيث فهم العرب في ذلك الوقت أن ذلك كان بشكل حاسم لمصلحتهم. فعلى سبيل المثال، أصدر جيش الإنقاذ أوامره بإجلاء النساء والأطفال من كل من معلول والمجيدل غالبا لإفساح المكان للفرقة الواحدة للاستعداد لعمليات عدوانية متوقعة⁽⁷²⁾. وقامت القريتان بإرسال النساء والأطفال إلى الناصرة؛ وقد جرت عمليات مماثلة في القرى الأخرى بالمنطقة⁽⁷³⁾. وفيما يتعلق بقرية معلول كان من الواضح أن جيش الإنقاذ غضب من إعلان القرويين استعدادهم للتعاون مع أي حكومة تتولى مقاليد الأمور، وأنهم لن يشاركوا في الحرب. وقد أدى ذلك إلى قيام قوات جيش الإنقاذ بضرب القرويين وقتل الماشية والغنم، وهو ما أدى بدوره إلى عملية هروب مذعورة من قبل السكان⁽⁷⁴⁾. وفي الرابع والعشرين من يونيو قام عرب المزاريب وعرب صيدا (من قبائل مرج ابن عامر البدوية) بتجميع مقتنياتهم والرحيل في أعقاب «تهديد صارم صادر عن مركز قيادة جيش الإنقاذ في الناصرة»⁽⁷⁵⁾. وشهد السابع من شهر يوليو صدور أوامر من ضباط القاوقجي في عيلوط للقرويين بإجلاء نساءهم وأطفالهم⁽⁷⁶⁾. وفي اليوم التالي (ربما في إطار الاستعداد لتجدد الأعمال القتالية بنهاية الهدنة الأولى) أمر قاوقجي القرويين في منطقة الناصرة بأنه «من

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الآن فصاعدا يتعين عليهم قضاء الليل خارج القرى»⁽⁷⁷⁾. أما فيما يخص البدو الذين أقاموا خيامهم على المنحدرات الجنوبية لجبل طابور (بالقرب من قرية دبورية)، فقد تلقوا أوامر «بنقل خيامهم باتجاه الشمال داخل المرتفعات»⁽⁷⁸⁾. وبعد مرور شهر على ذلك (أثناء الهدنة الثانية) أمر قاقجي سكان كفر مندا بإجلاء القرية التي كانت آنذاك تحت سيطرة قوات الدفاع الإسرائيلية وذلك تمهيدا لمهاجمتها⁽⁷⁹⁾. وأصدر جيش الإنقاذ أمرا مماثلا للقرويين في مجد الكروم بعد مرور شهر لأسباب مشابهة⁽⁸⁰⁾. واستمر هذا التوجه في جميع الأماكن حيث تم إرسال نساء وأطفال دير أيوب (بالقرب من اللطرون) إلى مناطق داخلية⁽⁸¹⁾. كما جرى في الحادي والثلاثين من أكتوبر إجلاء سكان قرية دمرة (بالقرب من غزة) لنسائهم وأطفالهم على الأرجح تحسبا للتقدم المرتقب لقوات الدفاع الإسرائيلية⁽⁸²⁾.

خلال الفترة من شهر أبريل - مايو أجلي ما يزيد على عشرين قرية بشكل تام بناء على أوامر من القادة العرب العسكريين المحليين أو الحكومات أو اللجنة العربية العليا، وقد رجع ذلك في أغلب الأحوال إلى أسباب تتصل بالإعداد للغزو العسكري، فصدرت الأوامر لعرب السطرية (بالقرب من الرملة) إما من قبل القادة العسكريين المحليين أو اللجنة الوطنية - بالإجلاء التام قبل حلول نهاية شهر أبريل. وفي التوقيت نفسه غادر سكان قرية بيت دجن لتحل محلهم قوات عراقية غير نظامية⁽⁸³⁾. ونقل جهاز استخبارات الهاغاناه عن العرب في حيفا قولهم إن «جميع القرى الواقعة بين حيفا وتل أبيب تلقت أوامر من مركز القيادة العامة العربي بإجلاء قراهم في أقرب وقت ممكن استعدادا لغزو (عربي) شامل»⁽⁸⁴⁾. وبشكل أكثر تحديدا ودقة، نُقل في منتصف شهر مايو أن «قرى صغيرة» تقع إلى جنوب حيفا تلقت تعليمات بالإجلاء «والتحرك إلى منطقة أبعد»، في حين كانت الأوامر للرجال «بالانتقال إلى القرى التي تم تحديدها كمناطق للتجمع» (على سبيل المثال: عين غزال، إجزم الجبعة)⁽⁸⁵⁾. وبناء على تعليمات قائد الجيش العربي تم في الفترة من 11 - 12 مايو إجلاء قرى: شعفاط، بيت حنينا، الجيب، جديرة، بير نبالا، ورافات في منطقة رام الله⁽⁸⁶⁾. كذلك أصدر الجيش أوامره «لجميع سكان» أحياء وسط القدس الشرقية والواقعة خارج المدينة القديمة بالتحرك في اتجاهها، وقد انتقل معهم العديد من العائلات المسيحية في عين كارم بناء على «نصيحة» القائد العسكري المحلي⁽⁸⁷⁾. وكانت العيسوية قد تم

إجلاؤها، في الثلاثين من شهر مارس، بعد صدور تعليمات من قيادة اللجنة العربية العليا بذلك. وفي العشرين من شهر مايو أمرت قوات العناصر غير النظامية القرويين في العيسوية، نين، طمرة، كفر مصر، الطيرة، الطيبة وناعورة، وكلها قرى قريبة من جبل فقوعة، بمغادرة المنطقة (حيث كانوا يخشون بشكل واضح من انضمامهم إلى اليسوف)⁽⁸⁸⁾. يُذكر أنه قبل ذلك بعدة أسابيع أمرت قيادة «العناصر غير النظامية» (المقصود على الأرجح اللجنة العربية العليا) بإجلاء قرى سرين، عولم، حدثا، ومعنير المجاورة لأسباب مماثلة⁽⁸⁹⁾.

باتجاه الشمال يبدو أن أمرا سوريا قد صدر للعرب الذين قطنوا المناطق الحدودية بين فلسطين وسورية بالابتعاد عنها في إطار الإعداد للغزو العربي⁽⁹⁰⁾. ضغط السوريون على سكان قرية النقيب (عرب الرقيبات) في الساحل الشرقي لبحيرة طبريا (والمعروفون تقليديا بعلاقاتهم الودية مع كيبوتس عين غيف) ليرحلوا، غير أنهم امتنعوا عن القيام بذلك لبضعة أيام⁽⁹¹⁾. وفي أعقاب غارة قامت بها الهاغاناه في نهاية شهر أبريل على قرية سمخ بدأ سكان الرقيبات في الرحيل خوفا من اليهود، وقد طلب منهم وسيط من الهاغاناه البقاء⁽⁹²⁾. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه بحلول منتصف شهر مايو، وقبل بدء الغزو العربي بساعات، تغيرت الأمور. ففي ليلة 13 - 14 مايو طلبت الهاغاناه من القرية قبول الإدارة اليهودية وتسليم أسلحتها؛ الأمر الذي لم يقبله القرويون وفضلوا الرحيل في اليوم التالي، وقد تلى ذلك تدمير منازلهم⁽⁹³⁾. وبعد مرور أسبوعين على ذلك، وعلى وجه التحديد في السابع والعشرين من شهر مايو، طردت الهاغاناه عائلة «ذكر الله» الإيرانية التي امتلكت مزرعة واسعة إلى الجنوب من عين غيف، بالإضافة إلى العاملين العرب هناك الذين بلغ عددهم ثلاثين، نصفهم من الأطفال. حيث إنه «في وقت الحرب، لا مجال للعواطف» كما ورد في سجلات عين غيف وتم اقتيادهم إلى طبريا حيث أسكنتهم الهاغاناه في فندق. وعقب ذلك أعيد توطينهم في عكا⁽⁹⁴⁾.

لم تبدو اللجنة العربية العليا والحكومات العربية حتى الأسبوع الأخير من شهر أبريل منزعة بشكل كبير من النزوح الجماعي. وعلى الرغم من قيام عزام باشا (الأمين العام لجامعة الدول العربية) خلال شهر أبريل باستخدام الهروب ومذبحة دير ياسين (انظر ما يلي) لتسجيل نقاط في حملة الدعاية المناهضة للصهيونية في

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الداخل، فإنه بدا وكأنه لم يكن هناك شعور بأن شيئاً مهما يحدث. لم تقدم الدول العربية على القيام بأي عمل، وبشكل عام، تصرفت بطريقة لا تزيد من الهجرة الجماعية، ولا توقفها⁽⁹⁵⁾.

تنازعت اللجنة العربية العليا خلال شهري أبريل ومايو مجموعة من المصالح المتضاربة. فمن جانب، لم يكن أعضاؤها - الذين كانوا في نهاية شهر أبريل دون استثناء خارج فلسطين - سعداء برؤية التحلل المستمر والهجرة من داخل مجتمعهم. فالنزوح الجماعي خيب أملهم في مقاومة فلسطينية ناجحة لليشوف. ومن جانب آخر، فإن اللجنة، بقيادة المفتي، أدركت بنهاية شهر أبريل أنها تعتمد على تدخل الدول العربية. وكان الحسيني يعلم تماماً تقلب القادة العرب، كما أنه فهم أن كلا من فاروق في مصر، وعبدالله في الأردن، ورياض الصلح (رئيس وزراء لبنان)، والآخرين لا يرغبون بشكل كبير في القتال في فلسطين. وربما يكون المفتي قد اقتنع، مع قرب الخامس عشر من مايو، بأنه كلما كانت المأساة كبيرة كان هناك ضغط كبير - من قبل الرأي العام الداخلي، والدول الأخرى ومقتضيات «الشرف» العربي - على أولئك القادة للالتزام بتعهداتهم بالتدخل. لم يكن هناك ما يمكن أن يلزمهم باحترام كلمتهم أكثر من كارثة فلسطينية كبيرة. يضاف إلى ذلك أن اللجنة العربية لم يكن يسعدها احتمال استسلام المجتمعات العربية وقبولها الحكم اليهودي. وفي ضوء تلك الاعتبارات، التزم الحسيني واللجنة العربية العليا - إلى حد كبير - الصمت إزاء حالة النزوح الجماعي المتجلية للعيان.

في ضوء عدم وجود توجه واضح من قبل الدول العربية واللجنة العربية العليا، وقع عبء مسؤولية صنع القرار في هذا الصدد بشكل رئيسي على كاهل القادة المحليين، سواء كانوا مدنيين أو عسكريين. ومن ثم فقد لزم النظر إلى مواقف هؤلاء فيما يتصل بعملية صنع القرار الخاص ببقاء أو مغادرة هذه الجماعة العربية أو تلك خلال شهر أبريل 1948. وربما كان القادة المحليون متأثرين في قراراتهم بما كانوا يعتقدون أنه ما تريده اللجنة العربية العليا منهم، كما كانت عليه الحال في حيفا في الثاني والعشرين من أبريل، ولكن بشكل عام كان الأمر متروكاً لتقديرهم.

عملت اللجان الوطنية المحلية في أغلب الحالات على كبح جماح عملية الهروب من مناطقهم خلال شهري أبريل ومايو خاصة بين الذكور في سن التجنيد. ففي

القدس أمرت اللجنة الوطنية في نهاية شهر أبريل عناصر الميليشيات باستيقاف السيارات التي تقل السكان الفارين لتعيدهم أدراجهم⁽⁹⁶⁾، وتم في هذا الصدد إصدار البيان التالي:

هناك أشخاص ينشرون إشاعات مُضللة أدت إلى قيام بعض العرب بمغادرة المدينة... إن مثل هذه الشائعات تساعد العدو الموجود بيننا... وبموجب هذا البيان، تعلن اللجنة أن حالة القدرات الدفاعية في المدن قوية نسبياً، كما تطلب من المواطنين عدم إيلاء الاهتمام للشائعات المضللة وأن يظلوا في أماكنهم⁽⁹⁷⁾.

قررت اللجنة الوطنية كذلك معاقبة القرى التابعة لها والتي جرت فيها عمليات فرار غير مرخص بها، وصدرت الأوامر للقرويين بـ «البقاء في أماكنهم وعدم الرحيل»⁽⁹⁸⁾. وفي ضوء احتلال الهاغاناه في منتصف شهر مايو مناطق في وسط القدس وتهديدها «المدينة القديمة»، تواجدت جموع من العرب أمام مقر اللجنة الوطنية مطالبين بالسماح لهم بالرحيل، غير أن مسؤولي اللجنة رفضوا ذلك وتم إرسال عناصر مسلحة لتعقب السيارات التي تقل الفارين من المدينة دون ترخيص⁽⁹⁹⁾. تعاملت اللجنة الوطنية في حيفا مع الموقف بطريقة مماثلة، فطالب رئيسها الأعضاء الذين سبق لهم المغادرة بالعودة⁽¹⁰⁰⁾، وتوعد أصحاب المحال الذين فروا بالغاء تراخيصهم⁽¹⁰¹⁾. كما حاولت اللجنة إيقاف الهروب من خلال فرض غرامات والتهديد بمصادرة الممتلكات. وأجبرت العائلات التي ترحل على دفع ضرائب خاصة⁽¹⁰²⁾. ومع ذلك فإن تلك الجهود بدا أنها انتهت مع الهجوم الذي نفذته الإرغون في الفترة من الخامس والعشرين إلى السابع والعشرين من أبريل (انظر ما يلي).

بذلت اللجان الوطنية المحلية في عدد من المدن الأصغر جهوداً مماثلة للتصدي لموجة الفرار. ففي مطلع شهر أبريل نقل جهاز استخبارات الهاغاناه قيام صدقي الطبري ببذل «جهود مضيئة يائسة لإعادة» أولئك الذين فروا من طبريا⁽¹⁰³⁾. وصدرت أوامر إلى العرب الذين فروا إلى حماة بالعودة وهو ما تم بالفعل⁽¹⁰⁴⁾. ومن جانبها منعت اللجنة الوطنية في بيسان الذكور البالغين من ترك المدينة، وتم تعزيز

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الحراسة حول المدينة «خوفا من الهروب منها»⁽¹⁰⁵⁾. بيد أن سقوط حيفا العربية أسفر عن مزيد من التآكل في الروح المعنوية وتبع ذلك موجة فرار: «لقد بذلت اللجنة الوطنية في بيسان جهودا كبيرة لكبح الهروب، غير أنها أخفقت على الرغم من الإجراءات القاسية التي اتخذتها ضد الفارين ... ومع ذلك فقد استمرت حالة عدم السماح للذكور البالغين بالرحيل...»⁽¹⁰⁶⁾.

هناك دليل قوي على أنه في مناطق ريفية كثيرة قامت اللجان الوطنية المجاورة، وجيش الإنقاذ، والقادة المحليون، والعمد، بمساعٍ جادة خلال الفترة من أبريل إلى يونيو لتطويق عمليات الفرار (وبالتوازي كانت هناك جهات أقل عددا وسلطة في مناطق أخرى تشجع على الفرار)؛ ففي البيرة، المجاورة لرام الله، منعت العناصر غير النظامية الأجنبية السكان من الرحيل⁽¹⁰⁷⁾، كما حاول قائد العناصر غير النظامية الأجنبية في برير (في حي غزة) كبح جماح عملية الفرار⁽¹⁰⁸⁾. وفي اللد نُقل في نهاية شهر أبريل أن ضابطا عراقيا أُجبر - إلى حد استخدام السلاح - الفارين على العودة⁽¹⁰⁹⁾. كذلك أُجبر ضباط من جيش الإنقاذ عائلة المرشد من السنديانة على الرجوع⁽¹¹⁰⁾. وفي شمال غزة قام رجال مجدل المسلحون بنفس الشيء تجاه القرويين الفارين من بيت دراس⁽¹¹¹⁾. كما أصدرت اللجنة الوطنية في مجدل بعد مرور بضعة أيام الأوامر إلى سكان: برق، البطاني الغربي، البطاني الشرقي، ياصور، بيت دراس، وثلاثة قرى أخرى (غربية، شمالية، شرقية) بعدم الفرار «وإلا خضعوا للعقاب». وتلقت عناصر المليشيات المشرفة على الحواجز على الطريق المحيط بمجدل وغزة أوامر بعدم السماح لأي من القرويين بالمرور حاملا أمتعته. كذلك تلقى سكان يبنى تعليمات مماثلة بالبقاء في أماكنهم⁽¹¹²⁾. وفي مطلع شهر مايو منع شقيب وهاب (ضابط كبير في جيش الإنقاذ) سكان شفا عمرو من ترك المدينة. غير أنه وفقا لمصادر جهاز استخبارات الهاغاناه، نجح بعضهم في ذلك بعد قيامهم بدفع رشوة قيمتها مائة جنيه إسترليني⁽¹¹³⁾. ويبدو أنه تم تهديد الراغبين في الرحيل بأنه سيتم مصادرة منازلهم⁽¹¹⁴⁾. وفي بداية شهر مايو أمرت قرية أم الفحم الكبيرة جارتها الصبارين الأصغر بعدم إجلاء سكانها⁽¹¹⁵⁾. وإلى الشمال الغربي منع جيش الإنقاذ المتبقين من سكان الطيرة من الرحيل⁽¹¹⁶⁾. ومجددا هددت العناصر غير النظامية بمصادرة الممتلكات⁽¹¹⁷⁾.

خلال فترة الهدنة الأولى استمر عدد من القادة العسكريين للعناصر غير النظامية في إصدار الأوامر لسكان القرى بالبقاء، وقد حدث ذلك على سبيل المثال في منتصف شهر يونيو في المنطقة الواقعة جنوب الرملة⁽¹¹⁸⁾ وفي ترشيحا ولوبيا في الجليل (بناء على تعليمات من القاوقجي)⁽¹¹⁹⁾. وخلال فترة الهدنة الثانية تردد أن القاوقجي ترك عددا من الفرق الصغيرة في قرى الجليل من المغار إلى المالكية للتأكد من أن الأهالي لن يفروا خوفا⁽¹²⁰⁾.

أخبر القاوقجي مختار كفر سابا (بالقرب من كفر قاسم) أنه «يجب عدم هجر المناطق السكنية مادامت هناك علاقات طيبة مع [الجيران] اليهود. وفي الوقت ذاته تحدث عن أولئك الذين أجلوا منازلهم بغضب شديد»⁽¹²¹⁾. ولكن في بداية شهر مايو كان السكان الذين شعروا بأنهم تحت التهديد اليهودي على استعداد للرحيل. صدرت إليهم الأوامر من جيش الإنقاذ بالبقاء في أماكنهم⁽¹²²⁾. وعندما تمت مهاجمة القرية في نهاية المطاف، في الثالث عشر من مايو، هرب السكان. وعلى الرغم من أنهم أصبحوا في الشتات قام القائد السوري لجيش الإنقاذ بتحصيل خمسة جنيهاً إسترلينية من كل فرد⁽¹²³⁾.

قبل يومين من ذلك، وربما تحت تأثير سقوط حيفا العربية والنزوح الجماعي المضخم من يافا، أصدر المركز الرئيسي لجيش الإنقاذ في رام الله تحريماً شاملاً للهروب. كما انتبهت الدول العربية أيضاً وبشكل مفاجئ للمشكلة. وفي هذا الخصوص رصدت الهاغاناه منذ نهاية شهر أبريل أن عبدالله كان يضغط على اللاجئين من بدو بيت شيان للعودة إلى ديارهم⁽¹²⁴⁾. كذلك منع جيش الإنقاذ - في الفترة من 5 - 6 مايو من خلال بيانات ردها المذيع ونقلتها الصحف - سكان منطقة رام الله من ترك ديارهم: «إن منازل القرويين الفارين سيتم تدميرها وستصادر حقولهم. وتم أمر أولئك الذين فروا بالعودة»⁽¹²⁵⁾. وصدقت الأردن على هذا الأمر. ووفقاً لمصادر الهاغاناه كان سكان منطقة رام الله على وشك الهروب، وهو ما دفع جيش الإنقاذ إلى غلق الطرق. وذكرت الهاغاناه في هذا الخصوص: «يسعى القادة العسكريون العرب للحد من تدفق اللاجئين ويتخذون إجراءات قاسية وصارمة تجاههم». وفي الخامس من مايو نقلت إذاعة كل من راديو القدس وراديو دمشق أوامر جيش الإنقاذ لأولئك الذين فروا منذرة إياهم بـ «العودة خلال ثلاثة أيام»⁽¹²⁶⁾. ومن جانبه

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

استثمر راديو الهاغاناه الموقف وأذاع في السادس من الشهر أنه: «في مسعى لإيقاف الهرب... أصدرت القيادة العربية بيانا حذرت فيه من أن... أي عربي يفر... سيتم معاقبته بقسوة»⁽¹²⁷⁾.

خلال الفترة من الخامس إلى الخامس عشر من مايو أصدر كل من الملك عبد الله وعزام باشا فضلا عن اللجنة العربية العليا - التي كانت أكثر ترددا - بيانات مماثلة، بطريقة شبه منسقة، هدفت إلى إيقاف الهروب وترغيب اللاجئين في العودة. كذلك كانت هناك مناشدة خاصة، تم تشجيعها من قبل سلطات الانتداب البريطاني، تم توجيهها إلى اللاجئين من حيفا. وفي الخامس عشر من شهر مايو أصدر فايز الادريسي («مراقب الأمن العام» باللجنة العربية العليا) أوامر لرجال الميليشيات الفلسطينيين بمواجهة «الطابور الخامس وأولئك الذين يبتون الشائعات التي تؤدي إلى فرار السكان العرب». كما ناشدت اللجنة العربية العليا، في الفترة من 1 - 11 مايو، الموظفين والأطباء والمهندسين الذين فروا العودة، وعاددت المطالبة بذلك مجددا في الفترة من 14 - 15 مايو محذرة الموظفين الذين لن يمثلوا بفقدان «الأحقية لشغل هذه الوظائف الإدارية في المستقبل». ومن جانبها بدأت الحكومات العربية في منع دخول اللاجئين - علي سبيل المثال، على امتداد الحدود اللبنانية⁽¹²⁸⁾.

بنهاية شهر مايو، ومع تدخل جيوشها، قامت الدول العربية (فضلا عن اللجنة العربية العليا) بممارسة الضغوط على مجتمعات اللاجئين في المخيمات على امتداد الحدود للعودة إلى ديارهم. ووفقا للإذاعات العربية الموجهة، كانت اللجنة العربية العليا تشير إلى أن «أغلب القرى [المهجورة] أضحت آمنة بفضل الانتصارات العربية»⁽¹²⁹⁾. غير أن الاهتمام العربي المفاجئ بالملف جاء متأخرا، كما أنه لم يتم الإعلان عنه كسياسة رسمية، فضلا عن أنه لم يتم ترجمته إلى عمل مُمنهج. يضاف إلى ذلك استمرار لجنة الشؤون السياسية بجامعة الدول العربية في حث الدول الأعضاء على «منح اللجوء... للنساء والأطفال وكبار السن» (في حين طلبت إليهم منعه عن الذكور البالغين)⁽¹³⁰⁾. لم يقتصر الأمر على فشل الدول في إيقاف عملية الهروب، وإنما أثبتت عدم قدرتها على التقليل من معدلاتها، لاسيما إعادة اللاجئين. وربما كان اللجوء إلى وسائل أكثر قوة عديم الفائدة أخذا بعين الاعتبار الخوف الفلسطيني من اليهود الناتج عن هجمات الهاغاناه والإرغون والهستدروت، وهو الخوف الذي دعمته الإذاعات العربية طوال الشهور التي

سبقت ذلك بإبرازها فظائع، حقيقية أو مدعاة، قام بها اليهود فلم يكن هناك ما يمكنه أن يقنع أولئك الذين فروا بأن يسلكوا الطريق العكسي. وفي كل الأحوال، فإنه بحلول نهاية الشهر وبداية يونيو كان القادة العرب منشغلين بأداء جيوشهم، والخلافات بينهم، والحرب الدبلوماسية ضد الصهيونية في الأمم المتحدة ولندن وواشنطن، أكثر من اهتمامهم بمشكلة اللاجئين. وأخيرا مع دخول الهدنة الأولى حيز التنفيذ، في منتصف شهر يونيو، تحول اهتمام الدول العربية بعيدا عن ميادين القتال وتغيرت الظروف بشكل تام. وأضحت الحدود خطوط قتال دائمة بها مناطق تفصل بين الجيوش، كما أن اليشوف المنتصر كان عازما على منع العودة. ومن ثم فإن الضغوط التي مارستها بعض الدول العربية لدفع اللاجئين إلى العودة عبر الحدود كانت، وفقا لاستخبارات الهاغاناه في بداية يونيو، محدودة الأثر⁽¹³¹⁾. وبحلول شهر أغسطس أضحت الدول ذاتها تجادل ضد إعادة اللاجئين خشية أن يمثل ذلك «اعترافا بدولة إسرائيل» ويضع العائدين تحت رحمة السلطات اليهودية⁽¹³²⁾. ولكن في العموم فإن ما فعلته الدول العربية واللجنة العربية العليا وجيش الإنقاذ واللجان الوطنية المحلية والمليشيات المتعددة - أو ما لم تفعله، سواء لتشجيع أو تقييد النزوح الجماعي - هو أمر ذو أهمية ثانوية، فقد كان اللاعبون الرئيسيون في هذا الخصوص هم اليشوف ومنظماته العسكرية. وكانت عملياتهم هي الباعث الرئيس وراء الهروب ولفهم حقيقة ما حدث فإنه من الضروري دراسة ماذا حدث في الميدان بالتفصيل. سوف أركز على المدن الرئيسة والعمليات الأساسية في الريف وسأبدأ بالمدن حيث مثل سقوطها والنزوح الجماعي لسكانها دافعا قويا حرك عمليات مماثلة من الريف.

المدن

طبريا

مثلت طبريا أول مجتمع عربي حضري يسقط، وكانت تلك المدينة مختلطة السكان (6 آلاف يهودي و4 آلاف عربي) على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا تطل على الطريق الشمالي - الجنوبي الذي يربط المستوطنات الداخلية في الجليل مع مستوطنات وادي الأردن الأدنى. وقد ضمن قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة تلك المدينة في أراضي الدولة اليهودية.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

في الرابع من شهر ديسمبر أطلق الشيخ نايف الطبري - وهو من الأعيان البارزين في المدينة (ترجع أصول عائلة الطبري إلى عجلون بشرق الأردن وكانت أكثر عائلات المدينة ثراء واحتراما)⁽¹³³⁾ - محادثات مع القادة اليهود المحليين من أجل التوصل إلى «اتفاق سلام»⁽¹³⁴⁾. وعلى الرغم من ذلك فإن العائلات العربية، التي كانت تخشى الاضطرابات، بدأت في مغادرة ديارها؛ حيث رحل البعض إلى المناطق العربية المجاورة بينما غادر البعض الآخر، كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى المجتمع الشيعي الصغير، المدينة نهائيا⁽¹³⁵⁾. كذلك فرت العائلات اليهودية من «المدينة القديمة» التي هيمنت عليها الأغلبية العربية، ولم يتبق في مطلع شهر فبراير سوى حي يهودي واحد في المدينة (في حين كانت هناك شقق مهجورة تم ملؤها باللاجئين العرب من المناطق اليهودية المجاورة)، وقد هدد اليهود الذين بقوا في المكان بالرحيل إن لم تتوافر حماية الهاغاناه سريعا. (وطالبوا كذلك بأن تُصدر الهاغاناه أوامرها لأولئك الذين هجروا «المدينة القديمة» بالعودة، وأولئك الذين ظلوا في المنطقة بالتمسك بأماكنهم)⁽¹³⁶⁾.

بذلت عائلة الطبري التي كانت تسيطر على اللجنة الوطنية جهودا مستمرة لإحباط مساعي الشباب المتهور بإطلاق العنان للعمليات القتالية⁽¹³⁷⁾، ودعوا إلى التعايش السلمي⁽¹³⁸⁾. وقد أكد يوسف نعماني (أحد قادة المجتمع اليهودي ورئيس مكتب الصندوق الوطني اليهودي في الجليل الشرقي) أنهم كانوا يسعون إلى سلام مستمر على الرغم من أن الشباب اليهودي المتهور كانوا يعملون بدورهم وبشكل مستمر على استثارة العرب، محذرا من أن مثل هذه الأفعال قد تقود إلى «انفجار» و«كارثة». وطبقا لنعماني، كان اليهود الشرقيون في المدينة «يميلون إلى التباهي وتمجيد الذات شأنهم في ذلك شأن العرب». وفي هذا الصدد روى تفاصيل الحادث الذي وقع في الرابع من فبراير نتيجة توجه ثلاثة من اليهود «الشرقيين» المخمورين إلى «المدينة القديمة» وتوجيههم الإهانات إلى بعض الحراس العرب مما أدى إلى اندلاع شجار أسفر عن إحداث جرح طفيف بأحد اليهود وقامت الهاغاناه بالرد باستخدام القنابل والأسلحة الخفيفة من دون أن يصاب أحد. وفي تلك الليلة أو اليوم التالي التقى رئيس اللجنة الوطنية صدقي الطبري بقادة اليهود في المدينة، بما في ذلك العمدة شيمون دحان، وتم التوصل إلى اتفاق بعدم القيام بأعمال عدائية⁽¹³⁹⁾. لم

يكن كل من قادة الهاغاناه المحليين «المفتقدين للوعي» (وفقا لنحماني) و«الشباب» (طبقا لجهاز استخبار الهاغاناه) سعداء بالتوصل إلى هذا الاتفاق⁽¹⁴⁰⁾. وعلى الرغم من ذلك عاد الهدوء إلى المدينة إلى الحد الذي أدهش أحد أفراد الإدارة العربية لجهاز استخبارات الهاغاناه أثناء زيارة للمدينة لرؤيته كيف يتحرك العرب بحرية في الأسواق اليهودية ويستقلون الحافلات اليهودية ويجرون معاملات تجارية مع اليهود، كما لو كانت الجماعتان «لا تعرفان أو تسمعان شيئا عما يحدث بين اليهود والعرب في باقي أرجاء البلاد»⁽¹⁴¹⁾.

في منتصف شهر مارس انهارت الهدنة الهشة بين الطرفين وسمع دوي إطلاق النار في وسط مدينة طبريا في الثاني عشر من الشهر في أعقاب محاولة الشرطة اليهودية نزع سلاح عرب. استمر إطلاق النار بشكل متقطع على مدار ثلاثة أيام اجتمع خلالها قادة المجتمعين اليهودي والعربي في مبنى بلدية المدينة في الرابع عشر من شهر مارس؛ حيث اتهم العرب اليهود باستثارة إطلاق النار، الأمر الذي «أقره» نحماني في مذكراته⁽¹⁴²⁾. وعاد الهدوء بعد ذلك وبارك إسرائيل غاليلي الاتفاق الجديد وأخبر القادة اليهود بما يلي: «من الجيد أنكم فعلتم ذلك، حيث إن لدينا العديد من الجبهات ولا يمكن أن نشئت أنفسنا في أماكن أخرى»⁽¹⁴³⁾. وقد تزامن ذلك مع فرار يهود إضافيين من «المدينة القديمة» ومحاولة الهاغاناه إيقاف هذه الموجة من النزوح⁽¹⁴⁴⁾. وعلى صعيد آخر، طلب قائد جيش الإنقاذ في الجليل (أديب الشيشكلي) أن يتولى زمام الدفاع عن العرب في طبريا، إلا أن اللجنة الوطنية التي أثرت الهدوء رفضت الإذعان لهذا المطلب⁽¹⁴⁵⁾. وعلى الرغم من ذلك قامت كتائب من العناصر غير النظامية الأجنبية بالتمركز في الأحياء العربية بنهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل، وبحلول منتصف شهر مارس، كانت عمليات الهاغاناه قد أدت إلى نقص كبير في السلع وارتفاع كبير في الأسعار «بما في ذلك الأسماك» مما دفع «العديد من المحال العربية» إلى إغلاق أبوابها⁽¹⁴⁶⁾.

بدأت معركة طبريا النهائية في الثامن والتاسع من شهر أبريل، عندما اندلع إطلاق النار مجددا في منطقة وسط المدينة. وفي العاشر من أبريل قصفت الهاغاناه «السكان العرب [المنطقة السكنية]» بقذائف الهاون⁽¹⁴⁷⁾. وفي حين فشلت محاولات البريطانيين للتوصل إلى هدنة، هاجمت الكتيبة الثانية عشرة من لواء غولاني في

الموجة الثانية : النزوح الجماعي...

الثاني عشر من الشهر واستولت على قرية خربة نصر الدين والشيخ قدومي على قمة التل المجاور، مما مكنها من أن تهيمن على طبريا من أعلى وتعزل المدينة عن المراكز العربية الرئيسية إلى الغرب (لوبيا والناصرية). وقد كانت التعليمات الصادرة تتضمن «تدمير تجمعات العدو» في القرية. وخلال المناوشات على مدار أربع ساعات، والتي واجهت فيها الهاغاناه مقاومة غير متوقعة، هرب أغلب السكان إلى طبريا وتم احتلال القرية. وأحصت الهاغاناه 22 قتيلًا من بين العرب وستة جرحى، في حين تم أسر ثلاثة (وفيما يتصل بخسائر الهاغاناه فقد اقتصررت على إصابة عنصرين بجروح خفيفة)⁽¹⁴⁸⁾. وقد ادعى العرب أن «دير ياسين ثانية وقعت في نصر الدين»⁽¹⁴⁹⁾، وبالفعل قتل بعض العناصر من غير المقاتلين - من بينهم نساء وأطفال - في القرية⁽¹⁵⁰⁾. وعلى صعيد آخر، أدى وصول اللاجئين من نصر الدين إلى إضعاف الروح المعنوية بين عرب طبريا⁽¹⁵¹⁾. وفي رد فعله على ما حدث كتب نحمان في مذكراته:

لا يمكنني أن أبرر هذا العمل من قبل الهاغاناه، ولا أدري إذا كان هناك مبرر للانقضاء وقتل مثل هذا العدد الكبير من العرب. لقد ترك فرار النساء والأطفال مذعورين من القرية انطبعا سيئا علي⁽¹⁵²⁾.

في ضوء عدم تدخل البريطانيين في نصر الدين، قررت الهاغاناه أن تخضع طبريا العربية والتي تهيمن على الطريق إلى المستوطنات في اللسان الداخلي بالجليل⁽¹⁵³⁾. وفي ليلة 17/16 أبريل قامت وحدات من لواء غولاني والكتيبة الثالثة التابعة للبالماخ (والتي دخلت حديثًا إلى المنطقة) بمهاجمة المدينة القديمة مستخدمة قذائف الهاون والديناميت لنسف ثمانية منازل، مما أسفر عن حالة «ذعر كبيرة». وقوبل التماس الأعيان العرب التوصل إلى هدنة برفض قادة وحدات الهاغاناه للتفاوض وعدم قبولهم إلا بالاستسلام⁽¹⁵⁴⁾، مما حدا بالعرب على مناشدة البريطانيين لرفع الحصار عن «المدينة القديمة» وبسط حمايتهم على الأحياء العربية. من جانبهم، ذكر البريطانيون أنهم ينوون إجلاء المدينة خلال أيام ولا يمكنهم توفير الحماية فيما بعد الثاني والعشرين من أبريل، مما دفع العرب إلى «الموافقة على الجلاء»، ربما بناء على اقتراح من البريطانيين⁽¹⁵⁵⁾. منذ السابع عشر من أبريل كان العرب - بما في ذلك

أعضاء من عائلة الطبري - قد بدأوا في التدفق خارج المدينة «مذعورين»، وطالب رجال الدين المحليون البريطانيين بمساعدة السكان على «مغادرة طبريا»⁽¹⁵⁶⁾. وقام الكولونيل أندرسون، الضابط البريطاني عالي الرتبة، بإبلاغ ممثلي اليهود أن قواته ستغادر خلال أيام وأنهم لن يكونوا قادرين على ضمان سلامة العرب بعد رحيلهم، ومن ثم تم اتخاذ قرار بإجلاء العرب من المدينة⁽¹⁵⁷⁾.

في الحادي والعشرين من أبريل، نقل ضابط في الإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه أن أحد قادة المليشيات في طبريا (صبحي شاهين) قد غادر المدينة في السابع عشر من الشهر ليعود في اليوم التالي بصحبة «عدد كبير من الحافلات من شركات نقل عربية متعددة في الناصرة». ربما دل هذا على أن فكرة الإجلاء التام قد تبلورت في السابع عشر من أبريل - أكثر من كونها نتاج اقتراح بريطاني في الثامن عشر من الشهر⁽¹⁵⁸⁾. ووفقا لضابط استخبارات الهاغاناه، كان شاهين هو الذي أكد ضرورة إجلاء طبريا، مستخدما «التهديد والقوة»، خاصة أن سبعمائة من السكان كانوا قد «رفعوا الرايات البيضاء» وقرروا البقاء⁽¹⁵⁹⁾.

مع إتمام إجلاء سكان طبريا، كان أغلب قادة اليشوف العسكريين (وربما السياسيين) واقعين تحت تأثير المفاجأة. وقد كان الاضطراب والحيرة واضحين بشكل ظاهر على ما كتبه أحد ضباط استخبارات لواء غولاني خلال اليومين التاليين، من تحليل وشرح، في صفحتين تحت عنوان «لماذا أجلى العرب طبريا؟». فبشكل لافت للنظر، لم يتطرق على الإطلاق إلى أوامر عربية (أو حتى شائعات تشير إلى مثل هذه الأوامر) من «الخارج» أو من «أعلى» أو إلى «نصيحة» من قبل البريطانيين، كسبب للنزوح الجماعي. وتعلق الأمر، وفقا له، بالمحصلة النهائية لتدهور الروح المعنوية. وذهب إلى أن النزوح الجماعي الذي بدأ - وفقا له مباشرة عقب سقوط نصر الدين - كان بسبب: (أ) إحساس بالضعف العسكري نبع من توزيع القوة بين ثلاث مليشيات منفصلة وغالبا ما كانت متنافسة، (ب) تدهور الأوضاع الاقتصادية نتيجة لسيطرة الهاغاناه على مداخل الطرق للمدينة وارتفاع الأسعار، (ج) «الفساد» المجتمعي وفرار القادة، (د) عدم وصول الدعم من الخارج، (هـ) ثبات كتائب الهاغاناه في المدينة القديمة، الذي استمر على الرغم من التهديدات البريطانية والحصار والمضايقات العربية، (و) سقوط نصر

الموجة الثانية : النزوح الجماعي...

الدين وما أحدثه وصول لاجئيه من إضعاف للروح المعنوية بما حملوه معهم من «قصص خيالية شرقية» عن فظائع اليهود، ي) هجوم الهاغاناه الناجح في 16 - 18 أبريل، الذي تم خلاله تدمير فندق طبريا⁽¹⁶⁰⁾.

مع حلول منتصف يوم الثامن عشر من شهر أبريل، تم فرض الهدنة كأمر واقع، وفرض البريطانيون حظر تجوال لمدة أربع ساعات. وقاموا (ومعهم رجال أعمال عرب) بإحضار عشرات الحافلات والشاحنات، استقلها السكان، وتوجهت القافلة تحت حراسة بريطانية إلى الناصرة. في حين قامت بعض العائلات بقيادة سياراتها نحو الجنوب باتجاه الأردن. تابع السكان اليهود رحيل جيرانهم السابقين عبر النوافذ والشرفات⁽¹⁶¹⁾. من جانبها، سجلت الفرقة الثالثة التابعة للبالماخ أن «البريطانيين يجلسون كل العرب من طبريا، وأن هناك احتمالا كبيرا لأن تصبح طبريا خالية من العرب غدا»⁽¹⁶²⁾. وفي المساء، نقلت دورية تابعة للواء غولاني: «لقد استكملنا عملية الاستطلاع لكل أرجاء المدينة الدنيا، ولا يوجد غرباء [عرب] في الموقع». كذلك أوضحت الدورية أنها تقوم بحراسة المحال والمنازل العربية من أعمال النهب، وأن «الروح المعنوية للجنود عالية»⁽¹⁶³⁾.

لكن سرعان ما اختلفت الصورة خلال ساعات، حيث «انقض رعاك اليهود [على المناطق التي تم إجلاؤها] وبدأوا في نهب المحلات... وقد توقفت عملية النهب بعد التدخل المسلح للشرطة اليهودية...»⁽¹⁶⁴⁾. وقد نقلت الإدارة العربية لجهاز استخبارات الهاغاناه أن كلا من السكان اليهود وجنود الهاغاناه شاركوا في «السرقه على نطاق واسع، وكانت هناك حوادث مفرزة للسرقه من قبل القادة ومشاجرات بين الأفراد الذين تصارعوا على الغنائم». واستمر النهب بشكل متقطع خلال الأيام التالية وتم القبض على العديد من المجرمين⁽¹⁶⁵⁾، أصيب عدد منهم بإصابات بالغة على يد قوات الهاغاناه. وقد أدى إطلاق النار من قبل أحد عناصر الهاغاناه على يهودي شرقي (سفارديم) شارك في عملية النهب إلى إصابته وفارق الحياة بعد ذلك. ولاحظ سكان المدينة وأغلبيتهم من الشرقيين «أن الاشكيناز (اليهود الغربيين) يطلقون النار فقط على السفارديم (اليهود الشرقيين)». استؤنفت عمليات السلب في الثاني والعشرين من أبريل عندما فقدت الهاغاناه والشرطة السيطرة تماما⁽¹⁶⁶⁾. وفي هذا الصدد كتب نحمان في مذكراته:

تحركت مجموعات مكونة من عشرات اليهود معا لتنهب المنازل والخوانيت العربية... ولم يكن بحوزة عناصر الهاغاناه القوة الكافية للسيطرة على الرعاع بعدما أعطوا بأنفسهم مثلاً سيئاً... بدأ الأمر كما لو كان هناك سباق بين فصائل الهاغاناه الموجودة في مغدال، وغينوسار، ويافنيل عين غيف الذين قدموا إلى المدينة في سيارات وقوارب وقاموا بتحميل جميع أنواع السلع من قبيل الثلاجات، الأسرة، إلخ... وكان من الطبيعي أن تسعى التجمعات اليهودية في طبريا إلى التصرف بطريقة مشابهة... كان كبار السن من الرجال والنساء، بغض النظر عن كبر سنهم ... المتدينون (وغير المتدينين)، منشغلين بأعمال السرقة والنهب... فشعرت بالخجل يغطي وجهي» (167).

و بموافقة الهاغاناه، عاد عدد قليل من العرب إلى طبريا في 21 - 22 أبريل، تحت حماية بريطانية، لاستعادة ممتلكاتهم (168).

لم تتلق القوات اليهودية أوامر بطرد السكان العرب، ولم يقوموا بذلك. كما أنهم لم يتوقعوا أن يقوم السكان بالرحيل. ومع ذلك فإنه عندما اتخذ القرار وبدأت عملية الإجلاء بالفعل لم تقدم الهاغاناه في أي لحظة على إيقافها. وخلال ليلة 18 - 19 أبريل طبع قادة الجماعة اليهودية إعلاناً يشرح ما حدث. كتبوا فيه أن العرب بدأوا القتال، وأن الهاغاناه قامت بالرد، واستتبع ذلك قرار العرب بالرحيل، وكتب على اللافتات: «لم نقم بحرمان السكان العرب من ديارهم». كما طلبت النشرة من اليهود عدم المساس بممتلكات العرب، حيث «سيأتي اليوم الذي يعود فيه السكان العرب إلى منازلهم...» (169).

بعد مرور ثلاثة أيام، أخبر جمال الحسيني الأمم المتحدة أن اليهود «أجبروا العرب على مغادرة طبريا». وبعد سنوات، اتفق قائد لواء غولاني، بشكل غير مباشر، مع هذا الرأي عندما ذكر أن استيلاء قواته على المواقع العسكرية العربية الرئيسية في المدينة «أجبر السكان العرب على الإجلاء» (170). من جانب آخر، اتهم الياس كوسا (محام عربي من حيفا) العام 1949 «السلطات البريطانية بأنها قامت بنقل السكان العرب [في طبريا] بالقوة وبأعداد ضخمة إلى شرق الأردن». فبدلاً من استعادة النظام في المدينة بالقوة، كما كان «واجبهم»، قاموا «بإجبار العرب على هجر ديارهم وممتلكاتهم والسعي إلى اللجوء في الأراضي العربية المجاورة» (171). وعلى

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الرغم من ذلك، واستنادا إلى الدلائل، فإن قرار إجلاء طبريا قد اتخذ بشكل مشترك بين القادة العرب المحليين والسلطات العسكرية البريطانية. ومن الممكن أن تكون فكرة الإجلاء، تحت حماية بريطانية، قد اقترحت أولا من قبل الضباط البريطانيين، إلا أن الأعيان العرب هم من كان عليهم أن يقرروا البقاء أو الرحيل. وقد كان عدم استعداد البريطانيين، أو على الأحرى عدم قدرتهم، لعرض حماية طويلة المدى وإعلانهم انسحابهم الوشيك بمنزلة الحافز على اتخاذ القرار. أما القرار قبل وفي بداية المعركة من قبل كبار أعيان طبريا، والأحداث الحقيقية أو المزعومة التي وقعت في نصر الدين (التي عززتها الأخبار عن المذبحة التي سبقت ذلك بأسبوع في دير ياسين) وقيام الهاغاناه بالاستيلاء على قرية المنارة (إلى الجنوب) في العاشر من أبريل، مما أدى إلى قطع الطريق المؤدي إلى الأردن، كل هذه كانت عوامل ساعدت على حدوث النزوح الجماعي⁽¹⁷²⁾.

أطلق سقوط طبريا العربية وإجلاء سكانها الشرارة الأولى لعمل مماثل في سلسلة من القرى المحيطة بالبحيرة. غادرت عشيرة عرب قادش البدوية (من عرب الدليكا) التي كانت تقيم بالقرب من بوريا (جنوب المدينة) تحت حراسة الهاغاناه (بناء على طلبهم) إلى سمخ والأردن⁽¹⁷³⁾. وهرب أصحاب المحال السوريون في سمخ (جنوب المدينة) في الثاني عشر من أبريل أو قبل ذلك⁽¹⁷⁴⁾. وشوهدت شاحنات تقل النساء والأطفال تغادر القرية في الرابع والعشرين من الشهر ذاته متجهة إلى لوبيا⁽¹⁷⁵⁾. ورحل المتبقي من السكان في العبيدية (جنوب غرب بحيرة طبريا) في الحادي والعشرين من أبريل⁽¹⁷⁶⁾. وأجلي سكان مجدل (قرية واقعة على ضفة البحيرة شمالي طبريا) من ديارهم بعد أن أقنعهم رئيس المجتمع اليهودي المجاور في مغدال وغينوسار بذلك، وتلقى القرويون مبلغ 200 جنيه إسترليني مقابل ثماني بنادق وذخائر وحافلة قاموا بتسليمها، وتم نقلهم إلى الحدود الأردنية بحافلات يهودية. ومما لا شك فيه أن سقوط طبريا العربية قد ساعد في عملية «إقناع» السكان. كما أن الحدث اليهودي سرع من عملية إجلاء المناطق المجاورة في غوير أبو شوشة⁽¹⁷⁸⁾. وتم إجلاء السمرة، في الجزء الجنوبي من البحيرة، جزئيا كرد فعل على سقوط طبريا، كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى كل من كفر سبت والشجرة⁽¹⁷⁹⁾.

حيفا

كان سقوط حيفا العربية والنزوح الجماعي لسكانها من بين الأحداث الرئيسية في الحرب، فرحيل عرب المدينة، الذين بلغ عددهم قبل الحرب 65 ألف نسمة، مثل بحد ذاته 10 في المائة من إجمالي عدد اللاجئين العرب. وبالنظر إلى الدور المحوري لحيفا، سياسيا وإداريا واقتصاديا، فإن سقوطها والفرار منها كانا دافعا رئيسيا لهجرات تالية من مناطق أخرى في الشمال وبقاع أخرى في البلاد، بما في ذلك يافا. من الضروري النظر إلى النزوح الجماعي من حيفا في الحادي والعشرين من شهر أبريل على خلفية قيام المدينة بعملية إجلاء تدريجي لما يقارب 20 ألفا إلى 30 ألفا من سكانها، بمن في ذلك أغلبية الطبقات المتوسطة والعلية، خلال الفترة من شهر ديسمبر 1947 إلى أبريل 1948، فغالبية أعضاء اللجنة الوطنية والمستشارين بالبلدية - بصحبة عائلاتهم - كانوا من بين الذين رحلوا. كانت المدينة معرضة للخطر مع الإغلاق التدريجي لمعسكرات وأجهزة ومكاتب حكومة الانتداب مما أدى إلى ارتفاع حاد في مستويات البطالة خلال شهري مارس وأبريل⁽¹⁸⁰⁾. تضافر ذلك مع ما خلفته أشهر من المناوشات والقصف والنقص في الغذاء (خاصة الدقيق والخبز) والشعور بالعزلة عن الأرض العربية الداخلية ليشير - بشكل مطرد - أعصاب السكان الباقين ويثبط من عزمهم⁽¹⁸¹⁾.

نقلت استخبارات البالمخ خلال الأسبوع الأول من شهر أبريل أن 150 عربيا يغادرون المدينة يوميا⁽¹⁸²⁾. وفي وقت ما من النصف الأول من الشهر رحل رشيد الحاج إبراهيم (رئيس اللجنة الوطنية) بشكل واضح بعد مشاحنات مع قائد المليشيات الجديد، أمين عز الدين النبهاني، (الضابط الدرزي اللبناني)⁽¹⁸³⁾. كما نقلت مصادر استخبارات الهاغاناه أن «أكثر من 100» من عناصر المليشيات معظمهم من السوريين والعراقيين، الذين لم يتلقوا رواتبهم، غادروا المدينة خلال الأسبوع الثالث من أبريل⁽¹⁸⁴⁾. ومما لا شك فيه أن النجاحات التي حققتها الهاغاناه خلال اليوم السابق على ذلك في مواجهة جيش الإنقاذ في معارك مشمار هعيمك ورمات يوحنان (على بعد عدة أميال جنوب شرق المدينة) كان لها أثر كبير. وبحلول الحادي والعشرين من أبريل، عندما بدأت الهاغاناه انقضاها، كان سكان المدينة الباقون مهينين للإجلاء.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

طبقا للجنرال هيو ستوكويل (القائد العام العسكري البريطاني للقطاع الشمالي) اندلعت المعركة النهائية بسبب العناصر العربية غير النظامية التي قامت بحلول منتصف الشهر:

بتكرار هجماتها في العديد من الأحياء... لتحقيق هدف تكتيكي يسعى
للتقدم إلى الأمام من جناحين: وادي النسناس ووادي صليب حتى تتمكن من
أن تفرج ساقى... الطريق الرئيس في هدار الكرمل... وتعزز مواقع كل من أمين
بيك عز الدين ويونس نفعه، اللذين توليا قيادتهما⁽¹⁸⁵⁾.

في السادس عشر من أبريل أسفرت النيران العربية عن مقتل أربعة من اليهود وإصابة خمسة بجراح. وطبقا لمصادر الهاغاناه، فإنه «بدءا من ذلك اليوم ضاعف العرب من استخدامهم لقذائف الهاون»⁽¹⁸⁶⁾.

كان في نية الهاغاناه أن تترك حيفا إلى النهاية في ضوء الوجود البريطاني الكبير هناك، فضلا عن حقيقة أن المدينة كانت حيوية للانسحاب البريطاني من فلسطين المقرر اكتماله في الخامس عشر من شهر مايو، حيث إن الهاغاناه لم تكن راغبة على الإطلاق في الاشتباك معهم. إلا أن الضغط العربي منتصف الشهر، الذي بلغ ذروته مع إعادة الانتشار المفاجئة للقوات البريطانية خارج مناطق التماس في الحادي عشر من أبريل، وقيام العرب في وقت مبكر من ذلك الصباح بإطلاق النار على السيارات اليهودية في وادي رشميا وأماكن أخرى⁽¹⁸⁷⁾ أجبر لواء كارملي على الدخول في المواجهة.

طالبت الخطة «دالت» بضرورة تشديد القبضة اليهودية على المدن المختلطة من خلال:

السيطرة على جميع الممتلكات والخدمات الحكومية، طرد العرب من
الأحياء المختلطة بل طردهم جميعا من المناطق [العربية] التي تعرض خطوط
الاتصالات في تلك المدن للخطر، أو تلك التي تستخدم كقواعد لشن الهجمات.
كذلك، [طالبت الخطة] بإحكام السيطرة على السكان العرب في منطقة من
المدينة تكون محاطة بقواتنا.

أوكلت الخطة للواء كارملي مهمة تحييد حيفا العربية، وصدرت إليه التعليمات على وجه الخصوص بما يلي:

الاستيلاء والسيطرة على كهف إيليا المدينة القديمة، المستوطنة الألمانية،
شارع يافا، الأحياء التجارية القديمة والحديثة، شارع الناصرة، وادي رشميا،
وأحياء الأكواخ (من قبيل أرض الجمال وقرية بلد الشيخ)⁽¹⁸⁸⁾.

طوال فترة الأزمة كان ستوكويل مدفوعا بشكل رئيسي برغبته في تأمين سلامة قواته وضمان عدم إعاقة عملية جلاء القوات البريطانية عن فلسطين - التي ستجري بشكل رئيسي عبر ميناء حيفا. وقد كان منشغلا بشكل خاص بأمن الميناء وخطوط السكك الحديدية ومصفاة البترول. وأخيرا، فإنه كان مهتما بالإبقاء على السلام بين العرب واليهود⁽¹⁸⁹⁾. وفضلا عن ذلك كان ستوكويل على دراية تامة بأن قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة قد خصص حيفا للدولة اليهودية، وأن لواء كارملي أكثر قوة من خصومه العرب، كما أنه كان متعاطفا بشكل أكبر مع القضية الصهيونية. وفي منتصف شهر مارس خلال اجتماعه مع هاري بيلن، ممثل الإدارة السياسية للوكالة اليهودية في المدينة، وأبا خوشي (شنلر) الرجل القوي ورئيس الشعبة المحلية لحزب ماباي، عبر الجنرال البريطاني بشكل واضح عن «رغبته في التعاون مع [اليهود] بطريقة يمكن من خلالها تسليم حيفا اليهم كمدينة نظيفة». وقام بيلن باصطحاب ستوكويل إلى كيبوتس مشمار هعيمك، حيث تناولوا الغداء، وبدأ الجنرال البريطاني متأثرا بشكل ايجابي بما شاهده⁽¹⁹⁰⁾.

في منتصف شهر أبريل، أجرى ستوكويل محادثات مع كل من الضباط العرب واليهود طالبهم خلالها بتخفيف وتيرة هجماتهم، الأمر الذي قابله الطرفان بتقديم «وعود غامضة وغير مفيدة». ولقد أقنعت الاستفزازات العربية في تلك الفترة لواء كارملي (الذي قام بدوره بإقناع المركز الرئيسي للهاغاناه) بالحاجة للقيام بـ «عملية كبرى»⁽¹⁹¹⁾. وقام كل من خوشي وبيلن بعد ظهر التاسع عشر من أبريل بمحاولة استقراء السلوك البريطاني إزاء مثل هذه العملية المحتملة. وطبقا لستوكويل أوضح خوشي أن موقف اليهود «لم يعد من الممكن احتماله»، وأن هدار الكرمل مهددة «بهجوم عربي». ومن جانبه حذر ستوكويل من أن شن هجوم يهودي كبير سيكون «عملا غير حكيم على الإطلاق». وقد نقل خوشي هذا التعليق إلى تل أبيب، الأمر الذي استتبعه التأجيل المؤقت للفكرة. وعلى الرغم من ذلك، كان ستوكويل (ربما جزئيا استنادا إلى حديثه مع خوشي) مقتنعا بأن «صداما كبيرا» على وشك الوقوع،

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

واعتقد أنه أخذاً في الاعتبار بـ «القوة الضئيلة» التابعة له والموجودة في المدينة لن يكون قادراً على إيقاف القتال، فضلاً عن إمكانية وقوع خسائر في صفوف قواته. وبناءً على ذلك قرر أنه من بين الخيارات الثلاثة المتاحة أمامه - «الإبقاء على مواقع الحامية في حيفا والجليل الشرقي»، «تركيز قوات الجليل الشرقي في حيفا»، أو «الإبقاء على مواقع الحامية في «الجليل الشرقي» وإعادة انتشار القوات في حيفا بما يمكنني من تأمين بعض الطرق والمناطق الحيوية لي وتأمين قواي قدر الإمكان» - كان الخيار الثالث هو الأكثر جاذبية.

أصدر ستوكويل أوامره إلى قواته، اللواء الملكي الأول والوحدات التابعة له، بإعادة الانتشار مع حلول «الضوء الأول لفجر الحادي والعشرين من أبريل»، والتحرك بعيداً عن المواقع داخل مركز المدينة وعن خطوط التماس بين الأحياء اليهودية والعربية، وهو ما تم تنفيذه بحلول الساعة السادسة من صباح اليوم نفسه. وأعقب ذلك مباشرة اندلاع القتال بين اليهود والعرب للسيطرة على المنشآت التي أخلاها البريطانيون على امتداد خطوط المواجهة⁽¹⁹²⁾. ونقل بيلن عن ستوكويل قوله: «لقد أنزل العلم، لينتصر الأفضل»⁽¹⁹³⁾.

وفقاً لرواية نمر الخطيب: «في الصباح الباكر من يوم 21 أبريل أخبر ضابط بريطاني اللجنة الوطنية بعملية إعادة الانتشار البريطانية الوشيكة⁽¹⁹⁴⁾». وربما تم توجيه إخطار غير رسمي مماثل للهاغاناه. أما من الناحية الرسمية، فقد قام ستوكويل في العاشرة صباحاً باستدعاء القادة اليهود، وأعقبهم العرب، وسلمهم وثيقة معدة سلفاً تعلن إعادة الانتشار، الذي كان قد تم إنجازه بالفعل. وطلب ستوكويل من الطرفين إنهاء القتال ووعد بشكل غامض بقيام البريطانيين بالمساعدة في الحفاظ على السلم والنظام. وفي الوقت ذاته أوضح أن قوات الأمن البريطانية ستمتنع عن التدخل في الصدامات⁽¹⁹⁵⁾.

أدت عملية إعادة الانتشار البريطانية المفاجئة إلى عقد مناقشات على عجل في مركز قيادة لواء كارملي. وخلال الصباح وبداية الظهر، تشكلت ملامح عملية «تنظيف عيد الفصح»، التي استندت في جانب منها إلى خطة سبق وضعها أواخر مارس «عملية المقص» نصت على الانقضاء من محاور متعددة على مواقع الميليشيات وتحييد قدرة العناصر غير النظامية على إرباك حركة المواصلات والحياة

في الأحياء اليهودية. وعلى حين هدفت «عملية المقص» إلى إحداث التدمير وإيقاع الصدمة أكثر منها إلى الاستيلاء، فإن عملية «تنظيف عيد الفصح» سعت إلى «كسر العدو من خلال هجمات متزامنة من عدة جهات من أجل فتح طرق الاتصالات إلى جنوب المدينة (على سبيل المثال منطقة وسط المدينة والميناء) والوصول إلى السيطرة على وادي رشميا من أجل تأمين الوصلة البرية بين حيفا والشمال...»⁽¹⁹⁶⁾. لم يكن من أهداف التخطيط أو من بين توقعاته الاستيلاء على أغلب مناطق حيفا العربية، وقد اعتبر قائد لواء كارملي، موشيه كرميل، أن مثل هذا الهدف طموح جدا وعلى الأرجح لا يمكن الوصول إلى تحقيقه بسبب قوة العرب والتدخل البريطاني المحتمل.

قبل أن يكتمل التخطيط لعملية «تنظيف عيد الفصح» تم إرسال وحدة عسكرية للاستيلاء على مبنى لجنة الأحياء العربية الشرقية المعروفة باسم دار النجادة التي كانت تهيمن على جسر رشميا والمدخل الشرقي لحيفا. وقد ترتب على المحاولات العربية لإعادة الاستيلاء على الدار وما تزامن معها من محاولات يائسة طيلة النهار والليل لتعزيز ما تبقى من الوحدة العسكرية المحاصرة في الداخل نشوب معركة ضارية على أحياء الحليصة ووادي رشميا، ونتيجة لانتصار اليهود في النهاية، تم تأمين فتح وصلة الطريق بين حيفا اليهودية والمستوطنات الواقعة إلى الشرق والشمال. وقد كان قتال ذلك اليوم الأصعب والأطول ويمكن اعتباره، بالنظر إلى الورا، حاسما.

في الوقت الذي شق فيه طابور النجدة الحربية اليهودي طريقه إلى دار النجادة، مدعوما بنيران الهاون لمنع تقدم العدو، انكسرت المليشيات العربية ولاذت بالفرار، وهو ما تبعه فرار الجانب الأكبر من سكان الحليصة ووادي رشميا باتجاه الشمال نحو وادي صليب ومنطقة وسط المدينة. وقد ترتب على وصول اللاجئين المذعورين والمنهكين خلال ليلة 21 - 22 أبريل أثر كبير في نشر مشاعر مماثلة من الذعر والرعب لدى سكان الأحياء العربية في مركز المدينة، حيث قدم لهم سابقة لنموذج السلوك الذي اتبعه الآخرون.

وصل طابور النجدة إلى دار النجادة الساعة التاسعة من صباح الثاني والعشرين من أبريل، وسبق ذلك بساعات - أثناء الليل - قيام ثلاث من كتائب الهاغاناه وكتيبة

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

من البالماخ وأخرى مستقلة بشن هجمات متزامنة على مراكز الدفاع العربية الرئيسية وسط مدينة حيفا على امتداد شارع ستانتون وعلى مبنى مكاتب السكك الحديدية (دار الخوري) في وادي النسناس، ومكتب الاتصالات السلكية، ومقر الميليشيات العربية في المدينة بالقرب من موقع السوق القديم. وفي إطار الإعداد للهجوم، أطلقت الهاغاناه منتصف ليلة 21 - 22 أبريل - على مدار خمس عشرة دقيقة - خمسين دورة من قذائف الهاون الثقيلة باتجاه جنوب المدينة، مما أوقع «ذعرا كبيرا... وبدأ النزوح الجماعي». كما تم إطلاق المزيد من القذائف بشكل متقطع خلال الليل وفي صباح الثاني والعشرين من أبريل. ومع بداية فترة ما بعد الظهر كانت الهجمات قد قصمت ظهر المقاومة العربية. قبل ذلك بساعات، في الساعة التاسعة صباحا من الثاني والعشرين من أبريل، تمكنت وحدات الهاغاناه من الوصول إلى ساحة الحمراء ووجدتها خالية: «كان كل شيء مهجورا، الحوانيت مغلقة، ولا توجد حركة سير ... ولم يكن هناك إلا عدد من كبار السن المرضى من الرجال والنساء يهيمون في المكان وهم مرتبكون»⁽¹⁹⁸⁾.

في الساعة السادسة من صباح اليوم نفسه، وقبل ما تقدم، اندفعت مجموعة ضخمة من العرب إلى الميناء، وبحلول الواحدة ظهرا كان ستة آلاف شخص قد استقلوا مراكب وأبحروا في اتجاه عكا. في هذا الصدد كتب أحد أعضاء الكشافة التابعة للبالماخ لاحقا:

رأيت أناسا يحملون مقتنياتهم يجرون في اتجاه الميناء وتنطق وجوههم بالارتباك. وقابلت رجلا مسنا جالسا على درجات يبكي، فسألته عن سبب بكائه، فأجاب أنه فقد أبناءه الستة وزوجته ولا يعلم أين هم. فمت بتهديته وإخباره أنه يجب عليه ألا يبكي هكذا وهو لا يعلم شيئا بعد [عن مصيرهم]، قلت إنه من الممكن أن يكون قد تم نقل زوجته وأبنائه إلى عكا، لكنه استمر في العويل. فقممت باصطحابه إلى الفندق... وأعطيته جنيهين إسترليني فخلد إلى النوم. وأثناء ذلك وصل أناس آخرون [لاجئون] من الحليصة...»⁽¹⁹⁹⁾.

وصف نمر الخطيب لاحقا حالة الاندفاع المذعور من قبل سكان الجزء الجنوبي من المدينة إلى الميناء كما يلي:

انتشرت فجأة إشاعة بأن الجيش البريطاني في منطقة الميناء أعلن عن استعدادة لحماية حياة أي شخص يترك المدينة ويصل إلى هناك. ومن ثم بدأ

اندفاع محمود باتجاه بوابات الميناء، دهس الرجال بعضهم بعضا كما دهست النساء أطفالهن. وسرعان ما امتلأت القوارب في الميناء، وليس هناك من شك في أن ذلك كان السبب وراء انقلاب العديد منها.

من جانبه، قدم ضابط استخبارات بريطاني وصفا للمشهد في مدخل الميناء بعد مرور ساعات قليلة:

خلال فترة الصباح كان اليهود يطلقون النار بشكل مستمر على كل العرب الذين يتحركون في كل من وادي النسناس والمدينة القديمة. وقد شمل ذلك قذائف مدافع، وهاون، ونيران قناصة لا تقوم بالتمييز أصابت نساء وأطفالا كانوا يحتمون بالكنايس ويحاولون الخروج... عبر البوابات إلى أرصفة السفن... وقامت قوات البحرية الملكية التي تحمي الأرصفة بإدخال العرب عبر البوابات في دفعات، إلا أنه كان هناك اكتظاظ ضخم خارج البوابة الشرقية من النساء والأطفال العرب في حالة هستيريا وذعر، فضلا عن كبار السن الذين قام اليهود بفتح النيران عليهم من دون شفقة. وقد أصيب اثنان من ضباط البحرية الملكية بجراح خطيرة جراء ذلك⁽²⁰¹⁾.

في نهاية فترة الظهيرة يوم الثاني والعشرين من أبريل أورد لواء كارملي ما يلي:

أصبح المقر الرئيسي للعرب فارغا. لا أحد يرد على الاتصالات الهاتفية... المستشفيات العربية مليئة بالموتى والجرحى، الجثث والجرحى يملأون الشوارع وليس هناك من يتولى نقلهم نتيجة للافتقار إلى التنظيم والوسائل الطبية، وتضخم حالة الذعر على الشارع العربي⁽²⁰²⁾.

أصدرت قيادة الهاغاناه تعليماتها إلى القوات بمعاملة أماكن العبادة باحترام، خاصة المساجد، والامتناع عن عمليات السلب والنهب⁽²⁰³⁾.

في جميع المناطق، استخدمت الهاغاناه إذاعات باللغة العربية وسيارات مجهزة بمكبرات الصوت، وأعلنت إذاعة الهاغاناه أن «يوم الحساب قد حان» وطلبت من الأهالي «طرد المجرمين الأجانب» و«الابتعاد عن كل منزل وكل شارع وكل حي يحتله المجرمون الأجانب». كما طلبت الإذاعة من السكان «إجلاء النساء والأطفال وكبار السن بشكل فوري وإرسالهم إلى أماكن آمنة»⁽²⁰⁴⁾. أعلنت مكبرات الصوت

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

في السيارات أن الهاغاناه سيطرت على كل مداخل المدينة بشكل لا يسمح بوصول أي تعزيزات إلى الميليشيات التي مازالت تعد للمعركة، مطالبة العرب بإلقاء السلاح، والعناصر غير النظامية «من سورية، شرق الأردن، العراق بالعودة إلى عائلاتهم»⁽²⁰⁵⁾. كانت التكتيكات اليهودية على أرض المعركة مصممة لصعق وسرعة هزيمة المعارضة، كما مثل إضعاف الروح المعنوية هدفا رئيسا. وكان من المعتقد أنه إذا كان من المهم الانتصار فإنه من المهم كذلك أيضا إحداث التدمير النفسي للوحدات العربية. وفي هذا الخصوص تم اللجوء إلى سيل من قذائف الهاون والحرب النفسية من خلال الإذاعات والإعلانات، والتكتيكات التي اتبعتها كتائب المشاة بالتحرك من منزل إلى آخر، وكانت كلها مسخرة لخدمة هذا الهدف. كانت أوامر رئاسة لواء كازملي للفرقة 22: «قتل كل عربي [من الذكور البالغين] يتم مقابله»، وإضرام النيران بالقنابل الحارقة في «كل الأشياء التي يمكن حرقها، وسنقوم بتزويدكم بلافتات مكتوبة باللغة العربية لنشرها في الطريق»⁽²⁰⁶⁾. وطبقا للتقديرات البريطانية، فإنه خلال المعركة كان هناك «2000 عنصر من الميليشيات العربية في مقابل 400 من الجنود اليهود المدربين المدعومين بعدد غير محدد من الاحتياط». وعلى حين بدأ تقدير عدد المقاتلين العرب مبالغيا فيه، فإن ذلك المتصل بالقوات اليهودية كان أقل من الواقع. ومع ذلك، فإن العناصر الرئيسية لم تكن في الأعداد أو قوة النيران، وإنما في الطبيعة الطبوغرافية، والتنظيم، والقيادة، والسيطرة، والتصميم، والروح المعنوية (التي كانت مرتبطة بشكل قوي بعنصر المفاجأة). وقد دخلت حيفا العربية المعركة بمعنويات منخفضة إلى حد كبير، وبانعدام في الاستعداد من الناحية النفسية، وبافتقار إلى هدف واضح. ووفقا لأحد تقارير الاستخبارات البريطانية عشية المعركة: «أقر العرب صراحة بأن اليهود أكثر قوة منهم في الوقت الراهن». وكان رجال الميليشيات غير مدربين أو مسلحين بشكل كاف، كما أنه تم تجاهل أو رفض أغلب المطالبات المتكررة الموجهة لكل من دمشق واللجنة العربية العليا على مدار الأشهر السابقة لإرسال تعزيزات وأسلحة، وذكرت الاستخبارات البريطانية في هذا الصدد:

أبن الرحيل المتعجل لأحمد بك خليل، رئيس قضاة المدينة والممثل الوحيد

المتبقي في حيفا للجنة العربية العليا، بعثوا إلى لبنان في الحادي عشر من

شهر أبريل كان تجسيدا له مغزاه لرأي العرب المحليين فيما يتصل بنتائج أي

عمليات يهودية شاملة في الوقت الحاضر⁽²⁰⁷⁾.

تماشى تقرير ستوكويل بعد وقوع الأحداث مع ما سبق: «أعتقد أن الرأي العربي المحلي كان يعكس الشعور بأن اليهود سيسيطرون إذا ما قاموا بشن الهجوم». أكد الجنرال البريطاني أيضا على شعور العرب بالعزلة والهشاشة⁽²⁰⁸⁾.

لم يكن فرار خليل في الحادي والعشرين من شهر أبريل مجرد حدث يعطي مثلاً على انخفاض الروح المعنوية. لكن، إذا ما تم النظر إليه في سياق فرار - في اليوم ذاته أو التالي - العديد من القادة المحليين الذين كانوا قد ظلوا في المدينة، يمكن اعتباره أحد الأسباب الرئيسة في تدهور الروح المعنوية. فقد لحق بخليل، في بداية فترة الظهيرة، أمين بيك عز الدين، القائد العسكري للمليشيا في المدينة، ونائبه يونس نفعة، وتلاهم في وقت مبكر من صباح اليوم التالي مفتش صحة سابق في حيفا⁽²⁰⁹⁾. وعلى الأرجح أن خبر رحيل القادة الكبار للمليشيات عرف بشكل فوري من قبل الضباط والعديد من الرتب والأفراد، وخلال ساعات أصبح الأمر معروفا لدى جميع مكونات المجتمع، وقد حرصت إذاعة الهاغاناه على ترويجه⁽²¹⁰⁾. ووفقاً لما تضمنه تقييم أعده جهاز الاستخبارات البريطاني قرب نهاية شهر أبريل، فإن «الهروب المتعجل لـ «أمين بك عز الدين» كان على الأرجح العامل الفردي الأكثر تأثيراً» في إضعاف الروح المعنوية للمجتمع العربي⁽²¹¹⁾. وقد ذهب المفوض السامي في الاتجاه نفسه. ففي السادس والعشرين من أبريل خصص كانيغهام برقية كاملة موجهة إلى وزير المستعمرات البريطاني، كريتش جونز، لتناول موضوع فرار القادة العرب من حيفا ويافا⁽²¹²⁾. وقد تم التعبير عن وجهة النظر البريطانية حول هذا الموضوع ببلاغة واختصار شديد في السادس من شهر مايو بالقول: «إن فرار قادتهم، وهو مشهد للجبن في أعلى المستويات، قد أفقد السكان [العرب في حيفا] معنوياتهم⁽²¹³⁾». من جانبهم، أرسل الديبلوماسيون الأمريكيون تقارير مماثلة إلى واشنطن تضمنت أن «القيادة العليا العربية بالكامل غادرت حيفا بضع ساعات قبل بدء المعركة»، أما نائب القنصل، لينكوت، فقد كان محتقراً بشكل تام للأداء العربي: «إن العربي في حيفا، خاصة العربي المسيحي... وبشكل عام... جبان وليس مهتماً قيد أنملة بالمشاركة في معارك بلاده»⁽²¹⁴⁾.

تراوحت الخسائر العربية في معركة حيفا بين 100 و150 قتيلاً وعلى الأرجح عدد أكبر من ذلك من الجرحى⁽²¹⁵⁾. أما خسائر الهاغاناه فكانت 14 - 16 قتيلاً وما يقارب الـ 50 جريحاً⁽²¹⁶⁾.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

في وقت مبكر من صباح يوم الثاني والعشرين من أبريل، وعلى خلفية انهيار المليشيات والنزوح الجماعي، طلب أعضاء في اللجنة الوطنية مقابلة ستوكويل بهدف «التوصل إلى هدنة مع اليهود». استفسر الأخير من ضابط اتصال الهاغاناه، المحامي ياكوف سالومون، عن «شروط اليهود للموافقة على استسلام العرب». من جانبه، كان كارميل في غاية الدهشة. حيث إن العرب لم يكونوا على شفا الإنهيار، كما أنه لم يكن هناك ما يبرر الاستسلام، وفقا له فإن «فكرة استيلائنا الكامل على حيفا كانت لا تزال تبدو خيالية ولا يمكن فهمها». وعلى الرغم من ذلك، قام كارميل بكتابة شروط وأرسلها إلى ستوكويل الذي قال إنه «وجدتها عادلة ... والعرب سيقبلون بها...»⁽²¹⁷⁾.

جاءت مناشدة العرب لستوكويل بعد اجتماع للأعيان ليلة 21|22 أبريل في منزل عضو اللجنة الوطنية ورجل المال فريد سعد، وقام المجتمعون الذين أسسوا من أنفسهم «لجنة الطوارئ لعرب حيفا» بصياغة وثيقة ذهبت إلى تحميل ستوكويل المسؤولية عما حدث، وناشدوا القائد العسكري البريطاني التدخل لـ «إيقاف مذبحه العرب» أو أن يسمح بدخول التعزيزات العربية إلى المدينة⁽²¹⁸⁾.

هناك روايتان حول ما دار في الاجتماع التالي مع ستوكويل في العاشرة من صباح الثاني والعشرين من أبريل. حضر الاجتماع كل من سيرل ماريوت (القنصل العام البريطاني المعين في حيفا)، وفيكتور خياط (رجل أعمال والقنصل الفخري الإسباني في المدينة)، وإلياس كوسا (المحامي)، وأنيس نصر (قاضي منطقة حيفا)، وجورج معمر (عضو اللجنة الوطنية). وتمثلت الرواية العربية في أن الوفد طلب بشكل مباشر من ستوكويل إيقاف الهاغاناه والسماح بدخول التعزيزات العربية. ورفض ستوكويل قائلا إنه يلزم على العرب قبول «مبدأ الهدنة» (المقصود أن يستسلموا). وقد طالب العرب المسؤول البريطاني بأن يضع ذلك في وثيقة مكتوبة، الأمر الذي أعقبه توقيع كل من ستوكويل و«لجنة الطوارئ» على وثيقة تنص على أنه (المقصود ستوكويل) رد على مطالبة العرب له بالتدخل بقوله:

إنه غير مستعد للتصادم مع أي من الطرفين المتنازعين، وأنه لن يسمح

للقوات المسلحة العربية بدخول المدينة... وأنه كان فقط مستعدا للعمل

كوسيط سلام إذا ما قبل العرب من حيث المبدأ شروط الهدنة.

وأعقب ذلك طلب العرب معرفة شروط الهاغاناه للهدنة⁽²¹⁹⁾.

جاء بالرواية البريطانية المعاصرة لذلك وصف مخالف بعض الشيء لمحضر الجلسة، ولم يركز على المطالبات التي تم توجيهها إلى ستوكويل للتدخل أو السماح بدخول التعزيزات، لكن على استعداد العرب لقبول هدنة تقوم على الاعتراف بأنه تم بالفعل خسارة المعركة. وفي تقاريرهما لم يذكر أي من ستوكويل أو ماريوت أن الأول قام بالتوقيع على وثيقة. كذلك فإنه طبقا للتقارير البريطانية، سعى العرب فقط إلى الحصول على مساعدة ستوكويل للتوصل إلى هدنة، غير أن الوفد خشي أن يرى البعض هذا التوجه على أنه استسلام غادر، ومن ثم فإنهم رغبوا في أن تقع المسؤولية على الجانب البريطاني، الأمر الذي كان يعني أنه يلزم المناورة مع ستوكويل ليقوم بالإعلان أن العرب كانوا «مجبزين على الاستسلام». حيث يقوم العرب بالطلب من البريطانيين إما محاربة الهاغاناه أو السماح بدخول التعزيزات، ويرفض ستوكويل، وبناء عليه تدعى اللجنة لشروط الهدنة في ظل الظروف القهرية. وقد مثل ما سبق، على الأقل، الطريقة التي رأى بها ستوكويل الاجتماع: «لقد شعروا بأنهم لم يتم تفويضهم بأي شكل من الأشكال في طلب هدنة، لكن إذا ما قمت بتغطيتهم فإنه يمكنهم القبول بها». وقد سجل الجنرال أن العرب «أرادوا منه أن يقول إنه لن يتدخل ضد الهاغاناه ولن يسمح بدخول التعزيزات»⁽²²⁰⁾. ومن تقارير ستوكويل وماريوت يظهر أن مصالح وآراء البريطانيين والعرب التقت ذلك الصباح، فكلا الطرفين كان يخشى، بل ويعارض، تجدد عمليات القتال الواسعة؛ وكلاهما فهم أن العرب قد خسروا بالفعل؛ كما خشي الطرفان وقوع مزيد من نزيف الدماء؛ وكلا الطرفين كان يريد الهدنة، وكان على ستوكويل أن «يجاري» ذلك.

طلب العرب الاطلاع على شروط الهاغاناه فقدمها ستوكويل لهم، ثم غادروا لمناقشتها في «منزل خياط». على أن يلتقوا بممثلين بريطانيين ويهود في مبنى البلدية في الساعة الرابعة مساء. ويبدو أنهم شعروا أن القبول الفوري سيعرضهم للاتهام بالخيانة، ومن ثم حاولوا من خلال القنصل السوري ثابت العريس، الذي كان لديه جهاز إرسال راديو، الاتصال باللجنة العسكرية للجامعة العربية في دمشق للحصول على تعليماتها، غير أن دمشق لم ترد⁽²²¹⁾. وعوضا عن ذلك قامت دمشق بدفع الحكومة اللبنانية للتحرك، فقامت باستدعاء الوزير البريطاني في بيروت، هوستون بوسول، للاحتجاج على إحجام بلاده عن التصرف إزاء «العدوان اليهودي». وفي ذات الوقت قابل الرئيس السوري شكري القوتلي بصحبة كبار وزرائه الوزير البريطاني

الموجة الثانية: الزواج الجماعي...

فيليب برودميد وقرأ له رسالتين واردتين من ثابت العريس تضمنتا وصفا للهجوم اليهودي وحذرتا من «مذبحة للأبرياء». واتهم الرئيس السوري البريطانيين «بعدم القيام بأي شيء» مهددا بشكل ضمني بالتدخل السوري. وقد حذره برودميد من الإقدام على مثل هذه «الأفعال الغبية»⁽²²²⁾.

لم يكذب برودميد يغادر حتى تم استدعاؤه مجددا على الفور، حيث أخبره القوتلي أنه في حالة من الحيرة وليطلعه علي برقية جديدة من العريس متضمنة رفض ستوكويل لمناشدة الأعيان له التدخل أو السماح بدخول التعزيزات، وأنهم ينتظرون تعليمات ثمهدا للاجتماع المرتقب في مبنى بلدية المدينة. ذكر الرئيس القوتلي أنه «قلق جدا» بشأن الرأي العام السوري طالبا من برودميد إبداء رأيه حول مضمون التعليمات التي يمكنه أن يرسلها، وما الذي يقترحه برودميد في هذا الصدد. أوضح برودميد أنه لا يعرف الوقائع وحث على الاعتدال، وفي أعقاب ذلك أرسل إلى لندن طالبا القيام بعمل «شيء» يمكن أن «يهدئ من روع القوتلي»⁽²²³⁾. ولم يكن القوتلي يدري ما الذي يمكنه أن يقدمه كتعليمات لعرب حيفا الباقين: الاستسلام؟ رفض شروط الهاغاناه؟ البقاء والقبول بالسيادة اليهودية؟ إجلاء المدينة؟ على الخيارات كانت مثيرة للجدل. فامتنع القوتلي ببساطة عن الرد.

في تلك الأثناء، وخلال مراجعته لشروط الهاغاناه، لم يشعر ستوكويل «بالرضاء التام» مما دفعه إلى استدعاء الممثلين اليهود. وحضر بناء على ذلك كل من: بيلن، وسالومون، وموردخاي مكليف (قائد عمليات لواء كارملي) الذين قبلوا بعد المناقشة التعديلات التي أدخلها ستوكويل. نصت النسخة النهائية على المطالبة بنزع سلاح المجتمع العربي (مع تسليمها إلى السلطات البريطانية التي ستقوم بدورها بتسليمها إلى الهاغاناه فقط في الخامس عشر من شهر مايو)؛ ترحيل العرب الأجانب من الذكور في سن القتال؛ إزالة كل الحواجز التي أقامها العرب على الطرق؛ القبض على النازيين الأوروبيين الموجودين في أوساط العرب؛ فرض حظر التجوال لمدة أربع وعشرين ساعة في الأحياء العربية لتأمين عملية «نزع السلاح التامة»؛ فضلا عن:

إعطاء كل فرد في حيفا... الحرية في مباشرة عمله وطريقة حياته، وسيقوم

العرب بممارسة أعمالهم باعتبارهم مواطنين متساوين وأحرارا في حيفا كما أنهم

سيتمتعون بكل الخدمات شأنهم في ذلك شأن الأفراد الآخرين في الجماعة⁽²²⁴⁾.

نقلت السيارات المصفحة البريطانية القادة العرب إلى قاعة المدينة في حين وصل اليهود بطرقهم الخاصة. وقد مثل البريطانيون كل من: ستوكويل، وماريوت، وعدد ضئيل من كبار الموظفين؛ ومن الطرف اليهودي كان حاضرا كل من العمدة شاباتي ليفي، وسالومون، ومكليف، وعدد من الموظفين؛ ومثل العرب: خياط، سعد كوسا، أنيس نصر، محمد أبو زياد (رجل أعمال)، معمر، الشيخ عبد الرحمن مراد (رئيس جماعة الإخوان المسلمين في حيفا). وفي الخارج كانت الهاغاناه تدفع بوحداتها إلى أحياء وسط المدينة مبقية على إطلاق متقطع، وإن كان كثيفا، لقذائف الهاون، بغية «الاستمرار في الضغط» على عناصر المليشيا المتبقية من جانب، وعلى الأعيان المجتمعين في مبنى البلدية من جانب آخر⁽²²⁵⁾. طبقا لرواية كل من ستوكويل وماريوت، «وافق الوفدان بالإجماع» على وقف إطلاق النار، الأمر الذي كان يعادل استسلاما عربيا، استهل العمدة ليفي الحديث بإعلان أن «مكونات المجتمعين في حيفا يجب أن تعيش في سلام وصداقة معا». وعقب ذلك قام ستوكويل بقراءة شروط الهاغاناه، وهو ما تلاه مناقشات؛ حيث رغب العرب في الاحتفاظ بالأسلحة المرخصة، كما طالبوا بأن تتولى القوات البريطانية عوضا عن الهاغاناه الإشراف على حظر التجوال والتفتيش من منزل إلى آخر؛ كما أنهم «عارضوا بقوة» أن تنص الوثائق على تسليم الأسلحة العربية إلى الهاغاناه. وقد علق ستوكويل على ذلك الموقف بأنه «كان على الأرجح لحماية أنفسهم من استياء السلطات العربية العليا [أي اللجنة العربية العليا]»⁽²²⁶⁾، ومن جانبهم، أصر اليهود على الاحتفاظ بالنص كما تمت صياغته من دون تغيير، لكنهم وافقوا على التوصل إلى حلول وسط في أغلب القضايا الأخرى، وطبقا لما أورده بيلن، كان العرب «يساومون على كل كلمة»⁽²²⁷⁾.

كان ممثلو اليهود «تصالحيين» وفقا لستوكويل. وقد كان ماريوت، الذي تحول بعد ذلك ليصبح معاديا شرسا للإسرائيليين، أكثر تأكيدا على هذه الصفة حيث كتب: «ترك أعضاء الوفد الإسرائيلي انطبعا جيدا بشهامتهم في النصر، واعتدال شروطهم للهدنة، واستعدادهم للموافقة على التعديلات التي طلب الجنرال ستوكويل إدخالها». كما وصف ماريوت ليفي بأنه رجل «شجاع له شخصيته... كريم وودود، وأن انشغاله الرئيسي كان بالسلام والرفاهية في حيفا»، أما فيما يتعلق بسولومون فقد رأى أنه لا يفتقر إلى التميز وروح الدعابة - على الأقل عندما يكون في الجانب

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

المنتصر». ووصف ماريوت ضابط اتصالات الهاغاناه (بي ولف ريبك) بأنه «يتحدث بلهجة أكسفورد ولكنه لم يكن مجردا من الذكاء». وعلى الجانب الآخر «ترك الوفد العربي انطباعا مؤسفا». ويكتسب هذا الوصف قوته عند قراءة وصف ماريوت لنفسه وخبرته عن اليهود حيث ذكر أنه شخص:

استقى خبراته من اليهود في رومانيا (حيث كان من المعلوم أنه إذا كان هناك منزل قدر في القرية فإنه منزل لشخص يهودي)؛ وفي نيويورك (حيث كان من النادر الالتقاء بهم في الأوساط المحترمة، وأنه كان ينظر إليهم في دوائر الأعمال على أنهم مخادعون يلجأون إلى الأساليب الملتوية)؛ وفي جنوب أفريقيا (حيث ترجع أصول العديد من العائلات الكبرى، على الرغم من أنهم أصبحوا الآن كاثوليك، إلى سلالة الفارين من محاكم التفتيش المقدسة) (*).

وفيما يتصل بوجهة نظر ماريوت (الذي جاء إلى الشرق الأوسط حديثا) في العربي، فقد وصفه بأنه: «شخصية رومانتكية تعيش في الهواء الطلق وتقضي معظم حياتها على ظهر الجمال أو في قيادة الخيول الأصيلة». لكنهم في مبنى بلدية المدينة لم يرتقوا إلى مستوى توقعاته بشكل عام، باستثناء مراد، الذي وصفه ماريوت بأنه «رجل بسيط... أنا متأكد من أنه بعيدا عن «الجهاد» يرغب في السلام». أما خياط فكان «بشكل واضح، حتى لا نقول لافتا للنظر، ثريا ويُقال إنه لا يزال يمتلك متجرا في الشارع الخامس في نيويورك حيث يتم بيع المقتنيات الفنية الثمينة». وفيما يتصل بسعد فإنه «رجل أعمال صعب المراس» يكن كراهية واضحة للبريطانيين. وكتب القنصل البريطاني: «أن الكلمة الوحيدة التي يمكن أن تصف السيد إلياس كوسا هي أنه «ثائر»:

إنه يعاني من عين صناعية مركبة بشكل سيئ تبرز في لحظات الإثارة إلى الخارج وتُظهر حافة الحدقة بنية اللون. وعلى الرغم من أنه محام فإنني لا أرغب لا في توكيله ولا في رؤيته يمثل الطرف الآخر في خصومة.

لم يتقبل ماريوت إعلان كوسا أنه رغم أن العرب قد خسروا جولة فسيكون هناك جولات أخرى⁽²²⁸⁾.

(*) المقصود بذلك محكمة كاثوليكية نشطت بخاصة في القرنين الخامس عشر، والسادس عشر وكانت مهمتها اكتشاف الهرطقة ومعاقبة القائمين بها. [المترجم].

توقف الاجتماع في الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر، حيث طلب العرب مهلة أربع وعشرين ساعة لدراسة الشروط، وهو ما اعترض عليه اليهود. وبناء على إلحاح البريطانيين، تم الاتفاق على إعطاء العرب مهلة ساعة. عادت الوفود للاجتماع في الساعة السابعة والرابع مساءً، حيث أعلن العرب - الذين لم يعد وفدهم يضم سوى الأعيان المسيحيين، نتيجة لبقاء المسلمين، أبو زياد ومراد، بعيداً:

أنهم ليسوا في موقع يخولهم توقيع هدنة، حيث إنهم ليست لهم أي سيطرة على العناصر العربية المسلحة في المدينة، كما أنهم... لا يمكنهم تنفيذ شروط الهدنة حتى لو قاموا بتوقيعها. وكبديل لذلك عبروا عن رغبة السكان العرب في الجلاء عن حيفا... رجال، ونساء، وأطفال⁽²²⁹⁾.

أصيب اليهود والمسؤولون البريطانيون بالدهشة، بل وبالصدمة. ناشد ليفي «بطريقة عاطفية مؤثرة... العرب إعادة النظر في الموقف». وذكر أنه يجب عليهم عدم مغادرة المدينة التي «عاشوا فيها لمئات السنين، وحيث دُفن أجدادهم، وحيث عاشوا لزمان طويل في سلام وأخوة مع اليهود». غير أن العرب أفادوا بأنه «ليس أمامهم خيار آخر»⁽²³⁰⁾. ووفقاً لكارميل (الذي أفاده مكليف عن فحوى الاجتماع)، فقد «شعب» وجه ستوكويل عند سماعه قرار العرب، وقام بدوره بمناشدتهم إعادة النظر فيه، وألا يرتكبوا مثل «هذا الخطأ الخطير». كما ناشدهم قبول الشروط قائلاً: «لا تدمروا حياتكم من دون مبرر». وعقب ذلك توجه بالسؤال إلى مكليف: «ماذا لديكم لتقولوه؟» ورد الأخير: «إن القرار يرجع لهم [المقصود العرب]»⁽²³¹⁾. وعند تذكره للأحداث كتب سالومون أنه كذلك ناشد العرب إعادة النظر في القرار ولكن من دون جدوى⁽²³²⁾.

جزم المؤرخون الإسرائيليون لتلك الأحداث فيما بعد بأن قيادة عرب حيفا تلقت أوامر من اللجنة العربية العليا بإجلاء المدينة. وقد كتب كارميل أنه في وقت ما بعد الثاني والعشرين من أبريل:

علمنا أنه خلال فترة التوقف [في الاجتماع] اتصل العرب باللجنة العربية العليا للحصول على تعليمات. وتمثلت أوامر المفتي في ترك المدينة وعدم قبول شروط استسلام من اليهود؛ حيث إن الغزو من قبل الجيوش العربية كان قريباً وأن البلاد بكاملها ستقع في أيدي العرب⁽²³³⁾.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

اعتقد بعض المسؤولين اليهود، الذين أصابتهم حالة من الارتباك إزاء النزوح الجماعي من حيفا، في ذلك الوقت، أن ذلك كان جزءا من مؤامرة عربية أو عربية-بريطانية شاملة، كانت كذلك وراء النزوح الجماعي من أجزاء أخرى من فلسطين في نهاية شهر أبريل⁽²³⁴⁾. وفي الثالث والعشرين من الشهر أرسل ساسون برقية إلى شيرتوك الذي كان آنذاك في نيويورك:

من الواضح أن الهروب الجماعي الذي نشهده هنا في فلسطين، كما هي الحال في طبريا وحيفا وأماكن أخرى، ليس نتيجة لمجرد الخوف والضعف. إن الهروب منظم من قبل أتباع الحسيني ويتم تنفيذه بتنسيق مع «المقاتلين» الأجانب بهدف: (1) تشويه سمعة اليهود ووصفهم بأنهم طاردون يقودون العرب خارج أراضي الدولة اليهودية. (2) إجبار الدول العربية على التدخل بإرسال جيوش نظامية. (3) خلق انطباع لدى الرأي العام العربي والعالمي أن هذا التدخل لانقاذ الفلسطينيين المضطهدين.

أكد ساسون كذلك على أن هروب القادة العسكريين العرب في بداية كل معركة كان جزءا من مؤامرة «لنشر الاضطراب، والذعر» بين العرب، مما يقودهم إلى الفرار⁽²³⁵⁾.

على الرغم من ذلك، إذا كان ساسون يشير إلى أن النزوح الجماعي كان منظما أو نتيجة لأوامر قادمة من الخارج، فإن وزن الأدلة المتوافرة يشير إلى عدم صحة ذلك. فكما رأينا، حاولت القيادات المحلية وفشلت في الحصول على تعليمات من دمشق؛ حيث فضلت الأخيرة الالتزام بالصمت. كما أنه لا يوجد أي دليل مقنع على أن هناك تعليمات جاءت من الحسيني أو اللجنة العربية العليا. وببساطة، ترك عرب حيفا ليقرروا بأنفسهم⁽²³⁶⁾، ومن المحتمل أن مؤيدي الحسيني المحليين، الأعيان المسلمين - متصرفين بالطريقة التي اعتقدوا أن اللجنة العربية العليا/الحسيني، كان يريد أن يجري التصرف بها- قاموا بإكراه زملائهم من الأعيان المسيحيين المجتمعين في بلدية المدينة بعد الساعة السابعة يوم الثاني والعشرين من أبريل على رفض الهدنة أو أي شيء تفوح منه رائحة الاستسلام والقبول بالحكم اليهودي، ومالوا إلى الإجماع. ومما لا شك فيه أن ذكريات الفترة 1936-1939 والإرهاب الذي مارسه المفتي ضد رموز المعارضة/المسيحيين كانت ماثلة بشكل كبير في الأذهان.

وإذا كانت الأدلة المتوافرة تقود إلى الاعتقاد بأن القرار الأصلي بالإجلاء نبع من القيادة المحلية، فإن هناك وفرة في الأدلة التي تشير إلى أن اللجنة العربية العليا ومؤيديها المحليين قد اعتمدوا هذا القرار بأثر رجعي في الأيام التالية وحثوا على استمرار عملية الإجلاء. وفي الخامس والعشرين من أبريل نقل لينكوت أن «القادة المحليين الذين يخضعون لسيطرة المفتي يحثون كل العرب على ترك المدينة»، مضيفاً في اليوم التالي: «يتردد أن اللجنة العربية العليا تأمر العرب بالرحيل»⁽²³⁷⁾. وهو الأمر الذي اتفق معه المراقبون البريطانيون. أما كانيغهام فقد أخبر كريتش جونز في الخامس والعشرين من أبريل أن «السلطات البريطانية في حيفا قد يكون لديها انطباع بأنه تم حث عرب حيفا على الإجلاء التام من قبل جهات عربية عليا، وأن سكان المدينة أنفسهم ضد ذلك». وكانت الفرقة البريطانية السادسة المجوقلة أكثر وضوحاً في هذا الصدد:

إن أحد الأسباب الممكنة لتفسير أوامر الجهة التنفيذية العليا [أي، اللجنة العربية العليا] بإجلاء حيفا هو تجنب إمكانية أن يتم استخدام عرب حيفا كرهائن خلال العمليات المستقبلية بعد الخامس عشر من مايو. فقد هدد العرب بقصف حيفا عن طريق الجو.

أشار المركز الرئيس للقوات البريطانية في الشرق الأوسط بشكل مشابه إلى «أن إجلاء سكان حيفا بواسطة اللجنة العربية العليا... يخرج اليهود بشكل كبير»⁽²³⁸⁾. وفضلاً عن ذلك فإن أغلب القادة الذين بقوا شجعوا سكان المدينة على الرحيل (وربما أكدوا لهم على عودتهم القريبة وراء الجيوش العربية المنتصرة، إلا أنني لم أجد دليلاً على ذلك). اتخذت عملية الحث شكل التهديدات والتحذيرات والشائعات المخيفة. لا يمكن التقليل من الأثر التراكمي لمثل هذه الشائعات في التشجيع على الهروب.

أكثر الشائعات انتشاراً كانت تلك القائلة بأنه سيتم أخذ العرب الباقين في حيفا كرهائن من قبل اليهود في حالة قيام العرب بهجمات مستقبلية في مناطق يهودية أخرى. وهناك أيضاً جزء من الدعاية، يشير إلى الثواب والعقاب عند قيام العرب بإعادة الاستيلاء على المدينة، يشير إلى أن

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الأشخاص الذين بقوا في حيفا اعترفوا بشكل ضمني بأنهم يؤمنون بمبدأ الدولة اليهودية. ويُزعم أن فيكتور خياط هو المسؤول عن هذه التقارير. وفقا لوحدة تابعة للاستخبارات البريطانية. ولكن وفقا لمصادر بعض وحدات الجيش البريطاني (القسم الأمني الميداني رقم 257 و 317) إذا لم تكن تلك «الشائعات والدعاية قد نُشرت من قبل أعضاء اللجنة الوطنية الذين بقوا في المدينة، فإن العديد من العرب «لم يكونوا ليغادروا خلال الفترة من 22-28 أبريل»⁽²³⁹⁾.

وحتى التاسع والعشرين من أبريل رُوي أن أعضاء اللجنة الوطنية كانوا «في أغلب الأحوال» يشجعون الأهالي على الرحيل، وربما قدم فريد السعد استثناء؛ حيث أخبر لينكوت أن أعضاء اللجنة الوطنية كانوا يخبرون الناس «أن يحكموا عقولهم فيما إذا كان يلزم البقاء أو الرحيل»⁽²⁴⁰⁾، أما معظم أعضاء لجنة الطوارئ فكانوا مشغولين بالتشجيع على الرحيل وفي تنظيم قوافل الخروج، وعندما اعترضت نقطة تفتيش الهاغاناه قافلة مكونة من ثلاث إلى أربع شاحنات في طريقها إلى الناصرة، اشتكت اللجنة من أن البريطانيين لا يحترمون وعدهم الذي قطعوه في 22-23 أبريل بمساندة عملية الإجلاء⁽²⁴¹⁾.

تابعت استخبارات الهاغاناه من جانبها أيضا تطورات الأوضاع: «يرى العرب في حيفا أنهم تلقوا أمرا من اللجنة العربية العليا بالرحيل من المدينة بأسرع ما يمكن وعدم التعاون مع اليهود»⁽²⁴²⁾.

في الوقت الذي تتحدث فيه القيادة العربية الحالية في حيفا إلى رجالنا عن إعادة الحياة إلى طبيعتها، فإن سياستها الواقعية هي أن تقوم بأقصى ما يمكن للإسراع بالأخلاء... وتروي الدوائر العربية العليا أنها تلقت تعليمات صريحة لإجلاء العرب من حيفا. والسبب وراء ذلك ليس واضحا لنا... وتفسر الجماهير العربية بأنه ينبع من احتمال قيام قوات شرق الأردن بارتكاب مذبة شاملة (بالمدفعية، الطائرات، وغيرها)⁽²⁴³⁾.

ونقل جهاز استخبارات الهاغاناه أن العرب يتلقون «خطابات تهديد» تتضمن أوامر بأن يرحلوا؛ وإلا فإنه سيتم «اعتبارهم خونة ويُحكم عليهم بالإعدام»⁽²⁴⁴⁾.

وقام الجهاز بتقديم وصف دوري لآليات اللجنة العربية العليا في تشجيع النزوح الجماعي. ففي الخامس والعشرين من شهر أبريل نقل حيرام أنه بعد ظهيرة 23 أو 24 أبريل توجه سالومون ومعممر معا إلى «اللاجئين» في شارع عباس وحثوا النساء والأطفال والرجال الذين تجاوزوا الأربعين على «العودة إلى ديارهم». وفي الوقت الذي كان فيه أولئك على وشك القيام بذلك ظهر الشيخ مراد وشخصية مسلمة أخرى على المسرح، وطبقا لجهاز استخبارات الهاغاناه أخبر مراد اللاجئين:

تطوع الجيش العربي بتوفير 200 شاحنة لنقل اللاجئين إلى مكان آمن خارج

حيفا، حيث سيتم تسكينهم وإعطاؤهم الطعام والملابس من دون مقابل، وهددهم

بأنهم إذا بقوا في حيفا فسيقتلهم اليهود ولن يستثنوا نساءهم وأطفالهم».

وقد كان لذلك تأثيره في تغيير الحشد لرأيه واتجه العديد إلى نقطة الإجلاء في المرفأ⁽²⁴⁵⁾.

لم يمثل إعلان الإجلاء من قبل الأعيان مساء الثاني والعشرين من أبريل مفاجأة مذهلة. فعشرات الآلاف، بمن فيهم أغلب أفراد الطبقتين الوسطى والعليا في المدينة، كانوا قد رحلوا خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مطلع أبريل 1948. وفي 21-22 أبريل كان لدى الأعيان مثل حديث أمام أعينهم، ذلك الخاص بطبريا. وبحلول مساء الثاني والعشرين من الشهر كان الآلاف قد صوتوا عمليا لصالح الرحيل من خلال الفرار المذعور من مركز المدينة إلى الأحياء المجاورة المحصنة، ثم بعد ذلك الهرب إلى الميناء ومنه عن طريق القوارب إلى عكا. وهكذا قدم الفارون لقادتهم طريق الخروج من المعضلة المتمثلة من جانب في استمرار المعركة الميثوس منها، ومن جانب آخر في القبول المشين للحكم اليهودي.

كانت هجمات الهاغاناه في 21-22 أبريل باستخدام قذائف الهاون مخططة بشكل أساسي لإضعاف الروح المعنوية مما يؤدي إلى تلاشي المقاومة والوصول إلى استسلام سريع. ولا يوجد دليل على أن القادة المنخرطين في تلك الهجمات كانوا يأملون أو يتوقعون أنها ستقود إلى نزوح جماعي ضخم (على الرغم من أن الأحداث في طبريا قبل ذلك بأربعة أيام كانت ماثلة في أذهانهم). لكن كان من الواضح أن الهجوم، وبصفة خاصة القصف، قد حث على النزوح الجماعي، ووفقا للرواية

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الرسمية التي قدمتها الهاغاناه لاحقاً: «أدت قذائف الهاون (عيار 3 بوصات) التي تم إطلاقها على ميدان السوق (حيث الزحام الشديد... إلى نشر الذعر والهلع، واندفعت الحشود داخل الميناء منحية رجال الشرطة جانبا لتقوم بتحميل القوارب والفرار من المدينة»⁽²⁴⁶⁾.

غادر ما يقرب من 15 ألف عربي على الأرجح حيفا بين 21 و22 أبريل، أغلبهم عن طريق البحر، أو البر إلى عكا ولبنان قبل أن يُعلن الأعيان عن قرار الإجلاء. وبحلول ليلة الثاني والعشرين كان هناك من 30 ألف عربي إلى 40 ألفاً مازالوا في المدينة (وفقاً للجنة الطوارئ بلغ العدد 37 ألفاً)⁽²⁴⁷⁾. وافق ستوكويل على المساعدة في إجلائهم. ومنذ الثالث والعشرين من أبريل بدأت طائرة تابعة للبحرية الملكية وأسطول صغير من الحافلات، تحت حراسة سيارات مدرعة، في نقل النازحين إلى عكا. واستمرت الطائرة حتى الثامن والعشرين من الشهر تعمل متنقلة عبر خليج حيفا، في حين سلكت الشاحنات، في قوافل، الطريق الساحلي عبر نقاط تفتيش متتالية تابعة للهاغاناه والبريطانيين والعرب. غادرت العشرات من العائلات المصرية حيفا على مركب شراعي مستأجر باتجاه الإسكندرية، وغادر سوريون باتجاه لبنان على مركب آخر. وفي الوقت ذاته نظمت لجنة الطوارئ ومقاولون عرب قوافل خاصة من الحافلات، قام البريطانيون بتأمينها، نقلت مئات العائلات إلى عكا، والناصرية ونابلس⁽²⁴⁸⁾. وبحلول الحادي عشر من مايو نقل جهاز استخبارات الهاغاناه أن «عملية الإجلاء من حيفا مازالت مستمرة». وعلى الرغم من أن عدداً من اللاجئين عاد لفترة قصيرة، فإن ذلك كان لاستكشاف ما يحدث لممتلكاتهم أو لأخذ بعض المقتنيات التي تركوها وراءهم⁽²⁴⁹⁾. وفي المقابل عاد «عدة مئات» بشكل دائم خلال النصف الأول من شهر مايو كان أغلبهم من بين عمال مصفاة التكرير وغيرها من المؤسسات الحكومية⁽²⁵⁰⁾.

في بداية عملية الإجلاء الجماعية ذهب القادة العرب إلى حد طلب تعاون السلطات اليهودية في تنظيم الرحيل نتيجة شكواهم من عدم قيام البريطانيين بتوفير وسائل نقل كافية. وقد استجاب بيلن بحماس لذلك: «لقد أحببت بأننا سنكون سعداء للغاية بتقديمنا لهم كل مساعدة يحتاجون إليها»⁽²⁵¹⁾.

بيد أن بيلن لم يكن في تلك المرحلة يمثل القيادة اليهودية المحلية، التي كانت تشعر، في جانبها الأعظم، بالارتباك وعدم الراحة إزاء هذا الرحيل الجماعي، فالعديد

من مسؤولي البلدية (وبشكل واضح الهاغاناه) سعوا خلال الفترة من 22-28 أبريل إلى إقناع العرب بالبقاء. ونقل جهاز استخبارات الهاغاناه أن أحد الضباط اليهود كان يقوم «بدعاية في أوساط اللاجئين في منطقة عباس تهدف إلى إقناعهم بعدم المغادرة»⁽²⁵²⁾. وقد تذكر سالومون في وقت لاحق أنه في صباح يوم 23 أبريل ذهب إلى شارع عباس ووادي النسناس بعد تلقيه «تعليمات بأن يتوجه إلى الأحياء العربية ويناشد العرب عدم الرحيل». وعلى الرغم من أنه لم يحدد مصدر هذه التعليمات (الهاغاناه، أو شبتاي ليفي أو شخص آخر) فإنه أشار إلى أنه كان بصحبة «ضابط من الهاغاناه». وعلى الرغم من التحذيرات التي تلقاها من أصدقائه من أن الوضع هناك مازال خطيرا فقد «تنقل من شارع إلى آخر ليخبر العرب... لا ترحلوا، إلا أن المحصلة النهائية كانت رحيل العديد من العرب في نهاية اليوم وفي الأيام القليلة التالية...»⁽²⁵³⁾، وقد يكون الرجل الذي صاحبه هو توفيا ليشانسكي (ضابط استخبارات رفيع المستوى في الهاغاناه)، الذي أشار لاحقا إلى شيوع «جو من الانزعاج... فكلما استولينا على مدينة... هجرها العرب. ماذا سيقول العالم؟ لا شك أنهم سيقولون: هكذا هم اليهود، والعرب لا يمكن أن يعيشوا تحت حكمهم»، وأشار ليشانسكي إلى مساعيه لإقناع العرب بالبقاء في أماكنهم⁽²⁵⁴⁾. وقد كانت تلك الجهود ملحوظة حيث نقل راديو بغداد في الخامس والعشرين من أبريل أن «الهاغاناه تحاول إقناع العرب بالبقاء في حيفا»⁽²⁵⁵⁾. كما أشارت الشرطة البريطانية في الثامن والعشرين من الشهر نفسه إلى أن اليهود «يبدلون كل مسعى ممكن لإقناع السكان العرب بالبقاء والعودة إلى حياتهم الطبيعية...»⁽²⁵⁶⁾.

الأمر الذي اتفقت معه الاستخبارات العسكرية البريطانية:

أصبح الإجلاء العربي الآن شبه كامل. وعلى الرغم من أن اليهود بذلوا جهودا كبيرة لمنع الإجلاء التام، إلا أنه بدا أن دعايتهم كانت محدودة الأثر. وخلال محاولتها كبح النزوح الجماعي للعرب لجأت الهاغاناه في حالات عديدة إلى التدخل الفعلي... وتم بث مناشدات عبر الإذاعة اليهودية، كما تم إصدار نشرات تصب في الاتجاه نفسه، وقامت الهستدروت بتوزيع نشرة تناشد العرب الذين كانوا أعضاء بالمنظمة سابقا العودة. وعلى الرغم من ذلك، ظل العرب إجمالا غير عابئين لمثل هذه الدعاية⁽²⁵⁷⁾.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

ذكر ليبنكوت، نقلا عن فريد السعد، أن قادة الهاغاناه قاموا «بتنظيم حملة دعاية واسعة لإقناع العرب بالعودة»، لكن العرب لم تكن لديهم ثقة في اليهود، كما قال السعد⁽²⁵⁸⁾. وهو الشيء نفسه الذي لاحظته مراسل التايمز في المدينة: «يرغب اليهود في أن يعود العرب مجددا إلى حياتهم الطبيعية، إلا أن عملية الإجلاء استمرت... ويبدو أن أغلب العرب يشعرون بأنه لا يوجد ما يستحق البقاء من أجله»⁽²⁵⁹⁾. ونُقل كذلك أن القساوسة والراهبات كانوا أيضا يناشدون المسيحيين البقاء⁽²⁶⁰⁾.

اعتقد كل من البريطانيين، بمن في ذلك كانيغهام، ولبينكوت - على الأقل في البداية - أن يهود حيفا أرادوا أن يبقى العرب أساسا لأسباب اقتصادية. حيث خشوا على «المستقبل الاقتصادي للمدينة» عندما تغادرها الطبقة العاملة العربية، وفقا لما ذكره المفوض السامي⁽²⁶¹⁾. وبشكل أكثر وضوحا كتب ليبنكوت أنه إن لم يتمكن اليهود من إقناع العرب بالبقاء أو العودة «سيحدث نقص حاد في القوة العاملة»⁽²⁶²⁾. (كذلك أوضح ليبنكوت أن اليهود رغبوا في بقاء العرب «لأسباب سياسية، تتمثل في الرغبة في إظهار أسلوب التعامل الديمقراطي»⁽²⁶³⁾. وقد نقلت الوحدات البريطانية أن «اليهود كانوا مضطرين لتسيير المصانع والأماكن التي استلزم الأمر عملها بعناصرهم بدلا من العرب الذين كانوا يعملون فيها سابقا، وقد ثبت أن النتيجة لم تكن مرضية في أغلب الأحيان بالنسبة إليهم، حيث إن العمالة العربية كانت أقل تكلفة»⁽²⁶⁴⁾.

لم تكن الهاغاناه تشعر بالنفور من رؤية العرب يقومون بالجلء، على النحو الذي أوضحه قول مكليف ردا على سؤال ستوكويل حول إعلان قرار الإجلاء من قبل الأعيان العرب خلال اجتماع قاعة المدينة في الثاني والعشرين من أبريل، حينما قال: «لا تعليق». كذلك يمكن أن نجد دليلا آخر على ذلك في البيان الثاني الصادر عن الهاغاناه في حيفا، الذي تم نشره في المدينة وتحدث عن عملية التدمير الجارية «للعصابات العربية» ودخول وحدات الهاغاناه إلى الأحياء العربية. حيث تم إصدار الأوامر إلى القوات (والسكان المدنيين اليهود) باحترام «أماكن العبادة العربية. وأنه سيتم بذل جميع الجهود لعدم دخول المساجد أو إطلاق النيران عليها أو منها أو استخدامها لإيواء الجنود». منع البيان كذلك أعمال السلب والنهب «لممتلكات العرب المهجورة... [التي يمكن] إعادتها إلى ملاكها القانونيين عندما يحين الوقت...»، إلا أنه لا يوجد أي نص في البيان تطلب أو تنصح فيه الهاغاناه العرب بالبقاء أو

التوقف عن الهرب وحثهم على العودة⁽²⁶⁵⁾. وفي الواقع، كان تقييم جهاز استخبارات الهاغاناه في الأيام التي تلت بداية النزوح الجماعي العربي كما يلي: «في أعقاب الخطوات التي قام بها رجالنا في حيفا، ودعايتنا وتحذيراتنا، فر العديد من العرب عن طريق الزوارق والطائرات إلى عكا»⁽²⁶⁶⁾. وقد كان قادة لواء كارميلي علي علم قاطع بأن النزوح الجماعي سيحل مشكلة اللواء الرئيسية: تأمين حيفا اليهودية بأقل قدر ممكن من القوات ضد الهجوم من خارج المدينة، في الوقت الذي يلزم الإبقاء على عدد كبير من القوات داخلها للحماية من تمرد عدد كبير من السكان العرب يميل إلى أن يكون معاديا⁽²⁶⁷⁾.

على الرغم مما تقدم، كانت الصورة بسيطة وفقا لأغلب المراقبين البريطانيين في الأيام التي تلت الثاني والعشرين من أبريل: كان اليهود راغبون في بقاء العرب، في حين كانت القيادة العربية المحلية عاقدة العزم على رحيل جماعي كامل. وتمثل الاستثناء الوحيد الذي سجله البريطانيون في الإرغون، التي دخلت بعض مناطق وسط مدينة حيفا في الثالث والعشرين من أبريل. ووفقا للفوج الأول لحرس كولد ستريم البريطاني، تمثلت سياسة الإرغون في «الدفع بالعناصر المسلحة داخل السوق وغيره من الأماكن التي لا يزال يقطنها عرب... لحسم الموضوع من خلال خلق المزيد من اللاجئين وموجة جديدة من الرعب»⁽²⁶⁸⁾.

كان الوضع في حيفا في الفترة من 23 أبريل حتى أوائل شهر مايو غير واضح بل ومعقد. فقد أدى تركيز البريطانيين فقط على المناطق المحاصرة وشبه المعزولة وتصميمها فقط على شيء واحد - وهو الخروج الآمن - إلى فشلهم في متابعة الإطار الشامل للأحداث. تبدل السلوك اليهودي الأولي إزاء النزوح الجماعي خلال أيام؛ وما نقله ضباط الاتصال اليهود إلى البريطانيين لم يتطابق دائما مع الحقائق على أرض الواقع أو مع سلوكهم المتغير بشكل سريع. فالقيادة اليهودية المحلية أرادت في البداية وبصدق بقاء العرب (وحرصت على أن يدرك البريطانيون ذلك). إلا أن الهجوم الذي تم شنه في 21-22 أبريل قد أوقع الأحياء العربية في أيدي الهاغاناه، مما همش دور القادة المدنيين، لما يقارب الأسبوعين، فيما يتصل بالتعامل مع السكان العرب. وفي الوقت ذاته تغير سلوك بعض هؤلاء القادة المحليين بشكل جذري وأصبحوا يرحبون بالفرصة التاريخية التي وفرها النزوح الجماعي لتحويل

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

حيفا بشكل دائم إلى مدينة يهودية. وكما ذهب مراقب يهودي مُطلع إلى القول بعد مرور شهر: «بدأت رياح جديدة في الهبوب مفادها أن الأمور أفضل وأسهل من دون العرب، وتغير كل شيء خلال أسبوع»⁽²⁶⁹⁾. وفي الوقت ذاته فهم قادة الهاغاناه منذ البداية أن إجلاء العرب سيُسهل ويحسن بشكل كبير موقفهم الاستراتيجي ويقلل من عبء العمل.

أدى انسحاب البريطانيين من وسط مدينة حيفا في الحادي والعشرين من أبريل وانتصار اليهود، إلى سيطرة الهاغاناه على المناطق العربية حتى الثالث من شهر مايو. وخلال تلك الفترة التي كانت فيها قوات لواء كارملي القليلة نسبيا قلقة من إمكانية تدخل القوات العربية من الخارج، كان عليها القيام بعمليات عسكرية معقدة في ظروف فوضى شاملة: أن تبحث وسط مئات الآلاف من العرب الخائفين في أحياء مهجورة أو شبه مهجورة ويسودها الخراب عن المقاتلين السابقين والأسلحة؛ وأن تنظف المنطقة من القذائف التي لم تنفجر والألغام. وكل ذلك كان يجب القيام به بسرعة، في وقت استمر فيه آلاف اللاجئين في مغادرة المدينة؛ لتتفرغ الكتائب لمهام أخرى سواء كانت دفاعية أو هجومية. وفي الوقت ذاته كان على السلطات اليهودية أن توفر الطعام وأن تعيد الخدمات الأساسية للعرب الذين بقوا، والذين تعرضت بنيتهم التحتية وخدماتهم للانحيار. وفي هذا السياق مثلت الإمدادات بالخبز والماء مشكلة كبيرة.

استمرت العملية الأمنية التي قامت بها الهاغاناه - بما في ذلك فرض حظر التجوال، التفتيش، الاستجواب، وحجز صغار الذكور البالغين⁽²⁷⁰⁾ - قرابة أسبوع، وبحكم الظروف فإنها تضمنت قدرا كبيرا من السلوك التعسفي والبغض. فقد تم إخراج السكان العرب من المنازل أو الشوارع، ولم يسمح لهم بالعودة إلا بعد التفتيش الدقيق للمناطق - سمحت القوات للنساء والأطفال بالعودة أولا يليهم الذكور بعد إخضاعهم لعملية استجواب، وسارت العملية ببطء وحملت معها صعوبات غير مقصودة للسكان. وأيضا كان الموقف ملائما لوقوع تجاوزات من قبيل السلب والنهب، الترويع، والضرب. وقد فضل البريطانيون والهاغاناه - بتبريرات غير محايدة - نسب تلك التجاوزات إلى الإرغون. ويلاحظ أن عمليات السلب والنهب والسرقة التي استمرت حتى شهر مايو كانت «تتعارض مع التصريحات الرسمية

التي ناشدت العرب العودة إلى حيفا»، وأيضاً مع «روح إسرائيل»، وفقاً لمصطلحات «غرفة حيفا اليهودية للتجارة والصناعة»⁽²⁷¹⁾. وقد تم تناول الوضع خلال الاجتماع الذي عُقد في الخامس والعشرين من أبريل بين القادة المحليين العرب واليهود. وهو اجتماع دُعي إليه لإيجاد الوسائل التي يمكنها أن تخفف من وطأة الموقف على عرب المدينة، فضلاً عن مساعدة أولئك الذين يرغبون في الرحيل. وعلى الرغم من أن مضمون الاجتماع والبيانات التي تم الإدلاء بها خلاله يعارض النزوح الجماعي، لم يَقم أي من المشاركين اليهود (ومن بينهم: ليفي، سالومون، بيلن، ديان) بتجديد المناشدات السابقة للسكان بالبقاء. ومع ذلك قامت الهاغاناه في صباح اليوم ذاته بإخراج عناصر الإرغون من وادي النسناس قسراً نتيجة لتجاهلهم تحذيراتها وارتكابهم عمليات «سلب منظم»⁽²⁷²⁾. وخلال عملية تبادل النار جرح على الأقل عنصر من عناصر الإرغون بجراح خطيرة. وطبقاً لأحد التقارير، كانت عملية النهب قد امتدت إلى «كنيستين»، وعيادة طبية، وتم سرقة آلتَي بيانو، ثلاث سيارات⁽²⁷³⁾. وطبقاً لجورج معمر، ظلت الظروف المعيشية للسكان العرب «كارثية» ولم تتوقف عن «الانحدار إلى الأسوأ». وقد اشتكى من عدم سماح قوات الهاغاناه له بتوزيع الدقيق على آلاف العرب الذين تم إيواءهم بشكل مؤقت في المكان المخصص للسوق (أغلقت جميع المخابز العربية في 21-22 أبريل). كما ذكر أن عمليات السلب والسرقة انتشرت وتزايدت. فخلال قيام الهاغاناه بتفتيش المحال، قامت بكسر أبوابها وتركها بعد ذلك فريسة لمن يقوم بأعمال النهب من العرب واليهود. كما أن «المنازل في وادي النسناس تم نهبها بالكامل، فهل كانت هذه نية اليهود في حيفا؟، تساءل معمر، مضيفاً أن سليمان قطران أحد الأعيان العرب ضُرب صباح ذلك اليوم؛ في حين تعرض عرب آخرون للسرقة خلال عمليات التفتيش والتحقق من الهوية، واختتم معمر بقوله: «لو كان شعبنا يفكر [سابقاً] في البقاء بالمدينة، فإن هذا التفكير تم تدميره بالكامل».

ذكر مشارك عربي آخر، جورج الطويل، بقوله خلال الاجتماع السابق، في الثالث والعشرين من الشهر: «إذا كانت هناك ظروف مناسبة فإن العرب سيقفون»، مضيفاً: «حاولت بعد الاجتماع إقناع السكان بالبقاء، ومع ذلك فإنني أقول بحزن إن الهاغاناه كانت قاسية، حتى لا أستخدم كلمة أعنف». وأوضح

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الطويل للمشاركين كيف قامت الهاغاناه بتفتيش داره، خاتما بقوله: «توصلت إلى نتيجة مفادها أنني سأغادر المدينة إذا ما كان علي أن أقضي حياة ذليلة هنا»⁽²⁷⁴⁾. وقد أخبر ديبلوماسي أمريكي الهاغاناه أنه بعد مرور أربعة أو خمسة أيام على إدارتها للمدينة «لم يعد العرب راغبون في البقاء... فهم من جانب يخشون أعمالا انتقامية تجاههم من قبل المؤسسات العربية، ومن جانب آخر ليسوا متأكدين من سلوك اليهود إزاءهم»⁽²⁷⁵⁾.

نتيجة لغياب الفهم الكامل لما يجري، وصف العرب ما وصل إليه الأمر على أنه انفصال مؤقت بين المدنيين اليهود المحليين والسلطات العسكرية، الذي عكس - بل كان جزءا من - انفصال أكبر نطاقا بين تلك السلطات ليس فقط في عملية صنع القرار في اليشوف بل أيضا التنفيذ والعمل خلال الحرب. ففي حيفا، وعلى مدار أيام، كانت السلطات المدنية تقول شيئا في حين تفعل الهاغاناه شيئا مختلفا تماما. والأكثر من ذلك، تصرفت وحدات الهاغاناه في الميدان ذاته بطريقة غير متناسقة غالبا ما كانت تفتقر إلى الذكاء مع السكان العرب. فأولئك الذين تعايشوا مع المدنيين اليهود لعقود كانوا غير معتادين على السلوك العسكري اليهودي أو قواعده، التي لم يتم رفع العمل بها إلا في الثالث من شهر مايو⁽²⁷⁶⁾. لم يفهم العرب أسباب الافتقار إلى القوة من جانب السلطات المدنية خلال الأسبوعين السابقين. وقد مثل انعدام الفهم هذا صميم الحوار الذي دار خلال اجتماع الخامس والعشرين من أبريل؛ حيث اشتكى فيكتور خياط من أن العرب كان يتم منعهم من العودة إلى ديارهم التي تم تفتيشها. وهو ما كان يخالف الوعود التي قدمها القادة المدنيون قبل ذلك بيومين. وخلال الاجتماع نفسه طمأن سالومون العرب إلى أن «أوامر صدرت بالفعل من قائد الهاغاناه تتضمن إمكانية عودة كبار السن والنساء والأطفال إلى ديارهم في هذا المساء ذاته»⁽²⁷⁷⁾. وعلى الرغم من ذلك، جاء الخامس والعشرين من الشهر والعرب مازالوا ممنوعين من العودة إلى منازلهم. وقد وصف خياط الموقف بأنه «مشين وجدير بالازدراء للمجتمع اليهودي». ومن جانبه طمأن بنحاس مارغولن، عضو في المجلس البلدي، العرب بأنه سيتم «قريبا» تصحيح الأوضاع. وهو ما علق عليه نصر بقوله: «بحلول الوقت الذي تسيطرون فيه على الموقف لن يكون هناك عربي واحد في حيفا».

وقد خاطب توفيا أرازي، ضابط استخبارات الهاغاناه، المشاركين في الاجتماع، باسم الهاغاناه، بقوله: «إننا نبذل جهدا فائقا لإعادة الأمور إلى الوضع الطبيعي»، واختتم حديثه بالقول:

أصدرت الهاغاناه أوامر صارمة [ضد السرقة]، ومن المحتمل إطلاق النار على السارقين... كما أن النساء وكبار السن والأطفال يجب أن يعودوا إلى منازلهم... غير أنهم لا يمكنهم القيام بذلك في كل الأماكن في الحال؛ حيث إنه يلزم أولا تنظيف المدينة من العصابات العربية. وهذا لمصلحة العرب أنفسهم⁽²⁷⁸⁾.

في غفلة من القادة اليهود، جددت لجنة الطوارئ في اليوم ذاته مناشدتها للبريطانيين التدخل. وطلبوا من ستوكويل إعادة فرض الإدارة البريطانية في وسط مدينة حيفا لتحقيق «الأمن والنظام». فضلا عن ذلك طالبت اللجنة بـ«إبعاد أعضاء القوات المسلحة اليهودية عن الأحياء العربية». معللة ذلك بأنه سيعيد ثقة العرب، «ويقلل من عدد النازحين» وهي حجة غريبة [أخذا بعين الاعتبار أن أعضاء اللجنة أنفسهم كانوا يشجعون على النزوح الجماعي]⁽²⁷⁹⁾. وقد استمرت ازدواجية لجنة الطوارئ حتى منتصف شهر مايو وبروز خياط باعتباره الشخصية العربية الأكثر سيطرة. وقد نقل الكرمل أنه كان يستمر في تشجيع جلاء السكان من خلال «تقليل» حصة الخبز التي ترسلها المستودعات الخاضعة لسيطرته (في حين حقق فوائد من ذلك)⁽²⁸⁰⁾.

شهدت ظروف المعيشة في الأحياء العربية في 27 - 28 أبريل تحسنا كبيرا؛ حيث سُمح لأغلب الذين بقوا في المدينة بالعودة إلى منازلهم على الرغم من استمرار العمل بالأحكام العرفية، وكان يلزمهم تصريحات تنقل خاصة للانتقال من حي إلى آخر يحصلون عليها بعد الاصطفاف في طوابير انتظار طويلة والخضوع لاستجواب دقيق. كانت أغلب المناطق العربية محرومة من الكهرباء (مما يعني عدم القدرة على سماع المذياع)، فضلا عن عدم وجود صحف عربية، أو حافلات، ولم يكن مسموحا للعرب بقيادة سيارات (دافعت الهاغاناه عن ذلك بخشيتها من قيام عناصر الإرغون بمصادرتها). ظلت عمليات الاعتقال وتفتيش المنازل أمرا شائعا. وقد ذكر أهارون كوهين أن زيادة أو انخفاض، أو ثبات عدد السكان العرب في حيفا

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

توقف إلى حد كبير على «سياسة المؤسسات اليهودية»، بغض النظر عن المناشدات المستمرة من قبل الأعيان العرب لاستكمال الجلاء⁽²⁸¹⁾. وقد نشرت الهستدروت في الثامن والعشرين من شهر أبريل مناشدة باللغتين العبرية والعربية موجهة لعرب حيفا للعودة إلى سياسة التعايش السلمي مع اليهود، والبقاء في المدينة:

لا تدمروا منازلكم... وتخسروا مصادر دخلكم وتجلبوا على أنفسكم كارثة بالرحيل... إن مجلس العمال في حيفا والهستدروت ينصحانكم لمصلحتكم بالبقاء... والعودة إلى عملكم المنتظم⁽²⁸²⁾.

بيد أن العرب لم يتجاوبوا مع هذا النداء. وقد نقلت الشرطة البريطانية وجود طوابير انتظار طويلة في الميناء بحثا عن أماكن على القوارب المتجهة إلى عكا: «بعض العائلات بقيت ونامت على جوانب الأرصفة عدة أيام في انتظار فرصة للفرار⁽²⁸³⁾. وبعد مرور عدة أيام على استئناف الإدارة المدنية لم تتحسن الأوضاع كثيرا، وبادرت كل من لجنة الممتلكات العربية وجولدا مائير، التي شغلت منصب رئيس الإدارة السياسية بالإنابة في الوكالة اليهودية، بتعيين لجنة محلية من اليهود للاهتمام بالعرب الباقين ورعاية الممتلكات العربية. وقد توصل اجتماع مشترك ضم غولدا مائير ولجنة الممتلكات العربية، واللجنة المشكلة حديثا إلى ضرورة: «معاملة السكان العرب الباقين باعتبارهم مواطنين لهم حقوق متساوية». وقد شكلت اللجنة المحلية عددا من اللجان الفرعية حسنة النية (لجنة السجناء والمحتجزين، لجنة الإشراف على الأماكن المقدسة، وغيرهما)⁽²⁸⁴⁾. ومع ذلك لم يبد أن هناك شيئا قد تغير. ونقل كارملي في نهاية الأسبوع الأول من شهر مايو ما يلي:

إن عرب حيفا في حالة يأس. لا يعلم أحد منهم ماذا يفعل. وأغلب المسيحيين ينتظرون رواتبهم الحكومية ويفكرون في الرحيل. وكل من يبقى يُنظر إليه على أنه خائن. أما عن الأوضاع الصحية في المدينة، فإنها مزرية. أغلب المنازل اقتُحمت ونُهبت. ولا تزال جثث ملقاة في بعض المناطق...

كان الخوف من استيلاء الجيوش العربية على المدينة ومعاقبتهم بتهمة الخيانة من بين أسباب رحيل من تبقى⁽²⁸⁵⁾. ومع ذلك عاد عدد محدود من العائلات إلى المدينة - بتشجيع من البريطانيين - بعد انتقالهم بشكل مؤقت إلى عكا⁽²⁸⁶⁾.

ومن جانبه وجه الحزب الشيوعي الإسرائيلي في العاشر من شهر مايو اتهامات للسلطات تضمنت أن عرب حيفا المتبقين (4 آلاف) مازالوا يفتقرون في أغلبهم إلى المياه الجارية والكهرباء، كما أن القمامة لا تُجمع، بل تتكدس على جوانب الطرق، واستمرت عمليات نهب الممتلكات، وظلت العديد من المحال مغلقة، ولم تعاود مكاتب التوظيف فتح أبوابها، وفُرضت قيود صارمة على حرية الحركة، مما جعل السكان العرب يعيشون في «نظام سجون»⁽²⁸⁷⁾.

خلال الأسبوع الذي تلا هجوم الهاغاناه في 21-22 أبريل عكست الأوضاع في الأحياء العربية، بشكل أو بآخر، حالة الاضطراب وتبعات الحرب، غير أنها تفاقمت نتيجة الوضع العسكري والسياسي العام في فلسطين، وأيضاً بسبب أوضاع محلية خاصة - استمرار عملية الإجلاء، استمرار السيطرة البريطانية على بعض أجزاء المدينة، وجود وحدة من الجيش العربي في معسكرات حول المدينة، احتمال شن هجوم عربي من الخارج، وانحياز الخدمات البلدية والحكومية. وفضلاً عن ذلك، اتسمت الأعمال التي قامت بها الهاغاناه لإحكام قبضتها على حيفا بتعسف وقسوة الحكم العسكري، مما أسهم بالتأكيد في استمرار النزوح الجماعي.

ولكن، هل كانت الأعمال التي قامت بها الهاغاناه خلال الفترة من 23 أبريل إلى أوائل شهر مايو مدفوعة بالرغبة في الحث علي الرحيل؟ على مستوى المركز الرئيسي لقيادة كارملي، لم تصدر أوامر على الإطلاق - على حد علمنا - للقوات بالتصرف بطريقة تدفع إلى الفرار. على العكس، صدرت أوامر - وإن كانت متأخرة إلى حد ما - بمنع عمليات النهب، كما وُزعت منشورات تدعو العرب إلى التزام الهدوء والعودة إلى العمل، وإن لم تطلب بشكل واضح بقاءهم في المدينة⁽²⁸⁸⁾. ولكن إذا كانت هذه هي السياسة الرسمية، فقد كان هناك بالتأكيد اتجاه خفي يناقض الاتجاه الظاهر ويؤيد الفكر الداعي إلى الطرد بشكل يماثل منهج الإرغون. فقد كان العديد من عناصر الهاغاناه متأثرين بالفكر القائل بأن النزوح الجماعي يعتبر «شيئاً جيداً بالنسبة إلى اليهود» ويلزم تشجيعه. ويمكن العثور على آثار هذا الفكر في مقر القيادة العامة للواء كارملي من خلال مذكرات يوسف ويتز التي خطها في الفترة من 22-24 أبريل، التي قضاها في حيفا. ففي الثاني والعشرين من الشهر كتب: «أعتقد أنه يجب استثمار هذه الحالة الذهنية [التي تميل إلى الهروب] بين

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

العرب، ويلزم علينا أن نضغط على السكان الآخرين لا ليستسلموا [ولكن ليرحلوا]. يجب علينا إقامة دولتنا». وفي الرابع والعشرين من الشهر ذهب ويتز للقاء مساعد كارميل الذي أخبره أن قريتي بلد الشيخ وياجور المجاورتين أجلي سكانهما بالكامل، وأن عكا «ترتجف» من الوضع. وفي هذا الصدد كتب ويتز: «كنت سعيدا أن أسمع منه أن هذا المسار تبنته قيادة الهاغاناه، والمقصود بذلك تخويف العرب مادام الخوف يدفعهم إلى الفرار»⁽²⁸⁹⁾. وحقيقة الأمر أنه كان هناك تداخل في المصالح اليهودية - كما رآها ويتز، ومن شابهه في التفكير من قادة اليشوف - ورغبات القادة العرب المحليين واللجنة العربية العليا، التي اعتقدت أن النزوح الجماعي من المدينة سيخدم القضية الفلسطينية (أو على الأقل فإن عدم رحيل السكان سيصب في مصلحة القضية اليهودية). وبدا أن ويتز قد ضرب على وتر قابل للاستجابة في مركز قيادة كارملي. وكان ذلك مفهوما عسكريا وسياسيا: أن حيفا من دون العرب يسهل الدفاع عنها وأقل إثارة للمشاكل، بالمقارنة بحيفا التي تضم أقلية عربية كبيرة.

تحركت الهاغاناه في الأيام التي أعقبت 21-22 أبريل لإحكام قبضة اليهود على المدينة من خلال تأمين مداخلها وفتح الطرق المؤدية إلى سلسلة المستوطنات الواقعة في الجنوب والشمال، والشرق. وقد كانت قرية بلد الشيخ وقريتان أخريان تدوران في فلكها (ياجور والحواسة) تهيمن على طريق الخروج إلى الشمال والشرق، أما بالنسبة إلى المخرج الجنوبي فكانت تسيطر عليه قرية الطيرة التي كان يدعمها بشكل كبير اللاجئون من حيفا.

في الرابع والعشرين من أبريل هاجمت الهاغاناه بلد الشيخ، كما هوجمت الطيرة خلال اليومين التاليين. وليس من الواضح ما إذا كانت الهاغاناه قد أرادت أن تطلق شرارة النزوح من بلد الشيخ، ومع ذلك فإن أسلوب الهجوم والمفاوضات اليهودية - العربية - البريطانية التي تلتها تجعل الأمر يبدو على أنه كان يهدف إلى تحقيق ذلك. وهو ما فهمه على الأقل المراقبون البريطانيون المعنيون.

أجلي السكان جزئيا من بلد الشيخ والحواسة المجاورة على إثر الضربة الانتقامية التي وجهتها الهاغاناه في ليلة 31 ديسمبر 1947-1 يناير 1948⁽²⁹⁰⁾. وقد ترتب على انسحاب وحدة الجيش العربي المتمركزة في القرية، في مطلع شهر أبريل أن هُجر العديد من المنازل في أطرافها الجنوبية، حيث انتقل السكان إلى مركز القرية⁽²⁹¹⁾.

وفي ذلك الوقت كان معظم سكان الحواسة قد غادروا منازلهم⁽²⁹²⁾. وبعد مرور أسبوع أو أسبوعين رحل معظم سكان ياجور في رد فعل على التقارير الواردة حول مذبحة دير ياسين. وبحلول نهاية شهر أبريل أضحت القريتان (الحواسة وياجور) يقطنهما بشكل رئيسي العناصر غير النظامية⁽²⁹³⁾. وبشكل واضح أدى سقوط حيفا العربية إلى إطلاق شرارة عملية إجلاء كبرى للنساء والأطفال في بلد الشيخ؛ حيث توقع القرويون، طبقا للمراقبين البريطانيين، هجوما من قبل الهاغاناه⁽²⁹⁴⁾.

في الصباح الباكر ليوم 24 أبريل طوقت وحدات الهاغاناه القرية، وبدأت في الساعة الخامسة صباحا إطلاق قذائف الهاون من عيار ثلاث بوصات فضلا عن المدافع. ربما بعد فشل طلبها في أن تسلم القرية أسلحتها. وقد قام عديد من الذكور الشباب بالفرار «تاركين وراءهم النساء والأطفال». لم يكن هناك «عملية أي رد» من داخل القرية. وفقا لتقرير وحدة بريطانية وصلت إلى موقع الأحداث بعد ذلك بساعة، وفرضت لاحقا وقف إطلاق النار. وخلال الاجتماع الذي أعقب ذلك بين ممثلي الهاغاناه والعرب والبريطانيين في مصنع أسمنت ينشر طالبت الهاغاناه بأن يسلم القرويون أسلحتهم، وقد سُلمت بالفعل «22 بندقية قديمة ومسدسات عديمة الجدوى»، فضلا على مدفع قديم، وفي المقابل طالب العرب بهدنة (وفي رواية أخرى «طلبوا حماية الهاغاناه»⁽²⁹⁵⁾). وبعد مرور ساعات قليلة أخبر ضابط استخبارات الهاغاناه مختار قرية الحواسة أنه «لا يهمه إجلاء القرية»، ومع ذلك فإن السماح للسكان بالبقاء مشروط بالتسليم الكامل للأسلحة⁽²⁹⁶⁾. وقد مُنحت القرى الثلاث مهلة حتى الثانية بعد الظهر، وكان من الواضح أن القادة المحليين قد طلبوا تدخل البريطانيين، وقد بادر الآخرون حينئذ، إما بنصح⁽²⁹⁷⁾ أو بأمر⁽²⁹⁸⁾ القرويين بالاستعداد لإجلاء بلد الشيخ (وربما انطبق ذلك أيضا على القريتين الأخريين التابعتين لها)، وتبع ذلك دخول 20 حافلة نقل تابعة للجيش البريطاني إلى القرية. ومع تحذير السكان الباقين من أن الهاغاناه «ستقصف الموقع استقلوا الحافلات واتجهت القافلة - تحت حراسة بريطانية - إلى الناصرة. وبحلول فترة ما بعد الظهر كانت القرى الثلاث قد أفرغت بشكل شبه تام من سكانها⁽²⁹⁹⁾. ونقل جهاز استخبارات الهاغاناه أنه في التاسع والعشرين من الشهر تبقى ما يقرب من 30 عائلة في الحواسة، 20 في بلد الشيخ، و20 في ياجور. وتنقل هؤلاء بدورهم من مكان إلى آخر أو طُردوا⁽³⁰⁰⁾.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

ليس هناك أدنى شك في أن سقوط حيفا العربية والأخبار التي ترددت عن النزوح الجماعي لسكانها أقلقّت بشكل كبير سكان المواقع الثلاثة، كما أنها زودتهم بنموذج للتصرف. وفضلا عن ذلك فقد كان جليا أن ضغوط الهاغاناه والبريطانيين قد ساعدتهم على اتخاذ قرارهم⁽³⁰¹⁾.

فيما يتصل بالطيرة التي أعاقّت، خلال شهر، المواصلات على طول الطريق بين تل أبيب وحيفا- فقد هاجمتها الهاغاناه بشكل محدود ليلة 21-22 أبريل من أجل «منع المساعدات التي كانت تقدمها لعرب حيفا»، وفقا لما ورد في أحد التقارير البريطانية⁽³⁰²⁾. أدى ذلك إلى عملية إجلاء عفوية للنساء والأطفال⁽³⁰³⁾. وفي فجر الخامس والعشرين من أبريل قصفت الهاغاناه الطيرة فترة قصيرة⁽³⁰⁴⁾. وشنت في الساعات الأولى من اليوم التالي هجوما كبيرا، باستخدام قذائف الهاون والمدفعية، هدف بشكل واضح إلى الاستيلاء عليها. وتمكنت وحدة مشاة من الوصول إلى الأطراف الشرقية والاستيلاء على مواقع على منحدرات الكرمل المطلّة على القرية - غير أن النيران البريطانية أوقفتها. وفي فترة الهدوء المؤقتة التي تلت ذلك جرت عملية «إجلاء منظم» إلى عكا لغير المقاتلين من سكان القرية على متن حافلات تابعة للفيلق العربي، وبقي الشباب من الذكور. وفي الوقت ذاته كانت خربة الدامون، الواقعة إلى الجنوب، قد طوّقتها الهاغاناه من دون قتال، وأقامت الأخيرة حامية بها وزودت السكان، الذين بقوا آنذاك فيها، بتصاريع مرور خاصة⁽³⁰⁵⁾. وفي مطلع شهر مايو رتب البريطانيون لعملية «إجلاء منظم» أخرى من الطيرة شملت ستمائة شخص باتجاه جنين ونابلس⁽³⁰⁶⁾. وبقي مئات الرجال الذين نجحوا في الدفاع عن القرية حتى شهر يوليو، عندما سقطت على أيدي جيش الدفاع الإسرائيلي، وتم إجلاؤهم بالكامل.

في تلك الأثناء، وعلى وجه التحديد في ليلة 25|26 أبريل شنت الهاغاناه غارة شديدة على عكا المكتظة باللاجئين الوافدين من حيفا، قذفت خلالها المدينة بقذائف الهاون والمدفعية، مما أسفر عن تدمير ثلاثة منازل في ضواحي المنشية، والاستيلاء لفترة قصيرة على تل الفخار التي تطل على المدينة من ناحية الشرق. كما سقطت قذائف الهاون على سجن عكا، ما أدى إلى فرار جماعي للمسجونين. وقد تدخلت القوات البريطانية وفتحت النيران على قاعدة الهاغاناه في كيبوتس عين هاميفراتس

وتل الفخار، مما أدى إلى انسحاب الهاغاناه⁽³⁰⁷⁾. ومع ذلك أحدثت الغارة حالة هلع وفرار من المدينة⁽³⁰⁸⁾. ووفقا للتقييم العام الذي قدمته فرقة حرس كولدستريم، أراد اليهود فتح مداخل الطرق إلى حيفا، وأنهم «سيستمرون على الأرجح في قصف المناطق المحيطة بحيفا للدفع باتجاه إجلاء السكان العرب»⁽³⁰⁹⁾.

كان لسقوط حيفا أثر مدو ليس فقط في الشمال ولكن في كل أرجاء البلاد. حيث أعلن يوم حداد في اللد أغلقت فيه أغلب المحال أبوابها لتسجيل «المذبحة الكبيرة»⁽³¹⁰⁾. ومن جانبه نقل كارميل إقدام القرى المحيطة بحيفا على إجلاء نساها وأطفالها⁽³¹¹⁾. أما الوكالة اليهودية فقد لخصت الموقف على النحو التالي: «مثل إجلاء السكان من حيفا (إضافة إلى الاستيلاء على طبريا) نقطة تحول أثرت بشكل كبير على الروح المعنوية للعرب في الداخل والخارج...»⁽³¹²⁾.

في منتصف مايو، بقي نحو 4 آلاف عربي في حيفا؛ انتهت أكبر، وربما أهم موجات النزوح في الحرب، من حيث تأثيرها في رحيل المجتمعات الأخرى. أضحت حيفا مدينة يهودية. وخلال أسابيع، نفذت السلطات اليهودية مشروعين حزينين مهمين: حشد السكان العرب الباقين في حين في وسط المدينة؛ والتدمير المنهجي للمنازل العربية في عدد من المناطق.

في الثامن والعشرين من يونيو 1948 أمر قائد الجبهة الشمالية، الجنرال موشيه كارميل، بتعبئة القوات لكل من الأسباب الأمنية (كانت الحرب لا تزال مستمرة، كما أن العرب الذين يمثلون طابورا خامسا محتملا يمكن الإشراف عليهم بشكل أسهل إذا ما قيدت حركتهم)، والحاجة إلى استيعاب المهاجرين (فمنذ صيف عام 1948 كانت هناك حاجة متزايدة وماسة إلى المساكن التي يمكنها إيواء المهاجرين اليهود الوافدين)، وقد حدث ذلك يومين فقط قبيل الانسحاب المقرر للقوات البريطانية المتبقية في مناطق داخل حيفا وخارجها (قاعدة رامات ديفيد الجوية، مجمع معسكرات كرداني، وثكنات شبه جزيرة حيفا وخارجها في حي بات غاليم، منطقة الميناء، والعديد من المعسكرات في الكرمل بما في ذلك ستيل مارييس). وطبقا لكارميل، توقعته الخطة «دالت» احتشاد العرب في وادي التسناس ووادي صليب قبل حدوثه. وأوضح كارميل الحاجة إلى تنفيذ العملية بمصطلحات عسكرية - إستراتيجية (من دون أن تذكر احتياجات الإسكان)⁽³¹³⁾. وفي الأول من يوليو أمر

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

القائد العسكري في منطقة حيفا وحداته بطرد العرب من «الكرمل الفرنسية، والمستعمرة الألمانية، وغيرهما»، إلى وادي النسناس ووادي صليب، على أن يتم الانتهاء من العملية بحلول الخامس من الشهر⁽³¹⁴⁾. وقد استُدعيت لجنة الطوارئ (خياط، شحادة صلاح، توفيق طوبي، بولص فرح)^(*) والتي رفضت في البداية، ثم اقتنعت بالمساعدة في تنفيذ عملية الحشد والتجميع، حيث هدد الجيش باستخدام القوة في حالة عدم التعاون⁽³¹⁵⁾. بدأت عملية «الترانسفير» في الثالث من يوليو⁽³¹⁶⁾. جُمع العرب في وادي النسناس وفي عدد صغير من المنازل في شارع عباس، ولم يتطلب العدد تخصيص منازل إضافية في وادي صليب (التي تُركت خالية تماما لتسكين اليهود). ومن جانبهم أثار موظفو وزارة شؤون الأقليات العديد من العقبات⁽³¹⁷⁾، كذلك رجال الدين المسيحيون⁽³¹⁸⁾، وعلى الرغم من ذلك تم الانتهاء من العملية خلال أيام. وبحلول منتصف شهر يوليو كانت الإدارة العربية في جهاز استخبارات الهاغاناه قادرة على القول بأن «الأغلبية العظمى من عرب حيفا قد جُمعت في وادي النسناس، تماشيا مع الخطة دالت»⁽³¹⁹⁾.

بعد مرور أيام على سقوط حيفا صاغت إدارة الشؤون الفنية وإدارة التنمية العمرانية التابعتان للبلدية، بالتعاون مع قائد قوات الدفاع الإسرائيلية في المدينة، ياكوف لوبليني، مقترحا «للتنفيذ الفوري» يهدف إلى تجديد مساحات كبيرة في وسط المدينة والشوارع الكبرى، وبعد أن نصت في مقدمتها على مقتبس من سفر الجامعة (3/3) «يحين وقت لـ...»^(**) بدأ المقترح المعنون بـ«مذكرة لأعمال تحسينات عاجلة في حيفا» كما يلي:

1 - إن النزوح الجماعي للسكان العرب من حيفا والإجلاء الكامل تقريبا للمدينة، والأحياء العربية المجاورة الموجودة بينها وهدار الكرمل يقدم فرصة استثنائية لأعمال تحسين لها صلة بالتدمير. وهذه الأعمال يمكنها أن تصحح من الظروف الأمنية، وشبكة الطرق، والوضع الصحي في المدينة. وحقيقة أن المباني التي كانت محددة للهدم قد تأثرت خلال تلك الفترة بشكل كبير

(*) ورد الاسم في الكتاب الأصلي «نابلس فرح» Nablus Farah، والأرجح أن المقصود هو بولص فرح، وهو من أبرز أسماء الحركة العمالية في فلسطين. وُلد في حيفا عام 1912، وتوفي فيها عام 1993 [المحررة].

(**) سفر الجامعة هو أحد أسفار العهد القديم (أو التناخ)، والإشارة هنا إلى الفقرة الثالثة من الإصحاح الثالث، التي ورد فيها: «للقتل وقت وللشفاء وقت، للهدم وقت وللبناء وقت». [المحررة].

من آثار القتال وأصبح من الضروري تدميرها بمقتضى قوانين البلدية المتصلة بالمباني الخطرة، تسهل وتقدم سببا إضافيا لتنفيذ الأعمال المطلوبة.

وفي ضوء هذا الوضع، أضحت عملية إعادة التجديد ملحة:

فحقيقة أنه تم البدء في الأيام الأخيرة في توطين [اليهود] القادمين، و[اليهود] اللاجئين [من مناطق أخرى في فلسطين] ومؤسسات الدولة في المناطق الخالية في المدينة، وإدراكا بأن المدينة لا يمكن أن تظل مهجورة وخالية، ونحن نتوقع جميعا موجات من الهجرة الوافدة فضلا عن عودة الكثير من العرب الذين هجروا حيفا، كل هذا يجب أن يحفزنا على القيام بالأعمال الضرورية من دون تأخير.

إن أغلب المباني التي تم النص على هدمها كان قد سبق تحديدها في العديد من الخطط في الفترة التي سبقت الحرب؛ كما أن هناك مباني أخرى شُيّدت بشكل غير قانوني. وقد أكد مُعدو المذكرة على عنصر العجلة لأن مثل تلك الفرصة «قد لا تتكرر»، وأيضا لأنه سيكون من الأرخص، فيما يتصل بدعاوى التعويض المتوقعة، تنفيذ عمليات الهدم بسرعة، كما «يمكن للمرء أن يفترض أنه بسبب عدم وجود أدلة لن يُرفع الكثير من دعاوى التعويض». وقد تضمنت القائمة التفصيلية للمباني المقرر هدمها 46 «منزلا صغيرا» في حي فارديا، والتي كانت تعرض المرور والصحة للخطر (بسبب عدم توافر الصرف الصحي)؛ 15 مبنى تقع بين شارع ابن جبيرول وهرتزل؛ 17 مبنى في شارع ابن رشد؛ 214 مبنى في شارع الملك جورج الخامس - فضلا عن هدم أحياء الأكواخ في وادي رشميا والحواسة⁽³²⁰⁾.

في السادس عشر من يونيو التقى بن غوريون مع يريل فريدلاند، مدير مصنع وضابط رفيع المستوى في الهاغاناه، وحثه على التعامل مع هذا الملف «بشكل فوري عقب الجلاء البريطاني النهائي»⁽³²¹⁾. وعلى الفور أمرت شعبة التخطيط في قوات الدفاع الإسرائيلية بالبدء في عمليات الهدم:

لتوفير طريق مناسب وآمن... بين هدار الكرمل والمنطقة الصناعية في المدينة والكريوت [الضواحي الشمالية]، لتأمين الطريق إلى الميناء، وللتقليل من القوى العاملة التي تتطلبها عملية حراسة المدينة حاليا⁽³²²⁾.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

بدأت عملية الهدم في الأسبوع الثالث من شهر يوليو، مع دخول الهدنة الثانية حيز التنفيذ، مما جعل وحدات جيش الدفاع الإسرائيلي، بمن فيهم المهندسون، متفرغة للعمل. وعلى الفور عبر الأعيان العرب المتبقون عن تضررهم من ذلك، مشيرين إلى أنهم لم يُستشاروا أو يعوّضوا⁽³²³⁾. وقد رد العمدة ليفي بقوله إنه لا يعلم من المسؤول عن ذلك، ولماذا تجري عملية الهدم، مضيفاً أنه ليست له أي مسؤولية مالية في هذا الخصوص؛ (وقد عكس ذلك الرد خشيته من أن تتم مقاضاته). وعلى مدار شهر لم تكن الأسس القانونية التي ارتكزت عليها العملية واضحة إلى أن طرح شتريت الموضوع على مجلس الوزراء في الأول من شهر سبتمبر. ومع ذلك تفادى بن جوريون الرد مكتفياً برد مخادع، قائلاً إن الموضوع هو مسؤولية المسؤول الرسمي عن الأراضي المحتلة⁽³²⁴⁾. في تلك الأثناء أشرك ليفي في العملية بعدما أقنعه وزير الداخلية بأهميتها وضرورتها - وهي العملية التي أطلقت عليها قوات الدفاع الإسرائيلية «عملية شيكمونا». وقد وضع حداً لقلقه فيما يخص قضية التعويضات؛ وشرح غروينبوم الموقف باعتبار العملية سياسية وليست مدنية، ومن ثم فإنه ليست هناك تعويضات يلزم بها القانون⁽³²⁵⁾، وقد استمرت عملية الهدم على نحو غير منتظم خلال الصيف وأنهيت بشكل تام في أكتوبر⁽³²⁶⁾.

يافا

في الساعات الأولى من صباح الخامس والعشرين من أبريل شن الإرغون ما عُرف فيما بعد بأنه هجومه الرئيسي في الحرب - الانقضاض على يافا، أكبر المدن العربية في فلسطين. وطبقاً لغورني: «أعطى العرب قيمة ليافا لأسباب تاريخية ونفسية أكبر من المدن الفلسطينية الأخرى باستثناء القدس»⁽³²⁷⁾. وقد أخضعت خطة التقسيم المدينة للحكم العربي داخل المنطقة ذات الهيمنة اليهودية على السهل الساحلي؛ وتحكّم موقعها الجغرافي في ظروفها وطريقة عملها طوال الأشهر الأولى للحرب. وعند بداية المعركة النهائية، كان لا يزال يقطنها ما يقرب من ثلثي عدد سكانها قبيل الحرب، والذي تراوح بين 70 ألف نسمة و80 ألفاً⁽³²⁸⁾، كما كان هناك ما يقرب من 80 جندياً بريطانياً بآلياتهم المدرعة⁽³²⁹⁾. ولكن السكان كانوا يعلمون أن البريطانيين على وشك الرحيل، ولا يمكنهم حمايتهم فيما بعد 14 - 15 مايو.

اعتقدت الهاغاناه طوال فترة الحرب الأهلية أنه لا حاجة إلى الهجوم على يافا بشكل مباشر. فعلى الرغم من أن عملية إطلاق النيران المتقطعة من المدينة قد تسببت من وقت إلى آخر في مضايقة جنوب تل أبيب، فإنها لم تشكل تهديدا إستراتيجيا. وقد كان لدى الهاغاناه اعتقاد بأن شعور السكان بالعزلة والحقائق التي فرضها الحصار سوف تقود حتما إلى تركيع شعبها؛ وأنها ستسقط من تلقاء ذاتها كالثمرة الناضجة لحظة الانسحاب البريطاني. ولم تدعُ الخطة دالت إلى الاستيلاء على يافا، بل الضغط على سكانها والاستيلاء على ضواحيها في المنشية، وأبو كبير، وتل الريش⁽³³⁰⁾. فشل مخططو الهاغاناه تماما في توقع للنزوح الجماعي لسكانها لا سيما التخطيط له.

لم تكن للهاجاناه وحدها الكلمة النهائية، فمنذ مطلع شهر أبريل، عندما بدأت الهاغاناه هجومها، كان الإرغون يتطلع إلى تحقيق إنجاز رئيسي، وقد رجع ذلك جزئيا إلى الرغبة في إثبات أن الهاغاناه ليست القوة العسكرية الوحيدة الفاعلة لليشوف. وكانت الاعتبارات السياسية جلية للعيان⁽³³¹⁾. وفي هذا الخصوص كان بيغن يدرس اختيار القدس الشرقية، و«المثلث»، وتلال ميناخ، وجنوب شرق حيفا ويافا، وفي الثالث والعشرين من أبريل وقع اختيار قادة الإرغون على يافا التي نظروا إليها باعتبارها «سرطانا» في الجسد السياسي اليهودي ووبالا على تل أبيب التي كانت مركزا لقوة الإرغون.

حشد الإرغون ما يعادل ست سرايا عسكرية من عناصره، وأخرج مدفعي هاون من عيار 3 بوصات - سبقت سرقتها من البريطانيين عام 1946 - من مخبئهما، مع عدد وفير من القنابل. وفي الصباح الباكر ليوم 25 أبريل ضرب الإرغون ضربته مهاجما حي المنشية في الطرف الشمالي لمدينة يافا، بهدف التقدم عبره إلى الطرف الجنوبي على البحر، بشكل يفصله عن المدينة. وإذا كانت الأمور سارت على ما يرام لكان من الممكن حينئذ مهاجمة يافا ذاتها. وقد تزامن الهجوم مع إطلاق ستار من قذائف الهاون على المنشية ومركز مدينة يافا.

كانت المدينة في حالة معنوية يرثى لها؛ وشعر سكانها «بعدم الأمان... وفقدان الأمل»⁽³³²⁾. فقد مرت عليها أسابيع شهدت خلالها أعمالا انتقامية قامت بها الهاغاناه شملت إطلاق قذائف الهاون⁽³³³⁾. في نهاية شهر أبريل كان الطعام، باستثناء الدقيق،

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

لا يزال متوافرا. وبالمقابل كان هناك نقص حاد في الوقود وارتفاع للأسعار بشكل خيالي، كما أن خطوط الاتصالات الهاتفية كانت مقطوعة بشكل عام⁽³³⁴⁾، في حين توقفت تقريبا عملية النقل من المدينة وإليها. كان أغلب أفراد الطبقتين الوسطى والعليا قد غادروا؛ أما فيما يتصل بالمليشيات فقد كانت منقسمة وجامحة، وعمت البطالة وتدهورت التجارة وتزايدت حالات الإفلاس⁽³³⁵⁾. وفي اليوم السابق للهجوم تدافع الكثيرون على البنوك لسحب أرصدهم، مما أدى إلى إغلاق البنوك أبوابها خلال بضع ساعات بعد نفاذ الأموال منها⁽³³⁶⁾.

أثناء تقدمها في الخامس والعشرين من أبريل، من منزل إلى منزل، واجهت قوات الإرغون مقاومة عنيفة وتوقف الهجوم على المنشية. وأعقب ذلك إعادة الإرغون تجميع قواته وتغيير تكتيكاته ليعاود الهجوم في السابع والعشرين، مخترقا المنطقة، ليصل إلى شاطئ البحر، الأمر الذي كبده 40 قتيلًا وضعف هذا الرقم من الجرحى. أما سكان المنشية فقد لاذوا بالفرار باتجاه الجنوب (حي العجمي وجباليا) تحت وطأة قذائف الهاون، وفي مواجهة قوات المشاة.

فما كان الهجوم على المنشية - من حيث الأهمية والنتائج - القصف الذي تزامن معه، وبشكل لا ينقطع تقريبا على مدار ثلاثة أيام بقذائف الهاون، على حي العجمي، ومناطق أخرى في وسط مدينة يافا: السجن، المركز الرئيسي للبريد، شارعي الملك جورج وبطرس⁽³³⁷⁾. وقد كان من شأن سقوط حيفا العربية والنزوح الجماعي لسكانها أن ضاعف من انخفاض الروح المعنوية لسكان يافا⁽³³⁸⁾. ووفقا لنمر الخطيب، شعر عرب يافا بأنهم قد حان دورهم⁽³³⁹⁾. وقد أدى الهجوم البري والقصف المستمر بقذائف الهاون إلى كسر معنويات المدنيين والمقاومة العسكرية. بعد انتهاء المعركة بقليل كتب بيغن مدعيا أن عناصر المدفعية كانت لديهم تعليمات بتجنب إصابة «المستشفيات، والأماكن الدينية» والقنصليات⁽³⁴⁰⁾. غير أنه أخذاً في الاعتبار أن القائمين علي تصويب وإطلاق القذائف كانوا من الهواة، فإنه حتى مع افتراض وجود قيود عليهم كان ذلك عديم المعنى والفائدة. وفي كل الأحوال فإن أهداف أيام القصف المتواصل الثلاثة - التي أطلق خلالها 20 طنا من الذخائر - كانت واضحة على النحو الذي حدده أميخاي باغلين (قائد العمليات) قبل اندلاع الهجوم: «منع وسائل النقل العسكرية في المدينة؛ كسر الروح المعنوية لقوات

العدو؛ وإحداث حالة من الارتباك بين المدنيين؛ مما يؤدي إلى هروب جماعي». وقد صُوبت القذائف بكثافة باتجاه منطقة الميناء، وميدان الساعة، والسجن، وشارع جورج، فضلا عن حي العجمي⁽³⁴¹⁾. وبعد مرور عدة أيام كتب كانيغهام: «يجب أن يكون واضحا أن الهجوم الذي قام به الإرغون باستخدام الهاون لم يميز بين أي شيء وآخر، وكان مصمما لخلق حالة من الذعر بين السكان المدنيين»⁽³⁴²⁾. وفي واقع الأمر، واستنادا إلى مصادر استخبارات الهاغاناه، وقعت أغلب الخسائر في صفوف المدنيين⁽³⁴³⁾. ووصف جاك دو رينيه (ممثل الصليب الأحمر في فلسطين) حالة الذعر التي سيطرت على الطاقم الطبي في يافا بالكلمات التالية:

بدأ الفرار سريعا. وفي المستشفيات فر سائقو سيارات الإسعاف بصحبة عائلاتهم في تلك السيارات من دون أدنى مراعاة لواجبهم. والكثير من الممرضات وحتى الأطباء تركوا المستشفى فقط بما يرتدونه من ثياب وفروا إلى الريف⁽³⁴⁴⁾.

استنادا إلى عمليات استجواب الأشخاص الذين قبض عليهم، نص تقرير استخبارات الإرغون بتاريخ 28 أبريل على ما يلي:

لقد سقطت قذائفنا في العديد من المواقع الرئيسية، على مقربة من مكتب البريد، وإلى جوار مبنى البلدية... وقرب الميناء، وقد أصيب مقهى في سوق الخضراوات مما أسفر عن مقتل العشرات من أفراد العصابات [العناصر غير النظامية]. وأفاد السجناء الذين وقعوا بين أيدينا بأن أكثر من 200 شخص يعرفونهم قد قضوا خلال القصف... أدى القصف إلى تعطيل حركة الحافلات داخل يافا وتلك المتجهة إليها، مما شل دخول المؤن الغذائية. وتحولت الفنادق إلى مستشفيات. وأحدث القصف ذعرا كبيرا، مما أدى إلى امتلاء الميناء بمجموعات ضخمة من اللاجئين، وحتى عملية الصعود إلى المراكب تمت في حالة من الارتباك.

وأضاف التقرير أن قوات الشرطة في المنشية هربت متخفية عن الشعب⁽³⁴⁵⁾. من المرجح أنه عند نقطة معينة من المعركة عرف سكان يافا أن عناصر الإرغون هي من يقوم بالهجوم، الأمر الذي شكل عاملا إضافيا أسهم في حدوث النزوح

الموجة الثانية : النزوح الجماعي...

الجماعي؛ كانت ذكريات ما حدث في دير ياسين قبل أسبوعين حاضرة في أذهان الجميع. وقد أكد المتحدثون باسم الإرغون لاحقا أن ذلك كان عاملا رئيسيا في الإسراع بالنزوح الجماعي⁽³⁴⁶⁾.

في كل الأحوال، تمثلت النتيجة الرئيسية للهجوم على يافا في إثارة عملية فرار واسعة بين جموع الناس، عبر البحر أو البر، غالبا تحت حراسة بريطانية، إلى الضفة الغربية وإلى الجنوب باتجاه غزة. كما أنه عقب الهجوم أغلقت المحال والأسواق، وتوقفت وسائل النقل وامتلأت الشوارع والمستشفيات والفنادق بالمصابين وجثث القتلى؛ في وقت لم يبق فيه بالمدينة أطباء أو ممرضات تقريبا. وقد أعاق نقص الوقود عملية نقل المصابين إلى نابلس⁽³⁴⁷⁾. ومع حلول الثامن من شهر مايو لم يكن هناك إلا طبيب واحد وممرضة في مستشفى المدينة الحكومي الرئيسي⁽³⁴⁸⁾. وسجل جهاز استخبارات الهاغاناه منذ مطلع شهر يناير تتابع خروج القوافل التي تنقل العائلات والأثاث من المدينة..⁽³⁴⁹⁾

ذهب المراقبون البريطانيون إلى أن أحد الأسباب الرئيسية وراء النزوح الجماعي - كما كانت عليه الحال في حيفا وطبريا - تمثل في فرار القادة المحليين قبيل وأثناء المعركة. وحتى قبل المعركة، اتسمت يافا - أكثر من المدن الأخرى - بتفكك القيادة. ففي شهر أبريل كانت هناك سبعة مراكز للسلطة منفصلة ومختلفة، بل ومتنافسة ومتداخلة المسؤوليات: البلدية؛ اللجنة الوطنية؛ ممثل المفتي (توفيق التميمي)؛ النجادة، الميليشيا المحلية وقيادتها، الوحدات غير النظامية المتعددة والتي لا تنتمي إلى المدينة، والقائد المستقل المعين من قبل اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية. وكان من شأن هجوم الإرغون أن يُطلق العنان لعملية التفكك وفرار القادة. وفي هذا الخصوص سجل غورني العبارة التالية: «إنه من المثير للشفقة رؤية كيف تم التخلي عن عرب يافا من قبل قادتهم»⁽³⁵⁰⁾. أما كاتينغهام فقد ركز بشكل مباشر على فرار القادة العرب كمحفز على النزوح الجماعي، مشيرا إلى أن العمدة (هيكل) سافر في «إجازة» أربعة أيام في منتصف شهر أبريل، ولم يعد حتى الآن، وأن نصف أعضاء اللجنة الوطنية غادروا المدينة»⁽³⁵¹⁾. أما وزارة الدفاع فقد نقلت إلى كبار الوزراء في الحكومة البريطانية، وإن كان ذلك ليس دقيقا تماما، أن «كل القادة العرب غادروا المدينة التي تبدو ساكنة سكون الموت»⁽³⁵²⁾.

في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، في نهاية شهر أبريل، ذهب شيرتوك إلى القول بأنه في كل من طبريا ويافا «فُرض النزوح الجماعي للسكان من قبل القادة العسكريين العرب كمظاهرة سياسية وعسكرية... لقد أمرت القيادة العربية الشعب بالرحيل». أما فيما يتصل بوضع يافا فإن هناك أدلة ضئيلة على مثل هذا التأكيد⁽³⁵³⁾؛ حيث يبدو أن عملية عكسية حدثت، فالقصف «أسفر عن نتائج تخطت التوقعات»، فقد وُلد «فزعا وخوفا بين السكان» مما أطلق عملية الهروب⁽³⁵⁴⁾، والتي أدت بدورها إلى انهيار التشكيلات غير النظامية التي لاذت بالفرار⁽³⁵⁵⁾.

ترتب على هجوم الإرغون على يافا، والذي أعقب سقوط حيفا المريع، وضع البريطانيين في موقف صعب، أدى إلى إشعال فتيل أزمة محدودة داخل الحكومة البريطانية، حيث لام القادة العرب، داخل فلسطين وخارجها، البريطانيين على ما حدث في حيفا، وادعوا أن ستوكويل تأمر مع الهاغاناه، أو على الأقل تصرف بطريقة عادت على اليهود بالفائدة بإقدامه بشكل مفاجئ على إعادة انتشار قواته خارج مركز المدينة؛ ومنع دخول التعزيزات العربية؛ وعجزه عن وقف هجوم الهاغاناه الذي - وفقا للادعاءات العربية - تضمن القيام بمذابح؛ وتشجيعه على عقد هدنة ارتقت إلى مستوى الاستسلام. وبشكل عام دفع العرب بأن البريطانيين هم من كانوا يسيطرون - رسميا وقانونيا - على فلسطين حتى الخامس عشر من مايو، مما يعني أنهم كان عليهم أن يتصرفوا من هذا المنطلق⁽³⁵⁶⁾.

رفض كل من كاتينغهام وستوكويل ووزير الحرب البريطاني الاتهامات العربية، وأوضح الأخير بشكل مختصر أنه:

بعد الهزيمة في حيفا، ورغبة في تبرير عدم كفاءتهم، يتهمن القادة العرب نحن بمساعدة اليهود ومنع العرب، على الرغم من أن الهزيمة كانت ترجع أساسا إلى المسلك الجبان المفتقر إلى الكفاءة من قبل القادة العسكريين العرب، ورفضهم الأخذ بنصيحتنا بضبط النفس، وقد أدى ذلك... إلى تدهور كبير في العلاقات البريطانية - العربية⁽³⁵⁷⁾.

شعرت الحكومة البريطانية بقوة بهذا التدهور الذي جاء في وقت كان فيه الانسحاب البريطاني من فلسطين وشيكا، الأمر الذي قاد بشكل مباشر إلى صدام بين

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

بيفن وقادة الجيش، وما تلاه من تدخل بريطاني في معركة يافا. شعرت الخارجية البريطانية بأن ما حدث في حيفا قد أضعف موقع بريطانيا على امتداد العالم العربي. وفي مساء الثاني والعشرين من أبريل استُدعى رئيس هيئة الأركان العامة الإمبراطورية، الفيلد مارشال (المشير) مونتغمري، إلى مقر رئاسة الوزراء، حيث أُجبر على الإقرار بأن جنرالاته لم يخبروه على الدوام بالأحداث في حيفا. وثارت مشاعر بيفن الذي ذكر أن 23 ألف عربي قُتلوا والموقف كارثي. ورد مونتغمري بأنه سيعمل على التأكد مما يحدث⁽³⁵⁸⁾.

اجتمع كل من كليمنت أتلي (رئيس الوزراء) وبيفن ومونتغمري في العاشرة من صباح اليوم التالي بمقر رئاسة الوزراء، وكان بيفن - وفقا لرواية المشير - «في حالة أكثر هياجاً»، حيث ذهب إلى أن الجيش كان عليه أن يوقف الهاغاناه: «إن مذبحه العرب وضعته في موقف صعب مع كل الدول العربية»، واختتم بيفن هجومه بقوله «إن الجيش خذله»⁽³⁵⁹⁾. ومن جانبه - ووفقا لروايته الشخصية - طلب مونتغمري من بيفن سحب الاتهام - الذي تم توجيهه رسمياً إلى وزير الدفاع (أ. ب. ألكسندر)، كما هاجم طريقة معالجة بيفن لأزمة فلسطين قائلاً إن «وزير الخارجية يحاول الآن أن يجعل من الجيش كبش الفداء». هدد مونتغمري - وفقا لروايته الشخصية - بالاستقالة والكشف عن الأسرار أمام مجلس اللوردات، وقد وصف تصرفه هذا بأنه «وضع الأمور في نصابها»، وكان كل من ألكسندر وأتلي مضطراً إلى الدعوة إلى عقد اجتماع آخر في مقر رئاسة الوزراء في السابع من شهر مايو.

على النحو الذي انتهت به الأمور، شعر مونتغمري ببعض السعادة، وذهب أتلي إلى أن مونتغمري أعطى اهتماماً كبيراً «لجملة في سياق... نقاش»، وانتقد افتقار الجيش إلى معلومات محدثة، ومن جانبه ظل بيفن على موقفه بأنه كان على الجيش «ألا يفقد السيطرة على المنطقة المحيطة بحيفا، وأن يسمح بطرد مثل هذا العدد الكبير من العرب...». وطبقاً لما أورده مونتغمري، انتهى الاجتماع بشكل ودي وجميع الحاضرين «يضحكون... لقد عالج أتلي الموقف بشكل رائع، وكان من المستحيل الغضب من إرني بيفن لمدة طويلة». ومع ذلك لم يتلق مونتغمري أي اعتذار. وظل كل من ستروكويل وماريوت (الأخير لمساندته الأول) في مرمى انتقادات وزارة الخارجية⁽³⁶⁰⁾.

وإذا ما نحينا الشجار داخل الحكومة جانبا، تمثلت النتيجة الرئيسة لسقوط حيفا في تدخل بريطاني قوي في يافا تسعى إلى «التعويض» عن الدور البريطاني المزعوم في حيفا واستعادة الهيبة والسمعة التي خسرتها بريطانيا في العالم العربي. فعندما وصلت إلى لندن الأخبار الأولى عن هجوم الإرغون على يافا أصبح ينفن «في حالة هياج شديدة... وأصدر تعليماته إلى رئاسة الأركان العامة الإمبراطورية... للنظر فيما يمكن عمله لعدم تمكين اليهود من احتلال يافا، أو لإخراجهم منها إذا ما كان الاحتلال قد تم بالفعل». وقد دفعته الخشية من تكرار ما تم فعله في حيفا إلى أن يسلك طريقا جانبيا بدلا من القنوات الرسمية (وزير الدفاع والمفوض السامي) لمحاولة دفع الجيش إلى التحرك⁽³⁶¹⁾. في السابع والعشرين من أبريل أخطر الجيش البريطاني - الذي لم تكن لديه خطوط اتصال مع الإرغون - عمدة تل أبيب (يسرائيل روكاح) وجهاز استخبارات الهاغاناه أنه ينوي «الإبقاء على يافا بأي ثمن، خاصة في ظل حقيقة استيلاء اليهود على حيفا»⁽³⁶²⁾.

وبدأ تحرك الجيش البريطاني بالفعل في اليوم التالي، حيث دخل 4500 جندي، ومعهم الدبابات إلى يافا، في حين حامت الطائرات النفاثة فوق الرؤوس وفجرت النيران، رست بعض السفن الحربية في المرفأ، كما قصفت مدافع الهاون مواقع الإرجون، وخلال المفاوضات الثلاثية التي ضمت البريطانيين، الهاغاناه، والإرغون، طالب البريطانيون بانسحاب الإرجون من المنشية. وتم التوصل إلى اتفاق بهذا الشأن في الثلاثين من أبريل، وانسحبت بالفعل عناصر الإرجون بعد قيامها بتفجير مركز للمشرطة المحلية، وسيطرت القوات البريطانية على المدينة. وقد ذكرت تقارير استخبارات الهاغاناه أن الإرغون ترك وراءه «جثثا عربية مشوهة بشكل كبير»⁽³⁶³⁾. وأن البريطانيين عمدوا إلى نهب المنازل المهجورة⁽³⁶⁴⁾.

طبقا لما أورده بيغن، حاولت القوات البريطانية كبح النزوح الجماعي، فذكر:

لقد حاولوا تهدئة سكان يافا الذين أصابهم الرعب... وأعلنوا بشكل متكرر

أنهم سيدافعون عن يافا بكل قوتهم العسكرية. غير أن كل جهودهم لل تهدئة

باءت بالفشل... ولم يكن هناك ما يمكنه منع الإجلاء التام للمدينة⁽³⁶⁵⁾.

مثلت عملية «حاميتز» أحد الأسباب لعدم نجاح البريطانيين، فقد تضمنت العملية هجوم الهاغاناه - خلال الفترة من 28 إلى 30 أبريل - على سلسلة من

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

القرى شرقي يافا، بهدف السيطرة على: اليهودية، كفر عانة، ساقية، الخيرية، سلمة، يازور، بيت دجن، فضلا عن قرية تل الريش، التي وفرت ليافا وصلة إلى الأراضي العربية الداخلية إلى الشرق اللد والرملة. وطبقا لأمر الاستعداد الصادر عن رئاسة أركان الهاغاناه كان هدف العملية هو «استكمال تطويق وعزل يافا وفتح الطريق أمام القوات اليهودية إلى اللد»، ولم يكن هناك أي نص واضح حول المعاملة المتوقعة لسكان تلك القرى في الأمر الصادر، والذي تحدث فن «تنظيف المنطقة»⁽³⁶⁶⁾. في المقابل نص الأمر التنفيذي النهائي على أن «يُسمح بالرحيل للسكان المدنيين في المناطق التي يتم الاستيلاء عليها، بعد تفتيشهم بحثا عن الأسلحة»، وحذر الجنود من إلحاق الأذى بالنساء والأطفال «بقدر الإمكان»، ومن السلب و«الأعمال غير الملتزمة، والسرقة، والإضرار بدور العبادة»، على أن يُنقل السجناء إلى مقر رئاسة اللواء⁽³⁶⁷⁾.

خلال الفترة من 28 - 30 أبريل استولت الهاغاناه على الخيرية، ساقية، سلمة، ويازور، وقد تم الاستيلاء على الثلاثة الأولى من دون قتال. وأرجع جهاز استخبارات الهاغاناه عدم المقاومة من قبل السكان إلى سابق هزيمة الجيوش العربية في طبريا، وحيفا، ورمات يوحنان، ومشمار هعيمك، قائلة: «من الجلي أن العرب ليست لديهم أي رغبة في الحرب... وأنهم سيكونون مستعدين للعودة إلى قراهم وقبول الحماية اليهودية»⁽³⁶⁸⁾. أما فيما يخص اليهودية وكفر عانة فلم تهاجما، كما أنه تم الاستيلاء على تل الريش لفترة قصيرة والتخلي عنها نتيجة لهجوم مضاد. وقد أصيب السكان في جميع القرى (بما في ذلك اليهودية وكفر عانة)⁽³⁶⁹⁾ بالذعر، وفروا مع اقتراب قوات الهاغاناه أو فور بدء إطلاق النار، ففي الخيرية وجدت الفرقة 32 رفات أربعة رجال وثلاث نساء وبادرت بدفنهم، كما احتجزت لفترة قصيرة حفنة من الرجال والنساء والأطفال⁽³⁷⁰⁾. وأعدم على الفور اثنان من الذكور البالغين الذين تم احتجزوا لاتهامهم بقتل أحد عناصر الهاغاناه⁽³⁷¹⁾. وعندما زار بن غوريون قرية سلمة في 30 أبريل لم يجد هناك «سوى امرأة عجوز عمياء»⁽³⁷²⁾. وبعد مرور يوم أو اثنين قام بعض شباب العصابات من حي هاتيكفا في تل أبيب بحرق العديد من المباني بها⁽³⁷³⁾، أما فيما يخص يازور فقد خرجت منها الهاغاناه تحت ضغط البريطانيين، ولكن بعد زرع الألغام في مبانيها وأزقتها⁽³⁷⁴⁾.

نسبت كل من الإرجون والهاغاناه الانهيار السريع لمقاومة المناطق الريفية المحيطة بـ يافا، وهروب ساكني القرى، إلى هجوم الإرغون على المنشية، وما ترتب عليه من كسر الروح المعنوية لسكان يافا ونزوحهم الجماعي. بدوره، زاد سقوط هذه القرى من إضعاف الروح المعنوية لدى السكان المتبقين في المدينة، والذين تراوح عددهم بين 15 ألف شخص و 25 ألفاً⁽³⁷⁵⁾. فقد كانت يافا معزولة تماماً، وتلاشت أي إمكانية لأي دعم عربي. في وقت لم يعد من الممكن فيه الاعتماد على الضواحي الريفية التي كانت تمدها بالطعام⁽³⁷⁶⁾.

سادت حالة من الارتباك في يافا. وفضلاً عن وجود لواء من القوات البريطانية، وصلت عناصر غير نظامية من الرملة وقامت، وفقاً لما تردد، بالعمل على كبح جماح النزوح الجماعي أو على الأقل بين صفوف الشباب في سن القتال⁽³⁷⁷⁾. وفي الثامن من شهر مايو أو قبل ذلك بقليل أمرت اللجنة العربية العليا موظفي البلدية بالبقاء في أماكنهم⁽³⁷⁸⁾. غير أنه في ذلك الوقت كان رجال الميليشيات يفرون⁽³⁷⁹⁾، والقادة المحليون يتفاوضون مع البريطانيين لترتيب إجلاء بعض السكان المتبقين «بحراً إلى بيروت». طلب آخرون المساعدة البريطانية في المغادرة عبر المناطق التي توجد بها قوات الهاغاناه، الأمر الذي وافق عليه قائد لواء إسكندورني، دان إيفن، مما أسفر عن مغادرة الآلاف⁽³⁸⁰⁾. أدرك الجميع أن الوجود البريطاني كان أمراً مؤقتاً، وذكر كانيغهام: «نحن في موقف ضعيف إذا ما حاولنا ثني الأهالي عن الجلاء، حيث لا يمكننا ضمان سلامة العرب بعد أسبوعين في حال شنتنا عملية مضادة ضد اليهود»⁽³⁸¹⁾.

بحلول الثامن من شهر مايو كانت يافا مدينة أشباح تقريباً، مع وجود قوافل من السكان ترحل بشكل يومي، وكانت السيطرة على شوارعها للجنود البريطانيين ورجال جماعات الميليشيات الذين يقومون بعمليات نهب. قامت عصابات بسرقة المخازن، عادة بعد رشوة الحراس البريطانيين⁽³⁸²⁾. ولم يبق في المدينة سوى خمسة آلاف ساكن من بينهم العديد من «المرضى، والفقراء، والمعاقين، وكبار السن»⁽³⁸³⁾. وقد قدم ضابط استخبارات في لواء كيرياتي صورة بليغة للمدينة التي تحتضر:

سادت الفوضى والانهيار مدينة يافا. هرب العمدة [هيكل] من المدينة.

أغلقت كل الإدارات البلدية والبنوك والمستشفيات الحكومية... كما تم إخلاء

مباني المحكمة. شغلت قوات الجيش البريطاني مكاتب البريد، في حين استمرت

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

عمليات السلب والنهب، وعمدت عناصر غير نظامية - عراقية فيما يبدو - بكسر أبواب المحال وسرقة الطعام من منطقة الميناء. وبدأ أن الجنود [البريطانيين] يشاركون كذلك في عمليات السلب. تناقصت إمدادات الطعام والوقود⁽³⁸⁴⁾.

كتب كانيغهام في الاتجاه نفسه: «كل المستشارين وأعضاء اللجنة الوطنية تقريبا فروا». ومن الواضح أن الأعيان المثقفين كانوا يأملون أن يسيطر اليهود ويعيدوا النظام، غير أنهم خشوا الإفصاح عن ذلك علنا⁽³⁸⁵⁾. ومن جانبه، كتب نمر الخطيب أن فرقة اللجنة العربية العليا التي وصلت نهاية شهر أبريل بقيادة ميشيل عيسى، «تصرفت كأن المدينة ملكها، وشرعت في سرقة السكان ونهب منازلهم، وأضحت حياة الناس بلا قيمة، ولُوث شرف النساء، وقد شجع كل ذلك العديد من السكان على الرحيل...»⁽³⁸⁶⁾. وقد اختتم كانيغهام تحليله بقوله: «إن ما حدث في يافا كان نتيجة لعمل عسكري سابق لأوانه حُذر العرب منه بشكل متكرر، حيث إن مثل هذا العمل العسكري من جانبهم لم يكن ليسفر إلا عن إضافة مزيد من المعاناة للعرب في فلسطين...»⁽³⁸⁷⁾.

في الحادي عشر من شهر مايو كتب العمدة هيكل من غرفته في فندق فلاديفيا في عمان طالبا من البريطانيين منع احتلال اليهود ليافا⁽³⁸⁸⁾. غير أنه في اليوم السابق كان لواء كرياتى قد أصدر أمر الاستعداد لـ «عملية درور»، بما يعنيه ذلك من الاستيلاء الوشيك على المدينة - متضمنا تعليمات تفصيلية تتصل بفرض حظر التجوال، تفتيش السكان الباقين مع إمكان تجميعهم في حي أو اثنين، اعتقال المقاتلين السابقين، منع السلب، وحماية دور العبادة⁽³⁸⁹⁾. في الثاني عشر من شهر مايو انتقل أعضاء «لجنة طوارئ عرب يافا» (أمين أندروس، صلاح الناظر، أحمد أبو لبان) إلى تل أبيب، حيث التقوا ضباطا في لواء كرياتى لتمهيد الطريق للسيطرة اليهودية ومناقشة شروطها. وقد وعدهم قائد اللواء (ميخائيل بن جال) بأن الاحتلال سيكون خفيف الوطأة، وأنه لن تكون هناك «محاكمات عسكرية أو أعمال انتقامية»، وأن الهاغاناه ستقتصر على القبض على الأشخاص الذين يمثلون تهديدا للسلام، وقد سأل أندراوس: «ما مصير أولئك الذين غادروا يافا أخيرا ويرغبون في العودة، هل سيتم السماح لهم بذلك؟»، وأجاب بن غال: «اتفقنا على أننا سنبحث طلب كل مواطن من يافا يرغب في العودة بالتنسيق معهم [لجنة الطوارئ]، وبما يتفق مع

السجلات البلدية (التي تثبت أن الشخص المعني كان بالفعل من سكان المدينة، وفي حال عدم وجود أي سبب خاص لاعتباره خطرا فإنه لن يُمنع من العودة...)»⁽³⁹⁰⁾. وخلال اجتماع المتابعة الذي عقد في اليوم التالي كرر بن جال تأكيدده: «إننا نرغب في مساعدة سكان يافا الراغبين في العودة، لكن في هذا الخصوص ستكون هناك حاجة إلى اتخاذ بعض الترتيبات حتى يكونوا قادرين على العودة، وقد تمثل مضمون الاتفاق في أن السكان سيكونون قادرين على العودة...»⁽³⁹¹⁾. وفي الاتفاقية التي تم التوقيع عليها تعهد بن غال بالتزام الهاغاناه «باتفاقية فينا وجميع قوانين وأعراف الحرب»، ووافق الموقعون من الطرف العربي على «التعليمات» التي كان اللواء على وشك إصدارها، تحت عنوان: «تعليمات إلى السكان العرب من قائد الهاغاناه - حي تل أبيب - صادرة في 13 مايو 1948»، وتضمنت: تسليم جميع الأسلحة ومعاينة كل من لا يمثل لذلك، تفتيش جميع الذكور البالغين، اعتقال «المجرمين وأولئك المشكوك في كونهم يمثلون خطرا على السلم». وأخيرا ذكر بن غال أنه سيتم بحث كل حالة على حدة بالنسبة إلى البالغين من الذكور الذين يرغبون العودة، بما يتضمنه ذلك من إمكانية عودة الأطفال والنساء إلى يافا من دون حاجة إلى تقصُّ أو بحث⁽³⁹²⁾.

في الثالث عشر من مايو أصدر لواء كرياتي أمر التنفيذ لعملية درور⁽³⁹³⁾، وفي اليوم التالي بادرت وحدات الهاغاناه - بصحبة قوات رمزية من الإرغون - باحتلال يافا في عملية انتشار منظمة، وأصدر كرياتي أمرا خاصا أوضح أن «يافا تقريبا خالية من السكان، وقد وعدنا بتمكين السكان من العيش في سلام واحترام، وعلى كل منا الالتزام بهذا الوعد»⁽³⁹⁴⁾، وأعقب ذلك تعيين إسحاق شيزيك حاكما عسكريا، وأجرى بن غوريون زيارة للمدينة علق خلالها بقوله: «لا أستطيع أن أفهم: لماذا رحل السكان؟»⁽³⁹⁵⁾.

بذل شيزيك قصارى جهده لحماية السكان - حيث أُجري حصر سريع لهم وتسجيل ما يقرب من 4100 فرد - من القوات المحتلة: فوضع حراسا خارج المباني العامة، ونظم دوريات للشرطة العسكرية، وأمر بتأمين المنازل والمحال، التي تم تفتيشها، من أعمال السلب والسرقة. غير أن الأيام التالية شهدت قدرا كبيرا من المضايقات وبعض الأساليب القاسية تجاه أفراد الشعب المحتل، الذين جرى

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

إخراجهم عنوة وتفتيشهم وتجميعهم في منطقة أو منطقتين خلف أسيجة من الأسلاك الشائكة، وسُرقت ممتلكاتهم. كما أكره الجنود، لفترة قصيرة، السكان على ممارسة أعمال من دون مقابل⁽³⁹⁶⁾.

في الخامس والعشرين من شهر مايو عُثر على جثث خمسة عشر رجلاً أُطلق الرصاص عليهم في حي جباليا بالقرب من المياه، وكان في حوزة أربعة منهم هويات صادرة من مكتب الحاكم العسكري، وهو ما يدل على أنهم - كلهم - قُتلوا بعد دخول الهاغاناه المدينة. وقد قرر الأطباء الذين فحصوا الجثث بعد مرور يومين أن النار أُطلقت عليهم قبل ذلك بنحو أسبوع⁽³⁹⁷⁾. وفي ليلة 14 - 15 أبريل، أقدم جنديان في الهاغاناه على اغتصاب فتاة تبلغ من العمر 12 عاماً⁽³⁹⁸⁾. كما كانت هناك أيضاً محاولات عديدة للاغتصاب. وانتشرت عمليات السلب المنظمة أو الفردية على يد قوات الهاغاناه والإرغون ومواطنين تسللوا من تل أبيب، في حين كانت هناك سرقات على الطرق من قبل قوات الدوريات اليهودية (بما في ذلك سرقة الساعات، والحلي، والنقود، وغيرها)، وشاعت عمليات سرقة الممتلكات. وبشكل عام اشتكى العرب من أنهم «تجري مضايقتهم على نحو متواصل»⁽³⁹⁹⁾. بلغت عملية السلب والنهب حداً سيئاً دفع شيزيك لمناشدة بن غوريون التدخل على نحو مباشر، وقد أمر الأخير في الثاني والعشرين من مايو الإرغون والهاغاناه بطاعة تعليمات شيزيك⁽⁴⁰⁰⁾. وأعلن زيفي أورباخ (ضابط رفيع المستوى في كريات) أنه بريء من المسؤولية عن الممتلكات في يافا⁽⁴⁰¹⁾. وذكر أحد المسؤولين في الخامس والعشرين من مايو ما يلي: «تجولت طوال اليوم في الشوارع... ورأيت جنوداً ومدنيين، وشرطة عسكرية، وشرطة الوحدات تسرق وتنهب بعد قيامها بتحطيم الأبواب والجدران...»⁽⁴⁰²⁾.

بعد أيام قليلة تمكن شيزيك من رفع تقرير عن تحسن الأوضاع: تقلصت عمليات نهب الأفراد بشكل كبير على الرغم من استمرارها بالنسبة إلى المؤسسات المرخص لها⁽⁴⁰³⁾. وقد كان هناك كثير من هذه العمليات إلى الحد الذي حداً رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيلي، دوري، على أن يكتب إلى بن غال في الثالث والعشرين من شهر يونيو: «أريد أن أعلم بشكل واضح: هل يمكننا أن نضع الأمور في نصابها في يافا أم لا؟ يجب عليّ التوصل إلى نتائج في هذا الخصوص»، وأمهله يومين للرد⁽⁴⁰⁴⁾.

يذكر أنه قبل ذلك بشهر أخبر ضابط رفيع المستوى في قوات الدفاع الإسرائيلية (من الممكن أن يكون بن غال) مندوب الصليب الأحمر أنه على علم بجميع «الحوادث» التي وقعت بما في ذلك الاغتصاب، وأكد له أن المسؤولين عن ذلك قُدموا إلى المحاكمة، مضيفاً أن هذه هي الحرب الرابعة التي يشارك فيها، وأن ما حدث في يافا، بالمقارنة بالأشياء الفظيعة التي رآها في أماكن أخرى، كانت «بمنزلة الجنة»⁽⁴⁰⁵⁾. ولكن لم تُعقد سوى محاكمات قليلة، إن كانت قد عُقدت أصلاً. وفي الحادي والعشرين من يونيو، اشتكى شيزيك من أنه «على الرغم من تعدد الحالات التي قبض فيها على الجنود وهم يسرقون... لم أتلّق حتى الآن تقريراً واحداً يتضمن حكماً على أي منهم». من الواضح أن شيزيك كان على اقتناع بأن أحداً لم يتعرض للعقاب⁽⁴⁰⁶⁾.

على الرغم من تحسن الوضع تدريجياً في يافا، ظل العرب الباقون معرضين للسلب والنهب من قبل الجنود غير الملتزمين بالنظام. وعلى مدار أسابيع، بدا أن المجرمين الرئيسيين كانوا من أفراد البحرية. ومع حلول نهاية شهر يوليو كان الحاكم العسكري في يافا لا يزال يشتكي على نحو متكرر من اقتحام جنود البحرية منازل عديدة واعتدائهم بالضرب على مالكيها قبل أن يقدموا على سرقته⁽⁴⁰⁷⁾. بعد ذلك بأيام قليلة اقتحمت كنيسة كاثوليكية، وسُرقَت منها مشغولات فضية وصلبان. وعندما علمت رئاسة الأركان بذلك أمرت بتعقب الجناة ومعاقبتهم «بقسوة»⁽⁴⁰⁸⁾. وبالفعل، أُلقي القبض على ثمانية عشر من جنود البحرية وُعثر على بعض المسروقات⁽⁴⁰⁹⁾. وبدأ أن مضايقات سكان يافا وسرقة ممتلكاتهم قد انتهت في شهر أغسطس.

المدن الصغيرة

في السادس عشر من أبريل أخلت القوات البريطانية صفد، كما جلت عن ريش بينا المجاورة في الثامن والعشرين من الشهر ذاته. وفي الحادي والعشرين من أبريل - عقب ثلاثة أيام من النزوح الجماعي من طبريا - وصل قائد قوات البالماخ، آلون، لتقييم الموقف. وفي اليوم التالي أوصى كلا من يادين وغاليلي بشن سلسلة من العمليات، بما يتماشى مع الخطة دالت، بغية تقوية المنطقة للتعامل مع الغزو

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

العربي المتوقع. كما أوصى «بالضغط على بيت شيان العربية [بيسان] لزيادة عملية الهروب منها... والضغط على صفد العربية للإسراع من عملية إجلائها». وكلاهما كانت مدينة حدودية حساسة (تقع بيسان على بعد خمسة كيلومترات من الأردن، وصفد على بعد اثني عشر كيلومترا من سورية)، ولم يرغب آلون في الإبقاء على مراكز تجمع سكانية عربية فيما وراء المناطق التي ستصبح الخطوط الأمامية لجهاز استخبارات الهاغاناه⁽⁴¹⁰⁾.

صفد

فور تقديمه توصياته عُيِّنَ آلون قائدا للحملة المكلفة السيطرة على الجليل الشرقي، والتي حملت الاسم الرمزي: عملية يفتاح. ومثل الاستيلاء على الجزء العربي من صفد العنصر الرئيسي في الحملة. وضمت صفد ما بين 10 آلاف و 12 ألف عربي أغلبيتهم من المسلمين و 1500 يهودي، وهي أقدم مراكز المشناه والكابالا^(*)، وكانت القاعدة الرئيسية في الجليل الشرقي لجيش الإنقاذ ومناهضة الصهيونية⁽⁴¹¹⁾. من الناحية العسكرية كان عرب صفد ضعفاء وغير منظمين⁽⁴¹²⁾. وقد وصف كشافة البالمخ في نوفمبر 1947 سكان المدينة بأنهم منفعلون، ساد عليهم «الخوف من اليهود»، والأكثر تعليما بينهم كانوا «مكتئين»⁽⁴¹³⁾. كان لوضع المدينة داخل الدولة اليهودية وفقا لقرار التقسيم أثر موجه على معنويات ساكنيها. ومع ذلك قام أنصار الحسيني بعمليات عنف. ففي الثالث عشر من ديسمبر 1947، أطلقوا النار على نسيم ميزراحي، رجل استخبارات الهاغاناه، في السوق العربي وأردوه قتيلا. وقد ردت الهاغاناه بقتل ثلاثة من العرب⁽⁴¹⁴⁾. وخلال الأشهر التالية كان هناك تبادل متقطع لإطلاق النار، وهجمات للهاغاناه على المناطق الريفية المحيطة بالمدينة. وفي ليلة 2 - 3 يناير فجرت البالمخ دار صبحي الخضراء، القائد المحلي الموالي للحسيني⁽⁴¹⁵⁾.

تولى قيادة مليشيا المدينة إحسان كم الماز، ضابط سوري ملحق بجيش الإنقاذ. وفي منتصف أبريل 1948 حل محله ساري فنيش ونائبه أمين الجميعان (الاثنان ضابطان أردنيان في جيش الإنقاذ). وعلى الرغم من معاناة المجتمعين (العربي

(*) المشناه هي مجموعة الشرائع والشروح التي تتناول أسفار العهد القديم، والكابالا هي أحد المذاهب اليهودية لتفسير الكتاب المقدس. [المحررة].

واليهودي) في صفد بسبب العزلة والحصار لم يكن هناك نقص في الغذاء، واستمرت الحياة المدنية بوتيرة عادية. كما لم يكن هناك هروب ملحوظ للسكان قبل أواخر شهر أبريل⁽⁴¹⁶⁾.

أجلت القوات البريطانية قاعدتها في المدينة، وسلمتهما إلى العناصر غير النظامية في السادس عشر من شهر أبريل، وهاجمت الأخيرة الحي اليهودي، غير أنها مُنيت بالهزيمة. وتلا ذلك إلقاء الهاغاناه قنبلة من طراز «ديفيدكا» داخل المنطقة العربية أسفرت عن مقتل «13 من العرب أغلبهم من الأطفال». ولّد ذلك حالة من الذعر والحزن⁽⁴¹⁷⁾. وخلال الفترة من 16 - 18 أبريل بدأت كل من البالماخ وجيش الإنقاذ في دعم وتقوية كلا الطرفين اللذين استمرا في تبادل إطلاق النار. كما شهدت تلك الفترة اندلاع خلافات بين جيش الإنقاذ وضباط الميليشيا المحلية حول مناطق الرعي، مما دفع بالعديد من المتطوعين السوريين والأردنيين إلى الرحيل في الأيام التالية⁽⁴¹⁸⁾. وربما أسفرت تلك الخلافات عن هروب بعض المدنيين، وقد هدد أحد قادة جيش الإنقاذ بمصادرة ممتلكات وتدمير منازل الفارين⁽⁴¹⁹⁾.

بدأت المعركة النهائية في الأول من شهر مايو عندما استولت الكتيبة الثالثة للبالماخ على القرى المجاورة: عين الزيتون، وبيريا، مغلقةً بذلك الطريق إلى المدينة من الناحية الشمالية، ومخففة بشكل جزئي من الحصار المفروض على الحي اليهودي. في العام 1929 أقدم القرويون من عين الزيتون على قتل العديد من المستوطنين في عين زيتم^(*) المجاورة، وكانوا مع أقرانهم في بيريا⁽⁴²⁰⁾ ناشطين في أحداث 1936 - 1939⁽⁴²¹⁾. وفي ليلة 2 - 3 يناير 1948 أغارت الهاغاناه على القرية وفجرت العديد من المنازل وقتلت عددا من العرب⁽⁴²²⁾. وكان يتم استخدام عين الزيتون قاعدةً للهجمات ضد وسائل النقل اليهودية وعين زيتم، ولم تعمل الميليشيا العربية في صفد (التي تراوح قوامها بين 700 و 800 فرد) أي شيء لمساعدة القريتين خلال هجوم الأول من مايو.

كما جرت عليه العادة، بدأ الهجوم على عين الزيتون في الصباح الباكر بإطلاق كثيف لقذائف الهاون تلاه هجوم سرיתי مشاة. وخلال ساعة، أصبحت «قرية

(*) عين زيتم تعني عين الزيتون في اللغة العبرية، وهي مستوطنة بنيت بالقرب من القرية العربية «عين الزيتون» واتخذت اسمها. [المحررة].

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

القتلة تحت سيطرتنا»، كما ذكر القائد العسكري اليهودي في صفد. وفي حين تمثلت خسائر البالماخ في هذا الهجوم في قتل وستة مصابين، فإنها تمكنت من القبض على 300 شخص⁽⁴²³⁾. وفي الوقت ذاته قامت سرية أخرى بالاستيلاء على بيريا. وعلى الرغم من فرار بعض سكان عين الزيتون خلال القصف، فإن العديد من النساء والأطفال لزموا أماكنهم، وجرى بعد ذلك تجميعهم وطردهم مع إطلاق النار في الهواء لحثهم على إسراع الخطى⁽⁴²⁴⁾. وعندما حاول عدد من القرويين العودة إلى عين الزيتون في اليوم التالي - ربما لنقل ممتلكاتهم الشخصية - أطلقت النار عليهم، مما أسفر عن مقتل أحدهم وفرار الآخرين⁽⁴²⁵⁾.

ذكر أحد تقارير القيادة العامة لعملية يفتاح أن «30 سجيناً عربياً سُلموا إلى لواء غولاني»⁽⁴²⁶⁾. ولكن بعد مرور يوم أو اثنين، وبناء على أوامر من قائد الكتيبة الثالثة موشي كيلمان، فتح جنديان من البالماخ النار على عدة عشرات من السجناء، بمن في ذلك شباب صغار السن من عين الزيتون، وذلك في المنطقة الواقعة بين عين الزيتون وصفد⁽⁴²⁷⁾.

خلال ليلة 1 - 2 مايو، فجر خبراء المتفجرات التابعون للبالماخ، وحرقوا منازل في القرية. ووفقاً لأحد المشاركين في هذه العملية (غافريل كوهين المعروف بغابي) كان وراء ذلك هدف مزدوج: «تدمير قاعدة للعدو وإضعاف الروح المعنوية لسكان صفد»، الذين شاهدوا تدمير القرية عبر الوادي»⁽⁴²⁸⁾. وقد نقل بليد أن عناصر البالماخ كانوا سكارى، وأعمتهم فرحة النصر، مما دفعهم إلى سرقة الممتلكات وتدمير المنازل. شعر يهود صفد - الذين شاهدوا ذلك من بُعد - بالفرح، معتبرين الأمر انتقاماً «مما فعله عرب عين الزيتون في يهود صفد وعين زيتيم في 1929، و1936 - 1939»⁽⁴²⁹⁾.

أصاب الاستيلاء على عين الزيتون وبيريا - الذي فتح الباب أمام تعزيزات البالماخ على أبواب صفد - الروح المعنوية للسكان العرب بالمدينة في مقتل. وقد كان هؤلاء أصلاً مضطربين من جراء سماعهم أخبار دير ياسين وسقوط طبريا ويافا العربيتين، فضلاً عن عملية إجلاء السكان من الجاعونة (الواقعة إلى الشرق) وغوير أبو شوشة (في الجنوب الشرقي). وفي واقع الأمر غادرت العديد من العائلات البارزة سواء قبل أو مباشرة بعد الأول من شهر مايو⁽⁴³⁰⁾. في الثاني من مايو وصل الجانب الأكبر من الكتيبة الثالثة التابعة للبالماخ إلى الحي اليهودي، وبدأوا على الفور بفتح نيران قذائف الهاون

على الأحياء العربية: «سيطر الذعر على سكان صفد، وبدأت طوابير طويلة من العرب في مغادرة المدينة باتجاه قرية ميرون»، وشرقاً نحو نهر الأردن⁽⁴³¹⁾. في ذلك اليوم أعلن راديو الهاغاناه، قبل الأوان، أنه «تم إخلاء صفد من قبل السكان العرب». لاحظت الاستخبارات البريطانية كذلك بداية الإخلاء، ناسبة إياه إلى التدهور العام في الروح المعنوية الذي ولده سقوط طبريا وحيفا العربيتين⁽⁴³²⁾.

وقع أول هجوم بري من قبل البالماخ على صفد العربية في السادس من مايو. وعلى الرغم من فشل الكتيبة الثالثة في الاستيلاء على الهدف الرئيسي، المتمثل في القلعة التي تهيمن على الأحياء العربية، فإنه «أرهب» السكان بدرجة كافية لتوليد المزيد من عمليات الفرار، كما تصاعدت المناشدات العاجلة للحصول على مساعدة خارجية، وبُذلت مساعٍ للتوصل إلى هدنة. غير أن آلون رفض العرض⁽⁴³³⁾. وعلى الرغم من نجاحهم، كان رجال المليشيا العرب والسكان في حالة من «الذعر»⁽⁴³⁴⁾. أثار مآزق صفد العربية موجات من الاحتجاج في العالم العربي، ووصف عزام باشا بدقة هدف الخطة دالت - التي كانت عملية يفتاح جزءاً منها - بقوله:

كان اليهود يتبعون خطة شديدة الوضوح والقسوة... حيث إنهم يقومون الآن بدفع السكان خارج القرى العربية على امتداد الحدود السورية واللبنانية، خاصة الأماكن الواقعة على الطرق التي يمكن للقوات النظامية العربية أن تدخل منها إلى البلاد. وتعرضت كل من عكا وصفد على وجه الخصوص بشكل كبير لخطر الاحتلال اليهودي. وكان من الواضح أنه إذا ما استمر ذلك الأمر فإن الجيوش العربية ستواجه صعوبة كبيرة لمجرد دخولها فلسطين بعد 15 مايو⁽⁴³⁵⁾.

وبادر السوريون بتحذير برودميد من أن:

الموقف في صفد يائس، وإن لم يحدث تدخل بريطاني فوري فستكون هناك دير ياسين ثانية... وفي حالة وقوع مذبحة ستنتقد سورية في جميع أرجاء العالم العربي لعدم تدخلها⁽⁴³⁶⁾.

تبع برقية الوزير السوري رد من لندن شابه ذلك الذي حدث عقب هجوم الإرغون على يافا. وعمد وزير المستعمرات كريتش جونز - بعد مشاورات مفترضة مع بيفن - إلى الترخيص لكانينغهام بالتدخل عسكرياً للحيلولة دون انتصار اليهود:

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

تشعر الدول العربية بقلق كبير إزاء إمكان وقوع كارثة، وأنه من الأهمية بمكان بالنسبة إلى علاقاتنا معهم أن نتجنب وقوع أي شيء من هذا القبيل. إن حدوث ذلك من شأنه أن يفتح الباب بالتأكيد أمام دخول قوات الدول العربية إلى فلسطين قبل نهاية الانتداب. وإذا رأيتم منع ذلك، فإنكم مخولون (مع القائد العام للعمليات) باستخدام كل الوسائل العملية، بما في ذلك الضربات الجوية لإعادة الموقف إلى ما سبق⁽⁴³⁷⁾.

غير أن هجوم الهاغاناه فشل، ولم يتدخل البريطانيون. كما لم يتدخل البريطانيون - قبيل أقل من أسبوع من نهاية الانتداب - ضد الهجوم الثاني والنهائي الذي استهلته الهاغاناه، بدءاً من مساء التاسع من مايو، بقصف كثيف بقذائف الهاون على المواقع الرئيسية. وبعد مرور عدة ساعات - في صباح العاشر من مايو - استولت الكتيبة الأولى التابعة للبالماخ على قرية عكبرة (على بعد 2.5 كيلومتر جنوب المدينة. وكان أغلب القرويين قد فروا منها بالفعل متأثرين بالأخبار عن دير ياسين وسقوط عين الزيتون⁽⁴³⁸⁾). كانت العملية مصممة لمنع وصول التعزيزات إلى صفد من الجنوب، فضلاً عن «خلق شعور بين عرب صفد بأنهم على وشك محاصرتهم، ولن يكونوا قادرين فيما بعد على الفرار». وقد عمدت البالماخ إلى تفجير القرية⁽⁴³⁹⁾.

مما لا شك فيه أن سقوط وتدمير عكبرة كان لهما كبير الأثر في نفس الروح المعنوية في صفد - كما كان كذلك شأن الإطلاق الكثيف لقذائف الهاون. وقد اعتقد بعض السكان بالفعل أن قنابل «ديفيدكا»، المصنعة من قبل الهاغاناه، كانت قنابل «نووية» بسبب الضوضاء الكبيرة التي تحدثها والوميض الكبير عند انفجارها، فضلاً عن قوة القصف غير المعتادة تلك الليلة واليوم التالي⁽⁴⁴⁰⁾. وتمكن مشاة البالماخ بعد القصف، وفي أعقاب معارك ضارية، من السيطرة على القلعة، وبيت شلفا، ومركز الشرطة، وهي المباني الرئيسية في صفد. وعلى الرغم من الدعم الذي قدمه جيش الإنقاذ من خلال المدفعية المتمركزة في ميرون، بدأت العناصر غير النظامية في الفرار. في حين استمرت الهاغاناه طوال يوم العاشر من مايو في قصف الأحياء العربية بقذائف الهاون⁽⁴⁴¹⁾، محدثة «حرائق في منطقة السوق ومحطات البنزين التي انفجرت. خيمت الفوضى على المدينة وبدأ الهروب من جميع أرجاء المنطقة العربية وسط العويل

والصراخ...». ونقل مركز قيادة عملية يفتاح أنه عند الفجر رصدت طائرة استطلاع تابعة للهاغاناه «آلاف اللاجئين متجهين على الأقدام إلى ميرون، فضلا عن تجمع عدة مئات من اللاجئين بالقرب من عين تينا غربي صفد»⁽⁴⁴²⁾. وبعد ذلك بفترة وردت تقارير عن أن بعض القادة «نصحوا» السكان بالفرار⁽⁴⁴³⁾. وذكر آلون أن البالماخ «تركت عن عمد طرق الخروج مفتوحة للسكان «لتسهيل» نزوحهم الجماعي... وشكل الـ 12 ألف لاجئ (طبقا لبعض التقديرات 15 ألفا) عبئا ثقيلا على المجهود الحربي العربي»⁽⁴⁴⁴⁾. ووفقا لأحد التقارير تقدم طابور تعزيزات مكون من 120 عنصرا تابعين لجيش الإنقاذ باتجاه صفد، وقابل في طريقه موجة السكان الراحلين «محملين بالأمثلة، والنساء يحملن أطفالهن بين أذرعهن، البعض سيرا على الأقدام والبعض الآخر على ظهور الحمير والبغال». ولم يكن من شأن هذا اللقاء أن يرفع من روح القوات المعنوية، ونُقل أن أغلبهم فر من صفد بعد الوصول⁽⁴⁴⁵⁾. ومن جانبها، قامت الهاغاناه بإلقاء عدد من القنابل من طائرة استطلاع، كما أطلقت سلسلة من قذائف الهاون على جموع اللاجئين أو بالقرب منهم، ليسرعوا الخطى⁽⁴⁴⁶⁾.

في الحادي عشر من شهر مايو قامت قوات البالماخ بتأمين الأحياء العربية التي باتت خاوية وصادرت «الأشياء التي يمكن أن تكون مفيدة للوحدات المقاتلة»، وحصنت المنطقة ضد من ينوون القيام بعمليات سلب⁽⁴⁴⁷⁾. وفي تلك الأثناء خرج يهود صفد، «ثملين بالبهجة، يرقصون ويغنون في الشوارع»⁽⁴⁴⁸⁾.

شكل غياب أو/ و فرار قادة المليشيا سببا رئيسيا في انهيار المقاومة العربية والنزوح الجماعي. ففي الحادي عشر من مايو اشتكت العناصر غير النظامية الفارة من «خيانة قادتهم الذين فروا في بداية المعركة»⁽⁴⁴⁹⁾. وقد كان فنيش وكم الماز على خلاف لأسابيع. وفي الفترة من 2 - 8 مايو كان الجميعان في زيارة لكل من دمشق وعمان. وفي التاسع من مايو انسحب فنيش (الذي كان ضابطا سابقا في الجيش العربي وطُرد من وظيفته بتهمة الاختلاس وجنده الجيش العربي بعد ذلك)⁽⁴⁵⁰⁾، وغادر بدوره إلى دمشق بناء على تعليمات من الملك عبد الله. وقد أخبر الجميعان لدى عودته سكان المدينة أنه تلقى أوامر بسحب المتطوعين الأردنيين نظرا إلى كون صفد في منطقة السيطرة السورية - اللبنانية. وأقدم بالفعل على الانسحاب في الواحدة من صباح العاشر من مايو، أي قبل ساعات من الهجوم النهائي من قبل

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

البالماخ. والأكثر من ذلك لم يكن أديب الشيشكلي (قائد الكتيبة الإقليمية) في المدينة خلال المعركة، شأنه في ذلك شأن كم الماز، حيث تبين أنهما غادرا قبل الأول من شهر مايو⁽⁴⁵¹⁾.

خلال تطهيرها الأحياء العربية عثرت قوات البالماخ على ما يقرب من مائة مسلم «متوسط عمر ثمانين عاما»، وقد أوضح الحاكم العسكري الذي تم تعيينه في صفد (أفراهام هانوكي من كيبوتس أيلت هاشاهار) أنهم طُردوا إلى لبنان في أواخر الشهر⁽⁴⁵²⁾. ولم يبق سوى 34 - 36 مسيحيا ميزوا أنفسهم عن «العرب الذين هاجروا»، وطالبوا بالبقاء تحت الحكم اليهودي⁽⁴⁵³⁾ رافضين الترحيل من موقعهم⁽⁴⁵⁴⁾. غير أن جهاز استخبارات الهاغاناه رأى في ذلك مخاطرة استخباراتية، وأوصى بنقلهم إلى حيفا⁽⁴⁵⁵⁾. وفي الثالث عشر من شهر يونيو نُقلت تلك البقية الباقية من المجتمع العربي في صفد إلى حيفا وُسلموا إلى ديرين - «فتيات الإحسان للقلب المقدس» و«سيدات الناصرة» - وتحملت لجنة الشؤون العربية في يافا بعض نفقات إعاشتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد أحدث هذا الملف منازعات بيروقراطية مع وزارة الخارجية التي طلبت أن يسمح جيش الدفاع الإسرائيلي لهم بالعودة إلى صفد لـ «تحسين علاقاتنا بالأقليات». كذلك كانت الوزارة قلقة من التأثير المحتمل للطرد في العلاقات مع الكنائس. غير أن الجيش رفض⁽⁴⁵⁶⁾. وعلى غير عادته أصر شيرتوك على موقفه. وفقا لما نقله معاونه، يهوشافات هاركابي، فقد تمثل موقفه في أنه على حين ترفض إسرائيل بشكل مطلق «عودة العرب اللاجئين من خارج إسرائيل، يجب علينا أن نتصرف تجاه العرب في داخل الدولة باعتدال أكبر؛ حيث إنه في ضوء ذلك ستُختبر قدرتنا على حكم أقلية عربية». طالب شيرتوك - الذي حظي بتأييد وزارة شؤون الأقليات - بالسماح على الأقل لعدد من المسيحيين بالعودة⁽⁴⁵⁷⁾. بيد أن الجيش ظل متمسكا بموقفه الرفض على خلفية بدء توطين اليهود الجدد المهاجرين في المناطق المهجورة. وبقيت مجموعة صفد في حيفا، واستمر تقديم الخدمات الاجتماعية لهم من قبل البلدية والعرب المحليين والأديرة. ومن بين أفراد هذه المجموعة كان هناك ثلاثة في الثمانينيات وستة في السبعينيات من أعمارهم. وبحلول ربيع العام 1949 كانوا قد قضاوا نحبهم، ووضِع خمسة في مستشفيات، في حين أصيبت سيدتان بحالة من العته وفقا لما أورده ماريوت⁽⁴⁵⁸⁾.

أضعف سقوط صفد بشكل كبير الروح المعنوية في المناطق الداخلية المحيطة؛ حيث نقل جهاز استخبارات الهاغاناه أنه في اليوم التالي قرر سكان كل من الرأس الأحمر، الجش، صفاف، طيطبا، قديتا، وسعسع «هجر قراهم إذا ما استسلم العرب في صفد»⁽⁴⁵⁹⁾.

بيسان (بيت شيان)

اعتبرت هيئة أركان الهاغاناه وادي بيت شيان، الذي توجد مدينة بيسان في قلبه وتضم 5 آلاف نسمة (وهو الموقع التوراتي حيث قام الفلسطينيون بعرض جثة الملك شاوول بعد هزيمته ومقتله في جبل جلبوع)^(*) - اعتبرتها نقطة محتملة لدخول القوات الأردنية الغازية لفلسطين. وعكست توصيات آلون في الثاني والعشرين من أبريل، والتي قضت بالاستيلاء على المدينة ومضايقة سكانها حتى يفروا، تفكير الهاغاناه في عشية الغزو، وتماشت مع الخطوط العريضة للخطة دالت. كذلك كان هناك ضغط قوي من قبل المستوطنات المحلية لطرد العرب من المدينة وضواحيها. ففي الرابع من مايو جاء وفد من مستوطني وادي بيت شيان ومرج ابن عامر إلى تل أبيب، لإقناع قادة اليشوف بالتحرك في اتجاه بيسان. وخلال أحد الاجتماعات حذر الوفد من أن قوات الجيش العربي قد دخلت المدينة وتقوم بتحسين مواقعها. وحث المستوطنون يوسف ویتز على الضغط على الهاغاناه لشن الهجوم. ووافق الأخير على ذلك قائلا: «إن تفرغ الوادي من العرب مُدرج على جدول الأعمال». وفي تلك الليلة تحدث ویتز إلى شكولنيك الذي وافق بدوره على ضرورة بدء الهاغاناه في الهجوم⁽⁴⁶⁰⁾.

كانت المدينة مُحاطة من كل الجهات بمستوطنات يهودية. وخلال شهري مارس وأبريل كانت السيارات العربية المتجهة إلى بيسان تُمنع من المرور في أغلب الأوقات، كما قُطعت خطوط الهواتف والكهرباء من وقت لآخر. ومع بداية شهر مايو بلغت أسعار الوقود أرقاما خيالية. كما كان لتخريب اليهود صهاريج المياه تأثير مريب.

شنت البالماخ غارة على بيسان في منتصف شهر فبراير دُمر خلالها العديد من المنازل⁽⁴⁶¹⁾؛ وعقب ذلك أرسلت اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية أحمد الجيوسي لتنظيم المليشيا، وقد اشتكى في الثامن عشر من مارس من نقص الأسلحة

(*) جبل فقوعة.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

والذخيرة⁽⁴⁶²⁾. ومن جانبه قاد إسماعيل الفاروقي (أحد موظفي الانتداب) قوة ضمت 60 من عناصر الشرطة. غير أن الجيوسي والفاروقي واللجنة الوطنية كانوا على خلاف دائم⁽⁴⁶³⁾. وقد أدت الأخبار الواردة عن سقوط طبريا وحيفا العربيتين إلى حالة من النزوح الجزئي، فشلت اللجنة الوطنية في إيقافه. واستولت الهاغاناه على مركز شرطة غيشر، إلى الشمال، في السابع والعشرين من أبريل، مما زاد من إضعاف الروح المعنوية⁽⁴⁶⁴⁾. ومنذ الثامن والعشرين من الشهر، عندما سيطر لواء غولاني على معسكر الجيش البريطاني القريب (واحتل رجال المليشيا العرب مركز شرطة المدينة) وضع الهاغاناه بيسان تحت حصار متقطع⁽⁴⁶⁵⁾. ومن جانبه نجح جيش التحرير العربي في تدعيم المدينة بعدد يتراوح بين 150 و200 من العناصر غير النظامية⁽⁴⁶⁶⁾. وتم إجلاء معظم النساء والأطفال إلى نابلس وطوباس والأردن، في حين لم يُسمح للذكور البالغين بالمغادرة⁽⁴⁶⁷⁾. وكان هناك نقص شديد في الأطباء والدواء⁽⁴⁶⁸⁾.

في ليلة 10|11 مايو احتلت وحدات غولاني القريتين الرئيسيتين التابعتين للمدينة: فرونة والأشرفية، ومع اقتراب القوات فر السكان إلى الأردن. وبدأ خبراء المتفجرات في الهاغاناه في تدمير المنازل. وفي الليلة التالية قصفت وحدات غولاني بقذائف الهاون بيسان واقتحموا تل الحصن، تل يطل على المدينة من الشمال. وبدأ أن الفاروقي قد فر تلك الليلة آخذا معه مبلغ 9 آلاف جنيه إسترليني من حصيلة الضرائب⁽⁴⁶⁹⁾. وخلال المعركة على تل الحصن أجرى ضابط من الهاغاناه اتصالا هاتفيا بمركز قيادة مليشيا بيسان و«نصحهم» بالاستسلام، وهو ما رد عليه ضابط في المليشيا بتحدٍّ. غير أنه بعد سقوط التل ناشد العرب بشكل متكرر الهاغاناه التوصل إلى وقف لإطلاق النار، وهو ما وافقت عليه الأخيرة خلال اجتماع عُقد صباح يوم 12 مايو وفقا للشروط التالية: تسليم الأسلحة وطرد العناصر غير النظامية الأجنبية⁽⁴⁷⁰⁾، وأخبر العرب «أن أي ساكن يرغب في البقاء ... يمكنه ذلك»⁽⁴⁷¹⁾؛ وأولئك الراغبون في الرحيل سيُمنحون مرورا آمنا، وهو ما رد عليه الأعيان - حنا النمري، هاشم الصلح، والعمدة رشاد درويش - بأنه يلزمهم الحصول على موافقة المركز الرئيسي في نابلس (أو جنين)، وتوجه وفد منهم إلى المثلث. وفي تلك الأثناء فرت قوات جيش التحرير العربي وأغلب السكان إلى الأردن بشكل رئيسي. وأعلن الأعيان استسلام المدينة ودخلت القوات الإسرائيلية في اليوم التالي⁽⁴⁷²⁾.

بقي في المدينة 1000 - 1200 ساكن⁽⁴⁷³⁾، وهو عدد كبير كان من شأنه أن يصيب ويتز بالحزن⁽⁴⁷⁴⁾. وزودتهم الهاغاناه بالماء والطعام⁽⁴⁷⁵⁾. كما أعلنت الأحكام العرفية وحظر التجوال، وعمد الجيش إلى جمع الأسلحة، وعُيِّنت لجنة من المستوطنين اليهود للإشراف على الممتلكات والحياة في المدينة. كما عُيِّن شمويل غوفرين حاكما مدنيا، إلى جانب قوة شرطة عربية⁽⁴⁷⁶⁾.

شكل وجود مثل هذا التجمع للعرب مباشرة خلف خطوط الجبهة، وعملية الذهاب والإياب المستمرة للمقيمين في بيسان - والذين قاموا بسلب المنازل المهجورة - مصدر قلق لقادة الهاغاناه، الأمر الذي دفعهم إلى طلب الترخيص لهم بطرد السكان الباقين، وهو ما حصلوا عليه على الأرجح من رئاسة أركان الهاغاناه. «كان هناك خطر أن يقوم السكان بالثورة في الخطوط الخلفية إذا ما أحسوا بتغيير في الموقف العسكري لمصلحة الغزاة العرب، لذا صدر خلال أيام أمر بطرد السكان من المدينة»، ونُفذ ذلك في نحو الخامس عشر من مايو عبر الأردن⁽⁴⁷⁷⁾.

كتب غوفرين لاحقا:

تلقيت أمرا بإخلاء المدينة من العرب، وانتقلنا من منزل إلى منزل وأخبرنا سكان المدينة عبر مكبرات الصوت بأن عليهم الرحيل بحلول صباح اليوم التالي. كانوا في حالة رعب كبيرة، لم تكن هناك سيارات متوافرة، مما اضطرني إلى أن آمرهم بالرحيل سيرا على الأقدام إلى جسر الشيخ حسين ليعبروه. كان من الصعب علي رؤية كبار السن بأحمالهم والنساء والأطفال. لقد كان الطرد صعبا - ليس عنيفا ولكنه صعب... ولقد أعطيتهم الطعام، وكان القس هو آخر من رحل... فجأة خلت المدينة وتحولت إلى مدينة أشباح تُحيطها الألغام⁽⁴⁷⁸⁾.

قام غيورا، الضابط في الإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه، بزيارة المدينة في الثامن عشر من مايو، ونقل أن المدينة «فارغة تماما»، فيما عدا 300 شخص، الكثير منهم مسلمون. وثبت المفتشون اليهود علامات صفراء على أبواب المحال في إشارة إلى أنها فُتشت؛ ومن جانبهم تجول المفتشون العرب من مكان إلى آخر واضعين على أذرعهم شارات صفراء اللون. وقد علق غيورا على ذلك بقوله إن ذلك ذكره بـ «شارة

العار»^(*) التي كان «يرغب لو جرى تجنبها». وفي حين استقبله كل من القاضي المحلي والعمدة رشاد بطريقة ودية؛ حيث مدح الرجلان سلوك حاكم المدينة، فإن رشاد بدا «مُحبطاً للغاية» وفقاً لتعليق غيور⁽⁴⁷⁹⁾. وفي الثامن والعشرين من مايو خُيّر السكان المتبقون بين الترانسفير إلى الأردن أو الناصرة (التي كانت في ذلك الوقت خارج الأراضي اليهودية). وقد فضلت الأغلبية، ربما المسيحيون، الناصرة، ونقلتهم إليها حافلات قوات الدفاع الإسرائيلية في اليوم ذاته⁽⁴⁸⁰⁾. وعادت بيسان لتصبح بيت شيان.

للإبقاء على المدينة يهوديةً، بدأت الهاغاناه بشكل منهجي في وضع الألغام على مداخلها وفي أزقتها، لمنع التسلل إليها مجدداً. وفي العاشر من شهر يونيو نقل قائد في الهاغاناه أنه في الليلة السابقة تسبب عدد من العرب الذين يسعون إلى النهب (وكذلك كلاب وحمير) في تفجير ما لا يقل عن أحد عشر لغماً، مما أسفر عن خسائر بشرية وجرحى قماشت مع حجم الانفجارات⁽⁴⁸¹⁾. وكان المنفيون الذين حاولوا العودة - وقاموا كذلك بحرق ونهب المباني⁽⁴⁸²⁾ - مدفوعين بالجوع والفقر⁽⁴⁸³⁾.

تحت تأثير النزوح الجماعي من المدينة، فضلاً عن الضغوط التي مارستها الهاغاناه، غادر العرب المتبقون، وأغلبهم من البدو، وادي بيت شيان إلى الأردن أو منطقة جنين. كذلك فر سكان قرى الحميدية (شمال المدينة)، والسامرية (إلى الجنوب) من البلاد في الثاني عشر من شهر مايو⁽⁴⁸⁴⁾ (تلقت الحميدية تعليمات «من مركز قيادة العناصر غير النظامية» بالإجلاء في 30 مارس، غير أنهم لم يلتزموا بها)⁽⁴⁸⁵⁾. وكانت المحصلة هي أن ما سبق أن رغب فيه ويتز والمستوطنات المحلية قد تحقق بالفعل. وفي هذا الصدد كتب ديفيد يزهار، أحد المشاركين في كتابة التاريخ الرسمي لحملات لواء غولاني في العام 1948: «للمرة الأولى... أصبح وادي بيت شيان واديا يهوديا خالصاً»⁽⁴⁸⁶⁾.

عكا

وفقاً لقرار التقسيم كان من المقرر أن تقع مدينة عكا، التي تراوح عدد سكانها بين 12 ألف نسمة و15 ألفاً، تحت السيادة العربية. غير أنه منذ البداية كان السكان يخشون وقوع هجوم يهودي. وكما كانت عليه الحال في يافا، عارض أغلب أعضاء

(*) إشارة إلى النجمة الصفراء التي أُجبر اليهود على وضعها على ملابسهم لتمييزهم أثناء الحكم النازي في أوروبا. [المحررة].

اللجنة الوطنية بمن فيهم العمدة حسين حليفي شن هجمات ضد الأحياء أو المواصلات اليهودية خوفا من الأعمال الانتقامية. بيد أن العناصر غير النظامية المحلية والأجنبية استخفت بذلك⁽⁴⁸⁷⁾. في العشرين من شهر يناير قام أعضاء في اللجنة الوطنية بزيارة السميرية، إلى الشمال، وحذروا القرويين من الدخول في صدامات مع جيرانهم (ريغبا وشافي زيون)، موضحين أن اليهود يمكنهم أن يقطعوا طريق عكا - لبنان في تلك الحالة⁽⁴⁸⁸⁾. وفضلا عن ذلك طلب حليفي من الشرطة البريطانية التوسط للوصول إلى وقف إطلاق نار فوري⁽⁴⁸⁹⁾. ترتب على الأكملة التي نصبها اليهود خارج المدينة إقدام عناصر الميليشيات على الانتقام، ما أدى إلى مقتل سائق يهودي. وقد أدت دائرة العنف المتبادل إلى رحيل «العديد من العائلات» من المدينة⁽⁴⁹⁰⁾. في منتصف شهر مارس نجحت قوات الهاغاناه في عزل عكا نتيجة لتدميرها سلسلة من الجسور، مما منع الناس من الذهاب إلى أعمالهم، وأدى إلى زيادة معدلات الاعتداءات على الممتلكات⁽⁴⁹¹⁾. ونقل جهاز استخبارات الهاغاناه أن الدقيق لم يتوافر حتى وصلت شحنة كبيرة في الثامن من شهر إبريل. ومع ذلك توافرت اللحوم والخضراوات بشكل كبير⁽⁴⁹²⁾. ومجددا سعت اللجنة الوطنية للتوصل إلى هدنة⁽⁴⁹³⁾.

انعكست معركة السيطرة على حيفا والنزوح الجماعي منها على الحياة في عكا، فعلى مدار أسبوعين تقريبا عمت الفوضى التامة. وبادرت الهاغاناه بقطع الماء والكهرباء عن المدينة، وبلغت أسعار السلع أرقاما فلكية. وظهرت أزمة في الإمداد بالوقود والتزود بالدقيق، وتحولت عكا بين ليلة وضحاها إلى محطة وسيطة رئيسية ومركز استيعاب ضخم للاجئين. وزودت اللجنة الوطنية الأشخاص بالمساعدات المؤقتة والطعام المجاني من احتياطات المدينة المخصصة لمواجهة حالات الطوارئ⁽⁴⁹⁴⁾. أشاع الهجوم الذي شنته الهاغاناه في 25|26 أبريل - والذي سقطت خلاله قذائف الهاون بكثافة في مركز المدينة - حالة من الاهتياج بين السكان على الرغم من أنه أسفر فقط عن جرح شخصين وإيقاع الخسائر بأربعة منازل (وفر المساجين «فيما عدا المجانين»)⁽⁴⁹⁵⁾؛ وفي السادس والعشرين من أبريل كتب أحد السكان:

غادر أغلب السكان أو كانوا على وشك المغادرة. ربما نتوجه إلى بيروت.

جرت الاستعدادات للرحيل في صفوف كل الطبقات: الأغنياء، الطبقة المتوسطة

والفقيرة - الجميع يستعدون للرحيل ويبيعون كل ما يمكنهم بيعه. ففي

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

أعقاب إجلاء حيفا، الحواصة، وبلد الشيخ... ارتفع سكان عكا إلى 50 ألف نسمة وسادت المدينة درجة عالية من التوتر⁽⁴⁹⁶⁾.

رصدت استخبارات الهاغاناه الأوضاع المزريّة في المدينة؛ حيث كان اللاجئون ينامون في المساجد و«الشوارع والمقاهي»⁽⁴⁹⁷⁾. وكان الموقف مضطرباً: هرب الأغنياء، انهارت الحكومة المحلية، وسيطرت على المدينة مليشيات متنافسة (برئاسة خليل كلاس، محمود الصفوري، موسى النجمي، أحمد الطوي)⁽⁴⁹⁸⁾. وفي هذا الصدد كتب كارميل قائلاً: «انتشرت البطالة وعم الخوف والقذارة والجوع»⁽⁴⁹⁹⁾. وكان من شأن إرسال جيش الإنقاذ تعزيزات للمدينة في نهاية شهر أبريل أن يزيد من توتر السكان الذين رأوا في ذلك مؤشراً على معركة وشيكة⁽⁵⁰⁰⁾.

دفع سقوط حيفا وما تبعه من آثار البريطانيين إلى السعي لتجنب سقوط عكا قبل موعد انسحاب قواتهم. تدخل البريطانيون بشكل متكرر في نهاية شهر أبريل لمواجهة الهجمات اليهودية على المدينة. وعلى الرغم من ذلك استمرت عملية النزوح الجماعي إلى لبنان. وخلال الأيام الأولى من شهر مايو انسحبت القوات البريطانية من المعسكرات حول المدينة كجزء من عملية الانسحاب إلى منطقة حيفا، مما أدى إلى تصاعد معدلات البطالة الذي زاد بدوره من إضعاف الروح المعنوية في المدينة⁽⁵⁰¹⁾.

كان بدء ظهور مرض التيفوئيد (الذي جاء ربما نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لعمليات الهاغاناه والتي أجبرت السكان على حفر آبار مياه غير صحية)⁽⁵⁰²⁾ من بين العوامل التي ساعدت في الإسراع من عملية الفرار. وقد توقع المراقبون البريطانيون، في نهاية شهر أبريل، انتشار المرض في المدينة ذات الكثافة السكانية العالية⁽⁵⁰³⁾. وعبر كانيغهام عن خشيته من «ظهور عدد كبير جداً من حالات الإصابة» بالتيفوئيد، وفي واقع الأمر تدهورت الأوضاع في المدينة في بداية شهر مايو إلى الحد الذي رغب معه العديد من اللاجئين في العودة إلى حيفا، وقد منعهم من القيام بذلك «حملة ضخمة من الدعاية المناهضة للعودة»، وفقاً لما أورده البريطانيون. وفي الوقت ذاته، رأى كل من كانيغهام والهاغاناه والسلطات المدنية في حيفا مثل هذه العودة أمراً «لا يُنصح به» على وجه التحديد خوفاً من انتشار الوباء⁽⁵⁰⁴⁾. بيد أنه سرعان ما تم احتواء المرض. وقدر جهاز استخبارات الهاغاناه أن

رئيس جهاز استخبارات الهاغاناه في الشمال، بأن يُطرد اللاجئون الذين مثلوا ما يقرب من ثلثي سكان المدينة⁽⁵²²⁾. ومن جانبه سجل الضابط غيورا ملاحظات حول عمل وحدته - الذي تضمن تفتيش المقاتلين، وتسليم الرخص من بين أشياء أخرى - قائلا: «لا أعلم ماذا كانت عليه السياسة أو ما إذا كانت أقرت سياسة تتصل بكيفية معاملة السكان المحليين». وخلال هذه الأثناء كان يرفض طلبات قدمها لاجئون من حيفا للعودة إلى ديارهم⁽⁵²³⁾.

خلال الأسابيع التي تلت الاستيلاء على المدينة، وصف ممثل للصليب الأحمر عرب عكا كمن يعيش «تحت نظام رعب»، في ظل حياة اقتصادية مصابة بالشلل⁽⁵²⁴⁾. ومن جانبه وصف ضابط بجهاز استخبارات الهاغاناه المدينة بأنها «تقريبا ميتة»⁽⁵²⁵⁾. في حين قالت صحيفة الحزب الشيوعي الإسرائيلي (الاتحاد) بأن سكان عكا يعيشون في «قفص»، ويجري استغلالهم من قبل الأعيان المتعاونين مع السلطات⁽⁵²⁶⁾.

امتدت خطوط المواجهة خلال الهدنة الأولى (11 يونيو) بين الهاغاناه وقوات الدفاع الإسرائيلية وجيش الإنقاذ على طول 7 - 10 كيلومترات إلى الشرق من عكا. ومع اقتراب الهدنة من نهايتها لاحت في الأفق نذر المواجهات، مما دفع بقيادة الجهة الشمالية في قوات الدفاع الإسرائيلية إلى التفكير في طرد سكان عكار، إما إلى يافا وإما إلى ما وراء الحدود؛ حيث لم ترغب قوات الدفاع في وجود تركز كبير للسكان المدنيين العرب مباشرة خلف خطوطها، كما أنها افتقرت إلى القوة البشرية لمراقبة هؤلاء السكان. وقد سأل الجيش وزارة الخارجية عن رأيها، ونقل ياكوف شيموني (القائم بأعمال مدير إدارة الشرق الأوسط) الأمر إلى شيرتوك. ووفقا للأول فإنه «لم يكن لدى شيرتوك أي اعتراض من حيث المبدأ على نقل السكان العرب من عكا إلى أي مكان آخر (يافا) لتخليص جنودنا من العبء...». ولكن السؤال الرئيسي تمثل فيمن سيعتني بهم؟ اتصل شيموني بـ شترت في هذا الخصوص⁽⁵²⁷⁾. واستاء الأخير؛ حيث كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها عن عملية طرد محتملة لسكان عكا - فبعد كل شيء، فهم كانوا ضمن دائرته. وفي واقع الأمر كان هناك أمر قائم من رئاسة أركان قوات الدفاع الإسرائيلية في هذا الخصوص (بتاريخ السادس من يونيو - انظر ما يلي)، كما أخبر شيموني، بأن:

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

لن تُقتل جذور أي تجمعات سكانية ... من دون أمر كتابي من وزير
الدفاع... وما لم يصدر وزير الدفاع أمرا مكتوبا، فإنه يتعين على سلطات
الجيش المحلية عدم إجلاء سكان مدينة كاملة بما يحمله ذلك من معاناة
وتشتيت للنساء والأطفال وكبار السن.

وأوضح شتريت أنه لا يمكن طرد السكان. كما أنه لا يمكن أن تصبح يافا أرضا
يُلقى فيها بالمنقولين. فضلا عن أن وزارته لا يمكنها أن تتحمل أعباءهم المعيشية.
وأخيرا فإن هناك احتياجا إلى منازل يافا الخالية لإيواء اليهود⁽⁵²⁸⁾.
لم يقتصر شتريت على تقديم الحجج، بل سعى وحصل على مساندة قوية
من وزير المالية كابلان؛ حيث وصف الأخير مقترح الطرد بأنه «غريب»⁽⁵²⁹⁾.
وتمسك شتريت بموقفه متحديا بن غوريون أن يصدر قرارا صريحا بنقل
السكان. وبالفعل تراجع بن غوريون عن الفكرة. ومن الجدير بالذكر أنه طوال
عام 1948 تجنب بن غوريون على الدوام أن يصدر شخصا أوامر صريحة
بالطرد أو النقل.

الريف

خلال عملية النزوح الجماعي من الريف زار ويتز المنطقة المحيطة بكيوتس
مشمار هعيمك؛ حيث وجد القرى العربية في حالة «خراب. لم يتبق بها أحد،
المنازل والأكواخ مدمرة تماما... ومن بين الحطام تعالت صيحات الدجاج المهجور،
كما يتخبط حمار بائس ووحيد في طرق القرية»، وهو ما دفعه إلى التساؤل: لماذا
رحل العرب؟

بعيدا عن التحليل النفسي للخوف... هُجرت القرى، الواحدة تلو الأخرى،
في حالة ذعر لا يمكن وصفه... فقرى السهل الساحلي كانت تُفرغ بشكل
مطرد. وبين تل أبيب وحديرا لا يمكن للفرد أن يجد اليوم عربيا واحدا، وخلال
الأيام الماضية غادر عديدون القرى الكبرى حول تل أبيب.

وذهب ويتز إلى أن ذلك كان للأفضل، «فمجرد وجود كثير من اللاجئين بين
العرب يضعف من موقفهم ويجعل من نصرنا أكثر قربا»⁽⁵³⁰⁾.

كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى المدن، فإن إجلاء القرى في الفترة أبريل - مايو أعقب الهجمات اليهودية بشكل مباشر - وكان بسببها بدرجة كبيرة. عادة ما أعقب النزوح الجماعي تتابع الهجمات اليهودية في كل منطقة، غير أن الضغط العسكري العربي - في المناطق الرئيسية - هو ما دفع الهاغاناه إلى شن مثل تلك الهجمات بشكل سابق لأوانه، والتي اعتُبرت - بأثر رجعي - بدايات لتنفيذ الخطة دالت، والتي تضمنت للمرة الأولى الاستيلاء والاحتلال الدائم لمساحات من الأرض وطرده مجموعات من المجتمعات العربية.

عملية نحشون

خلال الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 قامت عناصر غير نظامية ومليشيات في القرى التي تهيمن على النصف الشرقي من طريق تل أبيب - القدس (بما في ذلك دير محسين، بيت محسير، صوبا، القسطل، قالونيا) بشكل متقطع بمهاجمة وسائل النقل اليهودية المتوجهة من وإلى القدس. وبنهاية شهر مارس كانت القدس اليهودية - على الرغم من التدخل البريطاني المرحلي - تحت الحصار، وكان سكانها البالغ عددهم 100 ألف نسمة يضغطون بشدة للحصول على الطعام والوقود والذخيرة. في ليلة 31 مارس - 1 أبريل قرر بن غوريون ورئاسة أركان الهاغاناه أن تكون الأولوية الأولى للهاغاناه تخفيف الضغط عن القدس، ومن جانبهم ناشد ممثلون عن يهود القدس الوكالة اليهودية القيام بـ «عمل فعلي». «إن الجماعة جائعة بالفعل وإذا، لا قدر الله، انكسرت معنوياتها فسيكون هناك خطر لانهايار شامل في خط قتال الهاغاناه الأول»⁽⁵³¹⁾. عُيِّنت قوة قوامها 1500 جندي، بناء على تعليمات بن غوريون، لشن أضخم هجوم يهودي حتى ذلك التاريخ، بهدف دفع العديد من القوافل إلى القدس. ومن الناحية الإستراتيجية - كما ذكر ضابط رفيع المستوى في الهاغاناه لاحقاً - مثلت نحشون مرحلة انتقالية بين المنهج الدفاعي المُسيس الذي اتُبع سابقاً والملتص بتأمين القوافل اليهودية من خلال تزويدها بحراسة، والمنهج العسكري القائم على حماية القوافل من خلال الاستيلاء والتحكم في الطرق ذاتها والمرتفعات التي تهيمن عليها⁽⁵³²⁾. وخلال العملية - التي استمرت أسبوعين - تلمست الهاغاناه طريقها نحو إستراتيجية جديدة.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

عُين شمعون أفيدان (قائد لواء غيفعاتي) قائدا لعملية نحشون. وقد اتسمت أوامره الميدانية الأولى بقدر كبير من التردد. ففي أول تلك الأوامر (2 أبريل) تحدث فقط عن نصب «كمائن» بالقرب من القرى العربية التي تُستخدم كقواعد بغية منع العناصر غير النظامية من الوصول إلى القوافل اليهودية ومهاجمتها⁽⁵³³⁾. وكان الأمر التنفيذي الحقيقي الصادر في 3 أو 4 أبريل بدوره ملتبسا فيما يتصل بالأهداف. فقد نصت مقدمته على أن «يجري التعامل مع جميع القرى العربية الواقعة على طول المحور (خُلدة - القدس) كجماعات عدائية أو كقواعد هجومية» (حددت الخطة دالت أنه إذا ما أبدت القرى المشار إليها مقاومة، يتعين تدميرها وطرد سكانها). وخلال الفترة الأولى من عملية نحشون دعت الأوامر إلى الاستيلاء على ثلاث قرى عربية تقع على المدخل الغربي للممر المؤدي إلى القدس - دير محسين، خلدة، صيدون. أما فيما يتصل بالمناطق الأخرى، فقد تحدث الأمر فقط عن إقامة كمان أو مواقع فوق قمم التلال بالقرب من القرى (مثل السريس وبيت ثول) لمنع عناصر المليشيات فيها من الوصول إلى الطريق أو القواعد التي أجلاها الجيش البريطاني في وادي سرار⁽⁵³⁴⁾. عكس الأمر بشكل كبير الغموض الذي ساد القيادة العليا فترة قصيرة فيما يتصل بكيفية التعامل مع القرى العربية. وفي الثاني من أبريل تحدث غاليلي عن التحول من الدفاع المنتشر إلى الهجوم المركز، مع دخول الهاغاناه في «عمليات استيلاء واحتلال»⁽⁵³⁵⁾. غير أنه كتب بشكل مختصر في الخامس من الشهر ذاته: «أصدر قرار بالسيطرة على القرى من القدس إلى باب الواد إذا ما كان السكان هجروها، وإذا ما كان من الممكن تفادي الصدام مع الجيش البريطاني»⁽⁵³⁶⁾. وفي اليوم السابق، حوّل يادين (قائد عمليات الهاغاناه) إصدار تعليمات إلى قوات نحشون لتحاول «كلما كان ذلك ممكنا اتخاذ مواقع بالقرب من القرى وعدم الاستيلاء عليها، وفي حال عدم توافر مثل هذه الإمكانية فعلها الاستيلاء على القرى»⁽⁵³⁷⁾. فقد كان يادين لايزال مضطربا أمام فكرة الاستيلاء على قرى، وباستفساره من قادته السياسيين، أجاب غاليلي:

1 - إذا ما تطلب تأمين طريق القدس سيطرة وحداتنا على قرى تخلى عنها سكانها فإنه يلزم القيام بذلك.

2 - فيما يتصل بالقرى التي لم يهجرها سكانها، ويتطلب تأمين الطريق عزلها أو تطويقها وتخويقها من قبل وحداتنا، فإنه يلزم القيام بذلك.

وإذا تدخل الجيش البريطاني وأمر الهاغاناه بالجلء عن القرى، فيتعين عليها اتباع تكتيكات لكسب الوقت - ولكن في نهاية المطاف يجب الاستجابة⁽⁵³⁸⁾. وقد عكست تلك المراوغة الخوف من التدخل البريطاني.

بدأت عملية نحشون عمليا باستيلاء الفرقة الرابعة من البالماخ - من دون مقاومة - على القسطل ليلة 2|3 أبريل. وقد كانت تلك القرية - التي تهيمن على الطريق إلى القدس - منخرطة في القتال على مدار أسابيع. ففي السادس عشر من شهر مارس أغارت عليها قوات البالماخ. وفي الأول من أبريل هاجمت عناصر المليشيا مواقع يهودية بالقرب من حي موتسا، مما دفع الهاغاناه إلى الرد بإطلاق نيرانها. أدى ذلك إلى هروب أغلب سكان القسطل خشية الانقضاض على القرية ليلا. ومن جانبها خشيت الهاغاناه أن تقدم العناصر غير النظامية على احتلال القرية، ومن ثم بادرت قوات البالماخ بدخولها في الساعات الأولى من صباح 3 أبريل⁽⁵³⁹⁾. كانت التعليمات الصادرة للقوات تفيد بأنه «إن لم تكن هناك مقاومة، فلا تفجروا منازل القرية». وكان ذلك متماشيا مع التوجيهات العامة في الخطة دالت التي قضت بعدم تدمير القرى التي لم تبد مقاومة. غير أن قائد القوات في الموقع ذهب ضد هذا الأمر قائلا إن ترك المنازل سليمة من شأنه «أن يجعل من الدفاع عن المدينة أمرا صعبا»⁽⁵⁴⁰⁾. ومع ذلك فإن الحصول على تعليمات تسمح بمحو القرية لم يكن أمرا مسلما به، مما حدا بالقائد المحلي لقوات البالماخ يوري بن أري، على توصيف عدم تدمير القرية على أنه «خطأ فادح»⁽⁵⁴¹⁾. وبالفعل في الثامن من أبريل أعادت العناصر العربية غير النظامية الاستيلاء على الموقع بعد شنّها هجمات متكررة؛ وكان من بين العرب الذين قتلوا في المعارك عبد القادر الحسيني، القائد الفلسطيني لحي القدس، حيث أطلقت النار عليه وهو يسير في اتجاه منزل تسيطر عليه البالماخ خلال فترة هدوء القتال⁽⁵⁴²⁾. في التاسع من أبريل، وبعد سقوط القرية مرة أخرى في أيدي البالماخ إثر هجوم جديد صُحح «الخطأ» (التمثل في عدم تدمير القسطل بعد السيطرة الأولى عليها)، حيث بدأت عملية «تدمير جميع المنازل التي لا حاجة إليها في الدفاع عن المدينة»، وفقا لما قاله قائد القوات⁽⁵⁴³⁾.

تحققت الاستفادة من درس قسطل في مواقع أخرى. ففي الحادي عشر من أبريل استولت وحدات البالماخ على قالونيا المجاورة، التي هرب سكانها في الثاني من أبريل، وكانت تحت سيطرة قوات أجنبية. تضمنت التعليمات الصادرة للمهاجمين قتل كل من يجدونه وتدمير القرية. وربما يكون بعض العرب قد لقوا حتفهم خلال الهجوم؛ والبعض الآخر الذين وُجدوا في الموقع - يبدو أنهم شملوا مصريين، وعراقيا، وبريطانيا (عرفته البالماخ باسم تيلور؟) قُبض عليهم وأعدموا. قضت وحدات الهاغاناه طوال اليوم واليوم التالي في تدمير القرية. وشمل ذلك 55 منزلا «مما ترك أثرا كبيرا في المنطقة...»⁽⁵⁴⁴⁾. وذكر صحافي غربي صاحب القوات:

عندما غادرتُ كان خبراء المتفجرات يفجرون المنازل. انفجرت المباني
المصنوعة من الأحجار الصلبة الواحد تلو الآخر. وعلى مقربة من القدس
مازلت أسمع أصوات الانفجارات تتردد في المرتفعات؛ وفي مكان ما موحش
وبعيد مازال يتعالى عواء خافت من كلب القرية⁽⁵⁴⁵⁾.

مع البداية الرسمية لعملية نحشون، في السادس من أبريل، سقطت كل من خُلدة ودير محيسن في أيدي قوات الهاغاناه. وبعد معارك القسطل تلاشى التردد فيما يتصل بمصير القرى ليحل محله تصميم واضح ومحدد، وتغير مناسب في المصطلحات المستخدمة. ففي العاشر من الشهر دعت التعليمات الصادرة عن الهاغاناه إلى «تصفية» القرى⁽⁵⁴⁶⁾. ومع حلول الرابع عشر من الشهر أمر مركز قيادة عملية نحشون - في إطار «عمليات التطهير» - بشكل عام «باستمرار أنشطة التخويف والتطهير كمرحلة أولى في عمليات تهدف إلى تدمير قوات العدو والاستيلاء على قواعده [القرى]». وقد حدد الأمر تدمير قواعد العدو في: القباب، عاقر، بدو، بيت سوريك، بيت إكسا، بيت محسير، صوبا، والرملة⁽⁵⁴⁷⁾. في الخامس عشر من شهر أبريل أصدر مركز قيادة نحشون سلسلة من الأوامر المحددة: أمر للفرقة الثانية بمهاجمة قرية بيت سوريك «بغرض المحو والتدمير والإحراق للمباني»⁽⁵⁴⁸⁾، أمر للفرقة الأولى «بمهاجمة قرية بيت جيز» بغرض المحو والتدمير والاحتلال المؤقت، وتدمير «7 منازل على الأقل في القباب»⁽⁵⁴⁹⁾. أمر للفرقة الثالثة بمحو وتدمير قرية سجد⁽⁵⁵⁰⁾. في السادس عشر من شهر أبريل استولت قوات نحشون على قرية السريس ودمرتها

«بما في ذلك المسجد والمدرسة»، قبل أن تنسحب منها⁽⁵⁵¹⁾. وانتهت العملية بشن غارات على بدو وبيت سوريك في 19 - 20 أبريل وتسوية خلدة العربية بالأرض في العشرين من الشهر.

مثلت عملية نحشون حدا فاصلا من الناحية الإستراتيجية، وتميزت بتوافر النية وبذل الجهد لتطهير منطقة كاملة بشكل دائم من القرى المعادية، أو التي يمكن أن تكون كذلك. فتدمير قرى الممر للقدس كان يرمز ويجسد نهاية عملية التحول في إستراتيجية الهاغاناه، وعكس ذلك التغيير الأوامر المتوالية الخاصة بالتعامل مع قرية القسطل: فالأمر الصادر من لواء أتزيوني في 2 أبريل بعدم تدمير القرية إذا لم تكن هناك مقاومة سرعان ما حلت محله أوامر أخرى في الفترة من 8 إلى 10 بتسوية القرية بالأرض (كذلك الحال بالنسبة إلى قالونيا المجاورة). ومن الناحية العملية فإن ما تضمنته الخطة دالت من النص على ترك القرى التي لا تبدي مقاومة استبدال به قرار تدمير قرى في المناطق ذات الأهمية الإستراتيجية، أو التي تمتد على الطرق الحيوية بغض النظر عما إذا كانت مقاومة أم لا. وقد قدمت حالة القسطل دليلا قويا ومكلفا على ضرورة استخدام الأسلوب الأكثر قسوة؛ فالقرى التي تُترك في حالة سليمة يمكن أن تتحول سريعا لتصبح قواعد عربية. منذ البداية - نتيجة إدراكهم إمكان التدخل البريطاني - فكر مخططو عملية نحشون في تأمين الطريق من خلال احتلال مواقع على التلال المطلة عليها وفي القرى المهجورة، فضلا عن نصب أكمنة بالقرب من القرى التي يمكن أن تنطلق منها المليشيات المسلحة. بيد أنه خلال عملية التنفيذ غيرت رئاسة أركان الهاغاناه والمركز الرئيسي لعملية نحشون تلك الإستراتيجية من خلال إصدار أوامر باحتلال أو تدمير قرى مثلت، أو يمكن أن تمثل خطرا على قوافل النقل. ومنذ 9 - 10 أبريل فصاعدا كان التركيز في أوامر مركز قيادة العملية على تسوية القرى بالأرض، وهو ما تضمن بطبيعة الحال إجلاء أو طرد قاطنيها، كما أنه شكل ضمانة على ألا يبقى للسكان أو للعناصر النظامية مكان يمكنهم الرجوع إليه.

كان للتغير الاستراتيجي خلال عملية نحشون مغزى أوسع. فإذا كان اليشوف في بداية الحرب قبل (على مضض) بالإقرار بدولة يهودية ذات أقلية عربية ضخمة ولكن مسالمة، فقد تغير تفكير الهاغاناه بحلول أبريل بشكل جذري: إن الضريبة

الفادحة من أرواح اليهود والأمن خلال معركة الطرق والمشهد الأليم لغزو عربي محتمل كلها عوامل وضعت اليشوف في موقف لا يتوافر فيه سوى هامش ضئيل للأمن. لم يكن باستطاعة اليشوف تحمل الإبقاء على جيوب من العرب الناشطين الذين يمكن تحويلهم إلى أعداء وراء خطوطه، وكان ذلك بالتأكيد صحيحا بالنسبة إلى الطرق والمناطق الحيوية مثل ممر القدس. وعلى الرغم من أن توجيهات شاملة تتضمن الطرد لم تصدر على الإطلاق، وأنه لم تصل قادة القوات على الجبهة أوامر سريعة وقاسية بطرد «العرب» أو «تسوية القرى بالأرض»، فإن المنتج الديموغرافي للخطوة دالت كان مقبولا من أغلبية قادة الهاغاناه في تلك الفترة الحاسمة التي واجه فيها اليشوف معركة حياة أو موت، مما تطلب البعد عن الأساليب الرقيقة في التعامل، وهو ما حدث بالفعل. وقد تُرجمت عملية التغيير تلك في أوامر نحشون، والتي انتقلت من التردد (3 - 6 أبريل) إلى تسوية القرى بالأرض والتصميم على الطرد (8 - 15 أبريل).

نجحت عملية نحشون بشكل جزئي؛ حيث إنها استطاعت، فترة قصيرة، فتح طريق تل أبيب - القدس، مما مكن الهاغاناه من الدفع بثلاث قوافل إمداد ضخمة من خلاله إلى المدينة المحاصرة. غير أن المرتفعات وبعض القرى سرعان ما عادت إلى سيطرة العناصر غير النظامية، وأُغلق الباب إلى القدس مجددا، الأمر الذي أدى إلى القيام بعمليات أخرى، تبعت نحشون، في النصف الثاني من شهر أبريل وخلال شهر مايو تحت مسميات هاريل، ييفوسي، ماكابي، هدفت جميعا إلى إعادة تأمين وتوسيع نطاق القبضة اليهودية على الممر وانتزاع مناطق في القدس والمناطق المحيطة بها من أيدي العرب. تلقت الوحدات المشاركة في تلك العمليات أوامر باحتلال وتدمير مجموعة من الضواحي والقرى شمال وغرب مركز المدينة، بما في ذلك شعفاط، الشيخ جراح، النبي صموئيل، بيت إكسا، وبيت حنينا، وبيت محسير. كما تضمن أمر العمليات الصادر من رئاسة أركان الهاغاناه لعملية ييفوسي - المرحلة (أ): «الاستيلاء على وتدمير» الشيخ جراح وشعفاط الضاحيتين في شمال القدس وقرية تابعة لهما في الشمال⁽⁵⁵²⁾. جرى توسيع نطاق العمل لدى صدور أوامر لواء حاريل لكتائبه متضمنة الاستيلاء على قرية النبي صموئيل الواقعة على قمة التل، وتدمير شعفاط وبيت إكسا - وتقع جميعها في شمال وشمال غرب

القدس - وأيضا إمكانية تدمير قرية بيت حنينا المجاورة⁽⁵⁵³⁾. قامت وحدات البالمخ في 22 من أبريل بمهاجمة واحتلال شعفاط وبيت إكسا ودمرتهما جزئيا⁽⁵⁵⁴⁾. وفي 24 من الشهر هاجمت ودمرت جزئيا الشيخ جراح⁽⁵⁵⁵⁾.

من المثير للسخرية أن العملية التي كان لها الأثر الأكبر من أي حدث منفرد خلال الحرب في الإسراع من نزوح الفلسطينيين لم تكن عملية الهاغاناه، نحشون، وما تبعها من عمليات، بل عملية صغيرة قادتها عناصر الإرجون والهستدروت، بموافقة على مضمض من الهاغاناه⁽⁵⁵⁶⁾. ففي التاسع من أبريل عمد 80 من عناصر الإرجون و40 من الهستدروت، بمساندة من قاذفي القنابل التابعين للهاغاناه من غيفات شاوول المجاورة وفرقتين مدرعتين تابعتين للبالمخ⁽⁵⁵⁷⁾، إلى مهاجمة دير ياسين، والتي وقعت - كما سبق أن رأينا - اتفاق عدم اعتداء متبادل مع جيرانها اليهود، ومنعت بشكل متكرر دخول العناصر غير النظامية إليها. لم تكن العملية في تناغم وثيق مع هدف عملية نحشون المتمثل في تأمين المداخل الغربية للقدس.

واجه المهاجمون مقاومة قوية غير متوقعة، وفي ضوء افتقارهم نسبيا إلى الخبرة وقع بين صفوفهم أربعة قتلى وعدة عشرات من الجرحى قبل أن يتمكنوا من إخضاع القرية بعد يوم كامل من القتال. ولقد انتقلت القوات من منزل إلى منزل ملقاة قنابل يدوية وفاتحة قاذفات اللهب داخلها، كإجراء روتيني في معارك المنازل⁽⁵⁵⁸⁾. وفجرت العديد منها باستخدام المتفجرات⁽⁵⁵⁹⁾. فضلا عن إطلاق القوات النار على أفراد وعائلات بمجرد تركهم منازلهم وهروبهم إلى الأزقة⁽⁵⁶⁰⁾. كما عمدوا كذلك إلى تجميع القرويين - بمن في ذلك عناصر من المليشيا ومدنيون غير مسلحين من الجنسين - وقتلوهم، وأعدموا سجناء في السجن المجاور. وفي الثاني عشر من أبريل نقل إسحاق ليفي، قائد جهاز استخبارات الهاغاناه في القدس، ما يلي:

نُفذت عملية الاستيلاء على القرية بوحشية كبيرة؛ حيث قُتل عائلات كاملة (نساء، كبار في السن وأطفال)... ونُقل بعض السجناء - بمن في ذلك النساء والأطفال - إلى أماكن اعتقال حيث قتلهم معتقلوهم⁽⁵⁶¹⁾.

وأضاف ليفي في اليوم التالي: «أشار عناصر الهستدروت إلى السلوك الهمجي الذي اتبعه عناصر الإرجون مع السجناء والموتى. كما ذكروا أن رجال الإرجون اغتصبوا

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

عددا من بنات القرية وقتلوهن بعد ذلك (لا نعلم إذا ما كان ذلك صحيحا)»⁽⁵⁶²⁾، أما فيما يتعلق بمردخاي غيشون، منسق جهاز استخبارات الهاغاناه في الموقع، فقد ذكر في تقرير له في العاشر من أبريل:

يقول قائدهم [عناصر الإرعون] إن الأمر [الأولي] تمثل في: القبض على الذكور البالغين وإرسال النساء والأطفال إلى موتسا. وفي فترة ما بعد الظهر [يوم 9 أبريل] تغير الأمر ليصبح قتل كل السجناء... فجرى اقتياد الذكور البالغين في شاحنات في عرض بشوارع المدينة، وبعد العودة قُتلوا برصاص الأسلحة الآلية، وقبل وضعهم في الحافلات [المقصود السكان الآخرون]، أخذ رجال الإرعون والهستدروت حليهم وسرقوا أموالهم. كان السلوك تجاههم همجيا بشكل خاص وشمل الركل، الضرب بأعقاب البنادق، البصق، والسب (وشارك بعض سكان غيفات شاؤول في التعذيب).

أضاف غيشون أن «ابن المختار (الذي كان مصدر معلومات مستمرا للهاغاناه) أُعدم [أمام والدته وأخواته] في أعقاب القبض عليه»⁽⁵⁶³⁾. ومن جانبه نقل مير بائيل، ضابط استخبارات في البالماخ والذي قال إنه قضى جزءا من فترة ما بعد ظهيرة يوم 9 أبريل في دير ياسين ضيفا على الهستدروت، في اليوم التالي ما يلي:

خلال المطاردة بالقرب من غيفات شاؤول، شاهدت خمسة من العرب سبق المرور بهم في استعراض في شوارع المدينة، ثم قتلهم وتكديسهم الواحد فوق الآخر... رأيت بعيني العديد من العائلات التي قُتل بنسائها وأطفالها وشيوخها، وكانت جثثهم ملقاة الواحدة فوق الأخرى... وكان المشاكسون يجولون بالمدينة ينهبون ويسرقون كل شيء: الدجاج، أجهزة المذياع، السكر، النقود، الذهب وغير ذلك... كل شخص يسير في المدينة ملطخا بالدماء ويتفاخر بعدد الأشخاص الذين قتلهم. كان واضحا افتقارهم إلى التعليم والذكاء بالمقارنة بجنودنا [الهاغاناه]... وفي أحد المنازل في وسط القرية تجمع ما يقرب من 200 امرأة وصغار الأطفال، وكانت النساء صامتات لا ينطقن بكلمة. وعندما وصلت أوضح لي «القائد» أنهم ينوون قتلهم جميعا. ولكنني في المساء سمعت أن النساء والأطفال نُقلوا إلى مصرارة وأُطلق سراحهم هناك⁽⁵⁶⁴⁾.

أما العديد من السكان الذين اختبأوا أو تظاهروا بأنهم من بين القتلى فقد قتلهم عناصر الهستدروت في العاشر أو الحادي عشر من أبريل⁽⁵⁶⁵⁾. إجمالاً قُضى ما بين 100 و120 شخصاً نحبهم في ذلك اليوم⁽⁵⁶⁶⁾. عمدت قوات الإرغون والهستدروت بعد ذلك إلى نقل ما تبقى من القرويين في حافلات اخترقت غربي القدس في استعراض للنصر، وألقت بهم بعد ذلك في حي مصرارة خارج أسوار المدينة القديمة⁽⁵⁶⁷⁾. وبالتحديد في الدلائل وقوتها فإن الأمر يدفع إلى الاعتقاد أن المنشقين لم يدخلوا القرية بنية ارتكاب مذبحه، ولكنهم فقدوا صوابهم خلال المعركة الطويلة التي دارت. وفي المقابل تمثلت نية الإرغون منذ البداية في طرد السكان. أدان التيار السائد داخل السلطات اليهودية المذبحه، بما في ذلك الهاغاناه⁽⁵⁶⁸⁾ ومؤسسة الحاخامية الكبرى⁽⁵⁶⁹⁾، والوكالة اليهودية؛ كما أرسلت الأخيرة أيضاً رسالة إدانة واعتذار وتعاز للملك عبدالله⁽⁵⁷⁰⁾.

بلغت أخبار ما حدث على الفور إلى سلطات الانتداب والدول العربية والغرب من خلال الذين بقوا على قيد الحياة ووصلوا إلى شرق القدس، وأيضاً عن طريق مسؤولين صهاينة وتابعين للصليب الأحمر. وعلى مدار الأيام والأسابيع التالية بثت وسائل الإعلام العربية قصة الرعب والوحشية كوسيلة لكسب الرأي العام والحكومات في مواجهة اليسوف⁽⁵⁷¹⁾. وقد كتب كانيغهام «أن الممرارة الناجمة عن المذبحه ولدت مناخاً جعل العرب المحليين غير مبالين للمطالبة بوقف القتال». كذلك فإن المذبحه وطريقة عرضها في وسائل الإعلام العربية عززت من الضغوط على قادة الدول العربية لمساعدة الفلسطينيين الذين يعدون للمعركة، كما أنها قوّت من عزمهم على غزو فلسطين. فقد سادت بعد نشر الأخبار حالة من السخط الشعبي لم يكن في مقدور القادة تجاهلها. ومع ذلك فإن الأثر الأكثر مباشرة للمذبحه والحمله الإعلامية حول الفضائح التي شهدتها تمثل في زيادة مستوى الرعب والإسراع في الهروب المذعور من القرى والمدن الفلسطينية⁽⁵⁷²⁾. وفي محاولاتها اللاحقة لتبرير أعمال منتسبيها، تعلقّت الإرجون بتلك النتيجة الثانوية لدير ياسين، والتي عززت من:

الرعب والفرع بين العرب في كل القرى المحيطة؛ ففي المالحه، وقالونيا،

وبيت إكسا، بدأت عملية هروب مذعور مما سهل من استئناف الاتصالات

الأرضية... بين العاصمة [القدس] وباقي أجزاء البلاد⁽⁵⁷³⁾.

في الرابع عشر من شهر أبريل كررت إذاعة الإرعون مثل هذه الرسالة: «تم الإءلاء عن القرى المحيطة بسبب ما حدث في دير ياسين»، وتفاخرت المنظمة قائلة: «لقد تمكنا بضربة واحدة من تغيير الوضع الإستراتيجي لعاصمتنا»⁽⁵⁷⁴⁾. وبعد مرور أشهر قليلة أعلنت الهستدروت: «الجميع يعلم أن دير ياسين هي التي زرعت الرعب في قلوب الجماهير العربية مما أدى إلى فرارهم الجماعي...»⁽⁵⁷⁵⁾. أما بيغن، الذي أنكر أن يكون المدنيون قد تعرضوا لمذبحة، فقد ذكر لاحقاً أن حملة الدعاية العربية بثت الخوف بين العرب، وأن «الأسطورة كانت أكثر فائدة من نصف دسلة فرق للقوات الإسرائيلية... فالذعر الذي سيطر على عرب أرض إسرائيل... ساعدنا وبصفة خاصة... في طبريا وفي الاستيلاء على حيفا»⁽⁵⁷⁶⁾.

ربما كانت لدى قادة الإرعون مصلحة، آنذاك وفيما بعد، في تضخيم أثر ما حدث في دير ياسين لخلق حالة من الذعر، ومع ذلك فإنهم بالتأكيد لم يكونوا بعيدين عن الصواب. فمن المؤكد أنه في منطقة ممر القدس كان الأثر فوراً وعميقاً، وقد نقل جهاز استخبارات الهاغاناه في الرابع عشر من شهر أبريل أن المنطقة تموج بالحديث عن «الاستيلاء على المدينة القديمة»، وأن الفظائع قد ضُغمت وبولغ فيها في الروايات التي تناقلها العرب⁽⁵⁷⁷⁾. وبشكل أكثر تحديداً نقل الجهاز أن ظاهرة «الخوف من دير ياسين» حطت على قرية الفريديس التي طلبت من اللجنة الوطنية في حيفا تزويدها بالسلاح⁽⁵⁷⁸⁾. وفي بيت إكسا أحدثت أخبار دير ياسين حالة من الهلع وأطلقت إشارة البدء في عملية الإءلاء⁽⁵⁷⁹⁾. وحدث الشيء نفسه في المالحه⁽⁵⁸⁰⁾. وسارع القرويون في فجّة (بالقرب من بتاح تيكفا) والمنصورة (بالقرب من الرملة) بالاتصال بجيرانهم اليهود ووعدهم بأن يلزموا الهدوء⁽⁵⁸¹⁾. وفي ياجور (القريبة من حيفا) قرر السكان الإءلاء، في حين طلب جيرانهم في بلد الشيخ والحواسة النصيحة من القيادة في حيفا⁽⁵⁸²⁾. أما في حيفا ذاتها فقد لاحظ بن غوريون أن الأخبار عن دير ياسين حثت المسلمين على القتال⁽⁵⁸³⁾. وفيما يتعلق بخربة عزون (في السهل الساحلي) أجلى سكانها بسبب «عدم القدرة على ضمان أن ما حدث في دير ياسين لن يتكرر هنا»⁽⁵⁸⁴⁾. من جانبهم لاحظ البريطانيون أن الهاغاناه - سواء كانت متورطة في دير ياسين أم لا - «استفادت منها. فمستوى العنف الذي مورس أثر في العرب في كل أرجاء البلاد إلى حد أن هجوم الهاغاناه على السريس لم تقابله

أي معارضة»⁽⁵⁸⁵⁾. وبشكل أكثر عمومية قدر قادة مابام خلال شهري مايو ويونيو أن دير ياسين كانت أحد حدثين رئيسيين ساهما في النزوح الجماعي لعرب فلسطين (أما الحدث الثاني فتمثل في سقوط حيفا العربية)⁽⁵⁸⁶⁾. وقد كان ذلك - بشكل أو بآخر - أيضا رأي الإدارة العربية في جهاز استخبارات الهاغاناه، التي حددت - في تقريرها الصادر في منتصف الحرب عن أسباب وطبيعة النزوح العربي - دير ياسين بوصفها عاملا «حاسما زاد من سرعة النزوح»، ونص التقرير على أن «دير ياسين... أثرت بشكل كبير في تفكير العرب»، خاصة في وسط وجنوب البلاد⁽⁵⁸⁷⁾.

معركة مشمار هعيمك

بدأت معركة مشمار هعيمك بمبادرة من جيش الإنقاذ بقيادة القاوقجي. وقام اليهود بعملية دفاعية يائسة تحولت فيما بعد إلى هجوم مضاد شنته الهاغاناه بما يتماشى مع الخطوط العامة للخطة دالت. وتشير الأدلة المتاحة إلى أنه في هذا السياق، وللمرة الأولى، وافق بن غوريون بشكل صريح على طرد العرب من منطقة كاملة في فلسطين (على الرغم من أن الطرد - كما سنرى لاحقا - قد سبقته عملية هروب ضخمة نجمت عن القتال).

بدأت المعركة في الرابع من أبريل عندما قصف جيش الإنقاذ وحاول السيطرة على مشمار هعيمك، كيبوتس أقامه مابام على طريق جنين - حيفا، واعتبره قادة الهاغاناه الطريق الأكثر ترجيحاً لشن هجوم عربي واسع على اليشوف في الخامس عشر من مايو أو بعد ذلك. وتمكن أعضاء الكيبوتس، الذين تلقوا تعزيزات من الهاغاناه من دحر الهجوم. كما نجح طابور من القوات البريطانية وصل آنذاك في وقف القصف الذي تلا ذلك وأسفر عن تدمير كبير في الكيبوتس. وقد نظر إلى هجوم جيش الإنقاذ، خاصة بعد فشله، بتوجس ونفور على الأقل من قبل بعض العرب المحليين. فقد كانوا - وفقا لضابط بريطاني - «يخشون جيش الإنقاذ ويفعلون ما يأمرهم به، في حين كان ضباطه يعاملون المحليين باحتقار»⁽⁵⁸⁸⁾.

في السابع من أبريل وافق جيش الإنقاذ على وقف إطلاق النار لمدة 24 ساعة وطلب من الكيبوتس تسليم أسلحته والخضوع للإدارة العربية. وخلال فترة وقف إطلاق النار أجلى أعضاء الكيبوتس الأطفال⁽⁵⁸⁹⁾. وفي الوقت ذاته طلب القادة

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

العسكريون العرب - والوسيط البريطاني - أن يعد اليهود «بعدم شن أي أعمال انتقامية ضد القرى المحلية» أو المرور⁽⁵⁹⁰⁾. ورد الكيبوتس بأنه لن يهاجم القرى المجاورة غير أنه لا يمكنه أن يضمن تصرف الهاغاناه في الخارج. وفي كل الأحوال ذكر قادة الكيبوتس أنهم يريدون التشاور مع تل أبيب⁽⁵⁹¹⁾. وبعد مرور عدة ساعات أضافوا: «لم يتفق رجال مشمار على شيء»⁽⁵⁹²⁾.

في تلك الأثناء، في 8 و9 أبريل، وفي الوقت الذي بدأت فيه الهاغاناه الإعداد على عجل لشن هجوم مضاد، توجه وفد من قادة مشمار هعيمك للقاء بن غوريون، ووفقاً للأخير:

لقد قالوا إنه من الحتمي طرد العرب [في المنطقة] وحرقت قراهم. كان الأمر صعباً بالنسبة إليّ. لكنهم قالوا إنهم ليسوا متأكدين من أن الكيبوتس يمكنه أن يصمد إذا ما بقيت القرى سليمة، وإذا لم يُطرد سكانها العرب؛ حيث إنهم [القرويين] سيعمدون لاحقاً إلى مهاجمتهم وإحراق الأمهات والأطفال.

روى بن غوريون هذه القصة خلال شهر يوليو، في سياق الجدل مع مابام، الذي اتهمه بتنفيذ سياسة طرد. اتهم بن غوريون قادة المابام بالنفاق، موضحاً أنهم أدركوا، أثناء مشكلة مشمار هعيمك، أن الأيديولوجية (على سبيل المثال الأخوة اليهودية - العربية) هي شيء، والضرورة الإستراتيجية شيء آخر. «لقد واجهوا الحقيقة القاسية... ورأوا أن هناك [فقط] طريقاً واحداً، وهذا الطريق هو أن يُطرد القرويون العرب وتُحرق قراهم. ولقد قاموا بذلك. بل كانوا أول من يقوم به»⁽⁵⁹³⁾. في حقيقة الأمر بدأت رئاسة أركان الهاغاناه التفكير في تدمير القرى المحيطة بالكيبوتس بعد شن القواقجي هجومه بفترة قصيرة؛ حيث أصدرت عمليات رئاسة الأركان تعليماتها إلى لواء غولاني: «يجب عليكم إخطار القرى التالية... بأنه لا يمكننا ضمان أمنهم وسلامتهم، وأن عليهم الإجلاء على الفور». ومن بين القرى الأربع التي سُميت: أبو شوشة (المجاورة لمشمار هعيمك) ودالية الروحاء وريحانية (تقع على بعد 4 - 5 كيلومترات إلى الغرب والشمال الغربي)⁽⁵⁹⁴⁾.

قرر بن غوريون ورئاسة أركان الهاغاناه رفض مقترح جيش الإنقاذ، وشنّ هجوم مضاد شامل لدفع كل من جيش الإنقاذ والسكان العرب خارج المنطقة وتسوية

القرى بالأرض، مما يزيل الخطر الجاثم على مشمار هعيمك بشكل دائم ويحرم أي قوى غازية آتية من جنين من طريق مرور سهل إلى حيفا. وفي 8 - 9 أبريل أرسل إسحاق سديه (مؤسس البالماخ) لقيادة الوحدات المتناثرة التي حُشدت لشن الهجوم المضاد. وخلال جلسة التخطيط لذلك، والمنعقدة في كيبوتس هازوريما، تحدث الضباط على وجه الخصوص عن «تطهير أبوشوشة وأبو زريق المجاورة».

في بداية الهجوم المضاد استولت وحدات الهاغاناه ليلا على قرية ودمرتها جزئيا قبل أن تنسحب في الصباح (بسبب قذف مدفعية القاوقجي). غير أنه منذ منتصف يوم العاشر من أبريل استولت الهاغاناه واحتفظت بشكل دائم بقرى⁽⁵⁹⁵⁾. هرب الجزء الأكبر من السكان العرب قبل أو أثناء الهجوم. ثم هُدمت القرى وطُرد من تبقى من سكانها باتجاه جنين.

خلال المعركة - ونتيجة لانخفاض الروح المعنوية من جراء التقارير عن دير ياسين، فضلا عن مقتل عبد القادر الحسيني⁽⁵⁹⁶⁾ - تقهقرت وحدات جيش الإنقاذ متخفية عن القرويين⁽⁵⁹⁷⁾. وفي ليلة 8 - 9 أبريل أغارت قوات الهاغاناه على الغيبة التحتا، الغيبة الفوقا، وخربة بيت راس، ودمرتها تماما في الأيام التالية⁽⁵⁹⁸⁾. كما هاجمت وحدات الهاغاناه في التاسع من أبريل أبو شوشة التي كان أغلب سكانها قد هربوا بالفعل⁽⁵⁹⁹⁾. في حين طُرد من تبقى منهم. ومُحيت القرية جزئيا من على الأرض. في ليلة 11 - 12 أبريل استولت وحدات البالماخ على الكفرين، التي كانت خالية من السكان، وأبو زريق، حيث أسر ما يقرب من 15 من الذكور البالغين و200 من النساء والأطفال، كما تم احتلال أبو شوشة. وفي صباح ذلك اليوم فُجر نحو 30 منزلا في الكفرين، وبعض منازل أبو زريق في المساء⁽⁶⁰⁰⁾. وطُرد نساء وأطفال قرية أبو زريق⁽⁶⁰¹⁾. كما دُمر ما تبقى من منازلها في الخامس عشر من الشهر⁽⁶⁰²⁾. أثناء ليلة 12 - 13 أبريل احتلت وحدات البالماخ غيبة الفوقا وهاجمت المنسي والنغنية (جنوب شرقي مشمار هعيمك)⁽⁶⁰³⁾. أجلى العرب عن القريتين في 15 أبريل⁽⁶⁰⁴⁾. ودُمرت خلال الأيام التالية. ووفقا لسجلات مشمار هعيمك، بحلول 15 أبريل «تم إخلاء جميع القرى في المنطقة، تقريبا، بقدر ما تستطيع العين أن ترصد»⁽⁶⁰⁵⁾. ووصل أغلب اللاجئين إلى منطقة جنين وأقاموا في خيام مؤقتة⁽⁶⁰⁶⁾. وناشدوا اللجنة العربية العليا على النحو التالي:

الموجة الثانية: الفزوح الجماعي...

الآلاف من النساء والأطفال التعساء من قري أبو زريق، المنسي، الغبية، الكفرين، وغيرها من الأماكن القريبة من مستوطنة مشمار هعيمك، الذين دمر اليهود منازلهم، وقتلوا [اليهود] الرضع وكبار السن منهم، يوجدون الآن في القرى المحيطة بجنين من دون مساعدة ويموتون جوعاً. نطالبكم بمعالجة الموقف... واتخاذ ما يلزم نحو سرعة إرسال قوات للانتقام من اليهود وإعادة أراضينا إلينا⁽⁶⁰⁷⁾.

على الرغم من انتهاء معركة مشمار هعيمك، جرت عمليات أخرى لاحقة. ففي ليلة 15 - 16 أبريل أغارت وحدات البالماخ على قرية اللجون الكبيرة، ودمرت أجزاء منها. ونقل مركز قيادة البالماخ في السادس عشر من أبريل: «أضحت المنطقة الواقعة بين قواعدنا [في راموت ميناش] وطريق وادي عارة خالية الآن من العرب»⁽⁶⁰⁸⁾. وفي 19 أبريل أجرت وحدة تابعة للبالماخ تدريباً قتالياً في الكفرين، في أعقابهِ سُويت القرية بالأرض⁽⁶⁰⁹⁾.

خلقت معركة مشمار هعيمك مرارة لدى بعض سكان الكيبوتسات المحلية. ففي الرابع عشر من أبريل وجه إلعازر بوير (بيري) الباحث في شؤون الشرق الأوسط وعضو كيبوتس هازوريجا (التابع لحزب ماابام) رسالة قاسية إلى القيادات العليا للجنة الدفاع في ماابام تضمنت:

من المؤكد أننا منخرطون في حرب قاسية، ولا يمكن لنا التصرف بليونة. ولكن لاتزال هناك قواعد للحرب يحاول الشعب المتحضر أن يتبعها... [ركز بوير على الأحداث التي شهدتها أبو زريق قبل ذلك بيوم أو يومين]... عندما تم الاستيلاء على القرية، حاول سكانها الفرار وإنقاذ حياتهم بالهروب إلى حقول الوادي [مرج ابن عامر]. فخرجت قوات من المستوطنات المجاورة وحاصرتهم. ووقع تبادل لإطلاق النار قُتل خلاله العديد من أولئك العرب. في حين استسلم الآخرون أو قُبض عليهم وهم غير مسلحين. ومع ذلك قُتل أغلبهم. لم يتعلق الأمر بأفراد عصابة كما كُتب لاحقاً [في جريدة ماابام اليومية] ولكن بقرويين عزل متعبين... كذلك داخل القرية عندما اكتُشف ذكور بالغون مختبئين بعد مرور ساعات على انتهاء المعركة تم قتلهم... ونقل البعض كذلك أنه كانت هناك حالات اغتصاب، ولكنه من الممكن أن يكون

ذلك فقط من قبيل القصص المختلفة عن «البطولة» التي ينزع الجنود إليها. بعد ذلك دُمرت كل منازل القرية فضلا عن بئر المياه... وأخذ الجنود ما يمكنهم من الممتلكات والحيوانات في المزارع التي لم يكن هناك من يحرسها؛ فأخذ أحدهم غلاية للقهوة، في حين استولى الآخر على حصان، والثالث على بقرة... يمكن للمرء أن يتفهم الأمر ويبرره إذا ما كانوا قد أخذوا الأبقار من القرية إلى مشمار هعيمك على سبيل المثال، أو إذا ما كان الجنود الذين استولوا على القرية سيقومون بذبح الدواجن وطهوها لطعامهم. ولكن إذا تحول الأمر إلى أن يقوم كل مزارع من موشاف^(*) قريب [في تلميع إلى موشاف يوكنعام] بأخذ دوره في النهب، فإن هذا ليس إلا سرقة...

وناشد بوير قادة مابام الحرس على إصدار التعليمات للقوات بالالتزام باتفاقيات جنيف⁽⁶¹⁰⁾.

نُوقش خطاب بوير والأحداث التي وُصفت بصراحة في اللقاءات العامة لأعضاء مابام في هازوريعا في الفترة من 18 إلى 20 أبريل. وعارض أحد الأعضاء، يوسف شاتيل، أعمال السلب والنهب؛ وذهب آخر، آرنون، إلى التعبير عن عدم سعادته برؤية ما حدث في أبو زريق، وقيرة وقامون المجاورتين؛ ومن جانبه أدان فريتزي المعاملة القاسية للمعتقلين في أبو زريق، غير أنه أضاف - خلال الاجتماع الثاني - أنه يجب على الأعضاء «الامتناع عن الجدل حول الترانسفير»⁽⁶¹¹⁾.

على الرغم من أن العناصر غير النظامية قد حاربت بشجاعة هنا وهناك، وصف ويتز بدقة ما حدث حول مشمار هعيمك وما يحدث في كل أرجاء البلاد على النحو التالي:

يحتل جيشنا بساتين قرى عربية، يشعر سكانها بالخوف ويفرون كالجرذان. ليس لديك أدنى فكرة عما حدث في القرى العربية. كان يكفي إطلاق عدة قذائف في الليل فيلوذون بالفرار خوفا على حياتهم. تُفرغ القرى بشكل مطرد، وإذا ما استمررتنا في هذا المسار - وسوف نعمد إلى ذلك مع تزايد قوتنا - ستتخلو عشرات القرى من سكانها. هذه المرة سيشعر أولئك المعتدون بأنفسهم معنى أن يكونوا لاجئين، وربما يفهموننا⁽⁶¹²⁾.

(*) الموشاف Moshava هو شكل من أشكال المستوطنات اليهودية في القرى. [المترجم].

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

قدّم الإرغون الفصل الختامي للمعركة؛ فهاجمت وحداته (من زخرون ياكوف، حديرا، بنيامين، نتانيا) في الثاني عشر من شهر مايو آخر القرى العربية في مرتفعات ميناخ (المطلّة على مشمار هعيمك من الغرب) وطهرتها. وهاجم المنشقون صبارين، السنديانة، البريكة، خبيزة، وأم الشوف. كان العديد من القرويين قد فروا خلال الأسابيع التي سبقت ذلك⁽⁶¹³⁾. تلقت صبارين أوامر من قادة أم الفحم بالصمود⁽⁶¹⁴⁾. غير أن أغلب القرويين الباقين فروا مع اقتراب القوات اليهودية وسقوط قذائف الهاون. فيما يخص السنديانة، التي استمر سكانها حتى بداية شهر مايو 1948 يعملون في كيبوتس زخرون ياكوف، ومنعت العناصر غير النظامية السورية من دخولها⁽⁶¹⁵⁾، فقد بقي مختارها ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من السكان ورفعوا العلم الأبيض. وقد سبق ذلك بعدة أيام أن عرضوا على جيرانهم اليهود أن يقوموا معاً بـ «تمثيل» وقوع هجوم يهودي عليهم مما يمكنهم من الاستسلام بشكل مشرف⁽⁶¹⁶⁾. وعلى الرغم من كل ذلك فقد تم طردهم. وبالنسبة إلى صبارين - حيث لاقت قوات الإرغون مقاومة - فر السكان بعد مقتل 20 خلال تبادل إطلاق النار؛ وفتحت سيارات الإرغون المدرعة النيران على القرويين الفارين. وفضلاً عن ذلك فإن ما يزيد مائة شخص من النساء والأطفال وكبار السن الذين بقوا بالقرية ظلوا عدة أيام حبسي سياج من الأسلاك الشائكة قبل أن يُطردوا باتجاه أم الفحم في الجنوب الشرقي، والتي كانت ضمن الأراضي الواقعة تحت السيطرة العربية. أما فيما يتصل بأم الشوف فقد تذكر أحد ضباط الإرغون أنه خلال تفتيشه طابورا من اللاجئين عثر على مسدس وبندقية، مما دفع جنود القوات إلى احتجاز سبعة من الذكور البالغين من بينهم وترك الآخرين يتابعون طريقهم. وعقب ذلك طُلب من المحتجزين كشف هوية مالك الأسلحة، غير أن أياً منهم لم يعترف حتى بعد تهديدهم بالقتل. وعلى أثر ذلك عقد الضباط «محكمة عسكرية في الميدان قضت بإعدامهم جميعاً».. وهو ما نُفذ بالفعل⁽⁶¹⁷⁾.

ظل سكان قرية أم الزينات (الواقعة شمالي الريحانية) مسالمين خلال فترة الحرب الأهلية، ولم يستضيفوا أي عناصر غير نظامية أجنبية. وفي أعقاب هزيمة العرب في مشمار هعيمك وسقوط حيفا العربية أقدم بعض القرويين على الفرار⁽⁶¹⁸⁾. ومع حلول السابع من شهر مايو كان أربعمائة من الذكور البالغين لا يزالون في القرية⁽⁶¹⁹⁾. وعندما استولى لواء غولاني على القرية في الخامس عشر من الشهر وجدها فارغة⁽⁶²⁰⁾.

غير أن مختار القرية، يوسف العيسى، وما يزيد على عشرة من رجال القرية، قدموا رواية مخالفة ذهبت إلى أن غولاني أمرهم بالرحيل مع النساء والأطفال المتبقين⁽⁶²¹⁾. وفي مطلع شهر أغسطس طوقت قوات الهاغاناه القرية محملة بأوامر بقتل الذكور وطرد النساء، وبالفعل اعتُقل عدد من الذكور، قُتل منهم اثنان على الأقل، وطُرد العديد من النساء⁽⁶²²⁾.

بناءً على أوامر من السلطات العربية أُجليت نساء وأطفال قرية قنير بالقرب من صبارين في الفترة من 22 - 24 أبريل⁽⁶²³⁾. وفي التاسع من شهر مايو أغارت قوات لواء إسكندروني على القرية؛ حيث قتلت أربعة من سكانها العرب وفجرت 55 منزلاً⁽⁶²⁴⁾؛ مما دفع على الأرجح البقية الباقية من السكان إلى الهروب.

معركة رمات يوحنان

في الوقت الذي احتدمت فيه معركة مشمار هعيمك في الجنوب، اتخذت فرقة تابعة لجيش الإنقاذ مواقع في شفا عمرو، خربة الكساير، وهوشة على ما يقرب من عشرة كيلومترات شرق حيفا، وهاجمت بشكل متقطع وسائل النقل والمستوطنات اليهودية بما في ذلك رمات يوحنان⁽⁶²⁵⁾، وربما أراد القواقجي بذلك تخفيف الضغط عن منطقة مشمار هعيمك. تلقى لواء كارميلي الأوامر بالاستيلاء على هوشة وخربة الكساير، وهو ما تم بالفعل صباح السادس عشر من أبريل. لاذ السكان بالفرار. وتمكن اللواء من دحر هجمات مضادة، شجاعة وإن كانت غير فعالة، شنتها فرقة الدروز التابعة لجيش الإنقاذ بقيادة شقيب وهاب، وتلت ذلك تسوية القريتين بالأرض وتدمير القرى الصغيرة التابعة لهما، بما في ذلك خربة سعسع⁽⁶²⁶⁾. أسفرت هزيمة جيش الإنقاذ عن عملية فرار ضخمة للسكان من شفا عمرو⁽⁶²⁷⁾، كما كان لها بلا شك تأثير كبير في إضعاف الروح المعنوية لعرب حيفا الذين كانوا على وشك مواجهة قوات لواء كارميلي.

السهل الساحلي

كما سبق أن رأينا، أخلى أغلب عرب السهل الساحلي شمال تل أبيب منازلهم وقزاهم خلال الأشهر السابقة. وجاء شهرا أبريل ومايو ليشهدا استكمال عملية النزوح

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الجماعي، باستثناء عدة قرى معزولة سُمح لها بالبقاء (جسر الزرقاء، الفريديس) أو احتلتها قوات الدفاع الإسرائيلية فقط في يوليو (الطيرة، عين غزال، الجبعة، إجزم). كانت عمليات الإجلاء خلال شهري أبريل ومايو مدفوعة بشعور بالضعف والتعرض للخطر، والخوف من الهجوم المرتقب، أو نتيجة للهجوم الفعلي، أو التعرض للضغط أو تنفيذًا لأوامر الطرد، فضلا عن الضغوط من قبل قادة العناصر غير النظامية. أعلنت سياسة الهاغاناه الجديدة في المنطقة - على النحو السالف الذكر - والمتصلة بطرد السكان العرب خلال اجتماع مستشاري لواء إسكندروني للشؤون العربية في السادس من أبريل⁽⁶²⁸⁾. وكان العرب المتبقون في خربة عزون (تبصر) قد تلقوا أمرا، في الثالث من الشهر، بالرحيل بحلول يوم 16 أبريل⁽⁶²⁹⁾. أما سكان قرية بيارات حنون الصغيرة (إلى الجنوب من نتانيا) فكانوا قد رحلوا بالفعل في بداية الشهر⁽⁶³⁰⁾. فيما يتصل بالبدو المتبقين حول حديرا - عرب الفقارة - عرب النفيعات - عرب الضمايرة - فقد تسلموا جميعا أوامر بالمغادرة في العاشر من أبريل⁽⁶³¹⁾. وغادر النفيعات في الثالث عشر من الشهر⁽⁶³²⁾. كما صدر أمر مشابه من الهاغاناه في الخامس عشر من الشهر لسكان خربة السركس - وتقطنها جماعة من الشركس كانت على علاقة طيبة باليهود وتحدثت ثلاث مرات أوامر جيش الإنقاذ بإجلاء النساء والأطفال⁽⁶³³⁾. وقد أجليت نساء وأطفال القرية ما بين 20 و22 أبريل⁽⁶³⁴⁾. في حين غادر الرجال على الأرجح بعدهم بأيام قليلة. وفي الوقت ذاته غادر سكان خربة زلفة وخربة المنشية (جنوب حديرا) باتجاه الشرق في أعقاب التوصل إلى اتفاق مع ممثلي الهاغاناه تضمن أن يقوم يهود المستوطنات بالحفاظ على ممتلكاتهم والسماح لهم بالعودة بعد انتهاء الحرب. وفي حالة المنشية يبدو أن ضابط جهاز استخبارات الهاغاناه (أهارون برافرمان، من كيبوتس عين هاهوريش) طلب من القرويين البقاء وقبول حماية الهاغاناه ولكن من دون نتيجة. وفي المقابل لم يُوجَّه طلب مماثل لسكان خربة زلفة المعروفين تقليديا بعداوتهم، بل على الأرجح ضُغط عليهم للرحيل⁽⁶³⁵⁾. فيما يتصل بخربة بيت ليد (شرق نتانيا) والتي سبق لسكانها أن هربوا ثم عادوا مجددا إلى ديارهم في منتصف شهر ديسمبر 1947، فقد تلقت أمرا من الهاغاناه بالإجلاء في مطلع أبريل، وهو ما نُفذ في السادس عشر من الشهر⁽⁶³⁶⁾.

حظي سكان قرية مسكة الكبيرة الواقعة شمال شرق قلقيلية بإعفاء خاص، حيث سُمح لهم في بداية شهر أبريل بالبقاء في ديارهم⁽⁶³⁷⁾. غير أنه في التاسع عشر من الشهر، وفي أعقاب عملية قنص شُنت من القرية أسفرت عن عدة ضحايا في صفوف الهاغاناه، أمر رئيس كيبوتس رامات هاكوفيش السكان بـ «المغادرة خلال ساعتين». وقد خُفف الأمر من قبل لجنة الممتلكات العربية التي اقترحت، بدلا من ذلك، أن يسلم القرويون الأسلحة؛ القبول بالإدارة اليهودية، والانتقال إلى الداخل في خربة الزبائدة بالمنطقة اليهودية، وهو ما رفضه السكان وفضلوا عليه الرحيل باتجاه الشرق. وهو ما تم بالفعل فيما بين 20 و21 أبريل. وتضمن أحد سجلات اليشوف وصفا لذلك على النحو التالي: «ذلك اليوم، واليوم التالي لم تتوقف محركات السيارات، والحمير، والجمال من مسكة إلى الطيرة». دخلت قوات الهاغاناه القرية مساء الحادي والعشرين من أبريل⁽⁶³⁸⁾.

في مطلع شهر مارس 1948 نجح توفيق أبو كشك في التوسط للوصول إلى اتفاق عدم اعتداء بين قرية بيار عدس العربية ومغديل المجاورة (شمال شرق راماتاييم)⁽⁶³⁹⁾. لكن العناصر المسلحة بالهستدروت خرقت وقف إطلاق النار بشكل متكرر بإطلاقها النار من مغديل⁽⁶⁴⁰⁾، مما أدى إلى رحيل العديد من العائلات، وعاد الرجال فقط في أوقات النهار لزراعة حقولهم⁽⁶⁴¹⁾. وفي الثاني عشر من أبريل أُجلي سكان القرية⁽⁶⁴²⁾. بعد مرور أيام قليلة، وعلى بعد عدة كيلومترات إلى الجنوب، أُجلي سكان قرية جرملة الصغيرة «نتيجة للخوف من هجوم يهودي»⁽⁶⁴³⁾. في بداية شهر أبريل، ونظرا إلى موسم الحصاد الوشيك، سعت قرية فجة الكبيرة (الواقعة إلى جانب بتاح تكفا) للتوصل إلى هدنة مع جيرانها اليهود⁽⁶⁴⁴⁾. بيد أن السكان تعرضوا لضغوط من جيش الإنقاذ الذي طلب منهم قطع صلاتهم باليهود⁽⁶⁴⁵⁾، والمشاركة بـ «متطوعين» للتشكيلات، الأمر الذي لم يكن مختار القرية، عبدالله الحاج، يرغب فيه خشية الأعمال الانتقامية⁽⁶⁴⁶⁾. وقد ترتب على ذلك استدعاؤه للاستجواب من قبل قادة جيش الإنقاذ في راس العين⁽⁶⁴⁷⁾، وأخيرا نزع السكان بعد العاشر من أبريل - مع عودة حفنة منهم بعد ذلك بعدة أيام للقيام بأعمال الحراسة⁽⁶⁴⁸⁾. لقد شعروا بالخوف من كل من جيش الإنقاذ واليهود الذين عمدوا بشكل دوري إلى نهب المنازل المهجورة⁽⁶⁴⁹⁾. نظرت الهاغاناه إلى العرب الذين بقوا على أنهم «عنصر مزعج»، وقررت استكمال الإجلاء التام من القرية، فضلا

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

عن قرية النبي ذاري الصغيرة المجاورة⁽⁶⁵⁰⁾، وفي تلك الأثناء نُظر إلى عبدالله الحاج على أنه خائن وألقي القبض عليه وتعرض «لتعذيب قاس» على يد جيش الإنقاذ⁽⁶⁵¹⁾. وفي نهاية المطاف لجأت الهاغاناه إلى الحرب النفسية والتحذيرات لدفع السكان المتبقين في فجّة إلى النزوح⁽⁶⁵²⁾.

مع بداية شهر مايو لم يكن هناك إلا القليل من العرب المتبقين في السهل الساحلي. وفي إطار الاستعدادات لصدور إعلان قيام الدولة والغزو العربي المحتمل، قرر خبراء الشؤون العربية في لواء إسكندروني في التاسع من شهر مايو «طرد أو إخضاع» قرى: كفر سابا، الطيرة، كاكون، قلنسوة، الطنطورة⁽⁶⁵³⁾.

بالنسبة إلى قرىتي الطيرة وقلنسوة فإنهما لم يتم احتلالهما (ولم تنتقلا إلى السيادة الإسرائيلية إلا في مايو عام 1949، في إطار اتفاقية الهدنة الأردنية - الإسرائيلية). وفي المقابل استولت وحدات لواء إسكندروني في الثالث عشر من مايو على كفر سابا، مما أسفر عن نزوح جماعي. وكانت القرية قد عاشت بعض الوقت في حالة «فزع» من هجوم مرتقب على يد الهاغاناه، وقامت وحدة صغيرة من جيش الإنقاذ بحراستها⁽⁶⁵⁴⁾. إلا أن الهجوم فاجأهم، وأطلق العنان «لهروب مذعور». ومن جانبه تمركز القائد المحلي السوري لجيش الإنقاذ في مخرج القرية مشترطاً الحصول على خمسة جنيهاً استرليني من كل نازح⁽⁶⁵⁵⁾. لم يتبق في القرية سوى 9 من كبار السن رجالاً ونساءً لم يتمكنوا من الهرب السريع أو دفع المبلغ المطلوب⁽⁶⁵⁶⁾، وتم طردهم لاحقاً. ونتيجة لتأثير الذعر من الهجمات الإسرائيلية تم إجلاء قلبية بشكل شبه تام (وإن كان ذلك مؤقتاً) وفر العديد من أعيانها إلى طولكرم⁽⁶⁵⁷⁾.

استولت الكتيبة 33 من لواء إسكندروني على قرية الطنطورة (الواقعة جنوبي حيفا على السهل الساحلي) ليلة 22|23 مايو. كانت القرية تستخدم كممر لنقل الإمدادات، عبر البحر، إلى قرى المنطقة بما فيها عين غزال وجبع، وقد انهارت معنويات السكان بعد سقوط حيفا العربية ووصول اللاجئين منها، وقبل ذلك من قيسارية وعرب البار. وفي بداية شهر مايو نُقل أن السكان مستعدون للاستسلام إذا ما تعرضوا لهجوم أو تلقوا إنذاراً، على ألا يسلموا أسلحتهم⁽⁶⁵⁸⁾. وفي هذا الصدد تساءل أحد ضباط الإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه: هل كانت الهاغاناه راغبة حقاً في استسلام الطنطورة وترك سكانها يعيشون في المكان؟⁽⁶⁵⁹⁾ بدأ النزوح

من القرية مطلع شهر مايو عقب قيام محلي بقتل يهودي ثم قُتل بدوره⁽⁶⁶⁰⁾. رحل العديد بالقوارب إلى صور. إلا أنه في اللحظة الأخيرة - ربما بتشجيع من بداية الهجوم العربي على إسرائيل وفشل الهاغاناه في تقديم عرض مناسب لهم - قرر السكان «البقاء .. والقتال»⁽⁶⁶¹⁾. وبدأ القرويون في إعداد التحصينات وزرع الألغام على مداخل الطرق، كما صدرت أوامر لسكان القرى الصغيرة التابعة بالتركيز على مساعدة الطنطورة و إجزم⁽⁶⁶²⁾.

أصدر مركز قيادة لواء إسكندروني أمرا تنفيذيا للهجوم في الثاني والعشرين من مايو؛ لم يتضمن أي إشارة إلى مصير السكان المدنيين⁽⁶⁶³⁾ - على الرغم من أنه قد يكون هناك شك ضئيل في أن القوات ذهبت إلى هناك بنية طرد السكان. لم يتم تقديم عرض للقرية للاستسلام بهدوء، وبدأ الهجوم تلك الليلة بوابل من قذائف المدفعية، أعقبه دخول تشكيلات المشاة بشكل متزامن من الشمال والشرق والجنوب، فضلا عن وجود السفن الحربية لمنع الهروب عن طريق البحر. وعلى الرغم من المقاومة الجادة من قبل القرويين، تم حسم المعركة في الثامنة من صباح الثالث والعشرين من الشهر وقتل خلالها العشرات من السكان. وتحدث التقرير المبدئي عن «300 سجين من الذكور البالغين» و«200 من النساء والأطفال»⁽⁶⁶⁴⁾.

كما جرت عليه العادة، تبع سقوط القرية عمليات سلب ونهب قام بها المستوطنون من المناطق المجاورة، وجهود من قبل الهاغاناه لإيقاف ذلك. وأسفرت إحدى عمليات التفتيش عن استعادة سجادة، وغراموفون (قارئ اسطوانات)، وجوال خيار، ومعرّاه...⁽⁶⁶⁵⁾. كذلك كانت هناك أيضا عملية تدمير واسعة للممتلكات⁽⁶⁶⁶⁾. وعلي مدار أيام ظلت المدينة ومحيطها مليئين بجثث الأفراد والحيوانات مما خلف وضعاً صحياً خطيراً⁽⁶⁶⁷⁾.

نزع بعض القرويين إلى الأراضي الخاضعة للسيطرة العربية، في حين انتقل مئات آخرون - أغلبهم من النساء والأطفال - إلى الفريديس (قرية عربية تقع في الشرق وسبق أن استسلمت، وكان هناك المئات من لاجئي الطنطورة يعيشون في خيام. في الحادي والثلاثين من شهر مايو سأل شتريت (وزير شؤون الأقليات) بن غوريون عما إذا كان يجب طرد هؤلاء النساء والأطفال، حيث إن الإبقاء عليهم في الفوريديس يمثل مشكلة⁽⁶⁶⁸⁾. كذلك مارست الإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه ضغوطها؛

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

فالمطروودون من الطنطورة يسربون معلومات استخباراتية للقرى المجاورة التي لم يتم الاستيلاء عليها، فضلا عن أنه توجد مشاكل تتمثل في الازدحام الشديد والصرف الصحي⁽⁶⁶⁹⁾. ولم يُعرف رد بن غوريون على ذلك، إذا كان هناك من رد. إلا أنه في الثامن عشر من يونيو تم طرد ما يقرب من ألف شخص قادمين من الطنطورة من «النساء، والأطفال، وكبار السن» (إلى جانب ثمانين من المحتجزين الذين ينتمون إلى مناطق أخرى) من الفوريديس إلى المنطقة التي يسيطر عليها العراقيون في طولكرم بالسامرة⁽⁶⁷⁰⁾. وبقي في الفريديس 200 امرأة وطفل، وعلى الأرجح بعض الرجال، رهن الاعتقال الإسرائيلي⁽⁶⁷¹⁾.

كانت الفريديس وصرفند من بين القرى الأكثر صغرا من حيث الحجم بالقرب من الطنطورة التي تم إجلاؤها بداية شهر مايو⁽⁶⁷²⁾. وبحلول منتصف الشهر كان بعض القرويين قد عاد، إلا أن قوات كارميلي قامت في الخامس عشر من الشهر باحتلال القريتين وتحصنت فيهما لفترة قصيرة⁽⁶⁷³⁾. وبعد مرور يومين أغار كارميلي على المزار (الواقعة على بعد أربعة كيلومترات في الشمال الشرقي من صرفند) بهدف «جعل القرية غير صالحة للاستعمال». وقد قابلت القوات 10-20 عربيا فارين، ثم بدأت بعد ذلك في «حرق ما يمكن حرقه»⁽⁶⁷⁴⁾. ومع ذلك عاد بعض القرويين بعد عدة أيام إلى ديارهم⁽⁶⁷⁵⁾. وفي نهاية المطاف أعيد احتلال القرى الثلاث وتطهيرها أخيرا منتصف شهر يوليو. (انظر ما يلي).

تمت مهاجمة قاقون، شمال غرب طولكرم، والاستيلاء عليها من قبل وحدات لواء إسكندروني ليلة 4-5 يونيو، ولم يتضمن الأمر التنفيذى للعملية النص على ما يجب فعله بالنسبة إلى السكان، لكنه كرر الحديث عن «تنظيف» و«تأمين» القرية⁽⁶⁷⁶⁾، وقد سبق الهجوم قذف كثيف للمدفعية مما عجل بإجلاء معظم السكان إلى البساتين المجاورة⁽⁶⁷⁷⁾، وبقي فقط عدد قليل من عناصر المليشيات والعشرات من جنود الجيش العراقي للقتال سرعان ما تم التغلب عليهم من قبل وحدات مشاة اللواء⁽⁶⁷⁸⁾.

عملية يفتاح

كجزء من الخطة دالت قامت الهاغاناه في النصف الثاني من شهر أبريل وخلال شهر مايو بتأمين الحدود من ميتولا إلى بحيرة طبريا توقعا لغزو سوري. وخلال

عملية يفتاح، كما أُطلق عليها، تم طرد السكان العرب في الجليل الشرقي - الذي كان قرار التقسيم قد وضعه تحت السيادة الإسرائيلية.

تضمن الأمر التنفيذي للعملية تحديد هدفها في «فرض السيطرة على منطقة تل حاي (طلحة) وتدعيمها استعدادا لمواجهة غزو خارجي». لم يذكر الأمر شيئا عن السياسة التي يتم اتباعها تجاه السكان المدنيين⁽⁶⁷⁹⁾.

بدأت الحملة بهجومين فاشلين من قبل البالماخ في الخامس عشر والعشرين من أبريل، على حصن الشرطة في النبي يوشع بالطرف الجنوبي الشرقي للسان الجليل. عندئذ عينت رئاسة أركان الهاغاناه إيغال آلون ليتولى مسؤولية العملية، وكان تحت تصرفه ما يقارب كتيبتين، وواجه عشرات القرى، فضلا عن مدينة صفد والحدود المفتوحة مع سورية ولبنان. وانطلاقا من التقرير الذي أعده في الثاني والعشرين من أبريل، فضلا عن أعماله اللاحقة، توصل آلون إلى نتيجة مفادها أن تنظيف المنطقة بالكامل من العرب يمثل ضرورة لتأمين الحدود⁽⁶⁸⁰⁾. ومع ذلك كان على البالماخ الانتظار حتى يتم الجلاء البريطاني من المنطقة. قام البريطانيون بتسليم بعض حصون الشرطة المحلية والمعسكرات إلى العرب. إلا أنه في 27-28 أبريل تمكنت وحدات البالماخ من احتلال تلك المواقع في محنايم وحول روش بينا⁽⁶⁸¹⁾. لم يكن آلون متفائلا كثيرا بالوضع العسكري⁽⁶⁸²⁾. ومع ذلك فإنه تحت تأثير سقوط حيفا العربية والغزو العربي المحتمل الذي كان يعني مواجهات شاملة، كانت الروح المعنوية لدى العرب منهارة، وقام القادة العسكريون العرب في الفترة من 20-22 أبريل بإصدار أوامرههم بإجلاء النساء والأطفال من الدوارة، والعابسية (وهما قريرتان كبيرتان في لسان الجليل)⁽⁶⁸³⁾. كذلك قام القرويون في مغربي والقبائل البدوية في المنطقة الواقعة غربي وجنوبي بحيرة الحولة بعملية إجلاء شاملة. ومن بين الذين غادروا عرب الزبيد وأغلب سكان العلمانية، الحسينية، كراد البقارة، كراد الغنامة، وخربة الخصاص⁽⁶⁸⁴⁾.

في الأول من شهر مايو وقبل أن يستكمل آلون استعداداته، قامت عناصر المليشيا المحلية وغير النظامية المتمركزة في سورية ولبنان بهجوم فاشل على راموت نفتالي، كيبوتس دان، كيبوتس كفر سالد، وكيبوتس ليهافوت هاباشان في منطقة لسان الجليل⁽⁶⁸⁵⁾. وقد انتاب سكان العديد من القرى الخوف من أن يقعوا في

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

مرمى النيران المتبادلة مما دفعهم إلى الهرب، وتمثلت هذه القرى في مداخل، خربة العزيزات، خيام الوليد، الحمراء، غرابة، وبشكل جزئي المفخرة⁽⁶⁸⁶⁾. كما طلبت السلطات السورية، أو القادة المحليون، في ذلك اليوم من القرى الواقعة حول روش بينا إبعاد النساء والأطفال⁽⁶⁸⁷⁾. كذلك تلقى سكان قرية هونين الشيعية - الذين كانت لهم علاقات طيبة بجيرانهم اليهود على مدار السنين، وأخرى سيئة مع السنة في صفد - أوامر ربما من قبل السلطات العربية أو اللبنانية - بالإجلاء خلال ستة أيام⁽⁶⁸⁸⁾. وأسفرت الغارة التي شنتها الهاغاناه بعد مرور أسبوعين عن هروب أغلب سكان القرية⁽⁶⁸⁹⁾. (بقي حوالي 400 شخص، وقد رأى شيتريت أن على إسرائيل أن تبني علاقات جيدة مع الشيعة (الفلسطينيين)⁽⁶⁹⁰⁾، إلا أن الجيش كان له رأي آخر، وخلال الصيف تم اغتصاب أربع نساء من القرية قبل قتلهن من قبل جنود قوات الدفاع الإسرائيلية⁽⁶⁹¹⁾. في شهر أغسطس أجبرت قوات الدفاع الإسرائيلية بعض السكان على الفرار، أما الباقي فقد فر من تلقاء نفسه خلال الشهر التالي في أعقاب غارة شنتها قوات الدفاع تم خلالها قتل 20 شخصا وتدمير 20 مبنى)⁽⁶⁹²⁾.

بدأ آلون في الثاني من شهر مايو شن هجومه مستوليا على عين الزيتون وبيريا (انظر ما سبق)، ملحقا الرعب - من خلال القصف العنيف لقذائف الهاون - بقرى: فرعم، قباة، مغر الخيط (شمال شرق صفد) مما أسفر عن عملية إجلاء ضخمة. يُذكر أن القرويين كانوا يتعرضون بشكل دوري لوسائل النقل اليهودية بين روش بينا وأيبليت هاشاهار⁽⁶⁹³⁾.

في تقريره بتاريخ 22 أبريل كان آلون قد أوصى، من بين أشياء أخرى، «بمحاولة طرد البدو المقيمين بين نهر الأردن وجُوب يوسف وبحيرة طبريا» فباستهداف صفد تصبح مثل هذه العملية أمرا حتميا⁽⁶⁹⁴⁾. شن آلون في الرابع من شهر مايو «عملية بروم» ضد السكان البدويين وشبه المستقرين - القديرية، عرب السمكية، عرب السياد، عرب الشمالنة، الزنغرية - الذين قاموا على مدار أشهر بمضايقة وسائل النقل اليهودية بين طبريا وروش بينا. حدد مركز قيادة عملية يفتاح أهدافها كما يلي: «(أ) تدمير قواعد العدو ... (ب) تدمير نقاط التجمع للقوات الغازية من الشرق. (ج) الوصل بين الجليل الأدنى والجليل الأعلى بقطاع آمن نسبيا» من الأراضي اليهودية المتصلة. أما بالنسبة إلى الأوامر الصادرة للقادة العسكريين في العملية فقد تضمنت أنه يلزم

مهاجمة الزنغرية، الطابغة، وعرب الشمالنة و«طرد سكانها وتدمير منازلهم»؛ أما العرب الأصدقاء والكنائس فإنه «لا يجب إصابتهم بالأذى في أي حال من الأحوال»⁽⁶⁹⁵⁾. بدأت العملية بقصف قذائف الهاون نفذته الكتيبة الأولى من البالمخ بمساعدة من لواء إسكندروني ووحدات الهاغاناه المحلية، وتم «تدمير أغلب المنازل وإحراق الخيام في قيذار» الواقعة بين الطابغة والبطيحة (حيث يصب نهر الأردن في البحر)، وأسفر ذلك عن قتل 14 من العرب فيما فر الآخرون إلى سورية⁽⁶⁹⁶⁾. وفي الأيام التالية قام خبراء المفرقات في البالمخ بتدمير أكثر من 50 منزلاً في الزنغرية وقرى أخرى في المنطقة⁽⁶⁹⁷⁾. وفي وصفه لما رآه آنذاك، ذكر القس بونيفاس بيتلميه، من الطابغة، ما يلي:

ما كدت أنتهى من مراسم عملية المباركة، حتى دوى انفجار رهيب في الطابغة. سارعنا في الخروج لنرى أعمدة من الدخان تتعالى في السماء. كان يتم تفجير المنزل تلو الآخر وإحراقه، وعقب ذلك امتدت العملية باتجاه نهر الأردن. كافة الأشياء تم قصفها، والخيام والأكواخ تم إحراقها. وتوالى الانفجارات طوال اليوم وكانت أعمدة الدخان والنار مرئية بشكل واضح؛ وبحلول المساء عاد «المنتصرون» أدراجهم بشاحنات محملة بالماشية. وما لم يستطيعوا أخذه قتلوه ... وتم قتل والده عوض الكبير ودهان العجوز. وفي المقابل لم تصب تكية الدير، كنيسة تكثير الخبز والسّمك، أو منزل قاسم شحادة⁽⁷⁹⁸⁾.

قام السوريون بإخطار البريطانيين بأن العملية خلفت 2000 لاجئ إضافي⁽⁶⁹⁹⁾. وكما سبق لعزام باشا أن فهم وتوقع، كان آلون «يُخرج السكان» من المناطق الواقعة على أو بالقرب من الطرق التي يمكن أن تستخدمها القوى غير النظامية لدخول البلاد... مما سيضع أكبر الصعوبات أمام الجيوش العربية حتى في محاولة دخول فلسطين بعد 15 مايو⁽⁷⁰⁰⁾.

طبقاً لآلون كان لعملية بروم «أثر نفسي هائل» على قرى صفد ووادي الحولة ومهدت الطريق للاستيلاء عليها وهروب سكانها⁽⁷⁰¹⁾، وبدوره أدى سقوط صفد العربية (إلى جانب الخوف من الغزو الوشييك) إلى الإسراع في هجرة سلسلة من القرى المجاورة بها في ذلك: الجاعونة، ديشوم، الظاهرية، أبل القمح، الزوق التحتاني،

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الشوكة التحتا، قديتا، السموعي، الخالصة، والناعمة⁽⁷⁰²⁾. كما قام الكثير من سكان ميرون (غرب صفد) على الأرجح بالرحيل في ذلك الوقت⁽⁷⁰³⁾. كذلك ساعد سقوط صفد آلون في أكبر عملية حرب نفسية خلال القتال:

مع تردد أصداء (سقوط صفد)... بعيدا اهتزت ثقة آلاف العرب في [وادي] الحولة... الذين لم يعد أمامنا إلا خمسة أيام... حتى 15 مايو. وبالنسبة إلينا فإننا رأينا أنه من المحتم تنظيف الداخل في الجليل وخلق اتصال مع أراضي الجليل الشمالي اليهودية. وقد أدت المعركة الطويلة إلى تقليل عدد قواتنا، كما أننا واجهنا مهام رئيسية في سد الطرق المحتملة للغزو. قمنا بالبحث عن وسائل لا تضطرنا إلى استخدام القوة لإبعاد عشرات الآلاف من العرب المعادين لنا والذين تركوا في الجليل، والذين يمكن - في حالة وقوع الغزو - أن يضربونا من الخلف. وفي هذا الصدد حاولنا استخدام خدعة تستثمر الهزائم العربية في صفد والمنطقة التي تم تنظيفها خلال عملية بروم وهي الخدعة التي نجحت بشكل ممتاز.

قمت بجمع العمدة اليهود الذين كانت لهم علاقات مع قرى عربية مختلفة، وطلبت منهم الهمس في آذان العرب بأن هناك تعزيزات يهودية ضخمة وصلت إلى الجليل وأنها على وشك تفريغ قرى الحولة من سكانها، كذلك طلبت إليهم أن يقوموا بنصح العرب - كأصدقاء - بالهرب مادام ذلك ممكنا. وانتشرت الشائعة في كل أرجاء الحولة بأن الوقت حان للفرار. وقد شملت عملية الهرب عشرات الآلاف، مما يعنى أن الخدعة حققت هدفها بالكامل... أصبحنا قادرين على نشر قواتنا في مواجهة الغزاة المتوقعين على طول الحدود، من دون خوف من خطر قائم من خلفنا⁽⁷⁰⁴⁾.

قام رجال آلون كذلك بتوزيع منشور ينصح أولئك الذين يرغبون في تجنب إصابتهم بأذى أن يرحلوا «مع نسايتهم وأطفالهم»⁽⁷⁰⁵⁾. وقد لخص أحد قادة البالمخ - ربما يكون آلون نفسه - ما حدث على النحو التالي:

مثل تفريغ منطقة الحولة من سكانها العرب العملية المشتركة الوحيدة بين اليهود والعرب. فقد قامت أجهزة استخباراتنا بعملية إشاعات واسعة لتقوية أوامر قادة من الخارج (من سورية على ما يبدو) بإجلاء المنطقة بكاملها⁽⁷⁰⁶⁾.

وفقا للإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه فإن «18% من النزوح الجماعي من منطقة لسان الجليل كانت نتيجة لحملة الشائعات»، ونسبت الإدارة كذلك عملية النزوح الجماعي في النصف الثاني من شهر مايو- على الأقل جزئيا - إلى هذه الحملة في: قيطية، لزازة، الزوق الفوقاني، المنشية، الخصاص، المنصورة، الدوارة، العابسية، بيسمون، وملاحة⁽⁷⁰⁷⁾.

تم إجلاء العديد من القرى الأخرى بالمنطقة لأسباب مختلفة. فطبقا لاستخبارات قوات الدفاع الإسرائيلية قام سكان الخليصة بإخلاء قريتهم في الحادي عشر من مايو بعد رفض الهاغاناه طلبهم التوصل إلى «اتفاق». (مما لا شك فيه أن سقوط صفد العربية في اليوم السابق كان له تأثيره كذلك)، كما غادر سكان الصالحية في الخامس والعشرين من الشهر لسبب مماثل: «لقد أرادوا التفاوض [معنا]، لكننا لم نحضر مما أصابهم بالخوف». وقد كانت القرية تقليديا على علاقات «طيبة» مع اليشوف⁽⁷⁰⁸⁾. أما فيما يتعلق بسكان البويزية فقد قاموا بالإجلاء بالتزامن مع الخليصة، وغادر السكان المتبقون بالزاوية في ظروف أكثر مأساوية: تم قصف القرية بالهاون والإغارة عليها في التاسع عشر من شهر مايو، وقامت الكتيبة الحادية عشرة، التي كانت لديها أوامر «بالاستيلاء على القرية وتدميرها وطردها سكانها» بتنفيذ ذلك⁽⁷⁰⁹⁾. وبالنسبة إلى قرية فرعيم، التي بدأ سكانها في العودة إليها، تم حرقها في الثاني والعشرين من الشهر⁽⁷¹⁰⁾. وكنتيجة لهجمات الهاغاناه تم إجلاء قرى أخرى في نهاية الشهر وهي: عموقه، قباعة، ماروس، المالكية، وقدس⁽⁷¹¹⁾.

في أواخر شهر مايو، بدأ اللاجئون المتضورون جوعا في العودة إلى: المفتخرة، الحمراء، زوق التحتاني، الصالحية، العابسية، فرعم، بشكل أساسي لجمع المحاصيل؛ وقام العديد ببناء أكواخ في أراضي المستنقعات خارج قراهم الأصلية مما يمكنهم من الوصول إلى حقولهم في الوقت الذي يبقون فيه نسبيا بعيدا عن منال الدوريات الإسرائيلية. وقد عملت الهاغاناه على القضاء على ذلك وإقناع العائدين بمغادرة فلسطين⁽⁷¹²⁾. في الرابع والعشرين من شهر مايو بدأت البالماخ في الحرق المنظم لقرى [وادي] الحولة⁽⁷¹³⁾.

وبنهاية شهر يونيو كان جهاز استخبارات الهاغاناه في وضع يسمح له بأن يرسل تقريرا (وإن كان غير دقيق إلى حد ما) ينص على أن

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

جميع القرى العربية من منطقة صفد حتى سعسع باتجاه الشمال الغربي خالية ولم يعد سكانها إليها... وفي وادي الحولة أضحت جميع القرى شاغرة فيما عدا منطقة مستنقع الحولة، وغرابة والدرباشية، حيث وجدت تجمعات كثيفة من اللاجئين العرب... وكانت المنطقة الواقعة من مي ماروم [أي بحيرة الحولة] إلى بحيرة طبريا شرق الطريق الرئيسي الذي يربط بين طبريا - ميتولا خالية من سكانها العرب، كما كانت عليه الحال في بعض المناطق [غرب الطريق]⁽⁷¹⁴⁾.

إجمالاً، فإن تأثير الصدمة الذي أحدثه سقوط «العاصمة» الإقليمية، صفد، والهجمات اليهودية، وسيطرة الخوف من أن يكون السكان محاصرين بين النيران المتبادلة، شكلت على الأرجح الأسباب الأكثر تأثيراً في خفض الروح المعنوية والرحيل، أكثر من حملة الشائعات؛ ولوضع المقولة بشكل مختلف يمكن القول إن حيل الحرب النفسية كانت فعالة نظراً لأنها جاءت على قمة العوامل الأخرى التي تضمنت صدور أوامر بالإجلاء الجزئي أو الكلي من قبل القادة العسكريين المحليين والسوريين. إن الصورة التي تظهر في التحليلات الصادرة عن استخبارات جيش الدفاع الإسرائيلي في يونيو 1948 عن أسباب الإجلاء تبدو أكثر تعقيداً مما ذكره آلون من أن النزوح الجماعي كان ببساطة نتيجة حملة إشاعات متناسقة.

عملية بن عامي

شكل اندفاع قوات لواء كارميلي من الجليل الغربي إلى الحدود اللبنانية آخر عملية رئيسية شنتها الهاغاناه قبل انتهاء الانتداب، وبالتماشي مع نصوص الخطة «دالت» لتأمين الكتل الاستيطانية خارج حدود التقسيم. فتحت مسمى عملية بن عامي تم تنفيذ الهجوم على مرحلتين في الفترة ما بين 13 و 22 مايو، ونتج عنه الاستيلاء على جميع القرى على امتداد الطريق الساحلي من جنوب عكا إلى روش هانيكرا - البصة وبعض القرى الواقعة شرقي الطريق، فضلاً عن هروب كل سكانها تقريباً. وقد تمثلت الأهداف الرئيسية للعملية في توفير الإمدادات والتعزيزات للمستوطنات في الجليل الغربي - نهاريا وعدد من الكيبوتسات - لإبعاد السكان غير المقاتلين استعداداً للهجوم العربي الوشيك، وبشكل عام لتأمين سيطرة يهودية دائمة

على المنطقة. نصت الأوامر الصادرة بشكل محدد على الاستيلاء على القرى الرئيسية المستهدفة وتدميرها (البصة، الزيب، السميرية)⁽⁷¹⁵⁾، إلا أنها لم تشر بشكل صريح إلى آفاق ومستقبل السكان العرب. وعلى الأرجح رغب كارميل- الذي قاد العملية- في إجلائهم بشكل تام.

اهتزت قرى المنطقة بشدة عقب الهجمة التي شنتها البالماخ على قرية الكابري ليلة 31 يناير-1 فبراير التي تم خلالها تدمير دار فارس سرحان (أحد أعيان القرية التابعين للحسيني)⁽⁷¹⁶⁾. وما تلي ذلك من فرار سرحان بصحبة عائلته إلى لبنان⁽⁷¹⁷⁾. أشارت تقارير آنذاك إلى أن القرى الأخرى - الزيب، العباسية، أم الفرج، الكابري، النهر، الشيخ داوود، وكويكات - عبرت عن رغبتها في التوصل إلى اتفاق عدم اعتداء مع الهاغاناه⁽⁷¹⁸⁾. إلا أن الهجمات على وسائل النقل اليهودية استؤنفت بعد ذلك. بنهاية شهر أبريل أعدت الهاغاناه مخططاً مبدئياً لعملية سُميت عملية إيهود تضمنت الهجوم على: الكابري، النهر، البصة، الزيب، والقضاء على «العصابات والرجال وتدمير الممتلكات»⁽⁷¹⁹⁾. وشكل هذا المخطط الأساس لأمر التنفيذ العملي لعملية بن عامي. فمع بداية العملية، تحت تأثير الأحداث في يافا وصفد، كان هناك نزوح كبير من المنطقة، ونُقل أن الكابري والمزرعة هُجرا تماماً، كما نزح أغلب السكان من عكا⁽⁷²⁰⁾.

بدأت عملية بن عامي مساء الثالث عشر من شهر مايو مع توجه طابور من العربات المدرعة والحافلات التابعة للواء كارميلي باتجاه الشمال على طول الطريق الساحلي، في الوقت الذي قام فيه تشكيل من السفن بإنزال كتائب في نقاط على طول الطريق. وقد سقطت السميرية قبل بزوغ الفجر. وترك المهاجمون الجانب الشرقي من القرية مفتوحاً لتمكين القرويين من الفرار - وبالفعل سلك سكان القرية هذا الطريق مع سقوط أولى قذائف الهاون. ويذكر أن العديد كانوا قد رحلوا قبل ذلك بسبب تدهور الروح المعنوية جراء الهزائم العربية السابقة وعدم توافر الدعم من قبل جيش الإنقاذ⁽⁷²¹⁾. وقامت القوات بتدمير القرية على الفور⁽⁷²²⁾. أما فيما يتعلق بقريتي الزيب والبصة فإنهما سقطتا بعد مرور ساعات. فقد تم قصف الزيب - التي كانت معادية للصهيونية - بالهاون مما دفع سكانها إلى الفرار أثناء المعركة خوفاً من الانتقام اليهودي منهم⁽⁷²³⁾. وكان أغلب نساء وأطفال البصة قد هربوا إلى لبنان في الأسابيع السابقة. واشتكى القرويون بعد ذلك من أنه عقب استيلاء قوات

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

الهاغاناه على القرية قامت بإعدام حفنة من صغار السن⁽⁷²⁴⁾، وقامت بالتحرش واغتصاب عدد من النساء (على النحو الذي سبق حدوثه في السميرية والزيب⁽⁷²⁵⁾). خلال الأيام التالية تم نقل حوالي مائة شخص من كبار السن والمسيحيين من البصة إلى المزرعة، التي كان بها حفنة من الأفراد القادمين من الزيب؛ حيث أضحت المزرعة مركز تجميع للمتبقين من قرى المنطقة وظلت المجتمع العربي الوحيد الباقي في الساحل بالجليل الغربي⁽⁷²⁶⁾.

أدى سقوط القرى إلى إضعاف الروح المعنوية في عكا التي سقطت بدورها ليلة 17-18 مايو (انظر ما سبق). كذلك فإن سقوط عكا كان له وقع كبير على ما تبقى من قرى، التي قرر كارميلي الاستيلاء عليها في الأيام التالية، فيما أطلق عليه «عملية بن عامي - المرحلة الثانية». تضمن أمر العمليات الصادر في التاسع عشر من مايو تعليمات للكتيبة الحادية والعشرين من لواء كارميلي بفتح طريق لإيصال الإمدادات إلى كيبوتس يحيام ومهاجمة الكابري، النهر، وأم الفرج بهدف «الاستيلاء، وقتل الذكور البالغين، والتدمير والإحراق»⁽⁷²⁷⁾. وسعي كارميلي في الأيام التالية للحصول على التصديق اللازم من عمليات رئاسة أركان الهاغاناه⁽⁷²⁸⁾، وحصل عليه بالفعل. في ليلة 21-22 مايو هاجم كارميلي قرى أم الفرج والكابري، والتل، والنهر (جميعها شرقي نهاريا) وقام بتدميرها، وقد رغب كارميلي في معاقبة القرويين (خاصة في الزيب والكابري) على الأعمال الشريرة السابقة، وأيضاً التأكد من أنهم لن يعودوا على الإطلاق⁽⁷²⁹⁾. وتم إعدام عدد من القرويين في الكابري على أيدي القوات اليهودية⁽⁷³⁰⁾.

كانت آخر قرية تسقط خلال عملية بن عامي - المرحلة الثانية هي العباسية إلى الجنوب من الكابري. وعلى الرغم من أن القرويين - الذين كانوا قد ساعدوا الهاغاناه خلال الشهور الأولى من الحرب - استسلموا، فإن قوات كارميلي دخلت القرية بالسلاح وقتلت حفنة من الأفراد (تم اختيار ستة أشخاص أعدموا بعد الاحتلال) كعمل انتقامي رداً على المشاركة المزعومة في كمين «قافلة يحيام» في مارس عام 1948، والذي قتل خلاله 47 من رجال الهاغاناه⁽⁷³¹⁾. خلال الأشهر التالية عاد بعض السكان إلى ديارهم بعد حصولهم على إذن من قوات الدفاع الإسرائيلية، إلا أنه تم طردهم في يناير عام 1950⁽⁷³²⁾.

الجنوب (أبريل - يونيو 1948)

احتفظت الهاغاناه - وفيما بعد قوات الدفاع الإسرائيلية - بوضع دفاعي في الجنوب الذي لم يشهد القيام بأي هجوم رئيسي خلال تلك الفترة. إلا أنه منذ الغزو المصري في الخامس عشر من شهر مايو تم إطلاق أيدي كل من لواء النقب وغيفعاتي لتفادي الانهيار اليهودي. وقد سبق للواءين القيام بهجمات محلية في أطراف مناطق عملهم لتحقيق أهداف تكتيكية محددة لتسهيل عملية مواجهة تقدم متوقع للقوات المصرية. وقد أسفرت هجمات لواء غيفعاتي خاصة شرقي مجدل (عسقلان) وأسدود عن فرار عشرات الآلاف من السكان المحليين.

خولت التعليمات التي تضمنتها الخطة «دالت» للعقيد أفيدان قائد لواء غيفعاتي سلطة تقديرية كبيرة من أجل تحقيق الاستقرار على جبهته؛ حيث نصت على ما يلي: «سيكون عليك أن تقرر منفردا بعد التشاور مع مستشاري الشؤون العربية وضباط الاستخبارات التابعين لك، القرى التي يلزم «احتلالها، تنظيفها، أو تدميرها» في منطقتك⁽⁷³³⁾. وخلال شهر مايو وبداية يونيو؟ قبل وبعد الغزو - تحرك أفيدان لتوسيع المنطقة الواقعة تحت سيطرته باتجاه الغرب والجنوب.

في منتصف شهر ديسمبر 1947، ومجددا في فبراير 1948، سعى محمد مصطفى موسى - مختار قرية عاقر (جنوب رحوفوت) - للتوصل إلى اتفاقية عدم اعتداء مع عقرون المجاورة، كما عمل على كبح جماح الشباب والعناصر غير النظامية ومنعهم من مهاجمة وسائل النقل اليهودية. وبالفعل تم التوقيع على اتفاقية في التاسع من فبراير⁽⁷³⁴⁾. إلا أن أعيان القرية كانوا تحت ضغوط مستمرة من اللجنة الوطنية في الرملة لإظهار نشاطهم في القتال وتجنب الاتصالات مع اليهود واستقبال عناصر أجنبية غير نظامية. وبشكل عام تمكن القرويون من البقاء بعيدا عن المشاكل إلا أنه من وقت لآخر تم قفل الطرق أمام وسائل النقل اليهودية⁽⁷³⁵⁾ أدى استيلاء قوات الهاغاناه منتصف شهر أبريل على معسكر بريطاني مهجور في كفر بيلو، إلى قطع عاقر عن الرملة، مما ولد حالة انزعاج وقلق شديد بين سكان القرية⁽⁷³⁶⁾. وفي هذا السياق، سعى المختار إلى تجديد الاتفاقية المشار إليها⁽⁷³⁷⁾.

في الرابع من شهر مايو أحاطت قوات غيفعاتي بقرية عاقر ودخلتها - بشكل ظاهر بعد التوصل إلى اتفاق سري على الأقل مع بعض أعيانها - وطلبت من السكان

تسليم الأسلحة. قُتل خلال العملية أربعة قرويين وجُرح خمسة. وتم تسليم 60-70 بندقية، ومدفع وبعض المسدسات⁽⁷³⁸⁾. ومع اقتراب دورية بريطانية من المنطقة انسحب اليهود، بعد قيامهم ببعض عمليات السلب. في ضوء اعتقاد القوات المنسحبة أن المدينة قد خرجت عن سيطرتهم فإنهم أخذوا معهم من 6-8 أشخاص كرهائن «للتحقيق معهم... ومقايضتهم بإطلاق سراح أحد مرشدي [الهاغاناه] الذي وقع أسيرا [في أيدي العرب]⁽⁷³⁹⁾. كما وعدت الهاغاناه بإطلاق سراحهم عندما يتم تسليم باقي الأسلحة، وهو ما وافق عليه القرويون وقام موسى بتوقيع خطاب بهذا المعنى⁽⁷⁴⁰⁾. على الرغم مما تقدم، رحل أغلب سكان عاقر في اليوم ذاته باتجاه يبنى والمغار خوفا من أن يتم اعتبارهم خونة بسبب استسلامهم. وفي الوقت ذاته هدد لواء غيفعاتي بإعدام الأسرى إذا ما لم يتم تسليم الأسلحة⁽⁷⁴¹⁾.

عاود لواء غيفعاتي الدخول إلى القرية في السابع من شهر مايو؛ حيث لم يتبق بها سوى عدة عشرات من السكان، وقام بتدمير منزلين⁽⁷⁴²⁾. وخلال أسابيع تم طرد ما تبقى من سكان، الأمر الذي أثار العديد من الاحتجاجات في صفوف حزب مابام، الذي كانت تربطه على مدار السنين علاقات مع مجموعة صغيرة من القرى ذات التوجهات اليسارية التي كانت مستعدة للعيش في سلام مع الإشوف⁽⁷⁴³⁾.

أجرى لواء غيفعاتي عملية مماثلة لجمع الأسلحة في قرية قطرة (على بعد أربعة كيلومترات من عاقر) في 5-6 مايو من دون أن يشن هجوما حقيقيا. وأسفر ذلك عن تسليم 60 قطعة سلاح، إلا أنه خلال عملية تفتيش (أو نهب) أحد المنازل تم إطلاق النار على ضابط يهودي فأرداه قتيلا (إما بنيران عربية أو صديقة)، تلا ذلك القبض على ثلاثة أشخاص حيث طلب منهم الإفصاح عن اسم القاتل، وطلب اللواء تسليم العناصر غير النظامية الأجنبية فضلا عن المزيد من الأسلحة⁽⁷⁴⁴⁾. وأعقب ذلك قيام الهاغاناه بإعادة احتلال القرية ورحل السكان في السابع عشر من مايو إما جراء التخويف أو الطرد، في وقت بدأ فيه الجيش المصري في الاقتراب⁽⁷⁴⁵⁾.

تخللت العمليتان أعمال سلب ونهب فضلا عن تصرفات قاسية. ولاحقا أشار ضابط جهاز استخبارات الهاغاناه الذي رافق القوات، إلى العديد من المشاكل، بما في ذلك الافتقار إلى أوامر واضحة فيما يتصل بوسائل التعامل، وعدم وجود معسكرات للمعتقلين، فضلا عن السلب والنهب⁽⁷⁴⁶⁾. وبشكل

أكثر وضوحاً تضمن السجل الرسمي للواء النص على أنه بعد هاتين العمليتين سعت القيادة إلى «تقييد النزعة للسلب وإساءة معاملة السجناء»، ومن ذلك الوقت فصاعداً أصبح فقط ضباط جهاز استخبارات الهاغاناه المخولين باستجواب السجناء⁽⁷⁴⁷⁾.

لم يكن سكان قرية عرب أبو فضل (عرب السطرية الواقعة شمال غرب الرملة) متحمسين لمساعدة الحسيني، إلا أنهم وجدوا أنفسهم في مأزق بين الهاغاناه، التي طلبت منهم البقاء على الحياد أو الخضوع، والقادة العسكريين الموجودين في الرملة المجاورة الذين كانوا يحثونهم على الانخراط في العمليات القتالية. ومن ثم بدأت العائلات في الرحيل خلال شهر ديسمبر 1947. في أواخر شهر أبريل 1948 طلب الشيخ سليم، مختار القرية، حماية الهاغاناه⁽⁷⁴⁸⁾. إلا أنه وقبل أن تتمكن الأخيرة من الرد أمرت السلطات في الرملة؟ ربما لشعورها بالخيانة التي يجري الإعداد لها - السكان بالإجلاء⁽⁷⁴⁹⁾. وبالفعل بحلول التاسع من شهر مايو رحل عرب السطرية (وكذلك سكان قرية بئر سالم المجاورة)⁽⁷⁵⁰⁾. في ذلك اليوم بدأت جدياً عملية تنظيف الطرف الجنوبي من منطقة عمليات لواء غيفعاتي؟ في إطار الاستعداد للغزو - وذلك بشن عملية البرق بهدف:

حرمان العدو من قاعدة لعمليات مستقبلية ... وخلق مناخ من الذعر العام وتحطيم معنويات العدو. وتمثل الهدف في إجبار السكان العرب على «الرحيل»... ويمكن افتراض أن توجيه ضربة إلى أحد مراكز السكان أو أكثر [على سبيل المثال: مجدل، إسدود، يبنى] سيحدث عملية تشتيت [نزوح جماعي] للسكان في التجمعات الأصغر بالمنطقة. وهو أمر مرجح في ضوء موجة الذعر التي سادت مؤخراً بين العرب في البلاد.

استهدف الأمر التنفيذي الصادر للكتبتين (52) و(53) أساساً قريتي بشيت وبيت دراس. وفي تناقض واضح مع ما تضمنته المقدمة، تضمن الأمر أن يتم محاصرة القرى ومطالبتها بالاستسلام والتخلي عن أسلحتها. وفي حالة عدم امتثالها يتم قصفها بالهاون والهجوم عليها. أما فيما يتصل بقرية بيت دراس فإنه في حالة المقاومة يلزم «تدميرها ... والتعامل معها بسياسة الأرض المحروقة»⁽⁷⁵¹⁾. وفي أمر لاحق للمتابعة، صدر مساء العاشر من مايو، تم تكليف الفرقة 53 وقوات البالماخ التابعة

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

لها بإخضاع قرية البطاني الشرقي وجارتها البطاني الغربي باستخدام «الوسائل نفسها التي تم اتباعها مع عاقر، بشيت، وبيت دراس»⁽⁷⁵²⁾.

أسفرت هجمات لواء غيفعاتي عن تحقيق النزوح الجماعي المرغوب فيه، وقد سبق كل هجوم أرضي عملية قصف بقذائف الهاون على القرى. وفيما يتعلق ببيت دراس كان قد سبق لها أن تلقت ضربة قاسية خلال عملية انتقامية قامت بها الهاغاناه ليلة 20-21 أبريل، سقط خلالها ما يقرب من مائة قروي بين قتيل وجريح وفر العديد من السكان إلى مجدل، غير أن بعضهم أجبرته العناصر غير النظامية هناك على العودة إلى القرية⁽⁷⁵³⁾. وقام لواء غيفعاتي بمهاجمة بيت دراس للمرة الأخيرة في 10-11 مايو؛ حيث واجه مقاومة كبيرة من قبل القرويين الذين خسروا 50 فردا في المعركة. وفي أعقاب ذلك «تم تفجير العديد من المنازل وإحراقها، كما تم تخريب الآبار ومخازن الحبوب». وأسفر كل ذلك عن عملية نزوح جماعي في كل أرجاء المنطقة⁽⁷⁵⁴⁾؛ حيث فر القرويون من عبدس، جولس، وبيت عفا⁽⁷⁵⁵⁾. وخلال تلك الليلة تم أيضا الاستيلاء على كل من السوافير الشمالية وبشيت بعد مواجهات شديدة؛ وهناك أيضا تم تفجير المنازل⁽⁷⁵⁶⁾. وشهدت الفترة من 10-12 مايو قيام وحدات من المنطقة الفرعية في إفرايم بعمليات قصف متكررة والهجوم على قرية النبي روبين وإن لم يحالفها النجاح، وكان الهدف هو إجبار السكان على النزوح⁽⁷⁵⁷⁾. كان من بين نتائج الهجوم على بيت دراس أن أثار موجة من النزوح في قرية البطاني الشرقي المجاورة. وعندما دخلتها قوات غيفعاتي في الحادي عشر من الشهر وجدتها خالية باستثناء عدد قليل من كبار السن. وطبقا لأحدهم فإن باقي السكان رحلوا «وفقا لتعليمات المخاتير»، وتضمنت تقارير استخبارات الهاغاناه صراحة⁽⁷⁵⁸⁾ قيام القوات بإعدام أربعة من الأشخاص الباقين بناء على تعليمات من قائد الفرقة 54. أما بالنسبة إلى قرية برق فقد تم احتلالها في 12 مايو⁽⁷⁵⁹⁾.

في الثالث عشر من شهر مايو بدأ لواء غيفعاتي تنفيذ المرحلة الثانية لهجومه تحت مسمى «عملية مكابي». قذفت قرية أبو شوشة (جنوب شرق الرملة) بالهاون ليلة 13-14 وتلا ذلك اقتحام وحدات الفرقتين (51) و (54) القرية التي هرب بعض سكانها وتم تدمير منازلها⁽⁷⁶⁰⁾. إلا أن الكثير من القرويين بقوا في القرية. وفي التاسع عشر من الشهر نقلت وحدة تابعة للجيش العربي من منطقة قريبة أن «اليهود ...

يقتلون القرويين في أبو شوشة»، وبعد مرور يوم أوضح غيفعاتي أن عدد القتلى من العرب خلال الهجوم ليلة 13-14 بلغ 30 شخصا على الرغم من أن العرب ادعوا أن «أكثر من 70» شخصا قد قضاوا. وربما كان هذا التقرير وسيلة ملتوية لتجنب الإشارة إلى القتل بعد 14 مايو⁽⁷⁶¹⁾. في الحادي والعشرين من الشهر أخطرت السلطات العربية في الرملة الصليب الأحمر أن «اليهود ارتكبوا أعمالا وحشية» في أبو شوشة، مطالبة بتدخل الصليب الأحمر⁽⁷⁶²⁾. وقد حاول أحد جنود الهاغاناه مرتين اغتصاب امرأة سجينة في العشرين من عمرها⁽⁷⁶³⁾. في نهاية الأمر طرد من تبقى من سكان القرية يوم 21 مايو⁽⁷⁶⁴⁾.

خلال الهجوم على أبو شوشة حُوصرت قرية نانا ونُزع سلاحها بعد احتجاز 11 من أعيانها كرهائن⁽⁷⁶⁵⁾. كان الكثير من سكانها قد رحلوا، غير أنهم بدأوا في العودة في 17 مايو⁽⁷⁶⁶⁾. وخلال الهدنة الأولى حاول القادة العسكريون المحليون التأثير في اتجاه خروج السكان بحجة أنهم كانوا معرضين لمخاطر أمنية⁽⁷⁶⁷⁾، وفي الثاني عشر من يونيو - أي اليوم التالي لبدء الهدنة - احتلت قوات الدفاع الإسرائيلية القرية⁽⁷⁶⁸⁾. وأمر القرويون بالرحيل في الأيام التالية أو تم تخويفهم للقيام بذلك⁽⁷⁶⁹⁾.

هُوجمت قرية القباب (شمال غرب اللطرون) كجزء من عملية مكابي وتم الاستيلاء عليها في الخامس عشر من شهر مايو⁽⁷⁷⁰⁾. كما استولت الكتيبة (53) من لواء غيفعاتي على قرية المغار (جنوب غرب عاقر) في اليوم ذاته، حيث وجدت القوات «عددا قليلا من كبار السن والنساء»⁽⁷⁷¹⁾.

في الثامن عشر من شهر مايو استولت الكتيبة (51) - للمرة الثانية - على السوافير الشرقية والسوافير الغربية المجاورة. وقد كلف الأمر التنفيذي للعملية (بشكل تقليدي) السرية (ج) من الكتيبة (51) بأن:

تطرد العدو من القرى... تنظف خط المواجهة... تستولي على القرى،

وتطهرها من السكان (يلزم طرد النساء والأطفال أيضا)، وتلقي القبض على

العديد من الأشخاص... وتحرق أكبر قدر ممكن من المنازل⁽⁷⁷²⁾.

وُجدت القريتان تقريبا مهجورتين تماما، وفجّر الجنود وحرقوا العديد من المنازل. بيد أنه بعد الانسحاب عاد قرويون وأطلقوا النار على القوافل الإسرائيلية، وغلق على ذلك أحد قادة لواء غيفعاتي بقوله:

هناك مشكلة في الاستيلاء على القرى: فنتيجة لنقص المعدات المناسبة لهدم واحتلال القرى التي تم الاستيلاء عليها في معارك صعبة، فإننا مضطرون إلى مغادرتها بعد ساعات قليلة. وكان هذا ما حدث في عاقر، بشيت، بيت دراس، والسوافير. يجب علينا أن نطلب من القادة العسكريين البحث بجدية في أن يكون الاحتلال مستمرا، وأن يكون هناك إعداد مسبق للجرافات، والوقود والمتفجرات⁽⁷⁷³⁾.

بحلول نهاية شهر مايو كانت كل من السوافير الغربية والسوافير الشرقية مجددا ممتلئة بالعرب⁽⁷⁷⁴⁾.

ظلت المشكلة المتعلقة بترك القرى التي يُستولى عليها من دون حماية وفي حالة جيدة، مما مكن القرويين من العودة بسهولة بعد مغادرة الهاغاناه، تؤرق لواء غيفعاتي. وعلى سبيل المثال، في الثالث والعشرين من شهر مايو تضمن تقرير للإدارة السياسية لجهاز استخبارات الهاغاناه أن فلاحى السوافير والقرى المجاورة لها: بيت دراس، الجلادية صميل (المسعودية)، جسير قد قضاوا الليل في الحقول وعادوا إلى قراهم للعمل نهارا⁽⁷⁷⁵⁾. ومع ذلك فإن هجمات الهاغاناه والتدمير الجزئي للقرى أصاب السكان باليأس⁽⁷⁷⁶⁾، وأسهم في نزوحهم الجماعي الدائم.

بالتنسيق مع تقدم لواء غيفعاتي جنوبا، تقدّم لواء النقب التابع للبالماخ خلال شهر مايو بشكل محدود باتجاهي الشمال والشرق؛ حيث جرى الاستيلاء على برير (شمال شرق غزة) في 12-13 مايو. وهرب سكانها إلى غزة. وقتلت قوات الكتيبة التاسعة عددا كبيرا من القرويين، وأعدم عشرات من الذكور في سن التجنيد. كما تردد كذلك أنهم اغتصبوا وقتلوا طفلة في العاشرة من عمرها⁽⁷⁷⁷⁾. وفي اليوم ذاته طُرد سكان قريتي سمس ونجد (في الغرب). وفي سمس لم تجد القوات سوى حفنة صغيرة من كبار السن. ودمروا عددا من المنازل وهددوا بأنه إن لم تُسلم أسلحة القرية في اليوم التالي فإنهم سيدمرون ما تبقى⁽⁷⁷⁸⁾. استمر القرويون في العودة بشكل متكرر إلى القرية إما للإقامة وإما للزراعة. وبنهاية شهر مايو اقتحمت وحدة من لواء النقب قريتي سمس وبرير بأوامر واضحة: «طرد السكان وحرق صوامع الحبوب والحقول»، وقد واجهت الوحدة مقاومة في سمس قُتل خلالها 5 أشخاص (وطبقا لتقرير آخر 20)، ودُمرت الصوامع وبئر المياها⁽⁷⁷⁹⁾. عاودت القوات الدخول إلى القرية في 9 أو 10 يونيو، وحرقت مجددا منازل واحتكت بالعرب⁽⁷⁸⁰⁾.

هرب سكان قريتي كوكبا وحليقات (في الشمال) باتجاه الغرب في منتصف شهر مايو متأثرين بسقوط برير⁽⁷⁸¹⁾. وبعد مرور أسبوعين، وعلى وجه التحديد ليلة 27-28 مايو، أغارت وحدات لواء النقب على قريتي المحرقة وكوفخة (جنوب برير) وطردت سكانهما⁽⁷⁸²⁾. وكان القرويون في كوفخة قد سبق لهم التقدم بطلبات متكررة - لم يُستجب لها - للاستسلام والقبول بالإدارة اليهودية على أن يُسمح لهم بالبقاء⁽⁷⁸³⁾. فقد نظرت الهاغاناه إلى مثل تلك الطلبات على أنها غير مخصصة ولا قيمة لها، فضلا عن أنه بوجود الجيش المصري على مقربة، كان من المفضل عدم المخاطرة بذلك.

جرى الاستيلاء على قرية بيت طيما (شمال برير) من قبل الفرقة السابعة بلواء النقب في 30 - 31 مايو؛ وقُتل خلال الهجوم 20 عربيا، كما حُرقت صوامع الحبوب ودمرت بئر المياه⁽⁷⁸⁴⁾. وفي 31 مايو طُرد سكان قرية هوج (الواقعة على بعد سبعة كيلومترات جنوب برير) إلى قطاع غزة. وقد كانت القرية تقليديا على علاقات طيبة مع اليهود؛ حيث أخفى سكانها في العام 1946 بعض عناصر الهاغاناه الذين كان البريطانيون يتعقبونهم. وفي منتصف ديسمبر 1947 أطلقت النار على مختار القرية وشقيقه اللذين كانا في زيارة إلى غزة من قبل مجموعة اتهمتهما «بالتعاون» مع اليهود⁽⁷⁸⁵⁾. بيد أنه في نهاية مايو 1948 قرر لواء النقب - آخذا في الاعتبار تقدم طوابير الجيش المصري واقتربه - طرد السكان، وأعقب ذلك نهب وتدمير منازلهم⁽⁷⁸⁶⁾.

إلى الشمال، وبالقرب من رحوفوت، سيطر لواء غيفعاتي في 26 و 27 مايو على قرية القبيبة وزرنوقة المجاورة وشبه المهجورة، وكانت زرنوقة قرية «صديقة» لليهود؛ حيث إنها كانت اقتصاديا تعتمد على الرواتب التي يُحصل عليها نتيجة العمل في مزارع البرتقال المملوكة لليهود⁽⁷⁸⁷⁾. وفي مطلع شهر ديسمبر 1947 سعى القرويون إلى توقيع اتفاق عدم اعتداء مع مستوطني رحوفوت⁽⁷⁸⁸⁾. غير أن ذلك لم يوثق رسميا على الإطلاق. خلال شهر أبريل 1948 دخلت كتيبة من العناصر غير النظامية القرية. ومع بدء الغزو المصري في الخامس عشر من مايو أصبحت الحرب قريبة جدا. وفي هذا السياق أرادت إحدى العشائر بالقرية، عشيرة دار الشوربجي، تسليم أسلحتها والقبول بحماية الهاغاناه، الأمر الذي رفضته بقية العشائر، وأجلى

الموجة الثانية : النزوح الجماعي...

أغلب كبار السن والنساء والأطفال إلى بينى المجاورة. وبقي رجال عشيرة الشوربجي إلى جانب العشرات من الرجال المسلحين من العشيرتين الأخرين⁽⁷⁸⁹⁾.

بدأ هجوم لواء غيفعاتي على القرية في السابع والعشرين من مايو بقصف كثيف من مدافع الهاون⁽⁷⁹⁰⁾ أعقبه دخول القوات القرية. وأُرسل وصف تصويري لما حدث بعد ذلك إلى صحيفة حزب مابام اليومية، هاميشمار:

أخبرني جندي كيف فتح أحد زملائه الباب وأطلق النار على رجل عجوز وامرأة عجوز وطفل في سلسلة طلقات متتالية؛ كيف أخذوا العرب خارج منازلهم وأوقفوهم تحت أشعة الشمس الحارقة طوال اليوم وتركوهم يعانون العطش والجوع حتى سلموهم 40 بندقية... وكانوا ادعوا سابقا أنهم لا يملكون سلاحا، وفي نهاية الأمر طردوا من القرية باتجاه بينى.

وقد احتج العرب على إرسالهم باتجاه أعدائهم - العرب المعادين للصهاينة - الذين لم يسمحوا لهم بدخول قريتهم زرنوقة، «غير أن ذلك لم يشفع لهم، وغادروا القرية وهم يبكون ويصرخون»⁽⁷⁹¹⁾.

إجمالا قُتل ستة من بين السكان (ثلاثة رجال، امرأتان، وفتاة)، واعتُقل 22 شخصا⁽⁷⁹²⁾. وفي اليوم التالي عاد السكان قائلين إن سكان بينى طردوهم باعتبارهم «خونة لا يستحقون حسن الوفادة». وقد شاهد العائدون القوات اليهودية والمستوطنين من المناطق المجاورة ينهبون منازلهم. وأمروا للمرة الثانية بالرحيل. وأخيرا دُمرت منازل القرية خلال شهر يونيو⁽⁷⁹³⁾.

استولى لواء غيفعاتي في الأيام التالية على العديد من القرى بما في ذلك جولدس (27 مايو، ومجددا في 11 يونيو)، جسير (11 يونيو)، وبينى. وكان اللواء مهتما «بإجلاء» قرية بينى الكبيرة، كما يوضح ذلك التاريخ الرسمي⁽⁷⁹⁴⁾. تحركت كتيبة من المتطوعين العراقيين إلى داخل القرية في منتصف شهر مارس. وفي الثلاثين من الشهر نفسه قتل ما يزيد على عشرين قرويا في عملية انتقام شنتها الهاغاناه⁽⁷⁹⁵⁾. وفي الحادي والعشرين من شهر أبريل قبض على القائد العسكري العراقي بالقرية، عبد الرزاق، في يافا وهو في حالة سكر أطلق خلالها النار على عربيين⁽⁷⁹⁶⁾.

استولت وحدات من الفرقتين 51 و57 التابعتين للواء غيفعاتي على قرية بينى في الخامس من يونيو. وقد تضمن أمر العمليات النص على «استكمال تنظيف

المنطقة من عناصر العدو المحاربة»⁽⁷⁹⁷⁾. وكان أغلب سكان قرية يبنى قد فروا إلى أسدود في السابع والعشرين من شهر مايو بعد سقوط القبية وزرنوقة، بيد أن رجال المليشيات هناك أجبروا الذكور المسلحين على العودة إلى القرية⁽⁷⁹⁸⁾. بعد قصف القرية بالهاون وتبادل قصير لإطلاق النار، دخلت وحدات غيفعاتي القرية ووجدتها مهجورة «باستثناء بعض كبار السن من الرجال والنساء»، الذين أرسلوا لحزم أمتعتهم⁽⁷⁹⁹⁾. وأضحت تلال الرمال جنوب المدينة ممتلئة باللاجئين الفارين باتجاه أسدود، وأطلقت عناصر لواء غيفعاتي قذائف المدفعية بهدف «تضخيم شعورهم بالذعر»⁽⁸⁰⁰⁾.

بعد مضي شهرين على الأحداث أصدر مركز قيادة غيفعاتي تقريراً يلخص العمليات التي قام بها اللواء في الفترة من «15 مايو حتى 2 يونيو» تضمن: في الوقت الذي تركنا فيه فرقة كستار لمواجهة المصريين الذين يتقدمون، «كانت بقية الفرق منتشرة في خطين دفاعيين ووظفت في عملية تنظيف المنطقة الداخلية، وهي العملية التي نُفذت كاملة»⁽⁸⁰¹⁾.

عشية الهدنة الأولى تلقى لواء النقب تعليمات من عمليات رئاسة أركان قوات الدفاع الإسرائيلية تضمنت: «خلق حقائق ذات أهمية سياسية على أرض الواقع» و«تنظيف كل القرى العربية التي احتلتها القوات المسلحة المصرية». وتعلق الأمر على وجه التحديد بقريتي جولس وياصور اللتين كان يلزم احتلالهما «عدة ساعات» قبل بدء الهدنة (للتأكد من أن المصريين لن يكون لديهم الوقت، قبل أن تدخل الهدنة حيز التنفيذ، لإعادة الاستيلاء عليهما)⁽⁸⁰²⁾.

لم يكن سلوك الهاغاناه وقوات الدفاع الإسرائيلية في كل أرجاء البلاد متناغماً. فلواء غيفعاتي والنقب مالا إلى طرد التجمعات القريبة من خطوطهم في الجبهة على خلفية اقتتال القوات المصرية الغازية، الذين اعتقدت رئاسة أركان الهاغاناه - على مدار أسابيع - أنها أقوى مما كانت عليه. أما فيما يخص عمليات لواء غولاني وكارميلي فلم يجمعها أي قاسم مشترك من حيث الخصائص وما خلفته من آثار. في السادس عشر من شهر مايو، بعد مرور ساعات على شن القوات السورية والعراقية الغزو، استولى لواء غولاني على قريتي إندور وكوكب الهوا. وغادر أغلب السكان في إندور (اسمها التوراتي هو عين دور، أي بيت الساحرة) على الأرجح في بداية المعركة،

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

والعديد من الذين قُبض عليهم، «وحاولوا [لاحقا] الهروب»، قُتلوا رميا بالرصاص. تم الاستيلاء على ثلاث بنادق. وقد ترك القائد في القرية حامية صغيرة في حين «نُقلت [البقية الباقية] من السكان باتجاه الناصرة»⁽⁸⁰³⁾. بعد مرور أسبوعين، في السابع من شهر يونيو، دخلت دورية كبيرة من لواء غولاني على متن سيارة مدرعة وبصحبة ثلاث حافلات عسكرية إندور من دون أن تصادف أي «قوى أجنبية»، ودمرت منزلين، مواصلةً تقدمها بعد ذلك لتدخل قرية طمرة الكبيرة، حيث لم تجد إلا نساء وأطفالا فقط (نظرا إلى هروب الرجال لدى معرفتهم بقرب وصول القوة). وطلبت القوة من القرويين تسليم الأسلحة أو «الرحيل خلال نصف ساعة». وعاد قائد القوة ليمدد الفترة إلى عدة أيام. وانتقلت الدورية بعد ذلك إلى كفر مصر وتمكنت من مباغته رجال القرية. وطلب القائد منهم تسليم الأسلحة خلال نصف ساعة وإلا سيكون على الرجال الرحيل. وتبع ذلك تسليم القرويين 8 بنادق واعددين بإحضار المزيد صباح اليوم التالي. وفضلا عن ذلك «طلبوا السماح لهم بالاستمرار في الحصاد وأن تكون لهم حرية الحركة إلى الناصرة. قلت إنهم سيتلقون الإجابة عن طلبهم بعد تسليمهم الأسلحة». واصلت الدورية تقدمها لتدخل قرية ناعورة (إلى الجنوب من طمرة)؛ حيث كان أغلب الرجال قد رحلوا، وأوضح المختار أنهم سيسلمون السلاح إلى اثنين من الضباط المحليين. وقد ذكر قائد الدورية: «ليست هناك حاجة إلى طرد هؤلاء السكان وإنما يلزم التوصل معهم إلى اتفاق بعدما يقومون بتسليم الأسلحة»⁽⁸⁰⁴⁾.

في المقابل تصرفت قوات أخرى تابعة للواء غولاني بطريقة مختلفة (إن لم تكن شاذة إلى حد ما). ففي الرابع من شهر يونيو استقلت فصيلتان من الفرقة 12 - (فرقة باراك) التابعة للواء- بقيادة حاييم ليفاكوف ثلاث حافلات وسيارة جيب، واندفعت باتجاه قرى حدثا، عوم، سيرين، ومعذر، على بعد ما يقرب من عشرة كيلومترات غربي وجنوب غرب سمخ. وجدت القوة في كل من حدثا، وعوم، ومعذر حفنة من العرب مشغولين بالحصاد. كان في حوزتهم جميعا تصريح مكتوب بالبقاء. أما في سيرين فلم يكن هناك سوى مائة فرد. قامت القوة بالتحقق من بطاقات هويتهم وبالتفتيش بحثا عن الأسلحة (لم يُعثَر إلا على بعض السكاكين) ثم غادرت القرية؛ حيث لم يُعثَر على عناصر غير نظامية معادية وُترك السكان في مكانهم - على

الرغم من أن ضابط الاستخبارات في الفرقة كان قد أوصى في تقريره بأنه يلزم «طرد العرب من المنطقة، والقبض على الشباب، ومصادرة المحاصيل...»⁽⁸⁰⁵⁾.

بعد مرور نصف قرن، وصف فيكتور أوفيد - أحد الإسرائيليين المشاركين في هذه الدورية أو دورية أخرى مشابهة - الموقف كما يلي:

في أحد أيام الصيف الساخنة، وفي إطار الجهود المبذولة لتطهير المناطق من العناصر المعادية، أرسلنا منتصف الليل للتفتيش في بعض القرى الواقعة خارج رمات يفتيل... اقتربنا... سيرا على الأقدام... وعلى مسافة قريبة بدأنا في شم الرائحة الخاصة المنبعثة من القرية العربية، وسمعنا أصوات الدواجن والحمير... ونباح العشرات من الكلاب. وفي دقائق قليلة كنا على أطراف القرية... وبدأ العشرات من القرويين في الصراخ: جاء اليهود... استدعي المختار للقاء القائد الذي أمره بإجلاء القرية في وقت معقول. وهكذا انتقلنا من قرية إلى أخرى وأجرينا تفتيشا دقيقا من منزل إلى آخر (بحثا عن العناصر المعادية) لكن من دون نجاح. وفي آخر وأكبر القرى أمر المختار - كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى القرى الأخرى - بمنع دخول القوات المعادية.

عندما كانت القوة الإسرائيلية على وشك الانصراف اقترب عربي من القائد «وبدا في تقبيل يديه وقدميه» واشتكى أنه خلال عملية التفتيش اختفت رزمة من الأوراق النقدية من جيب معطف كان معلقا في المنزل، وأخبر القائد الجنود الموجودين بأن القوة لن تتحرك حتى يُعاد المال واعداء بعدم معاقبة المذنب، وفجأة ألقى المال على الأرض وأُعيد إلى القروي الذي «قبل يدي وقدمي» القائد مرة بعد مرة... وعدنا إلى القاعدة راضين ولكن نشعر بالمرارة». وبعد ذلك غادر القرويون الموقع آخذين معهم ما يمكنهم حمله بما في ذلك الماشية، و«الأبواب، والنوافذ... وخلال عمليات القتال التي تلت كانت تلك المنطقة هادئة مما وفر على جيش الدفاع الكثير من القوات وجنبتها العديد من الصدمات»⁽⁸⁰⁶⁾.

في عملية أخرى جرت بعد مرور ثلاثة أيام، أغارت فصيلة من فرقة باراك بقيادة إسحاق شسترمان على متن حافلة وسيارة جيب على قرى: دنه، البيرة، كفر، يبلى، جبول، المرصص (شمال وشمال غرب بيسان)، وقد مرت القوات أولا بقرية الطيبة

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

وجماعة تابعة لها في جبل طيرة الحرب (شمال شرق موليديت) - مجموعة من الأفراد كان قد سُمح لهم بالبقاء. اتخذت القوات مواقع في مناطق مرتفعة تطل على ضواحي كل من القرى المستهدفة بدءا بقرية دَنَه، وبدأت بإطلاق قذائف هاون من عيار 2 بوصة على مركز القرية، ثم بدأت عملية الاقتحام والتفتيش. وجدت القوات كلا من دَنَه، البيرة، كفرة، يبلى، والمرصص خالية من السكان. أما في جبول فقد قابلت فلاحين يقومون بالحصاد بادروا بالفرار عند رؤيتهم. «فتحت قواتنا النار من دون أن تصيب أحدا». هرب العرب أيضا من القرية. «وحرقت جنودنا المحاصيل والعديد من المنازل». وعادت الفصيلة بعد ذلك إلى قاعدتها⁽⁸⁰⁷⁾. لخصت عمليات رئاسة أركان قوات الدفاع الإسرائيلية الموقف كما يلي: «كانت هناك دوريات عنيفة في قرى الجليل الجنوبي، وكان العرب يرحلون، وأولئك الذين يعودون إلى ديارهم كانوا يطردون»⁽⁸⁰⁸⁾.

في ليلة 10|11 يونيو، عشية الهدنة الأولى، هاجمت وحدة من لواء غولاني واحتلت قرية فقوعة (الواقعة على بعد 10 كيلومترات غرب بيسان) وطردت سكانها ودمرت 30 من منازلهم⁽⁸⁰⁹⁾. وإلى الشمال صدرت الأوامر للفرقة (14) التابعة للواء بالاستيلاء على لوبيا (غرب طبريا) و«طرد سكانها» - غير أن الفرقة صادفت مقاومة عنيفة وفشلت في الاستيلاء على القرية⁽⁸¹⁰⁾. وغربا تمكنت وحدات تابعة للواء كارميلي ليلة 5|6 يونيو من الاستيلاء على قريتي المكر وجديدة، غرب عكا، بعد تبادل قصير لإطلاق النار. وكانت التعليمات الصادرة للقوات تشمل: مصادرة الأسلحة، وفي حالة وجود مقاومة قوية من قبل جديدة تُدمر، أما إذا خضعت فإنه يكون التعامل مع سكانها «بطريقة طيبة». وكانت التعليمات نفسها تنطبق على التعامل مع قرية المكر. استسلمت كلتا القريتين في واقع الأمر وسلمتا أسلحتهما، وهرب بعض المسلمين من المكر غير أن الجانب الأعظم من السكان في الموقعين سُمح له بالبقاء. ومع ذلك قتل الجنود الإسرائيليون تسعة من العرب في منطقة مجاورة لقرية جديدة: خمسة سجناء قُبض عليهم قبل بداية العملية، وقُتلوا من قبل حارس «ظن أنهم يهربون (أو ادّعى ذلك)»، واثنان قُتلا لمنعهما من إخبار القوات المعادية عن الأماكن التي زرعت فيها القوات ألغامًا، واثنان آخران قُتلا في بداية العملية عندما كانت قافلة من «الكلاب والجمال» تقترب من القرية⁽⁸¹¹⁾.

يتضح مما تقدم أن كلا من لواء غولاني وكارميلي لم يكن لديهما توجيهات شاملة وواحدة فيما يتصل بالتعامل مع المجتمعات العربية خلف وعلى طول خطوط القتال (باستثناء نزع سلاحهم): بعض الوحدات طردت القرويين أو تأكدت من أن القرى ستظل فارغة من السكان، في حين اكتفت وحدات أخرى بدخول القرى وتفتيشها ونزع سلاحها. وعلى عكس المنطقة التي عمل فيه لواء غيفعاتي، لم تسفر عمليات التفتيش عن السلاح عن طرد تلقائي للسكان بعد ذلك. وعلى الرغم من أن بعض المجتمعات التي تُركت في مكانها طُردت بعد ذلك، فإن أخرى تُركت بشكل دائم ومازالت تلك القرى المسلمة الكبيرة توجد حتى اليوم (المكر، جديدة، وغيرهما...).

خاتمة

يتضح مما سبق عرضه أن المحصلة الرئيسية المتمثلة في الموجة الثانية من النزوح - التي شملت 250 ألفا إلى 300 ألف من اللاجئين - لم تكن نتاجا لسياسة عامة مخطط لها سلفا من قبل اليشوف، فنزوح شهري أبريل ومايو أدهش قيادة اليشوف، على الرغم من أنه نُظر إليه على الفور باعتباره ظاهرة يمكن استثمارها، وقد أوضح ذلك غاليلي في الحادي عشر من مايو قائلا:

حتى 15 مايو وكذلك بعد ذلك التاريخ يجب أن نستمر في تطبيق خطة

العمليات العسكرية [المقصود الخطة دالت]... وألا نأخذ في الاعتبار انهيار

وفرار التجمعات في أعقاب سقوط حيفا... على الرغم من أن هذا الانهيار

يسهل من مهماتنا⁽⁸¹²⁾.

يمكن ملاحظة تحول رئيسي في سلوك الهاغاناه والمنفذين المدنيين تجاه المجتمعات العربية خلال النصف الأول من شهر أبريل، عندما أصبح اليشوف يترنح تحت وطأة معارك السيطرة على الطرق، وبدأ يستجمع قواه لمواجهة الغزو العربي المتوقع. فالخطوط العامة للخطة دالت التي صيغت مطلع شهر مارس تضمنت - إلى درجة ما - هذا التوجه الجديد. فقد تمثل جوهرها في ضرورة تأمين المناطق الريفية من أراضي الدولة وطرقها الرئيسية؛ وأن ذلك سيتم بشكل أفضل مع طرد

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

المجتمعات المعادية أو التي يمكن أن تكون كذلك وتدمير سلسلة من القرى. وخلال النصف الأول من شهر أبريل أقر بن غوريون ورئاسة أركان الهاغاناه بسلسلة من العمليات الهجومية - في واقع الأمر هجمات مضادة (عملية نحشون، والعمليات في محيط ميشمار هعيمك) - عكست الخطوط الرئيسية للخطّة. وخلال الأسابيع التالية، أدت هجمات الهاغاناه والإرغون في حيفا، ويافا، والجليل الشرقية والغربية إلى الإسراع في النزوح الجماعي.

نُظر إلى هذا النزوح من قبل الدول العربية واللجنة العربية العليا خلال الشهور الأولى على أنه ظاهرة عابرة ليست لها نتائج ذات مغزى خاص. وقد سعى القادة الفلسطينيون المدنيون والعسكريون إلى مقاومة هذه الظاهرة من دون أن يحالفهم النجاح. كان من شأن تحول النزوح الجماعي خلال شهر أبريل إلى «جيشان ديموغرافي» أن فاجأ اللجنة العربية العليا والدول العربية التي كانت تجهله بشكل كبير وأحدث حالة من الارتباك؛ حيث ألقى الضوء على ضعف اللجنة (والفلسطينيين) وعدم قدرة الدول العربية - مادام الانتداب قائما - على التدخل. وفي الوقت ذاته فإنه دفعهم أكثر باتجاه الغزو الذي لم يكونوا متحمسين له بشكل كبير. لا يوجد أي دليل على أن الدول العربية واللجنة العربية قد أرادوا حدوث نزوح جماعي أو أصدروا أوامر مفتوحة أو نداءات تدعو إلى الهرب، وفي الوقت ذاته فإنهم عادة من كانوا يشجعون القرويين (وفي بعض المناطق من قاطني المدن) على إرسال نسائهم وأطفالهم بعيدا عن مناطق الخطر. كذلك أصدر القادة السياسيون والعسكريون أوامر لبعض القرى بالإجلاء بهدف استباق إمكان قبولهم بالإدارة اليهودية (الخيانة). وأصدرت الدول العربية في بعض المناطق (الأماكن الواقعة حول القدس، وتلك الواقعة على طول الحدود السورية) تعليمات لقرى بالرحيل الكامل لدواعٍ استراتيجية.

تميّزت الصورة التي نتجت عن ذلك بالتعقيد والتنوع؛ حيث اختلفت بشكل كبير من موقع إلى آخر ومن أسبوع إلى آخر، وفي محاولة لاستخلاص نماذج في هذا الصدد فإنه يلزم التمييز بين المدن والريف.

يلزم النظر إلى عمليات إجلاء المدن - خلال شهري أبريل ومايو - على أنها مثلت الذروة لسلسلة من العمليات والأحداث، وجاءت على خلفية وضعية الضعف

الرئيسية للمجتمع الفلسطيني: فقد عانى السكان العرب في حيفا، يافا، طبريا - وبدرجة أقل في صفد وبيسان وعكا - على مدار شهور من انهيار الإدارة والقانون والنظام، وصعوبات في الاتصالات والإمدادات، والعزلة، والحصار، والمناوشات وأعمال التحرش المتقطعة من قبل القوات اليهودية. كذلك فإنه في حالة يافا وحيفا والقدس، أسهم النزوح الجماعي المستمر للطبقتين الوسطى والعليا على مدار الفترة من ديسمبر 1947 حتى مارس 1948، بشكل كبير في إضعاف الروح المعنوية للسكان المتبقين، ووفر لهم نموذجا للرحيل في حالة ما أصبحت الظروف لا يمكن احتمالها. فلطالما تطلعت الجماهير الريفية (والفلاحون) إلى طبقة الأعيان للقيادة.

شكل سقوط ونزوح سكان المدن الأخرى أحد الأسباب الرئيسية وراء عملية النزوح الجماعي من المدن، فنزوح عرب طبريا قدم نموذجا لقادة عرب حيفا عشية اتخاذهم قرار الإجلاء. كما أنه أدى إلى إضعاف الروح المعنوية في صفد. وكان سقوط ونزوح عرب حيفا أكثر وضوحا في هذا الخصوص؛ حيث أثر بشكل قوي في عرب يافا ونشر الروح الانهزامية في كل أرجاء الشمال، ما أثر في صفد، بيسان، وعكا. فإذا كان مقدرا لحيفا أن تسقط وينتزع سكانها من جذورهم، فكيف يمكن لتجمعات سكانية أصغر ونسبيا ضعيفة التسليح أن تصمد؟ والأكثر من ذلك، أسفر سقوط طبريا عن عملية نزوح جماعي من القرى الممتدة على شاطئ بحيرة طبريا (غوير، أبو شوشة، وغيرهما). كما أن انهيار يافا كان له أثر مشابه في قرى من قبيل: سلمة، ويزور، والخيرية.

في المقابل، أدت هزيمة القرى الداخلية وهجرة سكانها إلى إضعاف الروح المعنوية في المدن؛ حيث شعر سكان المدن كما لو كانوا معزولين. فسقوط خربة نصر الدين أضعف الروح المعنوية في طبريا؛ وأسهم سقوط سلمة والقرى الصغيرة التابعة لها في النزوح الجماعي من يافا؛ وسقوط بيريا وعين الزيتون أثر في صفد؛ وسقوط قرى الجليل الغربي أسهم في انهيار عكا.

من المؤكد أن «عامل الفظائع» أسهم في تدعيم العملية وتغذيتها. فما حدث، أو ادُعي أنه حدث، في نصر الدين أثر في معنويات العرب في طبريا. وبشكل أكثر عمومية فإن مذبحه دير ياسين، والأوصاف المبالغ فيها التي تناقلتها الإذاعات العربية على مدار أسابيع، دمرت المعنويات في كل أرجاء فلسطين، خصوصا في الريف.

الموجة الثانية: النزوح الجماعي...

كان تفكك وهروب القيادة المحلية المدنية والعسكرية قبيل وفي أثناء المعارك النهائية أحد العوامل الرئيسة التي أسهمت في النزوح الجماعي من المدن. فهروب الطبريين من طبريا، وفرار أعضاء اللجنة الوطنية والقادة العسكريين من حيفا العربية قبيل وخلال المعركة؛ وهروب قادة يافا خلال وبعد هجوم عناصر الإرغون؛ ورحيل العائلات البارزة والقادة العسكريين من كل من صفد وبيسان، كل ذلك أسهم في حدوث النزوح الجماعي من كل مدينة ومن المناطق الداخلية التابعة لها. بطبيعة الحال لم يكن هناك هروب من قبل القيادات قبيل أو خلال الهجمات في القرى. وباستثناء أولئك الذين أجلوا سابقا من النساء والأطفال، فإن القرى هُجرت بشكل عام مرة واحدة؛ حيث رحل المختار وعناصر الميليشيات معا بصحبة الذكور من السكان الباقين.

مما لا شك فيه - وفقا لما فهمنا من مصادر استخبارات قوات الدفاع الإسرائيلية- أن الهجمات اليهودية كانت من أهم العوامل التي أسهمت في النزوح في الفترة من أبريل حتى مايو، وقد ظهر ذلك بشكل واضح في حقيقة أن كل حالة من حالات النزوح كانت تقع إما خلال أو مباشرة بعد الهجوم العسكري. ولا توجد مدينة هُجرت من قبل الجانب الأعظم من السكان قبل الهجوم الرئيسي من قبل الهاغاناه والإرغون. أما في الريف، فإنه في حين أن العديد من القرى أُخليت خلال الهجمات من قبل الهاغاناه|الإرغون أو بسببها، فإن قرى أخرى أُجليت نتيجة لمثل هذه الهجمات على قرى أو مدن مجاورة؛ حيث ساد الخوف من أنها ستكون التالية.

بصفة عامة، لم تتضمن الأوامر التنفيذية لهجمات الهاغاناه على المدن النص على طرد السكان المدنيين. لكن منذ أوائل أبريل، تضمنت مثل هذه الأوامر فيما يتصل بالقرى وسلاسل القرى بشكل أكثر النص على تدمير القرى، وأشارت بشكل علني أو ضمني إلى الطرد. ولا شك في أن مشهد الهروب المذعور قد ساعد على إثارة شهية قادة الهاغاناه وربما أيضا رئاسة أركانها؛ حيث أدركوا - كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى بن غوريون- أن نقل (ترانسفير) الأقلية الكبيرة المتوقعة خارج الدولة اليهودية الوليدة قد بدأ، وأنه مع القليل من الجهد أو بدفعة خفيفة يمكن أن يتزايد. وقد أسهمت أسباب سياسية وعسكرية قوية في زيادة الإغراء للقيام بذلك.

إجمالاً فإنه عندما تعلق الأمر بطرد المجتمعات العربية تمتع قادة الهاغاناه بدرجة أكبر من الاستقلال والقوة في الريف عنه في المدن، وقد رجع ذلك جزئياً إلى بعد المسافة عن المركز الرئيسي للقيادة؛ حيث كان كبار الضباط والمسؤولين - كما كانت عليه الحال بالنسبة إلى بن غوريون على سبيل المثال - عازفين عن اتخاذ أوامر صريحة بالطرد أو إقرار مثل هذه الأوامر، وفضلاً على ذلك فإن الخطوط الرئيسية التي تضمنتها الخطة دالت، التي مكنت القادة المحليين من طرد السكان وتسوية القرى بالأرض، لم تتضمن أي نصوص تتصل بعمليات طرد واسعة النطاق من المدن. خلال الفترة من أبريل إلى يونيو أثر عامل الوقت بشكل واضح في سلوك الهاغاناه، فكلما اقترب الموعد المحدد للانسحاب البريطاني في الخامس عشر من مايو، أصبح القادة أكثر ميلاً إلى عمليات «التنظيف» والطرد لتفريغ مناطقهم الخلفية، والطرق الرئيسية وخطوط المواجهة المتوقعة من التجمعات السكانية المعادية أو التي يحتمل أن تصبح معادية. أما فيما بعد الخامس عشر من مايو فقد أملى التهديد الذي فرضه وجود الجيوش النظامية العربية بالقرب من مراكز التجمعات السكانية في يشوف اتباع سياسة اللعب - الأمن وعدم ترك أي احتمالات بالنسبة إلى المجتمعات الواقعة وراء الخطوط، ومن ثم قام لواء غيفعاتي بعمليات طرد خلال شهري مايو ويونيو بالقرب من رحوفوت. وبشكل عام فإن الانهيار المفاجئ لأغلب التشكيلات الفلسطينية وغير النظامية؛ وانهيار الروح المعنوية؛ والذعر والهروب التلقائي من أغلب التجمعات كان يعني أن القادة اليهود لم تكن عليهم مواجهة معضلة الطرد: فأغلب القرى كانت إما خالية تماماً أو شبه فارغة في الوقت الذي أُستولي فيه عليها.

القوامش

هوامش المقدمة

- (1) على الرغم من أن أغلب هؤلاء الذين تم طردهم لم يصبحوا لاجئين وفقا للمعنى المحدد للكلمة؛ حيث لم يتم إبعادهم عن بلادهم لكن انتقلوا أو أجبروا على ذلك من منطقة إلى أخرى داخل البلاد، فإن العالم أضحى يقبل استخدام مصطلح "اللاجئين" لوصف أولئك الذين أزيحوا من ديارهم وانتهى بهم المطاف خارج البلاد أو في أجزاء أخرى من فلسطين، وذريتهم، وبغية الاختصار فإننا سنقوم بعمل الشيء نفسه.
- (2) المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، 1956-1960.
- (3) المطبعة العمومية، دمشق، 1951.
- (4) Middle East Forum، المجلد 35، 10 ديسمبر 1959.
- (5) Middle East Forum، المجلد 35، 7 يوليو 1959.
- (6) مكتبة E. Droz في جنيف، ومكتبة Minard في باريس، 1959.
- (7) معهد الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1978.
- (8) معهد الدراسات الدولية، جامعة كاليفورنيا، بيركلي، 1983.
- (9) Jerusalem Quarterly، العدد 40، 1986.
- (10) Sifriyat Poalim/Mishlat, Mehavia, 1949.
- (11) Journal of Palestine Studies، 1\4، 1972.
- (12) Sussex Academic Press, Brighton, 2001
- (13) Massalha, "Expulsion of the Palestinians"; Massalha, "A Critique of Benny Morris"، مصالحة في «طرد الفلسطينيين» وكذلك «نقد لبني موريس».
- (14) Teveth, "The Evolution of Transfer, in Zionist Thinking"
- تيفث، «تطور الترانسفير في التفكير الصهيوني».
- (15) Shapira, "land of Power"، ص. 285-286. وقد تطرق إفرام كارش إلى نقد طريقة معالجاتي السابقة ملف «الترانسفير» في كتابه، Efram Karsh, "Fabricating Israeli History: the New

Historians"، غير أن نقده كان أقرب إلى الكذب الوقح والتشويه، معتبرا ما كتبه وما يتضمنه النص لا يستحق التناول بالتفصيل. وربما يجد القراء في الفصل الذي أضيف عن «الترانسفير» دفاعا بالحجة وبشكل ضمني إزاء ما كتبه العديد من المنتقدين.

الفصل الأول

(1) للاطلاع على ملخص، انظر الفصلين الأول والثاني من Morris, "Righteous Victims".

(2) في أعقاب ثورة «بار كوشبا» العام 132 - 135 قبل الميلاد أطلق الرومان اسم «فلسطين» على إقليم «يهودا». وظلت فلسطين إقليما من أقاليم روما ثم البيزنطيين حتى الغزو العربي في القرن السابع. وطوال العقود التي سيطر فيها العثمانيون لم تكن هناك ولاية أو مقاطعة باسم فلسطين بل كانت الأحياء الفرعية (السناجق) التي قُسمت إليها فلسطين مجرد أجزاء من إقليم سورية، وفي فترة لاحقة إقليم بيروت (على الرغم من أنه في الأعوام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية تمتعت القدس ويافا والمناطق المجاورة في الجنوب بوضعية حي فرع مستقل، وبالنسبة إلى العالم المسيحي كانت فلسطين مجرد مرادف للأراضي المقدسة غير المحددة بشكل واضح، والتي أطلق عليها اليهود على الدوام «أرض إسرائيل».

(3) Lebel, "Haj Amin", ص. 193 - 202.

(4) Horowitz and Lissak, "Origins".

(5) Pa'il, "Haganah", ص. 279 - 280.

(6) Gelber, "Jewish Army", ص. 211 - 213. كذلك Pa'il, "Haganah", ص. 241.

(7) Pa'il, مرجع سابق، ص. 285. وفضلا عن هذه الأرقام يلزم إضافة 2000 إلى 3000 من قوات «إرغون» و300 - 500 من أعضاء الهستدروت، وقد بلغ عدد القوات العربية التي غزت فلسطين خلال شهر مايو 1948 نحو 25 ألفا (انظر على سبيل المثال مؤلف Kimche & Kimche,

Both Sides“ ص. 162، والذي يقدم رقم 24,000) وقد تزايد الرقم خلال الأسابيع والشهور التالية كما كانت الحال كذلك بالنسبة إلى القوة البشرية في قوات الدفاع الإسرائيلية.

(8) Pa'il, "Haganah" ص. 285.

(9) خلال الفترة 1944 - 1945 كان فقط ثلث الأطفال المسلمين فيما بين الخامسة والخامسة عشرة من العمر يذهبون إلى المدارس (في المقابل كان 100% من الأطفال اليهود والمسيحيين في الشريحة العمرية نفسها قيد الدراسة). وكانت معدلات الأمية بطبيعة الحال أعلى بين البالغين خلال فترة العثمانيين والأيام الأولى للانتداب البريطاني، وكانت أعلى بين النساء عن الرجال. وفي الفترة من 1945 - 1946 تغير الوضع حيث بلغت نسبة من يذهبون إلى المدارس 85% من الأولاد المسلمين و65% من البنات، وقد تباينت النسب من المناطق الحضرية (65%) والريفية (10%)، فمن بين 800 قرية فلسطينية لم توجد مدارس إلا في 432 في تلك الفترة. ولقد أظهرت الاختبارات التي أجريت في العام 1931 أن 25% من الرجال المسلمين و3% من النساء المسلمات فقط كانوا يعرفون القراءة والكتابة، في حين كانت النسبة بين المسيحيين في الفترة نفسها 70% للذكور و40% للإناث. (انظر "Miller, Palestine"، ص. 97 - 98).

(10) Miller, "Palestine" ص. 86. انظر كذلك Seikally, "Haifa" ص. 19 - 25.

(11) في كتابه "One Hundred Years" يضع Stein الأمر بشكل أكثر وضوحا حيث ذهب إلى أن نزاع الملكية من الفلاحين والانتقال المستمر للسكان إلى المدن كان من بين الأسباب في مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ومن هذا المنطلق كان بمنزلة المرحلة الأولى في الفصل بين الفلاحين وأراضيهم سواء معنويا أو اقتصاديا، الأمر الذي «جهزهم» لما حدث في العام 1948؛ وانطلاقا من هذا التحليل ذهب إلى أن الهجرة الجماعية في العام 1948 كانت «مرحلة ثانية» متأخرة في عملية بدأت قبل ذلك بقرن أو ما يزيد على ذلك.

- (12) Grossman, "Arab Village" ص. 154 - 155.
- (13) Miller, "Palestine" ص. 86.
- (14) Gabbay, "Political Study" ص. 6.
- (15) Miller, "Palestine" ص. 24 - 25.
- (16) Shoufani, "The Fall of a Village" ص. 120.
- (17) Grossman, "Arab Village" ص. 111. انظر كذلك: Kark, "Jerusalem and Environs" ص. 279 - 286.
- (18) Porath, "Emergence" ص. 287.
- (19) Haganah economic intelligence memorandum (p. 1 and title, missing) من دون تاريخ ولكن عن شهر مايو أو يونيو 1948، رقم 119/HG 105
- (20) ربما عن شهر مايو أو يونيو 1948 Haganah economic intelligence memorandum, HA/105 /119
- (21) ربما عن شهر مايو أو يونيو 1948 Haganah economic intelligence memorandum, HA/105 /119
- (22) للحصول على قائمة كاملة انظر: Shimoni, "Arabs" ص. 211 - 239.
- (23) Porath, "Palestinian Arab" ص. 162 - 273. انظر أيضا: Sayigh "Peasants" ث. 47 - 51.
- (24) Khalaf, "Politics in Palestine"
- (25) Shimoni, "Arabs" ص. 338. ويلاحظ أن الهوامش الرقم 5 و6 تقدم قائمة جزئية للانتماءات العائلية، فقد حظي الحسيني بولاء الدجانيين وأبو لبن في يافا، والصوراني في غزة، وحسونة في اللد، والتميمي والعنبتاوي في نابلس، وعابدين وعرفة والخطيب في الخليل، والطبري في طبريا، ونحوي في صفد، ومن جانبها حصلت عائلة النشاشيبي على ولاء كل من طوقان والمصري والشكعة في نابلس، والدجاني في القدس، والكرازنة والهندي في اللد، وعمرو وآل طهبور في الخليل، والهانوس في

طولكرم، والفاهوم في الناصرة؛ ومن بين العائلات البارزة التي بقيت على الحياد منذ نهاية الثلاثينيات وخلال الأربعينيات عائلة الشوا في غزة، ونسيبة في القدس وأبو شيش444 في جنين.

(26) سجلات 22 ديسمبر 1947 و19 فبراير 1938 ، DBG-YhI,64 and 66 ، 254 - 253 ، وشهادات دانيس وساسون "Protocol of Meeting .on Arab Affairs 1- 2 January 1948, KMA-IGP"

(27) «Arabs with a Tendency to Cooperation with the Jews», (27) undated, HA/105 /54. هذه المذكرة غير الموقعة للهاغاناه تذكر أسماء شخصين مسلمين كانا على استعداد للتعاون مع اليهود لقاء مقابل مادي. (28) "George Antwan Bakhut is Dead", unsigned HIS report, 13 Feb. 1947, HA/105/195.

(29) Hanoch - Hadamaska I, "The Situation between Shafa'Amr's Christians and Muslims", HA/105/195.

(30) وثيقة غير موقعة من استخبارات الهاغاناه "Bishop Giorgius Hakim went to Egypt on 15 February 1947", report, HA 105 /195 انظر كذلك

Hanagid, "Surrounding the Murder of George Bakhut", 19 Feb. 1947, HA 105 /195.

(31) 17 105 HA 1947, Mar. 195. تقرير جهاز استخبارات الهاغاناه.

(32) Hanagid, "The Shafa' Amr Incidntes", 7 Mar. 1947, HA 105/195

(33) Talmi, "The Christians in Jaffa", 2 May 1947, HA 105/195 bet

(34)"Subject: The Christian Arabs Worry about their Safety", unsigned HIS report, 10 Oct. 1947, HA 105/195.

(35) HIS - AD "Summary of Conversation with Barkai, Nazareth District Officer, (Afula) 5.11.47", HA 105/195

(36) "Hashmonani, Group of Reports", undated but c. 7 Jan. 1948, IDFA 500/48//5

(37) Nir' to HIS - AD, 27 Jan. 1948, HA 105/195.

(38) HIS, "Subject: Meeting of Sheiks in Beersheba", 1 Dec. 1947, HA 105/194.

(39) HIS, "Subject: The Arab Institutions in Jerusalem Today, Organization and Leadership (A survey up to 25.1.48, IDFA/500/48//60.

(40) Porath, "Palestinian Arab" ص. 76.

(41) Shimoni, "Arabs" ص. 376 - 377.

(42) Nazal "Exodus" ص. 30 - 31, 34 - 40, 46, وتجدر الإشارة إلى أن الأرقام المشار إليها استندت إلى تجميع تم بعد مرور عقود على الأحداث.

(43) Gelber, "Palestine", ص. 40.

(44) من أجل نظرة شاملة على الاستعدادات العسكرية الفلسطينية لحرب 1948 انظر: Levenberg, "Military Preparation"

(45) أُقتبست هذه العبارة في

"Barak" to HIS - AD, 22 Mar. 1948, IDFA 900/52/40

(46) Unsigned HIS report, 31 Dec. 1947, IDFA 500/48//60

(47) Mordechai Abir, "The Local Arab Factor in the War of Independence (the Jerusalem area)", undated but from mid - 1950s, IDFA 1064/70//185.

(48) HIS "Subject: Ahmad Abu Khattab and Muhammad Taha Najar", 29 Dec. 1947, unsigned, HA 105/23.

(49) STH, III, part 2, 1362.

(50) HIS-AD, "The Arab Public's Reaction to the Internal Arab Terror (a Summary for the Period 1.11.46- 20.4.47)", 16 May 1947, HA 105/102..

(51) من سجلات 22 ديسمبر 1947

DBG-YHI, P. 63.

(52) من سجلات 21 يناير 1948

DBG - YHI, 169, and Gelber "Palestine" P. 54.

(53) HC to Secretary of State, "Weekly Intelligence Report", 3 Jan. 1948, SAMECA CP III/1/3..

(54) Pir'im, "The Feeling Among Palestine's Arabs", 29 Oct. 1947, CZA S25-3300.

(55) A.L, «A Conversation with Zaáfer Dajani, Chairman of the Jaffa Chamber of Commerce», 26 Nov. 1947, CZA S25 - 3300.

(56) مذكرة من دون عنوان مكونة من 7 صفحات تتناول القوة العسكرية لكل من اليهود والعرب، وموقع عليها من عقيد برئاسة أركان الجيش البريطاني بتاريخ 10 يوليو 1947، انظر SAMECA CP IV/4 /65 وقد علق عليها اللواء مكميلان بقوله فأنا «أعتقد أنك ستود رؤية ذلك. اتفق مع التحليل والنتائج».

(57) Behind the Screen, 66 - 67 تقرير الجنرال إسماعيل صفوت الأول من قبل اللجنة العسكرية الذي عرض على مجلس جامعة الدول العربية في 9 أكتوبر 1947. وص 71 (صفوت لرئيس الأركان العراقي في 27 نوفمبر 1947).

(58) ISA, «People's Administration, 67 (protocol of meeting of 12 May 1948).

الفصل الثاني

(1) Bevin to Kirkbride, 24 July 1948, PRO FO 816\139.

(2) Bevin to chargé d'affaires, Amman, 28 July 1948, PRO FO 816\139.

(3) BMEO to FO, 3 August 1948, PRO FO 816\139.

(4) Burdett (Jerusalem) to Secretary of State, 5 Feb. 1949, PRO FO 371-7520.

(5) Morris, Righteous Victims, 42.

(6) في هذا السياق قد يكون من الجدير ملاحظة أنه في نهاية حرب العام 1948 ضم سكان إسرائيل ما يقرب من 750 ألف يهودي و150 ألف عربي، وفي عام 2002 كانت الأقلية العربية في إسرائيل لا تزال تمثل 20 في المائة من سكان البلاد (ما يزيد بقليل على مليون بالمقارنة بما يقرب من خمسة ملايين يهودي)- وهذا على الرغم من حقيقة أن الزيادة الطبيعية في إسرائيل كانت قد ارتفعت على مدار خمسين عاما نتيجة لوصول ما يقرب من مليونين ونصف المليون من المهاجرين الجدد!

(7) Herzl, The Complete Diaries of Theodor Herzl, I, 88.

(8) Morris, Righteous Victims, 140.

(9) Morris, "Righteous Victims", 140. اشتكى الأمير فيصل - الحاكم الفعلي في دمشق - من الرأي القائل «بنقل السكان العرب من فلسطين عن طريق هجرة جماعية بالجمال»، انظر:

Morris, "Righteous Victims", 141

(10) Segev, "One Palestine", Complete, 98-99.

(11) انظر: 1-50 Joseph Schechtman, "Transfers in Asia", ويستعرض المؤلف عملية تبادل السكان بين الهند وباكستان كجزء من الأدلة الجدلية التي يقدمها ص 84-141، والمقصود بذلك نقل أو طرد العرب الفلسطينيين عام 1948.

(12) Kisch to Weizmann, 20 May 1930, Kisch Papers. تجدر الإشارة إلى أنه حتى قبل اضطرابات عام 1929 كان كيش من المؤيدين المتحمسين للترانسفير، وقد كتب في سبتمبر 1928 عن لقائه مدير إدارة الأراضي في الإدارة العراقية؛ حيث أوضح الأخير «الحاجة المتزايدة للعراق إلى الفلاحين من أجل تطوير وتنمية الزراعة»، وعلق الكاتب على ذلك بقوله: «ذلك هو ما انتظرته وأملت فيه طويلا؛ حيث قمت قبل ذلك بالتعبير عن رأيي في هذا الخصوص والقاضي بأن مشكلة ري وزراعة المحاصيل في العراق سيوجد حل لها في المشكلة العنصرية في فلسطين»، وأضاف الكاتب: «أن الدعاية للهجرة العربية إلى العراق لا يمكن أن تقوم بها، إلا عبر الأدوات والطرق غير المباشرة، لكن إذا ما كانت الحكومة العراقية تفعل ذلك فإن الأمر مدهش ويصب في مصلحة كلا البلدين»،

انظر:

Kisch to Weizmann, 21 Sep. 1928, Kisch Press temporarily in author's keeping.

(13) Weizmann (London), 'Awaiting the Shaw Report', 6 Mar. 1930, Letters of Chaim Weizmann, Series B, 591-592.

(14) Segev, "One Palestine", Complete, 329.

(15) Masalha, "Expulsion", 32.

(16) Teveth, "The Evolution of "Transfer", ...', 16-21.

Jabotinsky, 'Round Table with the Arabs', Ktavim, 245 (17)
أود في هذا الخصوص أن أشكر الأستاذ الدكتور يورام ميتال لتوجيهي إلى
هذا المرجع.

(18) Katz, Jabotinsky testified on 11 Feb. 1937 in London.

(19) 'Note of Conversation between Mr D. Ben-Gurion and
Mr. Shertok and His Excellency the High Commissioner on July 9th,
1936 at Government Offices', HA, Yitzhak Ben-Zevi Papers, file 27.

ويبدو بشكل واضح أن آراء بن غوريون كانت قد تغيرت، فخلال الحرب
العالمية الأولى والفترة التي أعقبها مباشرة كان معارضا للترانسفير أو
النقل؛ وفي هذا الصدد ذكر: «أنه من غير المقبول أو الممكن ترحيل السكان
الحاليين للبلاد»، انظر: 16-Simons, International Proposals, 17.

(20) Protocol of the Meeting of the Jewish Agency Executive, 1
Nov. 1936, CZA S100\20B.

(21) Palestine Royal Commission Report, Cmd 5479 (London, July
1937), 389-91.

D. Ben-Gurion to Amos Ben-Gurion, 5 Oct. 1937, DBG (22)
.Correspondence, IDFA

انظر أيضا:

Shapira, "Land and Power", 271.

(23) Entry for 12 July 1937, David Ben-Gurion Diary, DBG, Emphasis in original.

(24) Texts of speeches by Ben-Gurion, Ussishkin, Ruppin, etc. in CZA S5 - 1543.

يُشار إلى أن وايزمان ألقى بدوره خطاباً مؤيداً للترانسفير أو النقل كما قدم مقترحاً محدداً في هذا الخصوص (بيد أن نص خطابه غير متوافر في الملف، وتمت الإشارة إليه في خطب أخرى) وفي أعقاب المؤتمر نشرت المنظمة الصهيونية نسخة منقحة من الخطب التي أقيمت حُذفت منها أغلب الإشارات إلى الترانسفير، انظر:

Twentieth Zionist Congress.

وفي أعقاب اطلاعه على نسخة من تقرير لجنة بيل التقى وايزمان سراً وزير المستعمرات (ويليام أورمبسي غور) في 19 يوليو 1937 وأقر التوصية الخاصة بالترانسفير أو النقل، وأوضح وايزمان أنه قال: «إن نجاح مشروع التقسيم بالكامل يتوقف على ما إذا كانت الحكومة ستنفذ هذه التوصية»، وقد وافق غور على أنه «فور إعطاء «الجليل» لليهود ... فإن الموقف سيكون صعباً للغاية إذا ما لم يتم الترانسفير أو النقل»، انظر:

Weizmann, Summary of Note of Interview with Mr. Ormsby Gore, Colonial Office, "International Proposals", 1923-.

(25) بشكل مثير للاهتمام استمر جابوتنسكي في العن في رفض ضرورة إجراء «الترانسفير» إن لم يكن قد رفض أو أدان الفكرة: «لم أحلم على الإطلاق بأن نطلب من العرب (الذين يعيشون) في بلد يهودي الهجرة منها، فإن ذلك يمكن أن يشكل سابقة خطيرة ستكون مضرّة بمصالح اليهود في المهجر... فإن ذلك الموضوع المتصل باقتلاع تكتلات من الناس ليس إلا ضرباً من الجنون»، انظر:

Katz, Jabo, 1001, quoting Jabotinsky on 7 July 1937.

(26) انظر: الوثائق، بما في ذلك بروتوكولات مداولات لجنة الترانسفير في:

CZA S 25 - 247 and Katz, "The Deliberations of the Jewish Agency Committee, 12 June 1938, CZA S100.

(27) Protocol of the Meeting of the JAE, 7 June 1938, CZA S100-24B.

(28) Protocol of the Meeting of the JAE and the Political Committee of the Zionist Actions Committee, 12 June 1938, CZA S100-24B.

(29) Entry for 10 Dec. 1938, Ben-Gurion Diary, BGA; and protocol of JAE meeting of 11 Dec. 1938, CZA S100\25b.

انظر أيضا:

Simons, 'Supplement No. 1', 9.

(30) انظر:

Ehrlich, "Lebanon", 73 and 75 - 76.

لم يكن سلطان الأطرش الشخص العربي الوحيد الذي اهتم بفكرة نقل العرب من مكان إلى آخر، ففي أغسطس 1941 ذكر إلياس ساسون (رئيس القسم العربي في الإدارة السياسية للوكالة اليهودية) أن أحد الأعيان المسلمين في جنوب لبنان يدعى محمد حاج عبدالله التقاه مقترحا أن يقوم ببيع أراضي جبل عامل (الواقعة إجمالا في المنطقة بين نهر الليطاني والحدود الفلسطينية-اللبنانية) ونقل سكانها من الشيعة إلى العراق، كما ذكر ساسون أيضا أن الرئيس اللبناني، بشارة الخوري، كان يفكر في أن شيعة جبل عامل يلزم طردهم وإحلال المارونيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية مكانهم، فضلا عن ذلك فإن ريمون أده (مسؤول لبناني كبير) اقترح على وايزمان وضع مدينتي صور وصيدا تحت سيطرة اليشوف ونقل سكانهما المسلمين البالغ عددهم 100 ألف نسمة. انظر:

Ehrlich, "Lebanon", 118.

(31) David Ben-Gurion, 'Outlines of Zionist Policy', 15 Oct. 1941, CZA Z414632-.

يلاحظ أنه هنا أيضا حرص بن غوريون على موازنة تفكيره الظاهر المؤيد للترانسفير بمقولات تتصل بالمساواة الليبرالية فيما يتعلق بوضع الأقلية العربية في الدولة اليهودية المزمعة إقامتها.

(32) للاطلاع على ملخص جيد للخطة انظر:

Porath, "In Search of Arab" Unity, 80 - 106.

(33) "Short Minutes of Meeting held on Thursday, January 30th, 1941, at 77 Great Russell Street, London WC.1", unsigned, Weismann Archive, 2271.

(34) 'Meeting: I.M. Maiskii-Ch, Weizmann (London, 3 February 1941)', in Documents on Israeli-Soviet Relations, 1941-1953, 3-5.

(35) 235-Sharet, Political Diary, V, 234. خلال عام 1941 يبدو أن شاريت أخبر غالبية من تحدث معهم حول احتمالات الترانسفير أو النقل. (على سبيل المثال انظر حديثه مع الصحافي المصري محمد عزمي في Shertok, Political Diary, V, 246 - 247.

(36) Entry for 20 Dec. 1940, Weitz, My Diary, II, 181.

وقد كان ويتز عضوا بارزا في لجنة الترانسفير التابعة للوكالة اليهودية في الفترة من 1937 حتى 1938.

(37) اقتُبست هذه الفقرة في 185 - 207 Simons, "International Proposals",

وقد ناقشت كذلك صياغة القرار، وأيضا وإن كان بشكل جزئي في Schechtman, "Population Transfers", 118.

واقترح القرار أيضا توسيع منطقة فلسطين حتى يمكنها استيعاب تدفق اليهود المتوقع «بالاتفاق مع مصر وسورية وشرق الأردن»، انظر أيضا:

Gorny, British Labour Movement, 178 - 79.

(38) Protocol of the JAE Meeting of 7 May 1944, CZA S100-42B.

(39) Protocol of the JAE Meeting of 20 June 1944, CZA S100-43B.

(40) Duke of Devonshire to Secretary of State [for the Colonies], 27 Jan. 1943, PRO CO 733\443\10.

تجدر الإشارة إلى أنه خلال الخمسينيات سعت إسرائيل سرا إلى تخطيط هجرة (يجري التعويض عنها) لجزء من العرب فيها إلى ليبيا.

- (41) Glubb, 'A Note on Partition as a Solution of the Palestine Problem', July 1946, PRO WO 216\207.
- (42) Glubb, 'A Further Note on Partition as a Solution of the Palestine Problem', undated, PRO CO-537 1856.
- (43) Glubb, 'A Note on the Exact Siting of the Frontier in the Event of the Adoption of Partition', undated but with covering note Glubb to Kikbride, 16 Jan. 1947, PRO FO 816\86.
- (44) Note on Conversation with General Nuri Sa'id, the Iraqi Prime Minister and the Iraqi Minister of Foreign Affairs in Baghdad on 5th and 6th December, 1944, illegible signature, 18 Dec. 1944, PRO FO 921\149.
- يُذكر أن حمدي الباجه جي (رئيس الوزراء العراقي) تبني خطأ مختلفاً طبقاً لما ورد في التقرير؛ حيث ذكر أن التقسيم في فلسطين سيؤدي إلى «اضطراب حاد» في العراق.
- (45) Kirkbride to Mac Michael, 28 Nov. 1944, PRO FO 921\149.
- (46) Moyne to Foreign Secretary Eden, 1 Mar. 1944, PRO FO 921\148.
- ويمكن للبعض أن يرفض خطابات وتصريحات من قبيل تلك التي ألقاها نوري السعيد باعتبارها تمثل حالة من حالات القادة العرب الذين يخبرون مسؤولي حليفهم البريطاني بما اعتقدوا أن البريطانيين يرغبون في سماعه، وانطباعي أن هؤلاء القادة اعتقدوا حقاً أن التقسيم أمر مرجح إن لم يكن متعذراً تجنبه، كما أنه من أجل نجاح التسوية يلزم أن يكون هناك ترانسفير للسكان أيضاً.
- (47) Note by Oliver Stanley, Colonial Secretary, and appended letter Mac Michael to Stanley, 16 Jan. 1944, PRO FO 921\148.
- (48) Kirkbride to T. Wikeley, Eastern Department, FO, 29 July 1946, PRO FO 816\85.

(49) Kirkbride to FO, 23 Aug. 1946 (No. 1387) and Kirkbride to FO 23 Aug. 1946 (No. 1364), both in PRO FO 816\85.

لم يوضح كيركبرايد إلى أي مكان كان عبدالله وهاشم يتوقعان أن يُنقل العرب الفلسطينيون: شرق الأردن أم العراق أم مكان آخر.

(50) Masalha, "Expulsion", 175; and Finkelstein, 'Myths ...', 67 et al.

(51) انظر:

Shapira, "Land", 285-286; and Teveth, 'The Evolution of "Transfer" in Zionist Thinking', 47-48 and 54-57.

(52) Protocol of Israel Cabinet meeting of 12 Sep. 1948, ISA.

الفصل الثالث

(1) تقليدياً، أشار المؤرخون الصهيونيون إلى هذه الهجمات باعتبارها المشاهد الأولى للعنف الفلسطيني ضد قرار التقسيم، ولكن من المحتمل ألا تكون مرتبطة بشكل مباشر بالقرار، وإنما كانت نتاجاً إما للرغبة لسرقة اليهود، انظر:

HIS-AD, «The Attack on the Buses Near Petah Tikva on 30/11», 3 Dec. 1947, and «The attack on the Two Buses on 30.11.47», unsigned, 4 Dec. 1947, IDFA 48\49\62

أو دائرة من الأعمال الانتقامية التي بدأت مع الغارة البريطانية على موقع تدريب للهستدروت (بعد قيام شخص عربي بإبلاغهم عنه) مما أسفر عن وقوع العديد من القتلى في صفوف اليهود، انظر:

to HIS-AD, 2 Dec. 1947, IDFA 481\29\62\.

وقد ردت الهستدروت بإعدام خمسة من أفراد عشيرة الشوبكي البدوية بالقرب من هرتسليا.

Tiroshi, Subject: the Murder of 5 Members of the Shubaki" (family) Near Ra'anana", 20 Nov. 1947, HA 105\358.

وفي 20 نوفمبر قام من 6-7 يهود مسلحين يرتدون زي الجيش البريطاني بالدخول إلى عرب الشوبكي بالقرب من هرتسليا، وأخرج جميع الذكور البالغين من خيامهم، ونُودي على أسماء خمسة أشخاص أُقتيدوا إلى

مركز اعتقال، وفي أعقاب إطلاق سراح الآخرين فُتحت النار على الخمسة وقتلوهم)، وتُلي ذلك قيام العرب بالانتقام من خلال مهاجمة حافلات في 30 نوفمبر، انظر:

HIS, «Tene Information Circular», 30 Nov. 1947, IDFA 900\52\58.

- (2) «Tene|Ayin» (HIS-AD), «Summary of a Conversation with Barkai, Nazareth District Officer (Afula), 11.47», undated, HA 105|195 يُذكر أن Tene كان الاسم الرمزي لجهاز استخبارات الهاغاناه، و Ayin الاسم الرمزي للإدارة العربية بها.

(3) HIS-AD to «Hillel» (Israel Galili), 30 Nov. 1947, HA 73\98.

- (4) «Ibrahim to Haganah General Staff (HGS), Report of «Shahar» Reconnaissance in Jaffa, 1.12.47, undated, HA 73\21, and «HIS Information Circular», 1 Dec. 1947, IDFA 900\52\56.

يُذكر أن Shahar هو الاسم الرمزي للقسم العربي في البالماخ، أو ما يطلق عليه استخبارات الكشافة التي تشبه العرب في الشكل.

- (5) Page of an unidentified Haganah Logbook covering, 2 Dec. 1947, HA 73\98.

- (6) HIS-AD to «Dan an Galili», 1 Dec. 1947, HA 73\98.

(7) تقرير غير مُوقع ومن دون تاريخ وعلى الأرجح صادر عن حي القدس:

“Report on the Situation in the Old City from 5\12 until 14.12.1947”, IDFA 500\48\61.

وقد ذكر التقرير أن ما يقارب 1500 شخص من الحي اليهودي تم إجلاؤهم أيضا من المدينة القديمة وانتقلوا إلى القدس الغربية، وتحولت عملية الإجلاء الفردي إلى “هروب جماعي منظم”.

- (8) “HIS Information Circular”, 9 Dec. 1947, HA 105\61.

- (9) Entry for 11 Dec. 1947. DBGY-YH I, 37-38.

- (10) Ben-Gurion (TA) to Moshe Shertok (NY), 14 Dec. 1947, ISA\ CZA, Political and Diplomatic Documents, 60; and protocol of meeting of Mapai Centre, statement by Ben-Gurion, 8 Jan. 1948, LPA 23 aleph 48.

Evacuation», 25 Jan. 1948, IDFA 959\49\202.

(34) "To the Arabs of the District of Gaza and Beersheba, to the Sheikhs and Notables", 19 Dec. 1947, CZA S25-4148; and Yadin to Allon, 24 Dec. 1947, IDFA 481\49\35.

(35) Yadin to Palmah, etc., 4 Jan. 1948, IDFA 481\49\35. The new leaflets, from the Haganah to «the Arab of Palestine», dated 29 Dec. 1947.

ونقرأ فيها: «اسمع وافهم... الشر لا يفضي إلى خير، القتل لا يفضي إلى الأمن والسلام... تذكر أولئك الذين قتلوا والجرحى واليتامى والأرامل، تذكر اللاجئين الذين أُنتزعت أملاكهم... تذكر العاطلين عن العمل والجائعين... تذكر التدمير والتخريب في المدن والقرى العربية... تذكر النساء والرضع وكبار السن والذعر والرعب والخوف... تذكر كل ذلك وأعلم أننا أعلننا أكثر من مرة، نيتنا الخالصة في السلام والمصالحة... لا تجبرنا على القيام بأشياء صعبة وتطبيق إجراءات قاسية حتى نتتمكن من الدفاع عن حياتنا وحماية كياننا وما نقوم به من استمرار في البناء والرفاهية». (CZA S 25 - 9051).

(36) «Hashmonai» to general (distribution), «Subject: Relations with the Neighbouring Villages», 24 Dec. 1947, IDFA 500\48\60.

(37) «To our Members, Daily Information Circular No. 10», unsigned but by an Haganah HQ, 18 Dec. HA 105\61.

في ليلة التاسع من شهر ديسمبر 1947 فُجّر منزل في كرتيا، وبعد مرور ليلتين فُجّر منزل في وادي رشميا فضلا عن إطلاق نار في بلد الشيخ ما أسفر عن مقتل عدد من العرب؛ وفي الثاني عشر من ديسمبر قامت قوات البالماخ بتدمير ثماني حافلات كبيرة كانت مصطفة في موقف حافلتين وسيارة في الرملة، انظر:

(Reprisals, a long sheet, unsigned, unsigned, undated, IDFA 6127\49\93).

(38) High Commissioner to Secretary of State, «Weekly Intelligence Appreciation», 13 Dec. 1947, SAMECA CP II\3\147; and High

Commissioner to Secretary of State, 15 Dec. 1947, SAMECA CP II\3\148. In DBG-YH 1, 61, there is a list of Haganah, IZL and LHI operations up to 20 Dec. 1947.

(39) Texty of "Tochnit May", STH III, 1939-43.

(40) «To our Members», No. 21, 2 Jan. 1948, HA 105\61. Emphasis in original.

(41) Galili to Allon, 5 Jan. 1948; and Yadin to Allon (handwritten note), undated – both in to Allon, 5 Jan. 1948; and Yadin to Allon (handwritten note), undated – both in IDEA 922\75\1206.

(42) HIS, «The Murder of the Eleven in Abu Suwayrith (near Yavne)», 11 Jan. 1948, DbG Archive; and «Na'im to HIS-AD, 14 Jan. 1948. IDFA 481\49\23.

(43) "Itai" to Yadin, 21 Jan. 1948, IDFA 481\49\23.

(44) "Uri" to sub-commanders, 20 Jan. 1948, IDFA 1041\49\9.

(45) «Report on Operation 11», unsigned, 25 Jan. 1948, IDFA 481\49\23; and «000007» to HIS-AD, 26 Jan. 1948, HA\105\32.

(46) "0127" to HID-AD, 30 Jan. 1948, HA 105\357.

(47) «Na'im (Eitzur)», to HID-AD, 31 Mar. 1948, HA 105\357.

DBG-Yh, I, 102, footnote 16; and «Protocol of the Meeting on Arab Affairs, 1-2 Jan.

(48) 1948, KMA, Israel Galili Papers.

(49) HGS\Operations (Yadin) to brigades, etc., 18 Jan. 1948, IDFA 1196\52\1.

وُزِعَ نص مختلف من قبل القيادة العامة للهاغاناه على اللجان الوطنية في المدن في التاسع والعشرين من يناير أو التاسع والعشرين من فبراير 1948، أكد مهاجمة وسائل النقل العربية والقوات التي تعمل ضد النقل

اليهودي، انظر:

“Instructions for Planning Initiated Operations”, 29 Jan. 1948 (or 29 Feb. 1948), IDFA 922\75\1211.

(50) Entries for 2 and 3 Jan. 1948, DBG-YH, I, 106 and 108.

(51) Galili to brigade and city OCs, 20 Jan. 1948, IDFA 1196\52\1.

(52) In IDFA 1196\52\1.

(53) «Oded», Alexandroni, to sub-district OCs and battailion of OCs battalions,? Mar. 1948; and «oded» to sub-district Ocs, 15 Mar. 1948, both in IDFA 2506\49\91.

يلاحظ أنه خلال الأشهر التالية اشتكى المستشارون من أن نصائحهم لم تكن تؤخذ في الاعتبار من قبل القادة الميدانيين.

(54) Entry for 25 Dec. 1947, DBG-YH I, 97.

(55) Danin to Sasson, 23 Dec. 1947, CZA S25-4057. See also STH III, 1415 and 1798 and Book to Palmah, II, 123-124.

(56) Protocol of meeting of Defence Committee, 25 Dec. 1947, CZA S25-9344.

(57) Dan to Levanoni, 19 Dec. 1947, 612\49\93.

(58) Pinhas to Ali, «Report on the Khisas Operation», IDFA 922\75\1224; HM Minister, Amman, 16 Jan. 1948, PRO FO 816\115; (58) and «Magi» (i.e. Moshe Dayan) to Dan, 30 Dec. 1947, IDFA 481\49\23.

(59) Gelber, “Palestine”, 62.

(60) Untitled, unsigned HIS report from 28 Dec. 1947, HA 105\358.

(61) Alexandroni to battalions, 19 Dec. 1947, IDFA 2687\49\35.

(62) Statement by Ben-Gurion, Protocol of meeting of Mapai Central Committee, 8 Jan. 1948, LPA 23 aleph 48.

- (63) To Alexandroni, "Subject: Report on Situation in Petah Tikva", 11 Feb. 1948, IDFA 6400\49\66.
- (64) HIS-AD, "HIS Information", 25 Feb, 1948, IDFA 922\75\1205.
- (65) «Tzadik» to «Hashmonai», 15 Feb. 1948, IDFA 500\48\61.
- (66) «Asaf» to OC Second Battalion, Alexandroni Brigade, 13 Jan. 1948; OC Second Battalion to OC Alexandroni Brigade, 14 Jan. 1948; OC Alexandroni to «Menahem», 18 Jan. 1948; and «Asher» to «Menahem», 1 Feb. 1948 – all in IDFA 922\75\9409.
- (67) «Yavne» to HIS-AD, 25 Feb. 1948, HA 105\32.
- (68) "Shimon", "Copy", undated but with covering note "Menahem" to "Moshe", 30 Jan, 1948, IDFA 922\745\1211.
- (69) Protocol of meeting of Defence Committee, 3 Feb. 1948, CZA S25-9346. 75\1207.
- (70) Palmah HQ to Galili, 6 Feb. 1948, IDFA 922.
- (71) Untitled, unsigned segment of memorandum outlining irregularities in Haganah behavior, including «cases of execution of Arabs by security squads. Recently an Arab was executed near Rishon (Lezion)», IDFA\922\75\1207.
- يُذكر أن جزءاً من المستند قد حُجب بمعرفة الرقابة الرسمية.
- (72) Galili to OCs brigades, 16 Feb. 1948, IDGA 922\75\1207; and «Naftali» to staff officers etc., 27 Feb. 1948, IDFA 4663\49\84.
- (73) STH III, part 2, 1362.
- (74) Statement by Ben-Gurion, protocol of meeting of Mapai Central Committee, 8 Jan. 1948, LPA 23\48.
- (75) Statement by Galili, protocol of meeting of Mapam Political Committee, 5 Feb. 1948. HHA 66.90 (1).

- (76) Weitz, 'The Negev These Days,' undated but probably from the end of March 1948, JNF files, 501-4.
- (77) Sarig, 'Instructions for Searches on the Roads, in Homes, and Grazing flocks', with appended detailed instructions for each type of search and treatment of shepherds, 12 Feb. 1948, IDFA 6809\49\19.
- (78) 'Ephraim (Nishri), to 'Menahem,' undated but probably from early January 1948, 'Report on Arab Labour in the Sub-District, in Connection with the Security Situation,' IDFA 410\54\237; and 'Ephraim' to 'Menahem,' 5 Jan. 1948 (mistakenly '5.1.47'), IDFA 410\54\47.
- (79) 'Yahuda' in the name of 'Ephraim' to the 'Areas,' 15 Jan. 1948, IDFA 410\54\273.
- (80) 'Ephraim' to areas, 'These are the Orders of «Hillel» Concerning Arab Work in the Groves,' 23 Jan. 1948, IDFA 410\54\273.
- (81) 'Ephraim' to areas, 23. Jan. 1948, IDFA 410\54\237.
- (82) 'Naftali' to 'Menahel' Anafrim', 2 Jan 1948, IDFA 4663\49\84.
- (83) 'Naftali' to 'Oded', 28 Apr. 1948; and 'D', 'Arab Labour', undated, both in IDFA 4663\49\84.
- (84) 'Hashmonai' to Shadmi, Dormi, etc., 5 Jan 1948, IDFA 2644\49\402.
- (85) 'Hashmonai' to Shadmi, Dormi, Hetz, 23 Dec. 1947, IDFA 500\48\60.
- (86) 'Oded' to 'Mafanim', 2 Mar. 1948, IDFA 4663\49\84.

(87) انظر:

"Hadari" to "Mahazim", 23 Mar. 1948., IDFA 244\51\81 ;
 "Nafali" to heads of municipalities and settlement mukhtars,
 30 Mar. 1948, IDFA 4663\49\84; and Alexandroni to
 battalions, etc., Mar 1948, IDFA 922\75\1211.

- (88) 'Galili to Mechnes, Danin and Gwartz, 26 Mar. 1948, IDFA 481\49\50, and Galili to brigade OCs, 29 Mar. 1948\49\50.
- (89) ? to Alexandroni, 1 Mar. 1948, and Alexandroni to 2nd Battalion, undated, both in IDFA 2687\49\45; Galili to Mechnes, 3 Mar. 1948, IDFA 481\49\50; and Galili to Yadin, 4 Mar. 1948, IDFA 481\49\50.
- (90) 'A Member of Shfavit Says,' 14 Mar. 1948, IDFA 481\49\50.
- (91) 'Aphraim' to areas, 24 Mar. 1948, enclosing an HIS guideline, IDFA 410\54\99.
- (92) Alexandroni to OCs 2nd and 3rd Battalions, and the 'Asher' and 'Ayin' sub-district OCs, 14 Mar. 1948, both in IDFA 2323\49\5.
- (93) Galili to Machnes, 3 Mar. 1948, IDFA 922\75\1219; and Galili to Mechnes and Danin, 26 Mar. 1948, IDFA 481\49\50.
- (94) Galili to brigade OCs, 24 Mar. 1948, IDFA 922\75\1219; and Galili to Mechnes and Danin, 26 Mar. 1948, IDFA 481\49\50.
- (95) Shemi (in the name of the OC), Alexandroni, to Haganah CGS, 25 Mar. 1948, IDFA 6127\49\93.
- (96) Entry for 19 Feb. 1948, DBG-YHI, 253-35. Note especially Danin's statement.
- قدم أهارون كوهين (رئيس الإدارة العربية بحزب ماباي) الملاحظة نفسها، وقد سعى إلى إقناع قيادة الحزب للتأثير في بن غوريون لتعديل تكتيكات الهاغاناه بشكل يمكن من أن تصيب الضربات الانتقامية فقط المجتمعات «المذبحة»، انظر:
- Cohen to Leib (Lova) Leivte and Riftin, 13 Mar. 1948, HHA-ACP, 10.95.11 (21).
- (97) Protocol of meeting of Mapai Secretariat, 20 Mar. 1948, LPA\24\48.

(98) Protocol of meeting of Defence Committee, 3 Feb. 1948, CZA S25-9346.

(99) Protocol of meeting of Defence Committee, 24 Feb. 1948, CZA 25-9346.

(100) 'Azaya' to Allon, apparently 3 Mar. 1948, IDFA 922\75\1218.

(101) Protocol of meeting on Arab Affairs, 1-2 January 1948, KMA, Galili Papers.

(102) Danin to Sasson, 13 Jan. 1948, CZA S25-9007.

(103) HIS-AD to Galili, 4 Dec. 1947, HA 73\98.

(104) Arab Division, 'In the Arab Camp', 7 Dec. 1947, CZA S25-9051.

(105) على سبيل المثال:

HIS-AD, 'Monthly Survey, November 1947' concerning the Arabs of 'The Galilee, South and Negev', 2 Dec. 1947, HA 105\228.

(106) 'Tzuri' to HIS-AD, 30 Apr. 1948, HA 105\226.

(107) Safwat's report of 23 Mar. 1948 to chairman of the Arab League Palestine Committee, in Segev, Behind the Screen, 93, 100-101.

(108) Protocol of meeting on Arab Affairs on 9 March 1948, unsigned, 9 Mar. 1948, IDFA 8275\49\126; and unsigned 'The Responsibility of the Arab Higher Executive (i.e. Committee) for the Disturbances', 16 Dec. 1947, CZA S25-4148.

(109) Untitled, unsigned report, HIS, 31 Dec. 1947, HA 105\123.

(110) على سبيل المثال:

"Tiroshi", "Khirbet Azzun". 23 Dec. 1947, HA 105\23; and Hashmonai, 'Information Circular', 4 Jan. 1948, IDFA 500\48\60.

- (111) "Yavne", "Subject: Dr. Khalidi's state of mind", 4 Jan. 1948, HA 105\23.
- وقد اشتكى الخالدي كذلك من هروب طبقة القيادة: «كان من الأفضل أن يعود جميع النشطاء العرب إلى البلاد ويساعدوا في العمل هناك، فوجودهم خارج البلاد لم تكن له فائدة...».
- (112) Cunningham to Secretary of State, 3 Jan, 1948, PRO FO 816\115.
- (113) Arab Division, "In the Arab Camp", 14 Dec. 1947, CZA S25-9051.
- (114) Arab Division, "In the Arab Camp", 28 Dec. 1947, CZA S25-9051.
- (115) Arab Division, "In the Arab Camp", 7 Dec. 1947, and Arab Division, "In the Arab Public", 21 Dec. 1947, both in CZA S25-9051.
- (116) "To Our Members", 21 Dec. 1947, HA 105\61.
- (117) Unsigned, "Subject: A Meeting of Husseini Supporters with Hassan Salame, Miscellaneous", 19 Dec. 1947, HA 105\23.
- (118) "01217" to HIS-AD, 4 Feb. 1948, HA 105\72.
- (119) "01203" to HIS-AD, 19 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.
- (120) "Yavne", Untitled, 4 Feb. 1948, HA\105\72.
- (121) "02203" to HIS-AD, 6 Feb. 1948, HA 1948, HA 105\23 bet.
- (122) Entry for 19 Jan. 1948, DBG-YHI, 163.
- (123) "31317" to HIS-AD, 2 Feb. 1948, IDFA 900\52\25.
- (124) "Tiroshi" to HIS-AD, 19 Feb. 1948, HA 105\251 aleph.
- (125) "Tiroshi" to HIS-AD, 9 Mar. 1948, HA 105\54 aleph.

- (126) HIS-AD, "Moshe H. Says", 11 Mar. 1948, HA 105\257.
- (127) Haifa NC "Communiqué No. 7", 22 Feb. 1948, HA 105\54 aleph.
- (128) Unsigned, "Subject: Meeting of Jews and Arabs in Samaria", 5 Sept. 1947, HA 105\54.
- (129) Circular of the Settlement Bloc Committee of Samaria, 1 Nov. 1947, LA 235 IV, 2092.
- (130) Circular of the Settlement Bloc Committee of Samaria, 4 Jan. 1948, LA 235 IV, 2092.
- (131) Hafer Valley Regional Council Circular, 24 Dec. 1947, LA 235 IV, 2093; and Settlement Bloc Committee of Samaria Circular, 4 Jan. 1948, CZA S25-7089.
- (132) Danio to Sasson, 23 Dec. 1947, CZA S25-3569.
- (133) Text of Poster, 21 Jan. 1948, CZA S25-9189.
- (134) HIS 'Subject: Conditions of the Agreement Between Deir Yassin and Giv'at Shaul', 20 Jan. 1948, HA 105\72.
- (135) Report by A.H. Cohen, 11 Feb. 1948, HHA-ACP 10.95.11 (4).
- (136) STH III, part 2, 1375; entry for 10 Mar. 1948, DBG-YHI, 291; and interview with Yehoshua Plamon, 1984.
- (137) "The Arab Workers in the Tel-Asher Grove" to the head of the Haganah, Tel Aviv, 16 Jan. 1948, HA 105\72.
- (138) "01104" to HIS-AD, 23 Dec. 1947, IDEFA 500\48\60.
- (139) "Tiroshi" to HIS-AD, 'Subject: Local Arab Approaches for Peace with the Jews', 18 Dec. 1947, HA 107\72.

- (140) "Tiroshi" to HIS-AD, "Subject: Local Arab Approaches for Peace with the Jews", 18 Dec. 1947, HA 105\72.
- (141) "Tiroshi" to HIS-AD, 22 Dec. 1947, HA 105\72.
- (142) Untitled, undated (but from the first months of civil war), unsigned segment of a report, IDFA 500\48\60.
- (143) "01123" to HIS-AD, 14 Jan. 1948, HA 105\72.
- (144) "01011" to HIS, 22 Jan. 1948, HA 105\72.
- (145) "01112" to HIS-AD, 25 Jan. 1948, HA 105\72.
- (146) Unsigned, untitled segment of Haganah report, from Jan. 1948, HA 105\72.
- (147) "01103" to HIS-AD, 7 Jan. 1948, HA 105\54 aleph.
- (148) "HIS Information", 19 March 1948, IDFA 922\75\1205.
- (149) "01207" to HIS-AD, 16 Jan. 1948, HA 105\72.
- (150) "01207" to HIS-AD, 4 Feb. 1948, HA 105\72.
- (151) "Hashmonai" to general distribution, 22 Dec. 1947, IDFA 500\48\60.
- (152) Unsigned, "Subject: Meeting with the Arab Mukhtars", 18 Jan. 1948, IDFA 2644\49\352.
- (153) "Yitzhar" to "Hashmonai", 5 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.
- (154) "Tiroshi" to HIS-AD, 6 May 1948, HA 105\54 aleph.
- (155) "Summary of Information (Reaching) Alexandroni Brigade (11.5.48)", No. 8, IDFA 2506\49\80.
- (156) Unsigned, "Summary of the Meeting of Arab Affairs Advisers in Dora camp 6.4.48", IDFA 2506\49\91.

يُذكر أنه لم يتوصل إلى اتفاق، أو على الأقل، لم يلتزم به. ففي الثامن من شهر مايو نقل أحد الضباط وقوع إطلاق نار من قاقون باتجاه مزارعي هماعيل، انظر:

Alexandroni, "Brigade Bulletin", 8 May 1948, IDFA 922\75\1205.

(157) "Tzuri" to HIS-AD, "Subject: The Village of Argibat (i.e., Nuqeib) Near Ein-Gev", 10 May 1948, IDFA 1196\52\1.

(158) "Hiran" to HIS-AD, "Subject: The Beduin Tribes around Genigar", 16 May 1948, HA 105\54 aleph.

(159) Segment of Haganah Report from Upper Galilee, unsigned, undated but from c. 20 May 1948, HA 105\54 aleph.

(160) Hiram to HIS-AD, "Subject: Events in the Ramat Yohanan Area", 1 Apr. 1948, HA 105\195.

(161) "Tiroshi" to HIS-AD, "Subject: The Inhabitants of Kheiriya", 6 May 1948, HA 105\54 aleph.

(162) "Tiroshi" to HIS-AD, "Subject: Echoes from the Villages Sindiyana, Sabarin and Fureidis", 6 May 1948, HA 105\54 aleph; and "Tiroshi" to HIS-AD, "Subject: Sindiyana Wants Peace", 11 May 1948, HA 105\54 aleph.

(163) "Hiram", to HIS-AD, 5 May 1948, HA 105\54 aleph.

(164) HIS report from 11 May 1948, HA 105\54 aleph.

(165) HIS report, 2 May 1948, HA 105\54 aleph.

(166) Segment of HIS report, 10 May 1948, HA 105\54 aleph.

(167) "Tiroshi" to HIS-AD, 3 May 1948, HA 105\54 aleph.

(168) Alexandroni to battalions, etc., 8 May 1948, IDFA 922\75\1205.

فيما يتصل بالخيرية انظر أيضا:

- "Turisgu" to HIS-AD, 'Subject: Inhabitants of Kheiriya', 6 May 1948, HA 105\54 aleph.**
- (169) "Summary of Information (Reaching) Alexandroni Brigade, (11.5.48), No. 8", IDFA 2506\49\80.**
- (170) "Hiram", to HIS-AD, 23 May 1948, HA 105\54 aleph.**
- (171) Segment of Haganah report from upper Galilee, unsigned, undated but from around 20 May 1948, HA 105\54\aleph.**
- (172) IDF General Staff\Operations logbook, entry for 9 June 1948, IDFA 922\75\1176.**
- (173) "Tiroshi" to HIS-AD, 'Subject: Among the Turkemans', 11 Dec. 1947, HA 105\195.**
- (174) '02122' to HIS-AD, 16 Dec. 1947, IDFA 6400\49\66.**
- (175) 'Hiram' to HIS-AD, 23 Dec. 1947, HA 105\72.**
- (176) "02104", to HIS-AD, 23 Dec. 1947, IDFA 500\48\60.**
- (177) A segment of an HIS-AD report from Jan. 1948, HA 105\72.**
- (178) "Tzadik" to "Mat'hen" and "Hashmonai", "Report for 11.1.48, IDFA 500\48\61.**
- (179) "Tzadik" to "Mat'hen" and "Hashmonai", "Report for 28.1.1948", 28 Jan. 1948. IDFA 500\48\61; and "02104" to HIS-AD, "Subject: Refusal to Give volunteers to the Gangs", 1 Feb. 1948, HA 105\72.**
- (180) "02104" to HIS-AD, "Subject: Attitude of the AHC to the Connection between the Jews and Deir Yassin", 1 Feb. 1948, HA 105\72.**

- (181) "Yavne" to HIS-AD, "Subject: Conflicts in Deir Yassin", 29 Feb. 1948. HA 105\72.
- (182) "Hashmonai" to "Yarkoni", etc., 23 Mar. 1948, IDFA 5254\49\372. See also: unsigned. "Appendix to Letter 22941\6 from 11.9.52 Relating to Deir Yassin Trial", IDFA 500\48\29.
- (183) "Yavne" to area OC, "Urgent Arab Information Circular from 7.4.48", 2 April 1948, IDFA 500\48\29.
- (184) '02112' to HIS-AD, 'Subject: Recruiting Arabs', 25 Jan. 1948 (misdated 25.12.48), HA 105\72.
- (185) "Hiram" to HIS-AD, 15 Apr, 1948, HA 105\257.
- (186) "Tiroshi" to HIS-AD, 6 May 1948, HA 105\54 aleph.
- (187) Alexandroni Brigade, "Brigade Bulletin", 10 May 1948, IDFA 2323\49\6.
- (188) Galilee District Commissioner, "Fortnightly Report for the Period Ended the 15th January 1948", 19 Jan. 1948, PRO CO 5373853-.
- (189) Protocol of meeting of Histadrut Arab Workers' Department, 26 March 1948, HHA-ACP 10.95.11 (4); and Protocol of the Histadrut Arab Workers' Department, 30 March 1948, CZA S25 -2968.
- (190) Protocol of meeting of JA-PD, 25 March 1948, CZA S25-426.
- (191) 317 Field Security Section, 6th Airborne Division, 'Report No. 57 for the Week Ending 10 December 1947', PRO WO 27579-; and 6th Airborne Division Logbook, entry 4 Dec. 1947, PRO WO 27552-.

(192) "HIS Information", 10 Dec. 1947, HA 105\61.

(193) "Hiram" to HIS, "Subject: Threats to Arabs by IZL Men", 18 Dec, 1947, HA 105\358

ويتحدث عن العائلات المسيحية في شارعي حسن شكري وهاني فعيم
والذين رُوعوا في أثناء القتال، انظر كذلك:

'Report on the Situation in the Country', Danin to Sasson, 23 Dec. 1947, CZA S25 - 4057.

وقد أوضح دانين أن اللاجئين اليهود من المناطق المجاورة لحيفا قاموا بشكل مخالف بوضوح لتعليمات الهستدروت والإرغون بمهاجمة المدنيين العرب الذين كانت منازلهم تقع بين منازل اليهود... وأجبروهم على الخروج من منازلهم بالقوة والضرب مرسلهم إلى أشقائهم مثيري الشغب»، وخلال اقتباسه لمُشاعر شخص عربي كتب دانين: «إذا كانت تلك هي طريقة تصرفكم [اليهود] في بداية القتال، فكيف ستكون طريقته عندما تسيطرون على السلطة؟» وفضلاً عن ذلك تحدث تقرير بريطاني صادر من يافا في ذلك الوقت عن قيام اليهود بترهيب العائلات العربية حتى تتخلي عن ديارها. انظر:

S.P. Entry to the Bishop of Jerusalem, 13 Dec. 1947, SAMECA-JEM LXXI\2).

(194) Untitled, unsigned HIS report, 23 Dec. 1947, HA 105\358

ويشار إلى أن الرقم ما بين «15 و20» ألفا يبدو أنه مبالغ فيه بشكل كبير في ذلك الوقت المبكر من الحرب الأهلية.

(195) "Ibrahim to Hussein", 27 May 1947, HA 105\252.

(196) "01101" to HIS-AD, "Subject: Haifa's Arabs during December 1947", 4 January 1948, HA 105\67.

في الحادي والثلاثين من ديسمبر ذكرت نشرة الهاغاناه الصادرة في حيفا: «ان تدفق الأشخاص الذين يتم إجلاؤهم مستمر»، وطبقاً للمحطة الإذاعية «الشرق الأدنى» وصلت 200 عائلة من فلسطين إلى لبنان، كما

أنه وفقا لوكالة الأنباء الفرنسية بلغ هذا العدد 2000 عائلة (يبد أن الرقم الأول يبدو أكثر مصداقية)، انظر:

Haifa Haganah HQ, "Lehavereinu", 31 Dec. 1947, HA 105\61.

(197) "01101" to HIS-AD, "Subject: Haifa's Arabs ...", 4 Jan. 1948, HA 105\67.

(198) انظر: 177, Goren, 'Why...'

(199) انظر:

IDF History Branch, 'The ALA 31.12.47- 23.9.55', undated but from late 1950, IDFA 1046\70\182, 7; and Goren, 'Why...', 178

(200) انظر: 177, Goren, "Why..."

(201) Tuvia Arazi to Sasson, 31 Dec. 1947, CZA S25 -7721.

(202) '01101', to HIS-AD, 'Subject: The Murder in the Refinery', 1 Jan 1948, HA 195\23; and 'Report by the Yishuv Investigation Committee Concerning the Disaster in the Haifa Oil Refinery on Tuesday... 30.12.47', 25 Jan. 1948, CZA S25 - 4037.

(203) Palmah logbook of operations, entry for 5 Jan. 1948, IDFA 661\69\36.

(204) "01011" to HIS-AD 6 Jan. 1948, HA 105\32 aleph.

(205) "00001" to HIS-AD, "Subject: The Attacks on Balad al Sheikh and Hawassa", 9 Jan. 1948, HA 105\32 aleph.

نقل أحد التقارير:

('01011' to HIS-AD, 'Subject: Balad al Sheikh', 6 Jan. 1948, HA 105\32 aleph).

نقل عن أحد المرشدين قوله: «دُمرت منازل العائلات كافة... وذكر العرب أن ذلك أفرز حالة من الذعر لا يمكن وصفها، وجرى القرويون في كل الاتجاهات للفرار من القرية، كما فر الجرحى في اتجاه الجبل وعُثر عليهم موتى...». ولم تقم الهاغاناه بالتعدي على مخيمات البدو في القرية أو بالقرب منها، ولم يكن لها أي دور في المذبحة.

(206) "Hiram" to HIS-AD, "Subject: Balad al Sheikh", 7 Jan. 1948, HA 105\32 aleph.

(207) Protocol of meeting of Defence Committee, 1 Jan. 1948, CZA S259345-.

(208) "01101" to HIS-AD, "Subject: Detailed Report on the Meetings of the Security Committee of the Arab and Jewish Employees of the Municipality, Law Courts and Government (officers)", 7 Jan. 1948, HA 105\23.

(209) Unsigned but HIS, "Subject: Report on Events in Haifa on Wednesday 7.1.48", 8 Jan. 1948, IDFA 5942\49\23.

(210) "00001" to HIS-AD, 9 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.

(211) "01101" to HIS-AD, 18 Jan. 1948, IDFA 5942\49\23

وقد حصلت الهاغاناه، قبيل الهجوم، على موافقة بريطانية ووعد بعدم التدخل، انظر:

'Hiram' to HIS, 19 Jan. 1948, IDFA 481\49\62.

(212) "HIS Information", 18 Jan. 1948, IDFA 900\52\58.

(213) Entry for 5 Jan. 1948, DBG-YH I, 114.

(214) Entry for 22 Jan. 1948, DBG-YH I, 177.

(215) In *Enemy Eyes*, 12.

(216) IDF History Branch, "ALA 31/12/47-23/9/55", undated but from late 1950s, IDFA 1046\70\182; Arazi to Sasson, undated but from 20 or 21 Jan. 1948, CZA S257721-; unsigned report (possibly by Arazi), 18 Jan. 1948, CZA S25 - 7721.

(217) Eshel, "Haifa", 326.

(218) Entry for 22 Jan. 1948, DBC-YH I, 177, and Haifa District Commissioner, "Report for the Period 1623- January 1948", 3 Feb, 1948, PRO CO 537 - 3853.

(219) Arazi to Sasson, undated but from 20 or 21 Jan. 1948, CZA S25 - 7721.

وفقا لجهاز استخبارات الهاغاناه كان الوفد ينوي أن يطلب استبعاد العناصر غير النظامية غير المحلية من المدينة، وإلا فإن اللجنة ستستقيل وسيتم إجلاء حيفا، انظر:

'Hadad' to Sasson, 17 Jan. 1948, CZA S25-3569; and entries for 22 Jan. 1948, DBG-YH I, 171 and 177.

(220) Unsigned HIS report, 21 Jan. 1948, IDFA 5942\49\23.

كانت فكرة الهجرة الجماعية من «حيفا» ذائعة الانتشار، وقد أشار إليها بعض قادة المدينة؛ حيث ذكر أحد أعيان المدينة («كمال عبدالرحمن» نائب رئيس الغرفة التجارية) لمصدر لجهاز استخبارات الهاغاناه كان على صلة به أنه إذا ما فشل المفتي في أن يأخذ الوضع الخاص للمدينة بعين الاعتبار فإنه لن يمر وقت طويل حتى تصبح حيفا وكرا للعصابات بعد أن يهجرها سكانها. انظر:

HIS, "Subject: Report on Events in Haifa on Friday 23.1.48", 25 Jan. 1948, IDFA 5942\49\23.

(221) Arazi to Sasson, 31 Jan. 1948, CZA S25-7721.

(222) "Information from the Nagid" to HIS-AD, 9 Feb. 1948, ISA FM 2568\4.

(223) "Behind the Screen", 50.

(224) أوضح فرانسيس هاسو أن مخاوف العرب من أن يقوم اليهود باغتصاب نسائهم أسهمت في الهجرة الجماعية خلال العام 1948، انظر:

Modernity and Gender... Defeats", 492.

(225) Goren, "Why...", 180.

(226) Arazi to Sasson, 31 Jan. 1948, CZA S25-7721.

(227) Arazi to Sasson, 31 Jan. 1948, CZA S25-7721.

(228) Arazi to Sasson, 31 Jan. 1948, CZA S257721-; and "01101" to HIS-AD, "Subject: Report on Events among Haifa's Arabs During January 1948", 2 Feb. 1948, HA 105\67. See also Gelber, Palestine, 2122-.

(229) Unsigned HIS report, "Subject: Report on Events in Haifa on Thursday 29.1.48", IDFA 5942\49\23.

(230) "01101" to HIS-AD, "Subject: Report on Events Among Haifa's Arabs During January 1948", 2 Feb. 1948, HA 105\67.

(231) "Summary of Hiram information", 10 Feb. 1948, IDFA 7249\49\152.

(232) HIS, "Subject: Report on Events in Haifa on Monday 9.2", 11 Feb. 1948, IDFA 5942\49\23.

(233) "Harim" to HIS-AD, 7 Feb. 1948, HA 105\193 bet.

مثل المسيحيون ربع سكان حيفا أو أكثر.

(234) "Hiram" to HIS-AD, 11 Mar. 1948, HA 105\195.

(235) "Summary of Hiram Information", 10 Feb. 1948, IDFA 7249\49\152.

(236) Goren, "Why...", 182.

(237) "HIS Information", 28 Mar. 1948, IDFA 900\52\58;
"Hiram" to HIS-AD, "Transfer of Children to Beirut", 14
Mar. 1948, HA 105257; and excerpt from JA-PD Arab
Division Report, 16 Mar. 1948, HA 105\257.

(238) Excerpt from HIS report, 17 Mar. 1948, HA 105\257.

(239) "Hiram" to HIS-AD, 12 Apr. 1948, HA 105\257; and
unsigned Palmah Arab Platoon report, "Report on Shahr
Reconnaissance in Haifa", 10 Apr. 1948, HA 105\257.

(240) "Hiram" to HIS-AD, "Evacuation of Children", 8 Apr.
1948, HA 105\257; and "Hiram" to HIS-Ad, 12 Apr. 1948,
HA 105\257.

(241) بدت حيفا كما لو أنها المدينة الوحيدة التي جرت فيها عملية ترحيل
منظم للأطفال.

(242) Goren, "Why...", 181.

(243) Gelber, "Palestine", 81.

(244) Carmeli to HGS, "Subject: Report for the Period 14.2 - 12.3",
21 Mar. 1948, IDFA 6680\49\3.

(245) وفقا لمصادر الهاغاناه فإنه خلال الفترة من 14 فبراير حتى 12 مارس قُتل
85 وجرح 95 من العرب في حيفا، في حين كان هناك 21 قتيلا من الجانب
اليهودي (5 منهم من الهاغاناه) و 63 جريعا (أربعة من الهاغاناه) كما قُتل
أيضا ستة من الجنود البريطانيين، انظر:

Carmeli to HGS, "Subject: Report for the Period 14.2 - 12.3" 21 Mar.
1948, IDFA 6680\49\3).

(246) A.J. Bidmead, Haifa CID, to Inspector General, 6 Mar.
1948, IDFA 900\52\25.

يُذكر أن تقريراً للهاغاناه صادراً في اليوم نفسه تضمن أن التفجير لم يُنفذ
بواسطة «الهاغاناه»، انظر:

'Subject: Events in Haifa on 6.3', 7 Mar. 1948, IDFA 5942\49\23.

(247) HIS, "Subject: Report on Events in Haifa on 21.2", 23 Feb.
1948, IDFA 5942\49\23.

(248) HIS, 'Subject: Report on Events in Haifa on Friday 27.2',
29 Feb. 1948, IDFA 5942\49\23.

(249) "Hiram" to HIS-AD, 2 Mar. 1948, HA 105\102.

(250) A.N. Law, Haifa District Commissioner, to Ibrahim, 4
Mar. 1948, HA 105\380.

(251) "Hiram" to HIS-AD, 18 Mar. 1948, HA 105\195.

(252) Moatza to Knesset (Palmah HQ to HGS), "Daily Report",
28 Feb. 1948, IDFA 922\75\1066.

(253) 'Yona' to 'Giora', 'Subject: Raid on Wadi Nisnas', 5 Mar.
1948, IDFA 5942\49\10.

(254) 'Ehud' to Carmel, 'Report on Attack on Arms and Arab
Commanders Convoy on 17.3,1948', 19 Mar. 1948, IDFA
5942\49\10.

(255) Carmeli to HGS, 'Weekly Report on the Events in the
Area between 2.3 and 26.3', 31 Mar. 1948, IDFA 7353\49\46.

(256) Unsigned, 'Subject: Report on Events in Haifa on Tuesday
23.3', 24 Mar. 1948, IDFA, 5942\49\23.

(257) Safwat to OC Haifa area, 28 Mar. 1948, HA 105\127
aleph.

(258) Entries for 10 and 30 Mar. 1948, DBG-YH I, 290 and 362.

(259) انظر:

Committee for Economic Defence, "Information on the Arab Economy, Bulletin No. 6", 1719- Apr. 1948, HA 105\146.

(260) انظر:

'Avner' to HIS-AD, 12 Apr, 1948, HA 105\257; and 'HIS Information 13.4.48', IDFA 7357\49\7.

(261) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 1', 11 Apr. 1948, HA 105\146.

(262) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 3', 13 Apr. 1948, HA 105\146.

(263) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 5', 1416- Apr. 1948, HA 105\146.

(264) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 8, Summary of Information form 5 to 20 Apr.', 26 Apr. 1948, HA 105\146.

(265) In Enemy Eyes, 18.

(266) In Enemy Eyes, 12, 1718-, and 20.

(267) Krischer (Haifa) to Arab Department, Mapam, 10 Feb. 1948, HHA-ACP 10.95.10 (6).

(268) Arab Department, "Bulletin No. 2 (Information About Developments in the Arab Camp – from Our Special Sources)", 1 Mar. 1948, HHA-ACP 10.95.10 (6).

(269) The Haifa NC communiqués – nos. 1-10 and no. 12- are reproduced verbatim, in Hebrew, in "In Enemy Eyes", 55 - 66.

يذهب الخالدي في كتابه "سقوط يافا" (22-32) إلى أن اللجنة الوطنية سعت بشكل قوي ومستمر إلى إيقاف الهجرة الجماعية، بيد أن الدلائل لا تبدو مؤيدة لذلك وتظل غامضة.

- (270) "Hiram", 'Daily Information Circular', 1 Apr. 1948, IDFA 5942\49\23.
- (271) "Hiram" to HIS-AD, undated but c.5 Apr. 1948, HA 105\257.
- (272) Committee for Economic Defence, "Information on the Arab Economy, Bulletin No. 3", 13 Apr. 1948, HA 105\146.
- (273) "Hiram" to HIS-AD, 12 Apr. 1948, HA 105\379.
- (274) Eshel, "Battles", 342.
- (275) Gelber, "Palestine", 82.
- (276) Giv'ati Brigade HQ 'Operations logbook', 1.12.47\15.48-', HA 73\98.
- (277) 'Ibrahim' to Palmah HQ, 'Report of Shahar Reconnaissance in Jaffa 1.12.74', HA 73\21; and 'HIS Information', 1 Dec. 1947, IDFA 900\52\56.
- (278) "Ibrahim" to Palmah HQ, "Subject: Report on Reconnaissance in Jaffa on 5.12.47", HA 73\98.
- (279) HIS reports from 2 Dec. 1947, KMA-PA 10147 ,46 ,45- and 50; and 6th Airborne Division Logbook, entry for 3 Dec. 1947, PRO WO 275 - 52.
- (280) انظر: «تسلسل الأحداث...»: «Schedule of events appended by V. Fox-Strangways, Chief Secretary's" Office, Government of Palestine, to Jewish Agency, 8 Dec. 1947, CZA S25 - 4148; and sheet from Haganah logbook, c.8 Dec. 1947, HA\73\98.
- (281) Undated, unsigned Haganah intelligence logsheet, from around 11 Dec. 1947, HA 73\98.

(282) "HIS Information", 15 Dec. 1947, HA 105\61.

(283) على سبيل المثال:

Untitled logbook entry from c.4 Dec. 1947, HA 73\98

(284) Golan, "Transformation", 78 - 79.

(285) 'HIS Information', 9 Dec. 1947, IDFA 900\52\58.

(286) HIS, 'Subject: Jaffa', 25 Dec. 1947, HA 105\72.

(287) Untitled, unsigned report, 17 Dec. 1947, CZA S259208-;
and Arab Division, 'In the Arab Camp', 28 Dec. 1947, CZA
S25 - 9051.

(288) "01203", to HIS-AD, 2 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.

(289) Arab Division, "In the Arab Camp", 28 Dec. 1947, CZA
S25 - 9051; and Golan, Transformation, 79.

(290) 'Information from Jafa... 23.12.47', 5 Jan. 1948, HA
105\215 aleph.

(291) 'In the Arab Camp', 1 Feb. 1948, IDFA 128\51\71.

(292) Golan, Transformation, 7677-.

(293) 'Zarhi Says', 9 Dec. 1947, IDFA 481\49\62.

(294) "HIS Information", 10 Dec. 1947, IDFA 900\52\58.

(295) "Arye", "The Situation in Jaffa", 11 Dec. 1947, CZA S25-
4011.

(296) "01203" to HIS-AD, 2 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.

(297) '01203', to HIS-AD, 2 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.

(298) 'Arye', 11 Dec. 1947, CZA S25 - 4011.

(299) Entry for 10 Dec. 1947, DBG-YHI, 35.

- (300) Arab Division JA-PD, "In the Arab Camp", 14 Dec. 1947, CZA S259046-; and "Peh" to Sasson, 18 Jan. 1948, CZA S25 - 9046.
- (301) HIS, "Subject: Meeting of Bat-Yam Representatives with Arab Representatives to Agree on Peace", 19 Dec. 1947, HA 105\72.
- (302) 'Shiloni' to chief of HNS, 4 Jan. 1948, HA 80\105\1 (Moshe Svirsky Papers).
- (303) 'Protocol of the Third Meeting on Arab Affairs on 23.3.48', IDFA 8275\49\126.
- (304) ذكر أحد تقارير جهاز استخبارات الهاغاناه: «الوضع الاقتصادي سيئ، فأسعار الخضراوات والفواكه منخفضة كما أن البيض والدواجن رخيصة الأسعار لأن يافا تتلقى المنتجات كافة بمجرد بيعها إلى تل أبيب»، انظر: "Hiram" to HIS-AD, "Meetings in Transjordan", 26 Feb. 1948, HA 105\23 gimel).
- (305) HIS, 'Subject: In Jaffa', 25 Dec. 1947, HA 105\72; and Committee for Economic Defence, 'Information of the Arab Economy, Bulletin No. 8, Summary of Information from 5 to 20 April', 26 April 1948, HA 105\146.
- (306) "Hiram" to HIS-AD, 26 Jan. 1948, HA 105\32 aleph.
- (307) Arab Division, "In the Arab Public", 2 Mar. 1948, HA 105\100.
- (308) Committee of Economic Defence, "Information about the Arab Economy, Bulletin No. 1", 11 April 1948, HA 105\146.
- (309) Committee for Economic Defence, 'Information about the Arab Economy, Bulletin No. 4', 1013- April 1948, HA 105\146.

(310) 'Zarhi says', 9 Dec. 1947, IDFA 841\49\62; and 'From the Yogev', 5 Jan. 1948, CZA S25 - 9051.

(311) HIS-AD, "From the Yogev", 5 Jan. 1948, CZA S259051-.

(312) "Zarhi says", 9 Dec. 1947, IDFA 481\49\62. Petrol prices soared.

(313) "HIS Information", 10 Dec. 1947, IDFA 900\52\58.

(314) '01203' to HIS-AD, 2 Jan. 1948, HA 105\23 aleph. See also 'Shiloni' to chief of HNS, 4 Jan. 1958, HA 80\105\1 (Moshe Svirsky Papers).

(315) Gelber, "Palestine", 80.

(316) قال بن غوريون تعليقا على عمليات من هذا النوع: «لا أستطيع أن أنسى أننا كنا البادئين (بالتفجيرات)... كان اليهود السباقين إلى القيام بمثل هذا الفعل»، انظر:

Protocol of Meeting of Defence Committee, Ben-Gurion's statement, 24 Feb. 1948, CZA S25 - 9346.

(317) "Hapo'el Ha'aravi" to the Arab Division, JA-PD, 2 Feb. 1948, CZA S25 - 4066.

(318) Unsigned but HIS, "Information from Jaffa 16.1.48", HA 105\32 aleph.

(319) "01203" to HIS-AD, 16 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.

(320) "01203" to HIS-AD, 16 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.

(321) "Albert, 18.1.48", CZA S25 - 9007.

(322) "Peh" to Sasson, 18 Jan. 1948, CZA S253569-.

(323) تفريغ لمحات تلفونية من يافا، انظر:

Jl IZL Papers, kaf-4, 8\9.

(324) انظر:

'Dafna' to 'Dormi-Tzuriel', 'Subject: A Pithy Survey of the Arab Camp in Our Area', 15 Mar. 1948, IDFA 8275\49\136. ويُقدم عرضاً مختصراً لتطور المليشيات في يافا والعلاقات التي سادت بينها.

(325) 'Avner' to HIS-AD, 28 Mar. 1948, HA 105\257; and IDF History Branch, 'The ALA', 85, IDFA 1046\70\182.

(326) "HIS Information", 8 Feb. 1948, IDFA 900\52\58; and Hassan Salame, "To Jaffa's kind inhabitants", 10 Feb. 1948, HA 105\23 bet.

(327) "Hashmonai" to "Dromi", 2 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.

(328) "Protocol of Meeting on Arab Affairs, 12- January 1948", 38, 40, etc, KMA, Israel Galili Papers.

(329) Entry for 7 Jan. 1948, DBG-YH I, 121; and Political and Diplomatic Documents, 333, Ben-Gurion to Shertok (New York), 12 Feb. 1948.

(330) "In Enemy Eyes", 32 - 33.

(331) Arab Division, 'In the Arab Camp', 14 Dec. 1947, CZA S25 - 9046.

(332) Entry for 9 Dec. 1947, DBG-YH I, 29.

(333) 'Protocol of Meeting on Arab Affairs, 12- January 1948', KMA-IGP; and entry for 2 Jan. 1948, DBG-YH I 104; See also Ya'akobson (Ben-Avi) to Ben-Gurion ('Amitai'), 'Siege of Jaffa', 4 Jan, 1948, DBGA.

(334) Entry for 25 Jan. 1948, DBG-YH 18485.

يلاحظ أن غاليلي أنكر معرفته بالأحداث التي يصفها جاكوبسون.

- (335) Protocol of Meeting of Defence Committee, 27 Jan. 1948, CZA S25 - 9345. See also Galili to Kiryati, 5 Mar. 1948, IDFA 481\49\50.
- (336) "Avram" to HIS-AD 15 Feb. 1948, HA 105\23 bet; and "Information from Jaffa ... 16.2.48", 2 Mar. 1948, HA 105\32.
- (337) 'Report on the Operation of the "centre", 13.3.48', IDFA 8275\49\114.
- (338) 'Avner' to HIS-AD, 'The Attack on Abu Kabir and its Effect', 28 Mar. 1948, HA 105\32 aleph.
- (339) 'Na'im' to HIS-AD, 25 Mar. 1948, HA 105\32 aleph.
- (340) "Avner" to HIS-AD, 28 Mar. 1948, HA 105\32 aleph.
- (341) "Selection from Letters", 25 Apr. 1948, IDFA 500\48\29.
يلاحظ أن أسماء المرسل والمستقبل فضلا عن التاريخ غير متاحة، وإنما فقط الملخص الذي قدمه ضابط جهاز استخبارات الهاغاناه عن أجزاء من الخطاب.
- (342) 'Avner' to HIS-AD, 29 Mar. 1948, IDFA 8275\49\126.
- (343) 'Kiryati-Dafna' to 'Dromi-Tzuriel', 15 Apr. 1948, IDFA 8275\49\136; and 'Protocol of Arab Division Meeting on Thursday 22.4.48', CZA S259664-.
- (344) 'Kiryati-Dafna' to 'Dromi-Tzuriel', 15 Apr. 1948, IDFA 8275\49\136.

(345) انظر:

Golan, "Transformation", 22.

- (346) Entry for 12 Jan. 1948. DBG-YHI, 141.

- (347) HIS, 'Subject: Doings in the Old City', 7 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60; and 'Hashmonai' to 'Dromi', 7 Jan. 1948, IDFA 500\48\\5.
- (348) Unsigned, 'Subject: The Economic Situation in a Number of Arab Neighborhoods', 15 Jan., 1948, IDFA 500\48\\60; and 'Hashmonai', 15 Jan. 1948, IDFA\500\48\\5.
- (349) Unsigned, 'Subject: The Feeling Among the Arabs', 15 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60.
- (350) 'Hashomai', 17 Jan. 1948, IDFA 500\48\5; and Unsigned, 'Subject: Food Suppliers in the Arab Sector', 17 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60.
- (351) Unsigned, "Subject: Shortage of Bread among the Arabs", 20 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60.
- (352) "Hashmonai" to "Dromi", 17 Jan. 1948, IDFA 500\48\60.
- (353) "Hashmonai" to "Aka" and "Levanon", 31 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60.
- (354) Unsigned, "Subject: The Situation in the Old City", 1 Feb. 1948, IDFA 500\48\\60.
- (355) Unsigned, 'Subject: Convention between Khalidi and the High Commissioner', IDFA 500\48\\60.
- وعلى سبيل المثال على التقرير عن نهب قطار عربي انظر:
- 'Tiroshi', 'Subject: Train Robbery Between Taibe and Farun', 25 Dec. 1947, HA 105\23 and '02122' to HIS-AD, 'Subject: Train Robberies', 31 Dec. 1947, HA 105\23.
- (356) Unsigned, 'Subject: letter of Complaint to the Inspector of Foods about Bread.

- (357) Unsigned, 'Well-founded Information (from 7.2.48)', IDFA 500\48\\60.
- (358) Unsigned, "Subject: in the Greek Colony", 1 Feb. 1948, IDFA 500\48\\60.
- (359) Unsigned, 'Subject: Groups of Thieves Inside the "National Guard"', 4 Feb. 1948, IDFA 500\48\\60.
- (360) Unsigned, 'Well founded Information from 13.2.48', IDFA 500\48\\60.
- (361) Unsigned, 'HIS-AD Information 4.3.48', IDFA 922\75\\1205.
- (362) Unsigned, 'The Situation in the Arab Neighborhoods in the Southern Parts of the City (Summary of Information from 21.3.48)', IDFA 5254\49\\75.
- (363) Pages from an HIS summary of the Arab Economy during Nov. 1947-May 1948, HA 119\105.
- (364) Committee of Economic Defence, 'Transport, Bulletin No. 2', HA 105\146.
- (365) Committee of Economic Defence, 'Information about the Arab Economy, Bulletin No.', HA 105\146.
- (366) HIS-AD, 'On the Situation in the City and its Environs', 30 Nov. 1947, HA 73\98.
- (367) 'Yamami' to 'Yehoshua', 1 Dec. 1947, CZA S259210-.
- (368) '00004' to HIS-AD, 'Subject: Arab Preparations', 30. Nov. 1947, HA 73\98.
- (369) Unsigned, 'Schedule', undated, CZA S259210-; and 'The Jerusalem Information Bureau', (i.e. Haganah HQ Jerusalem) to Jerusalem Haganah members, 10 Dec. 1947, CZA S25 - 9210.

(370) Haganah logbook, entry for 2 Dec. 1947, CZA S25 - 9210.

(371) 'To the Members in the Bases', 3 Dec. 1947, CZA S259210-.

(372) Haganah logbook entry for 3 Dec. 1947, CZA S25 - 9210.

(373) 'To Our Members in the Bases', 3 Dec. 1947, CZA S25 -9210.

(374) Haganah logbook entries for 4 Dec. 1947, CZA S25 - 9210.

(375) Haganah logbook, entry for 4 Dec. 1947, CZA S25 - 9210.

(376) Jerusalem Haganah, 'Summary of Information for 4.12.47',
CZA S25 - 9210.

(377) Unsigned, 'Report on the Situation in the Old City from
5 - 14.12.1947', IDFA 481\49\23.

(378) على سبيل المثال:

"Hashmonai", "Subject: Report for 28-29.12.47", IDFA
500\48\56.

(379) Haganah Jerusalem District, "Bulletin No. 15", 10 Dec.
1947, CZA S259210-; and Haganah Jerusalem District,
"Bulletin No. 16", 11 Dec. 1947, HA 105\61.

(380) "Bulletin No. 17", 11 Dec. 1947, HA 105\61.

(381) على سبيل المثال:

"Zohar" to "Yitzhak", "Subject: Combat Patrol to Lifta", 16
Dec. 1947, IDFA 553\50\100.

(382) على سبيل المثال:

"Tzadik", to "Hashmonai", 30 Dec. 1947, IDFA 500\48\61;
and "Hashmonai" to "Ben-Ydhuda", "Subject: Report 29 -3.47"
undated, IDFA 500\48\56.

(383) 'Following is Report as Given by Gavriel', 29 Dec. HA
105\23.

- (384) "0004" to HIS-AD, 2 Jan 1948, IDFA 500\48\\60.
- (385) 'o2204' to HIS-AD, 31 Dec. 1947, IDFA 500\48\\60.
- (386) HIS-AD, 'Arab Emigration from December to End of February', undated, HA 105\102.
- (387) 'Tzadik' to HIS-AD, 'Subject: Doings in Lifta', 15 Jan. 1948, HA 105\23.
- (388) Lissner to District OC, 22 Jan. 1948, IDFA 2644\49\\402.
- (389) "Tzadik" to "Hashmonai", 22 Jan. 1948, IDFA 500\48\\61.
- (390) "Tzadik", to "Ma"then", and "Hashmonai", "Report for 30.1.48, IDFA 500\48\\61.
- (391) "02204" to HIS-AD, "Subject: The Position of Lifta's Men", 9 Feb. 1948, HA 105\32 aleph.
- (392) 'Shadmi' to 'Hashmonai', 24 Dec. 1947, IDFA 500\48\\61; and 'Hashmonai' to 'Ben-Yehuda', 'Subject: Report for 23-24.12.47', IDFA 500\48\\56.
- (393) 'Shadmi' to 'Hashmonai', 27 Dec. 1947, IDFA 500\48\\61.
- (394) 'Tzadik' to 'Hashmonai', 28 Dec. 1947, IDFA 500\48\61; and 'Hashmonai' to 'Ben-Yehuda', 'Subject: Report on 27-28.12.47', IDFAF 500\48\\56.
- (395) 'Shadmi' to 'Hashmonai', 14 Jan. 1948, IDFA 500\48\\61.
- (396) 'Hashmonai', 'Information', 2 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60; and HIS-AD, 'Emigration from December Until the End of February', HA 105\102.
- (397) 'Subject: Romema', unsigned, 23 Jan. 1948, IDFA 26605\49\\5; and 'Tzadik' to 'Hashonmai', 'Report for 4.2.48', 4 Feb. 1948, IDFA 500\48\\62.

Golan, "transformation", 24.

(399) Entry for 20 Jan. 1948, DBG-YHI, 165.

(400) British Army HQ, 'Fortnightly Intelligence Newsletter', 16 Jan. 1948, PROWO 27564-; 'CID Summary of Events', 18 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60. 'Tzadik' to 'Hashmonai', 'Addition to the Daily Report ...', 17 Jan. 1948, IDFA 500\48\\61 hints at this.

(401) 'Tzadik' to 'Mat'hen' and 'Hashmonai', 15 Jan. 1948, IDFA 500\48\\61.

(402) 'Tzadik' to 'Hashomnia', 19 Jan. 1948, IDFA 500\48\61.

(403) 'Tzadik' to 'Mat'hen' and 'Hashmonai', 17 Jan. 1948; 'Tzadik' to 'Mat'hen' and 'Hashmonai', 'Addtion to Daily Report...', 17 Jan. 1948, IDFA 500\48\\61; 'Tzadik' to 'Mat'hen' and 'Hashmonai', 18 Jan. 1948; 'Tzadik' to 'Hashmonai', 19 Jan. 1948; and 'Tzadik' to 'Hashmonai', 20 Jan. 1948 – all in IDFA 500\48\\61.

(404) 'Tzadik' to 'Mat'hen' and 'Hashmonai', 19 Jan. 1948, and 'Tzadik' to 'Hashmonai', 20 Jan. 1948 –both in IDFA 500\48\\61.

(405) 'Tzadik' to 'Hashmonai', 21 Jan. 198, IDFA 500\48\\61.

(406) 'Falastin', 28 Jan. 1948, CZA S25 - 9271.

(407) 'Hashomoni', untitled, 3 Jan. 1948, IDFA 2605\49\\3.

(408) 'Tzadik' to 'Hashmonai', 'Information', 20 Jan. 1948, IDFA 500\48\\61.

(409) Unsigned, 'Subject: The Atmosphere and Events Among the Christian Arabs', 9 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.

(410) Entry for 20 Jan. 1948, DBG-YH I, 165.

(411) HIS, 'Well-founded Information from 10.2.48', undated, IDFA 500\48\60; and Milstein War, III, 152.

(412) 'Tzadik', to 'Hashmonai', 'Report for 10.2.48, IDFA 500\48\61.

(413) HIS, 'Well-founded Information from 13.2.48, and '90004' to 'Alula', 'Well-founded Information from 11 Feb. 1948', undated – both in IDFA 500\48\60.

تحدث تقرير بريطاني لاحق عن سيارة بمكبّر صوت كانت تجوب الطالبة في الثاني عشر من فبراير، على إثر مقتل امرأة يهودية بالرصاص في المناطق المجاورة، انظر:

British Army HQ, "Fortnightly Intelligence Newsletter", 27 Feb. 1948, PRO WO 275 - 64.

(414) HIS, "Well-founded Information from 13.2.48", IDFA 500\48\60; and HIS, "Well-founded Information (from 12.2.48), IDFA 500\48\5.

(415) HIS, 'Well-founded Arab Information from 21.2.48' IDFA 500\48\5.

(416) 'Hashmonai' to 'Dromi', 22 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.

(417) HIS, 'Well-founded Arab Information from 19.2.48' IDFA 500\48\5.

(418) 'Tzadik' to 'Hashmonai' and 'Moriah', 26 April. 1948, IDFA 533\50\25.

- (419) 'Hashmonai', 'Information', 15 Jan. 1948, IDFA 500\48\5.
- (420) Jerusalem Haganah, 'Bulletin No. 16', 11 Dec. 1948, HA 105\61; and unsigned, 'Subject: Houses Evacuated for Purpose of Sniping', 9 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.
- (421) Unsigned, 'Subject: Evaluation of Arab Houses Next to Talpiypot', 4 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.
- (422) 'Well-founded Information from 13.2.48', and 'Hashmonai' to 'Dromi', 22 Feb. 1948 – both in IDFA 500\48\60.
- (423) 'Well-founded Arab Information from 16.2.48', IDFA 500\48\5.
- (424) 'Mashmonai', 'Information', 2 Jan. 1948, IDFA 500\48\60; HIS-AD Information 6.1.84', HA 105\23; and 'Hashmonai', 'Information', 12 Jan. 1948, IDFA 500\48\50.
- (425) 'Hashomoni' report, 2 Jan. 1948, IDFA 500\48\60; and 'HIS Information 6.1.48', HA 105\23.
- (426) 'Shadmi' to 'Zohar', 'Operational Order', 12 Jan. 1948, and 'Zahor' to 'Shadmi', 'Report on Execution', 13 Jan. 1948 – both in IDFA 500\48\4.
- (427) 'Tzadik' to 'Hashmonai', 15 Jan. 1948, IDFA 500\48\61.
- (428) 'Shadmi' to 'Hashomai', 14 Jan. 1948, and 'Tzadik' to 'Hashmonai', 16 Jan. 1948 – both in IDFA 500\48\61.
- (429) 'Hashmonai' 12 Jan. 1948, IDFA 500\48\60.
- (430) 'Tzadik' to 'Mat'hen' and 'Hashmonai', 30 Jan. 1948, IDFA 500\48\61.
- (431) 'Tzadik' to 'Hasmonai', 30 Jan. 1948, IDFA 500\48\61. See also 'Hasmonai' to 'Dormi', 'Subject: Arab Reinforcement for the Southern Parts of the City', undated but c. 21 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.

(432) 'Hashmonai' to 'Moriah', 'Annexes to Information Summary No. 1311 2.4.48', IDFA 2605\49\2.

(433) 'Hamami' to 'Yahoshua', 1 Dec. 1947, CZA S25;9210-00004" to HIS-AD, 'Subject: The [Arab] Registering of the Jewish Inhabitants of Qatamon', 2 Dec. 1947, CZA S25-9210; and Haganah logbook entry for 15 Dec. 1947, CZA S25 - 9210.

(434) Jerusalem Haganah HQ, 'Bulletin No. 15', 10 Dec. 1947, CZA S25 - 9210.

(435) Unsigned, untitled report (in English) 4 Jan. 1948, CZA S254147-; and 'HIS Information', 4 Jan. 1948, IDFA 900\52\58.

(436) 'Tzadik' to 'Hashmonai' etc., 'Report on the Demolition of the Semiramis Hotel ...', 5 Jan. 1948, IDFA 500\48\61.

بعد مضي وقت ذكر شاهام الذي قام بالعملية أن هدفه تمثل، جزئياً، في إيقاف الهجرة اليهودية من مناطق الجوار المشترك بين العرب واليهود وأن يُعجل بهروب العرب منها. انظر:

Milstein War, III, 77.

(437) "Tzadik" to "Hashmonai", "Subject: Hotel Semiramis", 7 Jan. 1948, IDFA 500\48\60; and Milstein War III, 73 - 78.

(438) Public Information Office, 'Press Release No. 8', 6 Jan. 1948, CZA S25 - 4013.

(439) Cunningham to Secretary of State, 7 Jan. 1948, PRO FO 816\115.

(440) 'Statement by the Jewish Agency for Palestine', 6 Jan. 1948, CZA S25 - 4013.

(441) Ben-Gurion to Cunningham, 8 Jan. 1948, CZA S25 - 4013.

(442) Unsigned, 'Subject: The Feelings in Qatamon After the Explosion', 7 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60.

(443) Untitled, unsigned HIS report, 5 Jan. 1948, IDFA 2605\49\\3.

See also 'Through Yosef, deputy CO Area 4 ...,' Hebrew translation of what seems to be a British intelligence report, 5 Jan. 1948, IDFA 2605\49\\3.

(444) Arab Division, 'Summary of Information about Hotel Semiramis ...,' 8 Jan. 1948, CZA, S25 - 4013.

(445) 'HIS Information', 7 Jan. 1948, IDFA 900\52\\58.

(446) HIS, 'The Situation in the Arab Neighborhoods in the Southern Part of Town (Summary of Information from 21.3.48)', IDFA 5254\49\\75.

(447) Quoted in Krystall, 'The Fall of the New City 1947100,' 1950-.

(448) 'Survey of the Arab Neighborhoods of Southern Jerusalem', 29 Feb. 1948, IDFA 2605\49\\3.

(449) Unsigned, 'The Qatamon Affair', undated, IDFA 500\48\\54.

(450) 'Hashmonai' to 'Moriah', 'Annexes to Information Summary No. 131, 2.4.48', IDFA 2605\49\\2; and 'The Situation of the Arab Neighborhoods o Southern Part of the City (Summary of Information from 21.3.48)', IDFA 5254\49\\75.

(451) Sakakini, "Diary", 231.

(452) Sakakini, "Diary", 23132-.

(453) Sakakini, "Diary", 235.

(454) Unsigned, 'The Situation in the Arab Neighbourhoods in the Southern Part of the City (Summary of Information from 21.3.48)', undated but from late Feb. 1948, IDFA 5345\49\75.

في كتابه «سقوط المدينة الجديدة»: (1950-1947) لا يذكر كريستال أي شيء عن هذه الانقسامات الداخلية كعامل مهم في الهجرة من القدس.

(455) "Na'im" to HIS-AD, 29 Dec. 1947, HA 105\215 aleph

من المفيد التذكير بأن القرى المختلفة التي أشارت إليها تقارير الهاغاناه باعتبارها مهجورة خلال الفترة من شهر ديسمبر 1947 حتى مارس 1948 أضحت بعد ذلك إما مسكونة بشكل كامل أو جرتي ولم تُهجر نهائيا إلا في تاريخ لاحق.

(456) '01227' to HIS-AD, 'Subject: Reprisal Against the Village of Qazaza', 22 Dec. 1947, IDFA 481\49\62; and Qazaza village file, HA\136.

(457) IDF-GS\Operations Logbook, entry for 16 July 1948, IDFA 922\75\1176.

(458) '01122' to HIS-AD, 'Subject: Miscellaneous Information', 2 Dec. 1947, IDFA 6400\49\66.

(459) 'Ben-Ari' to 'Kiryati', 'From the Logbook - Court 4', undated, HA 73\98.

(460) "Tiroshi" to HIS-AD, 'Subject: Khirbet 'Azzun', 23 Dec. 1947, HA 105\23.

(461) 'Khirbet 'Azzun-Tabsar', 18 Dec. 1941, HA 8\195.

(462) '01112' to HIS-AD, 27 Jan. 1948, IDFA 6400\49\66; and "Tiroshi (Erian)" to HIS-AD, 19 Feb. 1948, HA 105\72.

- (463) HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (464) '01122' to HIS-AD, 'Subject: Arab al Balawina', 16 Dec. 1947, IDFA 6400\49\\66; and HIS-AD 'Arab al Balawina', summer 1943, IDFA 1627\94\\231.
- (465) '0122' to HIS-AD, 'Subject: Miscellaneous Information', 2 Dec. 1947, IDFA 6400\49\\66.
- (466) HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 June 1948, HHA-AC 10.95.13 (1).
- (467) HIS-AD to Galili, 1 Dec. 1947, HA 73\98.
كانت القرية مكونة من جزأين: الجماسين الغربية والجماسين الشرقية.
- (468) 'Avram', 9 Jan. 1948, HA 105\23.
- (469) Reconnaissance squad to Third Battalion, 2 Jan. 1948, IDFA 6647\49\\13.
- (470) "Avram", 8 Jan. 1948, HA 105\23.
- (471) 'Avram', 9 Jan. 1948, HA 105\23.
- (472) 'Tiroshi' to HIS-AD, 17 Mar. 1948, HA 105\257.
- (473) 'Kiryati' to 'the Engineer', 15 Jan. 1947, IDFA 8275\49\\126.
- (474) HIS-AD to 'Dan', 'Hillel', 1 Dec. 1948, HA 105\61.
- (475) 'HIS-AD Information 25', '4.1.48-3- Jan. 1948, HA 105\61.
- (476) 'Tsfoni', to 'Kiryati', 10 Feb. 1948, IDFA 8275\49\\138; and 'Tsfoni' to 'Kiryati', 23 Feb. 1948, HA 105\72.
- (477) 'Avram' to HIS-AD, 11 Feb. 1948, HA 105\72; and 'Tiroshi (Aran)', to HIS-AD, 29 Feb. 1948, HA 105\72.

(478) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 9 Mar. 1948, HA 105\257.

(479) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 9 Mar. 1948, HA 105\257.

(480) Alexandroni HQ to first and second battalions, 10 Mar. 1948, IDFA 2687\49\35.

(481) Alexandroni HQ to OCs second and third battalions, et., 14 March 1948. IDFA 2323\49\5.

(482) Uriah Shavit and Jalal Bana, 'The Palestinian Dream, the Israeli Nightmare', Haaretz magazine, 6 July 2001.

(483) تم تضمين ذلك في:

Alexandroni to Haganah CGS, 25 Mar. 1948, IDFA 6127\49\93

(484) HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(485) Tel Aviv Haganah intelligence logsheet, 22 March 1948, HA 105\62.

(486) 'Protocol of Meeting No. 3 on Arab Affairs on 23.3.48', IDFA 8275\49\126.

(487) HGS to brigade OCs, etc., 24 Mar. 1948, IDFA 922\75\1219.
See also Galili, 'Meeting of HNS', 22 Mar. 1948, IDFA 481\49\64.

وقد نُصّ فيه بشكل صريح على «حماية الشيخ مونس».

(488) 'Gur' to 'Etzioni', 7 Apr. 1948, IDFA 5254\49\148.

(489) Galili, 'Meeting of HNS', 29 Mar. 1948, IDFA 481\49\64.

(490) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 31 Mar. 1948, HA 105\257.

- (491) 'Tiroshi (Aran)', to HIS-AD, 'Subject: The Evacuation of 'Arab Abu Kishk by its Inhabitants', 31 Mar. 1948, HA 105\257.
- (492) Protocol of Meeting of Defence Committee, 1 Apr. 1948, CZA S259348-.
- (493) 'Tiroshi' to HIS-AD, 6 Apr. 1948, HA 105\257. See also Kan'ane and Abd al Haid, 'Abu Kishk'.
- (494) HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (495) 'Tiroshi (Allon)' to HIS-AD, 1 Apr. 1948, HA 105\257; and 'Tiroshi (Aran)', to HIS-AD, 31 Mar. 1948, HA 105\257.
- (496) 'Tiroshi (Allon)' to HIS-AD, 12 Apr. 1948, HA 105\257.
- (497) 'Tiroshi (Aran)', to HIS-AD, 11 Apr. 1948, HA 105\257.
- (498) فيما يتصل بقبائل شارون البدوية انظر:
"On Beduin Tribes of the Sharon Sub-District", 1 Mar. 1948, IDFA 1627\94\231; and '1113' to HIS-AD, 'Subject: Comments on the List of Beduin Tribes in the Sharon Sub-District from 1.3.44', 10 Apr. 1944, HA 8\206.
- (499) "01122" to HIS-AD, 16 Dec. 1947.
- (500) HIS-AD, "Migration from December to the End of February", undated, HA 105\102.
- (501) HIS-AD, 'Migration from December to the End of February, HA 105\102.
- (502) HIS-AD, 'Migration from December to the End of February', HA 105\1902.
- (503) '01112', to HIS-AD, 9 Feb. 1948, IDFA 6400\49\66.

(504) HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 June 1948, HHH-ACP 1-,95.13 (1).

(505) 'Tiroshi (Aran)', to HIS-AD, 19 Mar. 1948, HA 105\257
يذكر المرجع أعضاء قبائل «السواركة» و«الحجازي».

(506) HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(507) 'Testimony of Arye Bachar', interviewed 24 July 1957, JI IZL Papers, kaf-4. 7\7.

(508) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 30 Mar. 1948, IDFA 6400\49\66;
and Rafael Ruppin, letter to the editor, Haaretz, 11 Apr. 1999.

(509) 'Tiroshi (Dror)', to HIA-AD, 18 Feb. 1948, IDFA 6400\49\66.

(510) Tiroshi (Dror)', to HIS-AD, 24 Mar. 1948, IDFA 2506\49\85
اشتكى لواء إسكندروني من أن الهجوم الذي شنته الباماخ كان «مخالفا
للخطوط العامة التي اتبعناها كأساس لعلاقاتنا مع العرب» انظر:
Alexandroni to CGS, 25 Mar. 1948, IDFA 6127\49\93.

(511) "Palestine Post", 28 Mar. 1948.

(512) 'Yavne' to HIS-AD, 8 Apr. 1948, HA 105\257.

(513) 'Summary of Meeting of Arab Affairs Advisers in Netanya 9.5.48', IDFA 6127\49\109.

(514) HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(515) HIS-AD, 'Migration from December Until the end of February', undated, HA 105\102.

(516) 'Tiroshi' (Aran), to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\257.

(517) HIS-AD, "The Migratory Movement...", 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

- (518) Danin to Sasson, 13 Jan. 1948, CZA S25 - 9007.
- (519) '01112' to HIS-AD, 12 Jan. 1948, HA 105\23 aleph.
- (520) '02112' to HIS-AD, 1 Feb. 1948, HA 105\358.
- (521) Palmah HQ to 'Boaz', 3 Feb. 1948, IDFA 922\75\\1025;
and Galili statement, Protocol of Meeting of Mapapm
Political Committee, 5 Feb. 1948, 66.90 (1).
- (522) 'Amon' to Palmah HQ, 10 Feb. 1948, IDFA 922\75\\1211.
- (523) Palmah HQ to HGS, 20 Feb. 1948, IDFA 922\75\\1214.
- (524) Wagman, Mukhtar Sdot-Yam, to 'Reuven', undated, IDFA
2687\49\\35.
- (525) Cohen to Levite and Riftin, 13 Mar. 1948, HHA 10.95.11 (21).
- (526) '01112', to HIS-AD, 22 Dec. 1947, IDFA 6400\49\\66.
- (527) HIS-AD, 'Migration from December until the end of February',
undated, HA 105\102; and HIS-AD, 'The Migratory Movement
...', 30 June 1948, HHH-ACP 10.95.13 91).
- (528) 'Tiroshi (Eitan)', to HIS-AD, 6 Mar. 1948, HA 105\257.
- (529) HIS-AD, 'Qumya', early 1942, HA 105\225.
- (530) Weitz to Granovsky, 31 Mar. 1948, CZA A202 - 217 (Avraham
Granott Papers).
- (531) 'Binyamin' to 'Golani', 31 Mar. 1948, IDFA 128\51\\71.
See also Yani, Toldot Ein Hard, I, 281.
- (532) Weitz to Granovsky, 31 Mar. 1948, CZA A202 - 217.
- (533) Entry for 11 Jan. 1948, Weitz, Diary, III, 223.

- (534) Entry for 20 Feb. 1948, Weitz, Diary, III, 239 - 40.
- (535) Entry for 26 Mar. 1948, Weitz Diary, III, 25657-; and interview with Eliezer Be'eri (Baurer), Kibbutz Hazore'a, Apr. 1984.
- (536) Entry for 26 Mar. 1948, Weitz, Diary, III, 25657-. See also Morris, 'Yosef Weitz and the Transfer Committees, 1948-1949'.
- (537) Entries for 31 Mar. and 2 Apr. 1948, Weitz, Diary, III. 260 - 261.
- (538) Entry for 26 Mar. 1948, Weitz, Diary III, 256 - 57.
رحل سكان الطيرة في الخامس عشر من أبريل بعد تلقيهم «نصيحة
يهودية صديقة»، انظر:
HIS- AD, 'Migratory Movement ...' 30 June 1948, HHA 10.95.13 (1).
- (539) Palmah HQ to HGS, 'News', 18 Jan. 1948, IDFA 922\75\\1066; Palmah HQ to HGS, 'News', 19 Jan. 1948, IDFA 922\75\\1066; and 'Eitan' to 'Ali', 'Report on the Mansurat al Kheit Operation', 19 Jan. 1948, IDFA 922\75\\1224.
- (540) Allon to HGS, 'Daily Report', 13 Mar. 1948, IDFA 922\75\\1066; and Allon to HGS, 'Daily Report', 17 Mar. 1948, HA 105\62.
- (541) MacMillan to Eliezer Kaplan, 22 Mar. 1948, CZA S25-7721; and entry for 22 Mar. 1948, YND.
- (542) 'Mitzpa' to HIS-AD, 29 Mar. 1948, HA 105\257.
- (543) HIS-AD, 'The Migratory Movement...', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(544) 'Yavne' to HIS-AD, 4 Jan. 1948, HA 105\215 aleph; and 'Hashmonai' to 'Moriah', 'Concentration of Information No. 104', 7 Mar. 1948, IDFA 2605\49\2; HIS, 'Annexes to Information Concentration No. 125', 29 Mar. 1948, IDFA 2605\49\2; and HIS-Ad, 'The Migratory Movement ...', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95 - 13 (1).

(545) 'Hashmonai' to 'Dromi', 15 Feb. 1948, IDFA 500\48\60.

(546) 'On Events in the Negev', 22 March 1948, CZA S25 - 3569.
The report is signed 'RA, 7 Mar. 1948'.

(547) H.L. Gurney, chief secretary, Government of Palestine, to Ben-Gurion, 15 Dec. 1947; and Ben-Gurion to Gurney, 23 Dec. 1947, both in CZA S25 - 4148.

(548) 'Yoske' to Sarig, 30 July 1948, IDFA 1676\51\12

يُذكر أن فقرة رئيسية من التقرير حذفت من قبل رقابة المسؤولين
الرسميين بوزارة الدفاع الإسرائيلية.

(549) Gelber, "Palestine", 7; and Gabbay, Political Study, 66.

يُوضح غاباي أنه خلال الحرب العالمية الأولى كان «عدة آلاف» من
الفلسطينيين قد هربوا إلى سورية للفرار من التجنيد من قبل العثمانيين،
وكان الهرب من قبيل التقاليد.

(550) Behind the Screen, 50.

(551) قُدمت إشارة إلى ذلك في تقرير (ربما يكون صحيحا) نشرته صحيفة
«الأيام» السورية بتاريخ 21 ديسمبر 1947، تضمن أن كلا من دمشق
وبيروت طلبتا إلى اللجنة العربية العليا ممارسة نفوذها على الفلسطينيين
على طول الحدود حتى لا يفروا إلى سورية ولبنان، وأن يلزموا أماكنهم
ويعاربوا. انظر:

Arab Division, "Information on the Arab Military Preparations",
9 Jan. 1948, CZA S25 - 3999.

(552) Gabbay, Political Study, 92; and Nimrod, "Hamahapach",
Al Hamishmar (Hotam), 5 Apr. 1985.

(553) Gelber, "Palestine", 77.

(554) Arab Division Report, 24 March 1948, citing the Arab
newspapers Al-Masri and Al-Ahram, HA 105\257

اقتباس من الصحف العربية مثل «المصري» و«الأهرام».

(555) Unsigned but HIS, "Subject: Report on What Happened
on Tuesday 23.3", 24 Mar. 1948, IDFA 5942\49\23.

(556) 'Na'im', 'Subject: Details from a Talk with Dr. Dajani', 24
Dec. 1947, HA 105\215 aleph.

(557) '02204' to HIS-AD. 'Subject: A Tendency by the Arabs
to Leave the Country', 15 Jan. 1948, HA 105\215 aleph. See
also '02104' to HIS-AD, 14 Jan. 1948, HA 105\215 aleph.

(558) British Military HQ, Palestine, 'Fortnightly Intelligence
Newsletter', 30 Jan. 1948, PRO WO 275 - 64.

(559) '00004' to HIS-AD, 'In the Arab Public', 29 Jan. 1948, HA
105\23 bet.

استمرت مثل هذه النشرات من قبل الهاغاناه؛ حيث وجدنا في نهاية مارس
رئيس الإدارة العربية بالهستدروت (أغاسي) يشتكي منها: "إن إذاعاتنا
تتحدى في ازدراء العرب الذين فروا كما لو كنا مهتمين ببقائهم في البلاد
وقيامهم بمحاربتنا!"

(560) HIS, "Information Circular", c.21 Jan. 1948, IDFA 500\48\60.

(561) "Elkana" to Ben-Gurion, ("Amital"), 19 Feb. 1948, DBG Archive.

(562) Gelber, "Palestine", 77.

(563) 'Hasmonai', 'Subject: Doing Among the Arabs', 12 Jan.
1948, IDFA 500\48\60.

(564) 'Hashmonai', 'Subject: Demographic Changes in Jerusalem', 25 Jan. 1948, IDFA 500\48\\60.

(565) Unsigned, 'The Situation in the Arab Neighbourhoods in Southern Part of the City (Summary of Information from 21 March 1948)', IDFA 5254\49\\75.

(566) 'Yavne', 23 March 1948, HA 105\257.

(567) HIS, 'Reliable Information from 13.2.48', IDFA 500\48\\5.

(568) HIS, 'Reliable Information from 21.2.48', IDFA 500\48\\5.

(569) 'Hashmonai', 'Information', 22 Feb. 1948, IDFA 500\48\\5.

(570) IDF History Branch, 'The Arab Liberation Army, 31.12.1947 -23.9.1955', IDFA 1046\70\\182.

(571) HIS-AD, 'Subject: Report on Events in Haifa on Friday 23.1.48', 25 Jan. 1948, IDFA 5942\49\\23.

(572) 'HIS-AD Information 9.2.1948', IDFA 922\75\\1205.

(573) 'Na'im' to HIS-AD, 3 Mar. 1948, HA 105\257.

(574) HIS-AD translation of Tulkarm NC Communique of 27 Feb. 1948, HA 105\102.

ترجمة الإدارة العربية لجهاز استخبارات الهاغاناه للبيان الصادر في السابع والعشرين من فبراير عن اللجنة الوطنية في طولكرم.

(575) Alexandroni HQ, "Sparks, General Survey", 11 Mar. 1948, IDFA 6400\49\\66.

يذكر التقرير أن اللجنة الوطنية رتبت مرتين لإعادة الخيل التي قام العرب المحليون بسرقتها الأسابيع السابقة إلى ملاكها من اليهود، وكان ذلك منتصف الحرب بين الجماعتين!

(576) "Tiroshi" to HIS-AD, 14 Mar. 1948, IDFA 661\69\\36.

(577) Unsigned, "Subject: The Anger of the Inhabitants of Biet Safafa Concerning the Entry into their Village and Attacks on Mokor-Hayim by the Gangs", 28 Jan. 1948, IDFA 500\48\5; and part of untitled report, "Yavne", 9 Mar. 1948, HA 105\257.

(578) "01122", to HIS-AD, 2 Dec. 1947, IDFA 6400\49\66.

(579) "021122" to HIS-AD, 9 Feb. 1948m IDFA 6400\49\66.

(580) "02122", to HIS-AD, 10 Dec. 1947, IDFA 6400\49\66.

(581) "Naim" to HIS-AD, 22 Feb. 1948, HA 105\72.

(582) Hussein to NC of Tiberias, undated but from Mar. 1948, HA 105\257.

(583) 'Yavne' to HIS-AD, 18 Mar. 1948

يقدم عرضاً للنقاط الرئيسية التي تضمنها التقرير، الذي فرض عليه البريطانيون رقابة، ويتناول خطاباً أرسله الحسيني من القاهرة بتاريخ 8 مارس 1948 إلى اللجنة الوطنية للقدس، وقد حصل جهاز استخبارات الهاغاناه على نسخة من التقرير لكن ليس من الخطاب الرئيسي، ولم أجد نسخة من الخطاب ذاته، انظر:

"Avner" to HIS-AD, 29 Mar. 1948, and excerpt from report by "Yavne", 21 Mar. 1948- both in HA 105\257.

(584) 'Mitzpa' to HIS-AD, 29 Mar. 1948, and two reports by 'Yavne', 30 March 1948, all in HA 105\257.

أوضح أحد تقارير يافن أن النساء في القدس أيضاً كانت مضطرة إلى التقدم بطلبات للحصول على تصريح خروج.

(585) 'Hiram' to HIS-AD, 29 Mar. 1948, HA 105\257.

(586) تقرير مختصر على الأرجح صادر من جهاز استخبارات الهاغاناه بتاريخ 28 مارس 1948، انظر: HA\ 105\257.

(587) HIS, "In the Arab Camp", 5 Apr. 1948, IDFA 661\69\36.

(588) أقتبس ذلك في 66. Gabby, "Political Study".

(589) HID-AD, "The Migratory Movement ...", 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

الفصل الرابع

(1) Khalidi, 'Plan Dalet . . .'; Pappe, Making, 54-55, 89-94; and Masalha, 'The Historical Roots . . .', 43-44 – argue the opposite, to my mind contrary to the evidence.

تذهب هذه الدراسات إلى مساندة الرأي المعاكس، وبالنسبة إلي فإنها تخالف الدلائل والبراهين.

(2) HGS, 'Tochnit Dalet', 10 Mar. 1948, IDFA 922\75\949, IDFA 922\75\595 and IDFA 2687\49\35.

(3) HGS, 'Tochnit Dalet', 10 Mar. 1948, IDFA 922\75\595 and 922\75\949, for Giv'ati and Alexandroni brigades.

(4) انظر:

Operations Officer, Alexandroni, to battalions 31, 32, 33 and 34, April 1948 (apparently 5\6 April), IDFA 2687\49\35.

(5) Entries for 22 and 23 Apr. 1948, Weitz, Diary, III, 272.

(6) Protocol of Cabinet meeting, 19 May 1948, ISA. See also Sharett's statement of 'surprise' in protocol of Cabinet meeting, 20 June 1948, ISA.

(7) Protocol of Cabinet meeting, 8 Jun. 1948, ISA.

يلاحظ أنه بعد مرور أسبوع أكد بن غوريون أن «هروب العرب» لم يشكل بالنسبة إليه مفاجأة، انظر:

Protocol of Cabinet meeting, 16 June 1948, ISA.

- (8) IDF GS\intelligence to "Conrad", "Summary of Information from Northen Front", 3 June 1948, IDFA 922\75\\1044.
- (9) 'Summary of the Meeting of the Advisers on Arab Affairs in Camp Dora 31.3.48', IDFA 4663\49\\125.
- (10) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers in Dora Camp 6.4.48', IDFA 4663\49\\125.
- (11) 'Naftali' to zone OCs, 18 Apr. 1948, IDFA 4663\49\\46.
- (12) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers in Dora Camp 13.4.48', IDFA 4663\49\\125.
- (13) 'Tiroshi (Dror)' to HIS-AD, 16 Apr. 1948, HA 105\257.
- (14) Galili, 'Meeting of HNS, 5.4.', IDFA 481\49\\64.
- (15) Galili to Yadin, 15 Apr. 1948, IDFA 661\69\\45.
- (16) Allon to HGS\Operations, 18 Apr. 1948, IDFA 196\71\\83.
يلاحظ أنه بدءاً من شهر أبريل استخدمت الهاغاناه «قوات الدفاع الإسرائيلية» عادة كلمة «لاجئين» كمرادف للسكان العرب.
- (17) HGS to brigades, 13 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1219.
- (18) 'Summary of a Meeting with "Amitai", 6 May 1948', DBGA.
- (19) Ben-Gurion, "As Israel Fights", 100.
يلاحظ أن رواية مختلفة قليلاً ظهرت في DBG-YH II, 387.
- (20) Unsigned, 'Hebrew Translation of Record-Posters in Arabic [Nos.] 1-6', undated, IDFA 1196\52\\1.
- (21) HGS\Operations\5 to brigades, 16 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1206.
- (22) Unsigned, 'Assumptions [i.e., Guidelines? Concerning] Behaviour Toward Surrendering Villages', 22 Apr. 1948, HA 80\774\7 (Zvi Aurbach Papers).
وصلت هذه الوثيقة إلى مستشاري الشؤون العربية للهاغاناه، وتمت الإشارة إليها في:

- 'Summary: Meeting of the Arab Affairs Advisers in Netanya 25.4.48', IDFA 2506\49\91.**
- (23) Shitrit, 'Memorandum of the Ministry for Minority Affairs', 10 May 1948, ISA, Labour Ministry, 6178\2924.**
بشكل واضح تم إعداد المذكرة بناء على اقتراح بن غوريون بعد أن زاره
ماكس مشتكيا من سلوك الهاغاناه في المناطق المحتلة، انظر:
(entry for 6 May 1948, Ben-Gurion Diary).
- (24) Unsigned, 'Definition of the [Requisite] Behaviour in Managing Arab Towns and Villages to be Conquered by the Military', undated but stamped 'received 16 May 1948', IDFA 6127\49\109.**
- (25) HGS\Operations, 'Chapter 1. – General', 11 May 1948, IDFA 2384\50\9.**
- (26) Chief of HGS to Alexandroni, 23 Mar. 1948, IDFA 481\49\50.**
- (27) Alexandroni to sub-district OCs (mafanim), 2 Mar. 1948, IDFA 4663\49\84; Alexandroni to sub-district OCs, 15 Mar. 1948, IDFA 2506\49\91; Alexandroni to battalions, etc., 28 Mar. 1948, IDFA 922\75\1211; Naftali to heads of councils and headmen, 30 Mar. 1948, IDFA 4663\49\84; and Hadari to district OCs, 23 Mar. 1948, IDFA 244\51\81.**
- (28) Protocol of meeting of Defence Committee, 16 Mar. 1948, CZA S25-9347.**
- (29) Galili to Gwartz, Danin, Machnes, 26 Mar. 1948, and HGS to brigades, 29 Mar. 1948, both in IDFA 481\49\50.**
- (30) Gwartz to ?, 1 Apr. 1948, IDFA 2506\49\91.**
- (31) Gwartz to ?, 1 April 1948, 'Subject: Sdot Tvuah', IDFA 2506\49\91.**
- (32) 'Yaakobi' to Giv'ati, 28 Apr. 1948, IDFA 1041\49\7.**

- (33) 'Summary of Meeting of the Arab Affairs Advisers in Camp Dora 31.3.48'; 'Summary of Meeting of the Arab Affairs Advisers in Camp Dora 6.4.48; and 'Summary of Meeting of the Arab Affairs Advisers in Camp Dora 13.4.48', – all in IDFA 4663\49\\125; 'Summary, Meeting of the Arab Affairs Advisers in Netanya 25.4.48', IDFA 2506\49\\91; and 'Summary of Meeting of the Arab Affairs Advisers in Netanya 9.5.48', IDFA 6127\49\\109.
- (34) Galili to brigades, 13 Apr. 1948, HA 73\169.
- (35) See Morris, 'The Harvest of 1948 . . .'; and OC Kinneret sub-district to 'Reuven', 30 May 1948, IDFA 1096\49\\51.
- (36) Horowitz to Ben-Gurion, 2 May 1948, IDFA 6127\49\\109.
- (37) Ben-Gurion, *As Israel Fights*, 87–88, text of Ben-Gurion's speech to Zionist Actions Committee, 6 Apr. 1948.
- (38) 'Yavne', 'Arab Information from 17.4.48', IDFA 500\48\\55.
- (39) Tahsin Kamal, Defence and Security Dept., NC, Jerusalem, to secretaries of neighbourhood committees, 22 Apr. 1948, ISA FM2570\11.
- (40) 'Hashmonai', 'Arab Information from 5 April 1948', IDFA 500\48\\55.
- (41) 'Hashmonai' to 'Moriah', 'Annexes to Information Summary No. 182', c. 19 Apr. 1948, IDFA 2605\49\\2.
- (42) Unsigned, untitled segment of HIS report, 22 Apr. 1948, HA 105\257.
- (43) Entry for 4 May 1948, CZA A246–13, 2373.
- (44) 'Tzuri' (Levi Avrahami, OC HIS Northern Front) to HIS-AD, 'Miscellaneous Intelligence', 9 May 1948, IDFA 1196\52\\1.

- (45) HIS, 'Daily Summary', 3 May 1948, IDFA 900\52\\58.
- (46) 'Peretz' to 'Hashmonai', 'Subject: Information from the Motza Area', 30 Mar. 1948, IDFA 500\48\\29; and unsigned, 'Qastal', 3 Apr. 1948, IDFA 5545\49\\114.
- (47) 'Yavne to HIS-AD, 6 Apr. 1948, HA 105\257.
- (48) 'Hashmonai' to 'Michmash', 'Annexes to Information Summary No. 143', 8 Apr. 1948, IDFA 4944\49\\499.
- (49) 'Yavne' to HIS-AD, 10 Apr. 1948, HA 105\257.
- (50) 'Arab Intelligence from 28.4.48', IDFA 500\48\\55.
- (51) 'Yavne' to HIS-AD, 11 Apr. 1948, HA 105\257.
- (52) Unsigned, 'Shu'fat', 29 Apr. 1948, IDFA 196\71\\83; and 'Hashmonai' to 'Michmash', 'Summary of Intelligence No. 205, 29.4.48', IDFA 4944\49\\499.
- (53) 'Yavne' to HIS-AD, 15 Apr. 1948, HA 105\257; and unsigned, 'Arab Intelligence from 20.4.48', IDFA 500\48\\55.
- (54) Untitled, unsigned intelligence report, 18 Apr. 1948, IDFA 5545\49\\114.
- (55) 'Yavne' to HIS-AD, 19 Apr. 1948, HA 105\257.
- (56) 'Summary of Intelligence for Alexandroni Brigade (11.5.48), No. 8', IDFA 2506\49\\80; and 'HIS Intelligence, Daily Summary', 7 May 1948, HA 105\94.
- (57) 'Yavne to District OC, 'Urgent Arab Intelligence from 20.4.48', IDFA 500\48\\55.
- (58) 'Na'im (Na'aman)' to HIS-AD, 8 Apr. 1948, HA 105\257.
- (59) 'Summary of Information for Alexandroni Brigade (11.5.48), No. 8', IDFA 2506\49\\80.

- (60) 'Tzuri (Shaanan)' to HIS-AD, 7 May 1948, HA 105\92.
- (61) 'Oded' to Golani, 20 Apr. 1948, IDFA 128\51\\50.
- (62) Unsigned, 'Carmeli Brigade Summary of Intelligence No. 3 for 7.5.48', IDFA 273\52\\2.
- (63) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 2 May 1948, HA 105\217.
- (64) 'Hiram', untitled, 22 Apr. 1948, HA 105\257; and 'Hiram' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\257; and Alexandroni, 'Bulletin No. 34', 9 Jun. 1948, IDFA 2323\49\\6.
- (65) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 22 Apr. 1948, HA 105\257.
- (66) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 29 Apr. 1948, HA 105\257.
- (67) 'Summary of Intelligence for Alexandroni Brigade (11.5.48), No. 8', IDFA 2506\49\\80.
- (68) HIS, 'Intelligence, Daily Summary', 7 May 1948, HA 105\94.
- (69) 'Yiftah' to HGS, Yadin, etc., 2 May 1948, IDFA 128\51\\50.
- (70) 'Yovev', untitled, 8 May 1948, HA 105\217.
- (71) HIS-AD, Qastina village file, entry for 19 May 1948, HA 105\134.
- (72) 'Tzuri (Leshem)' to HIS-AD, 26 June 1948, HA 105\127 aleph; and 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The Journey of the Wife of Ma'luli to Beirut', 4 July 1948, HA 105\127 aleph.
- (73) 'Tzuri (Leshem)' to HIS-AD, 7 July 1948, IDFA 7249\49\\138.
- (74) 'Hiram' to IDF Intelligence Service, 3 Aug. 1948, IDFA 7249\49\\138.
- (75) Golani\Intelligence, 'Intelligence', 27 Jun. 1948, IDFA 1096\49\\64.
- (76) 'Tzuri (Leshem)' to HIS-AD, 11 July 1948, HA 105\127 aleph.
- (77) 'Tzuri (Leshem)' to HIS-AD, 7 July 1948, IDFA 7249\49\\138.

- (78) 'Tzuri (Shaanan)' to HIS-AD, 11 July 1948, IDFA 7249\49\\138.
- (79) 'Giora' to 'Utz', 17 Aug. 1948, IDFA 7249\49\\138.
- (80) 'Tzuri (Yosef)' to IDF Intelligence Service, 19 Sept. 1948, IDFA 7249\49\\138.
- (81) Intelligence officer, 6th Battalion, 'page No. 387, No. 576', undated but late Aug. 1948, IDFA 1046\70\\417.
- (82) Yiftah intelligence logbook, entry for 31 Oct. 1948, IDFA 922\75\\1230.
- (83) 54th Battalion to Giv'ati, 'Subject: Summary for 29.4.48', 30 Apr. 1948, IDFA 1041\49\\18.
- (84) 'Hiram' to HIS, 30 Apr. 1948, HA 105\257.
- (85) Alexandroni, 'Bulletin No.12', 18 May 1948, IDFA 2323\49\\6.
- (86) 'Yeruham' to HIS-AD, 13 May 1948, HA 105\217.
- (87) Unsigned, 'Arab Intelligence from 13.5.48', IDFA 5254\49\\75.
- (88) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13(1).
- (89) 'Mitzpa' to HIS-AD, 6 Apr. 1948, HA 105\257.
- (90) 'Yiftah' to HGS, etc., 2 May 1948, IDFA 128\51\\50.
- (91) 'Tzuri' to HIS-AD, 10 May 1948, IDFA 1196\52\\1.
- (92) 'Tzuri' to HIS-AD, 'Subject: Miscellaneous Information from Samakh and the Area', 27 Apr. 1948, HA 105\92 bet.
- (93) Unsigned, 'Ein-Gev. [Testimony] Taken from Ezra Klopfeny, 9.10.48', IDFA1235\52\\1. See also 'Ein Gev in the War, 35.

(94) Unsigned, 'Ein-Gev, [Testimony] Taken 4.7.48, from Zili Diter, OC "Persian" Sector', IDFA 1235\52\1; 'Ein Gev in the War, 34 and 71; and Yitah, MAM, to Military Governor, Western Galilee, 26 Oct. 1948, and Hassan Zickrallah to OC Acre, 20 Oct. 1948, both in IDFA 922\52\564.

(95) كتب رئيس الوزراء السوري السابق خالد العظم في مذكراته («مذكرات خالد العظم») ص. 386: «لقد جلبنا الخراب على ما يقرب من مليون لاجئ عربي بمطالبتهم ومناشدتهم بشكل متكرر أن يتركوا أراضيهم وديارهم ومصانعهم». (أدين بالشكر للدكتور غيدعون ويغرات من القدس الذي أفادنا بهذا المصدر)، إلا أنني لم أجد أي دليل معاصر على مثل هذه الدعوة الشاملة «الرسمية» من قبل أي حكومة عربية. كما أنني لم أعثر على أي دليل على أن الفلسطينيين أو أي مجموعة ذات ثقل غادرت لأنها تلقت مثل هذه «الدعوات» أو الأوامر من القادة العرب في الخارج، والاستثناء الوحيد الضئيل لذلك يتمثل في الآثار (التي تمت الإشارة إليها) للأمر - الذي أصدره بشكل واضح السوريون - لبعض سكان الجليل الشرقي بالمغادرة قبل أيام من - وفي إطار الاستعدادات للغزو في 15 - 16 مايو. إن مثل هذا الأمر أثر في الأكثر على عدة آلاف من الفلسطينيين، ولا يمكن بأي حال من الأحوال ربطه وتركيبه مع جهود الهاغاناه لإبعاد الفلسطينيين عن تلك المنطقة (انظر الجزء المتصل بعملية يفتاح).

من الممكن أن يكون العظم يشير إلى هذا القرار، أو - وهو الأكثر ترجيحاً - أنه أقحم هذه الفقرة لتسجيل بعض النقاط في سياق عمليات الجدل بين العرب أنفسهم (على سبيل المثال نقد أقرانه من القادة العرب فيما يتصل بالنزوح الجماعي).

إذا كانت هناك أوامر شاملة تدعو إلى الرحيل صدرت عن قادة عرب بالخارج - بمن في ذلك القادة الفلسطينيون في المنفى - سواء كان ذلك عن طريق الإذاعات أو أي طريقة علنية أخرى، فمن المؤكد أن آثار ذلك كان يجب أن تظهر في الأرشيف المعاصر الذي قدمته المؤسسات المدنية والعسكرية في يشوف، أو حكومة الانتداب، أو المؤسسات الدبلوماسية البريطانية والأمريكية الموجودة في المنطقة آنذاك. إن أجهزة استخبارات يشوف - الهاغاناه ثم عقب ذلك جهاز استخبارات قوات الدفاع الإسرائيلية، والقسم العربي بالإدارة السياسية للوكالة اليهودية والأجهزة

التي حلت محله فيما بعد، وإدارة الشرق الأوسط؛ والبحوث؛ والإدارة السياسية بوزارة الخارجية الإسرائيلية- فضلا عن أجهزة الاستخبارات الغربية؛ كلها تابعت الإذاعات العربية والبيانات الصادرة عن القادة العرب، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يوجد أي تقرير يهودي أو بريطاني أو أمريكي صدر في تلك الفترة الحاسمة (ديسمبر 1947 - يوليو 1948) يتضمن اقتباسا أو حتى يشير إلى مثل هذه الأوامر.

لقد تابعت هيئة الإذاعة البريطانية على مدار أعوام الإذاعات العربية، وفي مطلع السبعينيات بحث جون زميرمان في تقارير المتابعة عما إذا كانت قد أشارت إلى أوامر عربية أذيعت تدعو إلى الإجلاء، وفي 1973 - 1974 نشر كتابه بعنوان: «الدعاية عن طريق المذيع في الحرب العربية- الإسرائيلية عام 1948»، والذي أوضح فيه أنه لم يجد إعلانات من هذا القبيل أذيعت، واقتصر الأمر على وصف التقارير لما تضمنته الإذاعات عن إجلاء النساء والأطفال من حفنة من المواقع.

في مقاله بعنوان: «المؤرخون الجدد» اقتبس شاباتي تيبث من تقرير عن الإدارة السياسية لجهاز استخبارات الهاغاناه بتاريخ 27 أبريل 1948 ما يلي: «تنتشر شائعات عن صدور أمر من اللجنة العربية العليا في القدس بإجلاء السكان العرب من العديد من المواقع في البلاد؛ حيث ترغب الحكومات العربية في إرسال قوات قوية من المدرعات والطائرات لقصف كل مدن البلاد، وعدم رغبتها في إيذاء السكان العرب. إنهم ينصحون السكان العرب بالهروب من البلاد بأسرع وقت ممكن قائلين إنهم سيعودون منتصرين إثر استيلاء العرب على البلاد». بالنسبة إلي فإنني لم أر على الإطلاق هذا المستند، ومع ذلك فإنه إذا كان بالفعل موجودا ويتضمن ما تم اقتباسه فإنه سيكون المستند المعاصر الوحيد الذي برز إلى السطح ويشير بطريقة ما إلى أمر عربي عام بالإجلاء؛ ومع ذلك لم يشر جهاز استخبارات الهاغاناه مجددا في أي من مستنداته إلى تلك «الأوامر» التي تناولتها الشائعات والتي كان يلزم التحقق منها، كما أنه كان من المنطقي أن يقوم المتحدثون الرسميون باسم اليشوف باستخدام مثل هذا «الأمر» أو «الأوامر» لدحض الاتهامات العربية - في الأمم المتحدة وغيرها من المنابر - أن اليشوف كان يتبع سياسة الطرد تجاه الفلسطينيين. وحقيقة الأمر أنه إذا ما كان في حوزة جهاز استخبارات الهاغاناه أو أي جهاز آخر تابع لليشوف نص أمر عربي

بالإجلاء الشامل أو مصادر يعتد بها حول هذا الأمر، فإنه لا جدال في أنه كان سيتم إذاعته ونقله إلى جميع المستويات، ولكن اليشوف لم يفعل أي شيء من ذلك.

كذلك فإنه من الجدير بالملاحظة أن المستند الذي تم الاقتباس منه يشير بشكل واضح إلى «شائعات» ويتحدث عن اللجنة العربية العليا في القدس - وليس عن مركز الثقل الحقيقي للجنة في فيلا الحسيني بضواحي القاهرة؛ فضلا عن أنه يشير إلى الإجلاء من «مواقع عديدة» وليس إلى أمر إجلاء شامل لـ «عرب فلسطين»، غير أنه - كما هي الحال بالنسبة إلى أغلب الشائعات - فإن هناك ذرة من الحقيقة في هذا؛ حيث كان هناك موقع واحد كانت اللجنة العربية العليا تضغط للاستمرار في إجلاء المدنيين منه ألا وهو حيفا، وقد أشارت مصادر عديدة - بما في ذلك الاستخبارات البريطانية - في نهاية شهر أبريل إلى تقارير و«شائعات» عن أوامر من اللجنة العربية العليا لعرب حيفا تحضهم على الاستمرار في عملية الإجلاء؛ حيث إنه كان من المنتظر استهدافها بقاذفات القنابل العربية يوم الغزو (انظر ما يلي). إن تلك الشائعات التي بدأت في حيفا كانت على الأرجح هي التي استند إليها تقرير جهاز استخبارات الهاغاناه في 27 أبريل.

(96) 'Hashmonai' to ?, 'Intelligence Summary No. 184, 25.4.48', IDFA 5254\49\75.

(97) 'Daily Monitoring Report, No. 20', undated but referring to 25-26 Apr. 1948, IDFA 4944\49\617.

(98) 'Yavne' to HIS-AD, 19 Apr. 1948, HA 105\257.

(99) 'Arab Intelligence from 18.5.48', 19 May 1948, IDFA 500\48\55.

(100) 'Hiram' to HIS-AD, 5 Apr. 1948, HA 105\102.

(101) The Committee for Economic Defence, 'Information About the Arab Economy, Bulletin No. 3', 13 Apr. 1948, HA 105\146.

(102) 'Avner' to HIS-AD, 18 Apr. 1948, HA 105\257.

- (103) 'Tzefa' (Tuvia Lishansky, senior HIS officer), untitled, 6 Apr. 1948, HA 105\257.
- (104) 'Tzuri' to Golani, 'General Survey for Months of March, April 1948', 3 May 1948, IDFA 1196\52\\1.
- (105) 'Tzuri', untitled, 29 Apr. 1948, HA 105\257.
- (106) 'Tzuri' to Golani, 'General Survey for Months of March, April 1948', 3 May 1948, IDFA 1196\52\\1.
- (107) 'Hashmonai' to 'Michmash', 'Annexes to Summary of Intelligence No. 143, 8.4.48', IDFA 4944\49\\499.
- (108) 'Yovev' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\128.
- (109) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 28 Apr. 1948, HA 105\257.
- (110) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 29 Apr. 1948, HA 105\257.
- (111) 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 3 May 1948, HA 105\102.
- (112) 'HIS Intelligence 12.5.48', IDFA 922\75\\1205.
- (113) 'Hiram' to HIS-AD, 5 May 1948, HA 105\217.
- (114) 'Summary of Carmeli Brigade Intelligence No. 3 for 7.5.48', IDFA 273\52\\5.
- (115) 'Tzuri (Barkan)' to HIS-AD, 9 May 1948, IDFA 1196\52\\1.
- (116) Alexandroni, 'Bulletin No. 6',? May 1948, IDFA 2323\49\\6.
- (117) 'Summary of Carmeli Brigade Intelligence No. 5 for 24.5.48', IDFA128\51\\71.
- (118) IDFA-GS Logbook, entry for 16 June 1948, IDFA 922\75\\1176.

- (119) HIS radio interception, Majd al Kurum to Tarshiha and Luby (Qawuqji to 'Omar Fasil al Rami), 16 June 1948, HA 105\217.
- (120) 'Tzuri (Uri)' to HIS-AD, 22 July 1948, IDFA 7249\49\138.
- (121) 'Tiroshi (Allon)' to HIS-AD, 31 Mar. 1948, HA 105-257.
- (122) 'Tiroshi (Allon)' to HIS-AD, 4 May 1948, HA 105\127.
- (123) Alexandroni, 'Bulletin No. 12', 18 May 1948, IDFA 2323\49\6.
- (124) Entry for 26 Apr. 1948, Weitz, Diary, III, 273.
- (125) Unsigned, untitled, undated HIS report, HA 105\217; and Alexandroni, 'Bulletin No. 1', 7 May 1948, IDFA 2323\49\5.
- (126) Text of broadcast of Kol Hamagen Ha'ivri (Haganah Radio), Jerusalem, 5 May 1948, CZA S25-8918; 'Information about the Arabs of Palestine (According to Arab Radio Transmissions, 6-7 May 1948)', CZA S259045-; and 'Daily Monitoring Report No. 28', 6 May 1948, DBGA.
- (127) Text of broadcast by Kol Hamagen Ha'ivri, 6 May 1948, CZA S258918-.
- (128) Aharon Cohen, 'Our Arab Policy in the Middle of the War', 10 May 1948, HHA-ACP 10.95.10 (4); Aharon Cohen, 'In Face of the Arab Evacuation', summer 1948, HHA-ACP 10.95.11 (8); 'HIS Information', 13 May 1948, KMA-PA 100\MemVavDalet\3158-; and 'Information about the Arabs of Palestine (from Arab Broadcasts, 10-11 May)', and 'Information about the Arabs of Palestine (from Arab Broadcasts, 14-15 May)', both in CZA S25- 9045.
- (129) 'Arab Broadcasts', 6-7 June 1948, CZA S259047-; and Israel Foreign Ministry, 'In the Arab Public', 26 May 1948,

KMA-PA 100\Mem Vav Dalet\15-. See also Zagorsky to Harzfeld, 2 June 1948, LA 235 IV, 2251 bet, on Arab pressures on evacuees from the Beisan Valley to return.

(130) جرى اقتباس إعادة تأكيد اللجنة على سياستها في هذا الخصوص في:

Gelber, "Palestine", 258.

(131) على سبيل المثال انظر:

Israel Foreign Ministry, 'In the Arab Public', 11 June 1948, regarding Syria and the Arabs of the Hula Valley; or Tree and Sword, 228, on the Arabs of Lubya.

(132) Gelber, "Palestine", 265.

(133) HIS, 'The Tabari Family', undated but stamped 'received 29 Apr. 1941', HA 105\222.

يُذكر أن نايف قد قاد بنجاح مجموعة من العناصر غير النظامية العربية خلال تمرد 1936 - 1939.

(134) 'Tzefa' to HIS-AD, 9 Dec. 1947, HA 105\72.

(135) 'Tzefa' to HIS-AD, 'Subject: Arab Families leaving their Apartments', 22 Dec. 1947, HA 105\215 aleph; and 'Tzefa' to HIS-AD, 9 Dec. 1947, HA 105\195.

(136) 'The Committee of the Jewish Residents of the Old City of Tiberias to the Defence Committee', Tiberias, 8 Feb. 1948, CZA S254147-. See also Entry for 10 Feb. 1948, DBG-YH I, 227.

(137) 'HIS Intelligence, Daily Summary', 23 Dec. 1947, HA 105\61.

(138) 'Tzefa' to HIS-AD, 29 Dec. 1947, HA 105\23; and Major Ben-Zion and Y. Ben-Arye, IDF History Branch, 'Testimony of Major Schusterman', 22 Mar. 1957, IDFA 922\75\943.

(139) Entry for 4 Feb. 1948, YND; and Nahmani to Yosef Weitz, 10 Feb. 1948, CZA S257721-.

(140) Nahmani to Weitz, 10 Feb. 1948, CZA S2507721-; and 'Mitzpa (Hava)' to HIS-ASD, 16 Feb. 1948, HA 105\54 aleph.

(141) 'Hiram' to HIS-AD, 22 Feb. 1948, HA 105\54 aleph.

(142) Tree and Sword, 109; and YND, entry for 14 Mar. 1948.

See also Sami Khalil al Tabari, Tiberias NC, to head of the Division for National Guidance, AHC, Cairo, undated but from c. 17 Mar. 1948, HA 105\32 aleph.

(143) M. Hildsheimer and Yael Avital, 'Interview with Moshe Weiss (Tzahar)', head of the 'Tiberias Jews' Situation Committee in 1948, 18 Jan. 1982, Tiberias Municipal Archive. See also Tzahar, 'Historians . . .', 204, for a later, different version of the meeting with Galili.

(نسخة لاحقة مختلفة عن اللقاء مع غاليلي).

(144) Stefan to Yadin, 14 Mar. 1948, and HGS\Operations to Golani, 17 Mar. 1948, both in IDFA 67\51\677.

(145) 'Mitzpa (Hava)' to HIS-AD, 23 Mar. 1948, HA 105\257.

(146) 'Tzuri' to Golani, 3 May 1948, 'General Survey for the Months of March, April 1948', IDFA 1196\52\1.

(147) 'Optik' to Golani, 'No. 2', 10 Apr. 1948, and Optik to Golani, 10 Apr. 1948, both in IDFA 128\51\18.

(148) 'Kna'ani', 'Report on the Nasir a Din Operation', 12 Apr. 1948, IDFA 922\75\1025.

(149) HIS Intelligence, Daily Summary', 18 Apr. 1948, IDFA 900\52\58. 'Deir Yassin' meant massacre.

(150) In Ben-Zion and Ben-Aryeh, IDF History Branch, 'Testimony Taken from Amos Mukadi (Brandstetter) about His Activities in the Golani Brigade during the War of Independence', 22 Mar. 1957, IDFA 922\75\943.

تذكر موكادي أن بعض أعضاء الجماعات المسلحة حاولوا الهروب من الموقع من خلال الاختباء وراء النساء الفارات: «لم يعرف رجالي ماذا يفعلون... وعندئذ أصدرت أمرا بإطلاق النار على كل شخص يحاول الهروب حتى وإن ترتب على ذلك إصابة النساء؛ حيث لم تكن هناك طريقة أخرى للقضاء على أعضاء تلك الجماعات، وكان من نتيجة ذلك أن قتل عدد من النساء... وفي تلك الليلة أعلن راديو دمشق أن اليهود كرروا ما سبق القيام به في دير ياسين، وأعتقد أن ذلك كان - بشكل عرضي - من بين العوامل التي حطمت العرب في طبريا؛ حيث إن العرب أنفسهم سارعوا بنشر وتضخيم القصة المتعلقة بنصر الدين مما أدى إلى هروب العرب من طبريا».

(151) Divisional Logbook, 6th Airborne Division, entry for 12 Apr. 1948, PROWO 27554-; and Nazzal, Exodus, 29 (who misdates the attack '10 April 1948'). The AHC misdated the attack '14 April 1948' (see AHC memorandum, 26 July 1948, PRO CO 7332\487-).

(152) Entry for 12 Apr. 1948, YND.

(153) 'Oded' to Golani, Palmah, 13 Apr. 1948, IDFA 922\75\1208.

(154) 'Written Testimony of David Khidra, A Resident of Tiberias', undated, Tiberias Municipal Archive; Tiberias to ?, 17 April 1948, 22:45 hours, IDFA 128\51\50; and entry for 17 Apr. 1948, YND.

(155) MILPAL to ?, 19 April, IDFA 900\52\43; and Ben-Zion and Ben-Aryeh, 'Testimony of Major Schusterman', 22 Mar. 1957, IDFA 922\75\943.

نُقل عن شيسترمان الذي قاد الوحدة «ج» بالفرقة 12 في طبريا خلال شهر أبريل عام 1948 قوله: «شعر المرشدون البريطانيون بأن عملية إجلاء المدينة قد بدأت، واقترح القائد البريطاني على العرب أن يخلوا المدينة»، غير أن إسحاق بروشي (قائد آخر في الهاغاناه كان نائبا لقائد الفرقة 12) يتذكر الأمور بطريقة مختلفة قائلا: «جاء القائد البريطاني مُعلنًا أن العرب يطلبون إخلاء المدينة... وقد عرض البريطانيون في نهاية الأمر مساعدتهم في عملية الإجلاء...»، انظر:

Ben-Zion, Y. Ben-Aryeh and Avigdor Kirchner, 'Summary of Meeting with Yitzhak Broshi, deputy OC 12th Battalion in War of Independence', 13 Mar. 1957, IDFA 922\75\943.

(156) Tiberias to ?, 17 April, 1948, IDFA 128\51\50; 'Tzuri (Hava)' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\257; and 'Tzuri' to HIS-AD, 24 Apr. 1948, HA 105\92 bet.

(157) Nazzal, Exodus, 29-30; Moshe Tzahar interview, Tiberias Municipal Archive; and Divisional Logbook, 6th Airborne Division, entry for 18 Apr. 1948, PRO WO 275 - 54.

أوضح تزاها أن خبر إجلاء العرب كان بالنسبة إليه «صدمة» وأنه قام بالاحتجاج على ذلك لدى أندرسون، غير أن الأخير «لم يَلن»، وعندئذ طلب تزاها من أندرسون استدعاء القادة العرب لمحاولة إقناعهم بإعادة النظر في قرارهم، فأجاب الأخير بأنه «لم يعد هناك قادة عرب فقد فروا جميعا». يذكر أن ما رواه تزاها:

(Tzahar interview, Tiberias Municipal Archive and in Tzahar, 'Historians . . .', 207-208)

لا يتماشى مع أي مستند معاصر آخر، ويفتقر إلى المصداقية، فقد أشار غولان إلى أنه خلال شهر أبريل اتبع البريطانيون سياسة «تشجيع إجلاء القطاعات الإثنية الحبيسة». ومن جانبي فإنني لم أر أي دليل قوي على أن مثل هذه «السياسة» قد جرى تبنيها على الإطلاق، على الرغم من وجود ما يثبت أن مثل هذا التفكير كان موجودا في خلفية قرارات بعض القادة العسكريين في مناطق محددة

وأوقات معينة (من الممكن أن يكون ذلك في حالة طبريا، وأيضا تجاه كيبوتس مشمار هعيمك في أوائل شهر أبريل «انظر أدناه». ويذهب ما يقوله تزاهاار إلى أن قرار العرب بالتخلي عن طبريا قد اتخذ من قبل القيادة المحلية إما بالتشاور مع السلطات البريطانية أو بناء على اقتراح من الأخيرة، بيد أن التقارير المعاصرة لذلك تدفع إلى الاعتقاد أن العرب في المدينة تلقوا أمرا من الخارج - من اللجنة العربية العليا؟ من اللجنة الوطنية في الناصرة؟ من الجامعة العربية في دمشق؟ - بالرحيل، وقد نص أحد تقارير الإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه على ما يلي: «من مصادر عسكرية عديدة عربية وبريطانية، أصبح من المعروف جيدا أن العرب في الموقع تلقوا أوامر بأن يغادروا طبريا». انظر:

Tzuri (Hava)' to HIS-AD, 'Subject: Miscellaneous Reports on the Evacuation of Tiberias', 21 Apr. 1948, HA 105\257.

ويشير التقرير إلى أن أمر الإجلاء جاء من «سلطة عليا».

(158) 'Tzuri (Hava)' to HIS-AD, 'Subject: Miscellaneous Reports from Tiberias', 21 Apr. 1948, HA 105\257.

(159) 'Tzuri' to HIS-AD, 24 Apr. 1948, HA 105\92 bet. 'Tzuri' ('Tzuri (Hava)' to HIS-AD, 21 Apr. 1948, HA 105\257).

وقد نقل أيضا أن أغلب العائلات وصلت إلى شمالي الأردن (الموقع الأصلي للطبريين)؛ حيث زودتهم الحكومة بخيام، وكان هناك مُناد يطوف أرجاء إربد مُعلنا أن اليهود في طبريا قد «اغتصبوا امرأة عربية... وسرت حملة دعاية ارتكزت على أحداث الاغتصاب لإثارة الجماهير التي صدقت (التقارير)». (من جانبي لم أجد أي دليل آخر على الاغتصاب في أي مستند يتعلق بطبريا). كذلك نقل تزوري أن صدقي الطبري حوكم في دمشق في اتهامات بأخذ رشوة (3 آلاف جنيه إسترليني) من اليهود للموافقة على «الهدنة» (في منتصف شهر مارس؟)؛ وقد سرت شائعات حول هذه الرشوة المزعومة، وأيضا حول تلقي كل من نايف الطبري ورشيد الطبري رشاوى في طبريا قبل المعركة النهائية، وادعى البعض أن سكان طبريا علموا بذلك الأمر مما دفع إلى فرار الطبريين قبل الثامن عشر من أبريل.

(160) 12th Battalion\Intelligence to Golani Brigade\Intelligence,?
April 1948, IDFA 128\51\18.

في الرابع من سبتمبر 1955 نشرت صحيفة «فلسطين» اليومية تقريرا مبالغيا في الخيال حول «سقوط طبريا» أشار إلى أنه من بين أسباب ذلك: حيل من قبل قوات الانتداب، واندفعت فتيات يهوديات إلى داخل معسكراتهم (المقصود المليشيات العربية) حيث قاموا بقضاء «ليال حمراء»، أما فيما يتصل بإجلاء العرب، فلم يتهم المقال أيا من البريطانيين أو اليهود وإنما عزا ذلك إلى أن السكان هربوا بحض إرادتهم. انظر:

IDFA 922\75\695.

(161) Entry for 18 Apr. 1948, YND.

(162) Palmah HQ to HGS, 18 Apr. 1948, IDFA 922\75\1066.

(163) 'Shimon' to Golani, 18 Apr. 1948, 18:15 hours, IDFA 128\51\50.

(164) Entry for 18 Apr. 1948, YND.

(165) 'Tzuri (Hava)' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\257.

(166) 'Tzuri (Hava)' to HIS-AD, 25 Apr. 1948, HA 105\92 bet.

(167) Entries for 21 and 22 Apr. 1948, YND. Tzahar, 'Historians ...', 211,

وقد نصت على: «جرى استنفار قوة الشرطة التابعة للحكومة العبرية بالكامل فقط من أجل حماية الممتلكات العربية، ومن الممكن أن يكون قد حدث خلال اليومين الأولين [بعد الانتصار اليهودي] بعض الأعمال المنعزلة للسرقة [المقصود السلب]، ولكن هذا بعيد للغاية عن هجوم جماعي على الممتلكات العربية». وحقيقة الأمر أن مذكراته تذكر في أماكن مبعثرة بمثل تلك التبريرات الخاطئة.

(168) 'Tzuri (Hava)' to HIS-AD, 25 Apr. 1948, HA 105\92 bet.

(169) Presidium of the Community Committee, Temporary Situation Committee, untitled proclamation, 19 Apr. 1948, Tiberias Municipal Archive.

- (170) Colonial Secretary (New York) to Cunningham, 24 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\23; and Tree and Sword, 9.
- (171) E.N. Koussa, letter to editor, The Palestine Post, 6 Feb. 1949.
- (172) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1),
وتشرح باختصار أسباب النزوح الجماعي من طبريا كما يلي: «إن عملياتنا [المقصود هجمات الهاغاناه] لم تجد قيادات في المواقع؛ حيث فر الأغنياء قبل ذلك».
- (173) 12th Battalion to Golani, 19 Apr. 1948, IDFA 128\51\50; and 'Tzuri (Khokh)' to HIS-AD, 21 Apr. 1948, HA 105\257.
في خطاب إلى المحرر (ها ارتيز 11 أبريل 1999)، أشار ديفيد أرون إلى تذكره أن شيخ القبيلة دياب آل إبراهيم أخبر جيرانه اليهود بأنه تلقى أمرا صادرا من اللجنة العربية العليا بإخلاء الموقع مما أسرع من عملية الإجلاء، وعلى العكس من ذلك فإن نائب القائد العسكري للفرقة 12 بروشي كان قد ذكر سابقا أنه «تم إجلاء عرب القادش تحت ضغط الهاغاناه». انظر:
- Ben-Zion, Kirschner, and Ben-Aryeh, 'Summary of Meeting with Yitzhak Broshi . . .', 13 Mar. 1957, IDFA 922\75\943).
- (174) 'Tzuri (Khoch)' to HIS-AD, 22 Apr. 1948, HA 105\257.
- (175) Golani Brigade Logbook, entry for 24 Apr. 1948, IDFA 665\51\1. See also 'The Fall of Tiberias', Falastin, 4 Sept. 1955, in IDFA 922\75\ 695.
- (176) 'Tzuri (Fawzi)' to HIS-AD, 21 Apr. 1948, HA 105\257; and Golani Brigade Logbook, entry for 22 Apr. 1948, IDFA 665\51\1.
- (177) Golani Brigade Logbook, entry for 22 Apr. 1948, IDFA 665\51\1; and 'Tzuri' to HIS-AD, 23 Apr. 1948, HA 105\257.

كان من الواضح أن ما قام به رئيس غينوسار كان بناء على أوامر من
مركز قيادة الفرقة 12، انظر:

(Ben-Zion, Kirschner and Ben-Aryeh, 'Summary of Meeting with Yitzhak Broshi . . .', 13 Mar. 1957, IDFA 922\75\943).

(178) 'Tzuri (Kochva)' to HIS-AD, 'Subject: Ghuweir Abu Shusha', 24 June 1948, HA 105\226.

(179) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(180) Committee for Economic Defence, 'Information from the Arab Economy, Bulletin No. 4', 10-13 Apr. 1948, HA 105\146.

(181) 'Hiram' to 'Jeremiah', 1 Apr. 1948, IDFA 5942\49\23; and 'Hiram' to HISAD, 4 Apr. 1948, HA 105\257.

(182) Unsigned, 'Report on "Shahar" Patrol', 10 Apr. 1948, HA 105\257.

(183) 'Hiram' to HIS-AD. 19 Apr. 1948, HA 105\257. Goren, 'Haifa', 183, misdates his departure '17 Apr. 1948.'

(184) 'Hiram' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\257.

(185) Stockwell, 'Report by GOC North Sector Major General H.C. Stockwell CB, CBE, DSO, Leading Up to, and After, the Arab-Jewish Clashes in Haifa on 21-22 April 1948', (henceforward 'Stockwell Report'), 24 April 1948, SAMECA CP V/4102/. See also Cyril Marriott (Haifa) to Bevin, 26 Apr. 1948,

وهو عبارة عن تقرير من 17 صفحة تعيد إنتاج تقرير ستوكويل،
انظر كذلك:

Cunningham to Secretary of State, 23 Apr. 1948, SAMECA CP III/415/, and Henry Gurney, 'Palestine Postscript', the

Chief Secretary's unpublished diary, 73-74 (SAMECA, Gurney Papers).

ويتطابق مضمونها مع وجهة نظر كل من ستوكويل وماريوت عن الأسباب التي أدت إلى الإسراع في هجوم الهاغاناه؛ حيث كتب غورني (وهو ليس صديقا للصهيونية): «لقد أصبح من الواضح اليوم أن الهجوم اليهودي على حيفا قد شُن كنتيجة مباشرة لأربعة أيام متتالية من الهجمات العربية المستمرة، الأمر الذي كان في مصلحة اليهود».

(186) 'Segal' to all divisions, 'Summary of Intelligence in the District from Friday 16.4.48 14:00 hours Until Sunday 18.4.48 08:00 Hours', IDFA 7353\49\46.

(187) Unsigned but Carmeli, 'Addition to Daily Report 20.4.48 14:00 Hours for 21.4.48 08:00', and Carmeli to HGS\Operations, 'Report for 21.4.48', both in IDFA 7353\49\46.

(188) Pa'il, Haganah, 310-11; and HGS\Operations, 'Plan D', IDFA 933\75\ 949 (see especially sub-clause 3 ('Definition of Functions') gimel ('Consolidation in the Big Cities') 3).

(189) Harry Beilin to JA-PD, 1 April 1948, CZA S2510555-.

(190) Beilin to JA-PD, 1 Apr. 1948, CZA S2510555-.

(191) Beilin, 'Operation Haifa', 25 Apr. 1948, CZA S2510584-.

(192) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102.

(193) Beilin, 'Operation Haifa', 25 Apr. 1948, CZA S2510584-.

(194) In Enemy Eyes, 21.

(195) NorthSec [i.e., GOC North Sector] to 1st Guards Brigade, CRAFORCE, etc., 21 Apr. 1948, 18:45 hours, PRO WO 275-62.

(196) Eshel, Battles, 347-49; and Carmel, Battles, 86-87.

(197) Unsigned, 'Addition to Daily Report 21.4 14:00 hours, Summary of Information Up to 22.4 08:00', IDFA 7353\49\46.

(198) 'Yosef', 'The Conquest of Haifa', HA 80\54\1,

وتضمن ملخصاً جيداً للمعركة أعده ضابط بمركز قيادة لواء كارميلي بعد انتهائها بأيام قليلة. وفيما يتصل بقصف قذائف الهاون انظر:

Mandate Government Press Office communiqué, 22 Apr. 1948, 12:45 hours, CZA S257721-; and protocol of 'Meeting of Mista'arabim' in Giv'at Hashlosa, '10 Apr. 1969.

والذي ينقل عن تقرير من «هفكوك» جرى تحريره في 23 أبريل 1948 حول الطريقة التي أحس بها العرب بالقذف والهجوم الأرضي من قبل الهاغاناه، في HA 25\12.

(199) Protocol of 'Meeting of Mista'arabim', quoting from 'Havakuk' report, HA 25\12.

(200) In Enemy Eyes, 23-24.

(201) Tactical HQ, 1st Battalion, Coldstream Guards, 'Battalion Sitrep', 22 Apr. 1948, 16:30 hours, PRO WO 261297-.

يُذكر أن قائد اللواء قد أصيب لاحقاً في ذراعه بطلقة من قناص يهودي في وقت كان يقود فيه رتلاً من سيارات الإسعاف لالتقاط الجرحى العرب.

(202) Unsigned but Carmeli, 'Summary of Information on the Enemy 22.4.48', undated but from afternoon of 22 Apr. 1948', IDFA7353\49\46; and 'Yosef', 'The Conquest of Haifa', HA 80\54\1.

(203) Haganah HQ, Haifa District, '(poster) 'Haganah OC Announcement No. 2', 22 Apr. 1948, HA 105\92.

(204) 'Yosef', 'The Conquest of Haifa', HA 80\54\1; and The Times (London), 22 Apr. 1948.

(205) Carmel, Battles, 104; and Eshel, Battles, 375.

(206) Eshel, Battles, 356.

(207) '257 and 317 Field Security Section Weekly Report No. 2 for Week Ending 21 April 1949', PRO WO 275-79.

(208) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102.

(209) Carmeli HQ, 'Addition to Daily Report 21.4 14:00 Hours, Summary of Information Up to 22.4 08:00 Hours', IDFA 7353\49\46; and 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: Yunis Nafa'a', 28 Apr. 1948, HA 105\257.

بحلول مطلع شهر مايو كان العرب في حيفا يقولون إن نافعة تلقى رشوة قيمتها 100 ألف جنيه إسترليني «من اليهود لتسليم مدينة حيفا» انظر:

'Hiram' to HIS-AD, 5 May 1948, HA 105\92.

وذكر أحد ضباط جهاز استخبارات الهاغاناه أن العرب اعتقدوا أن قاداتهم قد «خانوهم» وفروا مثل «الجرذان»، وكانوا يرون أنه إذا كان القادة قد بقوا فإنهم كانوا سيصمدون. انظر:

'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: Feelings', 25 Apr. 1948, HA 105\257.

(210) يذهب الخالدي في كتابه «سقوط حيفا» إلى أن رحيل قادة المليشيات لم يؤثر في المعنويات العامة للعرب كما أنه ظل غير معلوم من سكان المدينة، إلا أن ذلك يبدو مغالفا للمنطق، ففي الثاني والعشرين من أبريل رددت إذاعة الهاغاناه: «ماذا أخذ نافعة أسرته معه إلى بيروت؟ هل تعلمون أنه استأجر شقة هناك ...؟». انظر:

Eshel, 'Battles', 375.

(211) '257 and 317 Field Security Section Weekly Report No. 3 for the Week Ending 28 April 1948', PRO WO 275-79.

(212) Cunningham to Creech-Jones, 26 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\71.

(213) British Army HQ, Palestine, 'Fortnightly Intelligence Newsletter No. 67', 6 May 1948, PRO WO 275-64.

في تقاريرهما وصف كل من ستوكويل وماريوت هروب القادة بأنه «ذو مغزى» في تفسير الانهيار العربي السريع، ومن جانبه أوضح الخالدي في كتابه «سقوط حيفا» أن عز الدين أراد فقط أن يشرح بنفسه الموقف

(ومن المفترض أنه طلب تعزيزات) غادر قبل بدء إطلاق النار، وأنه كان متهما بـ «سوء التقدير» وليس بـ «الجن»، ومع ذلك فقد اتضح أن «عز الدين غادر المدينة في الساعة الواحدة ظهرا يوم 21 أبريل في وقت كان إطلاق النار قد بدأ فعلا - وأنه عند مغادرته كان قد أدرك أن المعركة الحاسمة قد بدأت.

(214) Lippincott (Haifa) to Secretary of State, 23 Apr. 1948 (two cables), NA RG 84, Haifa Consulate Classified Records 1948, 800 – Political Affairs.

(215) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102; and '[Mandate Government] Haifa District Summary of Battle Headquarters Dated 22.4.48', IDFA 900\52\24.

(216) Cunningham to Secretary of State, 23 Apr. 1948, 11:00 hours, SAMECA CP III\4\15; and 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102.

(217) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102; and Carmel, Battles, 104–105.

طوال عملية التفاوض كانت الهاغاناه تشير إلى «شروط الاستسلام»، في حين أشار كل من البريطانيين والعرب إلى «شروط الهدنة»، وقد كان الجميع يعني ويعرف أنه يتحدث عن الشيء نفسه.

(218) Khalidi, 'Fall'; 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102; and Goren, 'Haifa', 187.

(219) Khalidi, 'Fall'; and Goren, 'Haifa', 187–88.

(220) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102; and Goren, 'Haifa', 187–88.

(221) Khalidi, 'Fall'; Goren, 'Haifa', 188; and Assaf, History, 331–32.
(ويقدم الأخير نص خطاب موجه من كوسا إلى «جوش أوبزرفر» و«مجلة الشرق الأوسط» في 1 سبتمبر 1959).

(222) Broadmead to FO, 22 Apr. 1948, 11:58 hours, PRO CO 537–3901.

(223) Broadmead to FO, 22 Apr. 1948, 15:14 hours, PRO CO 537-3901.

في الوقت نفسه اشتكى عزام باشا - الذي كان قد أُطلع على صورة من رسائل القنصل إلى السفير البريطاني بالقاهرة روي كامبيل من «المذابح» اليهودية المستمرة لـ «السكان العرب، بمن في ذلك النساء والأطفال». (وكان يكذب حيث لم تكن هناك «مذابح»)، وهدد عزام باشا بتدخل الجيوش العربية. انظر:

Campbell to FO, 22 Apr. 1948, 21:07 hours, PRO CO 537-3901.

(224) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102.

ويحتوي على النص الأصلي لشروط الهاغاناه والنسخة المنقحة بواسطة ستوكويل.

(225) Carmel, Battles, 105-106.

(226) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102; and 'Marriott Report', PRO FO 371 - 68505.

(227) Beilin, 'Operation Haifa', 25 Apr. 1948, CZA S25 10584.

(228) 'Marriott Report', PRO FO 37168505-; and 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102. See also Marriott to FO, 23 Apr. 1948, PRO FO 371 - 68544.

(229) 'Stockwell Report', SAMECA CP V\4\102; Marriott Report', PRO FO 371-68505; and Beilin, 'Operation Haifa', 25 Apr. 1948, CZA S25 - 10584.

(230) Beilin, 'Operation Haifa', 25 Apr. 1948, CZA S 2510584-; and Carmel, Battles, 107.

يلاحظ أن أيا من ستوكويل أو ماريوت لم يذكر أي شيء عن مناشدة ليفي.

(231) Carmel, "Battles", 107.

(232) Salomon to Political Department, Foreign Ministry, 1 Apr. 1949, ISA FM 2401\11.

يذكر سولومون أن «مكلف» سعى أيضا إلى طمأنة العرب إلى أنهم يمكنهم البقاء في حيفا، إلا أن ذلك لا يوجد ما يؤيده في أي مكان آخر، كما أنه يتناقض ضمنا مع مذكرات كارميل. ومن جانب آخر قامت إذاعة الوكالة اليهودية في ذلك الوقت بطمأنة عرب حيفا إلى أن اليهود ليس لديهم نية لطردهم، وركزت على أن المصلحة المثلى للمدينة تكمن في التعايش السلمي، ومع ذلك لم تكن هناك دعوة صريحة إلى العرب بالبقاء أو - في حالة مغادرتهم لها - العودة إليها. انظر:

Gelber, "Palestine", 107.

(233) Carmel, "Battles", 107.

يلاحظ أن النسخة الأولى لشرح «أوامر اللجنة العربية العليا» للإجلاء من حيفا ضُمت في بيان المتحدث الرسمي باسم الوكالة اليهودية في 23 أبريل، والتي تتحدث عن أن النزوح الجماعي «نُفذ بشكل عمدي من قبل العرب لتشويه سمعة اليهود، و التأثير في الحكومات العربية لإرسال المزيد من الدعم، فضلا عن إعداد الميدان لهجوم من قبل القوات النظامية العربية لاحقا». وقد اقتبس البيان في صحيفة «التايمز» اللندنية بتاريخ 24 أبريل 1948، وقد تصادف أن عبر مراسل الصحيفة عن عدم موافقته على المضمون معلقا بأن «التفسير الأكثر بساطة وإنسانية يذهب إلى أن العرب قد هربوا نتيجة حالة من الفوضى التامة».

من جانبه، فإن تقرير لجنة الطوارئ العربية لعرب حيفا بتاريخ 30 أبريل 1948 - 69-ISA 437\940\4 - لا يشير على الإطلاق إلى أي أوامر وصلت إلى اللجنة من الخارج خلال مشاوراتهم في «منزل خياط»؛ أما غورين فيتمسك - في كتابه حيفا ص 189 بأنه أثناء فترة توقف المناقشات في قاعة المدينة قام الأعيان - بعد تلقيهم تعليمات من دمشق - بالاتصال ببيروت؛ حيث يبدو أنهم تحدثوا إلى المفتي أو مندوب رفيع المستوى عنه وتلقوا أمرا واضحا بمغادرة المدينة؛ وقد استند غورين في ذلك إلى نصوص مقابلات جرت بداية السبعينيات مع إفرايم ألروي وأهرون كريم - وهما ضابطان متخصصان في التنصت بجهاز استخبارات الهاغاناه ادعيا أنهما استمعا وسجلا المحادثة التلفونية، لكنهما لم يستطيعا القول - وهو ما يقر به غورين - من كان المتحدث في كلا الجانبين من الخط التلفوني. وفقا لما أورده غورين توجه ألروي إلى قاعة المدينة لإخطار سولومون ونفتالي ليفشيتز

(مستشار الشؤون العربية بالهاغاناه عن مدينة حيفا) بتلك المحادثة؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه لا توجد أي وثائق معاصرة للواقعة تدعم هذه الرواية، كما أنه لا توجد إشارة في أي وثيقة عن أمر صادر من بيروت في 22 أبريل بإجلاء حيفا أو عن حديث دار بين آلروي وسولومون أو ليفشيتز. فضلا عن ذلك فإنه خلال مقابلات لاحقة تمت مع كل من سولومون وليفشيتز لم يشر أي منهما إلى مثل هذا الأمر أو تلك المحادثة (وكان من المؤكد أن يقوموا بذلك إذا ما كان الأمر قد حدث بالفعل). وعلى العكس من ذلك تحدث خطاب سولومون في 1 أبريل 1948 عن أنه أخطر في 22 أبريل 1948 من قبل أعضاء الوفد العربي - بعد انفضاض اجتماع مبنى البلدية - أنهم «لديهم تعليمات بالألا يوقعوا على هدنة... حيث إن ذلك يعني الموت المؤكد على أيدي شعبهم... وأنه كان من الواضح أنه لا يمكن لأي مسيحي أن يقدم على فعل أي شيء يضايق المسلمين؛ وفي حين أنهم سيبقون في المدينة - لاعتقادهم أن ذلك سيكون أفضل لمصالحهم الخاصة - فإنهم سينصحون العرب (السكان) بالمغادرة»؛ ويبدو أن ذلك يعني أن الأعضاء المسيحيين بالوفد تم تخويفهم أصدرت التعليمات لهم من قبل الأعضاء المسلمين - الذين تغيبوا عن الجزء الثاني من الاجتماع - بالألا يوقعوا على هدنة وأن ينصحوا سكان المدينة بالمغادرة (انظر: ISA FM 2401\11)، وقد عرض ديفيد أرييل في مذكرته بعنوان: «الدول العربية ومشكلة اللاجئين» (Notebook A, 7 Oct. 1951)، ISA FM 2566\13 الخطاب الصادر عن لجنة الطوارئ (خياط، سعد، كوسا، نصر، معمر) والموجه إلى ستوكويل في الثالث والعشرين من أبريل 1948، والذين يؤكدون فيه أن «نقل السكان العرب من المدينة طوعي وجاء بناء على طلبنا»، وقد أبلغ خياط لاحقا أحد ضباط (أو مرشدي) جهاز استخبارات الهاغاناه ما يلي: «هناك شائعات أن المفتي، واللجنة العربية العليا، أمروا العرب بمغادرة المدينة، غير أن تلك الشائعات لا أساس لها من الحقيقة». انظر:

'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The Flight of the Arabs from Haifa', 28 May 1948, HA 105\257.

(234) Entries for 22 and 23 Apr. 1948, Weitz, Diary, III, 272; Levin, Jerusalem, 90, entry for 23 Apr. 1948.

وورد بها: «هناك شيء غريب في الطريقة التي يهرب بها العرب...».
انظر كذلك:

Efraim Harari (ed.), *The Tel of the Winds*, Ilana to Levavi and Elah, Passover, 1948.

وقد تضمنت «إن الأمر مشكوك فيه إلى حد ما - كما لو كانوا [البريطانيون] يقومون بعمل قذر».

(235) Sasson to Shertok, 23 Apr. 1948, Political and Diplomatic Documents, 670.

(236) من المفيد الإشارة إلى أن أيا من ستوكويل أو ماريوت في تقاريرهما لم يلمحا إلى أن الوفد في مبنى البلدية كان تحت تأثير تعليمات قادمة من دمشق أو اللجنة العربية العليا، فضلا عن ذلك فإن جهاز استخبارات الهاغاناه في تقريره بعنوان:

The Migratory Movement . . . 30 June 1948 (HHA ACP 95.10.13 (1)).

قد نسب عملية الفرار إلى انقضاا واستيلاء الهاغاناه على حيفا، ولم يلمح على الإطلاق إلى أوامر واردة من الخارج.

(237) Lippincott to Secretary of State, 25 Apr. 1948, and Lippincott to Secretary of State, 26 Apr. 1948, both in NA RG 84, Haifa Consulate, Classified Records 1948, 800 - Political Affairs.

(238) Cunningham to Secretary of State, 25 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\52; Secretary of State (London) to Kirkbride, 27 Apr. 1948, PRO FO 816\118; 6th Airborne Division Logbook, entry for 4 May 1948, PRO WO 275-54; and British Military HQ Middle East to certain British Cabinet Ministers, 'Extract from ME Daily Sitrep No. 147', 4 May 1948, PRO CO 537 - 3875.

(239) '257 and 317 FS Section Weekly Report No. 3, for Week Ending 28 April 1948', PRO WO 275-79.

- (240) 1st Battalion Coldstream Guards, 'Battalion Sitrep No. 20', 29 Apr. 1948, PRO WO 261-297; Lippincott to Secretary of State, 26 Apr. 1948, and Lippincott to Secretary of State, 29 Apr. 1948, both in NA RG 84, Haifa Consulate, Classified Records 1948, 800 - Political Affairs.
- (241) Annex by Farid Sa'ad and Elias Koussa to Haifa Arab Emergency Committee report of 30 April 1948, in Ariel, 'The Arab States . . .', ISA FM 2566\13.
- (242) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The Order of the AHC to the Arabs of Haifa', 28 Apr. 1948, HA 105\257.
- (243) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The Question of the Evacuation of Haifa's Arabs', 28 Apr. 1948, HA 105\257.
يلاحظ أن التقريرين - أخذا بعين الاعتبار تاريخهما، والسياق، والصياغة - يشيران إلى أمر أصدر ليس في 21 - 22 أبريل لكن بعد ذلك بعدة أيام، وخلال عملية الإجلاء.
- (244) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The Arabs Returning to Haifa', 28 Apr. 1948, HA 105\257.
- (245) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The State of the Arabs in Abbas Street', 25 Apr. 1948, HA 105\257.
يلاحظ أن أحمد بيك خليل كتب لاحقا إلى سولومون بأنه «لا يمكنني أبدا أن أسامح أولئك الذين نصحوا السكان بترك حيفا، فقد كان يلزم بقاؤهم هناك. ولسوء الحظ لم يكن رشيد (الحاج إبراهيم) أو أنا موجودا للوقوف ضد هذا التوجه» من خليل (عمان) إلى سولومون، 9 يونيو 1948 في HA 105\127 aleph
- (246) Eshel, Battles, 365.
- (247) Sa'ad and Koussa, appendix to committee report of 30 Apr. 1948, ISA 437\940\469-.

- (248) Tactical HQ, 1st Battalion Coldstream Guards, 'Battalion Sitrep No. 18', 26 Apr. 1948, PRO WO 261-297; and '257 and 317 FS Section Weekly Report No. 3, for Week Ending 28 Apr. 1948', PRO WO 275-79.
- (249) 'Hiram' to Jeremiah, 11 May 1948, IDFA 5942\49\\23.
- (250) 'Hiram' to ?, 16 May 1948, IDFA 7249\49\\152.
- (251) Beilin, 'Operation Haifa', 25 Apr. 1948, CZA S25-10584.
- (252) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The State of the Arabs in Abbas St.', 25 Apr. 1948, HA 105\257.
- يلاحظ أن الوثيقة تشير إلى أن ذلك حدث بعد ظهر يوم 22 أبريل - إلا أن ذلك غير مرجح بشكل كبير.
- (253) Salomon to JA-PD, 1 Apr. 1949, ISA FM 2401\11.
- (254) Eshel, Battles, 376-77.
- (255) 'Daily Monitoring Page, No. 20, (including summary of world radio station broadcasts in the 48 hours ending at 09:00 on 26.4.48)', IDFA 4944\49\\617.
- (256) A.J. Bidmead, superintendent, CID, Haifa, 28 Apr. 1948, IDFA 900\52\\25.
- (257) '257 and 317 FS Section Weekly Report No. 4, for Week Ending 5 May 1948', PRO WO 275-79.
- يبدو أن هذا التقرير يشير إلى الأيام التالية مباشرة لـ 22 أبريل. بحلول 4 - 5 مايو لم تكن الهاغاناه وكذلك السلطات المدنية مهتمة ببقاء العرب أو عودتهم إلى حيفا.
- (258) Lippincott to Secretary of State, 29 Apr. 1948, NA RG 84, Haifa Consulate, Classified Records 1948, 800 - Political Affairs.
- (259) Report datelined 'Haifa, 25 April', The Times (London), 26 Apr. 1948.

- (260) 'Hiram' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\257; and 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: Attitude of the Nuns to the Arab Exodus', 27 Apr. 1948, HA 105\193 bet.
- (261) High Commissioner to Secretary of State, 25 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\52.
- (262) Lippincott to Department, 25 Apr. 1948, NA RG 84, Haifa Consulate, Classified Records, 1948, 800 - Political Affairs.
- (263) Lippincott to Department, 26 Apr. 1948, NA RG 84, Haifa Consulate, Classified Records 1948, 800 - Political Affairs.
- (264) Tactical HQ, 1st Battalion Coldstream Guards, 'Battalion Sitrep No. 18', 27 Apr. 1948, PRO WO 261-297.
- (265) Haganah Haifa District OC, 'Announcement of the Commander of the Haganah, No. 2', 22 Apr. 1948, HA 105\92.
- (266) 'Hiram' to HIS-AD, 25 Apr. 1948, HA 105\31, quoted in Gelber, Palestine, 105.
- (267) Carmel, "Battles", 107.

في أعقاب النزوح الجماعي للعرب من حيفا وجه كل من العرب والقادة اليهود اليساريون الانتقادات إلى البريطانيين في هذا الخصوص. ومن جانبهم، فإن الدول العربية واللجنة العربية العليا وقادة المجتمع العربي في حيفا وجهوا أصابع الاتهام، مشيرين إلى أن قرار ستوكويل بتسريع انسحاب القوات البريطانية من خطوط المواجهة اليهودية - العربية، فضلا عن رفضه التدخل ضد الهاغاناه ومنعه دخول التعزيزات العربية، كلها عوامل «أجبرت» العرب على أن يقرروا الهروب. وقد ذهب أهارون كوهين إلى أبعد من ذلك: «لقد كان البريطانيون هم من نصحوا العرب بترك (حيفا)»، مضيفاً أنه خلال المعركة «وخلال تهدة عناصر الهاغاناه للعرب... نصحهم البريطانيون بالهرب إلى الميناء؛ حيث يمكن للجيش البريطاني حمايتهم»، كما ركز كوهين على «النشاط الذي صاحب تزويد البريطانيين للأشخاص الذين جرى إجلاؤهم بوسائل النقل والحراسة». انظر:

Cohen, 'Our Arab Policy in the Midst of the War', 10 May 1948, HHA ACP 10.95.10 (4); and Cohen to Prof. Ernst Simon, 25 Apr. 1948, HHA ACP 10.95.10 (4).

غير أنني لم أجد أي دليل آخر يساند هذا الرأي المتصل بـ «النصيحة البريطانية»، بل إن ستوكويل قد نصح بالعكس في 22 أبريل، وبالفعل سمحت القوات البريطانية للعرب - المندفعين باتجاه البوابات - بالدخول إلى منطقة الميناء، لكن كان ذلك لحمايتهم وتمكينهم من الفرار عن طريق البحر إذا ما رغبوا في ذلك.

(268) Tactical HQ, 1st Battalion Coldstream Guards, 'Battalion Sitrep No. 18', 25 Apr. 1948, PRO WO 261-297; and 'Marriott Report', PRO FO 371- 68505.

ألمح ماريوت إلى أنه خلال لقاء بين القادة العرب واليهود في 25 أبريل، لجأ اليهود إلى استخدام «التهديدات»، لكنه قال في الوقت ذاته «إن القادة العرب استمروا في التأكيد على أن الإجلاء كان طوعياً».

(269) Protocol of meeting of Mapam Political Committee, statement by P. Alonim, 26 May 1948, HHA 66.90 (1).

(270) Carmeli\Operations to 'Bar-Kochba' and 'Hadari', 23 April 1948, IDFA 6680\49\4.

(271) Jewish Chamber of Commerce and Industry, Haifa, to Situation Committee, Haifa, 18 May 1948, ISA FM 2564\9.

(272) Unsigned but Carmeli, 'Report for 26.4.48', IDFA 7353\49\46.

(273) 'Hiram' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\92.

(274) 'Protocol of the Meeting of 25 April 1948', HMA 1374.

(275) 'Hiram' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\92.

(276) Eshel, Battles, 379.

(277) 'Protocol of Meeting of 23 April 1948', HMA 1374.

(278) 'Protocol of the Meeting of 25 April 1948', HMA 1374.

- (279) Emergency Committee (signed Khayyat, Sa'ad, Koussa, Mu'ammār and Nasr) to GOC North Sector, 25 Apr. 1948, HMA 1374.
- (280) 'Summary of Carmeli Brigade Information No.4, 17.5.48', IDFA128\51\\ 71.
- (281) Cohen to Secretariat of Mapam Centre, 28 Apr. 1948, HHA-ACP 10.95.10 (4).
- (282) 'An Appeal by the Haifa Workers Council', 28 Apr. 1948, IDFA 481\49\\62.
- (283) Bidmead, CID, Haifa, 28 Apr. 1948, IDFA 900\52\\25.
- من المثير للسخرية أن بيدميد نقل أيضا قبض البحرية الملكية على مركبين تابعين للهاغاناه على متنيهما مهاجرون يهود غير شرعيين، ووصولهم إلى حيفا؛ حيث نقلوا إلى استراحات لنقلهم بعد ذلك في اليوم ذاته بحرا إلى معسكرات اعتقال في قبرص، وكان وصول ورحيل المهاجرين اليهود غير الشرعيين أو اللاجئين؛ واللاجئين العرب المبحرين إلى الخارج - من المرفأ نفسه وفي اليوم ذاته - شيئا غريبا ومثيرا للسخرية.
- (284) A. Hoter-Yishai, 'Summary of Things Said . . . (On 2.5.48)', and Hoter- Yishai, 'Protocol No. 1 of the Committee for the Affairs of Haifa's Arabs', undated, both in CZA S259193-.
- (285) 'Summary of Carmeli Brigade Information No. 1, from 1.5 to 5.5', 5 May 1948, IDFA 273\52\\5.
- (286) 'Hiram' to HIS-AD, 28 Apr. 1948, 'Subject: Arabs Leaving and Returning', HA 105\257; 'Summary of Carmeli Brigade Information No. 1, from 1.5 to 5.5', 5 May 1948, IDFA 273\52\\5; and High Commissioner to Secretary of State, 5 May 1948, PRO FO 8126\119.

وبشكل خاطئ نقل كانيغهام ما يلي: «إن اليهود في حيفا قلقون من أن يعود العرب الآن... ففي طبريا سيرحب اليهود بالعرب العائدين...».

- (287) ICP, 'The Situation in Haifa Two Weeks after the Conquest of the Arab Parts of the City by the Haganah', 10 May 1948, and Cisling to Cabinet, 20 May 1948, both in ISA AM 20 aleph.
- (288) Tactical HQ, 1st Battalion Coldstream Guards, 'Battalion Sitrep No. 19', 27 Apr. 1948, PRO WO 261-297.
- نقلت الوحدة أنها التقطت منشورا موقعا من قبل «رئيس الهاغاناه» - باللغة العربية - يتضمن: «على كل أولئك الذين غادروا وادي النسناس ووادي صليب العودة فورا إلى ديارهم، وفتح محالهم والبدء في مزاولة أعمالهم، وسنقوم من جانبنا بضمان سلامتهم».
- (289) Entries for 22-24 Apr. 1948, CZA A24665-2364 ,13-.
- (290) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: Balad al Sheikh', 7 Jan. 1948, HA 105\32 aleph.
- (291) 'Hiram' to HIS-AD, undated but probably from 5 Apr. 1948, HA 105\257.
- (292) 'HIS-AD Intelligence 5.4.48', IDFA 922\75\1205.
- (293) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The Evacuation from Yajur', 18 Apr. 1948, HA 105\257.
- (294) Entry for 22 Apr. 1948, 6th Airborne Division Logbook, PRO WO 27554-.
- (295) 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: The Request of the Arabs of Balad al Sheikh', 27 Apr. 1948, HA 105\54.
- (296) 'Hiram (Kafri)' to HIS-AD, 'Subject: Report on the Evacuation of Hawassa and Balad al Sheikh on Sabbath 24.4.48', 27 Apr. 1948, HA 105\257.
- (297) 'Yosef', 'The Conquest of Haifa', undated but from late April 1948, HA 80\54\1 (Moshe Gat papers).
- (298) 'Hiram (Kafri)' to HIS-AD, 'Subject: Report on the Evacuation ...', 27 Apr. 1948, HA 105\257.

(299) 'Hiram (Kafri)' to HIS-AD, 'Subject: Report on the Evacuation ...', 27 Apr. 1948, HA 105\257.

(300) 'Hiram' to HIS-AD, 29 Apr. 1948, HA 105\257.

(301) 'Summary of [British] Battle Headquarters Diary for 23rd [sic] April, 1948', IDFA 900\52\24; entry for 24 Apr. 1948, 6th Airborne Division Logbook, PROWO 2756 ;54-th Airborne Division, North Sector Sitrep, 24 Apr. 1948, PRO WO 275-257 ;66 and 317 FS Section, Weekly Report for Week Ending 28 Apr. 1948', PRO WO 27579-; and HIS-AD, 'The Migratory Movement ...', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

أكد إبراهيم كوهين لاحقا أن القرويين قد أجلوا «بناء على نصيحة البريطانيين» وعلى «العكس من نصيحة الهاغاناه» انظر:

Cohen, 'Our Arab Policy in the Midst of the War', 10 May 1948, HHA-ACP 10.95.10 (4).

ويؤكد تقرير معاصر للإدارة السياسية لجهاز استخبارات الهاغاناه التأكيد الأول من جانب كوهين؛ حيث ورد به: «في 24 أبريل بين الساعة الحادية عشرة والواحدة ظهرا باشر الجيش البريطاني حملة دعاية شاملة هدفت إلى الإسراع من عملية إجلاء العرب من... بلد الشيخ... الحواصة... ياجور... وقد أشارت الحملة إلى عمليات السرقة الضخمة التي يمكن أن ينفذها اليهود»، ومن الممكن أن الضباط البريطانيين في بلد الشيخ قد اعتقدوا - في ذلك الصباح - أن إجلاء عربيا على نموذج ما هو جار في حيفا يمثل الحل الأفضل، وهو ما نقلوه إلى القرويين، انظر:

"Hiram" to HIS-AD, 'Subject: British Propaganda to Increase the Arab Evacuation', 25 Apr. 1948, HA 105\257.

إلا أنني لم أجد مصدرا آخر ادعى أن الهاغاناه نصحت بعدم الإجلاء، وعلى الأرجح سادت آنذاك حالة تناغم بين رغبات البريطانيين واليهود والعرب - كل منهم لأسباب مختلفة - في الإسراع من عملية الإجلاء للعرب.

- (302) Unsigned, '[Mandate Government] Haifa District Summary of Battle Headquarters Dated 22.4.48', IDFA900\52\\24.
- (303) Unsigned but Carmeli Brigade, 'Addition to Daily Report 21.4 14:00 hours, Summary of Information Up to 22.4 08:00 hours', IDFA 7353\49\\46.
- (304) 'Summary of [British] Battle Headquarters Diary Dated 25th April, 1948', IDFA 900\52\\24.
- (305) Unsigned but Carmeli, 'Report for 26.4.48', IDFA 7353\49\\46; 'Hiram' to HIS-AD, 'Subject: Events in Haifa on Monday 26.4', 27 Apr. 1948, HA 105\257; and Mobile Garrison Battalion\ Intelligence Officer to battalion CO, 28 Apr. 1948, IDFA 7249\49\\130.
- يلاحظ أن جزءا من المستند الأخير (مذكرات مكتوبة بخط يد ماكسي قائد الكتيبة بتاريخ 29 أبريل - قد حجب من قبل أجهزة رقابة قوات الدفاع الإسرائيلية، وعلى الأرجح تضمن ذلك الجزء توصية ماكسي بطرد السكان.
- (306) North Sector to MILPAL, 1st Guards Brigade, etc., 5 May 1948, PRO WO 275 - 62.
- (307) Unsigned but Carmeli, 'Report for 26.4.48', IDFA 7353\49\\46; and 'Summary of [British] Battle Headquarters Diary Dated 25th April, 1948', IDFA 900\52\\24.
- (308) 'Summary of Carmeli Brigade Information No.3 for 7.5.48', IDFA 273\52\\5.
- (309) 1st Battalion Coldstream Guards, 'Battalion Sitrep No. 20', 29 Apr 1948, PRO WO 261-297.
- (310) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\31.
- (311) 'Summary of Carmeli Brigade Information No. 3 for 7.5.48', IDFA 273\52\\5.
- (312) JA-PD Arab Division, 'In the Arab Public', 5 May 1948, HA 105\100.

- (313) Carmel to Carmeli Brigade, 28 Jun. 1948, IDFA 260\51\\4.
- (314) OC Haifa District to area OCs, IDFA 244\51\\104.
- (315) City Intelligence Officer to OC City, 2 July 1948, IDFA 5492\49\\3.
- (316) City Intelligence Officer to OC City, 3 July 1948, IDFA 5492\49\\3.
- (317) OC Carmeli to IDF GS\Operations, 3 July 1948, IDFA 2315\50\\15.
- (318) Sommerville to Marriott, 20 July 1948, and Marriott to Sommerville, 20 July 1948, both in HA 105\193 bet.
- (319) 'Hiram' to IDF IS, 15 July 1948, HA 105\260. For more on the concentration, see Morris, 1948 and After, rev. ed., 215-37.
- (320) Unsigned, 'Memorandum on Urgent Improvement Works in Haifa', undated but with covering letter from Friedland (Shilon) to Ben-Gurion, 11 June 1948, IDFA 782\65\\1186.
- (321) Entry for 16 June 1948, DBG-YH, 522.
- (322) IDF\OC Planning Division to ?, 16 Jun. 1948, IDFA 260\51\\54.
- (323) Khayyat to Minority Affairs Minister, 25 July 1948, ISA MAM 298\82; and Koussa to S. Levy, 21 July 1948, HMA 556.
- (324) 'Decisions of the Provisional Government', 1 Sep. 1948, KMA-ACP 9.9.1.

ذهب الجنرال إيمالغ أفر إلى القول إن: «حيفا لم تكن أرضا محتلة، ولم يكن بن غوريون - بوصفه وزيرا للدفاع - مسؤولا بأي حال من الأحوال عن الحكومة العسكرية في الأراضي المحتلة».

(325) Levy to Gruenbaum, 8 Sept. 1948, HMA 556.

(326) IDF GS\OC Planning Division to Lublini ('Hadari'), 13 Aug. 1948, IDFA 260\51\54; and IDF GS\Operations to ?, 27 Sept. 1948, and OCNorthern Front to IDF GS\Planning Division, 30 Sept. 1948, both in IDFA 260\51\3. For further information on 'Shikmona', see Morris, 1948 and After, rev. ed., 230-37.

(327) Gurney, 'Palestine', 84.

(328) في 22 أبريل ذكر ياكوف شيموني (من الإدارة السياسية في الوكالة اليهودية) أن «يافا كانت نصف خالية»، بيد أن ذلك لم يكن سوى مجرد تخمين. انظر:

'Protocol of Meeting of the Arab Division on Thursday 22.4.48,' CZA S25 - 9664.

(329) Unsigned Haganah or HIS Jaffa area 'Logbook', 27 Apr. 1948, IDFA 922\75\949.

(330) STH III, part 2, 1474-75.

(331) 'HIS Information, Daily Summary', 29 Apr. 1948, IDFA 900\52\58.

(332) 'Avner' to HIS-AD, 'On Events in Jaffa from the Attack on Her. A General Survey', 6 May 1948, HA 105\92 aleph.

(333) انظر على سبيل المثال:

'Avner' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\31.

والذي يتناول عملية قصف يافا بقذائف الهاون في 23 أبريل مما أسفر عن اصابة الاتصالات التلفونية ومنطقة مركز البريد الرئيسي، كما أنه كان له أثر كبير في تفاقم حالة الفوضى في يافا مما شجع على الهروب منها.

(334) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 4', 10-13 Apr. 1948, HA 105\146.

(335) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab

Economy, Bulletin No. 7, 18–20 Apr. 1948, HA 105\146.

(336) 'Avner' to HIS-AD, 'Events in Jaffa from the Attack on Her. A General Survey', 6 May 1948, HA 105\92 aleph. See also pages from a summary report produced probably by the Committee for Economic Defence, undated but probably from May 1948, HA 105\119.

(337) Haganah, 'Logbook' for Jaffa area, 27 Apr. 1948, IDFA 922\75\949.

(338) 'Avner' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\31.

(339) In Enemy Eyes, 33–34.

(340) Begin, 'The Conquest of Jaffa', a 46-page report, written in May or June 1948, 24, JI, IZL, kaf-4, 8\1.

(341) Lazar, Conquest, 124 and 126.

(342) Cunningham to Secretary of State, 3 May 1948, SAMECA CP III\5\43.

يذكر أن نمر الخطيب ذهب في كتابه (In Enemy Eyes, 33 - 34) إلى أنه خلال ثلاثة أيام وقعت 2000 قذيفة هاون على يافا.

(343) Haganah 'Logbook' for Jaffa area, 27 Apr. 1948, IDFA 922\75\949.

(344) Quoted in Gabbay, Political Study, 90.

(345) Unsigned, 'Summary of the Interrogation of the Manshiya PoWs from 28 April 1948', JI, IZL, kaf-8, 8\8; and 'Miscellaneous (Events in Jaffa, from Prisoner Interrogations by "Ham")', 28 Apr. 1948, IDFA 8275\49\136.

(346) Begin, 'The Conquest of Jaffa', 25, JI, IZL, kaf-4, 8\1.

(347) 'Kiryati-Dafna' to fronts, 'Summary for Night of 29, 30.4.48-30 Apr. 1948; 'Kiryati-Dafna' to fronts, 'Summary: 291100-30, 291720 Apr. 1948; and 'Kiryati-Dafna' to fronts, 'Summary

... 300800-300915', all in IDFA 8275\49\130; and unsigned, 'Feelings 30.4.48, Jaffa', HA 73\98.

(348) 'Avner' to HIS-AD, 'Events in Jaffa 18:45, 7.5.48 - 10:00, 8.5.48', IDFA 8275\49\162.

(349) انظر على سبيل المثال:

unsigned, 'Movement from Jaffa', 1 May 1948, IDFA 8275\49\162; Kiryati, intelligence officer, to 'Praf', 'Daily Summary from 30\1800 until 1\1800', HA 105\94; and unsigned, 'Movement from Jaffa', 3 May 1948, IDFA 8275\49\162. (350) Gurney, 'Palestine', 84.

(350) Gurney, 'Palestine', 84.

(351) HC to Secretary of State, 26 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\71.

(352) WO to PS to Prime Minister, etc., 'Extract from Middle East Special Situation Report 29 April 1948', 29 Apr. 1948, PRO CO 537 - 3875.

(353) Shertok speech to UN General Assembly, undated but probably 27 Apr. 1948, ISA FM 2451\13.

كان شيرتوك يعتمد في حديثه - على الأقل في جزء منه - على برقية واردة من ساسون في 23 أبريل أشير إليها عاليه. بعد مرور عام واستنادا إلى معادلات جرت مع لاجئين من يافا، الرملة، واللد في غزة، أخبر مندوبو وكالة الكويكرز الأمريكية لغوث اللاجئين - لجنة خدمات الأصدقاء الأمريكيين - ضابط استخبارات أمريكيا أن جزءا من اللاجئين - على الأقل - فروا «من دون رغبة في ذلك لأن قاداتهم أخبروهم أن عليهم القيام بذلك وإلا فسيعتبرون خونة، وأنهم إذا ما فروا الآن فإنه يمكنهم العودة خلال أشهر قليلة». انظر:

Col. B.C. Anirus, 'Intelligence Report', 1 May 1949, NA RG 84, Tel Aviv Embassy, Classified Records 1949, 571 - Palestine Refugee Relief.

ومع ذلك فإنني لم أجد أي مرجع يتماشى مع هذا الشرح فيما يتصل بيافا، ومن الممكن أن يكون بعض ضباط المليشيات فيها قد أوصوا

أو أمروا بالهروب؛ غير أنه لا يوجد دليل على وجود أمر عام في هذا الخصوص سواء من داخل أو خارج المدينة.

(354) Lazar, "Conquest", 138.

(355) Unsigned, 'Operation of Conquest', undated, four-page IZL military report, and Begin, 'The Conquest of Jaffa', undated, both in JI, IZL, kaf-4, 8\1.

(356) 'Fortnightly Intelligence Newsletter No. 67 Issued by HQ British Troops Palestine', 6 May 1948, PRO WO 275 - 64.

ويقتبس قول وزير عراقي أن بريطانيا «قد خططت متعمدة، لهيمنة اليهود على حيفا كجزء لا يتجزأ من برنامجها في فلسطين». انظر أيضا:

and 317 FS Section Weekly Report No. 3, for Week Ending 28 April 1948', PRO WO 27579-; Secretary of State to High Commissioner, 22 Apr. 1948, SAMECA CP III\3\136; Secretary of State to High Commissioner, 23 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\6; Secretary of State to High Commissioner, 23 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\7; and Secretary of State to High Commissioner, 23 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\23.

(357) WO to PS of PM, PS of Foreign Secretary, etc., 'Extract from Middle East Special Situation Report 29 April 1948', 29 Apr. 1948, PRO CO 5373875-.

(358) Montgomery, "Memoirs", 473-74.

(359) 'Note of a Meeting Held at 10 Downing Street at 5:15 p.m. on Friday 7th May 1948', 7 May 1948, PRO CAB 127-341.

(360) المرجع السابق، وكذلك:

Montgomery, Memoirs, 474; and minutes attached to PRO FO 371- 68544 E5102\4\31G.

(361) Minute by W.A.C. Mathieson, 4 May 1948, PRO CO 537- 3870.

وحقيقة الأمر أن كانيغهام كان قد تصرف قبل أن يتلقى كلمة أو أوامر من بيفن، على النحو الذي أوضحه في برقيته الغاضبة بتاريخ 30 أبريل، انظر:

Cunningham to Secretary of State, etc., PRO CO 537 - 3870.

(362) Montgomery, Memoirs, 473; STH III, part 2, 1552; and Haganah 'Logbook', 27 Apr. 1948, IDFA 922\75\949.

في الوثيقة الأخيرة تم اقتباس قول ضابط بريطاني لأحد ضباط جهاز استخبارات «الهاغاناه» (أفنى) إن البريطانيين سيحمون يافا ضد أي هجوم يهودي «لما يقرب من ثلاثة أسابيع»، وفيما بعد ذلك سيترك الجيش المدينة وعندئذ «لن يكون الأمر موضع اهتمام اللواء».

(363) 'Kiryati - Intelligence' to 'Prat', 'Daily Summary from 30\1800 until 1\1800', 2 May 1948, HA 105\94.

(364) 'Kiryati-Dafna' to 'fronts', 4 May 1948, IDFA 8275\49\136.

(365) Begin, 'The Conquest of Jaffa', II, IZL kaf 4, 8\1; and Lazar, Conquest, 138.

(366) HGS\Operations to Alexandroni, etc., 'Orders for Operation "Hametz"', 26 Apr. 1948, IDFA 6647\49\15.

(367) Operation Hametz HQ to Giv'ati, etc., 27 Apr. 1948, 14:00 hours, IDFA 67\51\677. See also Alexandroni to battalions, 27 Apr. 1948, IDFA 922\75\949.

(368) Alexandroni to brigades, etc., 8 May 1948, IDFA 2323\49\6.

(369) 'Tiroshi' to HIS-AD, 3 May 1948, HA 105\127.

(370) B Company to OC 32nd Battalion, 29 Apr. 1948, IDFA 6647\49\15; and 'Tiroshi' to HIS-AD, 2 May 1948, HA 105\54 aleph.

(371) 'Tiroshi' to HIS-AD, 2 April 1948, HA 105\54 aleph.

(372) Entry for 30 Apr. 1948, DBG-YH II, 377.

- (373) Unsigned logbook entry, '2.5.48,' HA 105\94.
- (374) HGS\Operations, 'Summary of Hametz Operations,' 2 May 1948, IDFA 2687\49\35.
- (375) Unsigned, 'Latest Reports from the Front,' 28 Apr. 1948, 12:00 hours, HA 48\3,
وقد أوضح التقرير أنه «توجد حالة ذعر كبيرة في يافا... بسبب
عملية حاميتز».
- (376) STH III, part 2, 1553 and 1574-75.
- (377) HGS\Operations, 'Summary of Operation Hametz,' 2 May 1948, IDFA 922\75\949.
- (378) 'Avner' to HIS-AD, 8 May 1948, IDFA 8275\49\162.
- (379) Kiryati\Intelligence, 'Daily Summary from 30\18:00 until 1\18:00,' HA 105\94.
- (380) HC to Secretary of State, 1 May 1948, SAMECA CP III\5\26.
- (381) HC to Secretary of State, 3 May 1948, SAMECA CP III\5\43.
- (382) 'Tiroshi' to HIS-AD, 11 May 1948, IDFA 6400\49\66.
- (383) Unsigned but Kiryati\intelligence, 'Events in Jaffa in the Week Ending on 9.5.48,' IDFA 8275\49\136.
- (384) Kiryati\Intelligence Officer, to 'Dromi' (?), 'Daily Summary from 03\1800 until 04\18:00,' 4 May 1948, HA 73\98.
- (385) HC to Secretary of State, 5 May 1948, SAMECA CP III\5\92; and Gurney, 'Palestine,' 94.
- (386) In Enemy Eyes, 34.
- (387) HC to Secretary of State, 5 May 1948, PRO FO 816\119.
- (388) Heikal to Kirkbride, 11 May 1948, PRO FO 816\119.

- (389) Kiryati\Operations, 'Preparatory Order for Operation Dror', 10 May 1948, IDFA 321\48\\100.
- (390) 'Protocol of Meeting Between the Commander of the Haganah in Tel Aviv and his Aides and Representatives of the Inhabitants of Jaffa, in Tel Aviv, on 12 May 1948', IDFA 321\48\\97.
- (391) 'Second Meeting Between the Haganah OC in Tel Aviv and the Representatives of the Jaffa Emergency Committee in Tel Aviv on 13 May 1948, at 10:45 hours', IDFA 321\48\\97.
- (392) Texts of 'Agreement' and 'Instructions . . .', HA 55\31.
- (393) 'Operational Order for Operation Dror', 13 May 1948; and Kiryati, 'The Organisation of the Identification Detention Compounds and the Prisoner Holding Spaces', 13 May 1948, both in IDFA 321\48\\100.
- (394) Kiryati, 'Special Order of the Day with Jaffa's Capture', 14 May 1948, IDFA 321\48\\97.
- (395) Entry for 18 May 1948, DBG-YH II, 438.
- (396) Chizik to Shitrit, 1 June 1948, and Y. Harkabi, 'Summary of Memorandum Regarding Mr. Chizik's Meeting with Mr. de Reynier and Mr. Gouy of the Red Cross on 22.6.1948', both in ISA FM 2564\9.
- (397) Nicola Saba, Jaffa Emergency Committee, 'Note', 27 May 1948; Dr. M. Mishalany, Dr. G. Ayoub and Dr. H. Pharaon, 'Report on the Bodies that were found Dead [sic] on Jabalieh Area of Jaffa on 25.5.48 and Examined by Us on 27.5.48'; 'Second Memorandum Submitted by the Emergency Committee of Jaffa Protesting Against the Irregular Activities of the Jewish Forces in Jaffa Area', 28

May 1948 – all in ISA FM 2406\2; and Chizik, 'Minutes of a Meeting Held on the 31.5.48 between the Military Governor of Jaffa and Mr. Robert Gee [sic] of the International Red Cross', ISA FM 2564\9.

يُذكر أنه في منتصف شهر يوليو ادعت لجنة الطوارئ أنه تم قتل 20 من العرب بواسطة الإسرائيليين منذ بدء الاحتلال، انظر:

Gelber, "Independence and Nakba", Chap. 15.

(398) Military Governor's Office, Jaffa, 'Summary, 15.5.48', IDFA 321\48\97.

ويلاحظ أن هناك العديد من الحالات الإضافية التي لم يتم تسجيلها.

(399) Emergency Committee to representative of Commander Tel Aviv District, 22 May 1948 (Ref. No. 7); Emergency Committee to representative of commander Haganah Tel Aviv District, 22 May 1948 (Ref. No. 5); Emergency Committee to representative Haganah Tel Aviv District OC, 22 May 1948 (Ref. No. 6); and Emergency Committee to representative of the 'International Red Cross Organisation', Tel Aviv, 21 May 1948 – all in ISA FM 2564\9; and illegible signature, 'Report on Actions to Prevent Thefts from Manshiya', 20 May 1948, IDFA 8275\49\136.

ويصف التقرير الأخير الذي أعده ضابط بالهاغاناه عمليات النهب في المنشية في 18 مايو من قبل «جماعات من النساء والأطفال والرجال (من تل أبيب)... حيث تم سلب المقاعد والدواليب وغيرها من قطع الأثاث، فضلا عن أدوات المطابخ، والملابس والمخدرات وأغطية الأسرة وغيرها»، وقد قامت السرية التي قادها موقع التقرير بإيقاف عمليات النهب ومصادرة ما تم سلبه، مطلقة أعيرة النيران في الهواء وقنابل الدخان من وقت لآخر، وقد أكد شيريك ذلك لاحقا: «من المؤسف لي أن أقول... إن معظم ما تتضمنه شكاوى العرب حقيقي»، انظر:

Chizik to Shitrit, 1 June 1948, ISA FM 2564\9.

- (400) Ben-Gurion to Chizik, 22 May 1948, IDFA 121\50\\183;
and Ben-Gurion to OC IZL troops, Jaffa, 22 May 1948,
IDFA 321\48\\97.
- (401) 'Shiloni' to Kiryati, 23 May 1948, HA 80\774\7.
- (402) Y. Gefen to minister of police and Arab affairs, 25 May
1948, ISA MAM 306\77.
- (403) Chizik to Shitrit, 1 June 1948, ISA FM 2564\9.
- (404) CGS to Kiryati, 23 June 1948, IDFA 481\49\\143.
- (405) Kiryati to CGS, 25 May 1948, IDFA 6127\49\\161.
- (406) Chizik to OC Military Forces Jaffa, 21 June 1948, IDFA
6127\49\\161.
- (407) OC Military Forces Jaffa to Kiryati Brigade HQ, 28 July
1948, IDFA 6127\49\\161.
- (408) CGS to Navy (Gershon Zak), 2 Aug. 1948; and minute,
dated 13 Aug., about undated letter from security officer to
OC military forces Jaffa, both in IDFA 6127\49\\161.
- (409) Military Governor Jaffa, 'Weekly Report on the Activities
of the Jaffa Military Governor from 25 July until 5 August
1948', (sic) 4 Aug. 1948, IDFA 580\56\\252.
- (410) Allon to Yadin and Galili, 22 Apr. 1948, KMA-PA 170-44.
- (411) For Safad, see HIS-AD, 'Safad Questionnaire', 30 Oct.
1941, HA 8\193.
- وتركز الصفحات التالية على صفد، أما عملية يفتاح فإنه سيتم تناولها
فيما بعد.
- (412) 'Abasi, 'Safad . . .', 313-321.
- (413) 'Ibrahim' to PS, 2 Dec.1947, HA 73\98.

- (414) 'Abasi, 'Safad . . .', 328.
- (415) Palmah, 'Logbook of Operations', undated, entry for 3 Jan. 1948, IDFA 661\69\36.
- (416) 'Tzuri' to Golani, 'General Survey for Months of March, April 1948', 3 May 1948, IDFA 1196\52\1.
- (417) 'Tzuri' to HIS-AD, 1 June 1948, HA 105\222; and 'Tzuri (Dori)' to HIS-AD, 2 July 1948, HA 105\127 aleph.
- (418) 'Abasi, 'Safad . . .', 346.
- (419) 'Abasi, 'Safad . . .', 347.
- (420) HIS-AD, 'Biriya', 1942, HA 105\226.
- (421) HIS-AD, 'Ein Zeitun', 9 Aug. 1942, HA 105\226.
- (422) 'Itamar' to 'Ali', 'Report on the Attack on 'Ein Zeitun', 21 Jan. 1948, IDFA 922\75\1224.
- (423) Unsigned, 'Information, Third Battalion', 08:00, 1 May [1948], IDFA 922\75\1224; Book of the Palmah, II, 303-304; and Peled, 'Conquest of Safad', 24 Apr. 1949, HA Peh-222\2, 68.
- يلاحظ أن الوثيقة الأولى تطرح كلا من رقم 30 و 100 كعدد للمعتقلين الذين تم أخذهم.
- (424) Nazzal, "Exodus", 35-36.
- (425) 'Yiftah' to HGS, Yadin, etc., 2 May 1948, 21:00 hours, IDFA 128\51\50; Nazzal, Exodus, 36-37; and Book of the Palmah, II, 304.
- (426) 'Yiftah', 'Daily Report Continuation', undated but from 1 or 2 May 1948, IDFA 128\51\50.
- (427) Ben-Yehuda, Ropes, 243-48. Nazzal, Exodus, 36.

ويتضمن اقتباسا لحديث لاجئين من عين الزيتون جرى في لبنان وفي مطلع السبعينيات، بما يتضمنه ذلك من أن 37 من صغار السن بالقرية قضي عليهم بطريقة وحشية. أما رواية بن يهودا فإنها تصف بشكل تصويري مقدمات المذبحة وما تبعها - على الرغم من أنها لم تشاهد ذلك بنفسها - والتي قضي فيها ما قد يصل إلى 70 شخصا. طبقا لما أوردته الرواية رفض كل قادة حملة كيلمان تصفية السجناء أو السماح لرجالهم بالقيام بذلك. وفي النهاية وجد كيلمان عريين مصابين بكسور، ولم ينتميا إلى تشكيلات المحاربين، وادعيا أنهما قد سبق لهما المعاناة على أيدي العرب حتى يقوموا بعملية القتل، وعقب ذلك كلف بن يهودا بتجميع أيادي الموتى حيث كانت هناك زيارة متوقعة للصليب الأحمر للمنطقة. وفور الاستيلاء على القرية في 1 مايو قُتل العديد من القرويين في عين الزيتون رميا بالرصاص من قبل عناصر البالماخ، كما وجه السوريون: اتهاما بأن سيدة تم «اغتصابها» انظر:

Broadmead (Damascus) to Kirkbride (Amman), 4 May 1948, PRO FO 816\119.

وربما كانت المذبحة في الوادي وعمليات القتل في القرية هو ما استند إليه اتهام اللجنة العربية العليا (الخاطئ) والذي تم رفعه للأمم المتحدة في يوليو والمتمثل في أنه عقب سقوط القرية قامت قوات الهاغاناه بتجميع «النساء والأطفال» في مسجد القرية ثم تدميره، انظر:

AHC Memorandum on Jewish Atrocities', 26 July 1948, PRO CO 733 - 487\2.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد حدث بالفعل مذبحة، وطبقا لعمانويل فريدمان (مانو) - ممثل وزارة شؤون الأقليات الإسرائيلية في الجليل - قامت القوات بقتل «40 شخصا في الطريق الرئيسي المتجه إلى صفد»، ويفترض أن يكون هؤلاء هم الرجال الذين تم قتلهم في الوادي، انظر:

unsigned, 'Visit of the Minority Affairs and Police Minister in Kfar Giladi, 29.7.48', HA 105\260.

(428) Book of the Palmah, II, 279 and 304; 'Information, 3rd Battalion', IDFA 922\75\1224; and Broadmead to Kirkbride, 4 May 1948, PRO FO 816\119.

(429) Peled, 'The Conquest of Safad', HA Peh-222\2.

- (430) 'Tzuri (Dori)' to HIS-AD, 2 Jul. 1948, HA 105\127 aleph.
- (431) Book of the Palmah, II, 324; and 'Yiftah' to HGS, Yadin, etc., 2 May 1948, 21:00 hours, IDFA 128\51\\50.
- (432) Kol Hamagen Ha'ivri broadcast, in English, 2 May 1948, CZA S258918-; and 'Fortnightly Intelligence Newsletter No. 67 Issued by HQ British Troops in Palestine (for the Period . . . 19 April - 3 May 1948)', 6 May 1948, PRO WO 275-64.
- (433) Book of the Palmah, II, 283-284 and 304-306; and 'Yiftah' to Palmah HQ, Golani, etc. 6 May 1948, 15:45 hours, IDFA 128\51\\50.
- (434) 'Abasi, 'Safad', 353.
- (435) Broadmead to HC, 5 May 1948, SAMECA CP III\5\102.
- (436) Broadmead to FO, 6 May 1948, PRO FO 371 - 68548.
- (437) Creech-Jones to HC, 6 May 1948, SAMECA CP III\5\119.
- (438) Nazzal, Exodus, 44.
- (439) 'Yiftah' to Golani, 10 May 1948, 13:20 hours, IDFA 128\51\\50.
- (440) 'Tzuri' to HIS-AD, 'Subject: Events in Safad After its Conquest', 1 June 1948, HA 105\222.
- (441) نقل عباسي عن كيلمان قوله إن القصف كان يهدف إلى «إحداث الذعر بين السكان»، انظر: 'Abasi, 'Safad...', 359.
- (442) Yiftah HQ to Palmah HQ, 'Report on Operation', 10 May 1948, IDFA 922\75\\1066; and 'Yiftah' to Golani, 10 May 1948, 13:20 hrs, and 'Yiftah' to Palmah HQ, etc., 10 May 1948, 22:30 hrs, both in IDFA 128\51\\50.
- (443) 'Tzuri' to HIS-AD, 1 June 1948, HA 105\222.

- (444) Book of the Palmah, II, 285.
- (445) 'Tzuri (Dori)' to HIS-AD, 2 July 1948, HA 105\127 aleph.
- (446) 'Abasi, 'Safad . . .', 360, quoting Kelman.
- (447) 'Yiftah HQ, 'Daily Report', 11 May 1948, 20:00 hrs., IDFA 922\75\\1082.
- (448) Peled, 'The Conquest of Safad', HA 222\2.
- (449) 'Report of Patrol in Syria and Lebanon - 7-12.5.48 - by Two "Shahar" Men', IDFA 922\75\\1082.
- (450) 'Tzuri (Dori)' to HIS-AD, 2 Jul. 1948, HA 105\127 aleph.
- (451) In Enemy Eyes, 37; Nazzal, Exodus, 16 and 41; and 'Tzuri (Dori)' to HISAD, 2 July 1948, HA 105\127 aleph.
- أورد تزوري أن لاجئي صفد كانوا يرددون أن فنيش تلقى أموالاً من الصهاينة وأنه قام بشكل متعمد بتوجيه الأمور نحو الهزيمة.
- (452) 'A Meeting in Safad', 29 July 1948, ISA MAM 310\33; entry for 7 June 1948, DBG-YH II, 494; and 'Tzuri' to HIS-AD, 1 June 1948, HA 105\222.
- وفقاً لما أورده تزوري تم السماح لمسلم واحد فقط بالبقاء في صفد، ويدعى مصطفى دلاسي - مالك أرض من بيريا - والذي تمتع بمزايا خاصة.
- (453) George Nuni to Safad Area OC, 17 May 1948, HA 105\222.
- (454) 'Tzuri' to HIS-AD, 1 June 1948, HA 105\222.
- (455) 'Tzuri (Dori)' to HIS-AD, 11 June 1948, HA 105\260.
- (456) Carmel to IDF\GS, 14 Aug. 1948, IDFA 260\51\\4.
- (457) Avraham Ye'eli to Shabtai Levy, 11 June 1948, HMA 13784; Foreign Ministry to IDF-GS, 11 July 1948, ISA FM 2402\29; Harkabi to IDF\Operations, 18 Aug. 1948, ISA FM 2464\10; and Moshe Yitah to Levy, 9 Aug. 1948, HMA 1374.

- (458) Weitz to Ben-Gurion, 11 Sep. 1948, in Weitz, Diary, III, 340; and Marriott to Foreign Secretary, 23 April 1949, PRO FO 37175198- E5810.
- (459) 'Tzuri (Dori)' to HIS-AD, 12 May 1948, HA 105\127.
- (460) Entry for 4 May 1948, CZA A2462373 ,13-.
- (461) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 17 Feb. 1948, IDFA922\75\\1066.
- (462) IDF History Branch, 'ALA,' IDFA 1046\70\\182.
- (463) Al Jayusi (?) to OC ALA, 14 Apr. 1948, HA 105\127 aleph.
- (464) 'Tzuri' to Golani, 'General Survey . . .', 3 May 1948, IDFA 1196\52\\1.
- (465) Golani to HGS, etc., 28 Apr. 1948, IDFA 128\51\\50.
- (466) 'Tzuri' to HIS-AD, 9 May 1948, IDFA 1196\52\\1.
- (467) 'Tzuri' to Golani, 'General Survey . . .', 3 May 1948, IDFA 1196\52\\1.
- (468) 'Tzuri' to Golani, 10 May 1948, HA 105\237.
- (469) 'Giora' to 'Utz', 19 May 1948, HA 105\92 bet.
- (470) 'Tzuri' to HIS-AD, 'Subject: The Battle for Beisan', 14 May 1948, HA 105\92 bet.
- (471) Unsigned, 'Events on 12.5.48', HA 105\94.
- (472) "Tree and Sword", 144-46; and Nazzal, "Exodus", 49.
- (473) Golani to Yadin, 12 May 1948, IDFA 922\75\\1025; and Golani Brigade Logbook, entry for 12 May 1948, IDFA 665\51\\1.
- (474) Entry for 12 May 1948, CZA A2462385 ,13-.

- (475) Unsigned, 'Events on 12.5.48', HA 105\94.
- (476) Golani to Yadin, 12 May 1948, IDFA 922\75\\1025; and 'Tektz', 'In Occupied Beisan', 2 July 1948, Tsrer Michtavim, KMA.
- (477) Tree and Sword, 146; and Nazzal, Exodus, 49.
- (478) Dalia Karpel, 'I am Ready to Run After a Picture a Great Distance', Haaretz, 28 October 1994.
- انظر كذلك ذكريات جندي آخر شارك في عملية الطرد في:
Yitzhak (Izzi) Goldstein, 'The Partisan Sinyatovsky', Al Harnishmar, 15 October 1978.
- (479) 'Giora' to 'Utz', 19 May 1948, HA 105\92 bet.
- (480) Shitrit to Defence Minister and Foreign Minister, 16 Sep. 1948, ISA FM 2564\18; and 'Tektz', 'In Occupied Beisan', Tsrer Michtavim, KMA.
- (481) 'Tzipori' to Golani and Carmeli, 10 June 1948, IDFA 128\51\\32.
- (482) Golani OC to IDF GS, 7 July 1948, IDFA 922\75\\1025; and 'Tzuri (Paltiel)' to IDF Intelligence Service, 1 Aug. 1948, HA 105\260.
- (483) Intelligence Officer, 13th Battalion, to Golani\Intelligence, 25 July 1948, IDFA128\51\\71; and Committee for Abandoned Property, Gilboa Area, to Sub-District OC, 29 July 1948, IDFA 6127\49\\109.
- (484) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (485) 'Mitzpa' to HIS-AD, 6 Apr. 1948, HA 105\257.
- (486) Tree and Sword, 146.
- (487) 'Hiram (Nahari)' to HIS-AD, 28 Dec. 1947, HA 105\23; and '01011' to HIS-AD, 26 Jan. 1948, HA 105\72.

- (488) '01011' to HIS-AD, 26 Jan. 948, HA 105\72.
- (489) Unsigned but HIS-AD, 'Report on Events in Haifa on Saturday 7.2.48', 9 Feb. 1948, IDFA 5942\49\23.
- (490) 'Hiram' to HIS-AD, 12 Feb. 1948, HA 105\23 bet.
- (491) 'HIS Information, Daily Summary', 7 Apr. 1948, HA 105\62.
- (492) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 1', 11 Apr. 1948, HA 105\146; and Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 5', 14-16 Apr. 1948, HA 105\146.
- (493) Carmeli HQ to HGS\Operations, 'Weekly Report on Events in the Area between [sic] 20.3-26.3', 31 March 1948, IDFA 7353\49\46.
- (494) Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 9', 28 Apr. 1948, HA 105\146.
- (495) Divisional Police HQ, to Harry [Beilin?], 26 Apr. 1948, HA 105\92 bet.
- (496) ? to Munir Effendi Nur, 16 Apr. 1948, HA 105\252.
- (497) 'Hiram' to HIS-AD, 29 Apr. 1948, HA 105\31; and 'HIS Information', 28 Apr. 1948, KMA-PA 100\MemVavDalet\2-102; and HIS Information, Daily Summary', 28 Apr. 1948, HA 105\62.
- يُذكر أن جهاز استخبارات الهاغاناه نقل أن اللبنانيين كانوا يمنعون اللاجئين من الوصول إلى بيروت ويوقفونهم في صور وصيدا.
- (498) 'Hiram' to HIS-AD, 'From Ma'aluli who Returned from Acre and Shafa-'Amr on 30.4.48', HA 105\127.
- (499) Carmel, Battles, 151-53.
- (500) 'Hiram' to HIS-AD, 6 May 1948, HA 105\237.
- (501) 'Hiram' to HIS-AD, 6 May 1948, HA 105\237.

- (502) 'Hiram', 7 May 1948, HA 105\237.
- (503) '257 and 317 FS Section Weekly Report No. 3 for Week Ending 28 April 1948', PRO WO 275-79.
- (504) HC to Secretary of State, 5 May 1948, SAMECA CP III\5\92; 'North Sector Sitrep', 5 May 1948, PRO WO 261-297; and 'Extract from Middle East Daily Situation Report No. 153', 7 May 1948, PRO CO 537-3875.
- وحتى اللجنة العربية العليا كانت قلقة بشأن ذلك الوضع، وأصدرت الأوامر لأولئك الذين غادروا بالعودة إلى عكا، انظر:
- Committee for Economic Defence, 'Information on the Arab Economy, Bulletin No. 11', 11 May 1948, HA 105\146.
- (505) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (506) 'Hiram' to HIS-AD, 11 May 1948, HA 105\54.
- (507) 'Hiram' to HIS-AD, 6 May 1948, HA 105\237; and 'Hiram', 7 May 1948, HA 105\237.
- (508) In Enemy Eyes, 41-42; and 'Hiram', 11 May 1948, HA 105\237.
- (509) IDF History Branch, 'The ALA,' IDFA 1046\70\182; and 'Hiram' to HIS-AD, 21 May 1948, HA 105\92 bet.
- (510) 'Hiram' to HIS-AD, 21 May 1948, HA 105\92 bet.
- (511) 'Hiram' to HIS-AD, 21 May 1948, HA 105\92 bet.
- (512) Carmeli to HGS\Operations, 17 May 1948, IDFA 922\75\1025.
- (513) Carmel, 'To the Notables of Acre', 17 May 1948, IDFA 922\75\1025.
- (514) Untitled terms of surrender, signed by Haganah officer and Albert Rock, Ahmad Effendi Abdu, Mitkal Zreir, Ahmad Adlumi, etc., 18 May 1948, 01:40 hrs., and covering note Carmel to HGS, 19 May 1948, both in 922\75\1022.

- (515) Carmel to HGS\Operations, 18 May 1948, IDFA 922\75\\1022.
- (516) 'Hiram' to HIS-AD, 21 May 1948, HA 105\92 bet.
- (517) 'Hiram' to HIS-AD, 9 June 1948, HA 105\92 bet.
- (518) Marie Syrkin, 'Preliminary Report on Holy Places', undated but from Sep. 1948, IDFA 922\52\\563.
- (519) ? to Prime Minister, 2 Dec. 1948, and General Avissar, president, Military Supreme Court, to CGS, 20 Dec. 1948, both in IDFA 121\50\\165.
- (520) Carmel, "Battles", 151-62.
- (521) 'Hiram' to HIS-AD, 25 May 1948, HA 105\252.
- (522) 'Hiram' to HIS-AD, 30 May 1948, HA 105\252.
- (523) 'Hiram' to HIS-AD, 31 May 1948, conveying report from 'Giora', HA 105\252.
- (524) Comit'e International de la Croix Rouge, 'Rapport No. 9', 6 June 1948, HA 105\260.
- (525) 'Hiram' to HIS-AD, 9 June 1948, HA 105\92 bet.
- (526) Unsigned, 'State of Affairs in Acre', 25 Oct. 1948, IDFA 922\52\\563.
- (527) Shimoni to Shitrit, 13 July 1948, ISA MAM 307\10.
- (528) Shitrit to Shimoni, 19 July 1948, ISA MAM 307\10.
- (529) Kaplan to Shitrit, 20 July 1948, ISA MAM 307\10.
- (530) Entry for 2 May 1948, Weitz, Diary, III, 275-76.
- (531) Haim Solomon to Bernard Joseph, JA, 29 Mar. 1948, IDFA 500\48\\54.
- (532) Haim Laskov, 'Operations of the 7th Brigade, 22.3.48-22.7.48', undated but from late 1950s, 35, IDFA 1046\70\\56.

(533) Unsigned, 'Operational Order for Operation Nahshon', 2 Apr. 1948, IDFA 47\53\2.

ربما تعلق الأمر فقط بمسودة لم تُوزع.

(534) Nahshon Corps HQ to battalions A, B, C, 'Operational Orders', ? Apr. 1948, IDFA 922\75\1233.

(535) Book of the Palmah, II, 189.

(536) Galili, 'Meeting of National Staff 5\4', 5 Apr. 1948, IDFA 481\49\64.

(537) Unsigned, 'The Meeting of Heads of [HGS] Divisions, 4.4.48', IDFA 481\49\18.

(538) Galili to Yadin, ? Apr. 1948, IDFA 661\69\45.

على الرغم من أن تاريخ المستند يبدو كما لو أنه 5، فإن 15 أبريل هو الأرجح، كما يلاحظ أن عبارة «وخوفت» هي على الأرجح اختزال لعبارة «خوفت لدفع سكانها إلى الفرار»، وهذه العبارة أضيفت بخط اليد، ومن المؤكد أنه ما أن خُوف تخويف السكان مما دفعهم للهرب فإن التوجه الرئيسي الأول للخطة كان قد تحقق.

(539) Haganah logbook of cables, for 30 March-3 Apr. 1948, IDFA 500\48\54.

(540) Unsigned, 'The Conquest of the Qastal 3.4.48', IDFA 661\69\45.

(541) Ben-Ari, 'Report on Reinforcing the Qastal', 7 [sic, should be 8] Apr. 1948, IDFA 661\69\45.

يلاحظ أن التاريخ هو على الأرجح 8 بدلا من 7 أبريل.

(542) تم وصف موت عبدالقادر في

Logbook of Haganah cables, entry for 8 Apr. 1948, IDFA 500\48\54.

أما بالنسبة لـ :

'Nimrod', Etzioni Brigade, 'Report on the Battles of the Qastal', 25 Apr. 1948.

فإنه يقدم رأي اتزيوني (الصهيوني) في المعارك والذي ينتقد بشدة البالماخ؛ حيث كتب نمرود أن هدفها في 2 - 3 أبريل كان «تدمير القلعة» في حين كان اللواء يرغب في احتلال القرية.

(543) Unsigned, 'The Second Conquest of the Qastal 9.4.48', IDFA 922\75\\1233.

(544) Unsigned, 'Report on the Capture of Qaluniya', 11 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1233.

يذكر التقرير أنه أثناء تدمير أحد المنازل سُمعت صرخات تطلب «المساعدة» باللغة الإنجليزية من الداخل، انظر كذلك:

HC to Secretary of State, 17 April 1948, SAMECA CP III\3\91.

(545) Levin, "Jerusalem", 66-67.

(546) Nahshon CorpsHQto Battalions 1, 2, 3, 'Operational Orders', 10 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1233,

وقد تضمنت الأوامر «تصفية» قريتين وحملت العمليتان المسمى الرمزي «ميلانو» و«شيفيلد»، ربما كانت هاتان القريتان هما بيت جيز وخربة دير عمرو. انظر كذلك:

Nahshon to Battalion 2, ? Apr. 1948, IDFA 661\69\\45.

(547) Nahshon Corps HQ, 'Framework for Corps' Operations', 14 Apr. 1948, IDFA 661\69\\45.

انظر كذلك:

Nahshon to Battalions 1,2,3, intelligence, 14 Apr. 1948, IDFA 661\69\\45.

ويظهر الأمر كذلك في IDFA 661\69\\45 غير أن رقابة قوات الدفاع الإسرائيلية حذفت الكلمات التالية: «بهدف الإهلاك والتدمير والمحو».

(549) Nahshon HQ to Battalion 1, IDFA 236\53\\1.

(550) Nahshon Corps HQ to Battalion 3, 15 Apr. 1948, IDFA 661\69\\45.

يلاحظ أن رقابة قوات الدفاع الإسرائيلية حذفت كلمات رئيسية - غير أنها تظهر في مستند آخر يتصل بالخطة المُعدة ضد سجد. انظر:

Nahshon HQ to 52nd Battalion, 15 Apr. 1948, IDFA 236\53\\1, relating to the planned operation against Sajad.

(551) Major ?, [British Army, Palestine] General Staff, 'SouthPal' to List 'D', undated, IDFA 900\52\\43; and Etzioni to HGS, Yadin, 16 Apr. 1948, IDFA 196\71\\83.

(552) ? to 'Yevussi', 'Operation Yevussi Stage A', undated, IDFA 922\75\\1233; and Yadin to Yevussi and Harel and Etzioni brigade HQs, 'Document', 19 Apr. 1948, IDFA 661\69\\45.

(553) Harel Corps HQ to Battalions 1, 2, etc., 22 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1233.

(554) Palmah HQ to HGS, 23 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1066.

(555) Palmah HQ to HGS, 25 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1066.

(556) District OC to 'Yitzhak' etc., 7 Apr. 1948, IDFA 500\48\\29.

(557) D Company OC, 4th Battalion, to Jerusalem District OC, 11 Apr. 1948, IDFA 4944\49\\584.

(558) Niv, "Battles", VI, 83.

(559) Niv, "Battles", VI, 83-86.

(560) Milstein, "History", IV, 380-81.

ويتضمن ذكريات أحد عناصر الإرغون الذين شاركوا في الحدث.

(561) 'Yavne' to HIS-AD, 12 Apr. 1948, IDFA 5254\49\\372.

(562) 'Yavne' to HIS, 13 Apr. 1948, IDFA 5254\49\\372.

(563) 'Eliezer' to 'Tzadik', etc., 'Report on the Conquest of Deir Yassin', 10 Apr. 1948, IDFA 500\48\\56.

انظر أيضا:

Kanane and Zeitawi, 'The Village of Deir Yassin', 53-57

والتي تستند إلى مقابلات مع لاجئي دير ياسين، ويلاحظ أنه في كثير من الوقائع تدعم المقابلات التي جرت خلال الثمانينيات ما سبق أن أظهرته مستندات الهاغاناه المعاصرة للأحداث.

(564) 'Avraham' (Pa'il) to Jerusalem District OC, 10 Apr. 1948, in HGS\ Operations\Intelligence to Haganah corps, 'Lessons from the Dissidents' Operation in Deir Yassin', '12.2.48'

ومن المرجح أن يكون الأصح هو 1948/5/12 أو 1948/6/12 كما يبدو أن الأمر يتعلق بنسخة مختصرة من التقرير الأصلي الذي أعده بائيل والذي ترفض وزارة الدفاع الإسرائيلية إتاحتها للباحثين، وفضلا عن ذلك فإن ميلستين يذهب إلى أن بائيل لم يكن موجودا في دير ياسين في 9 أبريل انظر:

Milstein, "History", IV, 366 and 378, and interview with author, 18 Aug. 2001

كما يدافع ميلستين عن مقولة أنه لم تكن هناك مذابح منظمة واسعة النطاق في دير ياسين، وأن الكثير من تقارير جهاز استخبارات الهاغاناه صيغت من قبل كاتبها بطريقة هدفت إلى تضخيم المذابح لتشويه صورة واسم المنظمات الانفصالية في ساحة الصراع على المسرح السياسي الإسرائيلي انظر: see Milstein, History, IV, 382-88.

وعلى الرغم من ذلك يقر ميلستين بأنه أثناء القتال تم إطلاق النيران لقتل عائلات بأكملها. تجدر الإشارة إلى أن جزءا من تقرير بائيل تم تعزيزه بتقرير آخر صدر عن طبيين يهوديين وتضمن عثورهما على خمس جثث لرجال فلسطينيين في منزل بالقرية، انظر:

Dr Z. Avigdor and Dr A. Druyan, 'Report on Visit to Deir Yassin on 12.4.1948', 18 Apr. 1948, IDFA 500\48\54.

(565) 'Yavne' to HIS-AD, 12 Apr. 1948, IDFA 5254\49\372.

(566) 'Yavne', 'Urgent Arab Information, 10.4.48', 11 Apr. 1948, IDFA 5254\ 49\75.

يذكر أن المسؤولين في الهاغاناه والبريطانيين والعرب أذاعوا أن 254 من العرب قضاوا خلال الأحداث، وقام كل منهم بالمبالغة في الرقم لأسبابه الخاصة. ويبدو أن المصدر الأولي لهذا الرقم كان موردخاي

رعنان (قائد قوات الإرغون في القدس) الذي أخبر المراسلين صباح يوم 10 أبريل - بشكل غير صحيح - أنه «حتى تاريخه تم حصر 254 جثة لعرب»، انظر:

Milstein, "History", IV, 369 and 376.

وفي الثمانينيات قام شريف كناعنة (الباحث الفلسطيني المتخصص في الأنثروبولوجيا) بالبحث حول هذه النقطة وخرج علينا بحصر لما يتراوح بين 110 و120 قتيلا خلال القتال وعمليات الإعدام التي تلتها، انظر:

Yizhar Beer, 'The Hidden Villages', Kol Ha'ir, Jerusalem, 25 Nov.1988

(567) 'Yavne' to District OC, 'Urgent Arab Information from 9.4.48', 9 Apr. 1948, IDFA 5254\49\75; Dr. S. Shereshevsky to the 'HQ', Jerusalem, 11 Apr. 1948, IDFA 5254\49\372; and Levine, Jerusalem, 57, entry for 9 Apr. 1948.

(568) Haganah HQ, 'Statement on Deir Yassin,' Haaretz and Davar, 12 Apr. 1948.

(569) Isaac Herzog and Ben-Zion Uziel, chief rabbis of Palestine, 12 Apr. 1948, CZA S25-4147.

(570) Jewish Agency to King Abdullah, 12 Apr. 1948, ISA, Political and Diplomatic Documents, 625-626.

(571) For example, extract of Haganah or JA monitoring report of articles in Falastin, 10-11 Apr. 1948, HA 105\31.

(572) HC to Secretary of State, 17 Apr. 1948, SAMECA CP III\3\91; HC to Kirkbride, 25 Apr. 1948, SAMECA CP III\4\48; and US Legation (Damascus) to Secretary of State, 3 May 1948, NA RG84, Jerusalem Consulate, Classified Records 1948, 800-Syria. See also Larry Collins Papers, Georgetown University Library, LC interview with Hazem Nusseibi, May 1968.

ويتذكر حازم البيان الذي أصدره مع كل من حسين الخالدي وثابت الخالدي متضمنا ما يلي: «لقد وقعنا في مصيبتهم (الصهاينة)، ولم نكن متأكدين من أن الجيوش العربية - على الرغم من حديثها الكثير - سوف تتدخل حقا، وسعينا إلى أن نصدم شعوب الدول العربية لتوليد ضغوط على حكوماتها، وعلى الرغم من أننا نجحنا في ذلك فإننا في الوقت نفسه - وللأسف - أثرنا مخاوف شعبنا، مما كان له أثر صدمة، وارتكبنا بذلك خطأ فادحا وعبدنا المسرح لبروز مشكلة اللاجئين».

(573) IZL, 'Announcement on the Deir Yassin Affair', c. 12 Apr. 1948, IDFA 5254\49\372.

(574) Text of Kol Zion Halohemet broadcast, 14 Apr. 1948, JI, IZL, kaf-4, 8\13.

(575) LHI, 'Daily Press Bulletin No. 33', Tel Aviv, 30 Aug. 1948.

(576) Begin, "Revolt", 164.

(577) 'HIS Information', 14 Apr. 1948, KMA-PA 100\MemVavDalet\3-126.

(578) 'Hiram' to 'Jeremiah', 15 Apr. 1948, IDFA 5942\49\23.

(579) 'Yavne' to HIS-AD, 15 Apr. 1948, HA 105\257.

(580) Unsigned, untitled report, 16 Apr. 1948, IDFA 2504\49\4.

(581) 'Yovev' to HIS-AD, 17 Apr. 1948, and 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 19 Apr. 1948, both in HA 105\54 aleph.

(582) 'Hiram' to HIS-AD, 18 Apr. 1948, HA 105\257.

(583) Entry for 1 May 1948, DBG-YH II, 378.

(584) 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\257.

(585) British Army HQ Palestine, 'Fortnightly Intelligence Newsletter, 21 April 1948', PRO WO 275-64.

- (586) Cohen, 'In Face of the Arab Evacuation', 20 May 1948, HHA-ACP 10.95.11 (8); statement by Hazan, protocol of meeting of Mapam Political Committee, 26 May 1948, HHA 66.90 (1); and statement by Cohen, protocol of meeting of Mapam Political Committee, 15 June 1948, HHA 66.90 (1).
587. HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (588) 'Report on the Negotiations over the Mishmar Ha'emek Fighting by Lt. Col. A. Peel, Commanding 3rd The King's Own Hussars', 12 Apr. 1948, PRO WO 275-48.
- (589) 'Tzuri' to HIS-AD, 'The Battle of Mishmar Ha'emek', 8 May 1948, HA 105\127; and Mishmar Ha'emek in the War, 15-16.
- (590) Logbook, 6th Airborne Division, entry for 7 Apr. 1948, PRO WO 275-54; and 'Report on the Negotiations . . .', 12 Apr. 1948, PRO WO 275-48; and Golani to Galili, etc., 8 Apr. 1948, 17:45 hrs., IDFA 128\51\50.
- (591) Golani to Galili, 8 Apr. 1948, 17:45 hrs., IDFA 128\51\50; and Yehuda (Lovka) Ivzori, 'Mishmar Ha'emeq Sits Next to the Road from Haifa to Jenin', undated, Mishmar Ha'emek Archive 3.64\24.
- (592) Golani to Galili, 8 Apr. 1948, 21:30 hrs, IDFA 128\51\50.
- (593) Protocol of meeting of Mapai Centre, 24 July 1948, LPA 23 aleph\48.

ومن المحتمل أن كلا من ياكوف هزن وموردخاي بينتوف كانا أعضاء في «الوفد»، وكلاهما كان في تل أبيب في الفترة من 8 إلى 10 أبريل لحضور لقاء للجنة العمل اليهودية - بمشاركة بن غوريون - ووفقاً لأسوأ تقاليد المؤرخين الصهاينة أغفل زيف تزاهور الإشارة إلى المسألة، وقام عوضاً عن ذلك بكتابة أن أعضاء مشمار هعيمك كانوا «مرتبكين» إزاء هجوم الهاغاناه على جيرانهم الذين كانت لهم علاقة صداقة

معهم في أبو شوشة ولم يقوموا «بضبط النفس لمنع الطرد». انظر: 184-Hazan, 185 إلا أنه وفقا لهزن فإنهم «تجاهلوا طرد جيرانهم». وفي واقع الأمر تمت الإشارة إلى عملية الطرد في المناطق المحيطة بمشمار هعيمك خلال الجدل الذي دار في أوساط كل من ماباي - مابام خلال الشهور التي أعقبت ذلك، وعلى سبيل المثال ذكرت حركة كيبوتس مكابي هاتزائير المنضمة إلى ماباي في نشرة غيميل رقم 3 بتاريخ 17 سبتمبر، انظر:

Ihud Hakibbutzim Archive, 111\2.

أن «كيبوتس مشمار هعيمك كان الأول الذي يطلب تدمير القرى العربية المحيطة به»، وخلال اجتماع للجنة العمل الصهيونية في 23 أغسطس 1948 طرح بنحاس لوبيانكر (زعيم منظمة الشباب الصهيوني) الأمر بشكل مختلف؛ حيث ذكر أنه «عندما طرد السكان العرب في المناطق المحيطة بالكيبوتس الذي يقطنه (خلدة) ومشمار هعيمك لأسباب أمنية، لم يعترض أي من سكان الكيبوتسين، لأنهم كانوا يعلمون أنه إذا مات تركهم خلال الحرب مُحاطين بثلاث أو أربع قرى عربية فإنهم لن يكونوا في أمان». انظر:

protocol of meeting of Zionist Actions Committee, 23 Aug. 1948, CZA S25-323.

(594) HGS\Operations to Golani, 5 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1025.

(595) Yadin to Golani, 10 Apr. 1948, IDFA 128\51\\50.

(596) 'Tzuri' to HIS-AD, 'The Battle of Mishmar Ha'emek', 8 May 1948, HA 105\127.

(597) 'Tiroshi (Yosef)' to HIS-AD, 16 Apr. 1948, HA 105\257.

(598) Golani to Carmeli and Golani HQ, 9 Apr. 1948, IDFA 128\51\\50; and Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 10 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1066.

(599) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 9 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1066; and Golani to Golani HQ, undated, IDFA 128\51\\50.

- (600) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 12 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1214.
- (601) Golani to HGS, etc., 12 Apr. 1948, IDFA 128\51\\50.
- (602) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 15 Apr. 19048, IDFA 922\75\\1066.
- (603) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 13 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1066.
- (604) Palmah to HGS, 'Daily Report', 15 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1066.
- (605) 'Logbook of the battle', entry for 15 Apr. 1948, IDFA 1058\52\\1.
تتحدث السجلات عن أنه تم العثور على بنتين مختبئتين في أبو زريق
وتم اصطحابهما إلى هازوريا لتلقي العلاج.
- (606) 'Tzuri (Barkan)' to HIS-AD, 'Subject: The Interrogation of Ali al Bahut – Mansi Village', 27 Apr. 1948, HA 105\54 aleph.
سرت بين اللاجئين شائعات بأن قوات روسية يتراوح قوامها بين 15 ألفا
و40 ألفا تحارب إلى جانب اليهود.
- (607) 'Tzuri', 19 Apr. 1948, HA 105\31.
- (608) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 16 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1214.
- (609) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 19 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1214.
- (610) Bauer to Galili, Moshe Mann, Baruch Rabinov, and Ya'akov Riftin, 14 Apr. 1948, Eliezer Bauer (Be'eri) Papers.
- (611) Protocols of kibbutz meetings, 18 and 20 April 1948, Kibbutz Hazore'a Archive; and Ofek, 'The Relations Between Hazore'a and the Villages of Qira and Abu Zureiq during the years 1936–1948'.

(612) Weitz to Rema, 21 Apr. 1948, Weitz, Diary, III, 271.

(613) انظر على سبيل المثال فيما يتصل بالبريكة:

HIS-AD Information 29.4.48', IDFA 922\75\\1205, regarding Burayka.

(614) 'Tzuri (Barkan)' to HIS-AD, 9 May 1948, IDFA 1196\52\\1.

(615) 'Hiram' to HIS-AD, 2 May 1948, HA 105\217; 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 14 March 1948, IDFA 6400\49\\66; and Alexandroni HQ, 'Bulletin No. 7', 13 May 1948, IDFA 2323\49\\6.

(616) Alexandroni HQ, 'Alexandroni Brigade Bulletin No. 9 – 15.5.48', IDFA 922\75\\949.

(617) 'Testimony of Moshe Nesher (Wagner)', an IZL officer, JI IZLP, kaf-4, 7\8. Niv, Battles, VI, 131–32.

ويذكر أنه تم السماح لسكان السنديانة بالرحيل في اتجاه الشرق.

(618) 'HIS-AD Information 29.4.48', IDFA 922\75\\1205.

(619) 'Summary of Carmeli Brigade Information No. 3 for 7.5.48', IDFA 273\52\\5.

(620) Entry for 15 May 1948, HGS\Operations Logbook, IDFA 922\75\\1176.

(621) 'Tzuri (Barkan)' to HIS-AD, 4 June 1948, HA 105\92 bet.

(622) OC A Company, 'Shlosnitzki', 5 Aug. 1948, IDFA 128\51\\32.

(623) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 29 Apr. 1948, HA 105\257; and 'HIS-AD Information 29.4.48', IDFA 922\75\\1205.

(624) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 3 May 1948, IDFA 6400\49\\66; and Logbook, entry for 9 May 1948, IDFA 665\51\\1.

(625) Shakib Wahab to ALA HQ? (probably 16) Apr. 1948, HA 105\127.

- (626) Shakib Wahab to OC ALA, 17 Apr. 1948, HA 105\127; and Carmeli to HGS\Operations, 'Daily Report 22.4.48'; Carmeli to HGS\Operations, 'Daily Report 19.4.48'; and unsigned but probably Carmeli HQ, 'Report on the Battle of Ramat Yohanan', undated, all three in IDFA 7353\49\46.
- (627) 'Segal' to all Divisions, 'Summary of Information Concerning the Area from Friday 16.4.48 14:00 hrs. until Sunday 18.4.48 08:00', IDFA 7353\49\46.
- (628) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers in Dora Camp 6.4.48', IDFA 4663\49\125.
- (629) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers, Camp Dora, 13.4.48', IDFA 4663\49\125; and 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\257.
- لقد أخبرت الهاغاناه القرويين بأن عليهم الرحيل؛ حيث إنها لا يمكنها ضمان «أن تحدث دير ياسين أخرى هنا أيضا».
- (630) 'Tiroshi (Dror)' to HIS-AD, 9 Apr. 1948, HA 105\257.
- (631) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (632) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers, Camp Dora, 13.4.48', IDFA 4663\49\125.
- (633) Alexandroni HQ, 'Sarkas', 11 Mar. 1948, IDFA 6400\49\66.
- (634) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1); and 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, and 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 22 Apr. 1948, both in IDFA 6400\49\66.
- (635) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1); and interview with Aharon Braverman (Bar-On), 10 Nov. 1985, 'Ein Hahores.

(636) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers Dora Camp 13.4.48', IDFA 4663\49\\125; and 'Tiroshi (Dror)' to HIS-AD, 16 Apr. 1948, HA 105\257.

(637) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers in Camp Dora, 6.4.48', IDFA 4663\49\\125.

(638) 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\257; 'Summary, Meeting of the Arab Affairs Advisers in Netanya 25.4.48', IDFA 2506\49\\91; and page from logbook, perhaps of Ramat Hakovesh's security officer, IDFA 922\75\\949.

انظر أيضا:

Hativat Alexandroni, 102-104, and Kanane and al Ka'abi, 'Al Miska'.

(639) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 9 Mar. 1948, HA 105\54 aleph.

(640) 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 2 Apr. 1948, HA 105\257.

(641) 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 6 Apr. 1948, HA 105\257.

(642) 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 12 Apr. 1948, HA 105\257.

(643) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 20 Apr. 1948, HA 105\257.

(644) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 7 Apr. 1948, HA 105\54 aleph.

(645) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 'Subject: The Village of Fajja was Evacuated by its Inhabitants', 14 Apr. 1948, HA 105\257.

(646) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 8 Apr. 1948, HA 105\257.

(647) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 'Subject: The Mukhtar of Fajja', 14 Apr. 1948, HA 105\257.

(648) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 15 Apr. 1948, HA 105\257.

(649) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 3 May 1948, HA 105\92 aleph.

- (650) 'Summary, Meeting of the Arab Affairs Advisers in Netanya 25.4.48', IDFA 2506\49\91; and 'Summary of the Meeting of Arab Affairs Advisers in Netanya, 9.5.48', IDFA 6127\49\109.
- (651) 'Tiroshi (Aran)' to HIS-AD, 12 May 1948, HA 105\217.
- (652) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (653) 'Summary of the Meeting of the Arab Affairs Advisers in Netanya, 9.5.48', IDFA 6127\49\109.
- (654) 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 11 May 1948, HA 105\127.
- (655) Alexandroni Intelligence Officer, 'Information, the Attack on Arab Kafr Saba on 13.5', IDFA 922\75\949. See also Kanane and Ka'abi, 'Kafr Saba', 56-59.
- (656) 'Tiroshi (Alon)' to HIS-AD, 17 May 1948, HA 105\54 aleph. See also Hativat Alexandroni, 194-207.
- (657) Alexandroni, [sic] 42nd Battalion [should be 32nd], 'Brigade Bulletin', 21 June 1948, IDFA 922\75\949.
- يلاحظ أن رقم الكتيبة يجب أن يكون 32 بدلا من 42.
- (658) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 'Tantura', and 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 'Subject: The Village of Tantura', 6 May 1948, both in HA 105\54 aleph; and Alexandroni HQ, 'Bulletin No. 6', 6 May 1948, IDFA 2323\49\6.
- (659) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 'The Village of Tantura', 6 May 1948, HA 105\54 aleph; and 'Tiroshi' to Alexandroni, 10 May 1948, IDFA 922\75\949.
- (660) Unsigned, 'Brigade Bulletin', 7 May 1948, IDFA 922\75\949.
- (661) Unsigned, 'Summary of Information for Alexandroni Brigade (18.5.48)', IDFA 2506\49\85.

- (662) Alexandroni HQ, 'Information Circular: The preparations for Attack in the Villages of Tantura, 'Ein Ghazal, Ijzim and Jab'a', 22 May 1948, IDFA 922\75\949.
- (663) Alexandroni CO, 'Operational Order', 22 May 1948, IDFA 922\75\949.
- (664) Unsigned, 'Short Report on Tantura Operation' undated, IDFA 922\75\949; and 'Ya'akov B.' in the name of deputy OC 'A' Company, 'Report on Operation Namal', 26 May 1948, IDFA 6647\49\13. See also Hativat Alexandroni, 31-32 and 220-230.
- وتذهب إلى أنه قد تم منع سكان الطنطورة خيار الاستسلام والبقاء.
- (665) Sub-sub-district (hevel) 1 OC, Zikhron Ya'akov, to sub-district (nafa) OC, 29 May 1948, IDFA 4663\49\46.
- (666) IDF CGS to Alexandroni, 1 June 1948, IDFA 481\49\143.
- يذكر أن رئاسة الأركان استخدمت مصطلح Khabala وهو ما يعني «تخريب»، وتضمنت إجابة لواء إسكندروني بأن ذلك كان نابعا من «الحماسة الناجمة عن الانتصار» انظر:
- Alexandroni to IDF GS\Operations, 2 June 1948, IDFA 2687\49\35.
- (667) Sub-sub-district 1 OC to sub-district OC, 31 May and 1 June 1948, both in IDFA 4663\49\46.
- (668) Shitrit to Ben-Gurion, 31 May 1948, ISA MAM 302\48.
- (669) 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 7 (?) May 1948, HA 105\260.
- (670) A. Goldfarb, Alexandroni Adjutant, to Alexandroni\Operations, 16 June 1948, IDFA 2506\49\91; 'Tiroshi (Eitan)' to HIS-AD, 22 June 1948, HA 105\260; and Courvoisier, Red Cross, Tel Aviv, to Red Cross Delegate, Nablus, undated but from 16 or 17 June 1948, HA 105\260.

(671) في شهر مارس 1998 أجازت جامعة حيفا رسالة ماجستير مقدمة من طالب إسرائيلي يُدعى تيودور (تيدي) كاتز بتقدير ممتاز (97%) تحت عنوان «النزوح الجماعي العربي من قرى جنوب الكرميل الجنوبي عام 1948»، وقد تناولت الرسالة حالة قريتين هما الطنطورة وأم الزينات وذهبت إلى أن عشرات - ربما يصل الإجمالي إلى 250 - من سكان الطنطورة قضاوا في مذبحه على أيدي قوات لواء إسكندروني في أعقاب استيلائها على القرية، وقد استندت النتائج التي توصل إليها كاتز إلى مقابلات أجريت خلال التسعينيات مع سكان سابقين للقرية، فضلا عن لقاءات مع قدامى المقاتلين في لواء إسكندروني. وفي الحادي والعشرين من شهر يناير 2000 نشرت صحيفة «معاريف» مقالا تحت عنوان: «مذبحة الطنطورة» بقلم أمير غيلات انطلق من رسالة كاتز فضلا عن مقابلات مستقلة مع كل من سكان القرية السابقين وقدامى مقاتلي لواء إسكندروني، ومجددا ادعى السكان وقوع مذبحه، في حين نفى مقاتلو اللواء ذلك. وقد كشف كاتز عن عدم وجود أي مستند خاص بالهاغاناه أو قوات الدفاع الإسرائيلية يشير إلى وقوع مذبحه، كما أنه لا توجد أي وثائق عربية أو غربية في هذا الصدد، وقد استندت الاتهامات بوقوع مذبحه فقط إلى الشهادات الشفوية، كما أن قدامى مقاتلي اللواء الذين أقروا بوقوع المذبحه أو ألمحوا إلى ارتكاب فظائع قاموا بعد ذلك بنفي أقوالهم ذلك.

قامت مجموعة من قدامى محاربي الكتيبة 33 بلواء إسكندروني بملاحقة كاتز قضائيا أمام محكمة حي تل أبيب بتهمة القذف والتشهير، (صحيفة «هآرتس» بتاريخ 30 أبريل 2000)، وبعد قيام محامي الادعاء بإثبات عدم دقة بعض التفريغات لمضمون التسجيلات، وافق كاتز على أن يتقدم بالاعتذار، على أنه لم يكن هناك أساس للاتهام بوقوع مذبحه. وقد أقرت المحكمة قيام كاتز بالاعتذار علنا عن ذلك في حكمها. (صحيفة «هآرتس» 22 ديسمبر 2000). قام كاتز بالرجوع عن اعتذاره وسحبه واستأنف الحكم أمام المحكمة الإسرائيلية العليا، وكانت هذه القضية موضع اهتمام المؤرخين؛ حيث نشر إيلان بابي في 2001-2002 عدة مقالات، انظر:

The Tantura Case in Israel: The Katz Research and Trial' Journal of Palestine Studies, Vol. 30\3, Spring 2001, 19-39. and 'The Katz Affair and Tantura: History, Historiography, Law and Academia' (Te'oriya U'vikoret 20, spring 2002, 191-217).

للدفاع عن دراسة كاتز، وفي تلك الأثناء سحبت جامعة حيفا موافقتها على الرسالة وطلبت إلى كاتز مراجعتها وإعادة التقدم بها، وبالفعل قدم الأخير رسالة مكونة من 500 صفحة قامت الجامعة بتعيين لجنة من خمسة أشخاص غير معروفين لدراستها وانتهوا إلى رفضها (أعطي ثلاثة منهم درجات رسوب في حين أعطى الاثنان الآخران درجات قبول)، وقد سعت الجامعة للتوصل إلى تسوية وسط من خلال منحها درجة الماجستير (من الدرجة الثانية من دون بحث) للباحث، إلا أن قسم دراسات الشرق الأوسط بالجامعة قام بالطعن على هذا القرار، وأيا كانت نتيجة هذا الطعن فإن حالة كاتز تبرز بوضوح الضعف المؤكد للتأريخ استنادا إلى شهادات شفوية. في ضوء الدلائل المتاحة فإن واقعة المذبحة في الطنطورة من الموضوعات المشكوك فيها، وقد قام كاتز بجمع عدد كبير من المقابلات و البيانات المكتوبة من لاجئي الطنطورة الذين ادعوا- بعد مرور ما يقرب من 50 عاما على الحدث- أن مذبحة وقعت في القرية، وعلى سبيل المثال وصف عدنان عقاب يحيى (عام 2000) كيف قامت القوات اليهودية - بعد انتهاء المعركة- باختيار 40 من الشباب صغار السن واصطحبهم إلى المقبرة حيث أجبروهم على حفر قبور ثم بعد ذلك أعدموا 24 منهم، وقد وردت رواية مماثلة على لسان عمر الخطيب في كتابه «كارثة» 204-Disaster, 205.

إلا أن حقيقة استعداد قدامى المحاربين للذهاب بشكل موحد إلى المحكمة لتنظيف أسمائهم من تلك الاتهامات يتضمن بالتأكيد أنه لم تحدث أي مذبحة (أو على الأقل شبه تأكيد على أنه لا يتوافر شاهد يمكن الاعتداد به يمكن أن يظهر في المستقبل للشهادة بعكس ذلك)، ومع ذلك وبشكل أكثر قوة وتعبيرا شكت إحدى لاجئات الطنطورة عقب وصولها إلى الضفة الغربية من أن «اليهود قاموا باغتصاب نساء بالإضافة إلى ارتكابهم أعمال سرقة ونهب وإحراق للمباني بشكل متعمد»، وقد تمت إذاعة هذا التصريح في راديو القدس الشرقية ورام الله انظر:

unsigned, 'Palestine in Arab Radio Broadcasts, 21-22.6.48', HA 105\88; and extract from radio monitoring report, unsigned, 'Jerusalem 16:00', 21 June 1948, HA 105\92 aleph.

إلا أن هناك العديد من التساؤلات تظل قائمة: إذا كانت هناك مذبحة قد وقعت أم تكن المرأة التي اشتكت من عمليات الاغتصاب والسرقة والحرق المتعمد قد أدانتها كذلك؟ أم يكن من المنطقي أن تنقل المحطات

الإذاعية أخباراً عن تلك المذبحة؟ في صيف 1948 كان اللاجئون من فلسطين مولعين بقص روايات عن الأعمال الشريرة لليهود (مجرد تبرير فرارهم المتهور) في حين كان رجال الدعاية العرب على كامل الاستعداد لتلقف مثل تلك الروايات وإذاعتها، وبالتأكيد فإن التقارير عن مذبحة على نطاق واسع (إذا ما كانت هناك مذبحة) كان سيتم نشرها بشكل كبير، إلا أنه خلال عام 1948 لم يكن هناك إلا تقرير واحد عن أعمال وحشية تتصل بالطنطورة ظهر إلى السطح وهو التقرير الذي تمت الإشارة إليه عاليه والمتصل بعمليات الاغتصاب (والسرقة والإحراق المتعمد)، ولا توجد كلمة واحدة عن مذبحة أو سلسلة من المذابح. من جانب آخر، هناك أدلة على أن قوات لواء إسكندروني قاموا ذلك اليوم - هنا أو هناك - بإعدام عناصر من المتطوعين الفلسطينيين. وفضلاً عن ذلك، فإن رئاسة الأركان كتبت إلى رئاسة لواء إسكندروني تشتكي من أعمال «تخريب» بعد الاستيلاء على القرية وقد يكون تعبيراً لطيفاً يشير إلى مذبحة.

بعد أيام قليلة على احتلال الطنطورة، قام ياكوف إبستين (أحد رجال زخرون ياكوف، وهو رجل وزارة شؤون الأقليات في الموشافا الذي كانت له صلات قوية بقرية الطنطورة) بإعداد تقرير عن الموقف؛ فقد وصل إلى القرية بعد دقائق أو ساعات من اكتمال عملية احتلالها صباح يوم 23 مايو، وتضمن التقرير مشاهدته لجثث في كل مكان («في أطراف القرية؛ في الطرق، في الممرات؛ وفي منازل القرية») وأنه ساعد في عملية تنظيم دفنهم، إلا أنه لم يورد أي إشارة إلى مذبحة من أي نوع تمت أخيراً أو كانت جارية آنذاك. وعلى العكس من ذلك فقد رأى نساء وأطفال ورجال جالسين على الشاطئ وقام بالتجول بينهم - بناء على طلب من الهاغاناه - للتحقق من عدم وجود غرباء بينهم، كما أنه طلب من قائد اللواء أن ينظر في نقلهم من الموقع وعدم السماح ببقائهم فيه خوفاً من قيام قوات الهاغاناه الراغبة في الانتقام بمهاجمتهم. إلا أنه لم يذكر شيئاً عن مذبحة أو ادعاءات عن وقوع مذبحة انظر:

handwritten draft and typed reports by Epstein, probably written respectively in May and late June, Zikhron Ya'akov Archive.

وأخيراً قام محمد البيحي (أحد لاجئي الطنطورة) بنشر كتاب في العام 1998 (في دمشق) عن قريته تحت عنوان «الطنطورة» وصف فيه المعركة وأعطى أسماء قتلى القرية (52 شخصاً) منذ شهر مايو 1948

(انظر صفحات 117-126 و 143-146)، ولم يتضمن الكتاب أي إشارة إلى مذبحه خلال المعركة، ويتضح من ذلك أن هناك فارقاً شاسعاً بين ما تضمنه الكتاب وعشرات بل مئات «الشهود» العرب الذين استمع إليهم كاتز والذين ادعوا وقوع مذبحه.

في غياب دليل وثائقي يثبت العكس، فإن إحصاء اللجنة التي اشتكت لدى وصولها الضفة الغربية في يونيو 1948، فضلاً عن سكوت إبيستين (في شهر مايو ويونيو 1948) وكذلك يحيى، عن ذكر مذبحه واسعة النطاق يجب أن يكون محل دهشة المؤرخ باعتباره أمراً بالغ الشذوذ إذا ما كانت مذبحه قد وقعت بالفعل.

(672) Unsigned, 'Precis of Information for Alexandroni Brigade (11.5.48), No. 8', IDFA 2506\49\80.

(673) Intelligence Officer, mobile garrison battalion, to 'Baruch', 17 May 1948, IDFA 244\51\38.

(674) B Company to OC Mobile Garrison Battalion, 'Report on Al Mazar Operation, 17.5.48', IDFA 5942\49\32.

(675) 'Carmeli Brigade Information No. 5 for 24.5.48', IDFA 128\51\71.

(676) Alexandroni, 'Operational order for Operation Kipa', 3 June 1948, IDFA 922\75\949.

وقد سبق ذلك إصدار عمليات رئاسة أركان الهاغاناه أمراً للواء إسكندروني يتضمن الاستيلاء على وتدمير قاقون (إلى جانب الطيرة وقلنسوة) إلا أن ذلك الأمر لم يتم تنفيذه، انظر:

HGS\Operations to Alexandroni, 12 May 1948, IDFA 922\75\949).

(677) 'Abd al Rahim 'Abd al Madur, 'The Village of Qaqun', 94-95.

(678) Unsigned, 'The course of Operation Kipa', IDFA 922\75\949; and 'Report on Operation Kipa (from the Combat HQ)', undated, IDFA 922\75\949.

- (679) HGS\Operations\1 to Allon, 'Operation Yiftah Order', 25 Apr. 1948, IDFA 67\51\\677.
- (680) Allon to Yadin and Galili, 22 Apr. 1948, KMA-PA 170-44.
- (681) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 29 Apr. 1948, IDFA 922\75\\1066.
- (682) 'Yiftah' to Galili, etc., 29 Apr. 1948, IDFA 128\51\\50.
- (683) 'Oded' to Golani, 20 Apr. 1948, IDFA 128\51\\50.
- (684) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1); and 'HIS Information, Daily Summary', 25 Apr. 1948, IDFA 900\52\\58.
- يذكر أن سكان الكرادين قد عادوا إلى إسرائيل في نهاية الحرب وتم طردهم فقط، على الأرجح إلى سورية، في العام 1956.
- (685) 'Yiftah' to HGS, etc., 2 May 1948, IDFA 128\51\\50.
- (686) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (687) Yiftah to HGS, etc., 2 May 1948, 21:00 hrs., IDFA 128\51\\50.
- (688) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 8 May 1948, IDFA 922\75\\1066.
- (689) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 23 May 1948, IDFA 922\75\\1066.
- (690) Shitrit to Ben-Gurion and Sharett, 13 Aug. 1948, ISA FM 2564\9.
- (691) 'Visit of the Minority Affairs and Police Minister in Kfar Gil'adi 29.7.48', HA 105\260.
- (692) Foreign Ministry, Middle East Dept., 'Clashes on the Lebanese Border', 15 Sept. 1948, and Foreign Ministry,

Middle East Dept., 'Village of Hunin', 21 Sep. 1948, both in ISA FM2564\9; and Ehrlich, Lebanon, 277-83.

(693) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 2 May 1948, IDFA 922\75\\1044; and Yiftah HQ to HGS\Operations 3, 1 May 1948, IDFA 922\75\\1082.

(694) Allon to Galili and Yadin, 22 Apr. 1948, KMA-PA 170-44.

(695) Beineinu, no. 13, 9 May 1948, KMA 2-20\aleph; and Yosef Ulitzky, 'Operation Yiftah for the Liberation of the Galilee', HHA 5.18 (2).

(696) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 4 May 1948, 19:30 hrs., IDFA 922\75\\1066; and Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 4 May 1948, 20:00 hrs., IDFA 922\75\\1082.

(697) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 6 May 1948, IDFA 922\75\\1066.

(698) 'Tzuri (Cochba)' to HIS, 'A Letter Sent by the Priest Boniface . . .', 4 June 1948, HA 105\92.

(699) Broadmead to FO, 4 May 1948, PROFO816\119.

يُذكر أن بعضاً من الزنغرية عادوا لاحقاً وطردها مجدداً، انظر:
unsigned, untitled, undated report, probably by GSS in 1949 or early 1950s, IDFA 1627\94\\231.

(700) Broadmead to Kirkbride, 5 May 1948, PRO FO 816\119.

(701) Book of the Palmah, II, 281.

(702) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(703) في 29/28 مايو أغارت قوات الهاغاناه على القرية مما أسفر عن
فرار مؤقت للسكان على الأقل، انظر:

First Platoon, 'A' Company, to 'A' Company, 29 May 1948, IDFA 128\51\\32.

(704) Book of the Palmah, II, 286. See also Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 15 May 1948, IDFA 922\75\\1066; Beineinu, no. 15, 20 May 1948, KMA-PA 2-20\aleph; and interview with Mula Cohen in 'Al Nakba', a documentary produced and directed by Benny Brunner.

(705) ترجمة عبرية لنشرة بتاريخ 14 مايو 1948 وخطاب مرافق لها، انظر: 'Tzuri (Drori)' to HIS-AD, 16 May 1948, HA 105\54 aleph. See also Alexandroni HQ, 'Bulletin No. 17', 23 May 1948, IDFA 2323\49\\6.

(706) Unsigned, untitled, undated report on Haganah deployment in Galilee in first half of May, KMA-PA 109\gimel 1-4.

(707) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1). Allon's account (Book of the Palmah, II, 286).

ويشير إلى أن حملة الشائعات تم العمل بها فوراً في 15 مايو أو قبل ذلك (وهو ما يذهب إليه أيضاً:

Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 15 May 1948, IDFA 128\51\\50.

في حين أن تقريراً آخر صادر عن الإدارة العربية بجهاز استخبارات الهاغاناه يصنف الهروب نتيجة الحرب النفسية بين 19 و25 مايو، وعلى الأرجح فإن التواريخ المقدمة من هذا المصدر يمكن الاستناد إليها بشكل كبير، إلا أنه من الممكن أن تكون حملة الشائعات أطلقت في الفترة بين 11 و15 مايو.

(708) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(709) 'Daniel', 11th Battalion, 'Report on Zawiya Operation 19.5.48', IDFA 128\51\\32.

(710) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 23 May 1948, IDFA 922\75\\1066.

(711) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.113 (1); and (relating to Qadas) Yiftah HQ to HGS, 15 May 1948, IDFA 922\75\\1066.

- (712) 9th Brigade Logbook, part 3, 14.5.48–31.5.48, entries for 18 and 25 May and 8 June 1948, IDFA1046\70\9; unsigned to 'Tzuri', 'Yiftah' and 'Oded', 25 May 1948, 922\75\1082; and Yiftah HQ, 'Daily Report', 22 May 1948, IDFA 922\75\1082.
- (713) Palmah HQ to HGS, 'Daily Report', 24 May 1948, IDFA 922\75\1066; and HGS\Operations\Intelligence, 'Daily Report on the North-Eastern Front 25 [May], 20:00', IDFA 922\75\1044.
- (714) 'Tzuri (Drori)' to HIS-AD, 21 June 1948, HA 105\127.
- (715) 'Zmiri', 'Report on my Visit to Northern Front', 14 May 1948, IDFA 2384\50\9. The conquest of Acre itself, of course, was the linchpin of the operation (see above).
كان الاستيلاء على عكا نفسها هو الأساس في العملية (انظر ما يلي).
- (716) 'Levanoni' to battalions, 'Report on Events in the Brigade's Area during the Month 11.1.48–13.2.48', IDFA 128\51\71; and Palmah HQ to HGS, 1 Feb. 1948, IDFA 922\75\1066.
- (717) 'Hiram (Amikam)' to HIS-AD, 17 Feb. 1948, HA 105\23 bet.
- (718) Unsigned, 'Conversation with Abu Muhammad (Rabah)', 4 Feb. 1948, CZA S25–4000.
- (719) Carmeli, 'Operation Ehud' ? Apr. 1948, IDFA 5942\49\53.
- (720) 'HIS Information, Daily Summary', 9 May 1948, IDFA 900\52\58; and 'Hiram' to HIS-AD, 'The Strangers, their Location and Strength in the Acre- Nahariya Area', date indecipherable but mid-May 1948, HA 105\127.
- (721) Eshel, Carmeli, 166; Nazzal, Exodus, 52–54; and Carmel, Battles, 120–47.

- (722) Carmeli, 'Operation Ben-Ami', 15 May 1948, IDFA 2687\49\35; and ? to HIS-AD, 'Arab Cables from 16.5', 17 May 1948, HA 105\252.
- (723) Eshel, Carmeli, 167; and Nazzal, Exodus, 55-57.
- (724) Nazzal, Exodus, 58.
725. 'Hiram' to HIS-AD, 19 May 1948, HA 105\92 aleph.
- (726) Eshel, Carmeli, 168-69; Nazzal, Exodus, 47-59; 'Protocol of the Meeting of the Ministerial Committee for Abandoned Property', 31 Dec. 1948, ISA FM 2401\21 aleph; and Nahariya district officer, 'Notes on a Tour of the Village of al Mazra'a', undated, ISA MAM 302\93.
- (727) Carmeli to 'Eitan', etc. 'Operation Ben-'Ami - Stage 2', 19 May 1948, IDFA 6680\49\5.
- (728) Carmeli HQ to HGS\Operations, 20 May 1948, IDFA 6680\49\5.
- (729) Eshel, Carmeli, 173; entry for 22 May 1948, Weitz, Diary, III, 290; and LPA, protocol of meeting of Mapai Bureau, 1 June 1948, statement by M. Yaffe.
- (730) Nazzal, Exodus, 62.
- (731) Al Hamishmar, 30 Jan., and 5 and 6, and 21 Feb. 1950, articles by Yirmiyahu Shmueli.
- (732) Judgements of the High Court of Justice, IX, 692; and Moshe Perlman, letter to the editor, and response by Yirmiyahu Shmueli, Al Hamishmar, 22 Feb. 1950.
- (733) Ayalon, War of Independence, 485.
- (734) 'Na'im' to HIS-AD, 9 Feb. 1948, HA 105\54 aleph.
- (735) HIS, 'Aqir village file, entries for 16 Dec. 1947, 4 and 23 Jan. 1948 and 10 Feb. 1948 and 14 Mar. 1948, HA 105\134.

- (736) Excerpt from unsigned HIS report, 18 Apr. 1948, HA 105\257.
- (737) 'Doron (Naaman)' to HIS-AD, 22 Apr. 1948, HA 105\54 aleph.
- (738) 'Doron' to HIS-AD, 'Operation Helem', 6 May 1948, HA 105\92 aleph; 'Doron (Shevah)' to HIS-AD, 'From the 'Aqir Operations', 9 May 1948, HA 105\92 aleph; and HIS, 'Aqir village file, entry for 6May 1948, HA 105\134.
- (739) 'Doron' to HIS-AD, 'Assessment of Operation Helem', 7 May 1948, HA 105\92 aleph.
- (740) Muhammad Mustafa Mussa, 'Letter of Commitment', 5 May 1948 and 'Doron' to HIS-AD, 'Aqir', 9 May 1948, both in HA 105\54 aleph.
- (741) 52nd Battalion, 'Daily Report from 10:00 hours 4.5 until 10:00 hours 5.5', and 52nd Battalion, 'Daily Report from 10:00 hours 5.5 to 10:00 hours 6.5', both in IDFA 1041\49\12; and Ayalon, War of Independence, 523-24.
- (742) 52nd Battalion, 'Daily Report from 10:00 hours, 6.5 until 10:00, 7.5', IDFA 1041\49\12.
- (743) Protocol of meeting of Mapam's Political Committee, 15 June 1948, HHA 66.90 (1); and statement by Erem at meeting of Mapam defence activists, 26 July 1948, HHA 10.18.
- (744) 'Doron' to HIS, 'The Village of Qatra', 9 May 1948, HA 105\92 aleph; and 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 'The Conquest of Qatra', 12 May 1948, HA 105\92 aleph.
- (745) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP, 10.95.13 (1).
- (746) 'Doron' to HIS, 'Assessment of Operation Helem', 7 May 1948, HA105\92 aleph.

(747) Ayalon, "War of Independence", 526.

ويبدو أن واحدا أو أكثر من أولئك الذين ماتوا في عاقر قد قُتل.

(748) Doron (Shevah) to HIS-AD, 27 Apr. 1948, HA 105\54 aleph; and HIS, 'Arab al Satariyya village file, HA 105\134.

(749) 54th Battalion to Giv'ati HQ, 'Daily Summary for 29.4.48', 30 Apr. 1948, IDFA 1041\49\\18.

(750) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(751) Giv'ati HQ, 'Operation "Barak" - General Instructions', ? May 1948, IDFA 7011\49\\5.

(752) Giv'ati HQ to battalions 51, 52, etc., 10 May 1948, IDFA 7011\49\\5.

(753) 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 'The Beit Daras Operation', 25 Apr. 1948, HA 105\92 aleph; and HIS, Beit Daras village file, HA 105\243.

(754) Giv'ati HQ to HGS\Operations, 11 May 1948, IDFA 922\75\\1017; 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 13 May 1948, HA 105\92 aleph; and entry for 12 May 1948, DBG-YH, I, 411.

(755) 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 'The Beit Daras Operation', 18 May 1948, HA 105\31.

(756) Giv'ati to HGS\Operations, 11 May 1948, IDFA 922\75\\1017.

(757) 'Ephraim' Sub-district to 'Ya'akov', 'Report on Harassment Operation in "Rubin"', 13 May 1948, IDFA 1041\49\\7.

(758) 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 'Batani Sharqi', 13 May 1948, HA 105\92 aleph; and HIS, Batani al Sharqi village file, entries for 12 and 13 May 1948, HA 105\243.

(759) Ayalon, Egyptian Invader, 82. HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1) says '13 May 1948.'

(760) Ayalon, War of Independence, 459-60.

(761) 'Doron' to HIS-AD, 'Tapping Legion Radios', 20 May 1948, and 'Doron (Maoz)' to HIS-AD, 'The Operation in the Village of Abu Shusha', 20 May 1948, both in HA 105\92 aleph.

تشير الرواية الرسمية للواء غيفعاتي بشكل غير قاطع إلى أنه تم إحلال وحدات اللواء مباشرة بعد الاستيلاء على القرية بمليشيات من كيبوتس غيزر، الذين تم إحلالهم كذلك بقوات من لواء كريات، وكان المضمون هو أنه إذا كانت هناك مذبة ارتكبت فإنها لم تكن على أيدي قوات لواء غيفعاتي. انظر:

Ayalon, "War of Independence", 460.

(762) Ramle police station to Red Cross delegation, 21 May 1948, apparently the text of a HIS radio intercept, HA 105\31.

(763) 'Doron (Maoz)' to HIS-AD, 'The Interrogation of Women Prisoners in the Village of Abu Shusha', 24 Jun. 1948, HA 105\92 aleph.

(764) 'Doron (Maoz)' to HIS-AD, 'Weapons and Ammunition from the Village of Abu Shusha, and Prisoners', 21 May 1948, HA 105\92 aleph.

(765) Ayalon, War of Independence, 460.

(766) HIS, Na'na village file, entries for 14 and 17 May 1948, HA 105\134.

(767) Shaul Fogel, 'Report on the Attack on Gezer on 10.6.48', 13 Jun. 1948, IDFA 7011\49\1.

(768) Mahmud al Rifai, Lydda, to 'Ramallah', 16 June 1948, a radio intercept, HA 105\92 aleph.

(769) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 June 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).

(770) Giv'ati, 'The Brigade's Operations', a list, IDFA 922\75\900.

غادر الإسرائيليون الموقع وأعيد احتلاله من قبل العناصر غير النظامية إلى أن استولى عليه لواء يفتاح مرة أخرى في 6/5 يونيو 1948، وأوردت البلماخ أنه «قُتل أربعة عرب بالسكاكين» وألقي القبض على 20 آخرين، انظر:

Palmah HQ, 'Daily Report', 6 June 1948, IDFA 922\75\1215.

(771) 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 'The Conquest of Mughar', 18 May 1948, IDFA 922\75\1025; and Ayalon, Egyptian Invader, 82.

(772) 51st Battalion HQ to 'C' Company, 'Operational Order "Medina"', 17 May 1948, IDFA 170\51\49.

(773) 'Doron' to HIS-AD, 'The Conquest of the Sawafirs', 19 May 1948, HA 105\92 aleph.

(774) HIS, Sawafir al Gharbiyya village file, entry for 23 June 1948, and HIS, Sawafir al Sharqiyya village file, entry for 23 June 1948, both in HA 105\134.

(775) 'Doron (Elitzur)' to HIS-AD, 23 May 1948, HA 105\31.

(776) 'Report on Eavesdropping on Arab Transmissions on 18.5.48', HA 105\92 aleph.

(777) Giv'ati, Desert and Fire, 45-47; and Rami Rosen, 'Col. G. Speaks Out', Haaretz, 16 September 1994.

وقام موشي غيفعاتي بتقديم وصف لمعركة أعقبتها مذبحة، أما بالنسبة إلى روزن فقد أجرى مقابلات مع عدد من قدامى منتسبي الهاغاناه؛ حيث عارضو جميعاً كلمة «مذبحة» في حين أقرّوا بعمليات «قتل»، أو كما ذكر سمحا شيلوني (وهو أحد منتسبيها): «لا أعتقد أنه يمكن وصف ما حدث هناك بأنه «مذبحة»... لكنه كان في حقيقة الأمر تصفية لبعض الذكور البالغين الذين تم القبض عليهم وفي حوزتهم أسلحة».

- (778) 'Ephraim' to Sarig, 'Summary for 14.5.48', IDFA 922\75\\1220; and HGS\Operations Logbook, entry for 14 May 1948, IDFA 922\75\\1176.
- (779) 'Yisrael', 'Report of the Search through Burayr and Sumsum', 2 Jun. 1948, IDFA 2090\50\\10; unsigned, 'Daily Report for 31.5.48', IDFA 922\75\\1220; and HGS Logbook, entry for 1 June 1948, IDFA 922\75\\1176.
- (780) Unsigned, 'Daily Summary - 11.6.48', IDFA 922\75\\1220.
- (781) HIS-AD, 'The Migratory Movement . . .', 30 Jun. 1948, HHA-ACP 10.95.13 (1).
- (782) Palmah HQ, 'Daily Report', 28 May 1948, IDFA 922\75\\1066; Sergei to Palmah HQ, 28 May 1948, KMA-PA 105 - 123; and Kan'ane and Almadani, 'Kaufakha', 42-44.
- (783) Arye Farda, Ya'akov Gavri, and Eliezer Frisch, the headmen of Dorot, Nir-Am and Ruhama, to Ben-Gurion, 4 Aug. 1948, ISA FM 2564\9.
- (784) Palmah HQ, 'Daily Report', 31 May 1948, IDFA 922\75\\1066.
أعيد الاستيلاء على القرية - التي كانت قد وقعت بشكل مؤقت في أيدي الجيش المصري - في 18 أكتوبر 1948، انظر:
IDF GS\Operations Logbook, entry for 18 Oct. 1948, IDFA 922\75\\1176.
- (785) 6th Airborne Division Logbook, entry for 15 Dec. 1947, PRO WO 275-52.
- (786) Palmah HQ, 'Daily Report', 31 May 1948, IDFA 922\75\\1214; 'Oded' to Palmah HQ, 1 Jun. 1948, KMA-PA 105-122; and Farda, Gavri and Frisch to Ben-Gurion, 4 Aug. 1948, ISA FM 2564\9.
يلاحظ أن رؤساء الكيبوتسات الثلاثة اشتكوا من طريقة المعاملة التي حظيت بها قرية هوغ، وقد رد بن غوريون على ذلك بقوله: «آمل

أن تقوم القيادة العامة بإيلاء اهتمام لما ذكرتموه وتتجنب مثل هذه التصرفات غير العادلة وغير المبررة في المستقبل، وأن تقوم بتصحيح تلك الأشياء التي تمت في الماضي بقدر الإمكان»، إلا أن بن غوريون تجنب إصدار إدانة لعملية الطرد كما أنه لم يصدر تعليمات لقوات الدفاع الإسرائيلية بالسماح للقرويين بالعودة أو بحماية ممتلكاتهم. انظر:

Ben-Gurion to headmen of Dorot, Nir-Am and Ruhama, 29 Aug. 1948, DBG Archive, Correspondence.

(787) 'Na'im (Naaman)' to HIS-AD, 'Report on Zarnuqa', 30 Mar. 1948, HA 105\228.

(788) HIS, Zarnuqa village file, entry for 4 Dec. 1947, HA 105\243.

(789) HIS, Zarnuqa village file, entry for 10 May 1948, HA 105\243; and 'Doron (Shevah)' to HIS-AD, 10 May 1948, HA 105\217.

(790) Ayalon, War of Independence, 595-97.

(791) 'S.K.' to the editors, Al Hamishmar, undated but from early June, HHA-ACP 10.95.10 (4).

وقد أوضح المحرر أن الخطاب ليس للنشر وإنما موجه إلى قادة ما بام المعنيين للقيام بعمل شيء ما، فقد كانت الهاغاناه تقوم بتصرفاتها بتحويل العرب الأصدقاء إلى أعداء، انظر كذلك:

Cisling's statement at Cabinet meeting, 20 June 1948, KMA-ACP 9.9.1.

(792) HIS, Zarnuqa village file, entries for 26 and 30 May 1948, HA 105\243; and 'Doron' to HIS-AD, 30 May 1948, HA 105\92 aleph.

(793) 'S.K.' to editors of Al Hamishmar, undated, HHA-ACP 10.95.10 (4); and Cisling statement in Cabinet meeting 20 June 1948, KMA-ACP 9.9.1.

(794) HIS, Yibna village file, entry for 9 Sep. 1947, HA 105\134; and Ayalon, War of Independence, 598.

- (795) HIS, Yibna village file, entries for 15 March and 4 April 1948, HA 105\134; and 'Na'im (Elitzur)' to HIS-AD, 1 Apr. 1948, HA 105\92 aleph.
- (796) 'Doron (Naaman)' to HIS-AD, 3 May 1948, HA 105\217.
- (797) Ayalon, Egyptian Invader, 143.
- (798) Unsigned, 'The Interrogation of Mahmud Ruzi (interrogated on 31.5)', and covering note 'Doron' to HIS-AD, 2 June 1948, HA 105\217.
- (799) Ayalon, Egyptian Invader, 143-47; and 'Testimony of Yosef Zekzer ('Yeshurun'),' JI, IZL, kaf-4, 7\12.
- (800) Unsigned, 'Report on Observations and Information for 5.6.48', IDFA 2323\49\6.
- (801) Giv'ati, 'The Southern Front - Assessment, Conclusions and Proposals', 2 August 1948, IDFA 957\51\16.
- (802) IDF GS\Operations to Giv'ati and Sarig, 9 June 1948, IDFA 957\51\16.
- (803) 'Dror' to Golani HQ, 17 May 1948, IDFA 128\51\50; and Assaf Leshem to author, 22 May 1998.
- (804) Unsigned, 'Report on Search\Patrol Operation in the Villages', undated, IDFA 128\51\32; and IDF GS Operations Logbook, entry for 8 June 1948, IDFA 922\75\1176.
- (805) 'Barak' Intelligence Officer, 'Report on Search\Patrol Operation in the Villages: Ma'dhar, Hadatha, 'Ulam, Sirin', 3 [sic, should be 4?] June 1948, IDFA 128\51\32.
- (806) 'Oved, 'The Evacuation\Eviction from Villages in Ramat Yavniel' Kokhav Hatzafon, 21 Nov. 1997.

كما أن هناك تقريراً آخر بتاريخ 5 يونيو يصف العملية ويتضمن النص على: طرد السكان المتبقين باستخدام الذخيرة الحية، وحرق مخازن الحبوب وتفجير عشرات المنازل... والدفع بالسكان إلى وادي بيره (إلى الجنوب من سيرين)، انظر:

'Barak' to Golani, 5 June 1948, IDFA 128\51\50.

وقد تم إفراغ تلك القرى (مدهر، حداثة، علم، سيرين) من سكانها خلال صيف هذا العام.

(807) 'Barak' Intelligence Officer to Golani Intelligence Officer, 'Report on Search\Patrol [srika] in the Villages: Danna, al Bira, Kafra, Jabbul, Yubla, Murassas', 8 June 1948, IDFA 128\51\32.

(808) IDF GS operations logbook, entry for 8 June 1948, IDFA 922\75\1176.

(809) 'Tzipori' to Golani HQ, 11 Jun. 1948, IDFA 128\51\32.

(810) 'Dror', 'Report on the Lubiya-Sejera Operation', undated, IDFA 665\51\2.

(811) OC 'B' Company, Mobile Battalion ('Naftali'), 'Report on Acre [Area] Operations on Night of 5\6.6.48', IDFA 5942\49\10.

(812) Protocol of meeting of Mapam Centre, 11 May 1948, HHA 68.90 (1).

بيني موريس

- هاجر والداه إلى فلسطين في العام 1947، وولد في 8 ديسمبر 1948.
- عُيِّن والده دبلوماسياً في نيويورك العام 1957، حيث استقر فيها مع عائلته مدة أربع سنوات، ثم قضى فيها سنتين بدءاً من 1963.
- لدى إنهائه المرحلة الثانوية التحق بالجيش لأداء الخدمة العسكرية وانضم إلى وحدة المظليين، وأنهى تجنيده قبل بدء حرب العام 1967 بقليل، وأُرسلت وحدته إلى الجولان لكنها لم تشارك في عمليات القتال.
- درس التاريخ في الجامعة العبرية في القدس وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة كمبريدج في العلاقات البريطانية - الألمانية.
- عند عودته إلى القدس، عمل لمدة اثني عشر عاماً بجريدة «جيزاليم بوست».
- بعد عدة أبحاث، أصدر أول مؤلفاته عن نشوء مشكلة اللاجئين الذي نشرته جامعة «كمبريدج» العام 1988، وحظي بعده بشهرة كبيرة.
- في العام 1988 زاد صيته لرفضه الالتحاق بالقوات الاحتياطية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فسجن ثلاثة أسابيع وأصبح الرفض الإسرائيلي (روفزنيك) رقم 39، وكان قد شارك قبل ذلك «مرغماً» في حرب لبنان (1982)، ومع الجيش الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية عام 1986 قبل بدء الانتفاضة الأولى.
- لدى خروجه من السجن أطلق مصطلح «المؤرخون الجدد» على المؤرخين الذين أعادوا كتابة التاريخ الإسرائيلي.
- عمل أستاذاً في قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة «بن غوريون» بالنقب.
- درّس عام 2005 في جامعة «ميريلاند» في الولايات المتحدة.

أ. د. عماد عواد

- دبلوماسي سابق في وزارة الخارجية المصرية.
- موظف دولي سابق بمنظمة الوحدة الأفريقية (الإدارة السياسية وحدتي تسوية المنازعات واللجئين).
- مستشار حقوق الإنسان لرئيس مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية (لندن).
- حاصل على الدكتوراه من جامعة «باريس 2» بفرنسا، في العام 1990، حول موضوع «التسوية السلمية للصراع العربي - الإسرائيلي» بتقدير امتياز.
- حاصل على درجة أهلية الإشراف على الأبحاث العلمية (أستاذ) من الجامعة نفسها العام 1994.
- نشر العديد من المقالات في صحف ودوريات عربية وأجنبية من أبرزها مجلة الدفاع الوطني الفرنسية منذ العام 1985.
- نشر عددا من الكتب بلغات مختلفة أبرزها: «أي عملية سلام في الشرق الأوسط؟ دراسة في المقترب الإسرائيلي» (باللغة الفرنسية، باريس، 1988)، «الخطوط الحمراء: مفهوم السلام الإسرائيلي» (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2000)، «الشرق الأوسط وتحديات النظام الدولي الجديد» (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2004)، «المواطنة والأمن»، القاهرة، 2009.
- أستاذ منتدب للعلوم السياسية بكل من جامعة القاهرة، وجامعة المستقبل، والجامعة البريطانية (جمهورية مصر العربية).

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978 .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار .

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبلات .

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية .

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر . وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته . وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة

هذا الكتاب...

أثار هذا الكتاب، وقت صدوره، ضجة كبيرة داخل إسرائيل، لما تضمنه من حقائق صدمت الكثيرين، في إطار كتابات «المؤرخين الجدد» الذين قدموا روايات تختلف - بشكل جوهري - عما دأب المؤرخون والساسة اليهود على ترديده. تتضمن هذه النسخة المنقحة للكتاب العديد من العناصر من أبرزها وأهمها تتبُّعها جذور فكرة التهجير القسري للفلسطينيين، من مدنهم وقراهم، في الأيديولوجية الصهيونية؛ وما توصلت إليه من نتيجة مفادها أنه على الرغم من عدم وجود خطة مُمنهجة لتحقيق هذا الهدف فإن الفكرة كانت حاضرة في أذهان القيادتين السياسية والعسكرية على السواء، ويؤكد ذلك بقاء المسؤولين من التشكيلات اليهودية العسكرية المتعددة الذين أقدموا على ارتكاب فظائع بحق الفلسطينيين بعيدا عن طائلة العقاب الرادع، مما عكس درجة من درجات الموافقة الضمنية على ما اقترُف بهدف الوصول إلى تحقيق هدف «الدولة اليهودية» أو الدولة الإسرائيلية التي تتضمن أقل عدد من العرب الفلسطينيين. فضلا عن ذلك يكشف الكتاب - من خلال الوثائق - عن كيفية تعاطي كل من القيادتين، السياسية والعسكرية، اليهوديتين مع ظاهرة النزوح الجماعي الفلسطيني، سواء من خلال تشجيعها أو السعي إلى التعجيل بحدوثها، باستخدام وسائل الضغط النفسي على المناطق المقرر اجتياحها.

على الرغم من صفة التأريخ التي تغلب عليه، يُعتبر هذا الكتاب مرجعا على درجة عالية من الأهمية، ليس للقارئ العادي فقط ولكن للساسة أيضا، من حيث تناوله هذا الملف الشائك؛ انطلاقا من وثائق يهودية رُفع غطاء السرية عنها، وسعيه إلى تبديد الغموض الذي أحاط به، سواء فيما يتعلق بنشأة المشكلة، أو الخلاف حول أعداد اللاجئين الفلسطينيين، أو محاولات استثمار المقترحات الأولية لتسوية قضيتهم لتحقيق مكاسب سياسية، ولعل في هذا ما يساعد الطرف العربي على دعم موقفه التفاوضي بالحجج القوية اليهودية المصدر، فضلا عن تجنب الوقوع في شرك تسويات قد تهدر حقوقه، وتقتصر على خدمة أهداف الطرف الآخر في الصراع.

نم احاطه السرفع بواسطه

مكتبة عمكر

ask2pdf.blogspot.com